AL-ITHNAINYA
الاثنينية
منتدى أدبي ثقافي أسس بجدة عام ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م

الأعمال الكاملة

للأديب الدكتور

عاصم حمدان علي

الجزء الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب الاثنينية

(٢٨)

الأعمال الكاملة

للأديب الدّكتور

عاصِم حمدان علي

الجزء الرابع

الناشر

عبد المقصود محمّد سعيد خوجه

جدّة

ح عبدالمقصود خوجه ، ١٤٢٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

علي ، عاصم حمدان

الأعمال الكاملة للأديب الدكتور / عاصم حمدان علي / عاصم حمدان علي .- جدة ، ١٤٢٦هـ

٤ مج ٢٦٤٤ ص (الجزء الرابع ٦٣٦ ص) ؛ ١٧×٢٤سم (كتاب الأثنينية ٢٨)

ردمك ٨-٢١٠-٤٧-٩٩٦٠ (مجموعة)
٠-٢١٤-٤٧-٩٩٦٠ (ج ٤)

١ - علي ، عاصم حمدان - المؤلفات الكاملة أ- العنوان .

ديوي ٨١٠,٨ ١٤٢٦/١١٤

رقم الإيداع : ١٤٢٦/١١٤

ردمك ٨-٢١٠-٤٧-٩٩٦٠ (مجموعة)
٠-٢١٤-٤٧-٩٩٦٠ (ج ٤)

الطبعة الأولى

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

صدرت هذه الأعمال بمناسبة "مكة المكرمة" عاصمة الثقافة الإسلامية

حقوق الطبع محفوظة

الناشر

عبد المقصود محمد سعيد خوجه

جدة

فهرس المحتويات

النثر ....
المقالات الصحفية ....
تاريخ مشرق وحياة مباركة ١٣٢٨ ـ ١٤١٥هـ ....
الحالة الفكرية في البلاد العربية في القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي ....
تيار الحداثة بين نقد عبد الله عبد الجبار وتنظير فائز أبا (١) ....
الرَّازحي. . . هرطقة فكرية أم قصور في الوعي !.........................
(مدني والطَّيب ويوم الُحبِّ والوَفَاء) ....
لماذا تعثر الفكر العربي وانتصر نظيره اليهودي؟ ....
ما بال أقوام يسعون لانتهاك حرمات الآخرين؟ ....
وقفة وحوار مع النقيدان ....
النقيدان وحرية الكلمة في الغرب !!...
(نادي المدينة الأدبي بين العقيق والآطام) ....
أهمية الحفاظ على التاريخ والأثر في مأرز الإيمان ....
إدوارد سعيد بين عداء لويس وتنظيرات القشطيني ....
كيف نعذر من شجعوا على ثقافة التشدد وانحازوا للرأي الواحد؟ ....

الطيب في علاقات حرجة وانعكاسات المشهد الحضاري والفكري ....
عبد الله عبد الجبار. . في الشامية سمعتُ عنه وفي لندن وجدتُ أثره ....
أشواق الروح إلى رفيق الدرب «عبد المحسن حليت» ....
الإبداع الشعري بين الراوية والمنشد ....
وعاد الفتى إلى خيمته بعد طول انتظار !!.......................................
عبيد وأمين مدني ويوم الحب والوفاء ....
متى يصبح أدونيس وطنياً ويتجاوز درويش محنة الازدواجية؟ ....
علاقة العرب مع الشعوب الإسلامية في ظل المتغيرات الفكرية ....
رحلة الشَّوق بين العنبريّة والحَارةِ ....
مسار الدراسات العربية في بريطانيا بين ماكدونالد ومصطفى بدوي ....
هل في الغرب حقاً حرية صحافة وفكر. .
جارودي وإبراهيم نافع نموذجاً ....
الكونغرس الأمريكي وراية الظلم والطغيان ....
رسالة محبة وسلام للسفير الأمريكي ....
التعددية الفكرية ودورها في البناء الحضاري !.................................
عبد الرحمن رفّـة وتاريخ ريادي متميز ....
الحضارة ليست مادونا أو جاكسون !!...
حسن عبد الحي قزاز. . الصوت الأقوى والأجمل ....
مفكرو الغرب والقيم الإسلامية الخالدة ....
بالحوار وليس بسواه تبلغ الأمة وحدتها واجتماع كلمتها ....
البعد الحضاري في تفسير بعض السلوكيات الغربية ....

دعوهم في حياتهم آمنين وفي قبورهم مطمئنين ....

لماذا أخفق الإعلام العربي ونجح المتهم؟؟ ....

السلوكيات الحضارية بين رؤيتين ....

طرح القضايا برؤية وطنية ووعي صادق ....

مذهب أهل السنة والجماعة ووسطيته ....

يوميات طفلة فلسطينية ....

تاريخ المدينة الفكري والحضاري وآثارها الشرعية ....

لماذا خذلت الكنائس الغربية مسيحيي فلسطين؟ ....

حوار الذات أم الحوار مع الآخر؟ ....

تاريخ مجيد ويوم أغر ....

رثاء إنسان. . . حسين خاشقجي ....

إلى زياد الدريس. . . وللبيت رب يحميه ....

أعراس في ليل الحزن الطويل ....

الخبير الإسرائيلي فانون وغيابه عن الذاكرة العربية ....

كيف حافظ الإسلام على تراث الآخرين وآثارهم؟؟ ....

ساحة بقلب ورفقاء بمشاعر !!..........................

ترشيد الخطاب الديني من فوق المنابر !..........................

ويحلو للناس أن يصدقوا القوي ـ خصوصاً ـ إذا ما كانوا ضعفاء ....

خطابُنا الديني بين التشدد والتسامح ....

العامل الخفي في الدعم الغربي لليهود ....

الفكر الغَربي يُقدِّس القُوَّة ويُبارِكُ الإرهَابَ اليهودي ....

اضْرِبُوهم في جُيُوبهم فإنَّهم سَوْفَ يَفيقُون !!.......................................
عندما يكون الغربي أكثر صهيونية من اليهودي ....
رسالة إلى الكاتب إدوارد ووكر ....
كيف تسود لغة الحب. . . ..
مصطفى بدوي وستانلي هايمن والكشف عن أبعاد تجربة ت.س. إليوت ....
قراءة حضارية وفكرية من خلال تقرير بيرل ....
عندما نعيش على الوهم أو نقتات الكراهية ....
الجهل بالآخر. . . وقصور خطابنا الإعلامي ....
سيرة إنسان. . . وبلد الإيمان د. أحمد عيسى فلاتة ....
تيار الحداثة بين نقد عبد الله عبد الجبار وتنظير فايز أبا (٣) ....
أبو تراب وشيء من تراث عالم وأديب ....
غياب سيد وفقدان حكيم ....
الصلة غير المرئية بين المبدع والسياق الحضاري ....
مناهج المؤسسات الدينية بين د. البشري وجمال الغيطاني ....
مؤسسة الفرقان والإثنينيّة ودور في الحياة الثقافية والفكرية ....
وماذا عن حوار الأشقاء والأقارب؟ !...
الفِكْر السَّلفي ومنطلقاته الدِّينية الصحيحة والمعتدلة ....
الحرب التي أعادت حرية الكلمة للمربع الأول !...............................
الوزير الذي خذله القطار فأنقذته الدراجة !....................................
هل هذه هي نهاية الغُلوّ أم البداية في القضاء عليه؟؟ ....
الملف الأخلاقي في سياق الانتخابات الأمريكية ....

دعونا من بدوي وحضري وقبيلي وخضيري ومبتدع ومتبع ....
ليس دفاعاً عن نزار. . . ولكن !!...
النموذج الأمريكي وكتابة المذكرات الشخصية ....
برنامج بانوراما من المتهم إلى الضّحية !...
المدينة المنورة في كتابات المؤرخين الإسلاميين ....
عُلَمَاءُ مِن الحَرَمِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ ....
رائدٌ قتلَهُ تَواضُعُهُ ....
بَيْنَ الأَدَبَيْنِ العَرَبِيِّ والإِنْجلِيزِيِّ ....
في ذكرى استشهاد المفكر الإسلامي إسماعيل الفاروقي ....
في مدرسة العلوم الشرعية بالمدينة ....
دروب الهوى في الشعر بين الخوجة والقصيبي ....
نجيب محفوظ والالتزام الفكري ....
الشيخ جعفر بن إبراهيم فقيه ....
النقيدان. . . وتزوير حقائق التاريخ ....
النقيدان وحرية الكلمة في الغرب !!..
وقفة وحوار مع النقيدان ....
«السيَّد الفقي وشموخٌ بين الحُسين والجيزة» ....
النَّقد. . المأزقُ والطَّريقُ ....
الهولوكوست قضيةٌ سياسيةٌ أمْ عقيدةٌ دينيّةٌ ....
«سَيِّدُ الكلمة المُرْتجلة. . محمد حُسين زيْدان»....................................
«الدوافع الدينية والسياسية خلف وعد بلفور» ....

كُتَّابٌ أنْشَدُوا للتَّميز وآخرون للنِّيل !...
أدبياتُ الحِوَار وفَصَاحةُ النُّخبة ....
الغربُ بين البراءة والمصلحة في جَمْع المعلومات ....
ما أغنى الأمَّة عن هذا التشدد وتلك القسوة ....
دور المرأة في المسيرة التعليمية بالمدينة المنورة ....
كيف غطى اليهود الحقائق إعلامياً وفكرياً؟ !................................
وَمَضَاتُ عن أَدَبِ السِّيرة الذَّاتية ....
مفكرو الغرب بين التمسك بالمعتقد والرؤية الحضارية للإسلام ....
القضية الفلسطينية والإعلام الغربي ....
خالد سعود الزَّيْد. .بين إبداع الفكر وتهذيب النفس ....
عبد العزيز قاسم. .وتراجيديا الصحافة ....
الصلة بين التبشير الديني والفكر الغربي المعاصر ....
الأوروبيون والخصوصية الثقافية ....
عزيز ضياء وليلة الوفاء ....
رثاء الراحل الأستاذ عبد الستار بخاري ....
العفيف الأخضر. . خيانة للعروبة وعداء للإسلام ....
توني بين وخلط إعلامي ....
توينبي وجارودي ودور الإسلام في حوار الحضارات ....
تناقضات مشروع محمد أركون الفكري ....
العالم الموسوعي أحمد عبد الغفور عطار ....
بالحوار وليس بسواه تبلغ الأمة وحدتها واجتماع كلمتها ....

تعالوا يا رفاق الدرب إلى كلمة سواء ....
العروبة أصلنا والإسلام ديننا ....
ملحق التراث والتيارات الفكرية المعاصرة ....
رثاء إنسان «عبد الباسط عثمان» ....
رجل العلم والفضل محمد بن حسن فدعق ....
ينابيعه. . شخوص وحارات مضيئة بالصفاء الروحي ....
المشروعات الفكرية والثقافية ....
النقد في وسطنا الأدبي متأثر بمزاجية التعصب ....
أبو الحسن الندوي بين وسطية الفكر ولغة الوجدان ....
شجون بين السَّاحةِ وباب السلام ....
مجلس المندوبين والنفوذ اليهودي في بريطانيا ....
كريستوفر مايهو والدفاع عن الحق العربي ....
مثقفون عرب يتخاذلون وغربيون يشمخون ....
وعد بلفور: الدوافع والخطوات ....
سقيفة حوش عميرة ....
ناجي الأنصاري وحكاية مدينة ....
الفرنسيون يتسابقون نحو اللغة الفصحى ....
الكُتَّاب الغربيون. . . والموقف من المفاهيم الدينية ....
فيلسوف الكلمة وشاعر الروح خالد بن سعود الزيد ....
المسؤولية الأخلاقية للإنجليز عن مأساة الفلسطينيين ....
دَوْرُ الكُوَيْتِ في نَشْر الثَّقافَةِ العَربيَّة والإسلاميَّة في الجامعات البريطانيّة ....

عنوان الكتاب: أمريكا: سري للغاية ....
عبد الرزاق سلطان بين «ويليام ستريت» و«عالية مكة» ....
«تسليمة نسرين وحقيقة حرية الكلمة ....
سلمان رشدي. . . ليس وحده الذي سقط ....
مذبحة التراث بين جورج طرابيشي وهاشم صالح ....
جابر عصفور بين هوس التجريب وعداء الدين ....
ومات الشاب النبيل في رثاء الأستاذ نبيل عبد الرؤوف حفظي ....
رثاء إنسان. . . السيد علي بن حسين عامر ....
رائد التراث وعالم اللغة د. محمد يعقوب تركستاني وبقايا من ذكريات
العقود الثلاثة ....
«منصور الحازمي بين أبو حديد والدّحْلة» ....
الاستشراق ....
دليل المسلم في الاعتقاد والعبادات ....
سفر الخروج وأثره في الفكر الغربي المعاصر ....
التنبيهات في إثبات الاحتجاج إلى البعثة والحشر ....
من تاريخ الحركة الفكرية بالمدينة المنورة ....
الموسوعة الأدبية لأدباء المملكة العربية السعودية ....
الموقف الذي يعري ضعف الكلمة ....
الحالة الفكرية في الحجاز خلال القرن الثاني عشر الهجري ....
الحالة الفكرية في الحجاز خلال القرن الثاني عشر الهجري ....
الحالة الفكرية في الحجاز في القرن الثاني عشر الهجري ....

النثـــر

المقالات الصحفية

تاريخ مشرق وحياة مباركة ١٣٢٨ ـ ١٤١٥هـ(*)

لا يمكن أن يكتب تاريخ البلدة الطيبة المدينة المنورة في العصر الحديث إلا ويكون فيه لفضيلة الشيخ عبد العزيز بن صالح ـ يرحمه الله ـ ذلك الموقع الهام والمستمد من شخصيته الهامة والتي اجتمعت لها مقوّمات عدة فهي وإن كانت شخصية مهيبة إلا أنها ذات جوانب إنسانية تتبدى وتظهر في المواقف الصعبة، وهي المواقف التي تكشف حقيقة ما تنطوي عليه شخصيات العلماء الربانيين من رحمة وسماحة ورفق ولين، فلقد كان ـ رحمه الله ـ إذا ما خَرَجَ من داره والتي كانت تقوم في الجهة الجنوبية من المسجد النبوي الشريف وَوَجَدَ أبناء الحي يلعبون أمام داره ابتسمَ في وجوههم وداعبهم وسألهم عن أهليهم وذويهم.

مجلس علم

لم نكن نشعر ونحن في زمن الطَّلعة والشباب بأي حرج مِنْ دخول الدَّار والصعود إلى المجلس الذي يقوم في الدَّوْر العلويِّ حيث كان زميل الدِّراسة الدكتور محمد بن صالح وأخوته يستقبلون أصْدقَاءهم، وكان مما يلفت الانتباه في الدَّار العامرة تلك اللَّوحات التي تحضُّ داخل الدَّار عَلَى الصلاة على النبي ﷺ، وكُنَّا نتحدَّث في شؤون فكرية وأدبية وأتذكر أنَّ

(*) مجلة أهلاً وسهلاً، عدد مارس ٢٠٠٤م.

أخي محمد أهْداني مجموعة للكاتب والأديب مصطفى صادق الرَّافعي وخصوصاً كتابه المعروف «وحْي القَلَم» فكانت جلساتنا في أعْلى الدَّار تتناول جميع ما يتصل بشؤون الفكر والأدب بينما يكون مجلسه رحمه الله مُنْعقداً في أسفل الدَّار مع جملة من العلماء ويأتي في مقدمتهم والدنا فضيلة الشيخ عبد الله بن عثمان الصالح والد معالي الدكتور ناصر الصَّالح مدير جامعة أُمِّ القُرى، والمشائخ، عطية سالم، محمد الحافظ، عبد الله بن زاحم، محمد حُميدة، محمد الثَّاني وغيرهم، وكان مجلسه في رمضان يزدان أيضاً برجال الفكر والأدب والذين يقدمون لزيارة البلدة الطَّاهرة فلقد كان الأساتذة علي وعثمان حافظ، وعبد القدوس الأَنْصاري وأحمد عبد الغفور عَطَّار يَحْرصون عَلَى زيارته والجلوس إليه وكان الشيخ ـ رحمه الله ـ يهتمُّ بما يطرح في السَّاحة مِنْ أفْكار، فلقد طُرِح في التّسعينيات الهجرية وعَلَى صفحات مُلْحق التراث والذي كان يشرف عليه زميلنا الدكتور محمد يعقوب تركستاني ـ طُرِحَ آنذاك موضوع الرَّسم العثماني للمصحف الشريف وكان مِمَّن شارَك في هذه القضيَّة المشايخ عبد الله خياط، وأحمد جمال، وعبد الفتاح شلبي، والسيد المنتصر الكتَّاني وغيرهم وكانت البداية مقالة للأستاذ عثمان حافظ يدعو فيه لاحتذاء الرَّسْم الإملائي الحديث في كتابة المصحف الشريف، فرددت عليه ورأيت أنَّ القواعد المتصلة بالكتابة الإملائية يمكن أنْ تتبدل ويدخلها التغيّير فلا نضطَّرُ في كل حقبة إلى تغيير الرَّسْم الإملائي ليتناسب مع ما يطرأ على لغة الكتابة مِنْ تغيير وتبديل إضافة إلى الصِّلة القائمة بين هذا الرَّسم وقواعد القراءات القرآنية المَشْهورة، وكُنْتُ أُريد معرفة رأيه ـ رحمه الله ـ في هذه القضية العلمية فأخذته حِدَّة وظنَّ أنني أميلُ إلى تغيير الرَّسْم، وكان أخي الدكتور عبد الرحمن الصالح يقف بجانبي على مدخل الدّار فَلُذْتُ بالصَّمت وذهبتُ إلى المسجد الشريف، أبلغتُ أستاذنا محمد حميدة ـ بما حدَث ـ وكان ـ أمدَّ

الله في عُمره ـ مِنْ أقرب الناس إليه، فذهَبَ إليه وأخبره بموقفي من القضية وأنه لا يخرج عَن الإجماع بَلْ يؤيده.

فطلب ـ رحمه الله ـ مِنْ الأستاذ حُميدة بأنْ أزوره في مَجْلسه فدخلتُ بعد صلاة العَصْر ـ مباشرة ـ وكان مجلسه مُكْتظًّا بأهْل العِلْم والفضل، وعندما دخلتُ قَامَ رحمه الله مِنْ مَجْلسِه وسلَّم عليَّ بحرارة وحياني بكلمات ما زلت أجد صَدَاها في نَفْسي كانت مِنْ الكلمات التي دفعتني لطلب المزيد مِن العلْم وكشفتْ لي في الوقت نفسه عَنْ عظمة هذه الشخصية، ولقد سمعته ـ يومها ـ يتحدَّث عن خطوط الطُّول والعرض وقضايا علمية أخرى تدخُلُ في عِلْمي الجغرافيا والفلك، وهو ما يؤكد على السِّمةِ الموسوعيَّـة التي كانت تطبع جوانب هذه الشخصية التي اجتمع على حبَّها أهْل الجوار الطَّاهر وغيرهم في جميع أنحاء العالم العربي والإسلامي، ولقد ذهب ـ رحمه الله ـ في التِّسعينات الهجرية إلى خارج المملكة لزيارة بعض الدول الإفريقية فكانت الجموع تَخْرُج في الشوارع لرؤية هذا الرّجل الذي يؤم الناس في أطهر البقاع وأحبِّها إلى الله، وكان الشيخ ـ رحمه الله ـ يأخذ الناس بالرِّفق إذا ما رأى منهم خطأً وأزعم أنني صلّيتُ وراءه لأكثر مِنْ ثلاثين عاماً فلم أسمع منه ما يتعرَّض للناس، وفي ذلك دَرْس لصغار طلاب العِلْم، حيث حثت مقاصد الشريعة الإسلامية على حُسن الظّن بعقائد المسلمين وعدم التسرع في إطلاق الأحكام، ولقد استشرف ـ رحمه الله ـ الأحداث التي نتجت عَنْ التشدّد ـ أخيراً ـ وعرَّضَتْ أَمْنَ البلاد للخطر واستباحَتْ دماء الشيوخ والأطفال والنساء، فلقد خطب ـ رحمه الله ـ قبل أقل مِنْ عقدين من الزّمن خُطبةً قويَّة ومؤثرة تحدَّث فيها عَنْ تنطع بعض الشباب واهتمامهم فقط ببعض المسائل الظاهرية تَاركين ما هو أهم وأجْدَى وأنفع للأمة والمجتمع.

يحتفي بحفظة القرآن

كان الشيخ ابن صالح ـ رحمه الله ـ يحتفي بحفظة كتاب الله وفي مقدمتهم شيخه المرحوم حسن الشاعر ويزوره في دارِهِ، كما كان عطوفاً على الشيخ الشريف العلمي الذي كان الوحيد مِنْ بين الحفظة مِمَّن يعرف كيفية تَنْبيه الشيخ وهو يصلّي بالناس في المحراب إذا ما حَدَث منه سَهْوٌ، وكان يقدِّمُه لأداء صلاة الوتر في شهر رمضان ثم أسند الأمر ـ بعد تقدم الشيخ العلمي في السِّن ـ إلى الشيخ محمد الثاني ـ أمدَّ الله في عمره ـ وحدث ذات مرَّة أنْ سَهَا في صلاة الصُّبْح وكان المؤذن والحافظ لكتاب الله الشيخ عبد الستَّار بخاري هو مِنْ يقوم بالتكبير خَلْفه، عند أداء تلك الفريضة ـ فردَّ عليه مِنْ خلال مكبِّر الصَّوْت، وبعد الصَّلاة استدعاه الشيخ ابن صالح ولم يُعنِّفه أوْ يَقْسُ عليه مُطلقاً ـ ولكن ذكَّرهُ بأن التنبيه مِنْ خلال مُكبِّر الصَّوْت يحدث تشويشاً وقد حدَّثني بهذا الأمر المؤذّن والحافظة عبد الستار بخاري ـ نفسه ـ وكان هو ورفيقه حسين بخاري مِنْ أشهر مؤذني الحرم النبوي الشريف، واستمر في أداء الأذان مِنْ حقبة الإشراف إلى وقت متأخر مِنْ العهد السعودي الزَّاهر، فلقد اعتزل حسين بخاري الحياة بعد منتصف الثمانينيات الهجرية بينما استمر الأستاذ عبد الستار في أداء الأذان إلى ما بعد منتصف التسعينات الهجرية، وكان الشيخ ابن صالح عطوفاً على مؤذّني المسجد ومشجِّعاً لأبنائهم على الاستمْرار في أداء هذه المهنة الشَّريفة، فلقد أخبرني طلعت ديولي بأنه ذهب مرَّة إلى المحكمة في شهادة يُدْلي بها، فلما رأى اسمه سأل هل هو ابْن المُؤذِّن المعروف ـ أبو السُّعود ديولي ـ فلما تأكد مِنْ ذلك قال لابنه لماذا لا تتقدَّم للأذان في المسجد النبوي الشريف.

ولقد كان يخْتار للإمامة في المسجد النبوي الشريف مِمَّن تتوافر فيهم

الكفاءة، وأتذكر أنه في مطلع التسعينيات الهجرية وعندما غادر فضيلة الشيخ عبد المجيد حسين إلى الرِّياض، وكان الشيخ عبد الله زاحم ـ رحمه الله ـ في بداية عهده بالإمامة في المسجد، أنه كان ـ رحمه الله ـ أي الشيخ ابن صالح يقوم بإمامة الناس في معظم الأوقات إضافة إلى أداء صلاتي التراويح والتهجّد، وهو أمر لا يقوى عليه إلاَّ أصحاب الهمم العالية وكان الشيخ ابن صالح صاحب همَّة عالية وجَلَد كبير.

وكان ـ رحمه الله ـ يتثبَّتُ في الأحكام الشَّرعية ولا يتعجَّل في إصْدارها، ولئن كانت الناس تهابَهُ إلاّ أنها في الوقت نفسه كانت تجلّه وتحبّه فلقد كان الناس لا يخشون حَيفاً، ولا يتوقَّعون ظُلْماً إذا ما كان الشيخ ابن صالح هو القاضي أو المُصْلِح ولقد كان ـ رحمه الله ـ يميل إلى إصلاح ذات البَيْن في كثيرٍ مِنْ الأمُور، كما كان ـ رحمه الله ـ يَسْتُرُ القبيحَ مِنْ أفعال الناس ولا يبرزه لأحد، ولقد كان حُبُّ المدينة آخذاً بمجامع قَلْبه وقد أخبرني ابنه الزميل ـ محمد ـ بأنّه كان إذا ذهب لقضاء الإجازة في أشهر الصيف في أبْها أخذه الحنين إلى طيبة وساكنها عليه صلاة الله وسلامه فيعود سريعاً، ولقد ودعته المدينة بأكملها عندما انتقل إلى رحمة الله، وبكته النِّساء في خدورهن وترحَّم عليه مَنْ كانوا أطفالاً بالأمْس مِنْ أهْل الجوار الكريم فأصبحُوا رِجَالاً، فلقد ظلَّ لمدة تزيد على أربعين عاماً يصلِّي بالناس ويؤمهم وينصحهم ويعظهم دُونَ أنْ يَجْرح نفْساً أو يؤذِي مَشاعِر، أوْ يَقْسُو ويَجْفُو، فلقد كان مِنْ القلَّة التي تجمع بين تطْبيق أحكام شرْع الله وإنزالها في مواقعها وبحسب ما تقتضيه الواقعة أو الحادثة، ولقد كان رحيماً بأهل بَيته وصُولاً لِرحمِهِ مُحباً لأهْل الجوار ومقدِّراً لأهل العِلْم والفضل منهم، رحمك الله يا أبا محمد وأسكنك فسيح جَنَّاته وجَعَل الخير والبركة في أُسرتك الطيبة في البلدة الطّيبة.

الحالة الفكرية في البلاد العربية
في القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي

مدخل

بعض المؤرخين يربط بين الضعف الذي اتسمت به الحياة الفكرية في العهد العثماني، وذلك الضعف الذي أصاب النظام السياسي للدولة العثمانية.

وكمثال على ذلك فإننا نجد «كارل بروكلمان» يفسر هذه الناحية قائلاً: «الضعف الذي اعترى السلطة كان متوازياً مع ذلك التدني في الحياة الفكرية، فلم تكن شخصيات السلاطين العثمانيين، أو وزرائهم تظهر ميلاً أو رغبة تجاه النواحي الأدبية[١]».

وتجنباً للتعميم، فإننا سوف نقوم بقراءة سريعة للحياة الفكرية في الأقاليم العربية، التي كانت تشكل جزءاً هامًّا من الإمبراطورية الإسلامية العثمانية، ونشير إلى أثرها في التهيئة للحركات الإصلاحية والنهضة الفكرية التالية.

---

(١) Burchel Mann, History of the People, TV, J,car Michael, M, Perlmen cnew, York - 19,4,7 p.342.

تكاد تكون الحياة الفكرية في مصر مقتصرة على ذلك النشاط الذي كانت تقوم به مؤسسة الأزهر التعليمية التي كانت تمثل مركزاً علمياً هاماً في البيئة المصرية، إلا أن هذه المؤسسة لم تكن في فترة الحكم العثماني ـ من وجهة نظر بعض الباحثين ـ مؤسسة خصبة أو عميقة في أبعادها العلمية[١].

على أن ذلك لا يعني أنها كانت عديمة الفائدة، فلقد استطاعت أن تمد الحياة الفكرية ببعض الروافد الجيدة.

الحالة الفكرية في البلاد العربية في القرن الثاني عشر الهجري

الدكتور أسامة العانوتي في دراسته عن الحركة الأدبية في بلاد الشام ـ خلال القرن الثامن عشر الميلادي ـ يرى أن ظاهرات الثقافة في العراق وسوريا لا تقدر بدواً ونشاطاً عما هي عليه في مصر.

وإنه لخطأ كبير أن يظن أن الأزهر في القاهرة كان المؤسسة الوحيدة من نوعها، إنه ـ بدون شك ـ أهم تلك المؤسسات: لأنه كان أغناها في بلاد العرب.

أما مراكز التعليم في بلاد الشام فكانت: حلب، ودمشق، والقدس، ونابلس، كما وجدت مدارس في الرملة، وحمص، وغزة، وصيدا، وحماة، وعكا، وطرابلس، وبعلبك، ثم إن المدارس كانت في مساجد كل مدينة[٢].

---

(١) محمود الشرقاوي. مصر في القرن الثامن عشر، ط٢٢، ١٩٥٧، ص ٤٨.

(٢) الدكتور أسامة عانوتي: الحركة الأدبية في بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر، بيروت، ١٩٧١، ص٢٧.

أما الأستاذ عباس العزاوي في دراسته عن التاريخ الأدبي للعراق فيعتقد أن الأدب ابتعد عن منتصف القرن العاشر حتى منتصف القرن الثاني عشر الهجري إلا أنه ـ مع ذلك ـ ظل صوتاً مسموعاً للشعر، ومع حلول النصف الثاني من القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، بدأت الدولة العثمانية توجه شيئاً من العناية للنواحي التعليمية، بافتتاح عدد من المدارس في العراق، وحاولت أن تترك ـ في الوقت نفسه ـ شؤون مناهجها للسلطات الداخلية، وبهذا سلمت لهذه المؤسسات استقلاليتها، مما ساعد على تقوية المستوى العام للغة العربية، التي كانت تشهد شيئاً من التزاحم بين اللغتين: التركية والفارسية.

ولا شك أن النشاط اللغوي الجديد صاحبه تحسن في المستوى الشعري، الذي استفاد ـ أيضاً ـ من تشجيع بعض الشخصيات السياسية لذلك العصر، ويعود العزاوي للقول بأن الاستقرار السياسي الذي شهده العصر كانت له نتائجه الإيجابية في الإبداعات الفكرية والأدبية، والمتمثلة فيما خلفه المؤرخون العراقيون من مؤلفات، والشعراء من دواوين[(١)].

وإذا أتينا لدراسة تاريخ السودان الأدبي قبل مطلع القرن التاسع عشر فإننا نجد الدكتور الناقد إحسان عباس يعتبر هذه الدراسة ضرباً من التوغل في المجاهل المظلمة، لولا بصيص من النور يلقيه في طريق الباحث كتابان قيمان، هما: كتاب طبقات ود. ضيف الله، وكتاب تاريخ السودان، والكتابان على بعدهما عن النواحي الأدبية يرسمان بعض الخطوط الكبرى للحالة الثقافية في المجتمع السوداني منذ القرن الخامس عشر، ويعرضان

(١) عباس العزاوي، تاريخ الأدب العربي في العراق، بغداد، ١٣٨٢هـ، ص ١٨٠، ١٨٧، ٢٦٣، ٢٦٨.

لبعض الأمثلة الشعرية من تلك الفترة البعيدة في أثناء سيادة الفونج ومن أتى بعدهم في مملكة سنار.

كما يرى أن مصر والحجاز هما القطران اللذان استمد منهما السودان الإيحاءات الأولى في بواكير انتعاشه الثاني، ويقرر لنا كتاب طبقات ود ضيف الله أن الشعاع الأول إنما تسرب إلى البلاد مع القادمين من الخارج، مواطنين كانوا أم غرباء(١).

كما يشير إلى أن دراسة الفقه كانت تحتل منزلة كبرى بين متعلمي ذلك العصر، ومع الزمن أخذت تتسع المجالات الثقافية، فلم تعد تقتصر على هذا اللون من الدراسة، وإنما أصبحت تشمل بعض مبادىء النحو، والعروض، والمنطق، والحديث، والتفسير، والأصول، ونسمع عن أناس كانت لهم معرفة بالسير والأخبار، ولا سيما مغازي رسول الله ﷺ، وعن آخرين برعوا في النحو، والصرف، واللغة، والمعاني، والبديع، والعروض، والبعض الآخر تضلع في المنطق ومصطلحاته(٢).

أما في تونس، فقد تأثرت الحياة الفكرية بإيجابيات الحكام الحسينيين، في الفترة ١١٢٧ ـ ١٣٠٠هـ، وكان لهذه الجهود العلمية آثارها في ظهور عدد من الكتاب، الذين شغلوا مراكز إدارية هامة اعتماداً على مستواهم العلمي أو الفكري(٣).

ويرى الدكتور حسين بن عبد الله العمري في دراسته لفكر الإمام

---

(١) د. إحسان عباس. من الذي سرق النار، خطرات في النقد والأدب، بيروت ١٤٠٠، ص٢٧٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٧٦.

(٣) حسن حسني عبد الوهاب، مجمل تاريخ الأدب التونسي، تونس، ١٩٦٨م.

الشوكاني أن الحياة الفكرية والأدبية في اليمن في فترة القرن الثامن عشر الميلادي كانت حياة خصبة، رغم قسوة الحياة وصعوبتها، ورغم تعصب المتعصبين من الغلاة والمتزمتين، وهو يرجع تلك الخصوبة العلمية إلى المدارس الفقهية، التي نشأت في اليمن في تلك الفترة، والتي أنتجت عدداً من العلماء المجتهدين، مثل الشيخ صالح بن مهدي المقبلي، والشيخ محمد بن إسماعيل الصنعاني، المعروف بالأمير محمد بن علي الشوكاني[١].

يضاف إلى ذلك أن الرحالة الدنماركي كارستن نيبور، الذي زار صنعاء في عام ١٧٦١م عبر عن إعجابه بشخصية أحمد بن علي النهمي (١١٣٠ ـ ١١٨٦هـ). الذي كان وزيراً لحاكم اليمن المهدي عباس بن القاسم (١١٣٠ ـ ١١٨٩هـ) لأكثر من خمس وعشرين سنة، واستغرب «نيبور» أن يجد عربياً في اليمن يعرف جغرافية أوروبا وميزان القوى السياسية فيها في ذلك الحين[٢].

ولقد أشار الدكتور طه حسين[٣] أن أهم ما يميز ملامح فترة القرن الثاني عشر الهجري هو ظهور الحركة الدينية للشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ التي رحب بآرائها الإصلاحية علماء اليمن، من أمثال: محمد بن إسماعيل الأمير، والشوكاني، والأخير أثبت له الدكتور العمري

---

(١) ديوان الشوكاني، أسلاك الجواهر، والحياة الفكرية والسياسية في عصره، تحقيق ودراسة د. حسين عبد الله العمري، دمشق ١٤٠٢هـ، ص١٣ ـ ١٥.

(٢) NIEB URH, C. travels, through, Arabia and other countries in the East, tr. R Her On bedin Grgh. 1792.

(٣) انظر بحث الدكتور طه حسين (الحياة الأدبية في الجزيرة العربية) في كتابه (ألوان)، القاهرة ١٩٥٩، ص ٤٣.

قصيدة يرثي بها مؤسس الحركة الإصلاحية عند وفاته في عام ١٢٠٦هـ، ويعرض حقيقة دعوته وأهميتها فيقول:

مصاب به ذابت حشاشة مهجتي ... وعن حمله قد كل متني وكاهلي
أفق يا معيب الشيخ من ذا تعيبه ... لقد عبت حقاً وارتحلت بباطل
أفيقوا، أفيقوا إنه ليس داعياً ... إلى دين آباء له وقبائل
دعا لكتاب الله والسنة التي ... أتانا بها طه النبي خير قائل[1]

وقد حافظت المدينة المنورة على مركزها العلمي والحضاري، حتى في تلك الظروف السيئة التي شهدت فيه الأمة العربية والإسلامية ذلك الانحطاط الفكري الذي أشرنا إليه سابقاً، ويصف الدكتور عبد الله العثيمين هذا الدور الذي أدته بيئة المدينة، وخصوصاً تأثيرها في طلاب العلم الذين يرحلون إليها ويأخذون عن علمائها، يقول: «وكانت المدينة المنورة ملتقى العلماء وطلاب العلم من مختلف الأقطار الإسلامية، كان بعض هؤلاء يأتي إليها فيستقر بها. وكان بعضهم يأتي إليها فيستقيم فيها فترة ثم يغادرها إلى وطنه، وقد ضمت في تلك الفترة بالذات علماء درس عليهم وتأثر بهم عدد ممن أصبحت لهم أدوار مهمة في بلدانهم خلال ذلك القرن»[2].

ويذكر الدكتور العثيمين اسمي عالمين هامين من علماء المدينة في القرن الثاني عشر الهجري، كان لهما أثر كبير على الشيخ محمد بن عبد الوهاب؛ لا بالنسبة لتحصيله العلمي فقط، وإنما بالنسبة لاتجاهه الإصلاحي أيضاً.

(١) ديوان الشوكاني، ص ١٥٤، ١٥٥.

(٢) د. عبد الله العثيمين، الشيخ محمد بن عبد الوهاب، حياته وفكره، دار العلوم، الرياض، ص ٣١ ـ ٣٢.

وهذان العالمان أو المفكران الكبيران هما عبد الله بن سيف، ومحمد حياة السندي، وقد تلقى الشيخ السندي علومه على يد علماء معروفين، من أمثال الشيخ أبي الحسن بن عبد الهادي السندي، والشيخ محمد أبي الطاهر الكوراني، وتصدى بعد وفاة مشايخه للتدريس، وأثمرت هذه الدروس عن تأليفه لكتب هامة، منها شرح الترهيب والترغيب، ومختصر الزواجر لابن حجر، وشرح الأربعين[١].

وإذا كان الشيخ السندي قد أخذ العلم عن الشيخ محمد أبي الطاهر الكوراني، فإن مصلحاً آخر ظهر في شبه القارة الهندية في النصف الأول من القرن الثاني عشر، وهو ولي الله الدهلوي، قد أخذ عن الشيخ الكوراني في المدينة المنورة أيضاً، وعاد إلى بلاده، ونشر دعوته الإصلاحية فيها، وبذلك يكون بروز المصلحين في العالمين العربي والإسلامي، وفي مقدمتهم الشيخان: ولي الله الدهلوي ومحمد بن عبد الوهاب ـ رحمهما الله ـ له صلة وثيقة ببيئة المدينة المنورة العلمية في تلك الحقبة الهامة من التاريخ الإسلامي، ويكون لهذه البيئة نوع من التأثير في تكوينها وتوجهاتها.

(١) د. عاصم حمدان، المدينة المنورة بين الأدب والتاريخ، ط١، ١٤١٢، ص ٣٨.

تيار الحداثة بين نقد عبد الله عبد الجبار وتنظير فائز أبا (١)

إذا ما أردنا الحديث عن تيار الحداثة في بلادنا فلن نحتاج إلى كثير من التنظير مثل ذلك الذي وجدناه عند مناصريها ومناوئيها على حد سواء. وبالتحديد في حقبة الثمانينيات الميلادية، وكل الذي نحتاجه في هذا الشأن هو تلك الرؤية الموضوعية والتي صاحبت بروز هذا التيار نتيجة للسياق الحضاري والاجتماعي أو خفوته وليس تلاشيه كما نظن ونزعم.

بداية لا بد من القول إن تيار الحداثة الذي لمسنا وجوده الحقيقي وبسمات متكاملة وضمن أيديولوجية معينة قبل حوالي عقدين من الزمن، قد وصل إلى الساحة الفكرية والثقافية في بلادنا وتلك بعد أمد طويل من وصوله أو توطنه في كثير من البيئات الثقافية والأدبية في العالم العربي ويمكن التأريخ له من خلال قول الشاعر أدونيس المعروف وذلك في العددين ١٧ و١٨ من مجلة (مواقف) (إن هذا العدد يشكل بالقصائد التي يتضمنها نواة لمرحلة متميزة في التجربة الشعرية الجديدة)، ويعلق الناقد السعودي الكبير عبد الله عبد الجبار على هذا المنحى بقوله: إن أدونيس يدعو إلى تغيير الشعر العربي أي في الستينيات الميلادية.

وإن هذا التغيير ليس تغييراً في الشكل أو طريقة التعبير فحسب، وإنما هو قبل ذلك تغيير في المفهوم ذاته.

إن تيار الحداثة منذ بداياته الأولى اتسم بالعنف وهذا له أسبابه أو دواعيه، ومن هذه الأسباب سيطرة تيار واحد على الساحة الأدبية آنذاك وهو ما يطلق عليه التيار المحافظ، ولقد أصاب هذا التيار شيء من الترهل بعد أن كان متوقداً أو قوياً إبان مرحلة الرواد والتي مثلها خير تمثيل إبداع الرائدين محمد حسن عواد وحمزة شحاتة ثم من أتى بعدهما من الأجيال اللاحقة المعروفة بتوجهاتها النقدية من أمثال عزيز ضياء، والربيع وعبد الرحيم أبو بكر إضافة إلى أن من سمات هذا التيار عالمياً وخصوصاً في بلد الموضات الأدبية فرنسا استخدامه لما يمكن تسميته بالإرهاب الفكري وينقل الناقد الإنجليزي المعروف جورج واطسن عن (باحث) ما نصه (وفي المراحل الأولى للتعصب الثوري لا يستنكف الثائر عن استخدام شيء من الإرهاب الفكري ولقد اتخذ العنف أشكالاً عدة ويمكن حصره في هذا السؤال الذي تحرك ضمن إطاره تيار الحداثة بشيء من الحرفية التي هاجموا التيار المحافظ بسببها وهذا السؤال الحرفي هو: هل هو واحد منا أم لا؟).

فقد ظلت صفحات ثقافية لمدة طويلة لا تنشر إلا لأولئك الذين ينتمون لهذا التيار وهذا أدى إلى ردة فعل معروفة وهي تبني صفحات ثقافية لوجهات نظر المنتسبين أو المحسوبين على التيار الآخر. وظلت بعض المنابر الثقافية إلى الوقت الحاضر ملتزمة التزاماً كلياً بهذه الأيديولوجية. وكأنها لا تعلم أنها بهذا الصنيع أو الانحياز قد حكمت على نفسها بالفشل أو الموت البطيء، فلم يعد أحد يقرأ تلك المنابر إلا

المشايعون للتيار نفسه، ووصل الأمر إلى حلقات أضحت تضيق بنفسها قبل أن تضيق بالآخر، ولا ينكر أحد أن بعضاً من أنصار تيار الحداثة بمجرد اختلافهم مع زملائهم في هذا المنحى الفكري والأدبي لا ينشرون لهم إبداعاتهم الأدبية، وكان الناقد المعروف فائز أبا شافاه الله ـ أحد ضحايا الاختلاف داخل تيار الحداثة نفسها، مع أنه لا يستطيع أحد ـ إن كان يتفق مع وجهة نظر أبا أو يختلف معها ـ أن ينكر المنظر الحقيقي لتيار الحداثة فإجادته للغة الإنجليزية إجادة تامة وتمكنه من الأدوات الضرورية التي يجب توافرها في الناقد أو حيازته لها حيازة قوية، جعلته يتبنى العديد من المواهب الجديدة في الساحة ـ آنذاك.

ولكن اختلاف المريدين أو تنكرهم أو أن ثورة الحداثة بدأت تأكل أبناءها إن صح هذا التعبير كل ذلك أدى بأن ترتفع الأصوات قبل سقوط (أبا) وبدون موضوعية داخل التيار الحداثي نفسه (ابا ليس أديباً ولكنه صديق الأدباء) وهذه العبارة توضح مدى المأزق الذي وصلت إليه حركة الحداثة وهو مؤشر غير صحي ويتناقض مع بيان الحداثة.

الرَّازحي. . . هرطقة فكرية أم قصور في الوعي!

جميل جداً أن تستعين صحافتنا أو تفتح صفحاتها أمام بعض الكتاب العرب ـ مع أن الآخرين يعز عليهم أن يفعلوا ما نفعله وينطبق هذا حتى على بعض الصحف المهاجرة ـ والتي عن حسن نية وتوجه حميد، ضخ الدم في شرايينها المتصلبة واستعادت بذلك زخمها ونشاطها.

. . . ولكن البعض استغل هذا الكرم المفرط الذي عرفنا به وبدأ في نفث سمومه الفكرية من خلال صحافتنا المتألقة وهو يعجز عن فعل ذلك من خلال المنابر الصحافية والإعلامية الموجودة في بلاده، وفي مقدمة هؤلاء الكتاب: عبد الكريم الرازحي وجعفر عباس اللذان احتلا إن صح التعبير الصفحة الأخيرة من صحيفة «الوطن» والتي يعد صدورها نقلة جديدة ومتميزة في تاريخ صحافتنا العريقة ـ كتب «الرازحي» في عموده الذي ربما كان اسمه «بيت العصيد» فيه من الدلالة ما يغني عن التأويل والتفسير، لقد كان مقاله المنشور في عدد يوم الثلاثاء ١٩ ذو القعدة، ١٤٢١هـ، خلطة عجيبة من سوء الفهم، وقلة الإدراك، وانعدام الرؤية إلى مدى كبير من العشوائية والتخبط، بل إن المقال كشف جهله بحقائق الدين والدنيا ـ معاً ـ لقد حاول الرازحي في مقاله ـ الديمقراطية واليهود ـ تصوير اليهود العرب على أنهم حمائم سلام، وأن حقوقهم في بعض البلاد

العربية مهضومة ومنتقصة في الوقت الذي يقصف فيه بلد الديمقراطية المزعومة والكاذبة وأعني الكيان العنصري الإسرائيلي ـ أبناء جلدته بالصواريخ البالغة التقنية فيسقط أبناء فلسطين ممن تفتحت أعينهم على أبشع صور الاستعمار الفاشي والتنكيل النازي وإذا كان الرازحي ينام ملء جفونه وهو يحن لأرض الميعاد ومنبع العسل واللبن الصافيين في جبل صهيون، فإن النساء والأطفال والشيوخ في الخليل، وبيت جالا، وخان يونس يواجهون مذبحة العصر فهل يريد أن يضع نفسه في موضع الشاهد على بشاعتها وبربريتها أو المدافع عن القائمين على تنفيذها لأنهم يملكون عيوناً زرقاء، وشعوراً صفراء، وبشرة بيضاء، ويصفق الغرب والشرق لمجرمي الحرب من أمثال، شامير وبيريز، وباراك، وأخيراً الجزار الذي لم تجف بعد دماء الأبرياء من إخواننا العرب في لبنان ومصر وفلسطين من يديه، فأراد له الجميع أن يلوثهما من جديد بالدماء الطاهرة والذكية على أرض فلسطين العربية والمسلمة.

* بداية ـ يا رازحي ـ لم يعرف اليهود حقبة ذهبية في حياتهم ـ كما يعترف بذلك وزير خارجية إسرائيل السابق «أبا يبان» في مذكراته كتلك الحقبة التي عاشوها في كنف العرب في إسبانيا، حرية وأمناً واستقراراً، وعندما طالتهم محاكم التفتيش المسيحية كانت الدولة العثمانية المسلمة ملاذاً لهم من جور من يتحالفون ـ اليوم ـ معهم ـ ضد الوجود العربي بأكمله ـ وكان رد الجميل يا عزيزي في مذابح من أمثال، دير ياسين، وكفر قاسم، وقبيه، واللد، وصبرا وشاتيلا، وقانا، والحرم الإبراهيمي، وأخيراً إن كنت تبصر حقيقة ما هو ماثل أمام كل عين من حصار يأتي ضد أطفال الحجارة من البحر، والفضاء، وفي الليل المظلم والنهار المبصر،

وفي سهام حاقدة تخترق جسد الطفل جمال الدرة ـ وغيره من المئات ـ تحت عدسات مصوري العالم الحر الذين تغنيت بديمقراطيتهم وأنشدت بين أيديهم نغماً نشازاً يقول: بالتعارض بين الدين والدنيا، وحقوق الله وحقوق الوطن، وما علمت يا عزيزي أن توني بلير وغوردون براون، وبيل كلينتون من أشد الناس حماساً لدينهم وتراثهم وأن مارجريت تاتشر كانت تذهب للكنيسة كل يوم أحد، وضاعفت تلك الزيارات أثناء حرب الفوكلند، وأن بلير يأخذ أبناءه ويلقنهم الدرس الديني المسيحي ولا يشعر بأي غضاضة، أو نقص، كما هي الحال ممن يطلقون على أنفسهم في عالمنا العربي مسمى الليبراليين أو العلمانيين، وأن فهمهم لعلمانية الغرب هو فهم قاصر، فهي لم تتخل عن الدين يوماً.

ثم إن اليهود العرب الذين هاجروا لأرض فلسطين لم يهاجروا بسبب التضييق عليهم من قبل المجتمعات العربية والمسلمة والتي عاشوا فيها قروناً آمنين ومطمئنين، بل إنهم هاجروا تحت ضغط اللوبي اليهودي والصهيوني والذي كشفت جميع الدراسات عن بشاعته حتى ضد من يدينون بدينه، حتى يحققوا ـ أي الصهاينة ـ المقولة الكاذبة أرض بلا شعب لشعب بلا وطن، وهو ما كانت تردده كذباً جولدامائير.

عندما هاجر اليهود العرب بالإكراه الصهيوني لأرض فلسطين فهم لم يجدوا ديمقراطية تحميهم من غائلة تعصب اليهود الإشكيناز وبدلاً من أن يكون ذلك داعياً للتفكر والتأمل إلا أنه زادهم غلواً واستكباراً فكانوا القاعدة الأساسية للأحزاب الداعية لقتل العرب وسفح دمائهم، فكانوا القوة الحقيقية وراء صعود ساسة يحملون إجازات في البربرية والفاشية من أمثال مناحيم بيجين، وإسحاق شامير، وأرييل شارون، واستمد منهم الدعم دعاة

متطرفون من أمثال ريهفام زيفي.

ولقد سمعت السياسي الفلسطيني فيصل الحسيني عند زيارته قبل بضع سنوات لمدينة جدة بأن خطر اليهودي الغربي يهون كثيراً إلى جانب خطر وحقد اليهودي العربي وهو يتحدث عن معايشة وواقع، ولا يمكن تصنيف الحسيني بأنه ضمن حركة أصولية في فلسطين، بل هو سياسي محسوب على الاعتدال ومن دعاة السلام.

لذا فإنني لم أستغرب ذلك التهديد الأحمق الذي صدر عن اليهودي العربي وذلك بعد أن فتحت مدينة الصويرة بالمغرب أبوابها أمامه وزار منزله الذي لم يفزع فيه يوماً إبان طفولته، فإذا بهذا اليهودي الذي أكرمه العرب طفلاً وشاباً وكهلاً، إذا بـ «ديفيد ليفي» يا عزيزي الرازحي يعود مهدداً بحرق لبنان، وذبح أهله كما تذبح النعاج، وتلك صورة قاتمة ليهود عرب طفقت تحمل قلمك للدفاع عنهم، والذود عن حقوقهم التي لم تنتقص يوماً، في الوقت الذي يتطلع الفلسطيني في أرض آبائه وأجداده إلى كسرة خبز، وشربة ماء، وإغفاءة جفن فلا يجدها في ظل أزيز الصواريخ والرمي العشوائي والأحمق للقذائف المحرم استعمالها ضد جميع شعوب الأرض باستثناء الشعب الفلسطيني.

بقيت كلمة عتاب لأخوة وزملاء أعزاء في الوطن «الصحيفة» فكاتب يدافع عن حق اليهود، ومجاور له يهزأ من لغة القرآن، ويبدي شيئاً من التعاطف مع جون قرنق، ويهاجم الخليجيين لأنهم يستعينون بالخادمات، ويتحدث في سماجة عن دوسنتاريا أصابته في صغره، ومخدرات من أمثال الأفيون والبنقو فهل هم راضون بهذا، الغثاء وما الذي يجبرهم على ذلك؟!

(مدني والطَّيب ويوم الُحبِّ والوَفَاء)

تحتفل الأسرة العلمية بجامعة الملك عبد العزيز هذا اليوم بتكريم ابنها البار، ورجل المواقف الكريمة في تاريخها العريق، ومديرها السابق معالي السيد الدكتور غازي بن عبيد مدني، وهي خطوة حضارية ومبادرة إنسانية تُبرهن على أن مجتمعنا يؤمن بقيم الوفاء ويحرص على تجسيدها من خلال سلوكيات المؤسسات المعنية بتهيئة الأجيال الناشئة وتعميق الأخلاقيات السامية في نفوسهم، وهم أحوج ما يكونون ـ اليوم ـ إلى غذاء عقلي وروحي يكون هادياً لهم ودليلاً في مسيرة الحياة الطويلة والصعبة.

معالي الدكتور غازي هو امتداد لمسيرة مليئة بالطموحات والإنجازات الكبيرة في تاريخ ومسيرة جامعة الملك عبد العزيز بدءاً من معالي الدكتور أحمد محمد علي، ومروراً بأساتذتنا الكرام من أمثال أصحاب المعالي: الدكاترة محمد عبده يماني، محمد عمر الزبير، عبد الله عمر نصيف، رضا بن محمد سعيد عبيد، أسامة عبد المجيد شبكشي وانتهاء بالرجل الذي خلف معالي الدكتور غازي في هذا المنصب العلمي الهام، وأعني به: معالي الصديق الدكتور أسامة بن صادق الطيب.

ولقد كان من المواقف الكريمة لمعالي الدكتور غازي هو احتفاؤه بالمديرين السابقين ودعوتهم للجامعة للاستئناس بآرائهم وتخليد أسمائهم

في ردهات الجامعة، ولا أنسى عبارة ذكرها معاليه بعد تركه لمنصب وكيل الجامعة (لقد نشأنا في المدينة المنورة نرى في معالي الدكتور رضا عبيد مثلاً أعلى) ولعله بهذا يشير إلى النبوغ المبكر الذي عرف به الدكتور رضا فكان من أوائل المبتعثين للدراسة العليا والتي أنجزها في مدة قياسية، ولقد سمعت معالي الدكتور محمد عبده يماني ينعته ـ أي الدكتور رضا ـ بأستاذنا.

وفي كثير من المناسبات الخاصة كان معالي الدكتور غازي يشيدُ بشخصية معالي الدكتور عبد الله نصيف والذي لا يردُّ صاحب طلب حتى لو اضطر لخلع (بُشته) الذي يرتديه ويعطيه لمن يريده وذلك ليس بغريب على من تربى في بيت علم وفضل وإحسان.

معالي الدكتور غازي وفيّ وحفيٌّ بأساتذته، فلقد تصدى مع زميله الدكتور كمال توفيق بإعداد كتاب عن أستاذ الأجيال في المدينة ومدير ثانويتها المعروفة باسم (طيبة) المربي الكبير أحمد بُشناق ـ أطال الله عمره ـ ولقد حمل الكتاب عنوان (رسالة وفاء وقصة نجاح) وممن شارك في الكتابة عن المربي البُشناق عدد من تلامذته ومريديه: من أمثال أصحاب المعالي والسعادة: رضا عبيد، أحمد محمد علي، منصور محمد الخريجي، عزت خطاب، سامي فقيه، فؤاد صادق مفتي، ناصر السلوم، سعد الناصر السديري، أحمد ملا، محمد مسلم الرداي، رضا مرشد، إبراهيم غلام، عبد الكريم بشاوري، فؤاد بخيت، سالم أسعد. وكاتب هذه السطور والذي أولاه معالي الدكتور غازي ثقته في مراجعة مسودة الكتاب مع عدد آخر من الأخوان.

وكان الدكتور غازي يحرص في كل زيارة للمدينة ـ حيث أعطى جزءاً

كبيراً من وقته لرعاية فرع الجامعة بالمدينة حيث تم إنشاء كليات جديدة للعلوم، والطب، والعلوم الإدارية والعلوم المحاسبية إضافة إلى كلية التربية مع الإعداد لإنشاء كلية الهندسة ـ نعم لقد كان معاليه يحرص على زيارة رجالات المدينة من أصدقاء والده السيد عبيد مدني ـ رحمه الله ـ من أمثال الشيخ محمد الحافظ، والسيد حبيب محمود أحمد، والشيخ جعفر فقيه ـ رحمهم الله ـ، والأستاذ محمد حميدة ـ أطال الله عمره ـ.

إن هذه الخطوة الحضارية من الجامعة من أصحاب السعادة، مصطفى الإدريسي، عبد الرحمن اليوبي، عبد الله حافظ وسواهم من أساتذتنا الكرام، تدل على أن روح المحبة وشمائل النبل والوفاء تسود هذا الصرح العلمي الهام والذي يحمل اسم مؤسس هذا الكيان القوي بإيمانه ووحدة أبنائه وترابطهم.

لماذا تعثر الفكر العربي وانتصر نظيره اليهودي؟

تدور في كثير من المنابر الإعلامية والصحافية العربية ـ ومن بينها ـ إعلامنا وصحافتنا ـ مناقشات وطروحات حول أزمة الفكر العربي بكافة أطيافه، وارتباط هذا الفكر بالأزمات التي مرت بها الأمة العربية، ولا نريد أن نلقي بهذا العبء على الغرب ومؤسساته دون النظر والتدقيق في الأخطاء التي ارتكبتها الأمة منذ نكبة فلسطين والتي نربطها فقط بوعد بلفور المشهور والذي يحمل اسم وزير الخارجية البريطاني المحافظ، والصادر عام ١٩١٧م، بينما بدأت حقيقة قبل ذلك بزمن وبجهود متواصلة ومنظمة من شخصيتين يهوديتين هامتين كانتا تقيمان في بريطانيا إحداهما: شخصية اقتصادية ـ ثرية، وهو اللورد روتشيلد Lord Rothchild والأخرى شخصية فكرية ثقافية وهو الدكتور حاييم وايزمان Chaim Weizman وهذا الأخير ـ الذي يعتبره بعض المنظرين الحجر الأساسي في الكيان الصهيوني، تم تقديمه كشخصية يهودية رمزية في المجتمع البريطاني من قبل محرر صحيفة الجارديان المشهورة وهو (س. ب. سكوت) C. P. Scott وامتناناً للجهد الذي قدمه (وايزمان) لقضيته داخل المجتمع البريطاني إلى أن ظهرت في شكل وعد التزمت به الحكومة البريطانية من خلال مجلس اللوردات، لهذا الموقف الوطني من وجهة نظر الحركة الصهيونية ـ فلقد اختارته إسرائيل بعد قيامها في عام ١٩٤٨م، رئيساً لها.

ومن خلال دور (روتشيلد) و(وايزمان) اليهوديين يمكن النظر إلى العوامل التي ساعدت على انتشار الفكر الصهيوني ودوره في إنشاء كيان. وحتى لو كان عن طريق التعسف والغضب ـ بل دوره أي الفكر الصهيوني ـ أيضاً في الحفاظ على الروح الوطنية اليهودية حية على مر هذه العقود الماضية.

أولاً: تلازم العاملين الاقتصادي والفكري في دعم أي فكرة يراد لها أن تنتشر أو تقدم على أرض الواقع، فإذا كان (وايزمان) هو العقل المخطط والذي يرسم السياسة التي تستشرف الأفق وتتعدى الآتي، فإن بذل المال بطريقة ذكية وعن طريق استراتيجية تأخذ في الاعتبار العوامل البيئية المحيطة ونقصد بها البيئة البريطانية، هذا البذل الذي يقوم على أساس لغة المصلحة التي لا يعترف الغرب بلغة قوية ومؤثرة وفاعلة سواها وهو ما يهيّـيء للفكر أن يأخذ طريقه إلى التنفيذ بعد أن كان محصوراً في دائرة الأمنيات التفات الفكر اليهودي المتمثل في شخصية (وايزمان) إلى دور المؤسسات الفكرية والإعلامية، فلقد استطاع (وايزمان) أن ينطلق ـ في الغرب ـ بالترويج للفكر اليهودي ـ الصهيوني، من خلال جامعة مانشستر إحدى أشهر الجامعات البريطانية العريقة، ولم يكن اختيار (وايزمان) مدينة مانشستر اعتباطاً بل هو قائم على رؤية استشرافية فهي مدينة اقتصادية تأتي في موقعها الجغرافي في وسط بريطانيا فتربط بين الشمال العمالي أو النقابي، والجنوب الأرستقراطي المحافظ، ويمكن لهذه المدينة والتي تسكنها طبقة وسطى أن تلعب دوراً هاماً في الترويج لشخصية (وايزمان) بين معظم مختلف الطبقات.

التفات الفكر اليهـودي إلى دور الصحافة فلقد استطاع (وايزمان) النفاذ

إلى قلب الإعلام البريطاني حيث قدم نفسه لمحرر صحيفة مانشستر غارديان The Monchester-Guardian وهو السيد (سكوت) ـ وكان هذا الأخير واحداً من أشهر كتاب الأعمدة ـ أي في أوائل القرن العشرين الميلادي ـ في الصحافة البريطانية العريقة، وارتبط اسم هذه الصحيفة بالحركة الصهيونية وفكرها، حيث يذكر الصحافي البريطاني المعروف والمتخصص في قضايا الشرق الأوسط (مايكل آدمز) Michael Adams بأنه زار القدس في عام ١٩٥٦م وقدمه محافظ عربي سابق لمجموعة من أصدقائه العرب ولعل أحد الحضور الذين قدمهم المحافظ ـ أراد أن يشبع فضوله فسأله أي صحيفة يمثل؟ فذكر اسم صحيفة الجارديان ـ وهو الاسم الذي حملته الصحيفة بعد اسمها الأول (مانشستر جارديان)، فكان الرد من تلك الشخصية العربية السياسية بلباقة ممزوجة ـ بدعاية ـ في شكل سؤال استنكاري. . . الصحيفة الصهيونية. . . وكانت هذه الدعابة هي التي وجهت (آدمز) فيما بعد إلى جوهر الصراع في الشرق الأوسط، وعانى هو وزميله (كريستوفر ما يهو) Lord - Christopher - Mayhew، من ضغوط اللوبي اليهودي في بريطانيا كثيراً، وذكرا جزءاً من الضغوط في كتابهما المعروف (تغطية حقائق الشرق الأوسط) the Middle - East Cover - Up, 1975, استطاعت الشخصيات اليهودية التي تعيش في الغرب أن تنفذ إلى جوهر المجتمع البريطاني ـ دون أن تذوب فيه أو تفقد هويتها الدينية والثقافية والفكرية ـ من جراء ذلك النفاذ أو بسببه، وعرفت مكامن القوة في هذا المجتمع، وعن طريق هذه الاستراتيجية ـ تعرفت على سبل الاندماج في الحركات الحزبية الغربية بكافة (اتجاهاتها) فإذا كان السياسي والمحافظ (بلفور) هو الذي أصدر الوعد المعروف، فإن زعيم حزب الأحرار البريطاني ـ آنذاك ١٩١٧م لويد جورج Lioyd - George وكان رئيساً

للوزراء هو الذي شجع مجلس الوزراء البريطاني على تبني قرار إنشاء الوطن القومي لليهود على أرض فلسطين العربية والمسلمة، كما أن حزب العمال الذي تحتل قواعده الانتخابية جزءاً كبيراً من الشمال البريطاني، كانت مجالاً خصباً للتنظير الفكري الصهيوني، فأنشأ اللوبي اليهودي منظمة يهودية تحمل اسم Zion aole منذ حوالي ٨٣ عاماً، ولهذه المنظمة الملحقة بالحزب العمالي البريطاني الحق في الاعتراض على بعض مرشحي نواب الحزب، فكان لها دور كبير في السيطرة على الحزب وخصوصاً مرحلة حكومة هارولد ويلسون العمالية ١٩٦٤ ـ ١٩٧٠م، ثم الحكومة الثانية بزعامته ١٩٧٤ ـ ١٩٧٦، ثم زعامة جيمس كالاهان: James - Callaghan ١٩٧٦ ـ ١٩٧٩ ويذكر المفكر والمنظر العمالي المعروف (جيرالد كوفمان) Gerald - Kaufman في مقال له بالمجلة العمالية المعروفة (نيوستيتمان) أو (الرجل الجديد) بأنه كان يعمل في مكتب (هارولد ويلسون) أثناء حرب حزيران ١٩٦٧م بين إسرائيل والعرب، وأنه كان يومياً ينقل رسائل بين رئيس الوزراء البريطاني ويلسون والسفير الإسرائيلي في بريطانيا (ريميز) Remes وهو ما أكده واحد من أهم منظري الفكر الحركي العمالي ريتشارد كروسمان Crossmain في مذكراته التي صدرت بتقديم الصحافي المعروف (انتوني هاورد) Anthony Howard وذلك في عام ١٩٧٩م ولا بد من الإشارة إلى أن كوفمان تحول فيما بعد إلى نصير للحقوق الفلسطينية، وانتقد سياسات (شارون) أثناء الانتفاضة واتهمه في مجلس العموم بأنه لطخ نجمة الملك داود بالدماء، وهو كيهودي أي كوفمان يحق له انتقاد شارون بينما يخشى البقية سياسيين كانوا أم مفكرين من توجيه انتقادات عنيفة كالتي وجهها كوفمان لخشية إلصاق تهمة. عداء السامية ـ وهي تهمة جاهزة ـ بهم في عام ١٩٧٤م، وبمجيء

حكومة (ادوارد هيث) المعتدلة في نظرتها إلى الصراع العربي ـ الإسرائلي، سعى الفكر اليهودي إلى اختراق معاقل الفكر المحافظ والذي أضحى يشعر بشيء من الشك والريبة إزاء الفكر القومي اليهودي، وهو ما أوردته الصحيفة اليهودية البريطانية والمعروفة (جويش كرونيكال) Jewish - Chornicle في عددها الصادر بتاريخ ١٨ أكتوبر ١٩٧٤م وهذه الهجمة اليهودية السياسية والفكرية على المعقل المحافظ، هي نتيجة لاستشراف ورؤية فكرية عميقة.

الحركة البريطانية المحافظة (التوري) والتي سوف يكون لها دور رائد في السياسة العالمية على المستوى المنظور، وهذا ما خططت به الشخصيات اليهودية الفكرية في بريطانيا ومن بينها شخصية الاقتصادي المعروف (كيث جوزيف) Keith - Joseph وهي الشخصية اليهودية التي صعدت بمارغريت تاتشر من الصفوف الخلفية والنائية في معاقل الفكر المحافظ لتصبح زعيمة للحزب في عام ١٩٧٥م، ثم رئيسة للوزراء عام ١٩٧٩م وليحتل اليهود في حكومتها أرفع المناصب الإدارية مثل الداخلية، والمال، والتعليم، والعمل، بل إن صحيفة (التايمز) ذكرت أثناء حقبتها ـ أي تاتشر ـ في الثمانينيات الميلادية والتي استمرت لمدة تقارت عقدين من الزمن ١٩٧٩ ـ ١٩٩٦م. ذكرت تلك الصحيفة الإنجليزية العريقة أن (تاتشر) فكرت جديًّا في تحويل ديانة الحكومة من المسيحية إلى اليهودية وذلك للدور اليهودي المتواصل في تقديم الفكر اليهودي ـ الديني منه والسياسي، على أنه فكر تحرري، ولهذا استطاع الفكر اليهودي تجاوز العلاقة الحرجة بين إسرائيل وبريطانيا عن طريق المعقل الأخير لهم وهو المؤسسة المحافظة وضمنوا سكوته عن الجرائم التي ارتكبتها في مذبحة

صبرا وشاتيلا كما رفع الحظر تلقائياً عن الزعماء والمفكرين اليهود الإرهابيين وأصبحوا يدخلون بريطانيا دون أي خوف في المقابل نجد الفكر العربي تعامل مع الفكر الغربي بصورة رومانسية بعيدة عن الواقع وركن إلى الوعود الشفهية بينما كان الفكر اليهودي يطالب بالوعود المكتوبة، وإذا كان الفكر العربي التقليدي قد نأى بنفسه عن الاقتراب من الفكر الغربي لمعرفته معرفة دقيقة وفاحصة، فإن الفكر العربي الليبرالي قد ارتمى في أحضان الفكر الغربي، وهماً منه بأن الغرب سوف يفتح له الخزائن المغلقة والتي حرمت على الفكر التقليدي، في الوقت الذي حرص فيه الفكر اليهودي بجميع أطيافه على الانفتاح على الغرب ومنجزاته دون أن يفقد هويته، ويخسر وجوده وكرامته.

ما بال أقوام يسعون لانتهاك حرمات الآخرين؟

قرأت كغيري الفتوى التي أطلقها أحد الأخوة ـ هداه الله ـ وتلك عَبْر الإنترنت ـ الأداة التي سخّر الله العقل البشري لاختراعها حتى يستفيدوا منها فيما ينفع البشرية ولا يضرّها ويعمر الكون ـ أيضاً ـ ولا يهدمه ـ وذلك بحق بعض الأخوة الكتاب في الساحة الفكرية والأدبية ـ وإذا كان الخطأ والشطط جائزاً وقوعه من الإنسان إلا أن معالجة الخطأ لم تكن ـ يوماً ـ عن طريق تكفير الناس، وتبديعهم، وتفسيقهم، فإن ذلك من شأنه أن يفتح الباب على مصراعيه أمام كل إنسان يختلف معه آخر في الرأي فيصيبه منه غضبٌ فيؤذيه في نفسه أو أهله أو ماله، ولو انتظر حتى تذهب ثورة الغضب عنه، لوجد حالته الشعورية قد اختلفت اختلافاً كاملاً ورؤيته الشخصية تغيّرت تغيراً ربما يكون جذرياً إزاء المسلك الذي يفترض أن يسلكه مع خصمه ولهذا حثت الأحاديث النبوية الشريفة على ضبط النفس عند الغضب، ولقد ضرب رسول الله ﷺ من خلال سيرته المباركة أروع الأمثلة في هذا الجانب، فمعلوم أن (وحشي) قتل عمه ـ الأثير لديه ـ سيدنا حمزة بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ خداعاً عندما كمن له تحت صخرة في ميدان موقعة (أحد) الشهيرة، ومعلوم أن (وحشي) لا يستطيع مواجهة ذلك البطل الذي شبّهه كفار قريش ـ يوم بدر ـ بأنه كان مثل الجمل الأورق وكان معلماً ـ رضي الله عنه بريش نعامة، ولما مثلوا

بجثة سيد الشهداء ـ كان حزن رسول الله ﷺ عليه كبيراً, وبكته دور الأنصار ـ جميعها ـ حبًّا في رسول الله ﷺ وآل بيته الأطهار ـ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ ودفع الحزن سيدنا رسول الله ـ عليه صلوات الله وسلامه للقسم بأن يمثل بسبعين من المشركين إذا أظفره الله بهم، فيردّه الله تعالى عن عزيمته إلى الاعتصام بصبره العظيم ويأبى عليه إلا العدْل السوي، وينزل عليه وهو قائم لم يبرح مكانه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ النحل: (١٢٦)، ولتنظر كيف تعامل هذا النبي الكريم والرسول العظيم مع قاتل (عمّه) الذي إن صح التعبير شحنه الآخرون ضد عم رسول الله ﷺ وأغروه بالحرية بدلاً من العبودية فقدم على فعلته الشنيعة.

وينشرح صدر ـ وحشي ـ هذا للإيمان الصادق ـ بإذن الله، فيأتي أهل الطائف مستجيراً فأرسلوا ـ أي أهل الطائف ـ كما ورد في البخاري ـ رسلاً إلى رسول الله ﷺ يستفسرون عن الإسلام فقيل لي: إن رسول الله ﷺ لا يهيّج الرسل ولا يزعجهم فخرجت معهم حتى قدمت على رسول الله ﷺ، فلما رآني قال (أنت وحشي؟ قلت نعم، قال أنت قتلت حمزة)؟ قلت: قد كان من الأمر ما بلغك، وعند ابن إسحاق من رواية يونس بن بكير، فقيل هذا وحشي قال ﷺ (فلإسلام رجل واحد أحبُّ إليّ من قتل ألف كافر)، ولتنظر منهج رسول الله الذي تصغّر وتتضاءل عنده المناهج والأساليب الأخرى، فهو أولاً يستوثق من حادثة مقتل عمه، لأنه سمع بها ﷺ يوم المعركة ويعترف وحشي، ويُعلم رسول الله ﷺ صحابته كيفية التعامل مع المعترف بذنبه وذنب وحشي كان عظيماً ـ والراغبُ في الوقت نفسه في التوبة إلى بارئه والعودة إلى رحاب الإيمان، فتكون الكلمة

العظيمة ـ حقاً ـ من نبي وصفه الله بالرحمة، ونفى عنه الغلظة والقسوة بأن (إسلام رجل واحد خير من قتل ألف كافر).

هذه حال رسول الله ﷺ مع قاتل عمه من الكفار فلتستمع إلى سيرته في تعامله مع المنافقين، فلقد تجرأ عبد الله بن أبي بن سلول ـ خذله الله ـ على رسول الله وصحابته من المؤمنين ـ وذلك بعد غزوة بني المصطلق ـ فقال لئن عُدنا إلى المدينة لنخرجن محمداً وصحبه، نخرجه منها مهيناً ذليلاً ـ حاشا سيدنا رسول الله ومقامه الرفيع ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ ونبقى ـ أي يعني جماعته من المنافقين ـ أعزة كراماً، ولما نزلت الآيات تصديقاً لما رواه زيد بن أرقم من مقولة ابن سلول، قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وكان شديداً في الحق (يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق ـ فقال المصطفى ﷺ (لا يا عمر، دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه). ورواية القصة كاملة في البخاري.

هذا منهج رسول الله ﷺ في التعامل مع الكفرة والمشركين والمنافقين، فما بال قوم من أهلنا وبني جلدتنا ونحسب فيهم الحكمة والتعقل يصدرون تلك الفتاوى المدوية والتي تجيز حتى انتهاك حرمات إخوانهم في العقيدة والوطن، ومع أن هؤلاء الذين اختلفوا معهم ليسوا ـ كباقي البشر ـ مبرئين من الخطأ، إلا أن الخطأ الأكبر، والمشهد الجلل الأعظم أن نصدر في حقهم مثل هذه الفتاوى ونفتح الباب على مصراعيه لشرٍّ مستطير ـ لا قدر له ـ ولا يعرف أحد مداه.

وقفة وحوار مع النقيدان

أريد أن أختتم حواري مع الأخ منصور النقيدان ـ عما ورد في مجمل مقالته (الرياض، ١٤٢٤/٥/١٧هـ) والتي يمكن وصفها بأنها لا تقل تشدداً وتطرفاً عما يكتبه الآخرون في الضفة المحاذية وهي تزيد على نظرائها أو مناوئيها ـ على حد سواء ـ بأن كاتبها يخلط فيها خلطاً عجيباً في أمور يصعب الخلط في شأنها إن كان أخونا الكريم ممن يسعون ـ حقاً ـ لإيجاد حوار هادىء وموضوعي ـ وفيها انتقاص من منزلة نبي الإسلام ـ عليه صلاة الله وسلامه ـ وهو أمر مستغرب ـ أن وجدناه في صحافتنا العربية ـ فضلاً عن أن نعثر عليه بين سطور مقالة كاتب لم يضاره هو ـ وقلة معه ـ الإسلام في شيء، ولكن الذي أدى به ـ إلى ذلك ـ كما ذكر صاحب الرؤية الموضوعية والأفق الواسع، واللسان العف والمهذب ـ الأستاذ (خالد بن حمد السليمان) في صحيفة عكاظ (١٤٢٤/٦/٢هـ) بأن حمله لشعلة الإحراق. أدى إلى عدم قدرته لحمل شعلة الكلمة، فانضواء أخينا ـ في الماضي ـ تحت عباءة التشدد، وارتماؤه في أحضان الفكر الأحادي والمتشدد أدى به إلى عدم قدرته على حيازة ثقة بيئته الأصيلة ـ في الفكر ـ فانطلق منها إلى بيئة أكثر تشدداً، تلك البيئة التي ظنها صلبة فإذا هي رخوة تهوي بأقدام من يخطو عليها، فغاصت الأقدام بهم في وحلها، ورمتهم رياحها العاتية وأعاصيرها القاتلة في جزر من الأيديولوجية النائية والغريبة.

يمتلىء القرآن ـ كتاب الله ووحيه المنزل على خاتم رسله وسيد ولد آدم ولا فخر محمد بن عبد الله ـ عليه صلاة الله وسلامه ـ بآيات هي أوامر إلهية لاتباع هذا الدين ـ كافة ـ فهذا الوحي يطلب من المسلمين ألا ينقضوا عهداً مع المشركين ـ وهم يا أخي ليسوا كتابيين، حيث أردت عمداً أن توهم ـ القارىء ـ بأن الإسلام متسامح فقط مع أهل الديانات الأخرى والمشركون في ذلك العصر وأنت تعرف ذلك ـ حقاً ـ لا يتبعون ديناً من الأديان.

يقول الله عز وجل بعد أمره بتبرؤ الرسول من المشركين الذين ينقضون العهود ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة، ٤). فهذا أمر صريح بأن يوفي الرسول ومن معه ـ مع المشركين الذين لم ينقضوا العهد، ولم يعينوا عليهم أحداً من أعدائهم، فالله عز وجل يحب المتقين لربهم الموفين لعهودهم، ولو كان هذا الكلام ـ يا أخي صادراً من مرجعية غريبة لهلل له المتشددون من اليساريين العرب ولطاروا به فرحاً، ولترجع إلى عهود (الغرب) مع (العرب) في هذا العصر المكتوب منها والشفهي، الرسمي منها وغير الرسمي، فهل أنت واجد لهم عهداً وذمة أم أننا واجدون الضد والنقيض من ذلك، تاركاً الحكم لك بنزاهة وموضوعية.

وكأن شبهة القول حول مبادىء الإسلام الصحيحة ـ تجنباً ـ هو ما يسعى إليه بعضنا سائلين الله لنا ولهم العفو والمغفرة ـ فهذه حال المؤمن مع إخوانه وكأن الحديث يا عزيزي ـ عن نقائص الحضارة الغربية ـ يدخل في باب المحظورات أو المنكرات، فما الفرق بينهم وبين من ينتقدون في مقالاتهم بمناسبة وغير مناسبة بعض الزعامات السياسية العربية في الماضي والحاضر؟

ونسير مع هذه الآيات البينات في هذه السورة القرآنية الكريمة فنجد أن القرآن ـ أصل التشريع عند المسلمين ـ يأمر أتباعه على لسان نبيه ومصطفاه ـ ﷺ ـ بتأمين من طلب الأمان (من المشركين)، ثم إيصاله إلى وطنه سالماً آمناً بعد سماعه كلام الله. . . يقول ـ عز وجل ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة: ٦)، وأطلب منك يا أخي أن تقارن بين هذا السمو الحقيقي والعظمة الإنسانية المتجسدة في سلوك المسلمين مع من أخرجوهم من ديارهم، وآذوهم في أهلهم، وحاصروهم في بيوتهم، حتى إذا أظهر الله نبيه عليهم ـ كان النبي في سلوكه محققاً لهذا المنهج القرآني العظيم، حيث خاطب الرسول بني قومه يوم الفتح قائلاً: (اذهبوا فأنتم الطلقاء) وأكرم الرجل الذي لاكت زوجته كبد عمه سيدنا حمزة بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ وهو أبو سفيان ـ رضي الله عنه ـ والذي أسلم يوم الفتح، لقد أكرمه ـ حقاً ـ فقال في حقه (من دخل دار أبي سفيان فهو آمن) أن تقارن بين هذا السلوك الإنساني وسواه عند الأمم الأخرى؟ ولقد وردت في مقالتك يا أخي عبارات تضج منها السموات والأرضون ـ فأنت تصف موقف الشريعة الإسلامية وموقف نبيها ﷺ من حرية التعبير بأنه لم يكن (إلا تزييفاً) وأضع الكلمة الأخيرة بين (قوسين) لأنها وردت هكذا في مقالك ولا يمكن حملها على أنها مما يدخل في باب الخطأ المطبعي، وأما ما هو منثور بين السطور فالله وحده هو المطلع على أسرار القلوب وهو الذي يحاسب عليه ونسأله للجميع الهداية وسواء السبيل.

النقيدان وحرية الكلمة في الغرب!!

(إن كل ما يتفوّه به أصحابنا ـ اليوم ـ من حديث وجدل حول حرية التعبير، لم يكن سوى نفحة من حضارة نقتات على نتائجها، وننبهر بألقها، يسحرنا جبروتها، ويكسرنا من الأعماق تفوقها، ولكننا نأبى إلا أن نحجب الشمس بأكُفِنا).

هذا ما ختم به الأخ منصور النقيدان مقاله في صحيفة الرياض (١٧/٥/١٤٢٤هـ)، ـ وكان مما يثير ـ حنق أخينا (النقيدان) هو تساؤلات الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حول الحكمة من التشريعات الإسلامية وقد صوّر (النقيدان) الخليفة الراشد صورة تسيء إلى صحابيّ من أصحاب الرسول ﷺ، ومردُّ هذا التصوير ـ في نظري ـ أن النقيدان يسترجع بعض سلوكياته السابقة والمتشددة ويسعى للتخلص من ذكرياتها المُؤلمة بأن يُلصق ـ زوراً وبهتاناً ـ شيئاً منها لصحابة الرسول والذين رافقوا رسول الله ﷺ وتعلموا من أدبه وخلقه ما يجعلهم يستعظمون مساءلته ولا يحرّمونها لأنهم يوقنون بأن الرسول عليه صلوات الله وسلامه لا ينطلق في تشريعاته إلا من الوحي الإلهي ولم يكن ليضيق صدر رسول الله بهذه التساؤلات، ولا نعلم ماذا تريد يا أخي منهم ـ فإنهم سألوا ـ وهذا دليل على حرية التعبير ـ هم في نظرك متمردون! ـ وإن سكتوا فهم لا يفقهون حرية

الكلمة، وهذا شيء شنيع في حق صحابة رسول الله ﷺ وهم أجلّ وأعظم مكانة ومنزلة مما حاولت أن توحي به إيحاء عنهم، ولكنك حتى تصد عنك ما يمكن أن يترتب على سوء (الأدب) هذا مع الرسول وصحابته أوردت اسم (شيخ الإسلام ابن تيمية) ـ رحمه الله ـ وذكرت (أنه حورب لأجل اجتهاداته في حياته ومات مسجوناً مظلوماً) ولقد كان شيخ الإسلام يا أخي ـ معظماً لرسول الله وصحابته عليهم من الله سلامه ورضوانه ـ وما كان أغناك أن تزجّ به ـ فقط ـ ذراً للرماد في العيون، ولكن الأمر أوضح من نور الشمس التي زعمت أن البعض يحاول حجب ضيائها المغربي عنك.

نعم لقد كانت هناك سلوكيات لبعض أتباع المذاهب أبعد ما تكون من روح الإسلام ولكنها لا تُلغي الأصل ولا تمس الجوهر، وما دمت ذكرت في خاتمة مقالتك المذكورة بأننا نقتات على نتاجها، فإنني أحببت أن أورد أمثلة (لخروقات) كبيرة في الحضارة الغربية ـ وبعضها ـ كنتُ شاهداً عليه أثناء دراستي بالمملكة المتحدة.

وأود أن أطمئن أخانا النقيدان بأنني معجب أشد الإعجاب بما يدور في مجلس العموم البريطاني من مداولات وحريص على مُتابعتها ـ حتى اليوم ـ ولكن هذا لم يسلبني هويتي، ولم يجعل قلبي يمتلىء ـ لا قدر الله ـ نقمة وكراهية لتراثي وتاريخي، ولو عاش البعض في الغرب ما كانوا على هذا القدر من الانبهار بحضارة لم يعايشوها بل الأدهى من ذلك أنهم لا يملكون الوسيلة اللغوية التي يستطيعون من خلالها أو تمكنهم على الأقل من النفاذ لحضارة الغرب نفاذاً قوياً يمكنهم من وضع الأمور في نصابها الصحيح، ولما كان تقلبهم بين اليمين واليسار على هذه الدرجة من

الشدة والحدة والجفاء والغلظة فلا هم في اليمين مُعتدلون، ولا هم في اليسار منضبطون؟

فكان لا بد من إحاطة بعض مظاهر حرية الكلمة في الغرب والخروقات الخاصة بها وأورد لك هذه الأمثلة ـ يا أخي منصور ـ وبإمكانك إن أحببت أن تتأكد من صحتها ودقتها ـ لأنني أوردها موثقة بمصادرها الإنجليزية ومؤلفوها ليسوا عرباً ومسلمين.

فلقد برز في الستينيات الميلادية، مفكر وزعيم عمالي اسمه يهوجيتسكيل (Hugh-Gait Shell) ١٩٠٦ ـ ١٩٦٣م وكان الرئيس الأمريكي جون كيندي معجباً به، وألقى خطاباً مؤثراً في شهر أكتوبر ١٩٦٠، في مدينة (Scarborough) الإنجليزية، ضدّ من يسعون في حزبه للتخلص من السلاح النووي، وكانت الحرب الباردة على أشدّها، ولم يخسر جيتسكيل المعركة ـ وحدها ـ بل الأشد والأسوأ من ذلك أنه خسر حياته، فلقد توفي فجأة بعد ذلك.

انظر: David Childs Britain Since 1945 Benn Limited Ernest. p131 32 1979.

وظلت وفاة المفكر جيتسكيل ـ لغزاً حتى كشف عن ملابساتها ـ عميد سابق لجهاز المخابرات البريطاني اسمه (بيتر رايت (Peter Wright في كتاب له صدر في الثمانينيات الميلادية، تحت عنوان: (صائد الجواسيس) (Spy - Catcher) فهو يذكر في ص (٣٨٠) من الكتاب (وبعد وفاته ـ أي جيتسكيل ـ جاء طبيبه وطلب لقاء مع شخص مسؤول في (أم ـ أي خ) مقالة (آرثر مارتن) وشرح له الطبيب انزعاجه من الطريقة التي توفي بها (جيتسكيل) وقال إنه توفي إثر مرض جلدي يهاجم أعضاء الجسم. وقال

إن المرض نادر في البلاد ذات الطقس المعتدل. وأضاف بأن (غايتسكل) لم يكن في أي مكان يمكن له أن يلتقط هذا المرض). ويشير (رايت) إلى أن (جيتسكيل) سافر خارج بريطانيا قبل وفاته بشهر واحد، وأن أجهزة المخابرات كانت تخطط لعملية اغتيال سياسية عالية المستوى في (أوروبا) وذهب (جيتسكيل) ضحية الكلمة التي خاطب بها حزبه وهي: (سوف نقاتل، ونقاتل ـ مرة ـ أخرى ـ لننقذ البلد الذي نحب) وكان (جيتسكيل) يريد أن تكون (بريطانيا) مستقلة عن القطبين الكبيرين آنذاك ـ الولايات المتحدة ـ والاتحاد السوفيتي. وكان للكشف عن هذه المعلومة الهامة وغيرها أثر سلبي عند حكومة المحافظين بزعامة مارجريت تاتشر (ففي صيف: ١٩٨٧م، استنفرت أجهزة الجمارك في المطارات والموانىء البريطانية وبدأت عملية ـ تفتيش ـ لا مثيل لها، للقادمين، وخاصة من أمريكا، فقد خرجتْ) لندن عن وقارها المزعوم وديمقراطيتها العريقة لتشن حملة واسعة لاصطياد كتاب عنوانه (صائد الجواسيس).

(انظر مقدمة عماد القتوس للترجمة العربية من الكتاب ط٢، ١٩٨٨م وأزيد على ذلك أن (تاتشر) كلّفت وزيرها اليهودي آنذاك) ديفيد ينع (David Young)، بمصادرة الكتاب ومقاضاة صحيفة (الأوبزرفر الأسبوعية البريطانية، لنشرها مقتطفات من الكتاب بعد أن صدر أمر بعدم نشر أي شيء من محتويات الكتاب، وتم رفع قضية ضد الكاتب الذي فر إلى (كندا) ثم إن الكتاب ـ من ناحية أخرى ـ غير تلك المتصلة بقتل (زعيم) لمجرد أنه أراد حيادية بلاده من التجاذبات السياسية ـ آنذاك ـ، وهو يضيف جديداً في كيفية تصرّف الغرب إزاء الشعوب العربية التي كانت تطمع في التحرر ـ آنذاك ـ فهو يشير إلى عملية كانت سوف يقوم بها

جهاز المخابرات البريطاني (أم. آي. ٦) ضد الزعيم الراحل جمال عبد الناصر سنة ١٩٥٧م بسبب موقفه من تأميم قناة السويس، وإنني لسائل: أخي منصور النقيدان ـ ببساطة وعقلانية؟؟ ـ هل أن مثل هذه المصادرة الواضحة لحرية الكلمة سواء المتصلة منها بالتخلص من زعيم سياسي غربي لكلمات قوية عبر بها عن حبه لبلده ـ (بريطانيا)، ولم يشفعها بسلوك عملي، ولكن كان (داء الثعلبة) الذي حقن به (جيتسكيل) هو الرد الوحيد على كلماته في سكاربور كما أن محاولات عبد الناصر لتحرير قناة السويس هي دافع قوي لدى الديمقراطية البريطانية للتخلص منه كما يكشف عن ذلك رجل مطلع على أسرار الغرب ـ نفسه ـ وهي أي الحرية الغربية عند اتخاذها هذه القرارات لا تنظر إلى ما يترتب عليها من إزهاق أرواح وتلويث اليدين بالدماء، فكيف تفكر بعد ذلك بأنها مصادرة للكلمة الحرة وتكميم للأفواه.

هل أن مثل هذه الخروقات تُلغي ما اتفق عليه الناس منْ إيجابيات ومحاسن للديمقراطية الغربية؟ فكيف تأخذ سلوكيات البعض ـ في الحضارة الإسلامية ـ لتُلغي بها الأصل؟ والأنكى من ذلك بأن في كلماتك ما هو سوء أدب واضح مع النبي ﷺ وصحابته. اللهم أهد بعض أقوامنا فإنهم لا يعلمون ونوّر بصائرهم بنور اليقين.

(نادي المدينة الأدبي بين العقيق والآطام)

قامت الدولة السنية بإنشاء العديد من المؤسسات العلمية والحضارية في مدينة الرسول ﷺ ـ بحكم موقعها الديني والحضاري والفكري والذي تتوّج بقدوم المصطفى ﷺ إلى أرضها مهاجراً فشرفت به سماؤها وأرضها وتنوّرت بضيائه جبالها وأوديتها ولا يزال هذا الضوء يسري في الكون يبدأ من المدينة المنورة ليعم أرجاء الكون ثم يعود إلى مستقره وموطنه وذلك مصداقاً لحديثه ﷺ إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جُحْرها.

ومن هذه المؤسسات (الجامعة الإسلامية) والتي أدّت رسالة كبيرة في نشر الدعوة في جميع أنحاء العالم الإسلامي والعربي ولقد حان الوقت الذي يفترض أن تكون ضمن خطة هذه الجامعة العظيمة ورؤيتها المستقبلية إنشاء كليات علمية متخصصة إضافة إلى الكليات الأخرى النظرية الموجودة فيها. ومن هذه المعالم مطبعة الملك (فهد) للمصحف الشريف فالمدينة بلد القراءات، وكان يقصدُها طلاب العلم من أنحاء الأرض لأخذ علوم الشريعة ومنها الحديث الشريف، ولقد شدّ الرحال إلى أرضها جميع المصلحين والدُّعاة من أمثال: المشايخ، ولي الله الدَّهلوي. ومحمد بن عبد الوهاب والبشير الإبراهيمي. وشكيب أرسلان، والعربي زرّوق،

ومحمود التركزي، ومحمد بن علي التركي ـ الذي كان من أكثر علماء عصره زهداً وجرأة في الحق.

ولقد أنشأ سمو أمير المدينة السابق ـ الأمير عبد المجيد بن عبد العزيز ـ جائزة تحمل اسم المدينة المنورة، وأصبحت إحدى الجوائز المتميزة لاعتنائها بالثقافة والفكر وتشجيعها طلاب العلم على التلقي في جميع فنون المعرفة الكونية. كما أنشىء في عهده مركز المدينة للدراسات والبحوث التاريخية، وأضحت مجلّته التي يرأس تحريرها الزميل الدكتور عبد الله عسيلان من أكثر المجلات العلمية المتخصصة انتشاراً وعني المركز بنشر الكثير من الوثائق المتعلقة بتاريخ المدينة. ولقد واصل سمو الأمير مقرن بن عبد العزيز ـ المسيرة ـ فكرّم العديد من المفكرين والأدباء من خلال نادي المدينة الأدبي في الجزيرة العربية حيث انطلقت بداياته من أسرة الوادي المبارك والتي ساهم أعضاؤها من أمثال الأساتذة والأدباء: محمد سعيد دفتردار، وعبد العزيز الربيع، وعبد السلام هاشم حافظ ومحمد هاشم رشيد، وماجد أسعد الحسيني، ومحمد العامر الرميح، وعبد الرحيم أبو بكر ـ رحمهم الله ـ والبقية المباركة من أمثلة: أساتذتنا الكرام: محمد حُميدة وحسن الصدقي والدكتور محمد العنيد الخطراوي وعبد الرحمن رفّة وناجي حسن عبد القادر الأنصاري ومحمد كامل هجا ومحمد صالح البليهشي، والسيد جعفر سبيه، ودخيل الله الحيدري، وأنور حريري ـ أطال الله في أعمارهم ونفع بهم ـ وبالبقية الطيبة من أهل الأرض المباركة.

في زيارتي الأخيرة ـ أهداني ـ الأستاذ والمؤرخ ناجي الأنصاري العدد الجديد من ملف العقيق الثقافي والأدبي المحكّم ـ وحمدتُ للنادي تضمين

العدد ملفاً كاملاً عن حياة فقيد العلم والمعرفة، ورئيس تحرير الملف السابق ـ (الدكتور محمد أحمد الرويشي) ١٣٦٤ ـ ١٤٢١هـ.

وقد توقفت عند الكلمة التي كتبها ابنه معتز بالله عن والده والتي ذكر فيها كيفية تعامل الوالد الواعي مع ابنه (كل صباح لا أنهض من النوم إلا على جرس التليفون وصوته الحنون يصبح علي ويدعو لي وعند خروجي من الجامعة لا ينام القيلولة حتى يطمئن أنني عدت إلى المنزل) ولقد كان اختيار الأستاذ محمد البليهشي المريد الوفي للأستاذ المرحوم عبد العزيز الربيع لرئاسة تحرير الملف اختياراً مباركاً نهنىء عليه رئيس النادي والمشرف العام على الملحق أ ـ د ـ عبد الله عبد الرحيم عسيلان وبقية أعضاء النادي.

كما تفضل الابن والزميل الكريم الأستاذ محمد إبراهيم الدبيسي بإهدائي نسخة من دورية (أطام) والتي يشرف على تحريرها أستاذنا الدكتور محمد العيد الخطراوي، ويقوم المبدع الدبيسي بالمشاركة فيها كنائب لرئيس التحرير والزملاء الكرام عيد الحجيلي، وعبد الحفيظ الشمري أعضاء في هيئة تحريرها، وتضمن الدورية محاور للإبداع والدراسة وأهنىء الأخوة الكرام على اختيار نماذج من شعر الحنين لطيبة الطيبة، وقد لفت نظري النص الشعري لشاعر النهضة العربية الموسوم (الحنين إلى المدينة) والمنشور في العدد الرابع والعشرين من الدورية ١١ شعبان ١٤٢٣هـ اكتوبر ـ نوفمبر ٢٠٠٢م والقصيدة مهداة إلى رجل الأدب والفكر في بلادنا المرحوم محمد سرور الصبان.

وقد استفادت الدورية من مجلة المنهل ـ المحرم ١٣٧٣/هـ في نشر هذا النص الشعري الجميل، وبين يدي الطبعة الأولى من ديوان

(الخطيب)، وقد صدرت سنة ١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٩/م وتمت الطباعة بـ (دار المعارف المصرية)، وجاء في مقدمة القصيدة في الديوان هذه الأسطر: ص٤٥٣ ـ ٤٦٢) بعث الشاعر ـ بهذه القصيدة من دار الغرفة إلى رفيق الشباب وزعيم الأدب ونضيره في الوطن الأقدس صاحب المعالي ـ محمد سرور الصبان وذلك في عام ١٣٧٣/هـ ـ ١٩٥٣/م.

وكان الصبان رحمه الله وفياً كعادته، فلقد ذكر الأستاذ رياض فؤاد الخطيب في مقدمة الديوان بأن الشيخ محمد سرور الصبان بادر ـ آنذاك (بطباعة الديوان على نفقته وفاءً منه لصديقه الراحل وبراً بالأدب وأهله، وبفضله وتشجيعه قدِّر لهذا الديوان أن يرى النور).

وكما قام أستاذنا الدكتور الخطراوي بجمع إنتاج الرائد في فن القصة محمد عالم أفغاني وتقديمه للدارسين، فإنني أقترح على الزميل الأديب الدكتور عبد الله عسيلان ـ وهو أهل للوفاء ـ بأن يقوم النادي بإعادة طباعة بعض كتب (الصبان) مثل (أدب الحجاز) و(المعرض) فما أحوج الناشئة لمعرفة دور الرواد في هذا البلد المعطاء.

أهمية الحفاظ على التاريخ والأثر في مأرز الإيمان

تحدثت قبل أسبوعين عن النخيل في المدينة المنورة بين الماضي والحاضر وخاطبت معالي المهندس عبد العزيز الحصين بضرورة رعاية ورعاية الأثر وحمايته من أيد متشددة ونفوس جامحة، وعقول تملؤها الأوهام عن الآخر وتفسيقه وتبديعه، وهو أمر لم تعرف مثله المدينة في تاريخها الإسلامي الطويل ولقد كانت السماحة والرفق سمة من سمات المجتمع المدني، وتستطيع أمانة المدينة بصفتها الرسمية والمعنوية أن تكون سداً منيعاً أمام شطحات من ليس لهم سوى الإزالة والهدم والمحو.

ولقد تفضل أحد أبناء المدينة وهو الأخ والجار القديم في حي قباء زكي مبارك محمد رجب فدعاني هو والأخ النبيل رضا زيتوني إلى جلسة ضمت وجوهاً كريمة لم أرها منذ زمن بعيد وفيهم من هو صاحب ذاكرة تاريخية قوية مثل الأخ سعود شربيني والذي أتى على ذكر عدد من الأماكن القديمة في المدينة مثل، التاجوري، والمحمودية، والحجارية، وهذه كانت بستاناً من بساتين المدينة التي تقام فيها الحفلات عند قدوم الملوك والزعماء إلى البلدة الطاهرة، لذا فإنني أدعو الأمانة أن تطلق هذه الأسماء التاريخية العريقة على الأحياء الجديدة، فلقد أطلق أحد رجال الأعمال في جدة مسمى (العنبرية) على استراحة في طريق المدينة وبالتحديد في منطقة

(ذهبان) واختار للطرق الموصلة بين منشآت الاستراحة أسماء بعض الأماكن والشخصيات التاريخية، وتظل أسماء مثل (العنبرية)، و(الساحة) و(العينية) محفورة في الذاكرة التاريخية للمدينة، بينما نطلق أسماء جديدة على كثير من الشوارع فلا يلتفت الناس إلى الاسم الحديث ويظل الاسم القديم هو الأكثر صموداً وبقاء وذلك لارتباطه بنواح تاريخية أو أحداث اجتماعية، ففي (مكة) مثلاً: لا تزال (الشامية) و(النقا) و(الشعب) و(سوق الليل). من المسميات الخالدة على مر الأجيال، وكذلك (العلوي)، و(اليمن) و(المظلوم) في جدة، وبرحة (ابن العباس) في الطائف. والملز في الرياض وسويقة في (ينبع)، لا تزال هذه الأماكن بمسمياتها تمثل تراثاً حضارياً وفكرياً وأدبياً، فنحن إذا ما قرأنا الشعر الذي أنشده المبدعون من أمثال ابن الفارض، والبرعي، والبوصيري، وحديثاً لضياء الدين رجب وعبيد مدني وعلي حافظ، وعلي زين العابدين، ومحمد حسن فقي، وأحمد قنديل، وحمزة شحاتة وحسن الصيرفي وغيرهم. هذا الشعر تغنى ببعض المواضع والأماكن التي أتينا على ذكر بعضها في هذا المقال، ولا نستطيع أن نشيح بوجوهنا عن هذا التراث الفكري والأدبي ومن واجبنا جميعاً أن نتعامل معه بالصورة التي تناسب العصر وتواكبه، وتجمع بين الأصالة والمعاصرة في سجل واحد. يتوحد ولا يتفرق، ويتصل ولا يتجزأ، ويتأخر ولا يتشتت، والاتصال والتآخي مما نحتاجه في حياتنا في هذا الأمر وسواه والله ولي التوفيق.

إدوارد سعيد بين عداء لويس وتنظيرات القشطيني

التاريخ هو الأول من سبتمبر ٢٠٠٣م. الموافق لـ ٤ رجب ١٤٢٤هـ، والمطبوعة هي صحيفة (الشرق الأوسط الدولية)، والكاتب هو الصحافي خالد القشطيني، والموضوع يحمل عنواناً مثيراً (إدوارد سعيد يفوته القطار)، وذلك يعني أن القشطيني الذي كتب مقالة يهاجم فيها إدوارد سعيد الذي عاش في الغرب أكثر مما عاش القشطيني، واعترفت به المؤسسات الغربية أستاذاً ومحاضراً وناقداً ومنظراً وموسيقياً... مما لم يحظ به أي أكاديمي أو كاتب في هذا العصر قد حاول ـ أي القشطيني ـ أن ينال من النسر الشامخ وهو جريح، وغضب القشطيني يتركز بأن سعيد الذي يتحدث من منابر غربية معروفة يؤكد على أن الوجود الأمريكي في العراق ما هو إلا ضرب من ضروب الإمبريالية بينما يصر القشطيني في رومانسية حالمة وعجيبة بأن رامسفيلد الوزير الأمريكي وشرذمته من المحافظين المسيحيين الجدد والمؤمنين بالمشروع اليهودي في فلسطين ما جاؤوا إلا لإنقاذ الأمة وجعل هذه البقعة نبراساً ومثالاً للديموقراطية الغربية الموعودة بمعنى أنه ليس لديهم أي أطماع رأسمالية ومادية وهذا ما تعترف به المؤسسات الأمريكية نفسها بينما ينفيه القشطيني الذي يزعم أنه بذل جميع سني حياته أكثر مما بذله (سعيد) لتطوير العالم العربي وتحديثه وعلى الكاتب القشطيني الذي اختار وقتاً مريحاً له للهجوم الجارح على

(سعيد) وهي الأيام الأخيرة من حياة هذا المفكر العربي بل العالمي الكبير، نعم لقد وجب على القشطيني أن يبرهن على أنه حمل الراية لتطوير العالم العربي بينما اكتفى الآخرون بالمشاركة في هذه المسيرة المباركة التي قادها بمفرده (انظر: الشرق الأوسط، الاثنين ٢٠٠٣/٩/١م ص ١٩).

لقد تعرض (سعيد) لنقد وهجوم وشتيمة من أساطين الاستشراق في العصر الحديث وفي مقدمتهم الكاتب الصهيوني واليهودي برنارد لويس كما هاجمه أصحاب التوجهات الماركسية في العالم العربي من أمثال صادق جلال العظم والذي أزعجته مقولة إدوارد سعيد في كتابه ذائع الصيت (الاستشراق) والذي صدر سنة ١٩٧٨م. والتي ذكر فيها أن التحليلات الاقتصادية التي قدمها (كارل ماركس) حول آسيا تتلاءم تماماً وكلياً مع المشروعات الاستشراقية العادية وقد ضمن (العظم) دفاعه عن الماركسية التي اعتبرها (سعيد) لا تختلف عن الرأسمالية في رؤيتها للشرق واستغلالها له سياسياً واقتصادياً كتابه الموسوم (الاستشراق والاستشراك معكوساً) والصادر عن (دار الحداثة في بيروت).

ولقد أشاد (سعيد) في كتابه (الاستشراق) بالمفكر الغربي نورمان دانيال والذي اعترف بأن أحد القيود التي أثرت على المفكرين المسيحيين الذين حاولوا فهم الإسلام كان قيداً مصدره منطق المشابهة، إذ بما أن المسيح هو الأساس الذي يقوم عليه الإيمان المسيحي افترض هؤلاء المفكرون خطأً أن موقع محمد من الإسلام هو كموقع المسيح من المسيحية، ومن هنا جاءت تسمية الإسلام باسم مثير للجدل وهو المحمدية.

وبهذا يكون (سعيد) الذي دافع عن حضارة الإسلام دفاعاً عقلياً

ومنطقياً قد استشرف الوضع العالمي قبل ما يقرب من ربع قرن من الزمن، وهي أن العامل الديني يلعب دوراً كبيراً في رؤية الغرب للعالم العربي والإسلام، كما وضح (سعيد) أيضاً دور وسائل الإعلام الغربية في تشويه صورة العربي والمسلم من خلال كتابه الذي أصدره في بداية الثمانينيات الميلادية وهو (تغطية الإسلام) ولم يحل وجود (سعيد) في الغرب دون دفاعه عن قضيته الوطنية (فلسطين) والتي غادرها إلى المنفى سنة ١٩٤٧م وكان عمره آنذاك حوالي ١٢ عاماً لأنه ولد في القدس سنة ١٩٣٥م، وعندما قام سعيد بتثبيت هويته الفلسطينية من خلال كتابه الذي أصدره باللغة الإنجليزية بعنوان (بعد السماء الأخيرة) (Faber and faber, 1986) واسم الكتاب مأخوذ من أبيات للشاعر الفلسطيني المعروف محمود درويش والتي يقول فيها:

إلى أين نذهب بعد الحدود الأخيرة.

أين تطير العصافير بعد السماء الأخيرة.

وهي تشكل مقطعاً شعرياً من قصيدته التي أبدعها بعد خروج منظمة التحرير من بيروت في سبتمبر ١٩٨٢م بعد تثبيت (سعيد) لهويته الفلسطينية المقدسة شنت عليه بعض الدوريات الصهيونية هجوماً شديداً إلى الحد الذي زعمت فيه أن أسرته لم تكن تملك داراً خاصة بها في مدينة (القدس) مما يوضح الهوس الصهيوني الشديد بأسطورة أرض الميعاد. وإذا كان السلوك يعد معياراً أساسياً في تحديد هوية المثقف، فإن (سعيد) لم يمنعه حمله للجنسية الأمريكية وتدريسه في أرض جامعاتها من زيارة الجنوب اللبناني بعد تحريره ومشاركة عامة الناس فرحتهم وسرورهم برحيل العدو بعد عقدين من الزمن ولم يسلم بعد هذا الموقف الوطني من حملة

صهيونية شرسة ولكنه لم يعبأ بها، وكان بإمكان سعيد أن يفعل مثل عدد كبير من العرب الذين هاجروا ونزحوا ونسوا أرضهم وقضيتهم ولكنه بحكم ضميره الإنساني المتوهج آثر أن يكون مدافعاً عن قضيته وهويته وتراثه وحضارته إلى آخر أيام حياته وهذا هو النضال حقاً.

كيف نعذر من شجعوا على ثقافة التشدد وانحازوا للرأي الواحد؟

يجب أن نكون صرحاء مع أنفسنا قبل أن نكون كذلك مع الآخرين فالأزمة التي نعيشها ـ اليوم ـ على أكثر من صعيد ـ وذلك لا يمثل عيباً أو نقيصة فجميع أمم الأرض تعيش أزمات وتمر بظروف صعبة ـ إن هذه الأزمة تتلخص في دور (الكلمة). (فالكلمة) التي جاء بها الإسلام هي مفردة مترسخة في قاموس الحب والوئام وحسن الظن، والكلمة التي نهى عنها وحذر منها ديننا هي كلمة الغلظة والجفوة وسوء الظن أو افتراضه على أكثر من صعيد، ولقد وحد المغفور له الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ هذه الأرض بمفردات في غاية السمو والشفافية ـ وواجه كلمات التشدد والانحراف التي برزت قبل ـ حوالي سبعين عاماً ـ والتي تتصل برأي فئة متشددة إزاء وسائل الحضارة المعاصرة، قابلها ـ رحمه الله ـ بعدم الانصياع لتلك الفئة فلقد كان يدرك ـ رحمه الله ـ حجم الخسارة التي سوف تنتج من الانسياق وراء هذا التشدد أو مداهمته، فبرزت أسماء وقامات شامخة في ميدان الثقافة الإسلامية معروفة باعتدالها من أمثال المشائخ، عبد الله بن بليهد، وعبد الله بن حسن آل الشيخ، وحسن المشاط، وعباس مالكي وعبد الله خياط وصالح الزغيبي وألفا هاشم وعبد المؤمن وعبد الظاهر أبو السمح ومحمد بن مانع، وعبد الرزاق حمزة،

وطاهر الدباغ، وأبو بكر داغستاني ـ رحمهم الله ـ وأن الناس لتترحم في هذا البلد على جيل من العلماء الربانيين الذين آمنوا بوحدة الوطن، وحذروا من الانسياق وراء العصبيات القبلية والنزعات الفئوية المضللة، وتعاملوا مع مدارس الفكر الإسلامي المتعددة بكثير من سعة الأفق ورحابة الصدر، فلم يمنع مثلاً: عالم (مالكي) متعمق مثل الشيخ عمر بن حمدان المحرسي ـ رحمه الله ـ من الاختلاف مع معاصريه من أقطاب المدرسة المالكية في قضية الإسبال في الصلاة، وكان فضيلة الشيخ عبد العزيز بن صالح ـ إمام وخطيب المسجد النبوي الشريف ـ يسمح لأتباع مدرسة الإمام أبي حنيفة ومنهم الشيخ الحافظ عباس القارىء من أداء صلاة الوتر على المذهب الحنفي بعد انقضاء صلاة الجماعة في شهر رمضان المبارك، وأتذكر هذا الأمر الذي كان يجري على مسمع ومشهد الجميع على مقربة من خوخة أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وقام فضيلة الشيخ عبد الله الخليفي ـ رحمه الله ـ أحد أئمة المسجد الحرام بأداء دعاء القنوت في صلاة الصبح جرياً على رأي مدرسة الإمام الشافعي حتى يوضح للناس بأن دعاء القنوت له أوقات مختلفة، ولم يمنع أخذ الشيخ الخليفي بمذهب الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ على الأخذ برأي آخر معتمد وله دلالته على احترام الرأي الآخر ولا أعرف ما هي ردة فعل بعض طلاب العلم المتشددين لو سمعوا إماماً يجهر بالبسملة في الصلاة على رأي الإمام الشافعي، أو أنهم رأوا فضيلة الشيخ الرَّباني عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله ـ يقف مسلماً على القبر الشريف، وهو ليس في حالة سفر بل في حالة إقامة حيث كان رئيساً للجامعة الإسلامية بالمدينة؟ ترى ما هو قولهم؟ وهل يشكك أحد في مرجعية هؤلاء العلماء الدينية؟ ولقد نقل إليَّ من أثق فيه أن أحد طلاب العلم في مكة المكرمة يبحث عن المساجد التي تصلي صلاة التراويح عشرين ركعة فيكتب لجهات دينية مسؤولة عن فساد الإمام

الذي لا يأخذ برأي محدث العصر في صلاة التراويح ـ إحدى عشرة ركعة فقط ـ مع أن إجماع المسلمين على عشرين ركعة ثم يوتر بصلاة، فلقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في الجزء الأول من الفتاوى (ثبت أن (أبي بن كعب) كان يقوم بالناس عشرين ركعة في رمضان ويوتر بثلاث فرأى الكثير من العلماء أنه هو السنة لأنه قام بين المهاجرين والأنصار ولم ينكره منكر)، وفي مجموع الفتاوى النجدية (إن الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ ذكر في جوابه عن عدد ركعات التراويح ـ أن ـ عمر ـ رضي الله عنه، لما جمع الناس على أبي بن كعب كانت صلاتهم عشرين ركعة) وصلاة التراويح من عهد الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ إلى هذا العصر الذي نعيشه ـ تصلى في المسجدين الشريفين عشرين ركعة، فكيف نحاسب إمام مسجد آخر على عدم أخذه برأي محدث العصر ـ على زعمهم ـ والمسجدان الشريفان يسيران على ما يسير عليه المسلمون في جميع أنحاء العالم الإسلامي.

إني قصدت بإيراد هذه القضية أي صلاة التراويح والخلاف فيها موجود ـ كمثال حي فقط إلا أن الأمر تطور إلى حد غريب، فوجدنا من بعض طلاب العلم من ينسبون إلى الضلالة كل من صلى صلاة التراويح عشرين ركعة ووصل بهم التشدد إلى أن يشبهوا الزيادة في التراويح على إحدى عشرة ركعة بمن يصلي الظهر خمس ركعات وسنة الفجر أربع ركعات، ولقد قرأت هذا القول الخطير الذي يدل على قصور في الفهم وانغلاق في التفكير، وانتصار للرأي الغريب والشاذ، يقول من غذوا فكر التشدد في بلادنا (ما مثل من يزيد في التراويح على عشرين ركعة إلا كمن يصلي صلاة يخالف فيها صلاة النبي ﷺ المنقولة عنه بالأسانيد الصحيحة، فهو كمن يصلي الظهر خمساً، وسنة الفجر أربعاً وكمن يصلي بركوعين وسجدات).

يقول الشيخ محمد علي الصابوني في كتابه القيم (الهدي النبوي الصحيح في صلاة التراويح) تعليقاً على هذا الرأي الغريب وهذا أوضح في الجهل وسوء الفهم من الشمس في رابعة النهار! إذ كيف يسوغ لعالم يدعي المعرفة والنبوغ، بل ويزعم الاجتهاد في أمور الدين، أن يقيس الفريضة على النافلة ويجعل الزيادة في صلاة قيام رمضان كالزيادة في الصلاة المفروضة) ص ٨٢، ولنشاهد آثار مثل هذا التعصب على أبنائنا، فإذا رأى الشاب الذي ليس له من علوم الشريعة وأحكامها نصيب ـ أن أباه وأمه يصليان صلاة التراويح عشرين ركعة ولا يأخذان برأي شيخه ـ الغريب ـ مع أن المسألة تدخل في باب النافلة ـ إذا رآهما الابن أو الابنة على ذلك اتهمهما في عقيدتهما لأن شيخه قاس الفريضة على النافلة) فوهم هذا الابن أو تلك الابنة بأن التقصير في هذه المسألة يدخل في باب الأعيان والفروض، ومن هنا يشق عصا الطاعة، ويحيل البيت إلى ساحة للخصام والشقاق، ثم يزيد أن شيخه أفتى له بأن لبس الذهب للمرأة حرام, مع إجماع الفقهاء على جواز لبس الذهب للنساء، فإذا رأى مثلاً ـ والدته تلبس شيئاً من حليها خاصمها وربما لج في خصومته، ومن هنا تتأسس مشكلة العصيان والخروج على المجتمع بداية من المنزل وانتهاء بما هو أشد وأعظم، لذا فإنه يفترض محاسبة من تسببوا وما زالوا يعملون على نشر ثقافة التشدد والانغلاق المنطلقة من رأي آحادي عقيم في قضايا ليس لها صلة بما هو معروف من الدين بالضرورة بل في أمور فرعية محضة وهذا الذي عرضنا له جزء يسير من مشكلة حقيقية نعاني منها في ساحة الثقافة والفكر ولقد حان وقت المصارحة والمكاشفة.

الطيب في علاقات حرجة وانعكاسات المشهد الحضاري والفكري

سعادة الأخ الكريم الأستاذ محمد سعيد الطيب ـ الثلوثية

لقد كنت ـ دوماً ـ الحفيّ بالكتاب، يوم أعطيته انطلاقته الحقيقية في بلادنا، وإن لم يؤازرك ـ يومها ـ واقع ثقافتنا وفكرنا، فارتفعت أصوات (العدّال) من كل مكان تلومك على ما فعلت وكنت وما زلت أقول إنه لولا تلك المبادرة الجريئة لما عرف جيل اليوم ما يفترض أن يعرفه ولو في ـ الحد الأدنى ـ عن شحاته والعوَّاد، وعبد الله عبد الجبّار، وغيرهم.

ونظرت إلى الكتاب الذي أهديت ـ متفضلاً ـ وظننت أن (علاقات حرجة) من تأليفك، فإذا أنت الذي قدّمت للكتاب، ثم قدمته للزملاء في الساحة وغاب عن الفعل الجميل مؤلفه، وتلك مأساة (المؤلفين) الذين يصعدون السُّلمَ في الزمن الصعب أو الحرج.

قرأت المقدمة يا عزيزنا كما ألمحت في الإهداء (بشويش)، ووجدت أن نصيحتك في محلها... فتوقفت كثيراً عند قولك (إننا بحاجة إلى استراتيجية إعلامية عربية جديدة، تتعامل مع هذا الواقع بفكر متفتح وخطة إعلامية جادة لا تقتات من إرثها الإعلامي العتيق الذي يعتمد على مخاطبة الذات)... أخي... أبا الشيماء... إن السياق الحضاري والفكري الذي

تعيشه الأمة ـ منذ زمن ـ هو السبب وراء هذا التخلف أو التعثر أو التشنج الإعلامي الذي أشرت إليه في عبارات مكثفة وموحية بل وموجعة، وما أحوج الأمة إلى الألم الذي ـ ربما ـ قادها إلى الاستيقاظ من هذا السبات الطويل، نعم... عزيزي... لقد فاتنا أننا رمينا وراء ظهورنا مفردات الحضارة التي ورثنا إياها هذا الدين الخاتم والذي اختار له جزيرة العرب موطناً ومنطلقاً، ليس كخاصية لما يزعم أحدهم في تلك السلالة النقية من دماء الروم والعلوج كما فجعنا به أحدهم فيما أطلق عليه (خصائص الجزيرة العربية)، وقاد الهوى مؤسسة رسمية لنشره والترويج له، وهذا يعني أننا نخرج من تاريخنا قسراً بحسب رأي الكاتب: ابن المقفع، وابن قتيبة، والغزالي، وابن سينا، والفارابي، والرازي وحتى أحمد شوقي ـ لينعم هو ـ ومناصروه ـ بالسلالة النقية من الدماء المختلطة. كانت مفردات حضارتنا تعني باحترام الرأي الآخر فلم نسمع عن لغة التكفير التي سادت إلا في العصور المتأخرة والتي توسعت فيها دائرة نشر العلم والثقافة، إلا أنها استغنت عن تلك الروح التي سادت والتي عبر عنها سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه عندما سُئل عن الخوارج، هل هم كفار: فقال ما معناه: هم من الكفر فروا، ثم سُئل هل هم منافقون، فقال ما معناه ـ إن المنافقين لا يصلون كثيراً وهؤلاء يقومون الليل ويصلون كثيراً، فقالوا مخاطبين خريج مدرسة النبوة الصادقة: إذاً من هم؟ فكان رد ابن عم رسول الله ﷺ (هم إخواننا بغوا أو خرجوا علينا)، وهي المفردات التي عبر عنها الخليفة أبو جعفر المنصور والذي خاطب جلساءه مادحاً زهد العالم المعتزلي المشهور عمر بن عبيد فقال في حقه: (كلكم طالب صيد إلا عمرو بن عبيد)، وروى بعض أصحاب الحديث عن ابن عبيد هذا، والسؤال الذي نبحث يا أبا الشيماء عنه سوية: ماذا لو وجد هذا الرجل ـ

بعلمه وزهده أو قيمته الفكرية والعلمية ـ في هذا العصر... هل سوف تكون فرصة لنلتف حوله أو نأخذ عنه أم أن التهمة سوف تكون جاهزة... ودعني اختلف معك يا أبا الشيماء وأعلم أن صدرك يتسع لهذا وسواه في داخل مجلسك أو خارجه.

إن ما نشاهده اليوم من سوق الناس في الولايات المتحدة إلى الأقفاص والزنزانات وافتقار محاكمة المتهمين كما ذكرت إلى الحد الأدنى من العدالة أو مقومات الحياة إن هذا وسواه ليس بغريب على الحضارة الغربية المادية، فهي ألقت القنابل على هيروشيما ونجازاكي، وهي التي حاولت أن تبيد شعب فيتنام، وهي التي قتلت الأبرياء في حادثة صيد الحمام في دنشواي، وهي التي أذاقت عمر المختار صنوف العذاب من فوق المشانق، وهي التي كانت وما زالت تنظر إلى جرائم (بيجن) و(شامير) و(شارون) في (دير ياسين)، (وكفر قاسم)، و(قبية)، و(صبرا وشاتيلا) و(قانا)، نعم: إنها تنظر إليها أو من خلال بعض دوائرها المتخصصة بكثير من الإعجاب، فمرأى الدماء ـ غير اليهودية والمسيحية ـ لا يثير شفقة ولا يستحق إدانة، نعم: إنها حضارة المادة والتي نشأت بعيداً عن الدين، ويفترض علينا بعد هذه العقود الطويلة من التعامل مع الغرب أن ندرك بأن مفاهيم الشفقة والرحمة والعدالة هي أساس حضارة هذا الدين الإسلامي ولكننا مطالبون بأن نجسدها في سلوكياتنا إزاء بعضنا البعض، كما فعل ذلك سيد البشرية محمد بن عبد الله عليه صلاة الله وسلامه وصحابته والتابعون من بعدهم، وكان تجسيدهم لها عن صدق هو القوة الحقيقية وراء انتشار هذا الدين العظيم حتى عند أصحاب الشعور الشقراء، والعيون الزرقاء، والبشرة البيضاء، فهم لم يسمعوا كلمة أعلاج وروم،

والتي جاءت للأسف من أحد المحسوبين على العلم وأهله يقول حامل لواء السلالة النقية (وعليه فينبغي سد منافذ التهجين لأول رائد للإسلام: العرق العربي، لتبقى سلاسل النسب صافية من الدحل، وملامح العرب سالمة من سحنة العلوج والعجم، صانها الله من تلكم الأذايا والبلايا)... ترى إلى أي اتجاه نسير، وأي الطرق نتخير ونريد؟ وتحت أي (الرايات نقاوم؟) وترى ماذا نحن قائلون لأمهات المؤمنات الطاهرات من أمثال مارية القبطية وصفية بنت حيي بن أخطب،وأنّى لنا بهذا الأسلوب الانتقائي والشاذ نفاخر بأنه في تاريخنا الحضاري ـ العظيم ـ تزوجت زينب بنت جحش الهاشمية بـ (زيد بن حارثة) الذي سمي لعظم منزلته عند رسول الله ﷺ بـ (حِبّ رسول الله)، وهو الذي عقد اللواء ـ بعد انتقال الحبيب إلى الرفيق الأعلى ـ لابنه أسامة على جيوش العرب النقية كما تقول المرجعية الجديدة، فقاد الصحابي الهاشمي عبد الله بن عباس رضي الله عنه خطام ناقته، وقال الحبر قولته المشهورة (هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا)؟ وإنني لأحس بشخص الصحابي ـ الذي قطع الفيافي والمسافات ـ باحثاً عن نبي آخر الزمان حتى استقر به المقام بالمدينة التي لا يطيب للبعض حتى أن نصفها (بالمنورة)، إنني لأحس بسيدنا سلمان الفارسي رضي الله عنه يعاتبنا بشدة على هذا المنحى الخطير جداً ويقول ألم يقل رسول الله ﷺ في حقي: سلمان منا أهل البيت، وعلى هذا النهج سار الصحابي الجليل عمر بن الخطاب فقال أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا... يعني بلال بن رباح رضي الله عنه.

شكراً... أبا الشيماء... فلقد أخذت بنصيحتك في الالتزام بالقراءة المتأنية وكان الفضل بعد الله لك في هذه الشجون والتباريح المؤلمة.

عبد الله عبد الجبار . .
في الشامية سمعتُ عنه وفي لندن وجدتُ أثره

لا أعرف أين ومتى قابلت الصديق وليد بن عبد العزيز بن منصور التركي وهو ابن الملحق السعودي الثقافي في لندن ولكن المحبة سرعان ما وجدت لها مكاناً فسيحاً في القلوب، وركب (وليد) القطار من لندن حيث كنت أدرس في لانكستر، وأول ما لاحظت على أخي وليد أنه كان يلبس لباساً لا كلفة فيه وكان وديعاً، ولقد أدركت خؤولته في بلد المصطفى ـ ﷺ ـ وهم أسرة كريمة، فجده لأمه هو الأستاذ عبد الحميد عنبر ـ أحد رؤساء تحرير هذه الصحيفة الغراء.

كان وليد يدرس المحاماة ولكن لاحظت أن لغته العربية من الجودة والإتقان بحيث خلت أن (وليد) درس في الصولتية أو الفلاح أو العلوم الشرعية والناصرية.

وحملني ما نشأ بيننا من ود صادق أن أطرح عليه السؤال: كيف أجاد العربية وهو نشأ حيث يعمل والده ـ رحمه الله ـ في مدينة شكسبير، وتشارلز ديكنز، وبرنارد شو، فأجابني أنني أدين في هذا كله للأستاذ عبد الله عبد الجبار، لم يكن الاسم غريباً عليّ، فلقد نشأت شغوفاً إن لم أكن مغرماً بـ (حمزة شحاتة) شاعراً وناثراً وبـ (عبد الله عبد الجبار) كاتباً وناقداً

وأكاد أقول فيلسوفاً، وذهبت عندما حللت بالشامية وفي أم القرى ـ طالباً ونزيلاً والإخوان الطيب ود. عصام قدس، ومحمد عمر العامودي يعلمون تعلقي ببرحة القطان، ومنكابو، وطلعة القرارة، وجلسة (البازان) في كنف الوالد عبد الله بصنوي ـ رحمه الله نعم لقد ذهبت مع العم الأديب حمزة بصنوي لدار الأستاذ الأديب والمتحدث المفوه إبراهيم فودة، وكان بينه وبين (العم) حمزة من الود مما لا أرى له مثيلاً بين الأصدقاء، وهمس أبو (إبراهيم) في ذهن صديقه (الفودة) الذي كان أنيقاً في حديثه، في لباسه، في كل شيء حوله، وأدخلني مكتبته وأخرج لي من بين الكتب الكثيرة كتاب (التيارات الأدبية) للأستاذ عبد الله عبد الجبار، وأكاد أزعم أن الجانب النقدي فيه لأدبنا يبقى متميزاً بحيث لم يستطع أحد مجاراته فيه، والتميز يأتي من أن (عبد الجبار) خبير بأسرار الكلمة الشاعرة كخبرة صانع (الذهب الحر) ببضاعته، فلقد تحدث عبد الجبار في كتابه هذا عن واقعية وكلاسيكية ورومانسية عربية، باختصار لم يكن أستاذنا ناقلاً ومترجماً ولكنه هضم هذه المصطلحات الأدبية وتمثلها في داخله، ثم طبقها على شعرنا العربي، وباختصار فإن الآخرين ينقلون وعبد الجبار يبدع وهو كتاب في النقد، كما يبدع وهو يكتب في النثر قاصاً مسرحياً، أو دارساً للمشهد الثقافي العربي كما هو الشأن في (الغزو الفكري).

وعندما وقع بيدي كتاب الأستاذ المرحوم ـ مصطفى السحرتي ـ الشعر العربي في ضوء النقد الحديث ـ وجدت أن المقدمة التي كتبها الأستاذ عبد الجبار شكلت كتاباً آخر ولكن تواضع الأستاذ لم يحمله على التفوه بشيء عنها، ونقل لي (أبو الشيماء) أن الأستاذ حفي حتى اليوم بأسرة السحرتي ولن أزيد فأخشى من غضبة الأستاذ.

وحملتني قدماي (لثلوثية) الأستاذ الطيب لأجد أمامي تلك القمة الشامخة، أعني (عبد الله عبد الجبار) ـ واستأذن الأستاذ من أبي الشيماء أنه يريد الحديث معي على انفراد في مقصورة تذكرني (بخلوات الداودية) في باب الباسطية.

كان الأستاذ عبد الجبار يتحدث، وكان في الحقيقة يلقي عليّ درساً في الدين لقد كنت أصغي إليه بشغف وانصت إليه في رهبة، وكان الزميل الدكتور معجب الزهراني أخذ على الأستاذ نقده الموضوعي لأدونيس وكل منا يؤخذ من علمه ويرد إلا صاحب هذا القبر ـ كما يقول عالم المدينة مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ ونشر نقده ذلك في الملحق الخاص الذي صدر في صحيفة الشرق الأوسط ـ إن لم تخني الذاكرة احتفاء بشخصية الأستاذ وأخال أن الصديق محمد إبراهيم الدبسي في الجزيرة فعل ذلك أيضاً فهو حفي بالرموز ومقدر للرجال وتلك مزية من مزايا الجيل الصاعد في دنيا الأدب والفكر والأدب في بلادنا.

لقد ابتسم الأستاذ عبد الجبار وهو يقول لقد فرحت بنقد الدكتور (معجب) ثم دخل ذات ليلة أستاذنا السيد أحمد زكي يماني علينا في شهر رمضان في (الثلوثية) وأسرع في خطاه وهو المتئد في كل شيء حتى في الكلمة التي يصوغها أبو هاني في وجدانه ثم يلقيها على الآخرين في حكمة وعانق أبو هاني أستاذنا عبد الجبار وجلس إلى جانبه يتذكر أن (طلبة البعثات) و (جبل هندي) فحمدت هذا لابن شيخ الحرم المكي ـ أبو حسن يماني وجده سعيد ـ الشافعي الصغير ـ وإنني لأحمد الرجال من أمثال معالي الأستاذ إبراهيم العبقري وعبد العزيز الخويطر سؤالهم عن الأستاذ وتقديرهم لشخصه كما أحمد لأبي الشيماء والسيد محمد العربي

ومحمد عبده يماني وعباس طاشكندي ومحمد عمر العامودي وسعود سجيني وعصام قدس وحسين الغريبي وفاروق بنجر وعبد الله فراج الشريف ونزار العربي وبكر بابصيل والدكتور أسامة إبراهيم الفلالي وفاءهم لمجلسه.

أشواق الروح إلى رفيق الدرب «عبد المحسن حليت»

عرفك الناس ـ يا صديقي ـ شاعراً يغرف من بحر ولا ينحت من صخر، وعرفوك ناثراً تكتب الحرف بهياً ومضيئاً وصادقاً وتجيد ائتلاف عباراته كما تجيد صوغ القوافي وعرفوك خطيباً توجز القول ولا تطيله، وتخلط الجد بالطرفة كأنني أسمع (ويلسون) يبهر سامعيه، ويجبر أنصاره وخصومه على الإنصات إليه.

وأتذكر ويلسون يوم كتم نبأ اعتزاله من أرقى المناصب وأرفعها كتمه عن أقرب الناس إليه، وتجمع الناس ليسألوه وهو يمسك بـ (غليونه) الشهير، فقال عبارته الشهيرة والمدوية: (إنه سن الستين)، وكان يومها في عام ١٩٧٦م قد بلغ من العمر فقط ٥٩ عاماً ولكنه آثر أن يخلي الساحة لحساده لمناوئيه وهو في قمة العطاء في الذروة من الشهرة.

ولكن ـ الرفاق ـ وإنني لا أستعمل كلمة كهذه بمدلولها الحزبي ـ فلقد دفنت الكلمة مع منظّريها ـ إن الرفاق في الساحة الأدبية لم يتلمسوا في شخصك صفات وشمائل ـ لا يعرفها إلا الذين عايشوك عن قرب. وخالطوك عن ود، ولست ـ هنا ـ بالساعي إلى شيء من الترويج فالكل يعرف أنك تكره الأضواء وتخشى على عينيك من شدتها، ولكنك لا تعذل

بعض من يبحثون عنها أو يجدون في طلبها، وأنت بهذا تعذر الناس ولا تقسو عليهم إن هم اختاروا درباً غير دربك، ومن الدروب ما هو سهل عبوره، أو المشي فيه، ومنه ما هو صعب لا يقدر عليه إلا أولئك الذين حباهم الله من صدق العزيمة وقوة الإرادة وثبات المبدأ الكثير فكانوا بهذه الخطوة كالصوى التي تنير الحياة حتى وإن كانت الشمس ساطعة في مدارها والقمر مضيئاً في أبراجه.

لقد غادر الجسم مني سيح العنبرية، و (تحسينية) قباء، ورستمية الحارة، والمناخة الفسيحة والمزدانة بعمائم العز وأصوات النشامى، وكم تغنى الشعراء بها، فالركاب التي يحدوها الشوق إلى سيد الوجود ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ تحط بين جيران يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم ـ خصاصة ـ ويكرمون النزيل طمعاً في فعل الجميل وأنهم ليبحثون عن ذلك كله في منعطفات الحياة المتخمة بالأثرة وحب الذات، وغفلة النفس الأمارة بالسوء.

لقد رحلت يا عزيزي من ديار الحب والأنس قبل ما يقرب من ثلاثة عقود ولا أريد هنا أن أضع صديق الجميع الأستاذ علي حسون في مأزق، ولا يسرني أن أشاهد ابن (اليمن) والمظلوم محمود دياب متفرجاً عليه وهو يداري من مسافة العمر ما يداري وإنني لأقلكم زاداً في الحياة من الحكمة والدهاء والقدرة على كتم ما تنطوي عليه النفس من عواطف وشجن.

لقد رحلت والحنين لا يزال يشدني وإنني لأعلم أن المكان قد انمحى والزمن قد أسرع في حركته ولم يبق من ذلك كله إلا ذكريات هي الثمالة من زمن البراءة والحب والوفاء.

نعم لقد رحلت وكانت المسافة بين (حوش سيد أحمد) حيث نشأت،

حيث ضحكت وبكيت، حيث أسرعت الخطى وشوق في النفس تؤججه حوادث الدهر وتقلباته حيث رأيت الماء ينحدر قوياً من قربان وعبر (أبي جيدة) وبالغاً (السيح) الذي قال فيه الشاعر سعد الدين برادة متشوقاً من أرض الشام إلى طيبة الطيبة:

لـذلـك الـسـيـح سـاحـت عـبـرتـي وغدت تسقي النقا ولكم سالت ببطحان

كانت المسافة بين دارنا وداركم في حوش (متاع) قصيرة وربما طويلة بمقاييس ذلك الزمن الجميل ولكن شعرت من اليوم الأول في صداقتنا أن المنبع الذي شربنا منه كان متشابهاً إلى حد بعيد، وأن ما غرسه الآباء في نفوسنا كان كغرس النخيل في قباء والعوالي والعيون فأضحى لنا صبر (النخيل) على هجير الحياة، وقدرتها على تحمل ألم (النبل) أو (النبيلة) كما نقول في لهجة ديار الغزل والشعر، (فألقنوا) يا (أبا حليت) يجود بالرطب الطعم المذاق حتى وإن أصيب في مقتل، ولكن ما أحسن الجني منه بدعة ورفق وحنان.

الإبداع الشعري بين الراوية والمنشد

كان الراوية في المجتمع الأدبي العربي في العصور الماضية يمثل جسراً هاماً بين المبدع والمتلقي وذلك عندما كانت الذاكرة قادرة على الحفظ وواعية بأهميته دون أن تفقدنا التقنية الحديثة هذه القدرة وغيرها من القدرات التي منحها البارىء للإنسان وإلى حد قريب ـ ربما نصف قرن من الزمن أو أقل ـ كان أدبنا ينتشر عن طريق هذه الأداة الفعالة، فالمعارك الأدبية بين شحاتة والعواد من جهة، وبين محمد سرور الصبان وشحاتة من جهة أخرى، حفظتها لنا ذاكرة المرحوم عبد السلام الساسي، وكان عمر عيوني ـ أمد الله في عمره وهو شخصية شعبية معروفة ـ يحفظ معظم شعر الشيخ والفقيه إبراهيم قطاني ـ رحمه الله ـ كما أدى المنشد سعيد أبو خشبة الدور نفسه عندما دمج روائع القطاني الغزلية ذات السمة الصادقة والعفيفة في إطار المقطوعات الموسيقية الجميلة، و (سعيد) هو الذي جعل من قصيدة الشاعر طاهر زمخشري ـ أنشودة روحانية يرددها المجتمع إلى اليوم، وفي نفس السياق يمكن إدراج قصيدة شحاتة الشهيرة ذات المطلع الرائع:

بعد صفو الهوى وطيب الوفاق ... عز حتى السلام عند التلاقي
يا معافى من داء قلبي وحزني ... وسليماً من حرقتي واشتياقي
هل تمثلت ثورة اليأس في وجـ.. ... ـهي وهول الشقاء في إطراقي

ومنها تلك الأبيات التي تبرهن على شاعرية (شحاتة) الكبيرة وقدرته على صياغة الأحاسيس الإنسانية في نسق شعري عجيب فهو يخاطب صديقه قائلاً:

وتـهـيـأت لـلـسـلام ولـو تـفـعـل، فـأغـريـت فـضـول رفـاقـي
هــبــك أهــمــلــت واجــبــي صلفا منك فما ذنب واجب الأخلاق

ويتدرج شاعرنا الكبير في الصعود إلى نسق شعري أكبر عندما يصور أدق مشاعر الإنسان ووجدانه وولعه، وخصوصاً عندما يتعرض لموقف سلبي من صديق أو عزيز وحبيب، فنجده قد ارتفع إلى الأفق الشعري السامق فاستطاع نقل معاناته الصادقة في صور أو لوحات شعرية رائعة، لذا نجده يتوجع قائلاً:

قد يطاق الصدود يوجبه الذنب وصـد الـمـلال غـيـر مـطـاق

وللشاعر الكبير حسن صيرفي إبداعاته العديدة باللغة الفصيحة والعامية ولكن قصيدته الموسومة (أمجاد المدينة) كان يمكن أن تظل حبيسة الديوان بالرغم من قيمتها الشعرية الكبيرة إلا أن ترديد المنشد المشهور السيد حسين هاشم رحمه الله لأبياتها في مجالس السيرة النبوية العطرة في المدينة وخارجها، جعل الناس يحفظون قصيدة الصيرفي والتي يفتتحها قائلاً:

وقـف الـنـاس يـنـظـرون مـنـادي كيف شع الهدى على كل نجد
أنـا دار الإيـمـان والـمـثـل الـعـلـيـا ورمـز الـخـلـود فـي كـل مـجـد
أنـا إن بـدد الـزمـان شـعـاعـي لـن ترى النور هذه الأرض بعدي
أنـا خـيـر الـبـقـاع كـرمـنـي الـلـه بـخـيـر الأنـام فـي خـيـر لـحـد
أنـا قـابـلـتـه بـأرحـب صـدر ثـم أودعـتـه حـشـاشـة كـبـدي

ومنها الأبيات التي تصور تاريخ هذه البلدة المنورة الحضاري والعلمي وكأن الشاعر يحاول أن يقارن بين وضع الأمة العربية الحالي والمتردي منذ قرن من الزمن وتلك الصورة الحضارية والفكرية والعلمية التي كانت تعيشها الأمة في عصورها الزاهية.

ولقد أدركت في مطلع العمر الراوية الكبير ـ الحافظ لكتاب الله ـ وصاحب الصوت الشجي الأستاذ عبد الستار بخاري ـ رحمه الله ـ وسمعت منه كثيراً من إبداع الشعراء، البرادة، والأسكوبي ومحمد العمري، وعبيد مدني، ولقد كان عبد الستار يحفظ ويروي، وينشد، ولقد حفظ عبد الستار عن طريق الرواية شعر سعد الدين برادة وخصوصاً قصيدته التي قالها متشوقاً في المدينة المنورة عندما كان نازحاً بسبب ظروف الحرب العالمية الأولى والتي هجر فيها القائد العثماني ـ فخري باشا بالقوة سكان البلدة الطاهرة، ولاقى أهلها من العنت ما لاقوا. ومما نجده مدوناً وبأسلوب أدبي متميز في رائعة الأستاذ المرحوم عزيز ضياء، والموسومة في أجزائها الثلاثة (حياتي مع الجوع والحب والحرب)... يقول سعد الدين برادة ـ رحمه الله ـ في رائعته التي يصور فيها المدينة بفتاة رائعة الحسن والجمال، ويسبغ عليها من السمات الفاتنة عن طريق هذه المقاربة الشعرية مما يجعلك تتوهم أن الشاعر يجد في البحث عن غادة بحثاً يفقد معه لبه وصوابه:

يقول البرادة ـ رحمه الله ـ في مطلع قصيدته أو يتيمته:

عن درّ مبسمها عن دمع أجفاني   عن الشقيق كذا عن خدها القاني
عن المحيا، عن البدر المنير وعن   سود الغدائر عن ليلات أشجاني

ثم ينتقل بعد ذلك متشوقاً إلى مرابع صباه، وشبابه في ربوع المدينة فنجده يهتف بالشعر قائلاً:

يا للهوى لسويعات مضت بقباء　　وللعوالي بقلبي وخزمُراني
قربان روحي أفديه لرؤيته　　يا ليت شعري هل أبيتن بقرباني
وأحرَّ قلبي على وادي العقيق فكم　　أجرته عيناي منظوماً بعقياني
لذلك السيح ساحت عبرتي وغدت　　تسقي النقا، ولكم سالت ببطحان
يا حادي العيس قف هذا البقيع　　وذا سلع فإن به روحي وريحاني

ثم يجسد أحزانه لبعده عن المكان الذي أحب وعشق، وقد علمت من المرحوم الشيخ جعفر فقيه ـ رحمه الله ـ أن الشاعر قد كف بصره في الشام حزناً:

أواه أواه من حر الفراق وما يبقي　　من الوجد في أحشاء ولهان
ما كنت أحسب أن الدهر يصدعنا　　بالبعد حتى سقانا كأس هجران
عاث الزمان بنا رغما ففرقنا　　يا للرجال لهذا العابث الجاني

وعاد الفتى إلى خيمته بعد طول انتظار!!

اتخذ موقعاً له بجانب (خيمة المختار)، بعد أن استيقظ من نومه مبكراً ساعات قليلة التي استغرقها نومه في تلك الساحة المكشوفة من (الخيمة)، لم يكن هناك حاجز يقوم بينه وبين السماء من فوقه، وبينما كان يحبو في ضياء النجوم الذي يخترق ذلك الفضاء الشاسع أتاه صوت صغيرته متسائلاً، أي شيء هذا الذي يبدو في الأعلى؟؟

وأجابها في صوته (غصة) إنها النجوم (يا بنيتي): علم أن الإجابة لم تقطع طالما المعرفة الطفولية ـ عندها ـ فهي التي أرادت لها الأقدار أن تولد في مرحلة الأنفاق والكباري والمباني الإسمنتية، أما هو فلقد عرف السماء في طفولته، في ذلك المنزل (العتيق) والمطل على مجرى سيل أبي (جيدة)، كان يحمل فراش نومه بين يديه أو على رأسه ثم تختار له والدته مكان نومه بين أخوته في سطح المنزل ليستيقظ على ذلك الصوت المتميز القادم من (قباء) إنه صوت الآلة البسيطة التي تنزح الماء من البئر والذي ينساب في (قنطرة) كل بستان من البساتين، ويتذكر كيف أن نبتة (النعناع) المدني، تنمو على أطراف تلك الجداول التي تسقى بالماء الصافي المتدفق من (فوهة) البئر، كان في كل منزل بئر، وفي كل حي عين، وكان قبل ذلك كله في كل قلب رحمة وعطف وحنان، وعندما نضبت النفوس،

وتصحرت الأعماق، حبست الأرض دموعها وكأنها تقول للإنسان الذي يسير على الثرى تباً لما أصاب نفسك من شح، واعترى قلبك من قسوة، وما منيت به ذاتك من أنانية فأضحى الوحش في الغابة أقرب للإنسانية وأخلاقياتها من ذلك الإنسان الذي خلق ليعمر الأرض بهذه الفضائل.

هبط إلى أسفل (الدوار)، وجد القوم عند قارعة الطريق يتحدثون ويبتسمون، وكانت ابتساماتهم تدل على الرضا بما كتب الله لهم من يسير العيش وقليل الزاد. أشار إليهم أحدهم، ومازحه قائلاً: أيمكنك (يا حاج) أن تحضر لنا قرعة (موناضة) أي ـ شراب البرتقال المصنع؟؟ لم يكمل الرجل الخفيف الظل عبارته حتى أسرع الفتي إلى صاحب الحانوت دفع له القليل من الدراهم، أتى بالقرعة، وسكب لهم من عصير البرتقال الذي لا يحتاج لبرودة (الثلاجة)، فلقد كان (هتان) السماء كفيلاً ببث الرطوبة والبرودة في كل شيء بدءاً من عريشة (العنب) ومروراً بسنابل الحب، وانتهاء بالكلأ الذي ترعاه الدواب حول خيام القرية والدوار:

رأى الصفاء في وجوه القوم، ولمس الصدق في كلماتهم، وكأن أحاسيسهم تجسدت أمامه طيفاً جميلاً أو ملكاً رحيماً ونظر أحدهم في وجهه ملياً، ثم سأله، هل أنت من يريد إقامة (الزردة) ـ طعام الصدقة ـ في خيمة المختار ظهر هذا اليوم، وأومأ الفتى برأسه إيجاباً، توقف الرجل قليلاً، وكان الفتى يرقبه وفي نفسه كثير من الشوق وبعض من الفضول، وقليل من الحيرة والتردد، ثم تابع شيخ (الجماعة) حديثه بعد أن تناول رشفة من كأس (العصير) المبلل بندى السماء الرحيمة على أولئك القوم البسطاء، جاءت كلماته ممزوجة بالدمع ومغسولة بالحزن، أتعلم (يا حاج) منذ أن دفن (المختار) لم تشهد الخيمة (زردة)، لقد أودعناه الثرى وصبيته

صغار يبكون وبكى الدوار بأجمعه معهم، هناك في تلك (الربوة) حثوناً التراب، وبللنا الثرى بالماء، ثم أضأنا الشموع في المقام، وتركناه ـ وحيداً، بعد أن كان ملء السمع والبصر، لم نعد نقترب من (الخيمة)، فلقد غاب عنها (مولاها)، لم يصح للقارىء صوت، ولا للمنشد صدى، ولا (للدف) رجع، ولا للأصوات الخاشعة ترديد.

أمسك الرجل الوديع ببقية من أعواد عريشة العنب، وغرزه في باطن السحيق، ثم رفع بصره، كان الدمع يبلل لحيته البيضاء والكثة، وقال: لقد شاهدت في منامي أناساً في الخيمة يغسلون كل شيء ينظفون كل إناء، ويزينون جدار الخيمة ويزيلون بأياديهم الناصعة والمضيئة ما اتسخ منها.

إنها بشارة لك (يا حاج) فلقد منّ الله عليك بمغفرته، وتلك ذنوب الدنيا التي تتسخ بها أرواحنا وتكاد في كثير من الأوقات تطمس بصائرنا، وانقضى المشهد وتفرق الصحاب، وصعد الفتى (الترعة) ليصل إلى الخيمة، وبين القوم وفي وقت القيلولة شاهد الفتى محدثه، في ذلك الصباح، أراد له أن يدخل مع القوم، ولكنه أشار له بالامتناع وهمس: (لم أصبح بعد مهيأ للجلوس مع القوم!!).

عبيد وأمين مدني ويوم الحب والوفاء

في هذا اليوم تنبسط ذاكرة التاريخ لتروي للأجيال سطور الملحمة الكبرى التي شهدتها أرض النبوة حيث هاجر المصطفى ـ ﷺ إلى هناك وانطلقت منها دعوته الخادمة إلى أرجاء الكون لتبدد ذلك الظلام الذي ران على القلوب ولتقصي عن أمه العروبة نعرات القبلية والطائفية وليجتمعوا على صعيد واحد قوامه المساواة والتقوى فهذا سلمان الفارسي يضحي واحداً من أهل بيت النبوة الظاهر النسب والأرومة، وذلك بلال ينطلق يوم الفتح صوته شجياً وندياً من فوق سطح بيت الله وزينب بنت جحش تتزوج زيد بن حارثة وهذا خليفة المسلمين القوي والخاشع المتبتل سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعلنها مدوية من على منبر جامعة الإسلام الأولى أن المرأة أعلم منه في بعض حقوقها فيقول ملء فيه (أصابت امرأة وأخطأ عمر).

وهي الأرض التي حوت جسده الطاهر بعد لحوقه بالرفيق الأعلى وهو في عالم البرزخ يستغفر لأمته فهو العطوف عليهم والرحيم بهم. فقد ورد في الحديث الذي رواه البزاز ورجاله رجال الصحيح (حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم، ووفاتي خير لكم تعرض عليّ أعمالكم، فما رأيت من خير حمدت الله عليه، وما رأيت من شر استغفرت لكم)...

لقد ارتبط اسم الأخوين الكريمين السيدين عبيد وأمين مدني بالأرض الطيبة كما ارتبط بها، أيضاً ـ اسم السيدين علي وعثمان حافظ، وجمع كبير من رواد الفكر والأدب في بلادنا في منتصف القرن الماضي، فلقد هيأت حلقات المشائخ، الفا هاشم، وأبو الطيب الأنصاري، وصالح التونسي، وعبد القادر شلبي، وحسين أحمد، ومحمد العمري، والطيب الساسي، وحسن الشاعر، وياسين الخياري، وأمين طرابلسي ومحمد العائش ومحمد علي الترابي وعمر بن حمدان المحرسي، وسواهم ـ رحمهم الله جميعاً ـ جيلاً من عشاق العلم والمعرفة. . .

يتأبطون كتبهم بين الروضة والمقام الشريف، وينتقلون بين (سويقة) و(الساحة) و(الحارة).

ونطق عبيد مدني بالشعر جزلاً فصيحاً، فهو الذي تغنى بمآثر المدينة لكونه عاشقاً ومحباً يضفي على أشياء هذا الكون المقدس من روحه الشفافة ما يجعلها تبدو في عالم الواقع والخيال ضياء مشعاً وجمالاً يبهر العقول ويأخذ بمجامع النفوس، فنجده يخاطب (جيل أحد) ذلك الجيل الشامخ شموخ تاريخ البلدة الطاهرة فيقول:

جال شعري في ذراه ورفل
أيوفيّ (أحداً) وصف حفل
أتراه جيلاً من حجر؟
أم ترى هو روح في جبل
خلد (المختار) فيه نخبا
من نعوت تتعالى وتجل
ما هو (الحب) الذي أضمره

أفهل للصلد قلب يعتمل؟
أهو الحب الذي نعرفه؟؟
أم مجاز من بلاغات الرسل
أجهد الأبحاث مغزاه وقد
يعجز الإدراك حينا ويكل
وهو حق ليس فيه ريبة
إن نطق المصطفى وحي وفصل

. . . وإذا كان الشيخ حمد الجاسر قد عني ـ رحمه الله ـ بتاريخ الجزيرة العربية وجغرافيتها، وآثارها، فإن علمه لم يقف دون سؤال مؤرخ البلدة الطاهرة ـ السيد عبيد مدني ـ ليكتب تلك المقدمة الضافية للكتاب الذي نشره الشيخ الجاسر، والموسوم (رسائل في تاريخ المدينة) وهو ينعت أبا عدنان وفي كلمات صادقة بمؤرخ طيبة الطيبة، وشاعرها السيد الجليل الأستاذ عبيد مدني وتلك أخلاق الكبار من القوم وتقديرهم لبعضهم البعض فالحب والوفاء والاعتراف بالفضل والجميل هو الذي يحفظ للعلم رونقه ويضفي عليه وقاراً وتجلة.

(عبيد مدني) الذي كان رائداً للشعر الحديث في بلد المصطفى ـ ﷺ ـ ونهل من العلم ما نهل وإجازة مشائخ مسجد رسول الله ﷺ في علوم الشريعة ما يعتز به القوم الذين يروون حديث المصطفى ـ ﷺ ـ شيخاً عن شيخ وكابراً عن كابر.

لقد أخذ (عبيد) بيده أخاه الأصغر السيد أمين مدني فغرس إليه بحب العلم والمعرفة بعد أن سمعا في مجلس والدهما السيد عبد الله مدني ـ في أم (الشجرة) و(المصرع) و(باب المجيدي) و(جوة المدينة) ألواناً شتى من

علم ظاهر ولدني وما أحسن أن يسخر أهل الحظوة من الدنيا جاههم ومالهم لإكرام أهل العلم.

محمد بن هويمل الحربي الحازمي نقد صديقه من وجهاء المدينة ألف جنيه من الذهب، فلقد نزل الدهر بمصطفى قباني، ولم يدعه شيخ حرب أن يتفوه بكلمة الحاجة وحفظ له كرامته، وكم حفظ محمد سرور الصبان للناس ماء وجوههم ومنعهم ذل السؤال.

... وصعد نجم (أمين مدني) فكتب موسوعته المعروفة (العرب في أحقاب التاريخ) والتي جاءت فيما يقرب من ١٥٠٠ صفحة، وكتب عن الثقافة العربية والإسلامية بداياتها، أصولها وقواعد الدراسة وحواضرها، في جميع أرجاء العالمين العربية والإسلامية، ويعتبر كتاب (الثقافة الإسلامية وحواضرها). مرجعاً هاماً لمن أراد أن يستزيد من المعرفة عن الثقافة التي نشأت في أحضان الدين الإسلامي وهي ثقافة تجمع بين طلب العلم في رضاء الله ورسوله، وتدعو لتعددية الرأي، وسعة الأفق، وأنها لتتخذ لغة الحب وسيلة لنبذ كل ما هو شاذ ودخيل من (رطانة) الكراهية والاستبداد بالرأي الواحد، والوقوف عند ظاهر النصوص دون معرفة بمقاصد الشريعة، وتجهيل الآخرين ورميهم بما نهى عنه إمام المرسلين، وخاتم النبيين ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ وتحية أكبر لابن بادية الحجاز، وسليل حرب، البحاثة عاتق بن غيث البلادي، ولمؤسسات تراثية عملت على نشر تاريخ هذه الأرض المباركة مثل دار الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ وتحية لهذا الجمع المبارك من مفكري جزيرة العرب ومؤرخيها وأدبائها فهنيئاً لهم فإنهم يجلسون على مائدة الحب المنبعثة من بين سواري المسجد النبوي الشريف والمقام الطاهر، ويحظون برعاية أمير المدينة المحبوب مقرن بن

عبد العزيز ومن وجوه كريمة في أمانة الجائزة وفي مقدمتهم السيد إياد مدني ونادي المدينة الأدبي، وابتسامة حب صادق من أبناء السيدين الكريمين، فلقد ورثهم أباؤهم الكريم من الصفات والحميد من الأفعال، والحفاظ على الود ورعايته وصونه.

متى يصبح أدونيس وطنياً ويتجاوز درويش محنة الازدواجية؟

قبل حوالي عام ومع بداية انتفاضة الأقصى أصدر مثقفو المهجر العرب من أمثال أدونيس ومحمود درويش والعفيف الأخضر وغيرهم بياناً يعارضون فيه انعقاد مؤتمر في العاصمة الأوروبية ـ بيروت ـ لكشف تاريخ الصهيونية، واستعمل الشاعر الفلسطيني الذي يمطرنا بقصائده الوطنية من مقاهي باريس وفنادقها وكازينوهاتها كل ما يملك من أدوات ونفوذ للعمل والحيلولة دون عقد هذا المؤتمر في العاصمة الأردنية ـ عمان ـ عندما حاول المؤتمرون وبينهم كتاب غربيون استيقظ ضميرهم وحسهم الإنساني وأرادوا بروح علمية متجردة أن يفضحوا زيف هذه الحركة ودفع بعضهم ثمن هذه التضحية كالفيلسوف الفرنسي ـ روجيه جارودي ـ والذي لم تتوقف متابعته من قبل المؤسسات الصهيونية العنصرية حتى وهو على فراش المرض وتعرض غيره للضرب المبرح كالمؤرخ الإنجليزي (ديفيد إيرفنج) والذي وصف الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل هذه المأساة والتي كشف أبعادها زيف الديمقراطية الغربية عندما يتعلق الأمر باليهود وصهيونيتهم، يقول الأستاذ هيكل في عبارات واضحة لا لبس فيها ـ ومعلوم أن الأستاذ هيكل محسوب على التيار الليبرالي في العالم العربي ـ

(ثم أتيح لي أن أرى بنفسي وليس مجرد القراءة ـ ما حدث فيما بعد للمؤرخ البريطاني المدقق (دافيد إيرفنج) وشاءت الظروف أن أشهد واقعة ضربه ضرباً مبرحاً بينما هو يتناول طعام الإفطار في مطعم (ريكشو) في شارع (سوت أودلي) على بعد أمتار من مقر السفارة المصرية في لندن، ولم يكن السبب أن (دافيد أيرفنج) كتب عن المحرقة النازية، وإنما كان السبب أنه راح يبحث ويتقصى ثم أوشك على ملامسة الحقيقة، ويضيف الأستاذ (هيكل) مصور تلك المأساة التي تعرض لها (إيرفنج) أمام بني قومه الذين لم يكن بمقدورهم الدفاع عنه لأن المعتدين من اليهود، ويحق لهم خرق النظام والاعتداء على حقوق الإنسان التي كفلتها له جميع الشرائع السماوية والقوانين الدولية).

ووسط المحرقة النازية التي يعيشها الشعب الفلسطيني الأعزل في رام الله، وبيت لحم، ومخيم جنين الذي تفحمت فيه جثث الشهداء وانتشرت الأمراض فيه تعمداً من إسرائيل لإبادة هذا الشعب المناضل ـ وحده ـ نعم وسط هذه المجازر التي يرتكبها سفاحو إسرائيل من أمثال شارون وموفاز وبغطاء أمريكي واضح، تتحرك النخوة العربية عند (أدونيس) و(إلياس خوري) و(محمد برادة) ـ المتخصص في رولان بارت والبنيوية التكوينية الماركسية ـ وغيرهم، يعلنون فيه أن شركاءهم وأصدقاءهم الأشد قرباً إليهم هم الإسرائيليون الداعون إلى السلام مدينين فيه تعرض بعض المعابد اليهودية لاعتداءات وهي اعتداءات لا تصل أبداً إلى مشهد أقدم الكنائس المسيحية كنيسة المهد وتعرضها للحرق والتدمير من قبل الجيش الإسرائيلي النازي المدجج بالسلاح أو الحرق المتعمد لمسجد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ والذي يقف شاهداً حقيقياً على تسامح الإسلام والمسلمين

مع أتباع الديانات السماوية الأخرى، فلقد رفض الخليفة الراشد ـ عمر ـ أن يصلي في كنيسة المهد عندما حان وقت الصلاة واختط مسجداً للمسلمين حتى لا يزاحم المسلمون المسيحيين في معابدهم ووجود المسيحيين في فلسطين وغيرها من البلاد العربية والإسلامية الأخرى دليل يجب على التيار العلماني في البلاد العربية تدبره. وأن يكون هذا التيار من الشجاعة ليقر بأن المسلمين لم يفرضوا الدين على أحد بالقوة تمشياً مع آيات الكتاب البينات والتي جاء فيها الوحي الإلهي حاسماً ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

وخاطب المولى عز وجل المصطفى ﷺ قائلاً ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ (يونس: ٩٩) إنه من الخزي والعار في الوقت الذي يعلن فيه الكاتب العالمي (جابرييل جارسيا ماركيز وصاحب جائزة نوبل للأداب سنة ١٩٨٢م تخليه عن جائزة نوبل تضامناً مع الشعب الفلسطيني واستنكاراً للمجازر التاريخية التي يرتكبها جيش الاحتلال الصهيوني ضد العزل من الشيوخ والأطفال والحوامل من النساء واللاتي يضعن حملهن في الطرقات وعلى الحواجز تحت تهديد السلطة الإسرائيلية الغاشمة، إنه من الخزي على أدونيس وزمرته مقارنة بموقف ماركيز الشجاع والجريء، تملقهم للغرب والتزلف إليه عن طريق استرضاء اليهود، وكان الأولى بهم أن يوقعوا بيانهم رقم ٢ في إدانة الحركة الصهيونية النازية بدلاً من العويل على معبد يهودي قد تكون الصهيونية وراء تخريبه ـ عمداً ـ ولكنهم لن يفعلوا ذلك فما يحصلون عليه من الغرب من جوائز يجعلهم يضحون بوطنيتهم ويتنكرون لمبادىء مزعومة ضللوا بها جماهير الأمة على مدى

عقود طويلة، ولقد آن الأوان لأن يختفوا من المشهد الثقافي العربي حفاظاً على ما تبقى لديهم من الكرامة ـ إن كانوا أصلاً يملكون شيئاً منها ـ كما أن للمؤسسات الفكرية والثقافية في العالم العربي أن تصدر بياناً ـ مصدره الغيرة على الأمة ومقدساتها وتاريخها ـ يحرم على هذه الزمرة الفاسدة دخول أي بلد عربي أو المشاركة في أي تظاهرة ثقافية، كما حان الوقت لأتباع (أدونيس) و (درويش) وبرادة (العفيف الأخضر) أن يعودوا لرشدهم ويثوبوا لصوابهم، فلقد ضللوا الأمة وأبناءها بدعاوى العروبة والوطنية والحداثة واليوم قد كشفتهم الأحداث، فليس ما يكتبونه من فكر، أو يبدعونه من أدب، فكيف تقرأ جماهير الأمة فكر الخونة والمتواطئين مع أعداء الأمة والعاملين بكل ما يملكون على إخفاء صوت الحق والعدالة الأزليين.

علاقة العرب مع الشعوب الإسلامية في ظل المتغيرات الفكرية

لقد أفرزت أحداث سبتمبر قضايا عدة وكان من أهمها ـ من وجهة نظر شخصية ـ محاولة الكشف عن المدى الذي وصلت إليه علاقة العرب مع الشعوب الإسلامية فالعرب هبوا لتحرير أفغانستان من الاحتلال السوفيتي في بداية الثمانينيات الميلادية وكان ذلك بمباركة أمريكية وغربية ولم يكن ذلك حباً في العرب ولا تقديراً لدورهم ـ فهذا شيء لا تتفهمه العقلية المادية الغربية التي لا تؤمن إلا بلغة المصالح ـ إنما كانت هذه المباركة المؤقتة لإضعاف الإمبراطورية السوفيتية والحيلولة بكل الوسائل الممكنة بينها وبين الوصول إلى المياه الدافئة، وعندما اندحرت القوات السوفيتية انتهى الدور العربي في أفغانستان من وجهة النظر الأمريكية ـ إلا أن اتخاذ خطوة إزاء الوجود العربي هناك تأخر قليلاً فتفكيك الإمبراطورية السوفيتية أوجد واقعاً جديداً أرادت من خلاله أمريكا الوصول إلى منابع النفط في بعض الجمهوريات الإسلامية التي استقلت عن السوفيت ولهذا عاد الغرب وبارك الوجود العربي المتحالف مع بعض القوى الأفغانية الإسلامية حتى تستطيع إمدادات النفط أن تأتي عن طريق أفغانستان وبالتالي يكون ذلك بمثابة عقاب لدول إسلامية أخرى في المنطقة ولم يستطع

الغرب لجم التطلعات الأفغانية العربية وجاء موسم جديد أطلقت عليه أمريكا مسمى الإرهاب وكان الموسم الذي شهد فيه العرب داخل أفغانستان وخارجها رياحاً هوجاء وعواصف مدمرة وبرز من تحت السطح عداء دفين للعرب لدى بعض الفئات الأفغانية فنقلت كاميرات التلفزيون كيف كان الجنود الأفغان يركلون جثث القتلى بأرجلهم ويسطون على ما في داخل ملابسهم ثم يتركونهم في العراء ولا يكلفون أنفسهم عناء حثو القليل من التراب عليهم وذلك إمعاناً في إذلالهم أمواتاً بعد أن استفادوا من وجودهم استفادة مؤقتة وبهذا تساوت عقلية بعض المنتسبين إلى الإسلام مع العقلية الغربية الراغبة في الانتقام والباحثة عن السيطرة ومفهوم السيطرة والهيمنة هو مفتاح العقلية الغربية لمن يرغب في المعرفة والبحث والتقصي.

نعم... لقد أخطأ العرب خطأ جسيماً في البقاء هناك بعد أن تحقق الاستقلال للبلد المسلم وكان الخطأ الأكبر هو دخول العرب هناك في تحالفات مع الفئات المتقاتلة التي أضاعت فرصة ثمينة لبناء وطن واحد بعيداً عن النعرات والعصبيات المتعددة إنه يمكن تفهم الحماس الموجود لدى العرب والنابع من أن الإنسان العربي هو الذي حمل هذه العقيدة الصافية إلى بقاع الأرض ولا تزال العقيدة الإسلامية والرسالة المحمدية تجمعان أمماً وشعوباً من أعظم الأمم والشعوب تباعداً في الأوطان واختلافاً في الحضارات والثقافات وتنوعاً في الألسنة واللغات، هل توجد ـ كما يقول المفكر الإسلامي المعروف أبو الحسن الندوي ـ رحمه الله ـ مجموعة بشرية تختلف في الألوان هذا الاختلاف وتتحد في العقيدة والغاية والنفسية هذا الاتحاد؟ لقد مضى ما يقارب من أربعين عاماً على هذه الكلمات التي تفوه بها هذا المفكر الذي يحمل هو شخصياً مع أخوة لنا

في شبه القارة الهندية حباً كبيراً للعرب ولقد كانت الدولة العثمانية المسلمة في عصورها الأولى حريصة ـ أيضاً ـ كل الحرص على مشاعر العرب ونشأت علاقة قوية بين الشعبين التركي والعربي لمدة تقارب سبعة قرون ـ إلا أن حركة التتريك ـ كادت أن تُنسي العرب قروناً طويلة من الحب والوئام واجتماع الكلمة.

اليوم ـ نسمع ـ أن دولة إسلامية مثل جمهورية البوسنة تبيع سلاحاً للكيان الإسرائيلي ويأتي هذا في أكثر الأوقات شدة على الشعب الفلسطيني خاصة والأمة العربية عامة ومعلوم الموقف العربي ومؤسساته المالية في دعم كفاح الشعب البوسني لنيل استقلاله بينما كانت إسرائيل تبارك عنصرية وفاشية عصابة السفاح الصربي سلوبودان مليوسيفتش لأنه لا يختلف عن مجرمي الحرب في إسرائيل أمثال بيغن وشامير وشارون ولا يعلم المرء دوافع هذه السياسة الجديدة للجمهورية الإسلامية التي شهدت تطهيراً عرقياً شبيهاً بالتطهير العرقي الذي تشهده فلسطين العربية منذ نصف قرن من الزمن إلا أنه يمكن القول بأن انسياق بعض الزعامات العربية ـ وبابتسامة غربية صفراء ـ لاحتلال بلد عربي آمن في التسعينيات الميلادية أدى إلى فقدان كثير من البلاد العربية للثقة المطلوب توافرها في شعوب يجمعها الدين واللغة والمصير الواحد وعندما بدأت هذه الثقة تسري من جديد في الجسم العربي نجد أن الأحداث الأخيرة أوجدت ما يمكن أن يطلق عليه أجواء عدم الثقة بين الأمة العربية وبعض الشعوب الإسلامية وإذا كان هذا يدخل في باب المؤامرة الغربية فإنه يمكن القول بأن اختراق المجد العربي والمسلم أصبح من السهولة بمكان ولم تعد لديه المقاومة المطلوبة لداء عرفه منذ زمن بعيد.

رحلة الشَّوق بين العنبريّة والحَارةِ

مع شروق شمس كل يوم أغر من أيام البلدة الطاهرة التي هاجر إليها سيد الخلق وشفيعهم إلى الله مأموراً من رب العزة والجلال واحتضنه ثراها والذي تطيب بوجوده فيها عند لحوقه بالرفيق الأعلى وقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في سبيل الله حق جهاده، عندما تطلع الشمس بهية في سماء البلدة الطاهرة يحمل الفتى دفاتره وكتبه بين يديه، ويقبض على قروش محدودة تدسها والدته في أحد جيوب ثوبه ولم تعلم المرأة التي قدمت من ديار حرب وتعلقت نفسها بديار الحب والإيمان لم تكن لتعلم أن أطفالاً في سن ابنها سوف يسطون على تلك القروش أو الهللات ويظل هو وحيداً في فناء المدرسة ينظر إلى زملائه وهم يأكلون نصف، «الشريكة» مع الجبن من مقصف حج موسى ـ رحمه الله ـ في دار العلوم الشرعية. . . يتلفت يمنة ويسرة في دروب يسلكها هائماً أو عاشقاً ومتأملاً. هذه أشجار السدر تظلل منحنيات الطريق الذي يسلكه وهذه العربات تجرها البغال تحمل أمتعة الناس وأشياءهم وهذه أصوات الباعة تنطلق من السوق أو الخان تريد أن تستفتح كما يحكي اللسان الفصيح هنا في معقل الإيمان هذا طريق الشونة يتوقف الفتى لينظر إلى ذلك الوجه الإيماني الذي يسكن في ربوة عالية يخرج الرجل من الربوة ليسكب الماء على أطرافه، لا بد أنه يريد أن يؤدي صلاة الضحى خطوات قليلة يقطعها ثم يقف الفتى أمام

فرن المعلمة (وحيدة) امرأة تطلب لقمة العيش حلالاً من عرق جبينها ليس في هذا الفعل ما يشين بل إنه الشرف الأكبر والمنزلة الرفيعة التي كانت تتبوأها المرأة في البلدة الطاهرة، تذكر حديث والده رحمه الله ـ تنصب الكلمات في أذنيه وتظل هنالك في الذاكرة إلى الأبد... رأيت يا بني الفتيات يحْملِن على رؤوسهن التراب عندما هدم فخري باشا غفر الله له أسواق المدينة لمآربه الخاصة عندما كان والياً على المدينة، وأذاق أهلها من صنوف العذاب ما أذاق يتابع الفتى مسيرته يلمح رجلاً مهيباً يدخل من باب السلام قادماً هو الآخر من حي الشونة، وخلفه طلاب يعتمرون العمائم ويسيرون في أدب، إنهم من حفظة القرآن الكريم ولم يكن ذلك الرجل المهيب الطلعة سوى عباس قاري أحد حفظة كتاب الله في بلد المصطفى ـ ﷺ ـ وأزعم أنه من القلائل الذين كانوا يرتلون القرآن مجوداً كأحسن ما يكون التجويد... وتحضرني الآن أسماء المشائخ من أمثال حسن الشاعر وأحمد ياسين خياري، وحسن بخاري وحسين عويضة والسيد أحمد السنوسي وعبد العزيز بن صالح.

يدخل المدرسة يأمل ألا يكون متأخراً وإلا فعصا الأستاذ سليمان سمان الغليظة تكون في انتظاره ونظرات حادة من وكيل المدرسة الأستاذ المربي بكر أدام رحمه الله كفيل هو الآخر بإدخال الرعب إلى نفسه المرهفة جداً، في الساعة التي تقع أمام مبنى المدرسة ينتشر الباعة، ولكن بائع الأقر (حلوى أندونيسية الأصل كما أعتقد) له النصيب الأوفى من القروش التي يحملها الطلاب من بيوتهم، وفي بعض الأيام تكون هناك فسحة من الوقت قبل الدخول إلى المدرسة، يسير الفتى خلف بعض الزملاء قاطعين المسافة بين المدرسة وبين ما كان يعرف قديماً بباب

الجمعة، ولم يبق في أيامنا منه إلا ذلك الكركون ـ بناء من الخشب ـ يجلس في داخله رجل ثقيل النكتة باهت الابتسامة لا يلتفون إلى حديثه، وكان باب البقيع مقبرة المدينة من عهد المصطفى ﷺ والتي أول من حل فيها دفيناً أخو الرسول ﷺ من الرضاعة سيدنا عثمان بن مظعون رضي الله عنه، نبدأ سلامنا على من ضمتهم الربوة الطاهرة من آل بيت المصطفى ﷺ وزوجاته وبناته وننتقل إلى آخر المقبرة حيث يقع قبر سيدنا عثمان ابن عفان رضي الله عنه من استحت منه ملائكة السماء، وبين هذا القبر وقبر فاطمة بنت أسد رضي الله عنها والدة الرسول من الرضاعة وأم سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهي التي أخلوها المحبب بيده ودعا لها مستغفراً ومتوسلاً بين القبرين مساحة تغرينا بالوقف فيها برهة من الزمن، حيث تهب نسمات ندية، كيف لا والرحمات من السماء تنزل على أكرم من مشى فوق الثرى وصلى وقام وحج واعتمر.

كان مراقب المدرسة عطوفاً على الفتى فقبل مدة يسيرة من حلول موعد الظهر يسمح له مع عدد يسير من الطلاب للصلاة في مسجد رسول الله ﷺ، إنه يوم تظلل فيه سماء المدينة سحب الرحمة، ويأخذ الفتى موقعه في مؤخرة الجزء القديم من المسجد، هناك يجتمع شمل المؤذنين، وقبل دقائق من حلول الأذان يقطع هؤلاء الرجال المسافة بين هذا الموقع ودكة الأغوات ويستلم كل واحد منهم مفتاحة المنارة التي سوف يؤدي نداء الإيمان من طوفها ويلمح الفتى شاباً في مقتبل العمر يقوم مع والده الذي يمسك ببسطونة كما يقولون، يلبس طاقية بلدي محشاة، وثوباً تكاد تلمح من أعطافه كيف يكون كي الملابس متقناً من قبل سيدات الدور آنذاك وأكاد أزعم أنني لم أعد أرى ذلك الهندام الجميل والأناقة الطبيعية،

ولم يكن ذلك الفتى إلا الشاب عبد العزيز بخاري ولم يكن الرجل الذي تهذبت أعطاف ملابسه سوى والده الشيخ حسين بخاري رحمه الله وأتذكر أنني سرت في ذلك الوقت من عام ١٣٨٣هـ أي قبل حوالي أربعين عاماً وكنت يومها في المراحل الأولى من الدراسة، سرت متبعاً خطى ذلك الشاب الذي لم أره من قبل في ساحة المؤذنين حتى وصل إلى باب المنارة التشكيلية نسبة إلى أسرة معروفة كانت تؤدي الأذان في القرن الثامن الهجري كما ذكره مؤرخ المدينة ابن فرحون، وارتفع الأذان من المنارة الرئيسية المجاورة لمثوى سيد الخلق ﷺ وكان الشيخ بكر خوجة رحمه الله يؤذن في منارة السلام وارتفع صوت الشاب من الشكيلية وكان حسين بخاري رحمه الله صاحب صوت قوي وشجي يستدر الدمع من العيون حتى وإن كانت عصية على انسكاب الدمع، وخيم على سماء المدينة يومها أجواء الخشوع والطمأنينة وتسابق الناس من العينية والساحة وسويقة يستمعون لنداء الحق من جامعة الإسلام الأولى، وانتظر الناس خروج الشاب الذي تجاوز العشرين من عمره بسنوات قليلة وقطع المؤذن الشاب عبد العزيز بخاري المسافة بين آخر المسجد في البناء الجديد إلى ساحة المؤذنين وكان والده أكثر ما يكون فرحاً واستقر صوت عبد العزيز في نفس الفتى فمتى سمعه عادت به الذكرى إلى الماضي يعيشه شوقاً وحباً وشجاً في أعماق نفسه إلى أيام مضت في الرحاب الطاهرة قضاها متنقلاً بين السيح والحارة وقرأ الدرس في حلقات العلم على أيدي رجال لهم ألسنة طاهرة وقلوب صافية ووجوه نضرة وأعني النفس بالعودة أقول لها بكرة، وبعد بكرة ويجي بكرة وبعد بكرة ولا أزال في البعد قصياً فمتى يا حبيبي وسيدي يكون اللقاء في الروضة سوياً؟!.

مسار الدراسات العربية في بريطانيا بين ماكدونالد ومصطفى بدوي

مع نهاية عام ١٣٩٩هـ، وصلت إلى مطار هيثرو في لندن، وكان لساني يتحدث إنجليزية مهشمة ـ إن صح التعبير ـ وإنني إذ اعترف بهذا أعلم أن على الضفة الأخرى من يدعي أنه ذهب إلى الغرب وهو (يرطن) إنجليزي بطلاقة، وعاد من جامعات بريطانيا يحمل شهادة دكتوراه في البنيوية والتفكيكية والتشريحية، مستغلاً عدم معرفة الناس بأحوال تلك الجامعات وأنه ليس في جامعاتها وعلى وجه التحديد ـ أقسام الدراسات العربية أو الشرق أوسطية ـ ليس بها تخصص يحمل اسم هذه المصطلحات التي ظهرت ثم اندرست كالكلاسيكية والرومانسية والواقعية والبرناسية والسريالية وغيرها.

وحملتني طائرة أخرى إلى مدينة أدنبرة ـ العاصمة الاقتصادية لإقليم اسكتلندا، وكان في استقبالي الزميل الأستاذ الدكتور عدنان محمد الوزان ـ أستاذ الأدب المقارن المعروف ـ والذي عرفته عن طريق صهره الشيخ جميل خشيفاتي ـ أطال الله عمره ـ وكان الصديق الوزان قد سبقني للدراسة على يد المستشرق: مايكل ماكدونالد ـ اسكتلندي الأصل خلف المستشرق المشهور (بيير كاكيكيا) في الإشراف على الدراسات العربية

بقسم الدراسات الإسلامية والشرق أوسطية بجامعة أدنبرة هوفي وبدأت دراسة اللغة الإنجليزية في كلية المعروفة ـ هناك ـ وكانت بداية فصل الشتاء، وكانت أياماً قاسية على الفتى الذي لم يتعود على العواصف التي تمنعك ـ إن صح التعبير ـ من دخول الفصل الدراسي، أو ترمي بك ـ أحياناً ـ في عرض الشارع، وتعمل على تحريك سرير النوم بعد أن تلقي بجسدك عليه هرباً من زمهرير البرد، ولتنفلت من أسر تلك الكآبة المتسللة إلى النفس من حياة بالغة القسوة والتصحر ـ معاً ـ وقدمني الأخ الوزان للإنسان البالغ التهذيب (ماكدونالد) سعياً للحصول على قبول في القسم بعد انتهاء فترة اللغة، وكنت في بعض الأحايين أسعى لذلك القسم الذي يقع في بناية أثرية ـ شيء غريب جداً فمنظر ذلك البناء ـ من الخارج ـ لا يوحي أن هناك حياة علمية قوية تسري في غرفه الصغيرة وجدرانه، طالبة تسأل، وآخر يقرأ، وأستاذ يحاضر وإنهم غير عابئين بما تخلفه الرياح الهوجاء في داخل المبنى من صوت وخارجه من ضرر ـ وذلك سر حياة الغرب العلمية، بل إنه جوهر الحضارة الغربية. ولكن بعض بني قومنا يحسبونها في حانات الليل وبين مقاعد مراقصه ـ وإنهم يا صديقي لواهمون.

لقد سبقني جيل من الأخوة السعوديين للدراسة ـ هناك ـ من أمثال الأخوة والزملاء الكرام: عبد الله العثيمين، عبد الرحمن حافظ، عبد الله الجربوع، طالع الحارثي ـ رحمه الله، مسفر الحارثي، حسين الزواد، فضل الدوسري، محمد الطاسبان، محمد الهدلق، ومرزوق بن تنباك وكان ابن تنباك الأقرب إلى النفس والأكثر رعاية لزملائه القادمين من أرض الوطن ـ مع زميليه عدنان الوزان وعبد الرزاق سلطان والذي درس بجدية

وتفوق ـ الكيمياء الحيوية ـ وكان يهمس في أذني سوف نفقد جميعاً ـ هذا الهدوء وكان السلطان يسكن في (وليام ستريت) الذي كان منطلقاً لفكرة إنشاء نادي الطلاب السعوديين وكان للزميل الكريم عبد الرحمن المطرودي دور فاعل، إلا أن العمل في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية أخذه ـ بعيداً ـ ويؤسفني القول بأنني لاحظت فرقاً كبيراً، بين (الوجيه) عندما كان طالباً وبين شخصيته في الوزارة، فكنت لا أحدثه في شيء في زمن الدراسة إلا وأخذه بجدية ـ وكثيراً ما قضى أموراً ـ كنت أنبهه إليها وكثيراً أولئك الزملاء الذين غيرتهم ظروف الحياة ومن هؤلاء الزميل السيد هاشم يماني، ـ ترى يا سيدنا ـ هل هي مشاغل الحياة فتعذر؟ أم ضرورة المنصب عندكم ونتعجب؟ وإذا ما ذكرت ابن تنباك والمطرودي في سياق صنع المعروف فإن التاريخ سوف ينظر إليّ بشيء من العتب الشديد إذا لم أذكر الزميل محمد الهدلق، والذي كان من أكثر الطلاب السعوديين قدرة على الصمود أمام عوائق الدرس الأكاديمي ـ هناك ـ فلقد تحمل من شدة وقسوة مشرفه الأول ـ بيير كاكيا ما تحمل بعد اعتزال هذا الأخير انتقل إلى الدراسة تحت إشراف (ماكدونالد)، ولقد كان الزميل (الهدلق) ـ كعادته ـ مثل الصديق ناصر بن عبد الله بن عثمان الصالح مشجعاً ومؤازراً، وعلى العكس من هؤلاء كان للأسف موقف محمد العروسي.

أعود للحديث عن (ماكدونالد) والذي كتب إليّ خطاباً رقيقاً ـ صورة منشورة منه مع المقال ـ بعد أن تعذر علي دخول جامعة أدنبرة والانتقال إلى جامعة (لانكستر) حيث وجدت ترحيباً كبيراً من رئيس القسم (وليد بن ناصر عرفات أو الذي سبق له أن رأس قسم الدراسات العربية بمعهد الدراسات العربية والإفريقية بجامعة لندن والمعروف بـ(سواس) وكانت سنتان من الدرس المتواصل مع (عرفات) كفيلة بانطلاقة جديدة وكثيراً ما

كان (عرفات) يلقي أمامي بالدراسة التي أعدها ويطلب مني شيئاً آخر ويهمس في أذني أريدك أن تهيمن على اللغة الإنجليزية، ولا تحدثني بالعربية إذا ما دخلت القسم وكان (عرفات) مجيداً للاتينية والإنجليزية بعد دراسته للأدب الإنجليزي في جامعة أكستر، ثم نال درجة الدكتوراه في الأدب الجاهلي من جامعة لندن تحت إشراف المستشرق المعروف (جيوم) وقد أدرك جيوم ذكاء (عرفات) عند ترجمة (جيوم) للسيرة النبوية وأشاد به في تلك الترجمة، ويعد هذا الأخير مع آربري، وتوماس أرونلد: وإدموند بوزورث ـ محرر الموسوعة الإسلامية ـ الصادرة عن دار (بريل) وقام مع شافت بإعداد كتاب (تراث الإسلام) والذي صدر مترجماً في عدة أجزاء عن عالم المعرفة، وهي السلسلة التي يقوم بإخراجها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ويشرف عليها إن لم تخني الذاكرة الزميل سليمان العسكري الذي شاطرني الدراسة مع الزملاء جميل مغربي وسمير معبر، وسعد الحميدين، ومن قبلهم سليمان الغنام وصالح جمال بدوي حريري ـ تحت إشراف (بوزورث) قيم دراسات الشرق الأوسط بجامعة مانشستر (فكتوريا) وإذا ما ذكرت طلاب بوزورث من الزملاء السعوديين، فلقد درس الأساتذة الكرام، حسن باجودة، ومنصور الحازمي، وحسن شاذلي فرهود، على يد (وليد عرفات) في لندن، وكان لعرفات دور في تشجيع كل من (موريه) وسلمى الجيوسي على الاهتمام بالأدب العربي المعاصر، إلا أن الظروف ساعدت الدكتور مصطفى بدوي للاهتمام بالأدب الإنجليزي والعربي على حد سواء، فهو قد ترجم كتابي الناقد المعروف (ريتشارد) وهما (مبادىء النقد الأدبي) و(العلم والشعر) وكذلك كتاب (الحياة والشاعر) للشاعر الناقد (ستيفني سبندر) وكتاب (الفكر الأدبي المعاصر) لأستاذ الأدب الإنجليزي المعروف في كلية (سانت جون) بجامعة كمبردج (جورج واطسن) كما كتب دراسته النقدية عن الأدب العربي الحديث والتي

دعاها فرصة مناسبة لأقدم الشكر لنادي جدة الأدبي ـ وفي المقدمة للأستاذ الأديب عبد الفتاح أبو مدين ـ على الجهد الذي بذل من صفوة الأكاديميين السعوديين في ترجمة الكتاب الذي حرره الدكتور: (بدوي) عن تاريخ الأدب العربي، وصدر ضمن سلسلة (كمبردج) لتاريخ الأدب المعاصر، إلا أنني دهشت كيف يضع الزملاء الكرام: عبد العزيز السبيل وبكر باقادر، ومحمد الشوكاني، أسماءهم على غلاف الصفحة الأولى من الكتاب على أنهم محررو الكتاب بينما ـ أن بدوي ـ هو الذي حرر الكتاب كما هو مثبت في الداخل، ويمكن القول إن الزملاء الكرام قد أشرفوا إشرافاً مباشراً على ترجمة الكتاب إلى اللغة العبرية، إضافة إلى مشاركتهم الفعلية في ترجمة بعض فصول الكتاب، وهو جهد مشكور ومقدر. قابلت ماكدونالد لأول مرة في نهاية عام ١٩٧٩م وبداية ١٩٨٠م وقابلته ثانية في عام ١٩٨٥م وقد سأل زميلاً كريماً ـ برفقتي ـ من الأراضي العربية المحتلة عن سميح قاسم، وتوفيق زياد، وقال: (ألم ينته أصحاب الوجوه الشاذة من حكم إسرائيل) وكان (شامير) آنذاك يرأس الائتلاف، الحاكم. وشارك ماكدونالد في كثير من حلقات الدراسات الخاصة بشؤون الشرق الأوسط وكان مؤيداً للشعب الفلسطيني في نيل حقوقه وكان يكتب أوراقه بلغة عربية خالية من الأخطاء.

صديقي الدكتور ديفيدوينز ـ رئيس قسم الدراسات الدينية بجامعة لانكستر، أخبرني في مكالمة تليفونية عابرة أن (ماكدونالد) قد مات وسألته هل مرض فرد بسرعة (إنه موت مفاجىء) وتذكرت معاناته الأسرية ورددت المقولة المعروفة قاتل الله زوجة سقراط.

هل في الغرب حقاً حرية صحافة وفكر . . جارودي وإبراهيم نافع نموذجاً

تتسابق بعض المؤسسات الغربية للدفاع عن الفكر الصهيوني العنصري حتى وإن لم يطلب منها دفاع أو مرافعة ـ فهي ـ أي هذه المؤسسات تخلت عن جميع المبادىء التي ينادي بها المجتمع الغربي كحرية الفكر والحفاظ على استقلاليته بعيداً عن أي مؤثرات أيديولوجية وفكرية.

في بداية التسعينات الميلادية وبعد أن تقدم طالب فرنسي لإحدى الجامعات بأطروحة علمية يشكك من خلالها في الأرقام التي تروجها المؤسسات الصهيونية عن المذابح النازية أصدر البرلمان الفرنسي قراراً يحظر مناقشة مثل هذه القضايا بذريعة أنها تدخل ضمن ما يعرف بعداء السامية وهو سلاح ابتزازي سلطه اليهود على رؤوس بعض المجتمعات الغربية منذ ما يقرب من نصف قرن من الزمن.

وفي نفس الحقبة بدأ ـ ساسيمون ويزنتال ـ بإنشاء مركزه الذي يشبه محاكم التفتيش ومهمته الأساسية ملاحقة كل من يتعرض للفكر الصهيوني بانتقاد وظاهرة تعقب كل من كان له صلة بالحركة النازية العنصرية وهي حركة ندينها نحن العرب والمسلمين إدانة مطلقة، وكانت مهمة (ويزنتال) هي بث الرعب في قلوب الغربيين ومحاولة إسكاتهم عن الجرائم التي

ارتكبها سفاحو إسرائيل في حق الفلسطينيين وطالت التهمة الأمين العام السابق للأمم المتحدة ـ كورت فالدهايم ـ وكان ـ عندئذٍ ـ رئيساً منتخباً في بلده النمسا ولقد أراد مركز (ويزنتال) الانتقام من ـ فالدهايم ـ لأن القرار الأممي الخاص باعتبار الصهيونية حركة عنصرية صدر في عهد أمانة (فالدهايم) كما أراد القائمون على هذا المركز إرسال تحذير خاص للهيئة الأممية مفاده بأن تغض بصرها عن جرائم الحرب الإسرائيلية. وكانت ثمرة هذا التحذير ما شاهدناه من تقرير بائس ومتحيز يبرىء فيه الأمين الحالي للأمم المتحدة ـ كوفي عنان ـ الكيان العنصري الإسرائيلي من ارتكاب مجزرة في مخيم جنين وحصر القتلى في خمسين شخصاً بينما ذهب جراء القصف الإسرائيلي الجبان لذلك المخيم الفلسطيني مئات من الأطفال الفلسطينيين والرجال والنساء.

ثم ولى (ويزنتال) وجهه شطر بريطانيا وكان الهدف هناك هو الأسرة المالكة والتي يزعم اليهود أن أحد ملوكها وهو إدوارد الثامن ـ كان نازياً ـ فأرادوا بكل وقاحة الانتقام من الميت بتعذيب الحي تعذيباً نفسياً رهيباً. فلقد وجهت التهمة لأميرة (كنت) زاعمين أن والدها الألماني الجنسية كان ضابطاً سرياً في جيش هتلر وأسرع المتشبعون بالفكر الصهيوني وفي مقدمتهم النائبة العمالية والمحسوبة على يسار الحزب ـ بابرة كاسل ـ إلى التلميح بضرورة انفصال الأمير الإنجليزي عن زوجته والتي خرجت في برنامج تلفزيوني تبكي متوسلة أن يتركوها وشأنها، فهي لا تعرف عن والدها الذي رحل منذ عدة عقود أو حياته الخاصة شيئاً ولم يستطع أحد أن يدافع عنها إلا أن النائب الحر الراحل إريك هيفر اتهم الصحافة الإنجليزية ـ في مجلس العموم ـ بأنها تشن حملة ظالمة ضد هذه المرأة.

ثم جاء دور المفكر والفيلسوف الفرنسي (روجيه جارودي) والذي أصدر كتبه الموثقة عن التاريخ الدموي والأسطوري للصهيونية ومنها ثم الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، وأخيراً، محاكمة الصهيونية الإسرائيلية، وقد حوكم جارودي في بلده فرنسا الذي يفتخر أهله بأنه بلد الحرية والعدالة والمساواة، وكان من أهم أو أبرز التهم الموجهة إليه هو أن اليهود حاولوا حصر جرائم (هتلر) في قتل اليهود ـ وحدهم ـ بينما كان ضحايا النازية حوالي خمسين مليون إنسان، وإذا كنا ندين ضحايا النازية من اليهود فلماذا لا ندين ضحاياها من الشعوب الأخرى، وإذا كان (هتلر) صنع باليهود ما صنع فإن (بيجين) و(شامير) و(شارون) و(نتنياهو) و(غولدشتاين) و(موفاز) و(بن اليعازر) سلكوا النهج الهتلري الشاذ نفسه في قتل الفلسطينيين وتعذيبهم والتنكيل بهم وإبعادهم عن وطنهم.

ويتعرض ـ الآن ـ الكاتب عادل حمودة لهجمة شرسة طالت صحافياً عربياً مشهوراً وهو (إبراهيم نافع) ـ رئيس تحرير الأهرام ـ بذريعة نشر مقال للكاتب (حمودة) تزعم المنظمة الدولية لمناهضة العنصرية أنه يحرض على العنصرية ولكن أين هذه المنظمة عندما يطلق (عوفاديا يوسف) ـ حاخام حزب شاس الديني والمتطرف ـ والذي يحتل حوالي ١٧ مقعداً في الكنيست الإسرائيلي عندما يطلق هذا الحاخام الأصولي والمتشدد ـ حقاً ـ عباراته البذيئة في حق العرب واصفاً إياهم بالأفاعي والحشرات، وأين هذه المنظمة من حركة كاخ اليهودية المتطرفة، بل أين هي من قنبلة تزن طناً واحداً تقصف بها القوات الإسرائيلية مجمعاً سكنياً في غزة ويقتل فيه ما يقرب من عشرة أطفال وكان أصغرهم سناً لا يتجاوز عمره ثلاثة شهور فقط.

ولا أعلم إذا ما كانت هذه المنظمة التي يؤرقها كل ما له صلة بالشأن اليهودي والصهيوني سوف تحاكم كتاباً رحلوا ـ ومن أصل يهودي ـ انتقدوا الحركة الصهيونية وكشفوا حقيبتها الدموية وفي مقدمتهم إسرائيل شاحاك فوفو وماكسيم رودنسون أو المؤرخون الجدد في إسرائيل خطوة إيجابية أن يسعى العرب لإلغاء قانون (فابيوس) والذي يجيز محاكمة كل من يتعرض للصهيونية بأي انتقاد حتى ولو كان موضوعياً، إلا أن على العرب أن يسارعوا بإنشاء هيئة دولية تحاكم كل من يتعرض للعرب عنصرياً.

الكونغرس الأمريكي وراية الظلم والطغيان

كواحد من أبناء الأمتين العربية والإسلامية فإنني أرى ما اتخذه الكونغرس الأمريكي من قرار اعتمد فيه تسمية القدس عاصمة أبدية للكيان الصهيوني، وهو تجاوز كبير لاختصاصات الكونغرس الأمريكي فهل يرضى المشرعون الأمريكيون من أن تسمى مؤسسات غير أميركية مدنية أو ولاية أمريكية عاصمة لجالية عربية أو إسلامية وذلك لأن عدداً من أفراد هذه الجالية هاجروا إلى هذه الولاية أو المدينة الأمريكية واستقروا فيها، مع الأخذ في الاعتبار أن العرب أو المسلمين الذين هاجروا إلى أمريكا، كانت هجرتهم إلى تلك المناطق بصورة شرعية، ولم يهدموا منزلاً، أو يدنسوا كنيسة في الوقت الذي هاجر فيه اليهود منذ زمن إلى فلسطين والقدس بصورة غير شرعية لأنهم لم يستأذنوا أصحاب الأرض الأصلية، وكان وجودهم هناك على حساب أصحاب السكان الأصليين مما يعيد إلى الأذهان قضية الرجل الأبيض واجتثاثه للسكان الأصليين من قبائل الهنود الحمر، وهو ما فعله الإنسان الإنجليزي بسلاح القوة الاستعمارية بالاستيلاء على أراضي السكان الأصليين في كل من جنوب أفريقيا وروديسيا ـ زيمبابوي حالياً ـ ولم يكتف اليهودي المهاجر أو المستعمر بإيجاد سكن له في هذه الأرض بل هو أخرج صاحب المنزل الأصلي من منزله واستولى على كل ممتلكاته تحميه في ذلك قوة عسكرية غاشمة كأي قوة استعمارية

أخرى، وإذا كان المسلمون يوماً أقاموا مسجداً لهم، ولم يرض خليفة المسلمين العادل أن يصلي في كنيسة القيامة احتراماً لأهل الديانات الأخرى بل اختط للمسلمين مسجداً خاصاً بهم وظل مسجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه دلالة قوية وبرهاناً ساطعاً على سماحة المسلمين مع أنهم دخلوها أي القدس على أسنة الرماح لكنهم ضربوا مثالاً ناصعاً على تمسكهم بحقوق الآخر وكينونته وهذا فرق واضح بين الفتوح الإسلامية في ظل تعاليم السماء، وبين الرؤية الاستعمارية التي عانى منها العالم ولا يزال يعاني في الهجمة الأمريكية الغاشمة التي لا يهمها سوى تثبيت قدم اليهودي وحمايته، وهي هجمة إنجليكانية مسيحية متشددة لم تعد ترضى بما حققته الصهيونية من احتلال لكامل الأراضي الفلسطينية، بل إنها تسعى نيابة عن اليهود لإقامة دولة إسرائيل من الفرات إلى النيل كما تقول بذلك أدبيات الحركة الصهيونية.

رسالة محبة وسلام للسفير الأمريكي

أكتب إليك سعادة السفير من خلال هذه الزاوية وإنني على يقين بأن شعبكم الأمريكي هو شعب محب للسلام وأن القيم التي أرساها هذا الشعب على مدى قرون عديدة وخصوصاً بعد تخلصه من الاستعمار البريطاني البغيض. والذي عانينا منه نحن ـ أيضاً ـ في بلاد العروبة والإسلام، نعم إن تلك القيم الداعية إلى الحرية والديمقراطية والعدالة كانت محل تقدير وحب وتطلع كل الشعوب المقهورة في العالم. ومنذ حرب ١٩٦٧م، والولايات المتحدة ممثلة في حكوماتها المتعاقبة الجمهوري منها والديمقراطي تدعم السياسة الإسرائيلية المعروفة بغطرستها العسكرية وتناقضها مع كل القيم التي وردت في دستور بلادكم المبجل. احتلال للأراضي العربية، تدنيس للمساجد والكنائس وما واقعة كنيسة المهد ببعيدة عنكم أيها الإنسان السفير في بلاد ترعى مقدسات الإسلام وتدعو لمبادئه السامية ويترافق ذلك كله مع قتل الشيوخ والأطفال وترويع الآمنين في مخيمات الصفيح التي يسكنونها منذ سعت الحركة الصهيونية لقهر الإنسان الفلسطيني واجتثاثه من الأرض التي سكنها أباؤه منذ آلاف السنين. . ولن ننسى يا سعادة السفير قتل الأسرى العرب وهم أحياء، بل دفعهم لحفر قبورهم بأنفسهم ثم النظر إليهم بعيون التشفي مع الطلقات الموجهة إلى رؤوسهم وقلوبهم، وإن رئيس وزراء إسرائيل الحالي، الذي

تدعوه مؤسساتكم بأنه رجل سلام نعم إن شارون المعروف لكم جيداً وللبريطانيين ـ حلفائكم ـ وللغير من دول العالم بسجله الإرهابي وتاريخه الدموي هو أكثر من يتفنن في قتل الأسرى بدم بارد وتلك شمائل الجبناء وأخلاق إنسان الغابة غير المتحضر. ألم تسألوا أنفسكم ـ سعادة السفير ـ كيف يمكن لكم أن تستمروا في دعم (شارون) عن طريق تقديم كل الأسلحة الأمريكية المتطورة وجعلها بين يديه؟؟ كل ذلك أيها السفير تفعلونه إرضاء لصهيونيي الإدارة والكونغرس الأمريكي الذين يخونون مبادىء الوطنية الأمريكية ويتجسسون على بلادكم والأمثلة كثيرة ولكن قضية جوناثان بولارد هي شاهد على ما نذهب إليه: أعطني سعادة السفير إجابة واحدة لأطمئن بأن دستوركم لم تخطفه الصهيونية وإلى الأبد.

التعددية الفكرية ودورها في البناء الحضاري!

سررت بما نقل عن فضيلة الشيخ صالح بن حميد على صفحات هذا الملحق الأغر (الجمعة ١٢، شعبان، ١٤٢٣هـ)، الداعي إلى تجسيد ثقافة الحوار والتعود على تقبل الرأي الآخر، ولم ينس فضيلته تبيان الطريق المؤدي إلى ذلك فذهب إلى القول (لا يتصور إسلام بلا مذاهب).

وفضيلة الشيخ صالح ـ الذي يؤمن بالحوار ـ ويدعو إليه: هو يؤكد ما ذهب إليه علماء هذه الأمة من القرون الأولى الخيرة، فلقد روى الشيخ المجدد ولي الله الدهلوي: في كتابه القيّم (الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف) ط ٣، ١٤٠٦هـ ص: ٣٨، ما معناه: إن الخليفة العباسي هارون الرشيد شاور أمام دار الهجرة ـ مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ في أن يعلق الموطأ في الكعبة ويحمل الناس على ما فيه، فقال له الإمام مالك. لا تفعل فإن أصحاب رسول الله ـ ﷺ اختلفوا في الفروع، وتفرقوا في البلدان، وكل سنة مضت.

وهذا شيخ الإسلام ـ ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يورد في كتابه المعروف (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) طبعة: النمنكاني بالمدينة المنورة ـ ص:٢٠، ما نصه: (وفي الصحيحين عن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ قال: إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله

أجر، فبين أن المجتهد مع خطئه له أجر وذلك لأجل اجتهاده، وخطؤه مغفور له لأن درك الصواب في جميع أعيان الأحكام إما متعذر، أو متعسر، وقد قال تعالى ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨) وقال ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥).

ما رأي فضيلة الشيخ ابن حميد بأنه أصبح من الضروري، أن يعود تدريس المذاهب الإسلامية المعتمدة في الحرمين الشريفين فلقد كان هذا الصنيع الفكري والحضاري ـ والمعروف في تاريخ الأمة عبر جميع العصور ـ مأخوذاً به عندما كان والدكم وشيخنا فضيلة الشيخ عبد الله بن حميد ـ أسكنه الله فسيح جناته ـ مسؤولاً عن شؤون الحرم المكي الشريف، وكذلك في الحرم النبوي الشريف عندما كان فضيلة الشيخ عبد العزيز بن صالح ـ رحمه الله ـ مسؤولاً عن التدريس بالمسجد النبوي.

عبد الرحمن رفّــة وتاريخ ريادّي متميز

قرأت رد الأستاذ محمد صالح البليهشي في صحيفة عكاظ حول ما فهمته بأن الأستاذ عبد الرحمن رفّـة قد صرح لأحد الأخوة الصحافيين بأنه لم يستلم من نادي المدينة كامل المبلغ المخصص لشراء (الفيلا) العائدة ملكيتها له والتي أضحت فيما بعد مقراً للنادي، ولا بد أن لبساً قد حصل مما جعل الزميل البليهشي يرد بتلك الصورة المتحمسة والتي بدت واضحة كل الوضوح. . . وللتاريخ فإنني أورد ما سمعته من الأستاذ الرفّـة نفسه قبل سنوات قليلة وعندما كانت صحته تسمح بمقابلة محبيه، فلقد ذكر بأن المرحوم الأستاذ محمد هاشم رشيد اتصل به ليعرض عليه رغبة النادي في شراء الفيلا التي كان الرفة يريد أن يتخذها مسكناً له، فما كان من الأستاذ الرفّـة إلا أن يستجيب وتقديراً لدور النادي الثقافي في مدينة المصطفى ـ ﷺ ـ فإن الرائد (الرفة) باع منزله برأس المال الذي أنفقه على بناته، ولم يطلب مكسباً إضافياً، هذا ما كرره الرفة على مسمعي أكثر من مرة، ولم يزعم قط أنه قدم الفيلا هدية للنادي، إلا أن فعل الرفة هذا وهو الاستجابة لطلب الأستاذ الرشيد بأن يكون منزله الذي أراد تخصيصه سكناً له ـ وبالتالي ـ فهو قد بذل جهداً كبيراً ليكون على المستوى الذي يطمح إليه هو وأفراد أسرته ليكون مقراً للنادي إضافة إلى أنه لم يتكسب من وراء هذا الأمر، نعم إن هذا الصنيع في حد ذاته يعتبر شيئاً رائعاً وفيه من التضحية

ما فيه، أما قول الأستاذ البليهشي والذي أكن له احتراماً كبقية أعضاء النادي بأن الرفة لم يكن عضواً مؤسساً للنادي فهذا لا يقلل من دوره كرائد من روائد الأدب في طيبة الطيبة، فالمرحلة التي سبقت تأسيس النادي، وهي مرحلة ما عرف باسم أسرة الوادي المبارك كانت الأصعب لقلة الإمكانيات المادية ـ آنذاك ـ وأعلم أن منازل الأساتذة محمد عالم أفغاني وعبد الرحمن رفة وحسن الصيرفي ومحمد سعيد دفتر دار، وعبد العزيز الربيع، هذه المنازل احتضنت بدايات هذه الأسرة الأدبية والتي تشكل منها ـ فيما بعد ـ نادي المدينة الأدبي ولا أدري إذا كان زميلنا البليهشي يعلم أن الدار التي كان يسكنها آل الرفة في المناخة كانت مفتوحة أبوابها لجميع الأصدقاء والزائرين ولعل في ذاكرة الأساتذة محمد حميدة، وحسن الصيرفي، وعبد الرحمن التركي، ومحمد كامل ضجا وسواهم ما يلقي الضوء على هذه المرحلة الهامة من مراحل الحركة الأدبية في عاصمة الإسلام الأولى، وإذا كان النادي قد كرم (الرفة) أو طبع له ديواناً فهذا أقل ما يمكن في حق الرجل الذي لم يقتصر دوره على الناحية الأدبية في المدينة فلا زال اسم ملعب (الرفة) في منطقة سلطانة يوحي بدلالات عديدة وهو تنوع مشاركات هذا الرائد في الفعل الفكري والنشاط التربوي والكروي على مدى ما يقرب من ستين عاماً ونيف.

الحضارة ليست مادونا أو جاكسون!!

تحدثت بشيء من الأسى والحزن في موضوع «ابنة الجيران» عما آلت إليه أخلاقيات بعض شبابنا وتوارد إلى الذهن المكدود شيء من الماضي الذي كان يحرص فيه الآباء وبشيء من القسوة أحياناً على أن ينشئوا أبناءهم تنشئة فيها من قيم الشهامة والنخوة وسلوكيات الاستقامة الحميدة ما يبعدهم بهداية الله وتوفيقه عن مواطن السوء والتردي الخلقي الذي أضحى يضرب بأطنابه في بعض مجتمعاتنا الإسلامية والعربية والتي يفترض فيها أن تكون أنموذجاً صالحاً لما ينبغي أن تكون عليه الحياة الفاضلة والمتمثلة لمبادىء دينها الحنيف الذي وصف نبيه الكريم في آيات من الوحي البليغ والمعجز بقول الله عز وجل ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤).

وإذا كنا أخفقنا في أن نجاري الغرب في تقدمه المادي وعلى وجه أصح ذلك التقدم النافع والصالح الذي لن يكون بطبيعة الحال قد تكونت مفاهيمه العلمية في نوادي الرقص واللهو ولم يكن مرتبطاً بحال من الأحوال فيما عرف في الستينيات والسبعينيات الميلادية بثورة الجنس وتقاليع الهيبز، ولم يتأسس في الحقبة اللاحقة من خلال رقصات «مايكل جاكسون» أو «مادونا» ولكنه تكون وتأسس في مختبرات العلم ومؤسسات المعرفة التي ترصد كل جديد ونافع، وبعض من علماء الغرب لا يعرف

غير مختبره وبيته، ولا يذهبن الوهم أو الخيال بالبعض بأن هذا النفر من علماء الغرب قد قطع جذوره بدينه وتراثه، فهم متمسكون بتراثهم الديني وشعائره، وكثيراً ما ضربت مثلاً بأستاذ الحداثيين العرب «ت. س. أليوت» مبدع قصيدة الأرض اليباب الذي كان مسيحياً متشدداً وفي قصيدته المشهورة مواضع للتأثر بديانته الكاثوليكية.

وإننا كثيراً ما صفقنا ونصفق في بعض مجتمعاتنا العربية لكل مارق عن الدين، ناشر للخلق السيّـىء تحت مسمى براق وخادع وهو الإبداع، وكان كاتب جاهل ومغمور ويعيش حالة من الانفصام الشديد في شخصيته هاجمني وشتمني لأنني لم أر إبداعاً في خبز محمد شكري الحافي حقاً، ولكنني وجدت صوراً مفرزة للسلوك البشري في ضعفه، وترديه وشذوذه وانحطاطه.

أعود للقول إذا كنا لم نستطع أن نجاري الغرب فيما هو إيجابي للإنسانية في مسيرتها الطويلة، فإن إخفاقنا في إبراز السلوك الحسن، وتقديم الصورة المثلى لما يجب أن يكون عليه الإنسان في ارتقائه وسموه قولاً وفعلاً، مع أن تعاليم ديننا الحنيف بوسطيتها واعتدالها تعد منجماً لا ينفد للسلوك الإنساني الرفيع.

إن إخفاقنا في هذا الجانب لهو أشد وأنكى من تخلفنا المادي وتأخرنا عن ركب الحضارة، وتعثرنا في مسيرة التقدم.

حسن عبد الحي قزاز . . الصوت الأقوى والأجمل

تحدث عدد من أدبائنا عن أستاذ الجيل في الصحافة المرحوم حسن عبد الحي قزاز، ولكن ما كتبه الأستاذ عبد الله جفري في عموده اليومي ـ بصحيفة الحياة ـ حلقتان متتاليتان كان وفاءً نادراً، ووجداً صادقاً، وحروفاً تنبض بالحب الذي أضحينا نفتقده في زمن الماديات، وكأني بأبي «وجدي» أراد من تلك الكلمات أو من خلال تلك المرثية أن يعود بنا لزمن البراءة والطهر، فلقد كان الجليس والمريد لجيل تمثله قامات شامخة في الفكر والأدب ـ أدب العقل وأدب النفس من أمثال الشاعر الكبير ضياء الدين رجب، والمؤرخ والنسابة والخطيب المفوه الأستاذ محمد حسين زيدان ولقد سمعت الزيدان ـ رحمه الله ـ يخطب قبل حوالي عقدين من الزمن في حفل لتهامة على عهد صديقنا أبي الشيماء الأستاذ محمد سعيد طيب لمدة تقارب ثلاثة أرباع الساعة، لا يتلجلج في قول ولا يلحن في لغة ويحلق بسامعيه في أجواء من بلاغة القول الذي يخاطب العقول والقلوب ـ على حد سواء ـ فكأنك بابن المقفع قد اخترق العصور، أو بأديب العربية الكبير طه حسين يسرد حكاياته الجميلة بين القرية والأزهر والشانزاليزيه وكان واسطة العقد بين تلك الوجوه النضرة ـ بقية الناس ـ الإنسان المهذب والكاتب الحر السيد ياسين طه ـ أطال الله بقاءه.

ومثل ما جذب الزيدان جيلاً من أمثال حامد مطاوع وعبد الله جفري وعبد الغني قستي، فلقد استطاع الأستاذ حسن عبد الحي قزاز أن يزاحم «الزيدان» في حب الجيل الذي يمثل في الوقت الحاضر الطليعة من الكتاب في صحافة جزيرة العرب ومهد الرسالة الخاتمة في رحاب البيت المعظم وفي جوار مثوى سيد ولد عدنان ـ عليه صلوات الله وسلامه هناك في الشعب وفي حراء، والنقا وفي قباء واحد، وسلع، والعقيق، ورانوناء، تعود بي الذاكرة لأكثر من ربع قرن عندما شاهدت الأستاذ القزاز في بيت السادة آل البار في جبل الكعبة بحارة الباب بمكة، وكان السيد علي بن عيدروس البار يحدث في تلك الرحبة التي تجمع الناس وتجمعهم وتؤلف بين قلوبهم ثم رأيته في حانوت الرجل الوقور الشيخ أحمد ملا ـ رحمه الله ـ بسوق الصاغة وقبل حوالي عامين ذهبت لزيارته في المستشفى مع الزميل الأستاذ علي حسون، وذكرته بجبل الكعبة وذكريات ولت، فإذا هو يبتسم ـ كعادته ـ ويقول: يا عصام كنت في شبابي أحضر درس السيد عيدروس ثم أقطع الدرب بين الشامية والنقا واستوقفني رجل فاضل ليسألني أين أقضي وقتي في حارة ـ النقا ـ فلما ذكرت له المكان اطمأن وربت على كتفي لقد كان صديقاً لوالدي ولم أستطع كبقية أفراد جيلي أن أخفي عليه سراً فلقد كان باعثه الحب الأبوي والعاطفة النبيلة وسألته ـ يومها ـ عن بعض أصدقاء الأستاذ محمد عمر توفيق ـ رحمه الله ـ فإذا هو يرد في ذكاء لماح ويقول: لقد هضم «الأستاذ» ثقافات عدة أفلا تريده أن يهضم الناس على مختلف مشاربهم وميولهم.

ورأيت من الواجب ـ أن أكتب عنه شيئاً كرائد من رواد الصحافة فكانت المقالة على صفحات هذه الجريدة الغراء بعنوان كرموا هذا الشيخ

فإذا هو يهاتفني ويقول في حب أبوي كبير: «كنت» انتظرها من غيرك فإذا هي تأتي منك فأجبته أنت أستاذ الجميع بصحبة الأخوين عبد المحسن حليت وعلي حسون، في مكتبه بجدة القديمة. وعلمت أنه يرفض ترك ذلك المكان لأن ذوي الحاجة يعرفون هذا المكان منذ عقود طويلة وهو حريص على إيصال أصواتهم إلى ولاة الأمر والمسؤولين، فلقد كان جاه المرحوم القزاز مبذولاً للناس ومقبولاً عند ذوي الشأن.

ولقد ذكر معالي الأستاذ أحمد زكي يماني في أحد لقاءاته العلمية والفكرية أن صحيفة «عرفات» كانت ميداناً رحباً وفسيحاً لأمثاله من ناشئة ذلك الجيل الذي كان يسعى في شوق وتطلع للعلم، والأدب في جميع فطانه، وليست رعاية الشباب ممثلة في رئيسها العام سمو الأمير سلطان بن فهد بن عبد العزيز وتخصص جائزة سنوية تحمل اسم هذا الرائد الكبير في عالمي الصحافة والفكر وتمنح لمن يمتحون من ذواتهم ويحرقون ضياء عيونهم ونور أبصارهم ليسطروا الكلمة الصادقة والبناءة، تلك الكلمة التي تنير لأمتهم ومجتمعهم دروب العلم والمعرفة، وأمة مثل أمتنا عرفت الوفاء، وحافظت عليه وبذلت وأن أحق الناس به من بذلوا ومضوا وبعض من بقي ممن يكتب الكلمة التي تبني ولا تهدم وتجمع ولا تفرق وتضيء الطريق بعيداً عن ظلمة الفكر والقلب ـ معاً.

مفكرو الغرب والقيم الإسلامية الخالدة

تواجه الأمة الإسلامية في العصر الحاضر مشكلات عدة منها ما هو متصل بتكالب أعدائها عليها، فعداء الآخرين لها ينبثق من أن الدين الخاتم الذي نزل على سيدنا محمد ﷺ هو تشريع لخلافة الإنسان في الأرض بالحق والعدل والقسطاس المستقيم، وأن مقاصد الشريعة الإسلامية سواء ما اتصل منها بكتاب الله الكريم أو سنة نبيه تدعو إلى نفي الظلم والطغيان وقيام العدل بين الناس جمعياً بعيداً عن أعراقهم، وألوانهم، ومن هنا اتسمت الحضارة الإسلامية بأنها حضارة العقل والروح، وأنها تجمع بين متطلبات الجسد والنفس في كيان واحد، بينما تختلف عنها الحضارة الغربية المعاصرة. وذلك في توجهها الأحادي نحو المادة فقط، ولهذا فإن قتل الآخر، أو نفيه وتعذيبه والتخلص منه هو مما لا يخجل منه منظرو هذه الحضارة.

ولهذا لا يمانع الغرب في استخدام السلاح النووي كما فعل في مأساة نجازاكي وهيروشيما، أو كما فعل لاحقاً في فيتنام، أو كما ترشح به صفحات الإعلام الغربي من استخدام أسلحة تحتوي على إشعاع نووي، ولعل الغرب الذي لم تردعه عقيدته أو أخلاقه عن صنع هذا السلاح وتسويقه للأصدقاء من أمثال الكيان العنصري الإسرائيلي سيجد نفسه في

هذه اللحظة من الزمن أمام اختبار حضاري عميق، لأن الضحية في هذه الحالة هو الإنسان الغربي نفسه جندياً كان أو صحافياً، ينتمي لفرنسا أو لإيطاليا يدين بالكاثوليكية أو البروتستانتية أو علمانياً صرفاً لا يجد في الكنيسة ما يغذي روحه ووجدانه فيهرع إلى اللادينية أو إلى فلسفات وجودية أخرى لم تخلف وراءها إلا الإحباط أو الانتحار، ولم يجد فيها الغربي أو مقلده خلاصاً أو إنقاذاً.

وهذا ما استنتجه الفيلسوف الغربي أرنولد توينبي منذ حوالي نصف قرن من الزمان.

يقول توينبي: إن العالم الإسلامي ذو تاريخ عريق في التقليد القائل: إنما المسلمون أخوة رغماً عن اختلاف الجنس واللغة والبيئة.

ويرى توينبي في هذا المبدأ الحضاري النابع من تعاليم الدين الإسلامي مثلاً أعلى يفترض في المسلمين ألا يفرطوا فيه أو يتغافلوا عنه، أو يستبدلوا به التقاليد الغربية المادية، لهذا فهو يصرح بأنه مثل أعلى وذلك عندما يقول والآن بعد أن طويت المسافات بتقدم التقنية الغربية، وفي الوقت الذي تتنافس فيه طرق الحياة الغربية مع طريقة الحياة الروسية لكسب ولاء البشرية كلها، الآن يظهر أن التقليد الإسلامي في أخوة الإنسان للإنسان هو مثل أعلى يوافق حاجات العصر الاجتماعية وهو أفضل من التقليد الغربي الذي أدى إلى قيام عشرات الدول الصغيرة ذات السيادة على أساس الاختلاف القومي.

انظر: آرنولد توينبي، الإسلام والغرب والمستقبل. تعريب. د. نبيل صبحي، ط١، ١٣٨٩/١٩٦٩م ص ٢٨.

ويفترض أن يؤدي الانهيار الأخلاقي الغربي في تطبيقاته بعد حربين

كونيتين شاملتين إلى تمسك المسلمين بثوابت دينهم ومنطلقاته، والحرص على تقديم مبادئه ومثله العليا بعيداً عن الإفراط والتفريط.

مع الاحتراز من موجة التشدد التي فرضتها موجات تشدد أخرى حفل بها المجتمع المسلم في العقود الأخيرة فقد نهى النبي ﷺ عن الغلو في الدين قائلاً: إياكم والغلو في الدين فإنما هلك من قبلكم بالغلو في الدين وحث على التيسير والرأفة والرحمة بقوله ﷺ لا تشددوا على أنفسكم فيشتد عليكم، فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشد عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات.

وهذا التيسير لا ينبغي أن يفهم أنه دعوة للانفلات، أو التقصير فيما افترضه الله على عباده من واجبات أو التساهل فيما عرف من الدين وأحكامه بالضرورة بل هو التيسير الذي تنطلق منه الوسيلة التي عرف بها هذا الدين في عهد النبوة والخلافة الراشدة وما تلاها من عصور الإسلام الزاهرة.

بالحوار وليس بسواه تبلغ الأمة وحدتها واجتماع كلمتها

حدّد فريق من كبار علماء المملكة العربية السعودية مهبط الوحي وموئل الرسالة عند لقائهم بكبار رجال الفكر والقانون في أوروبا وذلك في عام ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م، وكان يرأس الجانب السعودي فضيلة الشيخ محمد علي الحركان رحمه الله وكان ممن ضمهم الوفد فضيلة المشائخ الشيخ راشد بن خنين، الشيخ عمر بن مترك، الشيخ محمد بن جبير رئيس مجلس الشورى حالياً والشيخ عبد العزيز المسند، والشيخ محمد المبارك رحمه الله والذي كان يدرس في كلية الشريعة بمكة المكرمة وغيرهم. حدد هذا الفريق المؤلف من هذه الشخصيات العلمية التي لا غبار على توجهاتها الدينية والعلمية والفكرية المبادىء الإسلامية العالمية التالية:

أولاً: المبدأ الذي حددته وجهرت به شريعة القرآن حين توجهت إلى البشرية معلنة نداء الله لبني الإسلام في كلمة الله المقدسة القائلة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ (الحجرات: ١٣).

ثانياً: المبدأ الذي ختم به رسول الإسلام دعوته وحياته في أعظم حشد اجتمع في الحج الأكبر ليقول لهم (ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى).

ثالثاً: وأخيراً المبدأ الذي أوصى به رسول الإسلام في نفس ذلك الجمع الحاشد داعياً إلى السلام وأنه من لوازم الإيمان ومحذراً من سفك الدماء وأنه من لوازم الكفر بالله فقال: (لا تعودوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض) معلناً بذلك شريعة الله في الناس إذا آمنوا به كما جاء في القرآن الكريم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ (البقرة: ٢٠٨).

انظر: ندوات علمية حول الشريعة الإسلامية وحقوق الإنسان في الإسلام، رابطة العالم الإسلامي، ط٢: ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م، ص ١٠٦.

ويسأل الإنسان نفسه لماذا لا يستطيع المسلمون عكس هذه المفاهيم في خطابهم الدعوي والإعلامي وبدلاً من أن ينقلوا هذه المفاهيم والمبادىء الإنسانية السامية في المجتمعات الغربية فإن خطابهم كان موسوماً في كثير من الأحيان بالشدة والغلظة والقسوة وبدلاً من أن يحتوي قاموس الداعية على كلمات هي من صميم جوهر الإسلام، مثل السلام، الرحمة، العدالة، التآلف، التعاضد، حسن الظن بالآخرين، جواز الاختلاف فيما هو داخل في فروع الشريعة الإسلامية وليس في منطلقاتها الأساسية.

نعم لقد كان خطاب بعض طلاب العلم في العالمين الإسلامي والعربي بعكس ما هو ضد ذلك وبما يبرز وجهاً متجهماً وغاضباً ـ جاعلاً من نفسه محور الإيمان الحقيقي ـ وما سواه موسوم بالشرك والبدعة والفسوق وتسمع الخطيب في عدد من مساجد العالم الإسلامي والعربي، فلا يمكنك أن تحصي مثل هذه العبارات القاتلة لروح التسامح والآخاء والمحبة، والعاملة بفاعلية على نشر روح الفرقة بين أفراد أمة تنطق بالشهادتين وتؤدي ما يترتب عليها من تكاليف شرعية معروفة، وكأن قول

الرسول ﷺ الذي ورد في خطاب علماء من خيرة هذه الأمة المحمدية والذي حذر فيه من سفك دم المسلم لأخيه المسلم، (لا تعودوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض) كأن هذا القول النبوي المحذر لهذه الأمة لم يمر على بعض من تصدوا للدعوة ونصبوا أنفسهم قضاة على عقائد الناس، أو أنهم مروا عليه ولم يستوعبوه كما لم يستوعبوا غيره، مع أن علماء السلف الصالح تنبهوا لمخاطر هذه الفتن التي جنت على الأمة الإسلامية من قبل بعض طلاب العلم المتنطعين فهذا الإمام السلفي التوجه يذكر في كتابه المعروف (السيل الجرار): (اعلم أن الحكم على الرجل المسلم بخروجه من دين الإسلام ودخوله في دين الكفر، لا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقدم عليه إلا ببرهان أوضح من شمس النهار، فإنه قد ثبت في الأحاديث الصحيحة المروية عن طريق جماعة من الصحابة إن من قال لأخيه (يا كافر) فقد باء بها أحدهما، هكذا في الصحيح، كما وضع العلماء المحققون ضوابط عديدة في هذا الشأن حتى لا تنتشر هذه الفتنة التي قد تجني على الأمة وتفكك وحدتها، وتوهن من قدراتها وتسبب في انتشار البغضاء والحقد بين أبنائها وأفرادها ولهذا فإن عالماً وفقيهاً وداعية كبيراً مثل الشيخ عبد الرحمن السعدي تحدث عن هذه الضوابط حديثاً علمياً وموضوعياً ربما كان من الأجدى لبعض طلاب العلم وخطباء المساجد في العالم الإسلامي أن يقفوا عليه ويتدبروا مقاصده ومعانيه، لقد قال فضيلة الشيخ (السعدي) رحمه الله في كتابه (طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول) ما نصه: (ولا يلزم إذا كان القول كفراً أن يكفر كل من قاله مع الجهل والتأويل، فإن ثبوت الكفر في حق الشخص المعين كثبوت الوعيد في الآخرة في حقه، وذلك له شروط وموانع).

لقد أخرج فضيلة الشيخ الدكتور صالح بن حميد الرئيس العام لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف، وعضو هيئة كبار العلماء كتاباً فريداً ومتميزاً في مضامينه وأسلوبه وهو (أدب الخلاف) وهذا الكتاب يعكس سعة أفق الشيخ ابن حميد، ولقد ورث ذلك عن أبيه فضيلة الشيخ العلامة عبد الله بن حميد والذي كانت حلقته تمتلىء كل عشية في المسجد الحرام من حول بئر زمزم إلى عتبة باب السلام كما يوضح الفهم العميق لدى الشيخ صالح لمقاصد الشريعة وأحكامها وأدابها، وحبذا لو اقتنى بعض طلاب العلم وخطباء المساجد نسخاً من هذا الكتاب القيم وقرأوه حق القراءة حتى لا تنفلت الألسنة منهم وبدون ضوابط بعبارات التكفير والتفسيق والتبديع، وأورد هنا بعضاً من الأفكار الهامة التي أوردها الشيخ صالح بن حميد في هذا الكتاب القيم: (يجب الجد في السعي من أجل إحياء الأخوة الإسلامية الحقة لتلتقي الأمة بفئاتها وجماعاتها على نصرة دين الله حباً فيه وولاء لله ولرسوله ﷺ انتماء يستعلى على كل انتماء، والخطاب في هذا اللقاء أيها الأخوة موجه إلى أهل العلم والفكر... علماء وطلبة علم، تطرح القضايا والمسائل على بساط البحث، ويبذل الجهد في تمييز الصواب من الخطأ، يحترم رأي كل مجتهد سواء كان مخطئاً أو مصيباً، والتحامل على المجتهد أو تجريحه مسلك في العلم منكور، وخطؤه لا يبيح النيل من عرضه، ولا يسوغ تلمس المعايب للبرءاء، والتشهي بإلصاق التهم بالناس).

لقد كثر الحديث أخيراً عن الحوار بين العالمين الإسلامي والغربي وهو أمر جيد ولكن أليس الأولى أن تتحاور الأمة ممثلة في فئاتها الدينية المختلفة مع بعضها البعض وتلتقي عند كلمة سواء، وتهجر إلى الأبد هذا القاموس الذي طغى على الخطاب الديني.

البعد الحضاري في تفسير بعض السلوكيات الغربية

تدق نواقيس الخطر في الغرب إذا كان الإنسان المفقود، أو القتيل أو المتضرر جسدياً ونفسياً غربياً، وهذا ينطق على ما أثارته وسائل الإعلام الغربية عن مخاطر اليورانيوم المستنفد وفجأة وجدنا حلف الأطلسي يصدر توجيهات بالعمل السريع لجمع الحقائق، وكانت المعلومات الأولية أفادت عن ٣٠ إصابة و ٧ وفيات في إيطاليا، و ٩ إصابات و ٥ وفيات في بلجيكا و ٨ إصابات ووفاتين في أسبانيا، ووفاتين في هولندا، و٥ إصابات ووفاة واحد في فرنسا، وإصابتين في الدانمارك، إضافة إلى إصابات أخرى في بريطانيا وألمانيا واليونان، وهنغاريا والجمهورية التشيكية، وخلت التقارير عن الأضرار التي قد تكون خلفتها حرب الخليج من جراء استخدام الغرب ذخائر مكسوة باليورانيوم المستخدم ولم تثر أي ضجة حتى بعد اعتراف الكيان العنصري الإسرائيلي باستخدامه قذائف أمريكية الصنع والتمويل والهوى تحتوي على هذه المادة المحتوية على شعاع ميت وضار بوجود الإنسان على هذه الأرض، ويعود استخدام الدولة العبرية لهذه المادة المحرمة ـ دولياً ـ إلى عام ١٩٨٥م ضد المواطنين الأبرياء في لبنان كما ورد في تقرير موجز نشرته صحيفة الحياة الدولية الخميس ١ فبراير ٢٠٠١ الموافق ٧ ذي القعدة ١٤٢١هـ.

وإذا كان الغرب يعنيه بالدرجة الأولى قوة الكيان الصهيوني عسكرياً وتقنياً ونووياً وأخيراً إشعاعياً ثم يأتي المواطن الغربي في الدرجة الثانية بعد الإنسان اليهودي والصهيوني وذلك لانتشار عقيدة الولاء المزدوج لدى الساسة الغربيين بصورة واضحة بدءاً برونالد ريجان ومارجريت تاتشر في الثمانينيات الميلادية وانتهاء بـ (توني بلير) وجوردون براون وبيل كلينتون، وآل جور في التسعينيات فإن هذا الغرب غير معني إطلاقاً بسلامة المواطن العربي في الوقت الذي يرفع فيه بعض المثقفين العرب شعار الدفاع عن الغرب ويستميتون في تسفيه من يدعو لمقاطعة هذا الغرب لأنه المسؤول الأول عن الجرائم التي ترتكبها الحركة الصهيونية ضد العزل من شيوخ ونساء وأطفال فلسطين العربية والمسلمة.

بقيت قضية هامة يحسن الالتفات إليها والتمعن فيها بصورة جدية، هذه القضية تتصل بالبعد الإنساني في الحضارة العربية المعاصرة فهذه الحضارة بصفتها المادية وخلوها التام من الجانب الروحي والإنساني، لم تعبأ بقتل المواطنين في اليابان بالقنابل في هيروشيما ونجازاكي، ولم تفكر ـ يوماً ـ في الاعتذار للشعب الفيتنامي وما فعلت به تحت ذريعة مكافحة الشيوعية في الستينيات الميلادية، ولم تفكر كما يحلو لها أن تفعل أحياناً في محاكمة مجرمي الحرب من اليهود من أمثال بيجين وشامير وشارون وبعض من هؤلاء الزعماء الصهاينة كان متورطاً في قتل عربيين كما تثبت سجلات أجهزة الاسكتلانديارد في بريطانيا، ولم تعتذر للشعب العربي الليبي عن الاعتداء عليه في وضح النهار في عام ١٩٨٦م ـ بتحالف شرير ـ بذريعة تورط ذلك البلد في قصف ناد ليلي في ألمانيا مع أنه ثبت بالدليل القاطع أن المتورط في العملية جهة أخرى.

هذا الغرب بهذا البعد الحضاري المادي والرؤية المتحيزة لا يفعل شيئاً من هذا كله مما يدل على موت الضمير وجفاف العاطفة الإنسانية المحضة، ولكنه معني بمحاكمة فيلسوف مثل روجيه جارودي لأنه شكك ـ فقط ـ في الأعداد التي يزعم اليهود أنها قضت في محرقة هتلر، ويقاطع الرئيس النمساوي السابق (كورت فالدهايم) لأن الحركة الصهيونية تحمله مسؤولية إصدار قرار يساوي الصهيونية بالعنصرية وذلك عندما كان أميناً عاماً لهيئة الأمم المتحدة، بل إن نواباً غربيين من أمثال الوزيرة العمالية والبريطانية السابقة (بابرا كاسل) انطلاقاً من تأييدها الأحمق لليهود ـ دعت إلى ضرورة مراجعة العلاقة الزوجية بين أميرة كينت وزوجها بحجة اكتشاف أن والدها كان على علم بما يصنعه «هتلر» ضد اليهود، ولم يثبت اليهود في بريطانيا ادعاءهم هذا ولكن النزق والطيش دفعا بعض أجهزة الإعلام البريطانية للهجوم على الأميرة فخرجت على شاشات التلفزيون تبكي بحرقة وألم وتقول: إنه إذا كان والدها فعل شيئاً من هذا فهي غير مسؤولة عنه، ولم يرحم الإنجليز بكاء الأميرة الألمانية الأصل بل إنهم أمعنوا في سحق شخصيتها بطرق عدة.

دعوهم في حياتهم آمنين وفي قبورهم مطمئنين

عشنا زمناً طويلاً نفتخر ونتغنى ـ ونحن محقون ـ بأن لدينا قامات شامخة في دنيا الفكر والأدب من أمثال: محمد حسن عواد، وحمزة شحاتة، وحسين سرحان، وحسين عرب، وعبد الله عبد الجبار، وعبيد مدني، وأمين مدني، ومحمد حسن فقي، وحمد الجاسر، وأحمد جمال، وعبد الله بن خميس، ومحمد أحمد العقيلي، وعبد الكريم الجهيمان، نعم عشنا هذه العقود ونحن نردد والوطن معاً أصداء الشعر الذي أبدعه الرائد العواد رحمه الله ويقول فيه مفاخراً:

مِنْ هنا شَعْ للحقيقة فجْرٌ ... من قَدِيمٍ، ومن هُنا يتجدّدْ
أدبٌ نابه يُقدِّمهُ الشَعْـ ... ـبُ إلى النَّاس مِنْ بلاد (مُحمَّدْ)
مِنْ هنا، مِنْ بلادنا هذه القا ... ئم فيها هَذَا الفخار المؤبَّدْ
بَرزَ العاهِلُ الذي ملك الدُّنيا ... بنورٍ، لا بالسِّلاح المُمدَّدْ

ولقد عاش بعض من هؤلاء الرواد عيشة الكفاف وفي مقدمتهم العواد وشحاتة، وزاد يقيني بأن ما قيل عن عزوف هذين الرائدين عن متاع هذه الدنيا الفاني ما رواه لي الأديب الدكتور عبد الله مناع بأن المرحوم العواد باع داره الوحيدة في (العمارية) ليقتات هو وأسرته من ثمن هذه الدار، وأن الذي كتب أول بيان أدبي في بلادنا في عصرنا الحاضر خواطر

مصرحة كان يستأجر سيارة ليوصل بنفسه ابنته الإذاعية والأديبة نجاة عواد إلى مقر عملها في الإذاعة، ثم يعود لأخذها في نفس المركبة المستأجرة، إنها ابنته يرى فيها رمز المرأة التي أحب ودافع عن حقوقها طوال نصف قرن من الزمن، وكانت معركته الشهيرة مع المرحوم الناقد عبد العزيز الربيع حول شاعرية صاحبة الأوزان الباكية ثريا قابل.

ومثله (شحاتة) الذي عاش في أرض الكنانة زاهداً ومتنسكاً وصامداً وصامتاً ليقوم على تربية وتعليم السيدة شيرين ـ رحمها الله ـ وأخواتها، وإن من يقرأ رسائله إلى ابنته شيرين والتي يصور فيها أدق الأحاسيس الإنسانية وأكثرها شجناً وأسماها غاية لا بد أن الإعجاب يتملكه والدهشة تستبد به، ويسأل نفسه في لحظة صفاء وصدق كيف عاشت هذه النماذج الرفيعة ولم نوفها حقها كمواطنين ننتسب إلى هذا البلد الذي عرف الحضارة والفكر منذ أن شع نور الرسالة المحمدية على هذا الوجود، واصطفى الله هذه الأمة لحمل هذه الرسالة إلى كل الدنيا رحمة وتسامحاً وحباً ووفاءً وإخلاصاً.

ترى ـ يا قومنا ـ إذا كنا لسنا بقادرين على أن نوفي العواد وشحاتة وعبد الجبار حقهم علينا لأنهم حملوا راية الفكر الأصيل، والتجديد الواعي وأخذوا بأيدي الكثير منا إلى المنابع الأصلية التي تتدفق حباً وعطاءً، وإذا كنا لسنا بقادرين كذلك بعد أن وارينا بعضهم الثرى، في المعلاة والغرقد، والأسد، والعود رفاتهم، فهل من الوفاء ومن الحكمة أن نرميهم بما هو ليس من سماتهم بل هم أبعد ما يكونون من خيانة الذمة، والتدليس، ترى لو كان العواد حياً، والفقي بصحته التامة وبقامته الشامخة شامخاً، ترى لو لم يكن سليل بيت العلم والفضل أحمد زكي يماني

متعالياً ومترفعاً وكبيراً في كل شيء، ترى لو كان الأمر غير ذلك هل كنا بقادرين أن نوجه تلك السهام الطائشة إليهم، ونأكل على موائد بعضهم نهاراً، ثم نتهاتف ليلاً لنفكر في شيء من العليان والنزق كيف نكافئهم بهذا الجحود وذلك النكران على ما قدموه لوطنهم وأمتهم ومجتمعهم.

وليتنا تعلمنا من سلوكيات أولي الأمر في مملكتنا العزيزة فيما يجسدونه من سلوك عملي للاحتفاء برموز الفكر وتقدير لأهل العلم في بلادنا ومن محبة وتسامح وحكمة ونبل، لأولئك الذين يقدمون لبلادنا زائرين وذلك يشمل الذين لم يحسنوا الكلمة في حقنا يوماً من الأيام فوجدونا ـ ولله الحمد ـ على غير ما وهموا.

فهذا خادم الحرمين الشريفين وولي عهده يخاطبان ابنة المرحوم الأديب السيد أحمد عبيد المدني الدكتورة ثريا بتلك العبارة الأبوية الصادقة (أنت ابنتنا، ونحن فخورون بك وسند عمك)، وكم كان لزيارة سمو ولي العهد الأمير عبد الله بن عبد العزيز، وسمو النائب الثاني سمو الأمير سلطان بن عبد العزيز وغيرهم من أولي الأمر لدور رجال الأدب والفكر في بلادنا من أمثال المرحوم عزيز ضياء، والسيد محمد حسن فقي ـ شافاه الله ـ والمرحوم عبد الكريم نيازي، وآل المدني وغيرهم من أثر كبير على نفوس أبنائهم وذويهم، وأنه السلوك الذي يفترض فينا أن نترسمه ونحتذيه، وحتى لا تصدق علينا مقولة البعض: بأننا مجتمع يدفن عظماءه أو يقتلهم بالكلمة الطائشة بدلاً من أن يحييهم، وينثر عليهم الورد والفل والياسمين ويحفظ مكانتهم أحياءً وأمواتاً.

لماذا أخفق الإعلام العربي ونجح المتهم؟؟

كان للبرنامج الوثائقي (المتهم) الذي عرضته القناة التلفزيونية الرئيسية (بي. بي. سي) في سلسلة الموضوعات الجادة والموضوعية التي يقوم بها باحثون متميزون من أمثال: فيرغال كين وفح كين ضمن إطار إعلامي عريق يعرف بـ (بانوراما) أي (النظرة الشاملة إلى موضوع من الموضوعات)، وعلى الرغم من الانتقادات التي يوجهها البعض إلى محطة (بي. بي. سي) إلا أنها تظل الأكثر جدية وشمولاً من بين المحطات الإعلامية الغربية الأخرى، نعم لقد كان للبرنامج الذي فتح ملف مذبحة (صبرا وشاتيلا) من جديد بعد عقدين كاملين من الزمن، ودور السفاح النازي (اريل شارون) الذي تعتبره الإدارة الأمريكية الأكثر سوءاً في تاريخ أميركا، نعني إدارة جورج بوش، وباول، ورايس، تعتبر هذا السفاح بطلاً ولا تخجل من استقباله، وتنصت إلى نصائحه الإرهابية في ذل وهوان بينما تزعم هذه الإدارة الجمهورية الأسوأ أنها تحارب الإرهاب وتتصدى للأصولية.

كان لبانوراما (المتهم) أثر بارز وإيجابي على الساحتين السياسية والإعلامية إلا أن السؤال الذي طرح في الساحة الإعلامية العربية، بأن برنامجاً كهذا حقق نتائج إيجابية لصالح قضية عربية عادلة، وكان أبرزها

خروج مظاهرات في شوارع باريس ولندن تندد بتاريخ شارون الإرهابي والدموي عند استقبال المؤسسات السياسية له وهو أمر لم يكن ممكناً في الماضي بحكم الهيمنة الصهيونية ليس على الإعلام الغربي وحده، ولكن على مجمل المؤسسات الدينية والسياسية والفكرية والغربية منذ نشوء الكيان العنصري الإسرائيلي، في الوقت الذي أخفقت فيه وسائل الإعلام العربية عن بلوغ شيء من هذا في تاريخها الطويل، بل إنه من المخجل أن مثقفين عرباً من أمثال محمود درويش، وأدونيس، ومحمد الحربي، وسميح القاسم وغيرهم باعوا وطنيتهم لمجرد تحقيق رغباتهم الذاتية بعد عمر طويل قضوه في ادعاء الوطنية ورفع شعارات القومية والحداثة، فبئس شعارات كهذه تطأطىء رؤوس أصحابها ومنظّريها ذلاً وهواناً، في الوقت الذي تهدم فيه بيوت الفلسطينيين، ويقتل أطفالهم ويترمل رجالهم ونساؤهم على حد سواء، ويعيش أهلونا في العراء، بينما يدخن أدونيس ودرويش ورفاق السوء معهم سيجار الهافانا ويتسكعون في شوارع لندن وباريس مرددين في غوغائية وجهل المقولة الكاذبة بأن الصهيونية حركة تحررية.

إن وسائل الإعلام العربية أخذت من الإعلام الغربي ـ للأسف الشديد ـ القشور وتركت الجوهر بل هي فاقت وسائل الإعلام الغربية وخصوصاً تلك القنوات الفضائية العالمية منها في مخاطبة الغرائز، والرقص المضحك على إيقاع الغناء المبتذل الذي لا يعرف من يرفعون عقيرتهم به شيئاً من أصول الموسيقى أو بالأحرى أبجدياتها، بل هو صخب ترى فيه الشباب والكهول يغطون وجوههم بأقنعة الخجل وهم يتمايلون في وضع تخجل فيه المرأة في أي مكان في العالم من مجاراتهم فيه، وهو أمر يدل على فهم سقيم للثقافة والحضارة معاً.

ثم إن وسائل الإعلام العربي لا تزال واقعة في برامجها ـ إلا النزر اليسير منها ـ في التناول المباشر الفج، وفي الإنشائية المصطنعة، والخطابية التي تجاوزها الزمن وتخطتها مفاهيم الإعلام القائم على الموضوعية والبحث والتقصي، وظن البعض أن القنوات الفضائية سوف ترفع من سقف الإعلام العربي، فإذا هي تهبط به وبنفسها درجات سحيقة من الابتذال والدونية.

لقد قرأت في الثمانينات الميلادية أن مؤسسة إعلامية مثل (بي. بي. سي) بها ما يقرب من ثلاثين ألف عامل وموظف، وأن ميزانيتها تفوق ميزانية عدد من دول العالم الثالث مجتمعة، ويشرف على سير المؤسسة وتقييم نشاطاتها مجلس أمناء يُختار من خيرة المثقفين والمفكرين البريطانيين الذين لم يتخلوا عن وطنيتهم كما تخلى عنها هذا العدد الكبير من أصنام الثقافة العربية.

ونخطىء عندما نظن أن القنوات الغربية جميعها هي قنوات إباحية، ومع أن هذا الجانب موجود ومعروف لمن يبحث عنه إلا أن هناك قنوات لا يعرفها للأسف الشديد المشاهد العربي وإن عرفها نأى بنفسه عنها ونضرب مثلاً بالقناة الثانية (بي. بي. سي) فهي قناة علمية تفتح أفاقاً واسعة أمام المشاهد، وبإمكانك أن تجلس في بيتك وتصبح مثقفاً إن أنت اخترت قناة جديّة مثل (بي. بي. سي)؟.

السلوكيات الحضارية بين رؤيتين

لم يكلفنا كأمة ذات تاريخ حضاري وفكري مجيد أننا لم نشارك في صنع الحضارة المعاصرة، واكتفينا بأن نكون في موضوع المتلقي والمستهلك أمد طويل، وبدلاً من أن يكون هذا التأخر الذي تسببت عوامل عدة في تكوينه داخل أنفسنا ومجتمعاتنا حافزاً لنا لمعرفة كيفية التعامل مع جميع أنواع هذه التقنية وبأسلوب غير حضاري يضاعف من مشاكلنا ويزيد من تراكمات هذا التخلف الذي لم نعرف بعد كيفية الخروج من نفقه المظلم سوء استعمال هذه التقنية والأمثلة في هذا الأمر كثيرة بحيث يصعب على المرء حصرها أو تعدادها ولكننا سنكتفي بطرح بعض أوجه هذا القصور الحضاري في التعامل مع الحضارة الغربية.

لقد صنع الغرب الآلة ولكنه لم يضع ثقته الكاملة في هذه الآلة، فهو مثلاً أي الفرد الغربي يستخدم الدراجة العادية في عطلة الأسبوع ولا يجد حرجاً في التجوال بها، وهو يعلم أن ركوبه لهذه الدراجة ـ نتيجة لثقافته الاجتماعية الصحيحة ـ سوف يعود على صحته بعوامل إيجابية عدة، بينما لا يجرؤ المرء في بعض مجتمعاتنا العربية على ركوب الدراجة فسوف يصفه المجتمع بأنه إنسان متخلف عقلياً، بل إن المشي على الأرجل أصبح من الأمور التي ينظر إليها في مجتمعاتنا نظرة سلبية، مع أن آباءنا وأجدادنا

إلى عهد قريب كانوا يعتمدون في قضاء حوائجهم على السير على الأقدام، بل إن بعضاً من أجدادنا الذين هاجروا منذ قرون عديدة إلى بلاد الحرمين الشريفين، قطعوا الفيافي والأودية سيراً على الأقدام حباً في الله ونبيه ﷺ وما كان يمثل جزءاً من تراثنا وتقاليدنا الحضارية حافظ عليه الغرب بينما أضعناه وفرطنا فيه أيما تفريط.

فلقد حدثت إضرابات نقابية في بداية الثمانينيات الميلادية في مدينة لندن، وتسبب ذلك في توقف القطارات وسيارات النقل عن أداء مهمتها اليومية، وكان على وزير الداخلية المحافظ ويليام وايت لو (Wiliam Whetelaw)، أن يحضر جلسة مجلس الوزراء المنعقدة في دوانئغ ستريت فاضطر لركوب دراجته العادية حتى لا يتأخر عن العمل وأضحى سلوكه هذا مضرب المثل في الجدية والانضباط.

كما أن وزير الخارجية البريطاني دوقلاس هيرد اضطر في ظروف متشابهة لركوب الدرجة السياحية في القطار.

ولعله من السلوك الخاطىء لاستعمالنا التقنية الحديثة أنه عندما ظهر جهاز (البيجر) أضحى الناس في عالمنا العربي لا يتورعون عن دخول بيوت الله غير عابئين بما تحدثه هذه الأجهزة من ضوضاء وإزعاج وزاد الأمر سوءاً عندما أضحت الأسر جميعها في عالمنا تحمل جوالاتها داخل المساجد، وفي صالات الدراسة غير عابئين حتى بما يقرأونه من مخاطر طبية تنجم عن الإفراط في استخدام هذا النوع من التقنية.

وإنني واثق من أن البلاد الغربية التي صنع علماؤها هذه التقنية لا يستخدم أهلها هذه الأجهزة إلا في أوقات الضرورة والحاجة، وهم لم يركنوا إليها كما ركنا إليها، ولم يقدسوها وهم لا يحملونها فخراً ومباهاة

كما يفعل شبابنا من جيل الحائط، وكان آخر المآسي ما نقلته صحيفة الحياة ٧ ربيع الآخر ١٤٢٢هـ وهو الاستهتار عن طريق النكتة باستخدام بعض الرجال لكلمة الطلاق وترتب على ذلك ما ترتب من تفكك الأسرة والمجتمعات والأمر لا يعدو أن يكون تخلفاً حضارياً مركباً.

طرح القضايا برؤية وطنية ووعي صادق

شيء ضروري أن تتحسّس الأمة مشاكلها وتعالج قضاياها،وتستشرف آفاق المستقبل ببصر ثاقب وبصيرة متفتحة، ولقد طرحت أحداث ١١ سبتمبر قضايا كثيرة ومؤجلة على بساط البحث والمناقشة منها تحديد مفهوم الإرهاب والفرق بينه وبين المقاومة الوطنية المشروعة التي كفلتها المعاهدات والمواثيق الدولية ولجأ إليها الغرب نفسه في مقاومة الحركة النازية العنصرية، ولجأت إليها بريطانيا في حرب الفولكلاند عام ١٩٨٢م، تحت ذريعة حماية المواطنين البريطانيين الذين يقطنون الجزيرة، ولم يجرؤ أحد ـ يومها ـ أن يرفع صوته في وجه رئيسة الوزراء البريطانية مارجريت تاتشر وحليفها القوي ـ آنذاك ـ رونالد ريجان ـ زاجراً ـ على سبيل المثال ـ إياهما بأن عليهما أن يتفاوضا مع الحكومة العسكرية الأرجنتينية لاستعادة الجزيرة المحتلة، وألا يلجأ إلى الحرب كخيار، ومع هذا فالغرب يطالب العالم العربي بأن يجلس على مائدة المفاوضات مع السفاح أريل شارون بعد مضي نصف قرن من الزمن على الشتات الفلسطيني واحتلال أراضيه وهدم قراه ومساجده وكنائسه وحرق أرضه وتخريب اقتصاده والحجر على قياداته في سجون هي أقرب ما تكون لما صنعه (هتلر) بمناوئيه في الحرب الكونية.

كما طرحت الأحداث نفسها موضوع كيفية تقديم الرؤية الإسلامية

الصحيحة للعالم الآخر، ومع أن الإسلام وتعاليم الدين الإسلامي تنحو في حقيقتها نحو وسطية معروفة وسماحة مثلها الرسول ﷺ في تعامله وسلوكياته، إلا أن ممارسات بعض طلاب العلم في العالم العربي والإسلامي ـ وممن يرون أنفسهم الفرقة الناجية ـ وسواهم في هلاك إعطاء هذا النفر الجاهل والحاقد على إخوانه المسلمين المساحة الأكبر لتحقيق هذا الغرض، وأمامنا شاهد بسيط وواقعي وهو حركة (طالبان). وقيامها بسلوكيات تخالف جوهر الإسلام وحقيقته، ولو وجدت من يردعها عن سلوكياتها لما تمكن الغرب من تحقيق أحلامه ليكون له موضع قدم ـ وبكل الوسائل ـ المشروعة منها وغير المشروعة كقتل الأبرياء والتنكيل بالأسرى فالغرب لا تخفى دوافعه السياسية والاقتصادية فجمهوريات آسيا الوسطى تمثل له هدفاً استراتيجياً ووجود حكومة تأتي على دبابة غربية هو الضمان الوحيد لتدفق البترول من تلك الجمهوريات إلى الحليف العلماني ـ تركيا ـ عبر أفغانستان.

إلا أن الأحداث نفسها أفرزت حالة شاذة وغريبة ومستهجنة وهي الدفاع عن السلوكيات الغربية والأمريكية غير السوية في حروبها في اليابان، وفيتنام وأميركا اللاتينية، ولعله من المحزن والمؤسف أن نرى أقلاماً وعقولاً محسوبة على الأوساط الثقافية العربية لا تمانع في قيام الغرب بتدخل مشابه للتدخل الأمريكي في أفغانستان، وهو ما لم يطرحه الغرب نفسه، بل إن رأياً عاماً أضحى يتبلور داخل المجتمعات الغربية ـ نفسها ـ ويدعو لإيقاف الحرب في أفغانستان والمستمرة حتى بعد استنفاد أغراضها بفرض تثبيت الهيبة الأمريكية في نفوس شعب يبحث عن لقمة العيش في حزمة من الخطب.

نعم هناك حاجة ملحة لمراجعة المناهج التعليمية وللأسلوب الذي

ندرس به أبناءنا، ولكن يجب أن نفعل ذلك بأيدينا وضمن رؤية وطنية صادقة ونزيهة وبعيداً عن أحادية الرأي، والتي جنت على الأمة فأصبح الفرد العادي يكرر قاموس بعض خطباء المساجد في العالم العربي والإسلامي فهذا كفر وزندقة، وتلك بدعة تقود إلى الكفر، وذلك ضلال محض، مع أن ما يدور حوله الاختلاف هو قضايا تدخل في باب الفروع ولا تمس منطلقات الدين الإسلامي وثوابته والتي يجب ألا ترضى الأمة بأن يملي علينا الغرب رؤيته إزاءها، فمجتمعاته تعج بجماعات دينية يهودية ومسيحية هي الأكثر تطرفاً والأشد نكاية.

مذهب أهل السنة والجماعة ووسطيته

أنفقت هذه الدولة السنية على تعمير الحرمين الشريفين وصيانتهما وكذلك على المشاعر المقدسة ما هو جدير بأن يدوّن في التاريخ الإسلامي بالإعزاز والافتخار وأنه ليجب على بعض طلبة العلم الابتعاد عما يشوّه هذه الصورة الرائعة التي استقرت في أذهان المسلمين عن بلادنا كمهبط للوحي، وموئل للرسالة، وبها بيته المطهر، ومسجد نبيه ﷺ ومثواه الشريف، ويجتهد بعض طلاب العلم أو المتشددون منهم ـ هداهم الله ـ اجتهادات خاطئة تصب في خدمة أولئك الذين تمتلىء قلوبهم بالغيظ والحسد على ما أكرمنا الله به من رعاية للمدينتين المقدستين.

نعم: إن هذا البعض يجتهد في هذه الأيام الحساسة اجتهاداً خاطئاً، إن لم يكن ـ خطيراً ـ وهو صرف الناس عن زيارة سيدنا وشفيعنا رسول الله ﷺ تحت غطاء واه، وذريعة تجاوزها الزمن وهو الوقوع في الشرك عند الزيارة الشريفة، فلقد منّ الله على المسلمين بالعلم والمعرفة الدينية الصحيحة والشرعية في بلادهم. وعلينا وفقاً لحسن الظن بالمسلم وعقيدته ـ أن نبتعد ـ وخصوصاً أننا في موقع القدوة الحسنة للآخرين في عقائدهم لأنهم يزورون مسجد رسول الله ﷺ وهو المشروع في ذلك ـ ثم السلام عليه، وسوف أنقل لهذا البعض الذي ضاقت عليه الدنيا فخصص جميع

خطبه لهذا الشأن وهو لا يعلم أن ولاة أمرنا الذين وحدوا هذه البلاد، وطبقوا شرع الله فيها، زاروا مسجد رسول الله ﷺ ـ ووقفوا متأدبين ومطمئنين أمام قبره الشريف للسلام عليه وعلى صاحبه ـ رضي الله عنهما ـ سلاماً شرعياً.

ولقد رأيت بنفسي ـ خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز ـ حفظه الله وإخوانه البررة كسمو ولي العهد الأمير عبد الله بن عبد العزيز، وسمو الأمير سلطان ابن عبد العزيز والبقية المباركة وهم يؤدون السلام على المصطفى ﷺ مع فضيلة الشيخ عبد العزيز بن صالح ـ رحمه الله ـ في أوقات مختلفة، إنهم ولاة الأمر ـ حقاً ـ والذين هيأوا المسجد النبوي الشريف للصلاة عليه، واهتموا اهتماماً كبيراً بمثواه المبارك وجعلوا المرشدين أمام الحضرة الشريفة لتسهيل الزيارة الشرعية.

لذا فإنني أسأل هذا البعض ألا تصب أقوالهم المتشددة والمتشنجة المغالية ضد هذا التوجه الكريم والسلوك السلفي الناصع لولاة الأمر وحكام المسلمين.

لقد نقل عن الإمام الحنفي ملا علي قاري في شرحه لكتاب (الشفا) للإمام القاضي عياض ما نصه: (وزيارة قبره عليه السلام سنة من سنن المسلمين مجمع عليها، وممن ادعى الإجماع النووي وابن الهمام بل قيل إنها واجبة وفضيلة مرغب فيها).

وأنقل هنا قولاً للعالم السلفي والفقيه المالكي الشيخ عطية محمد سالم الذي وفقه الله لإتمام عمل شيخه السلفي العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي في الجزء الثامن من كتاب (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن) ج ٨ (والأول من التتمة ص ٥٧٦ ـ ٦٠٥).

وقال الشيخ السلفي التوجه ـ حقاً ـ المرحوم عطية محمد سالم ـ رحمه الله ـ والذي كان مدرساً بالجامعة الإسلامية بالمدينة، ثم قاضياً بالمحكمة الشرعية الكبرى، ومدرساً بالحرم النبوي الشريف لمدة تزيد على أربعة عقود من الزمن، وكان موضع الثقة من علمائنا الأفاضل من أمثال: سماحة المشائخ محمد بن إبراهيم، عبد العزيز بن باز، عبد العزيز بن صالح، محمد بن عثيمين، محمد الحركان، رحمهم الله رحمة الأبرار وغيرهم من علماء السلف الصالح داخل بلادنا وخارجها.

قال ـ بعد أن تحدث بالأدلة الشرعية عن زيارة القبر الشريف لشفيع الناس أجمعين وسيدهم ـ عليه صلوات الله وسلامه: (وتحقيق ذلك كالآتي، وهو ما داموا متفقين على شد الرحال للمسجد النبوي للسلام على رسول الله ﷺ ومتفقين على السلام على رسول الله ﷺ بدون شد الرحال، فلن يتأتى لإنسان أن يشد الرحال للسلام دون المسجد، ولا يخطر ذلك على بال إنسان وكذلك شد الرحل للصلاة في المسجد النبوي دون أن يسلم على رسول الله ﷺ لن يخطر على بال إنسان، وعليه: فلا انفكاك لأحدهما عن الآخر، لأن المسجد النبوي ما هو إلا بيته ﷺ، وهل بيته إلا جزء من المسجد كما في حديث الروضة: (ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة) فهذا قوة ربط بين بيته ومنبره في مسجده) انتهى كلام الشيخ السلفي، والصافي العقيدة (عطية محمد سالم) رحمه الله رحمة الأبرار وبقية علماء الأمة.

وقال الشيخ شمس الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن قدامة الحنبلي في كتابه (الشرع الكبير) فإذا فرغ من الحج استحب زيارة قبر النبي ﷺ وقبر صاحبيه رضي الله عنهما (انظر الشرح الكبير لأبي الفرج ابن قدامة، ج ١، ص ٤٩٥).

وفي كتاب (الغنية لطالبي طريق الحق) للشيخ عبد القادر الجيلاني الحنبلي ـ رحمه الله ـ ومن المعتمدين في الفقه الحنبلي عند شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ قال هذا العلم الحنبلي الجليل (فإذا من الله تعالى بالعافية، وقدم المدينة، فالمستحب له أن يأتي مسجد النبي ﷺ فليقل عند دخول المسجد (اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وافتح لي باب رحمتك، وكف عني أبواب عذابك، الحمد لله رب العالمين، ثم يأتي القبر، وليكن بحذائه بينه وبين القبلة، ويجعل جدار القبلة خلف ظهره والقبر أمامه تلقاء وجهه والمنبر عن يساره وليقل (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. . . الخ).

إن مذهب أهل السنة والجماعة مذهب سمح لا شدة فيه، ووديع لا غلظة ولا جفوة فيه، وإنه من أكثر مذاهب الأمة دعوة لحسن الظن بعقائد الأمة.

يوميات طفلة فلسطينية

انتحت الطفلة الفلسطينية ـ جانباً ـ وغطت وجهها بيديها وأخذت في نحيب شديد وهي تقول: نريد أن نكون كأطفال بقية العالم نذهب لمدارسنا في سلام ونعود لمنازلنا في سلام، لقد حصرت هذه البرعمة الفلسطينية التي ولدت كبقية أجيال فلسطينية وأرضها محتلة، ومنزلها يهدم في كل لحظة. . . بل في كل ثانية بالسلاح الأمريكي الفتاك، نعم لقد حصرت آمالها في أن تذهب لتطلب العلم وهي آمنة، وتعود لكوخها المتهدم وهي آمنة كذلك، ولكن ليس من الوارد في حسبانها أن تلهو لهواً بريئاً كبقية أطفال الإنسانية، أو أن يكون لها دار خاصة بها، أن تبني أسرة، أن تدخر شيئاً من المال لتذهب في نزهة أو إجازة، أن يكون بإمكانها تجاوز حدود القطاع، وحواجز الضفة لتقابل أهلاً لها أجبرهم ـ فسقة العالم وقتلة الأنبياء ـ وبدعم أمريكي ـ وبريطاني ـ سافر على النزوح إلى دول الجوار في لبنان وسورية والأردن، أن يكون لها أصدقاء في البلاد العربية الأخرى تهاتفهم ويهاتفونها، أن تتبادل معهم أناشيد الحب والنقاء، أن تبتسم الحياة لها أو تبتسم ـ هي ـ مع مطلع الفجر، عند مغيب الشمس، أن تنظر إلى السماء الصافية وهي ترسل نور القمر أو ضياء النجوم إلى الأرض، أو أن تذهب إلى الحانوت لتشتري كبقية أطفال الأرض قطعة من الحلوى تحملها في يديها ثم تضعها في فمها للتلذذ وهي

تسير في شوارع الحي أو أزقته و(زنقاتها).

أن تذهب (للبيدر) لتنظر إلى الأرض التي زرعها آباؤها وأجدادها منذ آلاف السنين، لتغترف بيديها البريئتين من ماء الجدول لتروي به ظمأ الحياة، لتقطف وردة جميلة ثم تشدها إلى صدرها، وتشم من أكمامها رائحة الأرض الحنونة، ثم لتلقيها بين يدي والدها، أو لترتمي معها في حجر والدها أو لتحوط أشقاءها بذراعيها فرحة بما حملته من بيدر (الزيتون)، من كرمة (العنب) من (عريشة) الفل والياسمين، أن تتسلق أشجار (السدر) و(النبق) ثم لترتمي على الأرض مع صديقاتها من الأطفال الذين بمقدورهم أن يرووا هذه الأرض التي ظلمهم فيها حاخامات البيت البيض، وكهنة (دواننغ ستريت) وسفاحو (الكنيست الأصولي ـ النازي) أن يرووا هذه الأرض بدموعهم كما رواها آباؤهم وأمهاتهم بدمائهم البريئة والمؤمنة.

تلك الطفلة الفلسطينية والتي يمثلها في عالم البرزخ أشقاء من أمثال إيمان حجو، وجمال الدرة، لا يرتفع سقف مطالبها عن سقف مطالب أبناء الهنود الحمر في القرون الماضية، ولكن على متبلدي الحس من أمثال، شارون وبيريز، وبوش ورايس، وتشيني ورامسفيلد وبلير وسترو ونتانياهو وتاتشر وبلانكت، وليفي وباراك أن يتيقنوا أن الشعب الفلسطيني لن يختفي ـ يوماً ـ كما اختفى الهنود الحمر.

وسؤال أخير نطرحه على ساسة أمريكا وبريطانيا ـ خاصة ـ أما آن لهم أن يسألوا أنفسهم كيف يحللون العدالة وحقوق الإنسان لشعوبهم والشعب الإسرائيلي ويحرمونها على شعوب عديدة في الأرض في مقدمتها الشعب الفلسطيني الذي عانى من هولوكست حقيقي؟!

تاريخ المدينة الفكري والحضاري وآثارها الشرعية

لم يتفق الناس ـ يوماً ـ في بلد المصطفى ـ ﷺ ـ كما اتفقوا على تواضع هذا الرجل منذ نشأته ويفاعته، وبُعد رؤيته وثاقب نظره، وعميق حكمته ـ وأعني به السيد حبيب محمود أحمد ـ ولقد أدركت أباه في مطلع العمر وكان رجلاً وقوراً عمل في القضاء ـ طويلاً ـ وكان من أقرب الناس إليه رجلان هما السيد أحمد بن حمزة الرفاعي، والشيخ أحمد فارسي ـ رحمهما الله ـ وقد عرفت أسرة أبي أحمد بالعلم فلقد كان عمه حسين أحمد داعية إسلامياً كبيراً وأخذ عنه شيئاً من العلم أمير البيان الأمير شكيب إرسلان عندما كانت حلقات العلم في الحرم النبوي الشريف يقصدها الناس من جميع بقاع الأرض، فلقد طوى طلاب العلم دروباً ومسافات ليأخذوا العلم الشرعي ـ بعد التحاق سيدنا رسول الله ـ ﷺ ـ بالرفيق الأعلى، من صحابته وآل بيته ـ رضي الله عنهم أجمعين، ثم من التابعين من أمثال: سعيد بن المسيب، وأبان بن عثمان بن عفان وعروة بن الزبير بن العوام، والقاسم بن محمد بن أبي بكر ووهب بن منبه ـ وكلهم من أبناء الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ والذين أسسوا مدرسة المدينة التاريخية، وعلى مر العصور استمرت الرحلة إلى أصحاب السند العالي في الحديث من أمثال الشيخ إبراهيم بن حسن بن شهاب الدين الكوراني ١٠٢٥/١١٠٣هـ ثم ابنه الشيخ محمد سعيد بن إبراهيم الكوراني ١١٣٤ ـ

١١٩٦هـ والشيخ محمد أبو الطاهر الكوراني ١١٤٥/١٠٨٥هـ وقد أخذ العلم عن هذا الأخير العلامة المجدد الشيخ ولي الله الدهلوي صاحب حجة الله البالغة الذي استقر بالمدينة في الفترة ١١٤٥/١١٤٣هـ.

وشهد القرن الثاني عشر الهجري بروز مدرسة المدينة المنورة في الحديث ومن أبرز رجالها الشيخ محمد حياة السندي ت ١١٦٣هـ وكان السندي حجة في الحديث وتلقى العلم عنه الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب ـ رحمهم الله ـ ويؤكد الدكتور عبد الله العثيمين أثر الشيخين محمد بن حياة السندي، والشيخ عبد الله بن سيف ـ وهو من بلدة المجمعة ولكنه استقر بالمدينة وأصبح من علمائها المعروفين، وهل هناك جوار خير من جوار مثوى سيد الخلق ـ عليه الصلاة والسلام.

وفي العصر الحديث شكل المشائخ عبد الجليل برادة، وإبراهيم الأسكوبي، وحمدان بن الونيس، وفالح الظاهري، وحسين أحمد، وعبد القادر طرابلسي، ومحمد الطيب الأنصاري، وصالح التونسي، ومحمد العمري، وعمر حمدان ومحمد بن علي التركي، ومحمد الأمين الجكني المفسر، ومحمد المختار الجكني المحدث، وأمين الطرابلسي، وعطية محمد سالم، وعبد العزيز بن صالح، وعمر محمد فلاتة، وأحمد ياسين الخياري، وحسن الشاعر، وأحمد عبد الجواد، وعمار الأزعر، وعبد الرحمن مضاي الجهني، وصالح الحصين ـ وغيرهم ـ مدرسة في العلوم الدينية والأدبية واللغوية، وكانوا على قدر كبير من سعة الأفق، وسمو الأخلاق، وتهذيب القول، وحسن الأدب في الجوار مما جعلهم موضع الحب والتجلة من الناس ـ أجمعين ـ في بقاع المعمورة ـ وكانوا أبعد ما يكونون عن إثارة الخلاف الذي يهدد وحدة واجتماع كلمتها ورأيها بل

كانوا ـ وفي مقدمتهم إمام وخطيب المسجد النبوي الشريف فضيلة الشيخ عبد العزيز بن صالح ـ رحمه الله ـ يسعون لإخماد نار الفتنة بالبعد عن إساءة الظن بعقائد المسلمين أو رميهم ـ جهلاً ـ بما هو ليس فيهم وتلك أخلاق العلماء الكبار، وهنا تكمن العظمة ومن هنا استقر حب الشيخ ابن صالح في قلوب الناس جميعاً ولعل أستاذي الفاضل ـ محمد حميدة ـ يعرف أكثر في هذا الجانب المضيء ـ وكل جوانب حياته مضيئة ـ من حياته رحمه الله.

ولقد أخذ أستاذنا حميدة العلم من والده الروحي محدث الحرمين الشيخ عمر حمدان الحرسي، وعن الحرسي أخذ أشهر علماء الحديث في العصر الحديث (محمد بن ياسين الفاداني). ويسمى مسند العصر ـ وقد أكرم الله كاتب هذه السطور فأخذ عنه شيئاً من العلم في داره المتواضعة في حجون مكة ـ شرفها الله (لمزيد من المعرفة عن محدث العصر الشيخ الفاداني) انظر: الروض النضير في اتصالاتي ومجموع إجازاتي بثبت الأمير (مطبعة حجازي، ط ٢).

اليوم ـ يعتبر السيد حبيب محمد أحمد ـ مرجعاً هاماً في تاريخ المدينة القديم والمعاصر، ولقد أسس مكتبة فريدة في داره تحوي آلاف المجلدات والكتب في شتى علوم المعرفة، ويعرف عن آثار المدينة المنورة ـ وهي ما زالت منورة بالحبيب ـ ﷺ ـ ما لا يعرفه غيره.

ولقد عمل أبو أحمد عضواً في المجلس الإداري بالمدينة منذ عام ١٣٦٢هـ حتى عام ١٣٨٦هـ، كما عمل رئيساً لمجلس الأوقاف الفرعي بالمدينة لفترة طويلة، لذا فإنني أتوجه للأمير المثقف مقرن بن عبد العزيز الذي شرفه الله ـ بخدمة مسجد رسوله ومثواه الطاهر ـ الذي هو أطهر

بقعة في هذا الوجود الكوني ـ وقد عرف عن سموه شمائل رفيعة من تواضع، وتقدير واحترام وسعة صدر وانعكس ذلك كله في تعامله مع أحفاد المهاجرين والأنصار وجيران سيد الخلق وشفيع الأمم في يوم الميعاد ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ أتوجه لسموه بأن يكرم هذا الرجل ليكون حاضراً في كل ما يتصل بأمور المسجد النبوي الشريف وأوقاف المدينة التي تحتاج لمرجعية واعية ومدركة.

كما أنتهز هذه المناسبة لأخاطب سموه الكريم بتوجيه عنايته الكريمة للمحافظة على الآثار الشرعية بالمدينة وذلك بوضع علامات دالة على الآثار التي شكلت منعطفاً هاماً في تاريخ الأمة الإسلامية، كدار أبي أيوب الأنصاري ـ رضي الله عنه وسقيفة بني ساعدة، وبئر الخاتم، وبئر أريس.

لقد عمر ولاة أمورنا من آل سعود ـ المبررة ـ جزاهم الله خيراً ـ مساجد المدينة ودور العبادة فيها وقام خادم الحرمين الشريفين ـ رعاه الله ـ بإعادة بناء مسجد قباء، والجمعة، والقبلتين، والمستراح، وذي الحليفة وغير ذلك وكانت توسعة المسجد النبوي في عهده الزاهر مفخرة العصر ودرة في جبين تاريخ البلد الطاهر، لذا فإنني آمل من سموه الكريم ـ حفاظاً ـ على تلك الملحمة التاريخية الفريدة أن يشكل لجنة في الأسباب التي دعت البعض لهدم مسجد بني قريظة ـ في أواخر شهر ربيع الآخر ١٤٢٢هـ وهو مسجد صلى فيه الرسول ـ ﷺ ـ وجدده الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رحمه الله.

وإن قام بهذا العمل بعض طلاب العلم لقصور فهم في مقاصد الشريعة مع تفهمنا لوجوب توعية الحاج والزائر بالابتعاد عن السلوكيات التي تتناقض مع عقيدة التوحيد الصافية أحياناً فإن الواجب على الجهات

المسؤولة أن تحاسب الذين أقدموا على عمل لا يخدم على الإطلاق سمعة هذه الدولة السنية ويشجع الحاقدين علينا فيدخلون من هذه الثغرة ـ وأن ولاة أمورنا جزاهم الله خيراً والذين عمروا الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى قبل احتلاله من قبل العدو الإسرائيلي، وعمروا مساجد المسلمين في كل بقاع الأرض ونشروا العلم الشرعي وعقيدة السلف الصالح ـ نعم ـ إن ولاة أمورنا لا يرضيهم ـ أبداً ـ أن ينطلق البعض بحجة عدم الوقوع في الشرك ـ وبأسلوب متعجل وغير حكيم وغير مسؤول إلى التعدي على هذا المسجد الذي صلى فيه الرسول ﷺ أثناء غزوة بني قريظة وورد ذكره في الصحاح من مثل صحيحي البخاري ومسلم، وسنن البيهقي، ومسند الإمام أحمد بن حنبل.

لماذا خذلت الكنائس الغربية مسيحيـي فلسطين؟

إذا كان بالإمكان تفهم الانحياز الغربي السياسي للحركة الصهيونية ضد العرب والمسلمين، آخذين في الاعتبار التخوف من كل ما يمس اليهود حتى لا تتعقبهم الحركة العنصرية الصهيونية وترميهم بسلاحها الذي أضحى مبتذلاً وهو عداء السامية إضافة إلى اعتناق الكثير من الساسة الغربيين وفي مقدمتهم الأمريكيون لعقيدة الولاء المزدوج والتي تقدم المصلحة الإسرائيلية حتى وإن تعارضت مع المصلحة الوطنية ـ كما هو الشأن في قضية سفينة (ليبرتي) والتي تعرضت لقصف إسرائيلي متعمد بعد أيام من حرب حزيران ١٩٦٧م، وسعت إدارة الرئيس الأمريكي جونسون المتحيز للصهيونية إلى إخفاء الحقيقة ـ رغم قتل مسؤولين أمريكيين كانوا من ضمن طاقم السفينة على أيدي الإسرائيليين الذين يتلقون دعمهم المادي والمعنوي والبشري من الولايات المتحدة الأمريكية ـ ولا يمكن تفسير مثل هذا السلوك إلا في ضوء هذه النظرية والتي أشار إليها السياسي البريطاني العريق ـ لورد مايهو ـ في كتابه المعروف: (حجب حقائق الشرق الأوسط) the Middle - East - Cover Up .

والذي شاركه التأليف فيه الصحافي البريطاني المعروف مايكل أدمز إلا أنه يظل عصيًّا على الفهم هذا التخاذل الغربي إزاء المسيحيين العرب في فلسطين، فإذا كانت كنيسة المهد تمثل أمراً دينياً هاماً من وجهة النظر

المسيحية، فإن إسرائيل لم تقم وزناً لهذا الأمر فكما أقدمت على تدمير المساجد وحرق مسجد سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فإنها وجهت مدافع دباباتها للكنائس المسيحية وهي ما زالت تحاصر كنيسة المهد وتطلق النار على كل من يحاول إيصال الغذاء والدواء للمعتصمين بها من نازية شارون وفاشية موفاز، ولقد كان مشهداً مخزياً للغرب ومؤسساته أن يجتمع رجال الدين المسيحي في فلسطين بوزير الخارجية الأمريكي (كولن باول) يطلبون منه التوسط لدى شارون لتخفيف نقمته أو غضبته عليهم ومطالبين بالحد الأدنى من حقوقهم الدينية والمدنية.

لقد تحركت (أميركا) بكل قواها العسكرية والسياسية في الثمانينيات الميلادية لدعم نقابة التضامن الكاثوليكية في بولندا إبان الحقبة الشيوعية، وحرك بابا الفاتيكان كل دباباته الروحية لنصرة الكنيسة الكاثوليكية هنا وكانت بداية سقوط الأيديولوجية الشيوعية من بولندا نفسها.

إلا أن زيارة البابا لأرض فلسطين قبل حوالي عامين كانت للتضامن مع إسرائيل أكثر منها لنصرة الفلسطينيين أو التضامن معهم ـ مسلمين كانوا أم مسيحيين فلقد وقف متبتلاً أمام النصب التذكاري المزعوم لضحايا النازية وبكى أمام حائط المبكى كما يفعل جميع القادة الغربيين وكان بإمكانه ألا يفعل ولكنه سار على النهج الذي سار عليها الساسة المتعصبون للأيديولوجية الصهيونية وبهذا فقدت كلماته ـ معناها ـ أخيراً والتي حاول من خلالها وعلى استحياء شجب التصرفات الإسرائيلية ضد المقدسات المسيحية، ولم ترد إسرائيل على استفسارات (الفاتيكان) لأنه أعطاها المبررات والذرائع ـ مسبقاً ـ فهو لم ينطق بكلمة واحدة عن المجازر الإسرائيلية في حق الفلسطينيين منذ نصف قرن من الزمن وحاول الابتعاد

عن جوهر الصراع الحقيقي في الأراضي المقدسة واكتفى بمسح رؤوس أطفال الفلسطينيين، مع أنهم لم يكونوا بحاجة إلى من يلمس رؤوسهم ويباركها ولكنهم كانوا بحاجة إلى من يحمي رؤوسهم تلك، وأجسادهم الصغيرة من الحقد الصهيوني الأعمى، ومع بداية الانتفاضة الثانية تعرضت منطقة بيت (جالا) والتي تقطنها غالبية عربية مسيحية لحصار وقصف إسرائيلي متتابع ولم يطل البابا من شرفة مقره في الفاتيكان كما يفعل، وكأن الأمر لا يعنيه في شيء وكانت المؤسسة السياسية الصهيونية ترقب عن كثب هذه المواقف المتخاذلة من المؤسسات المسيحية الغربية إزاء مسيحيي الشرق، واعتبرت ذلك ضوءاً أخضر من الغرب لتقديم المسلمين والمسيحيين العرب ـ على حد سواء ـ عربون ورمز فداء منه لليهود والعهد القديم.

حوار الذات أم الحوار مع الآخر؟

يكثر أصحاب الكلمة في بلادنا من ترديد عبارة أو لازمة الحوار مع الآخر، ويقصدون به (الغرب) تحديداً، ويلاحظ بعد الحملة الغربية ـ المنفلتة من أي ضوابط ـ على العرب ودينهم وتراثهم وعاداتهم وقيمهم، أن هناك تزاحماً إن لم يكن ضجيجاً حول الاحتماء بهذه المظلة المستحدثة حتى وإن كان البعض لا يؤمن في أعماق نفسه بهذا الآخر ولا يرى في حضارته إلا الجوانب المظلمة أو السيئة، مع أن فئات أو تيارات أخرى في المجتمعات العربية لا يستهويها في الغرب إلا ذلك الانفلات الأخلاقي المتمثل في نوادي الليل المؤججة لنيران الجموح والموقظة لجوانب الضعف في النفس الإنسانية.

وإن هذا البعض ليشد الرحال ويتحمل الباهظ من النفقات ـ وربما كان ذلك على حساب أسرته وأولاده وأقرب الناس إليه بحكم المسؤولية المباشرة عنهم ـ حتى تتحقق أحلامه الوردية وكأن الغرب بالنسبة إلى هؤلاء يمثل حلماً رومانسياً لقتل الوقت دون الالتفات بجدية إلى العوامل الحقيقية التي كانت وراء بروز ذلك الجانب الإيجابي والعملي في حضارة الغرب المعاصرة.

لقد عرفت عصور الإسلام بروز عدد من الفرق الإسلامية التي كانت

لها أخطاؤها أو اجتهاداتها التي أخطأت فيها، ومع هذا فإن أئمة المسلمين وعلماءهم كانوا أبعد ما يكونون عن تكفير من يخالفهم الرأي، ولهذا لم يزد الخليفة الرابع سيدنا علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في وصف فرقة الخوارج عن القول المنضبط (هم إخواننا بغوا وخرجوا علينا) ورفض رميهم بالكفر والنفاق، ولقد روى علماء السنة النبوية عن أحد كبار علماء (المعتزلة) وهو عمرو بن عبيد ـ رحمه الله ـ وقال فيه الخليفة أبو جعفر المنصور واصفاً ورعه وتقواه بالقول المأثور (كلكم طالب صيد إلا عمرو بن عبيد).

وحدد علماء الأمة أيضاً الشروط التي يمكن من خلالها إطلاق صفة الزندقة حتى لا يستسهل الناس هذا الأمر فيصم بعضهم البعض بهذا الأمر الفظيع، قال الإمام الحجة أبو حامد الغزالي ـ رحمه الله ـ في رسالته المعروفة والقيمة (فيصل التفرقة بين الكفر والزندقة) ـ قال الغزالي ـ رحمه الله ـ (وأما الزندقة المطلقة فهو أن تذكر أصل المعاد عقلياً وحسياً وتنكر الصانع للعالم أصلاً ورأساً)، ويحذر هذا العالم الجليل الذي ظهر قبل أقل من ألف عام. فلقد كانت ولادته في مدينة (طوس) بإقليم خراسان عام ٤٥٠/هـ الموافق عام ١٠٥٨/م يحذر من القول بالتكفير الذي استسهل أمره بعض طلاب العلم والذين كانت الكتب ـ وحدها ـ هي مرجعهم العلمي ولم يجلسوا لأهل العلم حقاً حتى يوضحوا لهم مقاصد الشريعة الإسلامية بعيداً عن هذه الحرفية التي ابتليت بها الأمة في القضايا المتعلقة بشؤون الدين والدنيا ـ معاً ـ.

فلقد أوصى الإمام (الغزالي) في الرسالة ـ نفسها ـ طلاب العلم بكف ألسنتهم فيما يتصل بموضوع رمي الناس في عقائدهم جهلاً أو ظناً أو

استخفافاً واستهانة بالضوابط الشرعية المطلوبة في مثل هذه القضية البالغة الحساسية فنجده ـ رحمه الله ـ. يقول: أما الوصية فأن تكف لسانك عن أهل القبلة ما أمكنك ما داموا قائلين لا إله إلا الله محمد رسول الله غير مناقضين لها، والمناقضة تجويزهم الكذب على رسول الله ﷺ بعذر أو غير عذر، فإن التكفير فيه خطر، والسكوت لا خطر فيه).

وربط شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بين التحريم وتوافر شروطه والمعرفة الشرعية اللازمة بموانعه وبهذا يكون شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ قد أراد من وراء هذا القول عدم التجرؤ على الفتوى لما يترتب على هذا الأمر من مخاطر ومفاسد... يقول شيخنا ـ رحمه الله ـ في كتابه القيم (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) (فإن التحريم له أحكام من التأثيم والذنب والعقوبة والفسق وغير ذلك، لكن لها شروط وموانع فقد يكون التحريم ثابتاً، وهذه الأحكام منتفية لفوات شروطها أو وجود مانع أو يكون التحريم منتفياً في حق ذلك الشخص مع ثبوته في حق غيره).

لقد آن الأوان أن نحاور بعضنا البعض على هدى من تراثنا الإسلام المليء بالأمثلة والشواهد الحية والمضيئة على وجوب تمتع أصحاب الأفكار المختلفة بالتسامح وسعة الصدر والحكمة والتعقل والبعد عن التعميم في الأحكام، فإن عدم توافر هذه السمات لدى الذين ينصبون أنفسهم ـ رعاة أو سدنة ـ لهذا التوجه أو سواه فيه من الضرر بوحدة الأمة الشيء الكثير وفيه من المساس بكيانها الذي ضعف من الداخل أكثر من ذلك الضعف الذي يسعى أعداء الأمة لإلحاق أضراره بها حتى لا تستطيع أن تتقدم في مسيرتها لتتحمل أعباء المسؤولية التي أنيطت بها من خلال الوحي الإلهي الذي أكرم الله به أمة الإسلام والعروبة، قرآناً يتلى وشرعاً

يطبق، وخلقاً رفيعاً وصف الله به نبيه وخاتم رسله ﷺ في قوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤)، وبعد تحقق هذا المطلب الهام من الحوار البناء الذي أضحى يحتكر هو الآخر لنفسه حق تفسير ما يصلح لنا وما لا يصلح سعياً منه للحفاظ على مصالحه والتمتع بالمزايا الكثيرة والمتقدمة على حساب أصحاب الحق الشرعي، وإن أي حوار مع هذا الآخر يجب أن يركز بكل وضوح على إقصاء تدخله في شأن ما نقبل وما نرفض من قيم الحضارة المعاصرة التي لا تعترف إلا بمبدأ القوة والقهر والبطش وتبقي لمجتمعاتها الغربية حق التمتع بالمزايا الإيجابية الموجودة في هذه الحضارة.

تاريخ مجيد ويوم أغر

في زخم الحوادث المؤلمة والمبكية التي تمر بها الأمة الإسلامية تمر ذكرى مولد رسول الله ـ ﷺ ـ هذا النبي الخاتم الذي أخرج الله به هذه الأمة من ظلمات الجهل والجاهلية إلى نور الإيمان وصفاء العقيدة ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن الاقتتال على شاة وبعير إلى بذل الروح والنفس في سبيل تحرير الإنسان من أنانيته وعصبيته المقيتة التي دعاها الإسلام بأنها (منتنة) ليحل محل ذلك عبادة الخالق ـ وحده ـ والتحرر من تلك الدائرة الضيقة إلى دائرة أكثر شمولاً وإنسانية.

لقد كان ﷺ خيراً عميماً على بني قومه منذ أن كان ـ ﷺ ـ طفلاً ـ احتضنه شعب بني هاشم الذي توارث الأدلة على ولادته فيه خلافاً للرأي الشاذ والغريب الذي نقله بعض المؤرخين المحسوبين على الأمة العربية والإسلامية ـ نقلاً عن المستشرقين الحاقدين ـ بأن ولادته كانت خارج مكة ولهم في ذلك مآرب.

لقد ورد في مختصر سيرة الرسول ـ ﷺ ـ للإمام الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد عبد الوهاب ـ رحمه الله ما نصه: (اخرج ابن عساكر عن جلهمة بن عرفطة قال: قدمت مكة وهم في قحط فقالت قريش: يا أبا طالب اقحط الوادي واجدب العيال، فهلم فاستسق فخرج أبو طالب ومعه

غلام كأنه شمس دجن تجلت عنه سحابة قتماء حوله أغيلمة فأخذه أبو طالب وألصق ظهره بالكعبة ولاذ بإصبعه الغلام وما في السماء قزعة، فأقبل السحاب من هاهنا، وهاهنا، وأغدق واغدودق، وانفجر الوادي وأخصب النادي والبادي وفي ذلك يقول أبو طالب:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمالُ اليتامى، عصمة للأرامل
تطيف به الهُلاك من آل هاشم فهم عنده في نعمة وفواضل

وفي المصدر العلمي نفسه والذي حققه فضيلة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام ـ رحمه الله ـ قال مقاتل: كان رسول الله ﷺ عند أبي طالب يدعوه إلى الإسلام، فاجتمعت قريش إلى أبي طالب يريدون بالنبي سوءاً فقال: أبو طالب حين تروح الإبل، فإن حنت ناقة إلى غير فصيلها دفعته إليكم، وأنشد أبو طالب:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة وابشر وقرَّ بذاك منك عيونا
ودعوتني وزعمت أنك ناصحي ولقد صدقت وكنت ثم أمينا
وعرضت دينا لا محالة أنه من خير أديان البرية دينا

لقد تركنا رسول الله ـ ﷺ ـ على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، وأن الأمة مدعوة في هذه اللحظات الحاسمة من تاريخها إلى التمسك بروح الدين الإسلامي في سماحة ويسر ومحبة ومن دون غلظة أو جفوة أو قسوة، ولقد جنى أصحاب الفهم القاصر للدين الإسلامي وحصره في مسائل ظاهرية تاركين جوهره وروحه ومقاصده السامية دفع هذا ـ بدون ريب ـ كثيراً من شباب الأمة إلى الارتماء في

أحضان المذاهب والتوجهات الغريبة فخسرت الأمة بذلك شيئاً كثيراً ويفترض فينا أن نبتعد عن هذا التشدد وننبذ قاموس الكراهية لتحل محله مفردات الحب والوئام وبهذا يتحقق جمع الشمل والتئام الكلمة، وتكون بذلك الغلبة لأمة الإسلام كما وعدها بذلك رب العزة والجلال:

وأختم بأبيات مهداة على طيبة الطيبة في اليوم الأغر والشهر المبارك من أحد شعرائها الذين أصاخوا لآيات الكتاب المبين مرتلة في منازلهم بين العوالي، وقباء، وقربان:

أنا المدينة من في الكون يجهلني ... ومن تراه درى عني وما شغلا
تتلمذ المجد طفلاً عند مدرستي ... حتى تخرج منها عالماً رجلا
فتحت قلبي لخير الخلق قاطبة ... فلم يفارقه يوماً منذ أن دخلا
وصرت سيدة الدنيا به شرفاً ... واسمي لكل حدود الأرض قد وصلا
ومسجدي كان، بل ما زال أمنية ... تحبو إليها قلوب ضلت السبلا
فكل مغترب داويت غربته ... مسحت دمعته حولتها جذلا
وفي هواي ملايين تنام على ... ذكري وتصحو على طيفي إذا ارتحلا
تنافسوا في غرامي... ارسلوا كتباً ... وأنفقوا عندها الركبان والرسلا
أنا (المنورة) الفيحاء ذا نسبي ... إذا البدور رأتني أطرقت خجلا

رثاء إنسان. . . حسين خاشقجي

هذه كلمات متواضعة أرثي بها أحد رجالات المدينة الراحلين ـ الأستاذ حسين خاشقجي، وهو ينتمي لأسرة كريمة في البلد الطاهر وأدركت عدداً من رجالها المعروفين منهم حسن نزيل الكرام والد صدقة ونضر خاشقجي وإخوانهما وعبد الإله خاشقجي ـ والد شيخ المؤذنين ـ الحالي ـ الأستاذ عبد الرحمن خاشقجي وأخيه أنور المؤذن بمسجد الجمعة المشهور وأخوتهما وكذلك حسين إبراهيم خاشقجي والد أنس وإخوانه إضافة إلى أكبر المؤذنين الحاليين ـ سناً ـ الوالد تقي خاشقجي.

كانت قدماي تحملانني من العنبرية وقباء حيث نشأت كل صباح متأبطاً كتبي إلى مدرسة العلوم الشرعية وكان مراقب المدرسة ـ آنذاك ـ أستاذنا سليمان سمان ـ رحمه الله ـ رفيقاً بي ـ فيسمح لي بالصلاة في المسجد النبوي الشريف مع ارتفاع الأذان في المنارة (الرئيسية) لصلاة الظهر وكان فضيلة الشيخ عبد العزيز بن صالح ـ رحمه الله ـ يخرج من المحكمة الشرعية ـ بحكم عمله رئيساً لها ـ ويدخل من باب السلام في أدب جم ليسلك طريقه بجوار الجدار القبلي للمسجد بعيداً عن أي ضوضاء أو جلبة وما إن يحل في المحراب حتى يرتفع صوت المؤذن من (المكبرية) لإقامة الصلاة، وكانت أصوات المؤذنين ندية وتبعث على الخشوع والطمأنينة،

وقد شاهدت بعيني وسني لم يبلغ العاشرة ـ بعد ـ كيف أن الحجاج والزائرين لمسجد رسول الله ـ ﷺ ـ والمتشرفين بالسلام على سيد الخلق وشفيع الأمم محمد بن عبد الله ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ نعم لقد رأيت الدمع ينسكب سخياً من مآقيهم ويبلل لحاهم الطاهرة كلما ارتفع صوت المرحوم حسين بخاري بالأذان، وأزعم أنني لم أسمع صوتاً ندياً في حياتي كصوته، وجاء بعد جيل الكبار من المؤذنين جيل آخر من أبناء طيبة الطيبة ومن خيرة الجيران فيها، ومن بينهم ماجد حكيم، وحسين عفيفي، وعبد المطلب وكامل نجدي، وعبد العزيز وعصام حسين بخاري، وأسعد حمزة النجدي، ومصطفى وفؤاد النعمان الحنبلي، وحسن عبد الستار بخاري، وعبد الرحمن خاشقجي الذي اختير شيخاً لمؤذني المسجد الطاهر بعد وفاة الشيخ عبد الله رجب ـ والد الأستاذ حسين رجب ـ وغير هؤلاء من الجيل اللاحق المبارك، الملتزم في سلوكه والقائم بأداء هذه المهنة الشريفة في أدب ووقار، والجدير بالرعاية من المسؤولين.

حسين خاشقجي ـ عمل في الإدارات الحكومية ـ ومنها وزارة الصحة وتميز مع من يعملون معه بالخلق الحسن والكلمة الطيبة وعمل على بناء أسرة كريمة حملت اسمه عن جدارة، وفي مقدمتهم يأتي الأستاذ (حسام خاشقجي) الذي عمل لفترة طويلة وكيلاً لوزارة الحج والأوقاف.

ولقد سمعت معالي الدكتور محمود بن محمد سفر ـ وزير الحج السابق أثناء عملي معه مستشاراً ـ يمتدح قدرات هذا الشاب ويقول إنه كان متميزاً بين مجايليه، مع أن الأستاذ (حسام) عمل مع معالي الأستاذ والمربي والإداري القدير عبد الوهاب أحمد عبد الواسع والذي استمر لحقبة طويلة في وزارة الحج قدم خلالها الكثير لهذه الوزارة التي تتشرف بخدمة ضيوف الرحمن.

وهناك ابنته الدكتورة (رفيدة خاشقجي) والتي ترأس قسم الطالبات بجامعة الملك عبد العزيز وهي إدارية متميزة، وأزعم أنني لم أكتب للسيدة (رفيدة) في وساطة حسنة ألا واستجابت وعملت على تحقيق مطالب الآخرين مع الحفاظ على النظام ودون إخلال بمقتضيات المنصب الذي تتبوأه.

وللتأريخ فإنني أكتب هذه السطور عن الفقيد ولم أقابل ـ يوماً ـ أحداً من أفراد أسرته ولا تربطني أي منافع شخصية بهم ولكننا أمة الوفاء والإحسان والجميل، ومن حق الآخرين علينا أن نكتب عنهم بعد رحيلهم، فلعل هذا يغطي شيئاً من جوانب القصور لدينا، فنسيناهم بعد أن اعتزلوا الحياة وأضحوا في منازلهم يعيشون على ذكريات الأمس، ذلك الأمس الجميل الذي كان يعيش فيه الناس كأسرة واحدة، لقد كانوا يزورون مريضهم، ويصلون قريبهم، ويحسنون ـ في تواضع ـ إلى فقيرهم، ولا يبخلون على قريب أو بعيد بما يملكون من جاه، ويحسنون الظن ببعضهم البعض عقيدة وسلوكاً.

تلك أمثلة حية ورائعة لرواد من جيل الأمس وما أجدرنا ـ نحن ـ جيل اليوم أن نلتفت في وعي للأمس الجميل ـ بل عفواً ـ النادر الجمال.

إلى زياد الدريس . . . وللبيت رب يحميه

قرأت بإعجاب شديد ما كتبه الزميل الكريم الأستاذ زياد الدريس في صحيفة الوطن، ٢٦ جمادى الآخرة ١٤٢٣هـ موجهاً خطابه في تلك المقالة إلى سمو الأمير عبد الله بن عبد العزيز، وسعى في ذكاء منه بأن يكون هناك عنوان فرعي وهو (للنفط رب يحميه) وتدور تلك المقالة حول إمكانية التعامل مع روسيا بصورة أكبر وذلك لأننا وضعنا بيضنا كله في سلة أمريكا، وهو مهدد بخربشة القط الأمريكي/ الشاروني ـ بحسب ما ورد في خطاب الزميل الكريم، إلا أن الأستاذ الدريس كان متفائلاً بحجم الاستفادة التي يمكن أن تعود إلينا في حالة الانفتاح الأكبر على روسيا التي وصفها كاتب المقال بأنها دولة سلخت جلدها وما زال جسدها ينبض بالحياة، ولا أعلم إذا ما كان الأستاذ الدريس حاول قراءة الماضي المأساوي للعلاقة التي قامت بين الاتحاد السوفيتي ـ آنذاك ـ وبعض دول المواجهة العربية.

لا أريد يا أخي أن أعيد على الأسماع قراءة ملفات اجتماع الهيئة الأممية، ففي كتاب (تاريخ السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي) والذي صدر تحت إشراف كل من بونو ماريف، وأندريه جرومكو وخفوستوف، حيث ورد في ذلك الكتاب أن الاتحاد السوفيتي يحترم كل الشعوب كبيرها

وصغيرها، لكل شعب الحق في تأسيس دولته القومية المستقلة وهذا بعينه هو الذي حدد موقف الاتحاد السوفيتي تجاه دولة إسرائيل في سنة ١٩٤٧م حينما صوت لصالح قرار هيئة الأمم المتحدة القاضي بأن تنشأ دولتان مستقلتان، وإخلاصاً لهذا الموقف المبدئي أقام الاتحاد السوفيتي بعد ذلك علاقات دبلوماسية مع إسرائيل). إلا أن الذي لم يذكره صناع السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي هو هرولة الاتحاد السوفيتي للاعتراف بالكيان العنصري، وإذا كانت الولايات المتحدة قبل وأثناء حرب حزيران قد كشفت عن وجهها القبيح وذلك في عهد الرئيس الأمريكي (جونسون) وانحازت لإسرائيل، فإن الدور الذي لعبه الاتحاد السوفيتي كان قذراً إلى حد كبير، فهو الذي أخبر مصر وسوريا على لسان جروميكو نفسه بأن إسرائيل تستعد للقيام بهجوم عسكري وشيك على سوريا، ويبدو أن العامل وراء هذه المقولة التي أثبتت الأحداث كذبها هو أن روسيا كانت تعلم أن إسرائيل هي الأقوى، وبالتالي فإن مصر سوف تصاب بهزيمة كبيرة سوف تؤدي بمصر إلى الاعتماد الكلي على الاتحاد السوفيتي، وذكر أمين هويدي وكان يشغل منصب وزير الحربية في تلك الحقبة أن روسيا طلبت من مصر ألا تكون بادئة بالهجوم، وهي خديعة انطلت على صناع القرار ـ آنذاك ـ وكان المضحك والمبكي ـ معاً ـ هو أن القيادة العسكرية المصرية وجهت سؤالاً محدداً للاتحاد السوفيتي وهو: ماذا سوف يكون حجم الخسائر؟ في حالة قيام إسرائيل بالضربة الأولى فكان الجواب: القضاء على ثلث الطيران المصري، وزادوا بأن بإمكان (مصر) تحمل عبء الضربة الأولى وسوف يلحق العرب بعد ذلك خسائر فادحة بإسرائيل والتي كان يقوم بوزارة دفاعها شخص في غاية الذكاء وهو الإرهابي موشيه ديان، وشرب العرب المقلب السوفيتي، وكانت النتيجة القضاء على جميع السلاح الجوي

وبالتالي الاستيلاء في بضعة أيام على الضفة والقدس، وسيناء والجولان، ولم يتحرك الاتحاد السوفيتي كما كنا نحلم، وكانت النتيجة المأساوية لقصور في فهمنا وسذاجة بالغة في تصوراتنا، هو تلك الهزيمة الكبرى والتي ما زالت تلاحقنا وتسببت في ضياع مواردنا البشرية وقوانا العسكرية. لقد شيع جورباتشوف الاتحاد السوفيتي إلى مثواه الأخير، وكان الثنائي ريجان ـ وتاتشر من الذكاء بحيث جعلا نهاية الإمبراطورية السوفيتية الحتمية على يد أحد رجالها، وكانت الهجرة الجماعية ليهود الاتحاد السوفيتي هو ثمن بقاء جورباتشوف في الأمانة العامة للحزب الشيوعي المنهار لسنوات عديدة ثم تم استبداله بشخص آخر وهو (يلتسين) والذي فتح الباب على مصراعيه لسيطرة اليهود على مقدرات روسيا اقتصادياً وإعلامياً، وعندما انتهى دور (يلتسين)، جاء الرجل الذي وقع للولايات المتحدة على ورق أبيض متنازلاً عما تبقى من معارضة لتوسع حلف (النيتو)، ومصدراً أوامره بإخلاء ما تبقى من قواعد عسكرية في كوبا وغيرها نظير حفنة من دولارات أمريكا.

ولا يفهم من كلامي هذا بأنني من المؤيدين لبقاء البيض العربي في السلة الوحيدة، بل أريد القول ماذا فعلنا منذ أحداث ١١ سبتمبر إلى الآن كأفراد، كدعاة، كوعاظ، كمفكرين وكتّاب؟.

إنه من المفترض أن نحافظ على وحدة هذا الكيان الذي كان من أعظم إنجازات العصر الحديث على مستوى عالمنا العربي وتأكيداً على أهمية الدور الوطني لمثقفي هذا البلد ومفكريه وأهل العلم وطلابه أن نتعلم الدرس الذي واجهته الأمة العربية والإسلامية في نكباتها المتعددة وهو خلافاتها البيزنطية على غرار هل الدجاجة أولاً أم البيضة؟ فنحن ندور

العالم بأسره لنقول إننا نؤمن بالحوار مع الآخر، ولكن ماذا عن حوارنا مع بعضنا البعض؟ فما زالت بعض الحناجر تلقي بما هو أشد من الحمم فهذا سلفي والآخر صوفي، وهي الحناجر التي تحدد للسني المسلم كيفية تعامله مع أخيه في العقيدة والولاء للوطن! وهل من الجائز أن يلقي السلام عليه أم لا؟! وهناك مسجد أو أثر منذ عصر المصطفى ﷺ فبدلاً من أن نحافظ عليه كأفراد فإذا بنا نجهز عليه ونسويه بالأرض تماماً، وإننا بذلك نهدم معالم حضارتنا وننبش شواهدنا ونقوض تاريخنا بأيدينا وفوق هذا كله هو جهلنا المطبق بأن ما نقوله ونفعله سوف يصب في خدمة أعداء هذا البلد، وإذا كان المؤسس الملك عبد العزيز آل سعود قد أقام هذا الكيان ورعاه من بعد أبناؤه وحفدته ورجاله فإنه من الخطر أن نترك للتشنج والعصبية والتشدد إصابته بدائها الفتاك.

أعراس في ليل الحزن الطويل

نقلت وسائل الإعلام ـ جميعها ـ قبل مدة يسيرة صورة الفتاة الفلسطينية في ليلة عرسها وهي تمسك بيد زوجها مجتازة الحواجز التي يقف عليها الجنود الإسرائيليون والمدججون بالسلاح الأمريكي الفتاك ولم يسلم العروسان من طغيان وجبروت أولئك المرتزقة والجبناء، وإذا كان الإعلام الغربي يرى في قتل المقاوم الفلسطيني على يد الغزاة الإسرائيليين.. يرى في هذا الفعل الشنيع أمراً مقدساً تمليه عليه ترهات التلمود والتي لم يعد الإيمان بها ـ حكراً ـ على عامة المسيحيين المتشددين بل انضم ـ أيضاً ـ إلى قائمة المؤمنين بها إيماناً حرفياً أولئك الساسة الغربيون الذين يزعمون أنهم من أنصار العلمانية، ولقد أضحى هذا الشعار العلماني وسيلة لإنهاء العلمانيين العرب، سعياً منهم لتصوير حضارتهم المادية بصورة جذابة، ووجد بعض المفكرين العرب ـ أنفسهم ـ وسط ذلك الشراك الذي نصب لهم على قارعة الطريق فما رأي المؤسسات الإعلامية الغربية في قتل الأطفال وهم يلهون وسط ذلك الركام؟ وكيف يجسر هذا الغرب على تبرير فعل حيواني كاغتيال طفل يحتمي بظهر والده، ورضيع يجلس في حجر أمه فإذا هو أشلاء متناثرة على يد قتلة الأنبياء والمرسلين ومصاصي دماء الآخرين على مر العصور والأزمان؟ وما رأيهم وهذه وسائل إعلامهم المتعددة تنقل صور دبابات النازية الجديدة

وهي تحتجز المؤمنين في كنيسة المهد، وفي مسجد بلال وعمر؟ ما رأي جمهوريي أمريكا، واشتراكيي بريطانيا في هذه الأصولية التي تحرق كل أرض وتهدم كل أثر وتقتل كل حي؟

ولم تكن الصورة مغايرة في البلد العربي ـ العراق ـ والذي عانى من ظلم طاغيته مثل معاناته من طغاة الغرب وجبابرته، وكأننا (ببلير) يريد إعادة سيرة (تشرشل) وأمثاله من زعماء الحقبة الاستعمارية الماضية.

نعم لم يكن الشعب المنكوب في بغداد ـ بعيداً ـ عن الشعب الفلسطيني، فلقد رأينا الفتاة ـ هناك ـ تمسك بيد زوجها وكأنها تسعى لاقتناص فرحة العمر قبل أن تقتنصها رصاصة حاقدة وطائشة في يوم لا يبدو أنه ببعيد، ولكن الغرب يصوّره لنا بوسائله على أنه ناءٍ وبعيد، والسؤال يقول: أما لهذا الليل من آخر؟ أما آن للأمة أن تتحسس طريقها بعيداً عن رؤية هذا العدو القادم، وهو يبحث عن دم يسفكه بل عن عرس يغتال فرحته!، عن مسجد يحوّله كنسياً يهودياً، وسوف نكون أغبياء وسذجاً إذا ما توهمّنا أن الغرب سيّر جيوشه لإنقاذنا، فكل الدلائل والبراهين تقول: إنه جاء ليمكن لإسرائيل ـ عفواً ـ لليهود في الأرض، ولليهود في الجو، ولليهود في البحر.

وزيرة البيض الفاسد اليهودية وأسرار زعماء الإنجليز!

ينعقد مؤتمر حزب المحافظين البريطاني في مدينة Bournemouth في ظل فضيحة جديدة طالت زعيم الحزب السابق جون ميجور John Major حيث كشفت الوزيرة السابقة (من أصل يهودي) في حكومته إيدويناكورييز أنها كانت على علاقة غير شرعية معه، وهذه الفضيحة تعيد إلى الأذهان فضيحة وزير الحربية John Prfuma في حكومة المحافظين بزعامة هارولد

مكميلان/ Macmillan ١٩٦٣ حيث تم الكشف عن علاقته مع الجاسوسة كريستين كييلر، والتي كانت في الوقت ـ نفسه على علاقة خاصة مع مساعد الملحق العسكري السوفيتي في بريطانيا Eu Gene Ivanov وأدت هذه الفضيحة إلى سقوط حكومة مكميلان بعد تقديم استقالته في مؤتمر الحزب سنة ١٩٦٣م، واختيار لورد دقلاس هوم Lord Home زعيماً للحزب والذي لم يستمر سوى عام حيث خسر حزب المحافظين انتخابات عام ١٩٦٤م لصالح العمال بزعامة ويلسون.

وتكرر الأمر عشية انعقاد حزب المحافظين الحاكم بزعامة مارجريت تاتشر في مدينة بلاك بوول Black - Pool، حيث كشفت الصحافة بصورة مثيرة علاقة وزير الطاقة في حكومة تاتشر ١٩٧٩ ـ ١٩٨٣م سيسيل باركنسون Cacil - Parkinsoan بسكرتيرته، وكان (باركنسون) يشغل منصب Party - Chairman وهو المركز الذي يحتله دوماً الشخص المسؤول عن حملة الحزب وخسر مقعد وزير الخارجية الذي كان متوقعاً أن يصل إليه بعد فوز الحزب، ولكن فضيحة (باركنسون) لم تؤثر على حملة الحزب الانتخابية، لأن تاتشر استطاعت عن طريق سياسة الخصخصة إخراج بريطانيا من التردي الذي شهدته في أواخر حكومة (جيمس كالاهان) ١٩٧٦ ـ ١٩٧٩م ووقعت تاتشر في خطأ آخر عندما اختارت شخصية ليس لها ثقل سياسي معروف وهو جيفري آرشر Archer ليكون نائباً لمدير شؤون الحزب والذي كشفت فيما بعد صحيفة الديلي ستار Daily, star عن علاقة له بغانية تدعى Monica Couglan، وأنكر ذلك بشهادة كاذبة مما أدى بعد ذلك إلى سجنه لأنه ضلل العدالة.

ويتزامن انعقاد مؤتمر الحزب المحافظين ـ أيضاً ـ بعد وقوع آرشر في

فضيحة أخرى وهو استغلاله لصداقته مع الضابط المسؤول عن سجن North, Sea, Ca وهو سجن معروف يقضي فيه عقوبة السجن حيث قام الضابط بإخراج الروائي والسياسي آرشر ـ بصفة خاصة ـ ليحضر حفلة خاصة، وأدى خرق نظام السجن حيث سمح (لآرشر) بحضور تلك الحفلة ثم العودة إلى السجن ثانية إلى استقالة الضابط المسؤول عن السجن.

لن يستطيع الحزب في اجتماعه السنوي بمدينة Bournemoth أن يناقش الفقـــرة (٢٨) من مانفستو الحزب والخاصة بموضوع التأكيد على القيم العائلية، ودعت الوزيرة السابقة واليهودية الأصل Curine، إلى حذف هذه الفقرة وترى فيها إملاءً لما يمكن أن يدخل في باب الحرية الشخصية وهو كيف يعيش الفرد؟ وهو أيضاً ما يدعو إليه الجانب اليساري أو المتحرر في الحزب، أما زعيم الحزب الذي يقود الجانب المتشدد إيان سميث Iain Smith فهو يؤكد على الفقرة (٢٨) والتي تدعو السلطات المحلية بعدم دعم العلاقات غير الشرعية وخصوصاً الشاذة منها.

والقضية الأخرى التي تلقي أيضاً بظلالها على اجتماع الحزب المعارض هو استمرارية تأثير مارجريت تاتشر على سياسة الحزب، ويؤكد ذلك عزم المسؤولين في الحزب على نشر وثيقة سياسية تعرف بالطريق الصحيح، وهي في الأصل وثيقة تحدد منهج الحزب في عام ١٩٧٦م عندما كانت تاتشر زعيمة للحزب في الحقبة التي كان فيها الحزب في المعارضة.

ويقود المتحدث باسم الحزب للشؤون الداخلية أوليفر ليتوين Oliver-Letwin، توجّهاً مغايراً للناشرين، فهو يرى وجوب الاستفادة من (توني بلير) والذي بنى قاعدة حزب العمال من المعارضة حتى وصل به إلى

دوانغ ستريت دورتين متتاليتين حيث استطاع (بلير) الاقتراب من هموم المجتمع من حيث التأكيد على موضوعات الصحة والتعليم وفي هذا إشارة إلى وقوع المحافظين في انقسامات داخلية بعيدة عن الهموم القريبة من الناس، فلقد أدى الاختلاف حول انضمام بريطانيا من عدمه إلى العملة الأوروبية الموحدة إلى انصراف الناخب البريطاني عن الحزب الأول وهو المحافظون إلى الحزب الآخر وهو العمال.

وبالمناسبة لقد كشفت (إيدوينا) في مذكراتها عدداً كبيراً من الشخصيات السياسية، وهي تضحك ملء شدقيها بمبلغ كبير من المال يصل إلى ٣٠٠٠٠٠ جنيه استرليني فهل يعتبر ويتعظ الإنجليز وسواهم من مثل هذا السلوك اليهودي الشائن؟؟

الخبير الإسرائيلي فانون وغيابه عن الذاكرة العربية

في الوقت الذي تسرب فيه كوريا الشمالية خبر امتلاكها لكميات من اليورانيوم المخصب والقادر على إنتاج السلاح الكيماوي وهو الخبر الذي فتح أعين العالم كله على ازدواجية المعايير الأمريكية، وذلك بعد تصريحات وزير الخارجية الأمريكي كولن باول بأن أمريكا لن تستخدم القوة مع دولة كوريا الشمالية بسبب امتلاكها لهذا السلاح والذي ظهرت آثاره منذ عام ٢٠٠٠م وكأن وزير الخارجية الأمريكي يعني بقوله هذا ـ صراحة ـ بأن الحرب المرتقبة ضد العراق بزعم وجود أسلحة دمار شامل، لها أسبابها البعيدة عن امتلاك السلاح النووي من عدمه ولم يعد ـ خافياً ـ على أحد أن سياسة التدخل بالقوة ضد العراق أو غيره من دول المنطقة هي من أجل تنفيذ قرارات منظمة إيباك المتشددة والتي يسيطر كثير من نشطائها على المناصب القيادية بدءاً من مجلس الأمن القومي ومروراً بوزارة الخارجية وانتهاء بأسوأ وزير دفاع شهدته أميركا في تاريخها المعاصر في هذا الوقت الذي يضفي البيت الأبيض فيه على الإرهابي أريل شارون صفات رجل السلام وصاحب السياسة الإنسانية إزاء الفلسطينيين مع أنه يأمر جنرالاته بحرب إبادة ضد المدنيين الفلسطينيين وخصوصاً الأطفال منهم، وكأن الولايات المتحدة لم تكتف بدعمها سياسياً وعسكرياً بل إنها تسعى لبناء شخصية وهمية عنه ولن نفاجأ إذا ما رشحته أميركا لجائزة نوبل للسلام.

في هذا الوقت يعتصم عدد من المتظاهرين وفي عدد من مدن العالم بذكرى مرور ١٦ عاماً على سجن الخبير الإسرائيلي موردخاي فانون Mordechai Vanun والذي قام في عام ١٩٧٦م بتسليم صحيفة الصنداي التايمز البريطانية عدداً من الصور الحقيقية ومعلومات موثقة عن البرنامج النووي الإسرائيلي في دايمونا Dimona ولقد كشفت تلك المعلومات التي أدلى بها فانون عن امتلاك إسرائيل لما يقرب من ١٠٠ رأس نووي.

ولقد كانت المخابرات الإسرائيلية من الغضب الشديد لرفع فانون القناع عن الدولة التي كان الغرب يقدمها على أنها دولة ضعيفة ومسالمة بحيث أدى غضبها وحنقها ودمويتها إلى اختطاف فانون قبل أن تنشر صحيفة الصنداي تايمز شهادته الموضوعية عن برنامج إسرائيل النووي وذلك بعد أن استدرجته عن طريق قناة إسرائيلية سرية إلى خارج المملكة المتحدة ومن ثم القبض عليه ووضعه في سجن انفرادي والحكم عليه بحوالي عشرين عاماً، وهي السنين الكفيلة في مجملها بتدمير ما تبقى من عمر هذا الإنسان الذي حمله ضميره إلى وجوب الكشف عما يمكن أن يدمر الدول المحيطة بإسرائيل ويجعل لها ـ أي إسرائيل ـ الهيمنة المطلقة في عالم السياسة.

يُحمد لأنصار فانون من دعاة السلام في إسرائيل نفسها كما ورد في صحيفة الصنداي تايمز October / ٢٠٠٢/٢/٦ توقيعهم لرسالة يطالبون فيها الأمين العام للأمم المتحدة كوفي عنان بالعمل على إطلاق فانون والذي يفترض الإفراج عنه في عام ٢٠٠٤م ولكن أنصاره ربما يخشون من فرض عقوبات إضافية عليه، كما تجمع عدد من أنصاره في هيروشيما حيث يقوم نصب تذكاري لضحايا القنبلة النووية الأمريكية ولا يزال الشعب الياباني

يحمل في داخله آثار تلك العملية البربرية التي قامت بها أمريكا في هيروشيما ونجازاكي وهي بسياستها الحالية تشجع أكبر دولة نووية في الشرق الأوسط على ارتكاب كل أنواع الحماقات على يد السفاح شارون منكرة على الفلسطينيين حصولهم على الحد الأدنى من المعاملة الإنسانية والكريمة التي يتشدق بها الإعلام الأمريكي والغربي.

كما يعمل محرر صحيفة التايمز ـ Avigdor Feldman كما ورد في صحيفة الصنداي التايمز ـ نفسها ـ على استقطاب ما يقرب من ١٠٠ شخصية عالمية من أجل تدوين مذكرة خاصة تدعو لإنهاء الوضع غير الإنساني الذي يواجهه فانون ووجوب إعطائه الفرصة لإعادة بناء حياته الإنسانية إلا أن السؤال الذي يبقى مطروحاً وهو أين جمعيات حقوق الإنسان العربية ومثقفو العالمين العربي والإسلامي عن هذه القضية؟ فلقد قدم فانون للعالم كله وللعرب خصوصاً خدمة كبرى بكشفه عن سلاح إسرائيل النووي وعن وجهها المتعصب والدموي.

كيف حافظ الإسلام على تراث الآخرين وآثارهم؟

لقد نشأت في أحضان الدين الإسلامي حضارة عالمية وإنسانية متعددة الجوانب فكرية وعلمية وأدبية وعمرانية وفنية وكل ما يدخل في الارتقاء بالنفس الإنسانية، ويتوافق مع مقاصد الشرع الحنيف يدخل تحت هذه الدائرة. ولقد عملت الدول الإسلامية على مر العصور على الحفاظ على جميع الآثار الإسلامية، بل إن المسلمين ضربوا أروع الأمثلة في الحفاظ على معابد وآثار الأمم والديانات الأخرى وشهد بذلك عدد من المستشرقين المعتدلين من بينهم بوزورث المتخصص في الدراسات الشرق أوسطية بجامعة مانشيستر بالمملكة المتحدة ومحرر الموسوعة الإسلامية الصادرة عن دار بريل بهولندا.

فلقد ذكر بوزورث في إحدى محاضراته بأن كنائس المسيحيين في جزيرة قبرص، وصقلية وشبه الجزيرة الإيبرية الأندلس وفي بلاد الشام لم تمس بسوء، ولقد ضرب الخليفة الراشد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أروع الأمثلة عند دخوله لأرض فلسطين، فرفض الصلاة عند كنيسة القيامة واختط مسجداً صلى فيه عرف فيما بعد باسمه، وذلك خوفاً من تأسي المسلمين به، وبهذا حفظ الخليفة عمر للمسيحيين حقوقهم الدينية.

ولقد ذكر لي أحد الأخوة المسيحيين العرب في بريطانيا بأن عمر بن الخطاب يمثل لدى مسيحيي فلسطين نموذجاً تاريخياً عظيماً بسبب موقفه السامي والذي أخذ فيه بمقاصد الشرع الإسلامي حيث يؤمن المسلمون بكل الرسالات السماوية ومنها نبوة موسى وعيسى عليهما السلام وبجميع النبوات الأخرى أي الديانات السماوية غير المحرفة.

ولقد أمر الخليفة الأول سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه الجيوش الإسلامية بعدم التعرض للصوامع التي يتعبد فيها أهل الكتاب وقال ما معناه: دعوهم وشأنهم... بل أن رسول الله ﷺ نهى عن هدم أطام المدينة كما نقل ذلك المحقق المعروف والعالم السلفي الشهير الدكتور عبد العزيز عبد الفتاح قاري في كتابه القيم والموضوعي (حرم المدينة النبوية) الصادر عن دار الصفوة بالقاهرة ١٤٢٢هـ فلقد ذكر الباحث المدقق الدكتور القاري جزاه الله خيراً عن تاريخ مدينة المصطفى ﷺ ما نصه: ثبت النهي عن هدم أطام المدينة والأطام جمع أطم، والأطم كل حصن مبني بحجارة وكل بيت مربع مسطح، وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ نهى عن أطام المدينة أن تهدم، وفي رواية أن رسول الله ﷺ قال: (لا تهدموا الأطام فإنها زينة المدينة) [ص ٣٧]. انتهى كلام الشيخ القاري.

ومعلوم أن كثيراً من هذه الأطام بني في العصر الجاهلي، وقبل هجرة النبي ﷺ وبعضها اتخذه اليهود آنذاك مسكناً لهم.

ولقد حرصت هذه الدولة السنية المحكمة لشرع الله وسنة نبيه ﷺ على الحفاظ على الآثار النبوية في الحرمين الشريفين منذ عهد المؤسس الملك عبد العزيز رحمه الله حتى عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز رعاه الله والذي عمل على توسعة الحرمين الشريفين، وإعادة

بناء وتعمير مساجد المشاعر في عرفة ومنى ومزدلفة، وكذلك مساجد المدينة الأثرية، مثل قباء، القبلتين، الجمعة، المستراح، ذي الحليفة، ومسجد واقعة بني قريظة الذي قامت قبل عامين بعض المؤسسات الدينية المسؤولة بهدمه، وهي مطالبة امتثالاً لأوامر الشرع الحنيف، وتمشياً مع سياسة الدولة الرشيدة بإعادة بنائه وبناء مسجد أبي بكر الصديق في منطقة غزوة الخندق النبوية وكذلك إعادة بناء مسجد حفيد رسول الله علي العريضي والذي تعرض هو الآخر لعملية هدم مقصودة، وهدمت كذلك المدرسة الملحقة به وهي مدرسة تاريخية عريقة وتمثل بناء معمارياً راقياً، إضافة إلى الإقدام على أمر شنيع ومحرم شرعاً وهو نبش المقبرة المجاورة للمسجد المذكور وكان يفترض التعقل والحكمة والتروي... وهو النهج الذي سار عليه ولاة أمرنا وأننا لمأمورون باتباعهم بدلاً من الانسياق وراء آراء بعض المتشددين والذين يغفلون هداهم الله أن مصلحة الوطن والحفاظ على سمعته النقية في جميع أنحاء العالم مقدمة على كل شيء آخر، ومعروف أن هناك هيئة عليا للسياحة يرأسها صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبد العزيز، ويقوم على أمانتها إنسان واع وهو سمو الأمير سلطان بن سلمان بن عبد العزيز، ولقد عملت الهيئة على إنقاذ عدد من الآثار الإسلامية والحفاظ عليها، وإننا نتطلع أن تتحول هذه الهيئة إلى وزارة السياحة والآثار، وتقوم بمسح شامل للآثار الإسلامية فهي القادرة بعد الله، وبدعم من أولي الأمر أن تحمي ما تبقى من الآثار من المعاول المتشددة والرؤية القاصرة والمغرقة في سوء الظن بعقائد الآخرين، مع أن مؤسساتنا الدينية يشرف عليها رجال معتدلون ويتمثلون الوسطية والتي هي السمة الحقيقية لهذا الدين العظيم.

وقد حمدت لفضيلة الدكتور عبد الله التركي أمين عام رابطة العالم الإسلامي في رحلاته الدولية سعيه للتأكيد على هذا الجانب بل دعا الآخرين إلى الحوار الفكري، كما حمدت لفضيلة الدكتور عبد الرحمن السديس إمام وخطيب الحرم المكي الشريف في ليالي رمضان الأخيرة وهو يدعو الله أن يلهم شبابنا الوسطية والاعتدال، فجزى الله ولاة الأمر عنا خيراً، ومزيداً من هذه الدعوات المباركة والسلوك الوسطي من علمائنا الأفاضل ومرجعياتنا الدينية المعتمدة.

ساحة بقلب ورفقاء بمشاعر!!

يؤسفني القول: إننا معشر الكتاب ـ في ساحة الثقافة والفكر والأدب ـ من أكثر الناس انتقاداً للآخر ومن أكثرهم ضجيجاً في كل واد حول ما يصلح وما لا يصلح، وما هو قائم من الأمر وما يجب عليه أن يكون، ولكننا من أقل الفئات بحثاً في دواخلنا عن مكامن الداء ومواضع الضعف وفي كثير من الأحيان لا نعطي أمثلة عملية من حياتنا وسلوكنا لما ندعو إليه من شفافية وديمقراطية وتعددية.

لقد مرت أشهر عديدة ونحن نرى في هذه الساحة صراعاً ضارياً نفتقد في بعض الأحيان ـ من خلاله ـ الحد الأدنى من المفاهيم والسلوكيات المطلوب توفرها في أطراف الحوار فهذا لا يتورع عن إلصاق تهمة ـ من النوع الثقيل ـ بنظيره أو محاوره ولم يسلم من ذلك ممن تصنفهم الساحة كمحافظين وآخرين ليبراليين أو مجددين ولم يفرق الداء بين جسد وآخر فشمل من تعلموا في جامعات ذات صبغة عربية وإسلامية محضة وأخرى غربية السمات أو إفرنجية الملامح. والأشد من هذا والأنكى هو أن المدرج في الساحة مليء بالمشاهدين والمتفرجين ونضيف و(المتسللين) ـ بضم الميم وتشديد اللام ـ وقلة من هؤلاء ممن يعنيهم تخفيف حدة هذا الصراع والذي تحول إلى داء ينخر في جسد المجتمع ويتسبب في تلاشي

صداقات دامت لعدة عقود من الزمن وقلة من هؤلاء ممن يسعى لجمع أطراف هذا الحوار أو الصراع فيؤلف قلوبهم بدلاً من أن يفرقها ويقرب أفكارهم عوضاً عن تباعدها وتنائيها وقلة ممن يعنيهم أمر شيخ طاعن في السن أو حبيب يرقد في غرفة الإنعاش فإذا نحن نستغل ضعف قواه فنرميه بالسهام الطائشة وهذا مما تنفر منه الطباع السليمة والأخلاق الإنسانية أو أخر يمر بظروف حياتية صعبة فيقودنا الهوى لاستغلال هذه الثغرة فنهجم عليه ونثخنه جراحاً: فلنسأل أيها الزملاء ـ وأنا واحد منكم ـ كيف قضى أديب واعد مثل صلاح عبد الصبور فلقد اتهمه أحد أصدقائه في وطنيته وكان ـ عبد الصبور ـ حييا وخجولاً فاستغل ذلك الصديق المحسوب عليه هذه الفضيلة وذلك النبل في شخصيته فردد تلك الاتهامات عليه في محفل من الناس وفي الليلة التي كان عبد الصبور يتوقع أن تكون ليلة وفاء له وفرح بمقدمه وإشادة بإبداعاته الشعرية وكان بعض الرفاق يتمنون على المهاجم ـ والمحسوب صديقاً أو رفيق عمر ـ أن يصمت وظل يلاحقه حتى أخرجوه ـ أي الضحية ـ من الاحتفال مغمياً عليه وأسدل الستار على حياة (عبد الصبور) ولم يفعل الرفاق ـ شيئاً بعد ذلك بالجاني الذي سفك دم أخيه بالكلام الذي هو أمضى من السيف المسموم حداً... نعم أيها الزملاء الذين أحب بلا استثناء وأقدر من دون تمييز نعم أيها الرفاق الذين أطل عليهم بشوق من كوة الدار... من فتحة (الروشان)! نعم... يا أعزائي لم يأخذوا على يد الجاني ويعيدوه ـ بأي سبيل ممكن وحضاري ـ إلى رشده وصوابه ولم يكن هو ـ أي صديق عبد الصبور المزعوم ـ يملك من الضمير الحي والإحساس الإنساني ما يكفي لمعرفة خطيئته وشنيع فعلته وما ألحقه من ضرر فادح بحياة زميله المرهف الإحساس والرومانسي المشاعر والذي وجد في (الحلاج) المقتول ـ من وجهة نظره ـ وحياته

المشردة ما يخفف عنه عذابات هذه الحياة وشدة وطأتها عليه وهوانه على بني قومه وعدم استشعارهم بأن إنساناً أو رمزاً أو مثالاً لا يعيش بينهم وهل كان بكاؤهم عليه ورثاؤهم له في الدوريات والمحافل يرضي نفسه عند البارىء عز وجل ولنكن صرحاء أيها الزملاء الذين إلى مرآهم أحن وبمشاعرهم الصادقة يتغذى وجداني المنهك هو الآخر كم من أمثال عبد الصبور سوف يذهب إن لم نع الدرس ونتعلم من المأساة.

ترشيد الخطاب الديني من فوق المنابر!

كتب الأستاذ الكريم محمد صلاح الدين على صفحات هذه الجريدة الغراء (السبت ٧ ذي الحجة ١٤٢٣هـ) معقباً على ما كتبه الكاتب الصحافي المعروف الأستاذ عبد الله خياط عن الأهمية البالغة لخطبة يوم عرفة ـ خاصة ـ في هذه الظروف الحرجة التي يمر بها الإسلام والمسلمون وخصوصاً كما ذكر كاتبنا في (فلكه) بأن العالم كله من أقصاه إلى أقصاه يشهد وقائع الحج ويستمع إلى تلبية الحجيج ويتابع أداءهم للمناسك وينصت إلى خطبة يوم عرفة، وإنني أؤيد الاقتراح الذي طرحه الأستاذ صلاح الدين والداعي إلى تعاون بعض الجهات ذات الاختصاص على وضع الخطوط الرئيسية لخطبة عرفات والتنبيه إلى ضرورة الإيجاز. ولقد كان كل من فضيلة الشيخين الكريمين عبد العزيز بن حسن وعبد الله خياط رحمهما الله في الحرم المكي وفضيلة الشيخ عبد العزيز بن صالح ـ رحمه الله في مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ يميلون إلى الإيجاز ويأخذون في الاعتبار ـ ما حثت عليه الأحاديث النبوية الشريفة ـ من ضرورة التنبه لأحوال الناس الصحية والاجتماعية ونضيف النفسية ـ فالإنسان ـ بطبيعته يمل من التكرار والتطويل فكيف إذا كان الحضور بالملايين عوضاً عن الآلاف ولا شك في أن حكومة خادم الحرمين الشريفين قد عمرت المساجد ووسعتها في المشاعر المقدسة وزودتها بكل أسباب الراحة والطمأنينة إلا أن الزيادة

المطردة في أعداد الحجاج والمعتمرين و الزوار هو أمر يقتضي من علمائنا وخطباء مساجدنا ـ حفظهم الله ـ التنبه إلى ما يمكن أن يفضي إليه التطويل ـ غير المطلوب ـ من آثار سلبية على الشيوخ والنساء وأصحاب الأمراض المزمنة كالضغط والسكر والقلب.

وإذا كانت الشريعة الإسلامية قد أجازت ـ بالضوابط المعروفة ـ قصر الصلاة في السفر وإفطار الصائم كذلك عند ترحاله، وأجازت للمريض والشيخ أن يصلي ويؤدي الواجبات الشرعية بالطريقة التي لا تؤذي صحته أو تضاعف الآلام عليه، فإنه من باب أولى في حالة إلقاء الخطب المتصلة بالشعائر الإسلامية كالجمعة والعيدين ويوم عرفة أن يؤخذ في الاعتبار تلك الجوانب التي حثت عليها مقاصد الشرع الحنيف الداعي إلى التيسير والناهي عن التشدد بكل أنواعه.

ولقد استمعت في شهر ذي القعدة من العام المنصرم لخطيب احترمه في مكان طاهر وذهلت لأقواله التي كانت تثبط الناس عن الإتيان لزيارة مسجد رسول الله ﷺ بذريعة أن البعض يعتقد أن زيارة المسجد الشريف ومن ثم السلام على النبي ـ ﷺ ـ وصاحبيه هو من اللوازم والضرورات.

وإضافة إلى ما يحمله مثل هذا القول من آثار سلبية على سياسة الحكومة الرشيدة والتي تبذل كل ما في طاقتها ووسعها لتهيئة الحرمين الشريفين للحجاج والزائرين منذ أن كرم الله هذه الجزيرة بالوحدة الشاملة على يد المغفور له الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ حتى وقتنا الحاضر إضافة إلى هذا فإنه يمكن حمل القول على أن بعضنا يسيء الظن في عقائد الآخرين والواجب أن نحسن الظن فيهم وربّما كانت غالبيتهم من أهل العلم الشرعي ممن يعرفون تماماً الفرق بين الواجب والمستحب وماذا

يضير هذه الفئات من التوجه إلى مدينة الرسول ـ ﷺ ـ بقصد زيارة مسجده والذي شرف به ـ ﷺ ـ وهل يعقل أن المسلم يصل إلى تلك الديار التي أكرمها الله بالأمان والاستقرار في هذا العصر السعودي الزاهر ويشيح بوجهه عن السلام الشرعي لمن أخرجنا ـ بهدى الله ـ من الظلمات إلى النور ولمن يلجأ الناس إليه بعد الله في يوم المحشر لطلب شفاعته وهي شفاعة خاصة أكرم الله بها نبيه وخاتم رسله ـ سيدنا محمداً ـ ﷺـ.

نعم إن أمهات القضايا كما ذكر الأستاذ محمد صلاح الدين تغيب عن ذهن بعض الخطباء، وتسمع أقوالاً عن الجهمية والمعتزلة والخوارج وكذلك عن الشرك وأهله ويسأل الإنسان ـ نفسه ـ هل ما زال هذا البعض يعيش بعقله في العصور التي خلت والتي كانت موجودة فيها مثل هذه الطوائف والملل والنحل، أم هو يعيش في القرن الذي تتكالب الأمم فيه على أمة الإسلام والتي هي أحوج ما تكون إلى وحدة الرأي وقوته.

ويحلو للناس أن يصدقوا القوي
ـ خصوصاً ـ إذا ما كانوا ضعفاء

عندما تنشب الحروب لا تفكر الأطراف المشاركة فيها بما ينجم عنها من مآسٍ وما تخلفه من دمار، فالرغبة الإنسانية الجامحة والراغبة في تحقيق النصر بأي ثمن هي التي تجعل من يقودون المعارك لا يفكرون إلا في سلامة أنفسهم أما من أتوا بهم ليخوضوا المعارك ـ نيابة عنهم ـ فلا أسف عليهم إن هم قتلوا أو أسروا أو فقدوا ـ وأحياناً يقصد بهذه العبارة التضليل على الرأي العام ـ فإنه إذا أضيف عدد المفقودين إلى عدد المقتولين فإن قائمة الخسائر ستكون كبيرة وربما شكل ذلك إحراجاً لمن يديرون الحرب من خلف مكاتبهم.

في العراق... كان رموز النظام يتحينون الفرصة التي تختفي فيها الطائرات من سماء العراق، فيخرجون من مخابئهم ويتصدرون الجميع للحديث بقاموس يذكر بتلك العبارات الإنشائية الرنانة والتي كنا نستمع إليها في نكسة حزيران ١٩٦٧م، ثم يرجعون لمخابئهم مع حضرة القائد والزعيم ليدخنوا (سيجار الهافانا) الغالي الثمن والناس جياع يبحثون عن خشاش الأرض.

والأمر لا يختلف عند الجانب الثاني ولكن بمهنية رفيعة واستراتيجية

افتقدها العرب في تعاملهم مع الغرب لمدة تزيد على نصف قرن من الزمن.

يجيد الغرب فيما يجيد معرفة أدق الأشياء عن الأرض التي سوف تطأها أقدامهم ـ وعما يحب الناس ويكرهون ـ في الديار التي يسعون لاحتلالها تحت شعارات مختلفة، مثل القضاء على الإرهاب، تحرير الإنسان، نشر الديمقراطية، شعور الإنسان بكرامته وحريته... الخ، القائمة التي تجعل البعض يعيش نشوة في تخيلاته، أو أحلام يقظته، ولا يخرجه منها إلى الواقع إلا وجه طفل قد لطخ بالدماء، وأطراف إنسان قد تناثرت في الهواء، وامرأة تبكي بعلها، وأطفال يفتقدون حضن أمهم أو طلعة أبيهم القادم من بين الحقول. أو من سوق الخردوات، أو باحة المسجد حيث يرفع يديه لبارئه بأن يجنب أهله أهوال هذه الحرب وقد عاش مثلها لأمد يزيد على نصف عمره أو يقاربه.

لا فرق بين دول متقدمة وأخرى متخلفة أو نامية في التضحية بالآخرين وإذا كان قتل الأطفال وهدم المنازل قد عرفت أسبابه بأنه لبث الرعب في نفوس الناس بينما المعنيون بالأمور في جحورهم مختبئون أو ترتب معهم صفقات سياسية من تحت الطاولة كما يقولون، فإنه من غير المبرر قتل من يريدون نقل الحقيقة للآخرين ونعني بهم (الصحفيين)، فالغرب هو الذي اخترع الإعلام ونظر له ودعا لحريته المطلقة، ولكن هذه المعاني الجميلة لا توجد إلا في جمهورية أفلاطون أو ابن سيناء الفاضلة، فالإعلام يجب أن يهز هو الآخر أو يقتلع من جذوره إذا ما أراد أن ينقل الحقائق مجردة، فبطش المتخلف لا يختلف عن بطش المتقدم إلا في الأدوات والوسائل وليس هناك من وجه مشرق للبطش والجبروت.

ولقد استطاعت الصحافة العالمية والعربية ـ ومنها هذه الصحيفة الغراء ـ أن تقدم قائمة بأسماء الصحافيين الذين ذهبوا ضحية للحرب ولم تسلم صحافة الدول الحليفة والداعمة للغزو من مآسي تقنية السلاح الأمريكي المتخصص في طمس الحضارات والقضاء على المعالم والآثار والتي يدل اسمها على التضاد فهي يجب أن تكون غبية ولا يراد لها أن تكون ذكية.

وإذا كان صدام قد قتل من مثقفي بلده ورجال العلم فيه ما قتل، فإن التحالف الغربي لم تسلم مساجد وآثار وصحافيون من بطشه ولكنه ـ أي الغرب ـ في كل مرة يعتذر بلغة في غاية الرقة عن خطأ ارتكبه متعمداً ولكن يحلو للناس أن يصدقوا القوي وخصوصاً إذا كانوا ضعفاء.

خطابُنا الديني بين التشدد والتسامح

يسجل لأجهزتنا الأمنية جهدها الفاعل في مقاومة كل ما يمس أمن هذا الوطن أو ترويع الآمنين فيه، وكيف يُروّع من كانت الكعبة بين عينيه ومثوى سيد الخلق ومسجده الطاهر ـ عليه صلاة الله وسلامه ـ في قلبه ووجدانه، حيث كتاب الله الحكيم يُتلى ونداء الحق قوياً وشجياً يُرفع، ولا شك أن رجل الأمن والحكمة والاتزان في بلادنا سمو الأمير نايف بن عبد العزيز ـ وزير الداخلية ـ يثبت هو ورجال حوله على هذا الأداء الأمني الفاعل في زمن يتعرض فيه العالم كله لموجات من التشدد والتطرف والإرهاب.

وتعاملت صحافتنا مع الحدث وأشارت إلى أيد خارجية تريد المساس بأمن هذه البلاد التي تحتضن مقدسات الإسلام وآثار حضارته التي عمت الكون بقيمها وتقاليدها الرفيعة.

إلا أنه يفترض الحديث عن المسكوت من القضايا فنحن أمة كبقية أمم الأرض ولا يضيرنا القول بأن مظاهر التشدد قد غرّت بعض قطاعاتنا التوعوية، وأن هذا الأمر تعود جذوره إلى حوالي ربع قرن من الزمن عندما أطلت جماعة (جهيمان) المتشددة بتنظير فكري بداية وأصدرت رسائل من مثل (الدولة الإسلامية).

ثم تبع ذلك التنظير محاولة للتطبيق بالعنف والقوة، ولم تجد تلك الشرذمة مكاناً تفرّغ فيه شحنة غضبها وحقدهم سوى بيت الله، فإذا الذين نظروا يتبرأون مما كتبت أيديهم وينقطعون لفترة عن وعظٍ لا نعرف من قاموسه إلا مفردات التكفير والتفسيق والتبديع، وكأن جماعة بعينها هي الناجية وما سواها خارج دائرة الرحمة والقبول، وبسبب هذا التفكير الوعظي إلى بذر أو نشر الشحناء والبغضاء بين أفراد المجتمع الواحد، بل بين أفراد البيت الواحد، وربما قاطع الابن أباه بحجة أو ذريعة أن في أقوال أبيه شبهة من الألفاظ الشركية متناسياً أن رسول الله ـ ﷺ ـ أمر سيدنا أبا بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ بمواصلة أبيه الكافر، وهذا أب مسلم وأم مؤمنة ودار مباركة، وأعرف قصصاً عديدة كيف قاطع بعض هؤلاء المتشددين أصهاراً لهم وأنساباً، وكيف أن بعضهم يقاطع عزاءً لميت لأن عقداً من الكهرباء قد وضع لإرشاد الناس لمكان العزاء، وكيف تنصب المقاعد لهذا الأمر، والمسألة ـ جميعها ـ لا تدخل من قريب أو بعيد في قضايا العقيدة وتخليصها من شوائب الشرك كما يزعمون.

وما إن تحل أشهر معينة مثل ربيع ورجب وشعبان إلا ونسمع في كل مسجد ندخله حديثاً مسهباً كيف أن الناس في بعض قطاعات العالم العربي والإسلامي قد وقعوا في الشرك بحكم احتفائهم بهذه المناسبات ـ وهي قضايا فرعية يمكن الاختلاف حولها ـ ولكن يفترض ألا يصل إلى حد الرّمي في العقائد والتشهير بإخواننا المسلمين والذين أضحوا ينعون علينا في خطبهم كذلك هذا الأسلوب المتشدد وهذا يعني بالضرورة وجوب إصلاح الخطاب الديني في مساجدنا وجامعاتنا ومنتدياتنا الدعوية والإرشادية ووجوب نشر ثقافة التسامح والاعتدال والوسطية ـ عارفين وموقنين أن

الإسلام هو قدرنا ولن نرضى بغيره بديلاً، ولكن استمراء أساليب التشدد والتنطّع والقسوة والجفوة والغلظة سوف تعود على مجتمعاتنا بشيء لا تحمد عقباه أو تعرف نتائجه.

إن ثقافة سوء الظن يجب أن تزول وتحل محلها ثقافة حسن الظن بعقائد المسلمين ودواخلهم متذكرين في ذلك قول المصطفى ـ ﷺ ـ (من دعا رجلاً بالكفر أو قال: عدوّ الله وليس كذلك، إلا صار عليه أي رجع) وفي لفظ من الصحيح (فقد كفر أحدهما).

العامل الخفي في الدعم الغربي لليهود

كان الغرب إلى وقت قريب لا يتعامل مع منظمة التحرير الفلسطينية بذريعة جنوح المنظمة إلى الإرهاب، مع أن هذا الغرب كان يعلم أن الفلسطينيين كانوا يقاومون كياناً محتلاً اغتصب أرضهم، وشرد عائلاتهم وأطفالهم وقتل رجالهم أحياء بدم بارد، وهشم عظام صغارهم إبان الانتفاضة، ولكن هذا الغرب ـ نفسه ـ كان لا يجد حرجاً في التعامل مع إرهابيين حقيقيين من أمثال مناحيم بيغن، وإسحاق شامير، وأريل شارون. وبعض من هؤلاء الإرهابيين اليهود تسبب في سفك دماء الغربيين أنفسهم قبل وبعد حقبة الانتداب البريطاني في أرض فلسطين العربية والمسلمة، وكان كل من السفاحين «بيغين» و«شامير» مطلوباً للعدالة البريطانية ولأجهزة «الاسكتلانديارد» الأمنية، إلا أن المعايير المزدوجة، والنفاق السياسي، والركض وراء الأساطير التلمودية المضللة جعل بعض الزعماء الغربيين يستقبل سفاحي دير ياسين، وكفر قاسم، وقبية، وصبرا وشاتيلا استقبال الفاتحين، ويفتخر المتحدث الأسبق باسم مجلس العموم البريطاني George Thomas جورج توماس، في مذكراته، بأن ما يجمعه بالإرهابي «بيغن» هو ما يعرف بالعهد القديم والعهد الجديد من التوراة ولهذا فهو كان فخوراً باستقباله في البهو المخصص للمتحدث باسم مجلس العموم ـ وبالمناسبة فمركز المتحدث يحمل أهمية خاصة في البرتوكول السياسي البريطاني،

فلقد حدث في الثمانينيات الميلادية وأثناء زيارة «ميخائيل جورباتشوف» للمملكة المتحدة أن قام المتحدث باسم مجلس العموم باستقبال «جورباتشوف» نيابة عن رئيس الوزراء، ولا يترك «توماس» مجالاً من مجالات الحياة الروحية مما يجمعه مع «بيغن» إلا ويخصه باهتمام بالغ، فالسفاح «بيغن» يحمل في داخله من العاطفة الإنسانية كبقية الإسرائيليين ما يجعل التشابه قائماً إلى حد كبير بين هؤلاء السفاحين والشعب الويلزي «نسبة إلى مقاطعة ويلز (Welsh) البريطانية، ومن حيث لا يشعر «توماس» فإن السفاح بيغن ينهي اللقاء على شرفه في مجلس العموم البريطاني في عام ١٩٧٨م في عهد حكومة «جيمس كالاهان» العمالية ـ بأن يقوم بإهداء السياسي البريطاني المتدين والواعظ في كنائسها نسخة من العهد القديم باللغة العبرية، وكأن «بيغن» الإرهابي يرمز بهذه الهدية باللغة اليهودية إلى مدى التأثير الديني الذي تركه هذا الكتاب بأساطيره وترهاته التي لا يمكن أن يصدقها العقل البشري والذي يذكرنا الغرب ـ دوماً ـ بموضوعيته وعقلانيته وبتعبير أدق، لقد قام اليهود عن طريق العهد القديم بعملية غسيل كبيرة لعقول العامة من الناس في الغرب، وللخاصة منهم على وجه التحديد، ومن هنا فإن انحياز الغرب للحركة الصهيونية العنصرية هو انحياز ديني محض تثبته الأدلة والبراهين.

الفكر الغَربي يُقدِّس القُوَّة ويُبارِكُ الإرهَابَ اليهودي

عندما تتحدث وسائل الإعلام العربية عن مأساة الطفل الفلسطيني محمد جمال الدرة وكيفية قتله على يد الجنود الإسرائيليين بدم بارد، إضافة إلى عشرات الشهداء الذين تناثرت دماؤهم الزكية على أرض الطهر والقداسات، هذه الوسائل تتحدث بلغة لا يفهمها الغرب ولا يدرك أبعادها إنسانية كانت أو وطنية وهذا الإدراك أو الفهم من عدمه يدخل في نطاق عدم معرفتنا بالغرب حضارياً وفكرياً كما ينبغي ويتوجب.

الغرب قامت حضارته على فكر مادي صرف وهو الفكر نفسه الذي قام عليه الفكر الديني اليهودي ومن ثم منطلقات الفكر الصهيوني العنصري وهو فكر يقدس القوة ويؤمن بالبطش والقهر في حق الآخر حتى يستجيب.

وأن الفرد الغربي ليسره حقاً وصدقاً مرأى الدماء المتناثرة ما لم تكن دماءً يهودية أو مسيحية ثم إن الغرب الذي أمد وما زال يمد الكيان الإسرائيلي بالسلاح الفتاك الذي تستخدمه إسرائيل في قتل العزل والأبرياء من أبناء الشعب الفلسطيني شيوخاً ونساءً وأطفالاً إنما يفعل ذلك من منطلقات عدة، وأول هذه المنطلقات هو الفكر الديني المشترك أو الإرث

اليهودي المسيحي الذي يؤمن بأسطورة أرض الميعاد، فمعظم الرؤساء الأمريكيين وأركان المؤسسات السياسية فيها وفي بريطانيا هم خريجو دوائر الفكر الحاخاماتي المؤسس على الانتقام من الآخر، وهذا الآخر هو «الإسلام» الذي يختلف بتعاليمه القائمة على احترام الآخر وتقديس النواحي الإنسانية والخلقية وحتى في تعامله مع أعدائه فإنه يتوخى العدل والإنصاف.

هذا الغرب نفسه هو الذي سبق له إنجليزياً في مصر وفلسطين، وفرنسا في الشام والجزائر والمغرب وإيطاليا في ليبيا وأسبانيا في سبته ومليلية أن أقام المشانق، وحرق الأرض بعد أن نهبها ويفتخر مؤرخوه بأن قوائم خيلهم غاصت في طوفان من دماء المسلمين فوق أرض فلسطين العربية والمسلمة.

لذا فإن ما يقوم به الجندي الإسرائيلي بآليات غربية متفوقة إزاء صبي يحتمي بوالده فإذا ما استغاث أحدهما:

كان الرد هو القتل البربري والمتوحش أما رد فعل «كلينتون» و«بلير» و«بوتين» إزاء حدث مأساوي من وجهة نظر إنسانية فهو ابتسامة صفراء تعبر عن حقيقة إعجاب الفكر الغربي على مستوى المؤسسات والأفراد بما ارتكبه «شامير» في فندق الملك «داود» قبل حوالي نصف قرن من الزمن في «القدس» وبما تلوثت به يد شريكه في الإرهاب العالمي «بيجين» في «دير ياسين» و«كفر قاسم» و«قبيه» ويد «رابين» في اللد، ويد «بيريز» في «قانا» ويد «باراك» في لبنان قتل مجموعة كمال عدوان ورفاقه ويد «نتانياهو» في مجزرة الحرم الإبراهيمي، ويد «شارون» في صبرا وشاتيلا، وهو إعجاب مستمر بما يفعله «باراك» بالتواطؤ مع «شارون» وبموافقة

أمريكية وبريطانية ضمنية دليلها السكوت والصمت أما عبارة ضبط النفس «التي تفوه بها مندوب بريطانيا في مجلس الأمن السفير «جيرومي غرينستاك» فهي موجهة إلى العرب والفلسطينيين بأن يصمتوا ويقبلوا بالإرهاب الإسرائيلي، مع أن «المجرم» الحقيقي في القضية الفلسطينية هو «بريطانيا» التي سلمت الأرض لعصابات «الأرغون» و«شيترن» الإرهابية، ورعت الإرهاب الصهيوني حتى وقف على قدميه ثم سلمته للبيت الأبيض ليواصل دعمه وليبقى «دواننغ» ستريت بدءاً من «أتلي» و«تشرشل» ومروراً «بأنتوني إيدن»، «وهارولد مكميلان»، و«هارولد ويلسون»، وانتهاء «بمارجريت تاتشر»، و«جون ميجور»، ثم أخيراً «توني بلير» ليبقى مركز القرار البريطاني السياسي في نفاقه ورؤيته المنحازة للفكر الصهيوني والتوراتي المتشدد الذي أدخل الإرهاب ليس لمنطقة الشرق الأوسط فقط ولكن للعالم أجمع، وأن هذا الإرهاب ليظهر بوضوح تحت من يعتمرون القبعة، ويتشحون بالسواد، ويضربون رؤوسهم في الصخر، ثم ينفثون حقدهم الدفين مغلفاً بماركة أمريكية وبريطانية فكيف بعد ذلك يهتز الضمير الغربي لمأساة «الدرة» وسواه هل فهمنا؟

اضْرِبُوهم في جُيُوبهم فإنَّهم سَوْفَ يَفيقُون!!

كتبتُ في الأسبوع المنصرم عن الفكر المادي الغربي وأنه لا يمكن لهذا الفكر أن يهتز إنسانياً أو يتعاطف أخلاقياً أو يشارك وجدانياً لما يجري على أرض فلسطين العربية والمسلمة التي حوّل الإسرائيليون ساحاتها وشوارعها بحيرات من دم الأطفال والشباب والنساء، ومع هذا فالولايات المتحدة ترفض أن تصوت مع أعضاء مجلس الأمن لإدانة هذه المجازر النازية والفاشية، وتلوح باستخدام (الفيتو) في حالة انعقاد مجلس الأمن للنظر في حالة الحرب غير المتكافئة التي شنها الجيش الإسرائيلي ضد جميع المرافق والبنى التحتية مع نهاية الأسبوع الماضي، وتخرج العجوز الشمطاء (أولبرايت) لتدين مصرع جندي إسرائيلي تسلل في زي مدني ليمارس الإرهاب ضد الشعب الفلسطيني الأعزل، أما الرئيس الأمريكي (بيل كلينتون) فلقد ساهم بطريق غير مباشر عن تهديده بنقل السفارة الأمريكية للقدس في حال عدم موافقة السلطة الفلسطينية على مقترحات باراك الجائرة للسلام.

نعم لقد ساهم (كلينتون) في سبيل إرضاء الفكر الصهيوني النازي في تفجير الموقف داخل الأراضي العربية المحتلة وهذه المساهمة هي التي شجّعت السّفاح اليهودي (اريل شارون) لدخول ساحة الأقصى مدعوماً

بالجيش الإسرائيلي. ولقد رفضت (أمريكا) ومعها بريطانيا لتضمين اسم (شارون) في القرارات الدولية على أنه المسؤول عن تفجير الوضع، لأنها تعلم أن (شارون) سوف يتحدث بوقاحة وصلف عن الدور الأمريكي المتواطىء مع الكيان العنصري الإسرائيلي في حال وافقت أمريكا وحليفها المراوغ (توني بلير) على التفوّه باسم جزار لا يقل دموية عن (ميلو سيفيتش) الذي عملت (أمريكا) على عزله ثم إقصائه عن السلطة، ولكن الفرق أن ذلك صربي وهذا يهودي ويحق ليهودي كهذا في نظر الغرب وأمريكا ـ خاصة ـ أن يقتل كما يشاء كما فعل في صبرا وشاتيلا! وأن يعربد كما يحلو له ما دام الضحية هو الإنسان العربي والمسلم.

والفكر المادي الغربي الذي تبدو قابليته لاعتناق المفاهيم التلمودية الأسطورية بصورة مدهشة وبعيداً عن عقلانية ينادي بها الغرب ويدعو في ازدواجية عجيبة لاحتذائها والتمسك بها هذا الفكر لا يمكنه أن يصيخ لنداء العقل، ولن تهزه قافلة (نعوش) الأطفال الفلسطينيين، ولن يفكر بمنطق سليم عند دعوته المحمومة له لإطلاق ثلاثة من الأسرى الإسرائيليين في جنوب لبنان، متناسياً أن هناك مئات الأسرى من العرب الذين تحتجزهم إسرائيل لمقاومتهم المشروعة ضد الاحتلال وهي تعذبهم على مدى عقود من الزمن بكل الأساليب الوحشية والتي ربما شعر الغرب بالزهو والافتخار لهذه القدرة الإسرائيلية البربرية على ممارسة هذا التعذيب في حق الأسرى العرب والمسلمين.

إن الغرب وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية لا يمكن أن يوقظها من سباتها الطويل هذا إلا أن تضرب في جيوبها (فالمادة) هي الشيء الأساسي إن لم يكن المعبود الحقيقي الذي تؤمن به وترتعد خوفاً من أن يناله

مكروه، ولقد ـ آن ـ للعرب والمسلمين أن يمارسوا مقاطعة اقتصادية كاملة على الشركات والمصالح الاقتصادية لكل من الولايات المتحدة وشريكتها في الإثم «بريطانيا وكل من يقف مع إسرائيل في بطشها وغدرها وبربريتها الفاشية، عندئذٍ سوف يتيقن العالم الإسلامي والعربي أنه من دون هذه المقاطعة لن تخرج أمريكا وحلفاؤها من عملية التخدير والتي غاب فيها وعيها الإنساني بفعل الفكر النازي الجديد.

عندما يكون الغربي أكثر صهيونية من اليهودي

كتب المدير سيريل تاونسند السياسي البريطاني المحافظ المعروف ومدير مجلس تحسين التفاهم العربي البريطاني المعروف باسم «كابو» في مقالة أخيرة له «الحياة» ١٥ يناير ٢٠٠١م الموافق ٢٠ شوال ١٤٢١هـ منتقداً الحكومة البريطانية بشأن موقفها المتخاذل من الأزمة الحالية في فلسطين وما يتعرض له الشعب الفلسطيني الأعزل من قتل وتدمير وحصار على يد القوة الإسرائيلية الجبانة. ومعلوم أن وزير الخارجية البريطاني الحالي روبن كوك هو شخصية معتدلة ولكن وزير الخارجية الحقيقي والذي يعمل في الظل هو اللورد اليهودي المعروف ليفي والذي يعتبر معلماً وأستاذاً لرئيس الوزراء البريطاني الحالي توني بلير وقد أعلن جورج جالاوي نائب رئيس لجنة الشؤون الخارجية في حزب العمال البريطاني، في مقال له بصحيفة الوطن ٢١ شوال ١٤٢١هـ بأن بيتر ماندلسون وزير شؤون إيرلندا السابق والذي يملك حظوظاً كبيرة في الفوز بحقيبة الخارجية في حال فوز حزب العمال بدورة انتخابية ثانية، بأنه رغم يهوديته فهو أقل حماسة للصهيونية من زعيم الحزب بلير ووزير الخزانة جوردون غراون، رغم أن الأخيرين ليسا من أصول يهودية أما ماندلسون فهو حفيد وزير الخارجية البريطانية السابق في حكومة كليمنت أتلي ١٩٤٥ ـ ١٩٥١م، والمعروف بيهوديته هربرت موريسون: Herbert Morrison والذي خلف

وزير الخارجية البريطاني أرنست بيفين Ernest Bevin وكان بيفين الصوت البريطاني الوحيد في مجلس العموم الذي لم تستطع الصهيونية أن تبتزه أو تخضعه لمصالحها كما فعلت مع كثير من الساسة البريطانيين منذ وعد بلفور المشهور الصادر سنة ١٩١٧م.

ولم يسمع أي صوت لـ «توني بلير» أثناء المذابح المروعة التي ارتكبتها حكومة الحاخامات المتطرفين في إسرائيل بحق الشعب الفلسطيني، ولكنه أسرع لاهثاً لحضور حفلة خاصة أقامها اللوبي الصهيوني في بريطانيا بمناسبة المحرقة أو الهولوكست، وكان يفترض في بلير أن ينتقد المحرقة الحقيقية التي يقوم بها الإسرائيليون ضد النساء والشيوخ والأطفال فوق أرض فلسطين العربية والمسلمة، وفي الوقت الذي تجد فيه أصواتاً يهودية معتدلة في بريطانيا تنتقد دموية إسرائيل، وعنصرية الحركة الصهيونية فإنك تفاجأ بذلك الولاء المزدوج والذي يعبر عن ضعف في الشخصية لبعض الساسة الإنجليز.

وتوني بلير الذي ينتمي لحزب يدعو لاحترام حقوق الشعوب في تقرير مصيرها هو رئيس الوزراء الذي يسلك ذلك الطريق الذي سار عليه من قبل هارولد ويلسون ومارجريت تاتشر وهو تأييد أسوأ الحركات العنصرية في تاريخ البشرية وأشدها نازية ونعني بها الصهيونية.

رسالة إلى الكاتب إدوارد ووكر

كتب أدوارد س. ووكر، رئيس معهد الشرق الأوسط في واشنطن رسالة إلى أصدقائه العرب على صفحات جريدة الحياة الدولية بعد حوادث ١١ سبتمبر التخريبية والتي دانها العرب إدانة صادقة في جميع أنحاء العالمين العربي والإسلامي من منطلق تعاليم دينهم الإسلامي الحنيف وموروثهم الحضاري والفكري الحقيقي الذي يحرم قتل النفس البريئة، ويحظر على أتباعه حتى في ميدان معركة الدفاع عن النفس قتل الشيوخ والأطفال والنساء والمتعبدين في صوامعهم ـ إشارة إلى أتباع الديانات الأخرى من مسيحيين ويهود ـ وبحكم أنه دين عمارة الأرض فهو يحرم إحراق الأرض وهدم المعابد، ويعرف الباحثون الغربيون أن الإسلام دخل الأندلس وجزيرة صقلية وغيرهما من البقاع دون أن يمس كنيساً أو يهدم كنيسة وموقف سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ الذي رفض الصلاة في كنيسة القيامة عند دخول المسلمين لأرض فلسطين ـ خوفاً ـ من مضايقة المسلمين لأخوانهم المسيحيين واختط مكاناً خاصاً للصلاة فيه سمي باسمه وهو شاهد حي على التسامح الكبير وغير المسبوق في تاريخ الحضارات العالمية، وبينما تهدم المساجد أو تقصف ـ اليوم ـ من قبل الآخرين وبينما يحرق المسجد الأقصى وتحفر الأنفاق تحته بقصد هدمه وبينما يدخل المتطرفون إلى الحرم الإبراهيمي في الخليل ويقتلون الناس

وهم يصلون لبارئهم، فإننا لم نسمع إدانة واحدة من الفاتيكان أو مجلس الكنائس العالمي فضلاً عن المؤسسات الغربية المسؤولة والتي لا تجد في الاعتداء اليهودي على حرمات المسلمين ما يمكن اعتباره بكل المقاييس سلوكاً بربرياً ووحشياً ويحظى السفاحون من أمثال (بيجن) و(شامير) و(شارون) بمنزلة رفيعة في الغرب الذي يدعي الحفاظ على حرية الإنسان ومعتقده، بينما يفعل العكس من ذلك كله.

(ووكر) حاول أن يخاطب العرب بأنهم أصدقاؤه وأزعم أن الكاتب لم يكن صادقاً مع نفسه فهو يعلم أن الغرب لا يعرف شيئاً اسمه الصداقة بل هو يقدس شيئاً اسمه المصلحة، وبمقدار ما يحقق مصالحه حتى وإن تعارضت تلك المصالح مع مصالح الآخرين يكون الآخرون أصدقاء له.

أخذ (ووكر) على العرب أن مظاهر للفرح بدت في بعض المدن العربية ـ وهو شيء عملت إسرائيل وعملاؤها في المؤسسات الإعلامية الغربية على تضخيمه ـ وإن كان بعض تلك الصور التي نشرتها القنوات الإسرائيلية في مناسبات سابقة على يوم الأحداث التخريبي.

ولكن (ووكر) لم يكن شجاعاً في مخاطبة اليهود بمقدار الشجاعة التي أبداها إزاء العرب والذين دعاهم بأصدقائه وإذا سلمنا بأن العرب أصدقاؤه فاليهود هم أشقاؤه في كل شيء وفعل الأخ والشقيق المتشمت هو أعظم وأشد نكاية (فووكر) يعلم أولئك اليهود الذين كانوا يلتقطون الصور للحادث المؤسف من فوق بعض أسطح المنازل وكان وجودهم في ذلك المرتفع قبل اشتعال الأبراج وسقوطها، وهو سؤال لم تلجأ المؤسسات الأمريكية إلى طرحه في سياق بحثها عن المجرم الحقيقي.

لقد كانت الثلة اليهودية ترقص في الشارع فرحاً بهذا الحادث

المأساوي الذي خرج أطفال فلسطين يبكون ضحاياه مع أن الغرب ـ جميعه ـ ولا أقول بعضه لم يبك جمال الدرة ولا إيمان حجو وغيرهما من عشرات الأطفال الفلسطينيين الذين كانوا يقتلون بأرقى أنواع الأسلحة الغربية الفتاكة والتي حصدت المئات من الفلسطينيين الذين يرزحون تحت الاحتلال الإسرائيلي العسكري منذ أكثر من نصف قرن من الزمن.

تساءل (ووكر) في رسالته الأولى (هل نبتهج نحن الأمريكيين في الشوارع عندما يقتل فلسطينيون أو غيرهم من العرب؟) ويجيب عن سؤاله هذا بالنفي، ومع أننا نستنكر فعل ذلك النفر المحدود من العرب الذي أبدى فرحة وابتهاجه إلا أن (ووكر) نسي أو تناسى مظاهر الفرح والتي عمت بعض المدن الأمريكية وخصوصاً واشنطن عند احتلال إسرائيل للضفة والجولان وسيناء في حرب ١٩٦٧م ولم يقتصر الأمر على أمريكا فلقد كتب حسين أحمد أمين في صحيفة الحياة بمناسبة مرور ٣٠ عاماً على حرب حزيران بأن الروس ـ آنذاك ـ وكان البعض يتوهم أنهم أصدقاء العرب وحلفاؤهم خرجوا في ميادين موسكو فرحاً بالهزيمة العربية.

أما في بريطانيا فإنني أحيل (ووكر) إلى مذكرات السياسي الإنجليزي المعروف وأحد أعمدة حزب العمال الحاكم في بريطانيا ـ أثناء حرب ١٩٦٧م وهو ريتشارد كروس مان والتي يذكر فيها أنه وكثيراً من أعضاء حكومته كانوا مغتبطين لذلك الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية، ويذكر في مدوناته الخاصة بـ ٥ يونيو ١٩٦٧م أنه عاد ـ أي كروس مان ـ من مجلس العموم لغرفته في دوانغ ستريت، ليجد السفير الإسرائيلي فكاد أن يطير من الفرح وأن السفير الإسرائيلي ظل يتردد عليه بين الحين والآخر،

وهو دليل على خيانة (كروس مان) لوطنه، فهل كان بإمكانه استقبال سفير عربي وافتخاره بتقديم الدعم له؟

ولقد أخبرني أستاذنا الدكتور حسن باجودة ـ وكان طالباً في جامعة لندن أثناء الحرب ـ أنه لم يصدق أنه كان في لندن فمظاهر الفرح والنشوة في الإعلام والشارع البريطاني أوحت إليه بأنه كان في مدينة إسرائيلية وليست مدينة إنجليزية ولقد كنت ـ شخصياً ـ في بريطانيا أثناء الاجتياح الإسرائيلي للبلد العربي (لبنان) و ارتكابه مجزرة صبرا وشاتيلا على يد السفاح ـ شارون ـ فلم أسمع من أصوات السياسيين من يدين ذلك العمل البربري والفاشي سوى وزير خارجية الظل العمال (دينيس هييلي) ولقد غضب بعض أعضاء البرلمان البريطاني والمؤسسات الأمريكية لمجرد دفاع (هييلي) وشجبه للفعل الإسرائيلي الشنيع والسلوك الأحمق وكانت تلك بداية النهاية لذلك السياسي العريق.

كيف تسود لغة الحب. . .

يتذكر الفتى انصراف القوم من (الخيمة) وكانت أصداء أصواتهم تتردد في نفسه، لقد سمع هذا الهتاف في زقاق (الطوال) وتغلغلت كلمات الحب في أعماق نفسه فكان يحس بها وهو يطوي الطريق بين (العنبرية) و(الحارة)، وكان الطريق يطول أحياناً ويقصر أحياناً أخرى، ولقد كان اليوم الذي ترك (داره) في الزاهدية، قاطعاً الطريق بين (الكاتبية) و(مسجد المصلى) ثم إلى الساحة التي كان أهل الجوار يقضون الليل فيها ساجدين وذاكرين.

كان ذلك اليوم من أكثر أيام عمره طولاً وأشدها ثقلاً وأقساها حيرة وتردداً، وعندما وصل إلى باب (جبريل) قصد (الدكة) حيث كان يقرأ القرآن، وتتلى آياته، وتعظم شعائره، فوجدها قد أحيطت بقضبان من حديد، وسأل نفسه لماذا فعلوا ذلك، لماذا حالوا بين الناس من الجالسين في رحابها دون الاقتراب منها، لماذا تركوا (القبة) يعشعش حولها الحمام وتبدو باهتة اللون؟ لماذا لا تلبس القبة حلتها السندسية؟، لماذا يحرص هذا البعض على تزيين مدخل (داره) ثم يمنعه عن مقام مثوى سيد الخلق وشفيع الناس، كيف ستظلهم رايته في اليوم الذي يشيب فيه الرضيع؟ كيف سيطلبون منه أن يسقيهم الماء الزلال من كفّ شريفة وأنامل طاهرة؟ كيف

سيجرؤون على النظر إلى وجهه الكريم والتحديق فيه؟ كيف سيعرفون صورته عندما تعرض عليهم في البرزخ؟ كيف يحفه طالب العلم وواعظه أو خطيب المنبر وداعيه ثم يطلب منه أن يمد يداً إليه في آخرته؟ بأي خطاب بأي قول، بأي لسان سوف يناجيه هناك وهو يرفع صوته قائلاً: لماذا أتيتم إلى هنا حجكم مبرور، وسعيكم مشكور، أما أن تتعلق القلوب منكم بذلك (المقام) فهذا أمر محظور! وتلك جاهلية! وهذا من البدع!

مصطفى بدوي وستانلي هايمن
والكشف عن أبعاد تجربة ت.س. إليوت

لقد أشرت إلى الجهد المبذول في ترجمة كتاب الأدب العربي الحديث والصادر عن جامعة (كيمبردج) البريطانية والذي قام بتحريره الباحث والأكاديمي المعروف محمد مصطفى بدوي ويلاحظ اهتمام الباحث (بدوي) بالمسرح وكان الفصل التاسع من الكتاب المذكور والذي كتبه المحرر نفسه يتطرق إلى المسرحية العربية ـ التطورات المبكرة ـ والأشكال التقليدية للفن المسرحي. وقام بترجمة هذا الفصل ابتسام صادق ـ وقد بدأ اهتمام (بدوي) بالمسرح وما يتصل به من إبداع شعري منذ الستينيات الميلادية عندما أصدر كتابه (دراسات في الشعر والمسرح) وبين يدي الطبعة الثانية من هذا المؤلف الهام والتي صدرت عن الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٧٩م ووقع في يدي هذا السفر الهام أثناء رحلتي العلمية الأولى إلى القاهرة عام ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م ويذكر بدوي في مقدمة كتابه هذا بأن المقالات التي ضمنها عمله الأدبي (تتعلق بمسائل حية تهم الشعر العربي حاضره ومستقبله كما أن لها دخلاً كبيراً في تذوقنا وتقويمنا للشعر القديم) ويضيف د. بدوي عند حديثه عن تأثر الشعر العربي الحديث بالشعر الأوروبي والفرق بين الأدبين العربي والغربي في وظيفة الفن وما يؤديه من دور...

يقول (بدوي) ولما كانت بعض المحاولات الحديثة التي تستهدف التجديد في الشعر العربي متأثرة إلى حد بعيد بالشعر الأوروبي وبالمفاهيم النقدية الأوروبية لذا كان لزاماً علينا أن نقف موقفاً نقدياً من أساسه إزاء الشعر العربي القديم من ناحية، فنستعرض بعض ملامحه وصفاته الأساسية كما كان لزاماً علينا أن نوسع من نظرتنا بحيث تشمل الشعر الأوروبي ـ أيضاً ـ فنقارن بين التراثين العربي والأوروبي لنرى ما يتميز به كل منهما وهكذا اتضحت لنا بعض الفروق الهامة ـ بينهما ـ في مفهوم الفن ووظيفته ولا سيما في إدراك العنصر الشكلي بأعمق مدلولاته (انظر الشعر والمسرح د. مصطفى بدوي المقدمة).

ونجد بدوي في بعض مقالات كتابه هذا يتعرض لتجربة الشاعر والناقد المعروف (ت.س. إليوت) ويخص قصيدته أغنية حب ج. الفريد بروفروك J. Alfred Prufroc وقصيدته الأخرى صورة سيدة بتحليل موضوعي وفني إلا أنه يرى أن هناك صعوبات عدة تتعلق بالقدرة على فهم شعر (إليوت) وإذا كان (بدوي) المتخصص في الأدبين العربي والإنجليزي عن جدارة يعترف بأن شعر (إليوت) ليس مادة سهلة بل فيه من الصعوبة والتعقيد الشيء الكثير فما بال بعض بني قومنا يرفعون أصواتهم في كبرياء وتعال أنهم قد هضموا إليوت قراءة وبحثاً ويزيد البعض أنه تجاوز فهم إليوت للشعر ووظيفته وأنه ـ الآن ـ سيد الموقف في كل شيء ـ وأن لا أحد سواه قرأ إدوارد سعيد وإيهاب حسن أما النقد الثقافي فهو سيده في كل مكان وزمان.

يختصر (بدوي) الصعوبات المتعلقة بتعقد التجربة الشعرية عند إليوت مشيراً إلى تعدد الألوان العاطفية التي تتألف منها (ففي القصيدة الواحدة تجد النقد والتهكم والسخرية والفكاهة والجزع والإحساس بالمأساة ـ معاً

ـ ومنها أيضاً اعتماده على التلميح والاقتباس والإشارة إلى التراث الأوروبي بأسره ماضيه وحاضره بل التراث الشرقي أحياناً (المصدر السابق ص ٧٦ ـ ٧٨) وإذا كان (بدوي) قد تنبه إلى تعقد التجربة الشعرية عند إليوت (T. S. Eliot) فإن ذلك راجع إلى صعوبات جمة تعرض لها الشاعر في حياته وتنقله الفكري والعاطفي من مدرسة إلى أخرى حتى انتهى به المطاف كما يذكر الناقد الدكتور جلال كمال الدين (غاذياً أخلاقياً مؤمناً بقيم معينة هي القيم الجماعية الدينية) (المسيحية الكاثوليكية) المتعلقة بروما أكثر من تعلقها بالكنيسة الأنكليكانية).

ويؤكد الناقد جورج ويليام سون Wiliam Son ازداد تأثر (إليوت) وخصوصاً في قصيدته (الأرض الخراب بالشاعر الإيطالي المعروف (دانتي) (Ante) كما أنه صدر أولى قصائده الهامة أغنية العاشق (بروفروك) (Prufroc) صدرها بأبيات باللغة الإيطالية من الكوميديا الإلهية لدانتي ويشير الباحث كمال الدين إلى أن إليوت لم يفعل ذلك لأنه يريد أن يعرف أنه يعرف اللغة الإيطالية أو أنه يحبها إنما لأن تلك الأبيات التي لا يهمه سوى مضمونها تخدم قصيده (انظر دراسات أدبية جلال كمال الدين المؤسسة العربية للدراسة والنشر ط ١ ١٩٨٥م ص ٧٦٣).

ويرى الباحث المعروف (لويس عوض) أنه لا يمكن فهم (إليوت) إلا بالرجوع إلى (الكوميديا الإلهية) لدانتي كما يشير إلى أثر الديانة المسيحية عليه وهذا البعد غائب عن منظري الحداثة العربية فبعضهم يتوهم أن (إليوت) في سعيه لتبوء مكانة رفيعة في الأدب الغربي الحديث قد تخلص من كل موروثه الديني والفكري والحضاري يقول (عوض) ملقياً كثيراً من الضوء على هذه الناحية الفكرية في حياة إليوت (وإليوت مؤسس هذه المدرسة الجديدة بكثير من الاستعانة بالتراث المسيحي ـ خاصة وأثر شاعر

المسيحية الأول (دانتي) فيه صريح لا يقبل الجدل بل إنه لا سبيل إلى فهم (إليوت) أصلاً إلا بدراسة ملحمة دانتي المشهورة (الكوميديا الإلهية).

انظر في الأدب الإنجليزي الحديث د. لويس عوض ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٨٧ ص ٢٨١ ـ ٢٩٣.

ويرى الناقد المعروف (ستانلي هايمن) Stanley Hyman أن الكتابة التي طبعت حياة (إليوت) وكثيراً من شعره مردها إلى تأثره بـ (ت.ا.هيوم) والذي قتل في الحرب العظمى عام ١٩١٧م وعمره أربعة وثلاثون عاماً ولم تنشر آثاره إلا في سنة ١٩٢٤م وذلك عندما نظر (هربرت ريد) مجموعة من الأوراق بعنوان (تأملات) وقد كان (هيوم) مترجماً عن (مرغسون وسورل) وكان كاثوليكياً، عقلانياً كلاسيكياً عسكرياً فاشياً قبل الأوان.

انظر: النقد الأدبي الحديث ومدارسه الحديثة ستانلي هايمن، دار الثقافة بيروت ج ١ ١٧٢ ـ ١٧٣.

ويرى د. (بدوي) أن قصيدة الأرض الخراب والتي كانت سبباً لشهرة (إليوت) موضوعها المجتمع الأوروبي الحديث الذي عم فيه الفساد وانعدم فيه الإيمان وغلبت عليه النزعة الآلية وساده اليأس ولا سيما بعد تجربة العالمية الأولى وهذه كلها مشكلات أوروبية في جوهرها فلا غرابة إذن إذا اهتم الأوروبيون بشعره كما أن دعوته إلى العودة إلى الدين لاقت صدى عند الكثير من الأوروبيين في فترة من تاريخ أوروبا تتميز بعدم الثقة بسلطان العقل والتبرم بالآلة والقيم المادية وبالحنين إلى الدين والحياة الروحية عامة لذلك يمكننا أن نقول إن (إليوت) كان يعبر في شعره عن الأزمة الروحية والنفسية والاجتماعية التي كان يعانيها الرجل الأوروبي الحديث.

قراءة حضارية وفكرية من خلال تقرير بيرل

بداية لا بد من القول إن تقرير (ريتشارد بيرل) والذي تم تقديمه إلى مجلس سياسة الدفاع الأمريكي والذي يتهم المملكة بأنها دولة تمول الإرهاب إن هذا التقرير هو جزء من الحملة التي تستهدف هذا البلد وعقيدته وتاريخه ووحدته الوطنية.

ويتبع هذا القول أو الحقيقة إن كثيراً من اليهود الأمريكيين ومنهم (بيـرل) هم من الشخصيات التي يمكن تصنيفهـا ضمن دائـرة ما يسمـى بـ (عقيدة الولاء المزدوج) حيث يحل الولاء للحركة الصهيونية وإسرائيل المحل الأول لدى معتنقيها ويكون الولاء للبلد الذي تعيش فيه هذه الشرذمة من الدرجة الثانية فإذا تعارضت مصالح إسرائيل مثلاً مع مصالح الولايات المتحدة الأمريكية يقدم هؤلاء المعنيون مصلحة إسرائيل على مصلحة البلد الذي يعيشون فيه أو عاش فيه أباؤهم وأجدادهم فالأمر سيان ويشاركهم هذا المعتقد بعض طوائف الفكر المسيحي البروتستانتي الأصولي إلا أنه هناك قضايا لا بد من مناقشتها بكل وضوح وصراحة فالدوائر الغربية السياسي منها والفكري والإعلامي تنتهج سياسة لا يوليها العرب شيئاً من اهتماماتهم وهذه السياسة تمثل في عملية تبادل الأدوار فالإعلامي الغربي مثلاً له حق مناقشة قضية معينة ثم طرحها على دوائر لصيقة بالمطبخ

السياسي إن صح التعبير وما على الدائرة السياسية سوى إعطاء الضوء الأخضر للنخبة الفكرية أو الإعلامية أو لمجموعة معينة في الكونجرس أو مجلس العموم حتى تطرح للنقاش علانية وبعد أن تخرج إلى حيز الوجود يمكن من ردة الفعل إزاءها جس نبض الطرف المعني بهذه التهمة أو ذاك القول وليس هناك من مانع بأن تصدر الدوائر السياسية بياناً موجزاً مفاده أن هذه الأفكار لا تمثل الحكومة أو وزارتها المعنية. وقد قدم الغرب للعالم العربي والإسلامي منذ أكثر من قرن من الزمن كثيراً من الوعود ولكنه تنصل منها وما معاهدة سايكس بيكو ووعد بلفور وبيان بوش القاضي بإنشاء دولة فلسطينية أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة ثم التنصل منه أو تحويره ديبلوماسياً لتصبح هذه الدولة مؤقتة ثم في مرحلة لاحقة نجد الأمر تحول ليصبح الحديث عن الدولة أمراً سابقاً لأوانه وكل هذا يتم والمسؤول يلعب (الجولف) أو يقضي عطلته الأسبوعية في المنتجع أو إجازة الكريسمس والأيستر ما هذا كله وسواه إلا دليل واضح على أن الغرب استمرأ هذا الأسلوب مع العرب مكتفياً بتطييب الآخر والعودة إلى أساليبه وهو جزء من التفكير الغربي إزاء الآخر وإذا كان العرب سرعان ما ينسون أو يصفحون فإن الغرب لا يؤمن بشيء اسمه التسامح أو الصفح وخصوصاً إذا كان الأمر ملتصقاً بمصالح الغرب وهنا نقف لنقول بأن الزعيم البريطاني المعروف (تشرشل) سبق أن قال ما معناه بأنه ليس هناك صداقات دائمة ولقد خضنا حروباً مع الاستعمار الأوروبي البغيض ومع الكيان العنصري الإسرائيلي ولكننا لم نحاول اكتشاف الغرب من الداخل كما فعل هو من زمن بعيد فأنشأ أقسام الدراسات العربية والإسلامية أو الشرق أوسطية في جامعات عريقة مثل أكسفورد، كيمبردج، لندن، مانشستر وهارفارد وأنديانا وأنشأ المعاهد الاستراتيجية المتخصصة في دراسة الفكر السياسي العربي

والاقتصادي والاجتماعي واكتفى الليبراليون منا بتمجيد ديمقراطية الغرب ونسوا أن الغرب لم ولن يسمح بأن يتعدى ذلك أسوار الكونجرس ومقاعد مجلس العموم أو يتجاوز عتبات البيت الأبيض ودواننغ ستريت وانخرط هؤلاء في علاقة رومانسية حالمة وكاذبة مع الغرب الواقعي واكتفى دعاة العودة إلى التراث وهو شيء محمود وفعل جيد اكتفوا بهذه الدائرة المغلقة ودعوا إلى قفل النوافذ والأبواب وما علموا أن الرياح عاتية والعواصف قوية وأن تحصين البيت من الداخل لا يمكن أن يأتي من سلاح نشهره في وجوه بعضنا البعض فهذا سني وذاك شيعي وهذا سلفي وذاك صوفي وما زلنا في العالم العربي والإسلامي ترتفع أصوات كريهة ترمي من لا يتفق معها بالكفر حيناً والشرك والنفاق حيناً آخر ويقول بعضهم جهلاً وانغلاقاً وتحجراً إن معركتي مع أخي المسلم المختلف في الرأي معي هي مقدمة على معركتي مع أعدائي الآخرين وإذا كان البعض قفز السلم بسرعة متناهية داعياً إلى الحوار مع الآخر عقيدة وفكراً فإنه ليس بصادق مع نفسه ما دام هو ليس على استعداد للحوار مع من يشاطره العقيدة ويعيش جاراً له وإذا كان تقرير (ريتشاردبير) كشف عن وجه قبيح لتلك الحملة التي يقودها أصحاب الولاء المزدوج لبلد الإيمان والسلم والمحبة فإنه من أوجب الواجبات علينا أن نتصدى لذلك فكرياً وإعلامياً ولا مانع من أن نلقي نظرة فاحصة على أنفسنا فيكون الولاء بعد الله لهذا الوطن ووحدته مقدماً على أهواء نفوسنا ونعراتها.

عندما نعيش على الوهم أو نقتات الكراهية

عندما تمر الأمة بفترات عصيبة وحساسة في تاريخها فإنه من الواجب على أبنائها ومواطنيها، مهما تباعدت وتباينت وجهات نظرهم ـ أن يقفوا صفاً واحداً وينبذوا خلافاتهم الفكرية وراء ظهورهم ـ ويشرعوا أبواب الحب والوئام ويغلقوا نوافذ الكراهية والتباغض والتشاحن.

وسوف نكون غير صادقين مع الواقع ومع أنفسنا إذا لم نعترف بأن أمتنا لم تمر في تاريخها الطويل والممتد بإذن الله، نعم: لم تمر بفترة أو حقبة حساسة كهذه التي تمرّ بها، فمنذ عام والإعلام الغربي والأمريكي ـ خاصة ـ ينفث أحقاده بأساليب خاصة تمرس فيها في تعامله مع الآخرين الذين لا يوافقونه الهوى ولا يشاطرونه التفكير، وحتى لا نضيع في متاهات دأبنا عليها تنظيراً وبحثاً من غير الالتفات إلى الواقع الذي يمكن أن ننطلق منه في معالجة واقعنا والنظر إلى ما يمكن أن نقدمه لهذا الوطن حباً ووئاماً وبعيداً عن أهواء أنفسنا التي كثيراً ما توقعنا للأسف في المكاره والمحظورات، لهذا فإنني وبتواضع سوف أطرح في هذه المقالة بعضاً من الرؤى الخاصة والتي أمل النظر إليها على أنها أفكار بشرية خاضعة للقبول أو الرفض ولكنها ـ في الوقت نفسه ـ هي أفكار مجردة ابتعدت فيها قدر المستطاع عما يمكن أن يدخل في دائرة الهوى النفسي والأثرة الذاتية،

وهو ما أفسد علينا ـ في كثير من الأحيان ـ وحدة كلمتنا، وجعلنا في ذلك الموقف المتشدد والمتشنج الذي لا نحسد عليه بين الآخرين.

بداية يفترض في صحافتنا وإعلامنا المقروء والمسموع أن تبتعد عن التعامل مع الغرب بروح عربية محضة، فالغرب بمؤسساته وأفراده لا يؤمن بالعواطف في تعامله مع الآخرين وخصوصاً أولئك الذين يختلفون عنه ـ في الأيديولوجية، ونحن لا يجارينا أحد في نثر عبارات الحب والهيام والعشق وإذا قال الغربي ـ في كثير من الأحيان ـ إنه يحب فهو يكتفي باستعمال كلمة: وينأى عن كلمة مُج فهو يخشاها ويرهبها وتصيبه ـ أي الغربي ـ قشعريرة عند سماعها، لأن هذه الأخيرة تفرض على الطرفين المتقابلين تضحيات كثيرة، والغربي لم يألف التضحية ولم يتعود على الارتباط الذي هو جزء من ثقافة الأمم الشرقية وأنه أبعد ما يمكن عن الانصياع لمفردات عقليتها فضلاً عن مفردات حياتها لهذه العواطف التي تسكبها بل تفيض في أتراع الكأس منها كلما لاحت لنا يد بيضاء أو أمعنا النظر في عيون زرقاوات ويأتي ـ بعد ذلك ـ موضوع هام وهو هل الغربي تخلص من عقيدته المسيحية في ظل ظروف الحياة المادية المعاصرة، والجواب عن ذلك بكلمات بسيطة وهي أن المسيحية متغلغلة في الكيان الغربي ولكنه يحاول حجبها بقشرة رقيقة أو طلاء خارجي وهذه القشرة أو الطلاء وهو العلمانية، وإنني أضرب أمثلة معينة لتدعيم وجهة النظر التي ذهبت إليها في هذا السياق فلقد عاش كارل ماركس جزءاً من حياته في المملكة المتحدة البريطانية وانتهت حياته فيها، والحزب الشيوعي في بريطانيا من أقدم الأحزاب الشيوعية في العالم الغربي، ولكن لم يستطع هذا الحزب على مدى عشرات السنين أن يصل إلى البرلمان ولو بنائب

واحد مع توافر النظام الديمقراطي الغربي الذي يختار فيه الفرد نائبه أو حزبه أو مرشحه، وظهرت دراسات عديدة في الغرب تثبت أن ماركس ـ نفسه ـ يقوم بأداء طقوسه الدينية في الخفاء، وأن المرء ليعجب كيف أن ماركس حتى مع طرحه النظرية الماركسية إلا أنه لم يستطع التخلي عن تدينه الفطري، أما الشيوعيون العرب فلقد قطعوا مرحلة طويلة إبان قيام الإمبراطورية السوفيتية في تاريخ الإلحاد ومحاولة تسويقه بكل السبل والوسائل وإذا كان الماركسيون العرب في الماضي ومعهم أحزاب اشتراكية ويسارية عديدة في عالمنا العربي سارت خلف الاتحاد السوفيتي ـ إن لم تكن تعدته بمراحل عديدة في خذلان القضية الفلسطينية فإن كثيراً من الأحزاب الشيوعية في العالم الغربي آنذاك ـ لم تتخل عن دعمها للقضية الفلسطينية وكان الحزب الشيوعي البريطاني من أوائل الأحزاب التي انتقدت الغزو السوفيتي في أفغانستان، وكانت الأحزاب الاشتراكية واليسارية والعلمانية في العالم العربي ترى في الفصل السوفيتي خطوة حضارية رائعة في مسيرة نشر الفكر الأممي بحسب مصطلحاتها والتي بادت في كل مكان والتي يروج لها مفكرون عرب من أمثال القصيمي والعروي والذين ينكرون التأثير الطبيعي في الحضارة الغربية المعاصرة فإن عليهم الرجوع إلى ما فعله البابا في إخراج بلده ـ بولندا من الدائرة الشيوعية وكانت الخطوة الهامة في عودة الكنائس المسيحية في الغرب لأداء دورها الديني في الحياة الغربية وكانت ضربة قوية للفكر الشيوعي وسقوطه وانهياره المفاجىء إننا ندين بالإسلام عقيدة وشرعاً ومنهجاً وسلوكاً وهو قدرنا الذي خصنا الله به لحمل رسالته الوسطية والمعتدلة وإننا نرى شخصيات دينية ذات مسؤوليات هامة تطوف العالم وتدعو في حرارة لمفهوم الحوار مع الآخر، ولكنها هل

سألت ـ نفسها ـ ماذا عن أخيك في الوطن ونظيرك في المواطنة، وقبل هذا وكله ماذا عن أخ لك يدين بالتوحيد فطرة ولم يعرف آباؤه وأجداده غير هذه العقيدة الصافية مرجعاً في حياته. ثم أنت تشيح بوجهك عنه أو لا تقرئه السلام وتتهمه بالخلط في عقيدته، والضعف فيها إن الوقت قد حان لنلتقي على كلمة سواء ونبتعد عن رمي بعضنا بعضاً بالبدعة والشرك والتفسق بينما يقف العدو يتربص ـ بنا ـ ويضحك خفية وعلانية على هذا الدرك الذي بلغناه من تفكك الكلمة وتفرق الصف ومحاولة الكيد لبعضنا في سذاجة متناهية.

الجهل بالآخر. . . وقصور خطابنا الإعلامي

إذا كانت هناك إيجابيات لأحداث ١١ سبتمبر، فإن من بينها أنها كشفت عن سوءات عديدة في الخطاب العربي بأشكاله ومستوياته المختلفة، فخطابنا الديني يعتمد على المباشرة ويركز على الأمور الشكلية ولا يتعمق روح الدين الإسلامي وجوهر تعاليمه الأخلاقية والإنسانية إضافة إلى ما يتسم به هذا الخطاب في بعض نواحيه من تشدد تسبب في كثير من الأحيان بارتماء الشباب الإسلامي في أحضان العلمانية الغربية والتي هي أحوج ما تكون إلى خطاب ديني راشد، وذلك للانحلال الخلقي والتفكك الاجتماعي والأسري الذي يشهده الغرب، أما خطابنا الإعلامي والناتج من قصورنا الحضاري والفكري فهو الآخر يغرق في الإنشائية والخطابية وما من أحد شاهد مثلاً المحطات الإعلامية الغربية إلا ورأى تلك التقنية الإعلامية العالية والتي يعتمدها الخطاب الإعلامي في بثه وخصوصاً نشرات الأخبار والتي يتعرف منها الفرد الغربي على أحوال العالم ومشاكله، وتشكل بهذا الزخم رافداً مهماً في بلورة أفكار ذلك الإنسان إزاء الأحداث العالمية، بما يتفق مع منظور الحضارة الغربية المادية.

وبالمقارنة فإن الطريقة التي يعتمدها المذيع العربي وخصوصاً تلفزيونياً هي أشبه ما تكون بخطبة، فهو لا يعرف متى يرفع صوته ومتى يخفضه! أو

كيف يبتدىء العبارة وينهيها! وفي أي لحظة يرفع رأسه حتى يدفع بمفردات كلامه إلى عقل وقلب المشاهد، وقد ناقشت بعض الأخوة المذيعين في ذلك، فذكر بعضهم أن صياغة الخبر نفسه لا تعطي المذيع الفرصة حتى يجيد في إلقائه أو يجعله مؤثراً، والبعض اشتكى من فقدان القدوة والمثل الصالح للارتقاء بمستواه الفني إن صح التعبير.

وإضافة إلى الإنشائية والخطابية التي غرق فيها إعلامنا ولم يستطع انتشال نفسه منها وبالتالي يكون إعلاماً قوياً ومؤثراً ويستطيع حمل مضمون هذا الخطاب إلى الداخل فضلاً عن حمله إلى خارج الحدود فيساعد على توضيح الصورة الحقيقية للأمة والمجتمع، من هذه الأخطاء فقدان المصداقية إلى حد كبير عند من يتصدون لمهمة إعلامية أو صحافية معينة.

ومن المشاكل التي يجب أن يتلافاها الخطاب المضاد للحملة الأمريكية التي تستهدف بلدنا وقيمه وتعاليمه،هي عدم اعتماده على مصادر متقدمة للآخر في جميع المناحي التي تخص هذا الآخر ومؤسساته السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولا ننسى أن الغرب أقام مراكز للدراسات العربية والإسلامية أو الشرق أوسطية، إضافة إلى دفعه وتشجيعه للعديد من الرحّالة المتخصصين ويبرز فجأة هنا اسم الرحالة والعالم الجيولوجي والأديب البريطاني ريتشارد والذي زار الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر الميلادي وأخرج كتابه المعروف (الحج إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة) وتخصص المتحف البريطاني، ومركز الدراسات الهندية، وجامعة شيستر بيتي بإيرلندا، ومكتبة جون ريلاندز في مانشستر في العناية بالتراث العربي والإسلامي، وقام والد المستشرق المعروف ـ جب ـ بتخصيص جزء من الجائزة العلمية التي حملت اسمه وهي (أمانة ذكرى جب) نعم. . . هناك

جزء من هذه الجائزة البريطانية مخصصة لنشر التراث العربي والإسلامي، مع علمنا أن بريطانيا قد استعانت بكثير من الرحالة والمستشرقين إبان الحقبة الاستعمارية البغيضة، ولكن ألا يعتبر ذلك استشرافاً وذكاء منهم ذلك التخصص الواسع في كثير من مناحي حضارتنا وفكرنا وثقافتنا. وفي المقابل فإن جهلنا المطبق بالغرب على رغم احتكاكنا به منذ الحملة الفرنسية الصليبية بقيادة نابليون على مصر، مما نجد له شواهد عديدة في تاريخ الجبرتي المعروف وكان هذا الجهل وراء كثير من العثرات التي وقعنا فيها منذ حرب ١٩٤٨م في فلسطين، ثم نكبة أكتوبر ١٩٧٣م ثم استخدام الغرب وأمريكا خاصة لعاطفتنا الدينية الحميدة والإيجابية إزاء الغزو السوفيتي الغاشم لأفغانستان ـ ليس حباً فينا ـ بمقدار ما هو عداء للعدو الآخر: لنا أي ـ الروس ـ ومحاولة ضربه أو القضاء عليه من خلالنا، إن عدم وجود مراكز ومؤسسات علمية ومتخصصة تعنى عناية خاصة بالفكر الغربي وتهيّيء لنا متخصصين في الجوانب العديدة للحضارة الغربية هو الذي جعلنا يوماً نؤمن بأن السوفيت هم أصدقاء لنا وسوف يخرجوننا من ورطة ١٩٦٧م ثم كان اعتمادنا المطلق على القطب الأمريكي الذي يرتبط بوشائج دينية وعرقية وتاريخية مع المملكة المتحدة البريطانية وأصبحنا نطلق النعوت العاطفية عليه والتي لا يؤمن بها الغرب مطلقاً بل أقول للأسف الشديد إنه يستخف بهذه النعوت ويمقت الذين ينزلقون إليه بها، فليس هناك في الغرب ما يسمى بصداقة بل هي مصلحة أو منفعة زائلة ووقتية... لا بد من الإشارة إلى أن الإعلام العربي لا يعتمد على قراءة الحدث في كثير من الأحيان أو تحليله من خلال مشاهدته عن كثب، أما الإعلام الغربي فإنه يهيّيء كفاءاته للدخول إلى صلب الميدان وقلب المعركة، وكم أحيي تلك الإعلامية العربية التي شذت عن السياق ونقلت

الحصار الإسرائيلي لمدينة بيت لحم دقيقة بدقيقة رغم جميع أنواع المضايقات التي قام بها جيش الاحتلال الإسرائيلي، هل عرفتموها، إنها الفتاة العربية القديرة (جيفارا البديري)!!.

سيرة إنسان. . . وبلد الإيمان
د. أحمد عيسى فلاتة

هكذا وبدون مقدمات وبصحبة الأستاذين محمد صادق دياب وعبد الرحمن مغربي يلتفت إلى ابن المدينة الطيبة الأستاذ عبادي عبده فلاتة ـ أبوه من المفاليح ـ وكان صديقاً في الحارة للمعلم طيفور، نعمك يلتفت الأخ الكريم ليسألني هل تعرف (كشلة)؟ وهو لقب الحارة للزميل الدكتور أحمد عيسى عمر فلاتة، وأجيبه (بنعم)، ليخبرني بعدها أن (كشلة) مرض مرضاً عابراً ليموت ـ بعد ذلك ـ بعيداً عن الأرض التي أحب ونائياً عن أحباب عرفوه في حصوة المسجد، وبرحة الحارة، ومقهى المعلم (بكر) ومدرج طيبة الثانوية.

وعادت بي الذاكرة إلى أكثر من ثلاثة عقود من الزمن عندما كان ذلك الشاب الأسمر، الدائم الابتسامة ينكب على قراءة كتب الدراسة وغيرها في جد لا يدانيه فيه أحد، وأعطى الحرف نور عينيه، فأعطاه هذا أو غيره البروز الذي عرف به بين مجايليه، فلا يذكر أنداده الصرح العريق لطيبة الثانوية إلا وكان صديقنا (أحمد) أحد المعالم البارزة له في أواخر الثمانينات الهجرية ولعل الزملاء الكرام بدر حجار وأحمد عيسى ووليد أبو الفرج، ومحمد علي إبراهيم، ويوسف ميمني، وصالح كريم، وعلي

الأخضر يتذكرون أكثر مما أتذكر، وإن كان الصديقان الكريمان (الحجار) و(الميمني) ينكران أن أكون قد درست معهما في كتاب الشيخ محمد علي الحلبي ـ رحمه الله ـ والذي كان ملحقاً بمسجد سيدنا ملك بن سنان ـ والد الصحابي المعروف أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنهما ـ ويعد الصحابي (مالك) أحد شهداء أحد، حيث توفي في داره ـ على أثر جروح ـ نالت من جسده الطاهر في تلك الموقعة التي كان فيها سيد الشهداء ـ حمزة بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ مثل الجمل الأورق، وتمر السنون ويبقى أبو عمارة بطلاً شارك في صنع ملحمة تاريخ وحضارة الإسلام.

صديقي (أحمد) الذي ولد في مكة، وجاور في المدينة مع والده الذي كان واحداً من طلاب العلم في المسجد النبوي الشريف، وما زلت أتذكر تنقل والده بين الحرم وباب (التمار) في أدب وخشوع عرفت بها تلك الجموع النازحة من قبائل الفلان وغيرهم من الأخوة المجاورين، وفلان هم من أبناء عقبة بن نافع الفهري، وقد غلب عليهم اسم (فلانة) وللشيخ المجاهد محمد بن أحمد الشهير بألفا هاشم الفواتي رسالة تاريخية هامة في هذا الباب وهي كتاب (تعريف العشائر والخلان بشعوب وقبائل الفلان).

ولم ينل أحد من العلماء المجاورين بالمدينة المنورة من السمعة الطيبة والعلم الواسع مثل ما ناله الشيخ ألفا هاشم ـ رحمه الله ـ وقد أشاد به وأثنى على علمه الواسع الأستاذ الراوية محمد حسين زيدان ـ رحمه الله ـ في كتابه الهام (العصور الثلاثة)، وأذكر أنني مع الزميل الدكتور راكان حبيب أشرفنا على محاضرة للأستاذ الزيدان في مدرج جامعة الملك عبد العزيز وتحدث فيها عن دور حلقات العلم في المسجد النبوي الشريف،

فخص الشيخين ألفا هاشم ومحمد علي التركي ـ رحمهما الله ـ بكثير من الإشادة والتقدير وكان (الزيدان) لا يفعل ذلك إلا مع القلة من العلماء الذين أدركهم في المسجدين الشريفين، كما كان كثير الإعجاب بالعالم اللغوي الشهير فضيلة شيخنا السيد محمد أمين الكتبي ـ رحمه الله وأسكنه فسيح جناته ـ وأعود لصديقي ـ أحمد ـ والذي كان يصفه أستاذ اللغة الإنجليزية القدير بطيبة الثانوية في التسعينات الهجرية والذين يدعونه (اغتاب) يصفه بأفلاطون، فلقد كان زميلنا يلبس لباساً متواضعاً، وإذا مررت عليه في الحصوة، وهو يساعد زملاءه على الشيء مما يحتاجونه من التحصيل العلمي وجدته وقد أمسك بمرسام من الخشب، وإذا أنكب في الدراسة ووضعه تحت أذنه اليمنى وكأنه صاحب صنعة، ولقد كان ماهراً في أشياء كثيرة يأتي تحصيل العلم في أولها، إلا أنه لعب (الكرة) فأجاد فيها، ومن هنا جاءه لقب (كشلة) والذي يعني أصلاً في اللغة الفلانية كما أخبرني الأخ عبادي من يملك ألف رأس من الغنم أو البقر وربما اكتسب بعد ذلك معنى مجازياً وهي صفة البطولة، وتعلم (أحمد) مثل بقية أبناء حارته فن القشاع، وهو أقرب ما يكون إلى فن (الكاراتيه) الذي يدافع فيه الإنسان عن نفسه واستطاع أن يتقن هذا الفن ببراعة، وإن كنت لا أعرف في شباب الأمس من أتقن طرق وأساليب هذه اللعبة البطولية مثل الإنسان النبيل والمهذب (صديق باناجة) ولكن القصور وفقدان الحظوة جعلا من صديق غير ما يستحق.

صديقي (كشلة) أترى بأن (عيال) الرباط قد فرقتهم صروف الدهر، وأن نخيل (الصيران) قد تساقط جناه وذبل نسغه، وأن البئر قد جف ماؤه ونضب، وخبز القمح والشعير لم تعد اليد تخبزه ولا الجمر ينضج جوانبه.

وتسألني (يا صديقي) عن حلقة اللعب حيث كنت في شبابك تسري، فأجيبك من وراء حجاب كثيف، والدمع من العين ينسكب بأن الناس ضلوا الطريق إليها في زحمة هذه الحياة وضجيجها.

رحمك الله (يا أحمد) وبلل مثواك بفيض من عفوه ورحمته ورضوانه كلما هبت ريح، وهطل غيث، وارتفع من جوار القبة الخضراء نداء للإيمان يهتف، وصوت للحق يدعو، وحمام في حمى المقام يشدو ويحدو.

آخر الكلام:

من أروع ما قيل شعراً في فن الرثاء قصيدة الشاعر الكبير أحمد قنديل، يرثي بها صديق عمره ذلكم المبدع الكبير ـ أيضاً ـ حمزة شحاتة ـ رحمهما الله ـ ورحم كذلك الصديق الذي رثيته في السطور السابقة.

أخي... يا رفيق الدرب، والعمر والمنى ... ودنيا فنون الشعر والفكر والحب
أتسمعني... طبعاً... فأنت بجانبي ... حياة بها عشنا الحياة على الدرب
غريبين في الدنيا... تباعد أهلها ... تباعاً... ولما ينأ جنبك عن جنبي
نطوف بأكوان العوالم حسرة ... ونأوي لركن ساحر الشد والجذب
نقضي سواد الليل للصبح يجتلي ... أمانينا موصولة البعد والقرب
على الرمل... كم نصغي لسقراط والأولى ... أقاموا صروح الفكر.. بالشرق.. بالغرب
على الصخر... كم نبني من الشعر جنة ... نفتت بعض الصخر بالألسن الذرب
على البحر كم نمشي مع الموج ساكناً ... وفي الصدر موج هادر النبض والوثب
نريد لأهلينا الحياة طليقة ... فيسخر أهلونا... ونأسف للجدب

* * *

أخي. . . يا رفيق الدرب والعمر والمنى ودنيا فنون الشعر والفكر والحب
هناك ملقانا لدى السفح قمة بها الروح لانت في حمى البيت والرب
هناك ملقانا الجديد متى انتهى مع العمر مشوار الحياة على الدرب

تيار الحداثة بين نقد عبد الله عبد الجبار وتنظير فايز أبا (٣)

شهدت فترة التسعينيات الهجرية السبعينيات الميلادية انتشاراً كبيراً لفكر بعض التيارات الدينية القادمة من بعض ديار العروبة والإسلام، ووصل هذا المد إلى بلادنا المعروفة أصلاً بتدينها القطري والطبيعي، ووجد بيئة ملائمة له، ولا نستطيع أن نوجه اللوم لشباب الأمس وكهول اليوم الذين تلقفوا الإنتاج الفكري لمنظري تلك التيارات والتي ترسخت مفاهيمها في وجدانهم، فمع وجود مرجعية دينية معتبرة في بلادنا، إلا أن حماس الشباب آنذاك قادهم إلى الانهيار بما في كتب عبد القادر عودة وسيد قطب ومصطفى السباعي ومحمد الغزالي وسعيد رمضان وأبو الأعلى المودودي وأبو الحسن النبوي، ومحمد محمد حسين ود. محمد سعيد رمضان البوطي ويعود ذلك الانهيار إلى قدرة أولئك المفكرين وكأن بعضهم على قدر كبير من المعرفة الدقيقة بأحكام الشريعة الإسلامية قدرتهم على تقديم فكره في صورة منهجية، أفادوها من بيئاتهم العلمية التي تعتبر أكثر انفتاحاً بل وتعددية وكان المشتغلون بالتنظير للفكر الإسلامي في بلادنا ـ آنذاك ـ لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة، وكان في المقدمة منهم الأستاذان أحمد جمال، وأحمد عبد الغفور عطار ـ رحمهما الله ـ وكان الأستاذ

جمال ـ وهو أستاذ للأجيال في جامعتي أم القرى والملك عبد العزيز ـ قد جمع في شخصيته بين الثقافة الإسلامية الأصلية والتي تلقاها في الحرم المكي الشريف والانفتاح على ثقافة العصر بأشكالها كافة ومكن له أسلوبه الصحافي الممتع من الانتشار داخلياً وخارجياً.

أما الأستاذ العطار والذي يعده الدكتور حسن الهويمل عقاد الجزيرة العربية فلقد كان اشتغاله باللغة وقضاياها أكثر من انشغاله بالفكر الإسلامي، إلا أن تنوع ثقافته وشموليتها مكنته من مقارعة رموز بعض الفكر الإسلامي المتشدد. مثل الشيخ ناصر الدين الألباني رحمه الله كما قادته علاقته الخاصة مع الأستاذ العقاد لنقد جوانب من فكر الأستاذ مصطفى صادق الرافعي وخصوصاً في رسائله التي جمعها الأستاذ أبو رية ونشرها وكان الأستاذان العطار رحمه الله ومحمد حسن كتبي أمد الله في عمره قد اشتغلا اقتداء بالعقاد بالرد على أفكار كارل ماركس، وإنجلز والتي انتشرت في بعض البيئات العربية وكان انتشارها متزامناً مع المد السوفيتي السياسي في المنطقة العربية، ومع أن حرب ١٩٦٧م والتي خسر العرب فيها كل شيء بسبب نصائح السوفيت الكاذبة، كان يمكن أن تؤدي إلى قطيعة مع الفكر السوفيتي، إلا أن هذا لم يحدث وانتشر فكر جلال الدين العظم، وعبد الله القصيمي وعبد الله العروي وحسين مروة ولم يكن اشتغال بعض هؤلاء بالجوانب الاجتماعية والاقتصادية في هذا الفكر كما فعلت بعض الأحزاب العمالية في الغرب مثلاً بل تركيزهم انصب وللأسف الشديد على الناحية الأيديولوجية البحتة في الفكر الماركسي وبمعنى آخر هو محاولة تسويق الإلحاد بقشرة فكرية رقيقة ومكشوفة ولقد كانت المسلمات الدينية قادرة من دون جهد خارجي على تحجيم هذا الفكر الإلحادي الذي لم ينظر إلى طبيعة المجتمعات العربية وتجذر الفكر الديني فيها.

ومع بداية الثمانينيات الميلادية ١٤٠٠هـ خرج التنظير للفكر الإسلامي من السر إلى العلن ومن الدائرة الصغيرة إلى الدائرة الأكبر، ولنكن أكثر صراحة فلقد كان لغياب المرجعية الفكرية المعتدلة أثر في تخبط بعض من استقوا تجربتهم والتي امتزج فيها السياسي بالفكري من بعض منظري تلك التيارات الفكرية والقادمة من بعض البيئات والتي تختلف في سياقاتها عن بيئتنا والمعروفة بتدينها الطبيعي والتي تركز على تربية الفرد المسلم بعيدة عن الزج به في أتون السياسة وصراعاتها.

وحتى يفهم كلامي على حقيقته، فلقد أدى ذلك التخبط إلى بروز الفئة التي لم تجد وللأسف الشديد مكاناً لإفراغ شحنة تعصبها وتشددها إلا في بيت الله الحرام، وأدى عدم معرفتها بالأصول والفقه المستنير إلى استباحة بيت الله، ولكن علماء الأمة وفي مقدمتهم فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله وفضيلة الشيخ محمد بن عثيمين وفضيلة السيد محمد علوي المالكي أمسكوا بزمام الأمر وبينوا خروج هذه الفئة على الدين وأحكامه والشريعة ومقاصدها ووأدوا الفتنة بمؤازرة من المرجعية الدينية المعتمدة، وأدى هذا بدوره إلى مراجعة في الخطر الذي تمثله التيارات التي يختلط فيها الديني بالسياسي. . . في هذه الأجواء، خرج التيار الحداثي هو الآخر إلى العلن والذي كانت بداياته منذ أواخر التسعينيات الهجرية السبعينيات الميلادية، فليس هناك تيار فكري أو أدبي ينشأ بين عشية وضحاها بل هو يحتاج إلى وقت يطول أو يقصر حتى يتمكن من قيام بنيان له داخل المجتمع، ومع أنه كان المنتظر من هذا التيار الخروج من الدوغمائية التي عانت منها الساحة إلا أن تركيزه على الناحية الأيديولوجية قد أضر به كثيراً، وكان التنظير الذي اشتغل به

البعض، بعيداً عن الإبداع وأحواله وبينما كانت نماذج من هذا الإبداع الجديد قوية، كان البعض الآخر منه بادي الضعف والهشاشة، ولكن منظري الحداثة كانوا من الانغلاق بحيث اعتبروا أي مساس بجزئية من جزئيات هذا الإبداع هو مساساً بالمقدس.

وأدى الانحياز إلى ما يمكن تسميته بالحرفية في بيان الحداثة، إلى انشطار التيار على نفسه، فلقد كان هناك جناح تقوده فئة الشكلانيين والداعية إلى صرامة وشدة في تطبيق المنهج الحداثي، وكان السؤال الذي تطرحه هذه الفئة الحرفية على المريد، هل أنت واحد منا أم لا، فلتكون بداية من القوم يجب ألا تخرج على المقامات التي رسمها المنظرون للمريدين ولو قيد أنملة، أما الفئة الثانية فلقد كانت واقعية إلى درجة كبيرة وشملت هذه الفئة فائز أبا وهو منظر فكري رئيس ومحمد العلي وهو مبدع متمكن، وفئة أخرى مبدعة شعراً أو نثراً من أمثال محمد الثبيتي، عبد الله الصيخان، علي الدميني، عبد الله باهيثم، وهذا الأخير انتقد في أواخر حياته الحرفيين في تيار الحداثة والذين كانوا يطفئون الأنوار، ويوصدون أبواب النشر أمام من يخالفهم حتى ولو في القليل وكان رأي الواقعيين أن هناك من المبدعين من يتفق مع بعض طروحات هذا المذهب التجديدي، ويختلف مع جزئيات أخرى فلا داعي للهجمة عليه أو نفي سمة الإبداع عنه، ولربما كان من أسباب هذا الانشطار في تيار كان يطمح الكثيرون من خلاله في تأسيس منظومة معرفية وقيمية هو رغبة المنظرين في أن يكون صوتهم الأقوى والأعلى، ولهذا سارع المبدعون في حماية أنفسهم من هذه الحرفية الجديدة في تيار كان يفترض فيه الاستفادة من تجارب التيارات الأخرى التي سبقته في الساحة الثقافية والفكرية والتي جنت عليها هي

الأخرى الحرفية جناية كبيرة، فتلاشت محاسنها المتعددة بسبب ضيق الأفق، وتقلص مساحة الإفساح للرأي الآخر والمغاير، ولقد تناسى الجميع في غمرة هذه السطوة الفكرية أن من أسباب ازدهار الحضارة الإسلامية في العصور السابقة هو وجود تلك المساحة الكبيرة الخاصة بحرية الرأي وتعددية الفكر وقدرة التيارات المختلفة على التعايش فالأمة جميعاً تتفق في الأصول ولكنها تختلف في الفروع ولا ضير في ذلك.

أبو تراب وشيء من تراث عالم وأديب

عرفت ـ مثل بقية الجيل الذي انتمي إليه ـ أبا تراب الظاهري، منذ منتصف الثمانينيات الهجرية، وكانت هذه الصحيفة الغراء التي أنتمي إليها قارئاً وكاتباً لمدة تزيد ـ ولله الحمد ـ على أربعين عاماً، كانت (المدينة) الصحيفة مجالاً لسجال ترتفع حدته وتخف بين الشيخ وصديقه أبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري وكانت مؤلفات إمام المذهب الظاهري ابن داود، وتلميذه ابن حزم محوراً لهذا السجال، وخصوصاً كتاب (الإيصال) الذي يقول أبو عبد الرحمن بضياعه ويزعم أبو تراب أن مخطوطة منه تقبع في مكتبة الشيخ الذي كان والده محدثاً في الحرم المكي الشريف وهو الشيخ عبد الحق الهاشمي ويروي أبو عبد الرحمن ـ الذي عرفت منه أنه قابل المحدث ـ عبد الحق ـ في أواخر الثمانينيات الميلادية، يروي ابن عقيل بعض الأحاديث النبوية عنه وخصوصاً في كتابه (الحباء من العيبة) عن شيخه عبد الحق والد أبي تراب. . . وكانت المعركة بين الشيخ أبي تراب ومعاصره العلامة اللغوي أحمد عبد الغفور العطار من أكثر المعارك العلمية ثراء في العلم، وقوة في الحجة والبرهان، وكانت الضحية في ذلك مدرسة الداودية بباب الباسطية في سويقة الشامية والتي كانت موئلاً ـ بخلواتها العلمية ـ لعدد من رجال العلم والفضل مثل فضيلة شيخنا السيد محمد أمين الكتبي، والفقيه الأديب (ضياء الدين رجب) والشاعر الفذ

السيد علي بن حسين عامر ـ رحمهم الله جميعاً.

ولولا خشية الإطالة لبسطت القول عن منتدى الداودية فقليل منه عرفته شخصياً، وكثير منه عرفته عن رجل الفضل الوالد الشيخ عبد الله محمد بصنوي وصديقه الأديب عربي سقاط.

... أبو تراب والذي ربما نحتاج لوقت طويل ـ قبل أن يبرز منا نحن جيل الأكاديميين أو من غيرنا ـ من يسد الفراغ الذي تركه هو ونديده (العطار) شغلت صحافتنا الأدبية ـ أخيراً ـ بموضوع إرثه الكبير ـ وهو مكتبته التي تحتوي على كنوز التراث العربي والإسلامي، المخطوط منه والمطبوع وكأن هذه الصحافة تندب حظ العالم أو المفكر والأديب بين بني قومه، والأمر بسيط فهو لا يخرج عن مقولة الراوية الأستاذ محمد حسين زيدان ـ رحمه الله ـ المجتمع دفّان، أو كما يقول المثل العربي الشهير (زامر الحي لا يطرب)، فلقد عرفت في المدينة مكتبة الشيخ مظهر الفاروقي والتي تسببت هدميات حارة الأغوات في الانتقال بها من مكان لآخر ـ مع احتوائها ـ على مخطوطات هامة في الطب والعلوم والفلك وغير ذلك.

ولا أعلم ما الذي جرى لمكتبة آل الزللي بالمدينة ومكتبة الشيخ الفاضل جعفر ابن إبراهيم فقيه ـ رحمه الله ـ وامتدت يد الآسي السيد هاني بن إبراهيم هاشم لمكتبة أجداده من أهل العلم والفضل، وأعطاها من جهده الكبير ما جعل استفادة الناس على مختلف مشاربهم منها سهلة وميسرة.

لئن رغب ورثة أبي تراب ـ رحمه الله ـ في عرض المكتبة الخاصة بالشيخ لبيعها فهذا من حقهم، وليس لأحد أن ينازعهم في هذا الحق أو

يزايد عليهم في حبهم لرب أسرتهم، ولهؤلاء المعترضين أن يتقدموا أو ينقذوا هذا التراث الذي يحتاج لمؤسسة علمية أو شخصية فكرية لاحتضانه وإفادة طلبة العلم الحقيقيين منه، وأن هناك رجالاً نبلاء يحبون العلم لذاته من أمثال السادة: أحمد زكي يماني، وحبيب محمود أحمد ومحمد عبده يماني وعثمان الصالح، وعبد المقصود خوجة وبسام البسام وعبد الرحمن فقيه وغيرهم، ممن سوف يتسابقون لحفظ تراث الرجل الذي شغل الناس حياً وميتاً، إنه أبو تراب الظاهري عفا الله عنه.

غياب سيد وفقدان حكيم

إذا ذكرت كلمة (سيّد) بين عشيرتك وبني قومك فهي ـ يا أبا أحمد ـ منصرفة إليك تحديداً، ولذا قيل (الحكيم) و(الملهم) و(الحليم) فإن دلالاتها وإيحاءاتها مرتبطة بك في حقبة تنيف على نصف قرن من الزمن كنت خلالها موجوداً في كل أمر يخص مدينة المصطفى ـ ﷺ ـ وعندما دخلت مجال العمل الإداري كانت أمام ناظريك قامات شامخة من الرجال، من أمثال: أبو الحسن السمان، دياب ناصر، أبو بكر داغستاني، زين العابدين مدني، حمزة غوث، مصطفى عطار، عبد العزيز الخريجي، عبيد مدني، علي حافظ، حسين طه، عمر بري، جعفر فقيه وغيرهم، وأحسنت الإنصات إلى هؤلاء وغيرهم فكان ذلك النمط الفريد من الشخصية التي اجتمعت لها وفيها مقومات النجاح، فكنت لا تقول العبارة إلا إذا وضعتها أمام معيار العقل، فإذا نطقت بها ذهبت مثلاً كالسهم يخرج من كنانته من العنبرية ويحط رحاله في (الساحة) و(سويقة) وكان السهم الذي لا يؤذي ولكنه القادر على إيقاظ الآخرين وتنبيههم والدفع بهم إلى مسارات مختلفة.

وجعلت أنت وأبوك من قبل (السيد محمود) من داركم في العنبرية منتدى يؤمه رواد الكلمة وعشاق الأدب فكان يختلف إليه عبد القدوس

الأنصاري وأحمد عطار وحمد الجاسر، ومحمد حسين زيدان، وأبو تراب الظاهري، ومحمد عمر توفيق وعبد الرحمن بن عقيل وغيرهم من زوار أحب البقاع إلى الله وكأن هذه الدار هي امتداد للمدرسة العريقة (العلوم الشرعية) والتي أسسها عمك المرحوم السيد أحمد الفيض أبادي في أربعينيات القرن الماضي، وحملت رسالة العلم والمعرفة في موئل العلم ومأرز الإيمان لمدة تقارب الثمانين ـ عاماً ـ وهي مدرسة درس فيها الصفوة من رجال العلم في المدينة وتخرجت من قسمها العالي أجيال شكلت أوتاد الحركة الفكرية الأدبية في جزيرة العرب فهي مثل الصولتية في مكة، والفلاح في جدة، ومعهد الأنجال في الرياض، ودار التوحيد في الطائف، وغيرها من مؤسسات العلم والمعرفة في جزيرة العرب ومهد الإسلام.

كنت تخصني بالحديث عن مكنون نفسك لحب أبوي هو ثمرة صداقة العمر مع والدي ـ رحمه الله ـ وتضيف إليه أبوتك الروحية لي في العلوم الشرعية عندما كنت مديراً للمدرسة وأستاذنا بكر آدم نائباً لك ـ رحمكم الله ـ ففي حوالي ١٤٠٦هـ زرتك في منزلك فإذا أنت تلتفت إلي قائلاً سئمت العمل بهذه الصورة فوجهت جهودك لتراث المدينة التاريخي وسيرة سيد الخلق ـ عليه صلاة الله وسلامه ـ فعملت على نشر كتاب ابن شبة في تاريخ المدينة، وخلاصة الوفاء للسمهودي وغيرهما من الكتب الكثيرة فكانت مرحلة جديدة في حياتك بذلت لها من جهدك ما بذلت، فكنت لا تسمع بكتاب في تاريخ المدينة المنورة يريد صاحبه أن يحققه أو يطبعه إلا وسارعت للاتصال به وعرضت في أدب مساعدتك، وكنت سخياً في عطاء العلم، والتشجع عليه، وإمداد أهله بما تقدر عليه حبك المورث للعلم

جعلك تهتم بالمخطوط والكتاب فأنشأت في دارك مكتبة خاصة، هي من السعة والتنوع بحيث تعد من أوائل المكتبات الخاصة في العالمين العربي والإسلامي، وأبيت في شهر شعبان المنصرم إلا وأن يجتمع فيها أعضاء مجلس إدارة هذه الصحيفة الغراء والتي كنت فيها عضواً مؤسساً، ولقد أخبرني الأستاذ الكريم محمد صلاح الدين بأنك بعد كل اجتماع من اجتماعات المؤسسة لا تقوى صحياً على حضوره لا تتردد في سؤال من حضر عن مغزى أو دلالة هذه الفقرة وتلك من محاضر تلك الجلسات لن يكتب تاريخ المدينة في هذا العصر السعودي الزاهر إلا ويشكل فيه السيد حبيب محمود أحمد بشخصيته ومواقفه ما يجعل الأنظار تلفت أو بالأحرى تتلفت وتلك سمة العظماء في كل عصر وزمن لا يعبأ بهم الناس كثيراً عندما يكونون بين ظهرانيهم ولكنهم يفيقون ذات يوم فإذا المنبر خال لأن الركب قد سار واختفى.

الصلة غير المرئية بين المبدع والسياق الحضاري

لا يمكن ـ بأي حال من الأحوال ـ الربط بين النشاط الفكري والثقافي والأدبي في أي من المؤسسات الأدبية بوجود شخص بعينه وبالتالي فإن غيابه سوف يقود إلى كارثة ويصيب الحركة الأدبية في صميمها، هذا لا يعني في الوقت نفسه ـ أيضاً ـ التقليل من شأن هذا المنظر أو ذلك الناقد والأديب، بل إن الأجدر بمناقشته في هذا الشأن هو تأثير السياق الحضاري والفكري والاجتماعي لبيئة أدبية معينة على عطاء الكتاب والمبدعين الذين ينتسبون بطريقة وأخرى لهذه البيئة والمتفاعلين مع ما يجري فيها من أحداث، وبالتالي فإن هذه الأحداث تنعكس بطريقة أو أخرى على عطاء هذا الأديب وإبداعه ومشاركاته.

لقد ربطنا ـ دوماً ـ في تاريخنا الفكري والأدبي بين الشخص والفن الأدبي، فالموشحات الأدبية كانت انطلاقاتها بحسب ما تحاول كتب النقد الأدبي تفسيره بالشاعر القبري الضرير أو بابن عبد ربه صاحب العقد، بينما الجدير بالتأمل والدراسة هو تأثير البيئة الأندلسية الجديدة التي هاجر إليها العرب، وهي بيئة انصهرت فيها ثقافات متباينة على عملية الإبداع الأدبي، ومن هنا يمكن ملاحظة أثر طبيعة الأندلس (مياهها، بساتينها، وفضاؤها الثقافي) المتمثل في هجرة عدد من المبدعين في فن الموسيقى مثل زرياب

ملاحظة أثر ذلك كله على نشوء هذا الفن الأدبي الجديد ونعني به (الموشح) والملاحظ بأن هذا الفن لم ينشأ بين يوم وليلة بل إن فترة زمنية معينة قد انقضت قبل أن يعرف الناس شيئاً من أغصان الموشح وفروعه وخرجاته العامية. وهي الفترة التي احتاجها هذا الفن الأدبي ليبرز ويضحي فناً أدبياً قائماً ـ بذاته ـ، ولقد رثيت لباحثين قضوا أوقاتاً طويلة ليثبتوا أن نازك الملائكة سبقت بدر شاكر السياب في كتابة قصيدة التفعيلة ـ في الشعر العربي المعاصر ـ بينما تسابق آخرون ليجعلوا من (السياب) الرائد الحقيقي لهذا الفن، ويفترض أن ينظر إلى الأمر في ظل تهيؤ سياقنا الحضاري والنهضوي الذي أدى إلى بروز هذا النوع الجديد من الشعر الذي شارك فيه كل من أمين الريحاني، والسياب، ونازك، ومحمد حسن عواد، وباكثير وغيرهم.

مناهج المؤسسات الدينية بين د. البشري وجمال الغيطاني

على مدى شهور عدة حاولت (أخبار الأدب المصرية) مناقشة قضية المؤسسة الدينية العريقة (الأزهر) وقد شارك في هذه القضية عدد من المختصين من بينهم الدكتور محمد سليم العوّا، والدكتور طارق البشري، الذي أجرى معه ـ هذا الملحق الهام والذي يرأس تحريره الأستاذ الأديب جمال الغيطاني ـ حواراً (العدد: ٥٠٤، الأحد ٦ محرم ١٤٢٤هـ ـ ٩ مارس ٢٠٠٣م) وكان حواراً هاماً أعدته منصورة عز الدين ومع أن مقص الرقيب أتى على جزء من هذا الحوار، إلا أن المفكر (البشري) أشار إلى قضايا فكرية وعلمية هامة منها أن الأزهر أضاف في الستينيات الميلادية مواد علمية ـ ضمن المناهج الرئيسية ـ وكان الهدف من هذه الخطوة (أن يجمع خريج الأزهر بين علوم الدين وعلوم الدنيا، وأن يكون الأزهر إضافة لكونه جامعة تثقف الناس في أمور دينهم، أيضاً جامعة تخرج أطباء مسلمين ومهندسين ومحاسبين مسلمين وغير ذلك)، وأضاف د. البشري، أن إضافة هذه التخصصات، لا يعني ـ بأي حال من الأحوال الانتقاص من كلياته الأصلية التي كانت موجودة منذ قانون سنة ١٩١٠م وتعرض الأستاذ البشري لقضية هامة وهي الصلة بين المؤسسة الدينية ـ الأزهر ـ

ومؤسسات الدولة فأشار إلى أنه في فترة مشايخ الأزهر السابقين من أمثال المراغي والظواهري كان للدولة قدر من النفوذ على الأزهر لكن هذا النفوذ زاد كثيراً فيما تلا ذلك من أعوام، ولو نظرنا إلى شيوخ الأزهر سنجد أن الشيخ عبد المجيد سليم في فترة الخمسينيات كان قيادة مستقلة وكذلك الشيخ شلتوت، كما تمتع الشيخ عبد الحليم محمود بقدر من الاستقلالية، أيضاً سنجد أن الشيخ جاد الحق علي جاد الحق اتسم بقدر من الاستقلالية يفوق قليلاً من سبقوه ويفوق من تلاه، ولعل الظروف لم تساعد الدكتور البشري الذي لمس قضية هامة من قضايا الأمة الإسلامية وهي العلاقة بين الحاكم والسلطة الدينية، بأن يشير أن الشيخ جاد الحق رفض مقابلة حاخام إسرائيل الأكبر (إسرائيل لاو)، وقد أخبرني من أثق به أن الشيخ بعد تزايد الضغوط عليه لمقابلة هذه الشخصية الصهيونية ركب سيارته ـ دون علم أحد ـ وذهب إلى قريته وهي من قرى البحيرة في مصر، ولم يعد منها إلا بعد انتهاء البرتوكولات الخاصة باستقبال (لاو).

مؤسسة الفرقان والإثنينيّة ودور في الحياة الثقافية والفكرية

في ضوء ما كتبه العبد الفقير إلى الله على صفحات هذا الملحق الأغر عن المرحوم عبد القادر عبد السلام، والذي طغى عليه لقب (الصَّقْعة) اتصل بي الصديق الشاعر الأستاذ محمد صالح باخطمة وذكر أن من بقية الأدباء الظرفاء الأخ الشهم صديق أشعري، وأشاطره الرأي في هذا، فهو من أسرة كريمة من حارة القشاشية المجاورة لبيت الله الحرام، وهو ابن عم لأستاذنا الأديب حسن أشعري، وأخ للإنسان المفضال المطوّف الأستاذ حمزة أشعري والذي عُرف بحبه للخير وإصلاح ذات البين وقد عرفتُ أبا عمار عن طريق صديق الجميع وسليل أسرة الفضل السيد عباس مالكي ومن كانت داره في النقا منتدى علمياً وفكرياً، وهي الدار التي كان يعقد فيها محدث العصر فضيلة السيد علوي المالكي دروسه العلمية ومن بعده أبناه فضيلة السيد محمد علوي، وأبو عاصم السيد الداعية عباس.

ولم يكتف حبيبنا سليل أسرة العلم والأدب الأستاذ عبد المقصود خوجة بالإشادة بملحق الأربعاء وصحيفة المدينة للاهتمام بهذا الأدب الذي نسبه بنو قومه في حياته وأعني المرحوم الصقعة، بل كتب متفضلاً رسالة أخوية كريمة ـ أنقل منها ما يتصل بالشأن العام، والحياة الاجتماعية

المتعددة الرؤى في الحقبة الماضية... فيقول أبو محمد سعيد (اطلعت بكثير من التقدير على مقالكم المانع) عبد القادر الصَّقْعة آخر الأدباء الظرفاء في المجتمع المكي) الذي كان يمثل فاكهة المجتمع في وقت لم تكن وسائل الترفيه الحديث متاحة، فكان هؤلاء الظرفاء يمثلون متنفساً تأنس إليه النفس، والظرف والظرفاء امتداد طبيعي لإيقاع الحياة العربية الأصيلة منذ الجاهلية وصدر الإسلام يزدهر عطاؤهم ويضمر بحسب توافر المناخ لإبداعاتهم واليوم ـ لحسن الحظ أو سوئه ـ طغت وسائل الإعلام، فحجبت أمثال (الصَّقْعة)، وإن كان وجودهم ما زال مستمراً على نطاق ضيق ومحدود وليت الفضائيات استقطبت ما بقي منهم لتعمم الفائدة وتتواصل الأجيال لما فيه الخير والمتعة.

وفي هذه العبارة الموجزة تعرض الأستاذ الأديب (الخوجة) إلى دور السياق الحضاري والاجتماعي في بروز هذا الصنف من الشخصيات الاجتماعية والمؤثرة، وأشير هنا إلى شخصية عرفها المجتمع المدني بكل أطيافه وهو المرحوم الأستاذ عبد الستار بخاري، والذي كان حافظاً ومجوّداً لكتاب الله، ومؤذّناً بمسجد رسول الله ﷺ، كما كان مرجعاً في السلم الموسيقي وعاش شطراً من حياته في مكة المكرمة فلقد كان مقرباً من الشيخ عباس قطان أحد وجهاء مكة المكرمة، ورئيساً لبلديتها وكان والده الشيخ يوسف قطّان من قبل وزيراً في حكومة الأشراف، وأخاله تولى منصب رئاسة البلدية في العهد السعودي الزاهر وكان الناس في مكة والمدينة يأنسون لشخص (الريس) عبد الستار لروحه الظريفة وكان ـ دوماً ـ يستشهد بالشعر ولقد حفظت منه لشاعر المدينة وعالمها الشيخ محمد العمري أبياتاً في (الغزل)، وأجبن عن روايتها ولا أريد الدخول في

تفاصيل هذا (الجبن) والإحجام عن الرواية لشعر يقوله العلماء في زمن لم تكن فيه هذه التجزئة الطارئة بين علوم الشريعة والأدب واللغة، ولقد كان الشيخ عمر بري ـ والد حبيبنا الأستاذ عبد الله بري ـ محدثاً بين سواري المسجد النبوي الشريف وشاعراً كبيراً ومن قبله والده الشيخ إبراهيم بري رحمهم الله جميعاً.

ولعلّه من المفيد أن أنوّه بجهود الأستاذ عبد المقصود في نشر عدة من الأعمال الأدبية والفكرية وذلك بمناسبة اختيار (مكة المكرمة) عاصمة الثقافة الإسلامية حيث ذكر (إنه يعكف على إعداد وطباعة المجموعة الكاملة لكل ما يمكن الوصول إليه من نتاج الأساتذة الكرام الذين أسهموا في كتاب (وحي الصحراء)، بالإضافة إلى أعمال الأستاذ محمد حسين زيدان، وأعمال الشاعر الكبير محمد إسماعيل جوهرجي، ومن عادتي أن أثقل على صديقنا وعزيزنا أبي محمد سعيد، فأطلب منه في هذا المقال التوجّه لورثة الأستاذ عمر عبد الجبار لطباعة كتاب والدهم الهام (سير وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر للهجرة)، وهو من أهم الكتب التي يرجع إليها الباحثون في تاريخ العلم والثقافة الدينية والفكرية في البلد الحرام، ويعرف أستاذنا فضيلة الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان، وأستاذنا الدكتور عباس طاشكندي، عن هذا الكتاب وسواه الشيء الكثير، وأعتقد أن الأستاذ الطيب نشره في تهامة إبان مسؤوليته عنها.

ولعلي لا أذيع سراً إذا ما ذكرت ـ هنا ـ أن فضيلة شيخنا عبد الوهاب قد انتهى مع زميله الدكتور محمد إبراهيم علي من تحقيق أهم كتب التراجم في العصر الحديث لعلماء مكة المكرمة وسواهم، للشيخ والفقيه الشافعي المرحوم زكريا بيلا، والموسوم (الجواهر الحسان في من

لقيته من الأعيان)، والكتاب جاهز للطبع (كما عرفت) كما أن كتاب المرحوم الأديب والمؤرخ السيد عبيد عبد الله مدني عن تاريخ المدينة ومؤرخيها ورجالها يُعد من أهم المصادر التي لم تطبع بعد، وتقوم مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي والتي يرأس مجلس إدارتها المثقف والمفكر المعروف السيد أحمد زكي يماني بمشروع كبير بمناسبة اختيار مكة عاصمة للثقافة فسوف تقدم حوالي ٢٤ كتاباً تتناول محاور عدة تتصل بمكة المكرمة وتاريخها وفكرها ودور العلم فيها.

وسبق لمؤسسة الفرقان أن نشرت مؤلفات هامة منها: مؤلف الباحث عبد الله المعلمي (أعلام المكيين من القرن التاسع إلى القرن الرابع عشر الهجري، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠/م، وكتاب نيل المنى بذيل بلوغ القرى لتكملة إتحاف الورى) للمؤرخ محمد تقي بن فهد، كما قامت بطباعة كتابة د. محمد الحبيب بن الهيلة عن (التاريخ والمؤرخون بمكة) ١٩٩٤/م، وعملت على ترجمة ونشر بعض أعمال المستشرقة الألمانية المشهورة (ماري شميل) المعروفة بتعاطفها عن الإسلام وقيمه الرفيعة وهي في هذا تُشبه المفكر الفرنسي المعروف (روجيه جارودي)، والذي دافع مع القضية الفلسطينية وانتقد الحركة الصهيونية العنصرية، في زمن أصبح فيه اليهود أصحاب القرار في عدد كبير من المؤسسات الغربية ولا يقوى على مواجهتهم أحد.

من الذي أشعل النار في قرطاس الجاحظ وابن المقفع فأعاد سيرة التتار عندما كنا نقرأ في كتب التاريخ أن التتار أتلفوا مكتبات (بغداد) وألقوا بها في نهر دجلة حتى أغبر لونه أو تحوّل، لم نكن نتوقع ـ بعد انقضاء زمن الطفولة والشباب ـ والولوج إلى مرحلة الكهولة، وفي زمن التقدم العلمي الذي طبع ثقافة العصر ـ أن يعيد التاريخ نفسه ـ فنرى مكتبات

مهد حضارة بني العباس تتلف كتبها، وتسرق متاحفها، وتضرب المآذن التي يرتفع من فوقها صوت الحق والإيمان. كمسجد عالم الأمة وفقيهها أبي حنيفة النعمان ـ رحمه الله ـ ولم يسلم مرقد ابن عم النبي ﷺ ـ لم يسلم ذلك المضجع الآمن هو الآخر من رصاص هو أشبه ما يكون في تدافعه بغيظ من ناصبوا أهل بيت النبوة العداء واستكثروا أن يشملهم سيد الخلق بالرداء ويوصي بحبهم الأخيار.

هذا صنيع (الغرب) وهو إن لم يفعل الأمر بيديه فإنه لن يمانع أن يحدث هذا أمام عينيه في الوقت الذي يزعم فيه أنه جاء لتحرير البلد وإخراجه إلى عصر الحرية والديمقراطية.

ولا بد أن كثيراً من مثقفي الأمة العربية الذين ظلوا يراهنون على هذا الغرب الذي يرفع الشعارات التي استهوت عقول بني قومنا. حتى سمعت بعضهم يقول: سوف تشاهدون العلم الأمريكي مرفوعاً فوق الأرض العربية بعد أيام قليلة وسوف أقدم مثيل هذه الصورة في الصفحة الأولى من الصحيفة التي ـ يشرف عليها شخصياً وقام نفر من منظري الوطنية يبشرون بمقالة تتحدث عن وجه أمريكا المشرق ـ رافعين أيديهم ـ مبتهلين ـ أن يحمي صاحبها ويحفظه من زمرة المتخلفين فكراً وثقافة، أي وطنية تلك التي ظلوا لعقود من الزمن يفاخرون بأنهم من دعاتها وحماتها؟ كيف لنا أن نصدقهم فيما يدعون إليه؟ وأنى لنا أن نشاطرهم دعواهم وهم يقولون لمريديهم وحوارييهم شيئاً ثم هم على استعداد أن ينقضوه ـ صباحاً ـ إذا ما اقتضت المصلحة الذاتية والهوى الشخصي مثل هذا التناقض وتلك الازدواجية المقيتة والتي أضحت ماثلة لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. أقول لا بد أن تلك الزمرة المثقفة من أبناء العروبة قد فُجعت

في علمانية الغرب ولكن الجبن يمنعهم من الاعتراف.

ولقد فاتهم أن يرجعوا للإرث الحضاري للأمة التي ينتمون إليها بالاسم أو الهوية. فيعلموا أن خريجي مدرسة محمد بن عبد الله ـ عليه صلاة الله وسلامه ـ منعوا اتباعهم ممن يحملون رسالة الإسلام للآخرين، ألا يقتلوا امرأة ولا طفلاً ولا شيخاً، بل وذهب أجدادنا إلى أبعد من ذلك بألاّ يتعرضوا لراهب في صومعته، وقسيس في كنيسته. هذا ما قاله ـ يا أبناء جلدتنا ـ أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ واتباعهم ومن أتى بعدهم ـ ورددوه على أسماع الأجيال ولا نعلم أن أحداً حاد عن ذلك وخرج عليه.

لقد شاهد العالم الغربي بأكمله كنيسة المهد في بيت لحم تقصفها الطائرات الأمريكية الصنع والتمويل والتدريب ويمنع أتباعه من الدخول إليها لأداء الصلاة فيها.

ولقد ذكرت صحافية بريطانية بأن سبب دخولها الإسلام هو فقدانها للثقة في بني قومها الذين جبنوا بأن يقولوا لشارون وزمرته بأن هذا اعتداء على أتباع (المسيح) والذي يزعم الغرب أنه يتبع ديانته، ولم يخرج (البابا) أو يطل من شرفته ليشجب هذا الأمر أو يستنكره فالمسيحيون العرب وغيرهم لا يستحقون دفاعاً عن مهد ديانتهم، بينما عندما وصل الخليفة المسلم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ للقدس ليستلمها من ـ رجل الدين المسيحي القائم عليها ـ لأنه صمّم ألا يسلمها إلا للرجل الذي حفلت أسفار المسيحيين بصفاته، ابن الخطاب ـ رجل الإيمان والحق ـ رضي الله عنه رفض أن يصلي في كنيسة القيامة عندما حان وقت صلاة الظهر ـ احتراماً ـ لديانة المسيح الذي يسمي المسلمون أبناءهم باسمه

ويطلقون على بناتهم اسم أمه العذراء السيدة مريم ـ عليها السلام ـ واختط هذا الإنسان المتحضر ـ حقاً ـ مكاناً خاصاً لصلاته، وهو ما يعرف باسم مسجد عمر حتى اليوم.

اذهبوا للناصرة وبيت حانون لتروا أن المسيحيين هناك يطلقون على أبنائهم اسم عمر، وعندما سألت أحدهم من أين أتى بهذا الإسلامي، أجابني بصدق، نحن ـ المسيحيين ـ في فلسطين نعتقد أن الخليفة عمر بن الخطاب هو الإنسان الديمقراطي ـ حقاً ـ وسبق أن أشرت في مقالة سابقة ـ أن محرر الموسوعة الإسلامية ـ الصادرة عن مؤسسة (بريل) في (لايدن) البروفيسور (إدموند بوزورث) ذكر في بحث له أن المسلمين لم يتعرضوا للكنائس في البلاد التي دخلوها كشبه الجزيرة الإيبرية ـ الأندلس، وفي جزيرة صقلية، وثقافة الإسلام المتسامحة هي التي صنعت من اليهودي ابن ميمون اسماً لامعاً في عالم الفلسفة حتى إن وزير الخارجية الإسرائيلي الراحل (أبايبان) أشار في مذكراته أن الحقبة الذهبية في تاريخ اليهود هي تلك التي قضوها في الأندلس. ونضيف أنه بعد حدوث محاكم التفتيش لم يجد اليهود ملاذاً آمناً لهم إلاّ في ظل الدولة العثمانية التي حمت أهل الديانات الأخرى من خلال نظام (الملة) الذي أخذت به، وذلك امتثالاً لتعاليم النبي ﷺ الذي أمر بعدم إخافة الذمي ونهى عن ترويعه.

(بغداد) هي التي حفظت (أرسطو) و(أفلاطون) من الضياع وقدمتهما من خلال مدرسة (ابن رشد) في الفلسفة الإسلامية، وهي التي حفظت تراث الفرس مثل كليلة ودمنة ـ بعد أن شجعت روحها المتسامحة الأديب عبد الله بن المقفع على ترجمته، وضاع هذا المصدر من التراث الفارسي فترجمه العرب مرة أخرى إلى اللغة الفهلوية بعد أن أصبح مصدراً في العربية وتراثها.

قارنوا ـ أيا أخوة لنا وأبناء عمومة ـ بين صموئيل هنتغتون الذي ينظر للصراع الحضاري بتمويل من المؤسسات الاستخباراتية، وبين من صنعتهم ثقافة الإسلام فسلموا الغرب الأوروبي تراثهم اليوناني بعد أن أضافوا إليه وأبدعوا حول دائرته فكان ابن الهيثم، وابن المقفع، وجابر بن حيان، وابن رشد، والكندي، والفارابي، والرازي، وابن النفيس، وغيرهم، واستحضروا فعل النبي ﷺ مع أسراه يوم بدر فلم يقتلهم أو يعذبهم وفي يوم حنين أطلق سراحهم إكراماً لأخته الشيماء من قبيلة بني سعد حيث استرضع، وفي غزوة خبير، عندما أمسك المسلمون بالأسرى من اليهود، تزوج ﷺ ـ صفية بنت حيي بن أخطب ـ زعيم اليهود. فأضحت أماً للمؤمنين مثل خديجة وعائشة ـ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ فلما سمع المسلمون بذلك أطلقوا أسراهم من اليهود، وكان رسول الله ﷺ ـ يقول لها قولي لهم ـ أي لبقية زوجاته من أمهات المؤمنين ـ إن أبي موسى وأخي هارون، ودعا لإكرام القبط إكراماً لأم المؤمنين السيدة مارية القبطية رضي الله عنها وعنهم. إن هذا دفاع عن تراث الأمة فما عشقنا صدام يوماً وما رأينا لأمريكا وجهاً مشرقاً.

وماذا عن حوار الأشقاء والأقارب؟!

يلاحظ المرء أنه بعد أحداث ١١ سبتمبر التي استغلها الأمريكيون في توجيه الاتهامات العديدة لنا وبأن ذلك عائد إلى نوعية الثقافة التي يتلقاها أبناؤنا في مدارسهم أو منتدياتهم وبيوتهم، لاحظنا قيام مؤسسات ذات صبغة دينية بالدعوة إلى الحوار مع الآخر ودعمت هذه المؤسسات خطابها الجديد بنصوص شرعية موثقة ـ وهذه النصوص موجودة ـ أصلاً في تراثنا إضافة إلى أن المسلمين الأوائل جسدوا في سلوكياتهم مفاهيمها عند دخولهم البلاد الأخرى التي فتحوها أو حلوا فيها مهاجرين ومقيمين ـ ولكن لسبب أو آخر ظلت بعيدة أو نائية عن أيدي أصحاب هذا الخطاب ـ وهذه نقطة ضعف شديدة يجب أن نقرّ بها ونُحاسب أنفسنا في تقصيرنا إزاءها.

كما لاحظنا بعد الأحداث ـ نفسها ـ أن عدداً كبيراً من الكتاب ـ أصحاب التوجه الداخلي الآخر في الخطاب الثقافي والفكري، تحاور المؤسسات الغربية المعنية حول منطلقات التراث الإسلامي في التعامل الآخر، وبصيغة أخرى أنها عادت إلى الخطاب الديني لتستلهم أسسه ومنطلقاته مع أنها كانت بعيدة عنه وكأنها بهذا الصنيع تيقظت بعد سُبات لتكتشف الحقائق المدفوعة في تراثنا من عدالة وتسامح ومحبّة، ولا بُد أن

نذكر أن الحداثة الإيديولوجية قبل حوالي عقد من الزمن أو أكثر كانت تسعى لجعل منابرها حكراً عليها، فهي مقدّسة لا يُسمح بارتقاء درجاتها أو يحظى بالاقتراب من مطوياتها إلا من كان مدججاً بالأدوات أو الوسائل المطلوبة وربما خضع لامتحانات قاسية حتى يأتيه الرضا وتحل بساحته نفحات القُرب.

ونسي هؤلاء وأولئك أننا لمدة طويلة فشلنا فشلاً ذريعاً في الاعتراف بالآخر الموجودين بين ظهرانينا ـ والذي يُعدُّ الاعتراف به من المقومات الأساسية التي بُنيت عليها وحدة هذه الأرض ـ بعبارة أخرى لقد أيقظتنا الأحداث، ولكن الغرب المتربّص والمتترّس هو الآخر بعقائد محافظيه الجدد في الإدارتين الأمريكية والبريطانية والمؤسسات الفكرية التابعة لهما ـ فطن كعادته إلى نقطة الضعف هذه، وشكك في مصداقية هذا الخطاب الجديد وبدأوا كعادتهم في اجتذاب قوّة على حساب أخرى فهذا وزير الخارجية البريطاني جاك سترو: يذكر في محاضرة له ألقاها في مركز الدراسات الإسلامية بمدينة أوكسفورد في ٢٥ يناير، ٢٠٠٢م، يقول سترو ما نصه (إن القوى العلمانية وليست القوى الدينية هي القوى المتسلطة تسلطاً ظالماً، لكن الغربيين بطيئون في إدراك الأمر المهم).

بعد الأحداث المؤلمة التي شهدتها مدينة الرياض، انبرى العديد من أقطاب المؤسسة الدينية لإدانة هذا الحادث واكتفى البعض بالصمت، آخذين بمبدأ السكوت من ذهب، وإن وراء الأكمة ما وراءها فإما أن يكونوا من الطغمة التي غذّت هذا الفكر المتجرد من أي عاطفة والمتسم بغلظة وجفوة شديدين، أو أنهم يُسامرونه مداهنة له كما حدث عن فتنة جهيمان.

إننا ـ جميعاً ـ في هذا البلد الكريم ندين بالإسلام، ونقر بوحدانية الله عزّ وجلّ، ونقر بالولاء لله ورسوله وأحكام الشريعة الإسلامية وبالولاء أيضاً لأولي الأمر.

إلا أنه يجب أن نعترف ونقر بأننا نختلف عند كثير من الفروع والتي لا تستدعي أبداً أن يقوم نفرٌ من أبناء الأمس القريب ليحكموا على هذا بالشر والآخر بالبدعة وأن نصنف الناس تصنيفاً أحادياً أو أن نأتي بالآيات التي نزلت في كفّار الجاهلية ونحاول إنزالها أو إسقاطها على من آمن آباؤهم وأجدادهم وذريّاتهم بالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً.

الفِكْر السَّلفي ومنطلقاته الدِّينية الصحيحة والمعتدلة

دخل العالم العربي في نفق مظلم منذ تفكك الإمبراطورية العثمانية وكان رفض السلطان عبد الحميد للهجرة اليهودية إلى أرض فلسطين باعثاً رئيسياً وراء المشروع الغربي لتفكيك الدولة الإسلامية، ويذكر إبراهيم المويلحي العروض المالية المغرية التي قدمت له ولكنه رفضها رغم حاجته الملحة لها (ومن حسنات السلطان ـ عبد الحميد ـ المعروفة رفضه لمشروع هرتزل بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين رغم ما عرضه الصهيوني الماكر من ملايين الليرات الذهبية على جلالة السلطان، وعندما أزيح السلطان عن سريره، سمح الاتحاديون لليهود بإقامة مستوطنات لهم في فلسطين) (انظر: ما هنالك من أسرار بلاط السلطان عبد الحميد، دراسة تاريخية، أحمد حسين الطماوي، تقديم د. علي شلش، كتاب المركز العربي، ص: ٤٣). ولقد كان للحركات الدّينية مثل السنوسية، والمهدية، وجمعية العلماء المسلمين في الجزائر، بزعامة عبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي دور في تحرير الأمتين العربية والإسلامية، وقد حث الشيخ حسين أحمد آبادي المحدّث بالحرم النبوي الشريف بالمدينة المنورة ـ عند لقائهما به سنة (١٣٣١هـ ١٩١٣م)، على مغادرة المدينة

لمقاومة الاستعمار الفرنسي في الجزائر، وكان موضوع تربية الجيل الجديد وغرس المفاهيم الإسلامية الصحيحة هو جوهر هذه الحركة، ممّا يظهر بوناً شاسعاً بين هذه الحركات الإسلامية التي قارعت الاستعمار مُعتمدة على تهذيب النفوس وتربيتها تربية صحيحة، وتلك الحركات الدينية الأخرى الحديثة التي ركّزت على الجوانب السياسية دون تفعيل القيم الإسلامية المعتدلة، مما أدى إلى نشوء أجيال تستخدم كثيراً من المصطلحات الشرعية دون أن تدرك مراميها الحقيقية، وذهبت ـ فيما بعد ـ إلى استخدام النصوص التي نزلت في حق الكافرين في الجاهلية وإسقاطها ـ جهلاً ـ على المسلمين، ومن هنا كانت بداية ذلك القاموس الشاذ الممتلىء بعبارات التفسيق والتبديع، والشرك وأنواعه، والبدعة وأقسامها متناسية أنها أمام أمة مؤمنة ومجتمع مسلم، (لمزيد من المعرفة عن جمعية المسلمين في الجزائر ودورها الديني والوطني في مقاومة الاستعمار) (انظر د. مازن صلاح مطبقاني، عبد الحميد بن باديس ـ العالم الرباني الزعيم السياسي، ط ٢، ١٤١١هـ ١٩٩٠م، على أنه يجب التنبيه على أن هذه الحركات الدينية الواعية، استمدت بعض أسسها من حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ في الجزيرة العربية، وهي حركة معتدلة ووسطية في صورتها الأصلية ورسالة الشيخ ابن عبد الوهاب لأهل القصيم خير دليل على ذلك والتي تؤكد على رفضه المطلق لتكفير أحد من أهل القبلة بل إنه رفض الأقوال التي نسبها إليه سليمان بن سحيم فقال بعبارات صريحة وواضحة (فمنها قوله: إني مبطل كتب المذاهب الأربعة، وإني أقول: إن الناس من ستمائة سنة ليسوا على شيء، وإني أدّعي الاجتهاد، وإني خارج عن التقليد، وإني أقول: إن اختلاف العلماء نقمة، وإني أكفر من توسل بالصالحين، وإني أكفر البوصيري

لقوله: يا أكرم الخلق وإني أقول: لو أقدر على الكعبة لأخذت ميزابها وجعلت لها ميزاباً من خشب، وإني أحرم زيارة قبر النبي ﷺ وإني أنكر زيارة قبر الوالدين وغيرهما، وإني أكفر من حلف بغير الله، وإني أكفر ابن الفارض وابن عربي، وإني أحرق دلائل الخيرات، وروض الرياض، واسمّيه روض الشياطين، جوابي عن هذه المسائل: أن أقول: (سبحانك هذا بُهتان عظيم) انظر (الرسالة الأولى من الرسائل الشخصية ضمن مجموعة مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب المنشورة باهتمام جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية)، القسم الخاص/ ص: ٢٧).

وتأتي رسالة ابنه الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ والتي كتبها بعد دخول الإمام سعود ـ رحمه الله ـ مكة المكرمة سنة ١٢١٨هـ لتكون دليلاً قاطعاً على بعض الجهلة من طلاب العلم في هذا القصر لم يعوا حقيقة هذه الدعوة وأساءوا إليها وإلى مضمونها الإصلاحي المعتدل، فهذا الشيخ عبد الله بن عبد الوهاب يوضح مسائل هامة جدير بشباب الصحوة الاستماع إليها وواجب على علماء الأمة نشرها بين طلاب العلم الذين حصروا الدين الإسلامي في قضايا شكلية وجعلوا من أنفسهم وحدهم ـ الطائفة المنصورة ـ وأخرجوا من سواها من دائرة الرحمة ـ التي لا يملكها سوى رب العالمين وحده ـ يقول الشيخ العلامة عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ قبل حوالي قرنين من الزمن.. (وما نحن عليه، أنا لا نرى سبي العرب ولن نفعله ولم نقاتل غيرهم، ولا نرى قتل النساء والصبيان ـ وأما من يكذب علينا ستراً للحق، وتلبيساً على الخلق بأنا نفسر القرآن برأينا، ونأخذ من الحديث ما وافق أفهامنا، من دون مراجعة شرح ولا معوّل على شيخ، وإنا نضع من رتبة نبينا محمد ـ

ﷺ ـ بقولنا (النبي رمَّة في القبر، وعصا أحدنا أنفع له منه، وليس له شفاعة، وأن زيارته غير مندوبة وأنه كان لا يعرف معنى لا إله إلا الله حتى نزل عليه) فاعلم أنه لا إله إلا الله)، مع كون الآية مدنية، وأنا لا نعتمد على أقوال العلماء. فتتلف مؤلفات أهل المذاهب لكون فيها الحق والباطل وأنَّا مُجسمةٌ، وأنا نكفّر الناس على الإطلاق أهل زماننا من بعد الستمائة، إلا من هو على ما نحن عليه، ومن فروع ذلك أن لا نقبل بيعة أحد إلا بعد التقرير عليه بأنه كان مشركاً، وأن أبويه ماتا على الشرك بالله، وأننا ننهى عن الصلاة على النبي ـ ﷺ ـ ونحرم زيارة القبور الشرعية ـ مطلقاً ـ وأن من دان بما نحن عليه، سقطت عنه جميع التبعات حتى الدّيون، وإنا لا نرى حق أهل البيت ـ رضوان الله عليهم ـ وإنّا نجبرهم على تزويج غير الكفء لهم، وإنّا نجبر بعض الشيوخ على فراق زوجته الشابة لتنكح شاباً إذا ترافعوا علينا) فلا وجه لذلك، فجميع هذه الخرافات وأشباهها لما استفهمنا عنها من ذكرٍ أولاً: كان جوابنا في كل مسألة من ذلك (سبحانك هذا بهتان عظيم).

. . .ومن خلال هذه الرسالة العظيمة والتي تعتبر البيان الحقيقي والنقي للدعوة السلفية يمكننا التأكيد على ما يأتي من أسسها ومنطلقاتها الصحيحة والسليمة. . . موافقتها لهدي النبوة من تحريم قتل النساء وسبيهم وكذلك تحريم قتل الصبيان، وفي قوله ـ رحمه الله ـ (ولم نقاتل غيرهم)، فإنه تحذير واضح من استباحة دم المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى وكذلك تأكيده على موقف الإسلام الصحيح من قضية الرق فالإسلام كان من أكثر الديانات دعوة إلى إلغاء التفريق العنصري، وهذا ما اعترف به صراحة المفكر الغربي (أرنولد توينبي) في محاضرات ألقاها

باللغة الإنجليزية بين عامي ١٩٤٧م ـ و١٩٥٢م، يقول المفكر توينبي مقالاً له، (فعدم وجود التمييز العنصري بين المسلمين هو أحد أبرز الإنجازات الأخلاقية للإسلام، والعالم المعاصر في وضعه الراهن بحاجة ماسّة لنشر هذه الفضيلة الإسلامية) (أرنولد توينبي، الإسلام والغرب والمستقبل، تعريب د. نبيل صبحي، ط١، ١٣٨٩ ـ ١٩٦٩م دار العربية للطباعة والنشر ـ بيروت، ص٦٢).

. . . إقرار واعتراف الدعوة السلفية بالمذاهب الإسلامية المعتمدة وعدم الخروج عليها أو التقليل من منزلة أصحابها.

إقرارها بفضل أهل العلم السابقين ومنازلهم العلمية. وإفساد المقولة الشائعة على ألسنة بعض طلاب العلم والذين يعانون من قصور في فهمهم الشرعي، وهي المقولة التي تحمل استخفافاً بالمجتهدين من السلف الصالح (نحن رجال وهم رجال).

الإقرار بفضل أهل البيت النبوي الطاهر، وليت بعض هؤلاء الطلبة ـ هداهم الله ـ يرجعون إلى رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ (فضل أهل البيت وحقوقهم)، وما ذكره كذلك ـ رحمه الله ـ في كتابه المعروف (اقتضاء الصراط المستقيم) والكتاب من تحقيق العالم السلفي الشيخ محمد حامد الفقي ـ رحمه الله ـ قال ابن تيمية ـ رحمه الله أنه خير الناس نفساً ونسباً. . . انظر: اقتضاء الصراط المستقيم، طبعة مطابع المجد، ص ١٥١، وانظر للشيخ أيضاً، رسالة (فضل أهل البيت، بتعليق الشيخ المرحوم أبي تراب الظاهري، ط١، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٤م مطابع سحر بجدة).

إقرار الرسالة بمنزلة الرسول ـ ﷺ ـ والتي خصه الله بها حتى وهو

في حياته البرزخية، وعدم وجود ما يمنع زيارة قبره الشريف، وأنه يمكن الجمع بين نية زيارة مسجد الشريف والسلام عليه ـ ﷺ حيث قال الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ في هذه القضية قولاً شرعياً فصلاً، والذي نفتقده أن رتبة نبينا ـ ﷺ ـ أعلى مراتب المخلوقين على الإطلاق وأنه حيى في قبره حياة برزخية أبلغ من حياة الشهداء، المنصوص عليها في التنزيل، إذ هو أفضل منهم بلا ريب، وأنه يسمع سلام المسلم عليه، وتسن زيارته إلا أنه لا يشد الرحل إلا لزيارة المسجد والصلاة فيه، وإذا قصد مع ذلك الزيارة فلا بأس).

انظر عن هذه الرسالة ومدلولاتها في كتاب (الشيخ محمد بن عبد الوهاب، عقيدته السلفية ودعوته الإصلاحية، من تأليف أحمد بن حجر آل أبو طامي، الطبعة الثانية، بتقديم سماحة المرحوم الشيخ عبد العزيز بن باز، شركة مطابع الجزيرة، ص ٧٠ ـ ٧٦.

لقد حدثت فجوة واسعة بين الدعوة السلفية في مبادئها الأساسية ومنطلقاتها الصحيحة والتي تحمل روحاً وسطية ومعتدلة تقر بفضل العصور الإسلامية السابقة واجتهادات العلماء الفقهية، مركزة على جوهر الإسلام الحقيقي ونائية عن كل مظاهر القسوة والجفوة والغلظة التي اتسم بها بعض المنتسبين إلى الدعوة ـ بغير وجه حق ـ لذا يفترض في المؤسسات الدينية الرسمية مثل هيئة كبار العلماء، ووزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، ورابطة العالم الإسلامي، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، والجامعة الإسلامية أن تسعى لتوضيح مقاصد هذه الدعوة الإصلاحية ونفي عنها ما لحق بها من تغيير وتبديل، وإن الأمة التي تمر بظروف حضارية وفكرية واجتماعية صعبة، لهي في أمس الحاجة إلى مثل هذا التوضيح والبيان. . . فهل نحن فاعلون أم أن الصمت يبقى هو سيد الموقف؟!

الحرب التي أعادت حرية الكلمة للمربع الأول!

عادة ما تتمخّض الحروب عن قضايا سياسية واجتماعية ولكن الحرب الأمريكية الأخيرة على ما يسمى بالإرهاب تركت آثاراً سلبية على النواحي الإعلانية، والتي كان الغرب يفاخر بوصوله إلى مستوى رفيع فيها من الشفافية والحيادية.

فمن الناحية السياسية نجد أن أهم الآثار السلبية المرتبطة بهذه الحرب هي ارتفاع نبرة التعصب الديني عند بعض أقطاب الإدارة الأمريكية حتى إن جنرالاً أمريكياً معروفاً ـ ويعمل نائباً مساعداً لوزير الدفاع الأمريكي ـ وهو «وليام بوكين» اعتبر إله المسلمين صنماً مع أنه باعتراف المستشرقين الغربيين لا يوجد دين سماوي تبرز فيه عقيدة التوحيد بمثل تجسدها وبروزها في الدين الإسلامي الذي جاء ليحطم جميع الأصنام بما فيها الأصنام البشرية المتعددة.

واعتبر أيضاً ـ من وجهة نظر أمريكية ـ معارضة الحرب أو الكشف عن المبالغات المرتبطة بتبرير الحرب على العراق، اعتبر ذلك من المحرمات وما قصة الخبير البريطاني «ديفيد كيلي» وموته بطريقة مفاجئة ومأساوية، وكذلك طرد النائب العمالي البريطاني «جورج غالاواي» بعد حوالي ٣٥ عاماً من العمل السياسي ـ وهو نائب معروف بتعاطفه مع

القضية الفلسطينية إضافة إلى معارضته للحرب الأمريكية ـ البريطانية، كل هذه القضايا تدل على الهوس الذي أصاب بعض المؤسسات الأمريكية والغربية وخوفها من كشف ما هو محجوب عن المواطن العادي فيما يتصل بهذه الحرب التي بدأت بأفغانستان وثنت بالعراق، وأطلقت يد الإرهابي شارون داخل فلسطين وخارجها ليقتل ويدمر ويجد من يؤازره في البيت الأبيض ودوانغ ستريت على حد سواء.

في هذه الحرب الأمريكية الأخيرة اصطفت جميع أجهزة الإعلام خلف الإدارة الأمريكية ولا نجد صوتاً متميزاً يرتفع من داخل هذه المؤسسات ـ والتي كانت تفتخر أمريكا بصدقيتها ـ معارضاً أو ناقداً، بل إن الإدارة الأمريكية لم تخف استياءها من بعض القنوات الفضائية العربية والتي حققت سبقاً كبيراً في إبراز جميع القضايا المتصلة بهذه الحرب بحيادية كبيرة وبتقنية إعلامية رفيعة، وكانت تصفية الحسابات مع الإعلام العربي عن طريق قتل بعض المراسلين أو المحررين في العراق وباليد الصهيونية القذرة في فلسطين، ولم تستطع الإدارة الأمريكية مساءلة عصبة الإرهاب في فلسطين عن مقتل ناشطة سلام أمريكية، قتلت ـ عمداً ـ وهي تؤدي واجباً إنسانياً محضاً.

أمريكا التي أفلحت في تحقيق المعادلة الصعبة وهي جعل وسائل إعلامها لا تختلف كثيراً عن وسائل الإعلام الأخرى في العالم الثالث التي كانت إلى حد قريب تنتقد رؤيتها الأحادية وانغلاقها وعدم مصداقيتها، هي التي تقود حملة شرسة ضد المسلسلات العربية التي تكشف زيف الدعاوى الصهيونية مثل مسلسل «الشتات» الذي انطلق من قناة «المنار» اللبنانية، واضطر المتحدث باسم البيت البيض للخروج وإعلان تذمر إدارته من

عرض المسلسل وحذر من عرضه في أي قناة عربية أخرى، ويفترض أن يكون الرد على دعاة الحرية الكاذبة هو عرض هذا المسلسل الذي اعتمد كاتبه على ٢٥٠ مؤلفاً ـ معظمها كتبت بأقلام يهودية وغربية ومعروفة ـ ولم يعتمد كما ذكر الصوت النشاز والمزمجر والغاضب مطلقاً على ما عرف باسم بروتوكولات حكماء صهيون. وهو ما يذكرنا بالضجة التي أثيرت في العام الماضي عن المسلسل المصري «فارس بلا جواد» للفنان محمد صبحي.

إن أسوأ ما تمخضت عنه هذه الحرب هو قمعها للصوت الإعلامي أو الصحافي الذي يبحث عن المعلومة الموثقة، والكلمة الصادقة، أو يحمل رؤية مغايرة لما يقوله «شارون» في الكنيست ويردده المحافظون الجدد في البنتاغون «وجيف هون» من دوانغ ستريت.

الوزير الذي خذله القطار فأنقذته الدراجة!

عندما تسلمت مارجريت تاتشر رئاسة الحكومة البريطانية من السياسي العمالي المخضرم «جيمس كالاهان» عام ١٩٧٩م أسندت حقيبة شؤون أمن إيرلندا إلى واحد من أكثر الساسة خبرة وعراقة وهو «ويلي وايتلو»: Willie-Whitelaw، وكانت النقابات العمالية والتي تشكل جزءاً هاماً من المؤسسات العمالية تقوم ـ آنذاك بإضرابات شبه يومية في المدن البريطانية، وكان الجميع بمن فيهم أمثالنا الطلاب الغرباء والذين يستخدمون القطار في تنقلاتهم يعانون من تلك الإضرابات التي عرفت تاتشر ـ فيما بعد ـ كيف تحد من غلواء زعمائها، وكان النصل الذي اخترق جسد الاشتراكية الأوروبية وأصابها في مقتل!

وكان على الوزير الهام «وايتلو» أن يتنقل من منزله في أطراف لندن إلى «١٠» دوانںغ ستريت لحضور جلسة وزارية، ولكنه فوجىء ـ كغيره ـ بتلك الإضرابات الشاملة، ولم يعد الرجل إلى منزله وينظر من شرفة داره إلى حركة الناس وتفاعلهم مع الحياة اليومية اللندنية المثيرة للغرابة والخوف في كثير من الأحيان، ولكنه بدلاً من إعطاء نفسه إجازة اضطرارية توجه إلى دراجته العادية والتي كان يزاول بها رياضته المحببة، وركبها وتوجه بها إلى دوانںغ ستريت وأوقف مركبته البسيطة بجانب الجندي الذي

يقف أعزل على باب الموقع الحجري القديم، ودخل إلى الاجتماع في الموعد المحدد، ونقل التلفزيون البريطاني الخبر ولم يجد البريطانيون في ذلك غرابة، فإذا كان الوزير المحافظ وصل إلى مقر الحكومة بدراجة، فإن مايكل فووت Michael Foot، والذي كان زعيماً للمعارضة ١٩٨٠ ـ ١٩٨٣م، كان ينتقل من داره إلى مجلس العموم على قدميه حيث كان ينطلق صوته قوياً وفصيحاً ولم تكن «تاتشر» تستطيع مجاراته في القدرة الكلامية مع أنه عمالي، ولكنها الحرفية والإتقان التي عرف بها الساسة البريطانيون من ذلك الطراز الفريد الذي كاد أن ينقرض.

وكان «فووت» يرفض تغيير اللباس العمالي والذي كان يخطب به في الجموع العمالية والتي تحتشد لسماع صوته وكان لفرط حماسه وصدقه يبكي وينتحب فكان المحافظون من أصحاب «الياقات الزرقاء» يتسللون إلى المواقع التي يتحدث فيها «فووت» ليتعلموا منه فن الإقناع والقدرة الكلامية على جذب الناس. وبالمناسبة فهو أي «فووت» صحافي متقشف وله ما يقرب من ١٢ مؤلفاً من أهمها ما أطلق عليه اسم «القلم والسلاح» The Pen, and, the sword.

لم تتغير حياة «فووت» البسيطة إلى اليوم فهو الآن في التسعين من العمر وعندما رأى زميله «جورج غالاوي» يتعرض لحملة عدائية من «بلير» بسبب موقفه الرافض لسياسة بوش الإمبريالية، لقد خرج فووت عن صمته مع السياسي اللامع «توني بين» والذي ذهب إلى المحكمة في الستينيات الميلادية وخلع لقب «لورد» المتوارث في عائلته ودخل مجلس العموم نائباً بصفته الشخصية، وقدم الاثنان دعماً معنوياً لـ«غالاوي» ولم يغيرا مبادئهما.

والسؤال الذي يطرح نفسه ـ تُرى من أين اكتسب القوم هذه البساطة في الحياة؟ والتعامل مع أشيائها بعيداً عن الصنعة والتكلف؟؟ أليس في تراثنا الغابر الكثير من هذه الأمثلة الرائعة فأين ذهبت وكيف اندثرت؟ وترى أين منظرو اليسار واليسارية في العالم الثالث من هذا النموذج الفريد الذي عاشه «فووت» على مدى ما يقرب من عقد من الزمن بساطة وعفوية ونقاء والتزاماً بالقول الذي ترتفع أصواتهم به تحت قبة المجلس ثم يطبقونها على أنفسهم بكثير من الاعتزاز والرضا.

هل هذه هي نهاية الغُلوّ أم البداية في القضاء عليه؟؟

انتهت الجولة الثانية من الحوار الوطني ـ والذي ترعاه مكتبة الملك عبد العزيز بالرياض ـ ووقف المشـاركون يتحدثون بصراحة أمام سمو ولي العهد الأمير عبد الله بن عبد العزيز، وكانت الابتسامة ترتسم على محيَّاه وعلى وجوه أخوته من آل سعود، وفي هذا درس للمجتمع الذي تضيق به بعض فئاته فتحرم الآخر من قول رأيه أو تُقْصيه إن لم تتسبب في إيذائه وهذا يؤكد على أن المؤسسة السياسية متقدمة على بعض المؤسسات الدينية والفكرية ويفترض أن يترجم القائمون على هذه المؤسسات هذه المبادرة إلى سلوك عملي فيختفي قاموس التبديع والتفسيق والتكفير، ويزول هذا الأسلوب الاستعلائي الذي يمارسه البعض فيتخيل أنه ـ وحده ـ على الصراط السوي والنهج القويم، ويجب أن نعترف أن البعض ممن ينقصهم التعمق في مقاصد الشريعة الإسلامية قد أساؤوا إلى مجتمعهم كما أنهم شوهوا الصورة النقية التي يحملها المسلمون عن موئل الرسالة ومهد العروبة و الإسلام، فيتوجب على هؤلاء الابتعاد كلياً عن أساليب الغلظة والجفوة وأن يستبدلوا بها أساليب الحب والتي أكدها القرآن الكريم على لسان نبيه عندما امتدح سلوكه وخلقه بقوله المنزّه على كل شبه ونظير:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (سورة آل عمران: ١٥٩)، وخاطبه ـ عز وجل في موضع آخر بقوله ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ (الإسراء: ٢٨).

وإذا كانت هذه الآيات نزلت على من وصفت السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ خلقه الكريم بأنه كان تجسيداً لأوامر الله ونواهيه في القرآن، فإن من يحملون راية الدعوة المباركة والنصح و الوعظ المطلوبين، إنه من الواجب عليهم أن تكون سلوكياتهم قريبة من هذا المنهج الرباني.

ولقد فتح المسلمون قلوب الناس قبل أي شيء آخر بهذا المنهج فلقد أعلن الكاتب "Blasco - Jbanez" في كتابه المعروف في «ظل الكاتدرائية»: أن أسبانيا رقيقة الملوك اللاهوتيين والأساقفة «المحربيين» استقبلت غزاتها بذراعين مفتوحتين ففي سنين استولى العرب على ما استلزم سبعة قرون لاسترجاعه فلم يكن هناك اجتياح مفروض بالسلاح، بل مجتمع جديد يمد جذوره القوية في جميع الأنحاء، وينقل عنه المفكر جارودي أيضاً قوله «لقد كانوا حريصين على مبدأ حرية المعتقد، حجر الزاوية الذي تقوم عليه العظمة الحقيقية للأمم، أنهم قبلوا بالكنيسة النصرانية والكنيس اليهودي في المدن التي كانوا أسيادها، انظر: وعود الإسلام: ص ٥١ ـ ٥٢.

ويعترف المستشرق إدموند بوزورث (C. E. Bosworth) في بحث له أن المسلمين لم يَهْدموا كنيسة ولم يخرّبوا كنيساً في كل البلاد التي دخلوها وأصبح فيها الإسلام دين الأغلبية، ترى ماذا يقول أولئك الذين يحملون في أيديهم تلك المعاول الغليظة والحاقدة ليهدموا بها كل أثر

إسلامي يجدونه أمامهم بحجَّة سدّ الذريعة، فهل كان من قبلهم من أهل العصور الخيّرة مفرطين في دينهم ومتخاذلين في عقيدتهم أم أنهم كانوا يجسدون حقيقة دعوة الإسلام؟؟

الملف الأخلاقي في سياق الانتخابات الأمريكية

في خضمِّ الحملة الانتخابية بين الجمهوريين والديمقراطيين تسربت عبر الصحافة الأمريكية أخبار تتَّصل بالسلوك الشخصي لـ «جورج بوش الابن» والأمر لا يخرج أنه قبض على حاكم تكساس السابق عندما كان في الثلاثين من عمره وبالتحديد في سبتمبر ١٩٧٦م، وهو يسوق سيارته مخموراً، ويبدو أن عدم إفصاح «بوش» عن هذا السلوك الشخصي قبل ترشيحه من قِبَل حزبه لمنْصب الرئاسة هو الذي جعل منافسيه من الحزب الديمقراطي يحاولون إحراج الحزب الذي سعى حثيثاً لإقالة الرئيس بيل كلينتون بسبب فضائحه المتعددة قبل وصوله للبيت الأبيض وبعد دخوله إليه واستقراره فيه، كما أنه الحزب الذي يسعى لتسويق برنامج انتخابي يقوم على محاربة الفساد الخلقي ـ نسبياً ـ وبمقاييس غربية محضة، وهذا البرنامج الانتخابي المحافظ هو الذي دفع بمنافسه الديمقراطي «آل جور» لاختيار نائب رئيس كان بحكم يهوديته الأرثوذكسية من أشد المنتقدين لـ«بيل كلينتون» على سلوكياته خارج إطار الشرعية الزوجية، ولكن بعض الديمقراطيين وجدوا في «جوزيف ليبرمان» المرشح لمنصب نائب الرئيس عقلية يهودية متحجرة فهو لا يشعل ناراً في داره منذ مساء الجمعة حتى صباح يوم الأحد ويدخل في هذا رفضه لقيادة السيارة ـ لأنها تعمل بالوقود ـ والذي يصنفه اليهود بأنه شكل من أشكال «النار» التي يذيقون الآخرين

بها ـ الفلسطينيين على وجه التحديد ـ كل صنوف القتل والتدمير البربري والفاشي. . . إضافة إلى أن «ليبرمان» الذي جُلب لإصلاح ما أفسده سلوك الرجل الأول في البيت الأبيض، لم يجب صراحة عن السؤال الذي طرحه ـ مراراً ـ زعيم ما يعرف بـ «أمة الإسلام» «لويس فرخان» وهو إلى أين يتوجه ولاء «ليبرمان»؟؟ للولايات المتحدة الأمريكية التي يحمل جنسيتها، أو لإسرائيل التي تغذي روحه ووجدانه وفكره بكل أصناف التفكير الحاخاماتي المتشدد؟؟

وفي إطار القضية ـ نفسها ـ فإن المرشح «بوش» برز عدم اعترافه بهذه القضية الأخلاقية على العكس من نائبه «ريتشارد تشيني» الذي اعترف عند تسميته في عام ١٩٨٩م وزيراً للدفاع بأنه قبضَ عليه عندما كان في العشرينيات من عمره في حادثة مشابهة. . . لقد برر المرشح الجمهوري المحافظ ذلك الصمت على ماض مخجل، بأنه لم يشأ أن يفجع ابنتيه البالغتين من العمر «١٨ عاماً» وترك الأمر لوالدتهما وأنه حريص على ـ حد تعبيره ـ بأن لا يُقَلَّد من أبنائه وهم في سن المراهقة بما وقع له من محظور أخلاقي معترفاً في السياق نفسه بأنه لم يُقْلِع عن هذه العادة السيئة إلا عند بلوغه الأربعين.

. . . إلا أن السؤال الذي يطرح نفسه على المجتمع الغربي الواقع إلى أذنيه في مشاكل وسلوكيات أخلاقية مرفوضة، هل من المنطقي أن يرفض هذا المجتمع غياب عقل الإنسان عندما يقود مركبته فقط؟ ولماذا لا يكون الرفض منصباً على مساوىء احتساء الخمر في كل الأحوال؟ وخصوصاً أن المؤسسات الغربية العلمية تدفع كل يوم بمعلومات عن المساوىء المترتبة على قيام علاقات غير شرعية وخارج إطار الحياة الزوجية، وبلغت هذه

المساوىء ذروتها في انتشار داء الإيدز الذي اعترفت بعض المؤسسات الغربية الدينية بأنه عقاب من الله على الممارسات الشاذة.

. . .وأنه شيء حسن بأن يطالب المجتمع الغربي قادته ورؤساءه بهذه الشفافية والاعتراف بأنهم أقلعوا عما يمكن أن يتسبب في إعاقاتهم عن القيام بأعمالهم على الوجه الصحيح، ولكن لماذا لا يُنظر إلى هذه السلوكيات السيئة ضمن رؤية أشمل يتساوى فيها الفرد العادي مع الإنسان المسؤول؟؟ وأن ملفاً كهذا يمكن فتحه ليس فقط في خضم الانتخابات الرئاسية ثم يتم إغلاقه بعد دخول المسؤول المؤسسة الرسمية. . . ولكن يُفترض من وجهة نظر موضوعية أن يواجه المجتمع الغربي نفسه بهذه العادة السيئة وغيرها من العادات الأخرى في جميع الأحوال وعلى كل الصعد، حتى لا يقع في ازدواجية جديدة وسيئة.

. . .أما الدرس الذي يمكن أن تفيد منه مجتمعاتنا العربية والإسلامية، فهو أن الغرب محاصر بمشاكل أخلاقية عديدة ولهذا فإن دعاة الانفتاح على معطيات الحضارة الغربية دون تمييز أو الأخذ بمعايير دقيقة إزاء هذه المعطيات يجب عليهم التبصر في ما يمكن أن يترتب على مثل مطالبهم المتعجلة والمندفعة والمحكومة بعقدة الغرب في بعض الأحيان.

. . .إلا أن هذا الغرب الذي يَظَلُّ موضع إعجاب للبعض، وموضع نقد للآخرين هو مجتمع لديه القدرة على الاعتراف بمشاكله ورصدها رصداً دقيقاً وإن كان في كثير من الأحيان يصعب عليه الاعتراف بأن كثيراً مما يشكو منه مرده إلى الابتعاد عن منهج الله في هذا الكون.

دعونا من بدوي وحضري وقبيلي وخضيري ومبتدع ومتبع

الكاتبة الفاضلة سهيلة زين العابدين حماد ـ مدينة المصطفى ـ ﷺ ـ.

إن ذلك خير وأشرف عنوان وأكرم وأجل منتدى أخاطبك منه. . . ذلك البلد الذي يضم جسد أشرف مخلوق، وأزكى نفس، وأعظم رحمة مهداة للبشرية ـ جميعاً. سيدنا وحبيبنا محمد ﷺ، شفيع الأمة ووسيلتها إلى رب العباد في يوم الميعاد.

إنني لأعلم نصاعة قلمك، وحسن خلقك، وأنك تربيت في بيت فضل وإحسان وكل مدينة الحبيب ﷺ فضل وحب ووداعة وإحسان ونور ومدد وضياء.

لقد قرأت مكاشفات الصحافي المتميز الأستاذ الكريم عبد العزيز قاسم على صفحات الجريدة التي أحببتها منذ سن الطفولة ويفاعة الشباب، قرأت مكاشفاته مع الدكتورة الفاضلة عزيزة المانع، وقرأت مداخلتك معها، وتوقفت عند المداخلة الأولى وتمنيت لو أن غيرك دخل هذا المدخل الصعب مع أن الدكتورة عزيزة ـ بحسب معرفتي ـ أبعد ما تكون عن هذه الفئوية البغيضة، ولعلك لا تعلمين ـ يا أختاه ـ أن والد أبنائها هو من آل

المعيقل، ومع أنها أسرة ترجع في جذورها إلى شمال المدينة المنورة ومن قبيلة (بلي) المعروفة، إلا أن آل المعيقل سكنوا الحجاز وخصوصاً مدينة المصطفى ﷺ ومنهم جيران لنا في حي العنبرية وقباء، عبد الحميد المعيقل،وعودة وحمدان المعيقل، أما زوج الدكتورة عزيزة الأخ الدكتور عبد الله المعيقل فهو ولد وعاش هو وأخوة له في مدينة جدة، وأسرته من أكرم من عرفت خلقاً وفضلاً، وكان آل المعيقل في مدينة (ينبع) يعتبرون هكذا ـ من أهل الصلاح والتقوى وفيهم من هو حافظ لكتاب الله ومتفقه في دينه ولو كانت الدكتورة عزيزة تجد في نفسها شيئاً من أهلنا في (الحجاز) لما اختارت شريك حياتها وقدمته على سواه، ولكنها ضربت مثلاً عالياً في كسر بعض التقاليد الفئوية التي إن وجدت عند البعض فإنه لا يحق لنا أن نعممها على الآخرين، ولم تكن الدكتورة عزيزة عند إجابتها لما يتميز به أهل الحجاز عند قولها (كان أهل الحجاز أكثر تمدناً في الأطعمة واللباس والأثاث وفي بعض العادات) بنافية عند الآخرين تحضرهم في أشياء أخرى ومما خصهم الله به من علم في رحاب المسجدين الطاهرين منذ سالف العصور.

وأضيف أن الزميل المهذب الأستاذ خالد السليمان والذي أعرفه عن قرب وسبق لي الاجتماع معه في منزل صديق الجميع الكاتب المعروف الأستاذ سامي خميس نعم إن الأخ لهو من أكثر الناس سعة أفق، ورحابة فكر، وإنه ليجسد أنموذج المثقف الواعي والوسطي والمعتدل وهو ينتقد التشدد أينما وجده في هذا الجانب أو ذاك، وقلة اليوم من كتابنا ممن يجسدون هذا السلوك فالانتقال من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، ومن هذا الأخير إلى ذاك الأول هو سمة البعض مما أحدث تشويشاً واضطراباً

فكرياً مدمراً، وقلت من قبل إن الذين يكونون في أقصى الجانبين لن يكون بمقدورهم أن يحجزوا مقاعد لهم في الوسط لأن دواخلهم غير مهيأة لذلك.

إنني لأعلم أيها الكاتبة مقدار غيرتك على محارم الله، ودفاعك عن لغة القرآن، ووقوفك إلى جانب من نادوا منذ عقدين من الزمن على الحفاظ على هويتنا الفكرية والأدبية، وأعلم أنك ربما اختلفت مع الآخرين ولكن هذا لا يمنعك من مراجعة هذه الوقفة الأخيرة التي لم تكن المداخلة فيها مع الدكتورة المانع إلا تنفيساً عن كلام سمعته يا أختاه من سفهاء القوم حتى وإن كانوا على قدر من التعليم، أما العقلاء والحكماء فإنهم أكثر ما يكونون حرصاً على تماسك وحدة الوطن وعدم التفريط فيها، إن بيننا يا أختاه من يستعمل مثلاً كلمة (بدوي)! في موضع التحقير، ولكنه أيضاً من فعل السفهاء فكلمة (بدوي) تعني البساطة والشهامة والكرم ولقد سمعتها في بعض أوساط المثقفين فرفعت صوتي منكراً لها، فوالدتي من بادية حرب المشهورة ولكنها منذ سكنت المدينة الطيبة منذ حوالي نصف قرن من الزمن أو أكثر لا تريد مفارقة الجوار الطيب وهي تحدثني عن العنبرية وقباء والتاجوري وحوش مناع وحوش عميرة وزقاق جعفر وحوش شنان أكثر مما تحدثني عن مرابع طفولتها في الفقرة وعرقوس.

ومع أن والدي يعود في جذوره إلى قبيلة (غامد) المعروفة إلا أن خؤولته من حاضرة المدينة وقليل من يعرف أن الرجل الذي كان يعتمر العمامة الحجازية الصفراء ويجالس السيد عباس حماد المنفلوطي وعثمان أبو عوف والسيد عباس سقاف، والسادة حيدر مشيخ وعبد الله بافقيه وعبيد مدني وأحمد محضار، هو الرجل الذي كنا نرى في مجلسه مشائخ حرب

من آل عساف وغيرهم، ونفر من أسرة آل الخريجي والتركي والدخيل وهي أسر كريمة سكنت المدينة واندمجت في هذا المجتمع الحضاري وأضحت جزءاً منه وكان يعلمني ويحفظني على فطرته هذا البيت الشعري الصادق.

كن ابن من شئت واكتسب أدباً يغنيك محموده عن النسب

ومع معرفته ـ رحمه الله ـ بأنساب الحاضرة والبادية ـ معاً ـ كان إذا سئل عن نسب بعينه احمرت وجنتاه واكتفى بالقول: الأصل طيب!، وقال لواحد من أهل العلم يوماً في معرض سؤاله عن نسب أسرة معينة في المدينة، لقد عاش بيننا ـ أي المدينة ـ أناس لم يكونوا أبناء أحرار، ولكن فعلهم كان فعل أبناء الأحرار، نعم إنه الفعل يا أخت (سهيلة)، وإنني لأبكي حرقة اليوم من وضع سيىء تردى البعض فيه فإذا اختلفنا ـ مع بعضنا البعض عيّر أحدنا الآخر بأصله أو صنعة آبائه وأجداده، ويفترض أن تقود أقوال المحبة والألفة وسلوكيات الحكمة المجتمع إلى شواطىء المحبة والوداد، وإنني لأرفع صوتي قائلاً دعونا من حضري وبدوي وخضيري وقبيلي ونجدي وحجازي وشمالي وجنوبي وأيل ودخيل وصوفي وسلفي، وشيعي، وسني، ندعو الله أن نجتمع على حب هذا الوطن والانخراط في مكتسباته الوحدوية والاجتماعية والحضارية.

ليس دفاعاً عن نزار. . . ولكن!!

كتب الدكتور سليمان الشمري مقالاً في صحيفة الوطن «الثلاثاء ١٣ رجب ١٤٢١هـ» عن النقد الثقافي، محمِّلاً الشعر جزءاً كبيراً من مأساتنا الفكرية والحضارية، وهو يدافع بحماس ملحوظ عن الذين جعلوا من الشطرنج والبلوت «وللتأريخ فالناقد عابد خزندار أول من تعرض للنقد الثقافي قبل أقل من عقدين من الزمن في صحافتنا المحلية» جعلوا من فنون التسلية هذه ميداناً لأدواتهم النقدية مهمشين بهذا التحول الثقافة الجادة لصالح الثقافة التي تدخل في ضياع الوقت وإهداره، وكان الأولى بالدكتور «الشمري» أن يكون أكثر جرأة ـ وهو الذي دعا في مقاله لدراسات استشرافية من خلال جهود المفكرين أو المؤسسات التي ينتمون إليها ـ كان الأولى والأجدر بهذا القلم الواعي أن يبحث في أسباب أن يُعلن ناقدٌ أو كاتبٌ ـ ما ـ فجأة موت النقد الأدبي بعد أن أعلن قبل عقد من الزمن موت المؤلف؟ ولماذا الفرار من المعركة دون بحث في أسباب هشاشة البنيان لحركة كنا نعوِّل عليها كثيراً في تغيير الوجهة الأدبية لصالح تحوُّل حضاري تفيدُ منه الأمةُ في حاضرها والتي هي أحوج ما تكون فيه للسَّاري والدليل؟؟ ولماذا لم يتعرَّض كاتبنا الكريم للشعارات التي تطرحها حركاتٌ وتوجهاتٌ عديدة في عالمنا العربي ـ ونحن جزء منه ـ ثم تنهزم ـ أو ينهزم دعاتها ـ أمام القدرة على تحويل هذه الشعارات إلى حقائق ماثلة،

وقيام هذه الحقائق يقي الأمة مغبَّة الفجيعة في مثقفيها ومفكريها، كما يحفظ عليهم توازنهم الفكري فلا يخرجون على الساحة بتقليعات أدبية ليس لديها القدرة على التصدِّي والمقاومة ومن البداهة بمكان أن من وُلد ضعيفاً ـ حتى وإن كثر الضجيج حوله ـ سرعان ما تنطفىء جذوته، وتأْفلُ شمسه، ولا يجد حتى من يواريه الثرى حفاظاً على كرامته.

لقد كان حماس الدكتور «الشمري» مفرطاً لصالح إلغاء الشعر من حياتنا الأدبية والفكرية، ووصْم الشاعر بسمات الطغيان والتسلط، وتحميل هذا الفن الأدبي الرفيع بدءاً من إلياذة «هومير» ومروراً بروائع الفردوس والمعري والخيام وإقبال وشوقي وحمزة شحاتة، ونزار قباني، وأمل دنقل، ومحمود درويش، «تحميله» مسؤولية تخدير الأمة، مما جعل التناقض يبدو صريحاً في مقولة مَنْ دافع عنهم دكتورنا العزيز، عندما شبَّهوا شاعراً عربياً قديماً بـ «الشحاذ» وآخر «بطاغية العصر»، وتناسى الدكتور «الشمري» أن العيب ليس في الشاعر، والنقيصة ليست في الشعر بل هي في كيفية استخدام الكلمة سواء هذه الكلمة كانت بيتاً من الشعر، أو قطعةً أدبيةً من النثر، أو لوحة زاهيةً من الفن، أو مقولةً نقديةً تريد التَّعمية على عيوبها الذاتية من خلال إسقاطها على الآخرين، ويمكن القول بكل «حياديّة» أن لشاعر كبير مثل «نزار قباني» مثالبه وسقطاته كما أن له تاريخه الطويل مع الكلمة الشعرية الفاعلة والإيجابية والحية.

ولعله من الإنصاف أن ننظر إلى ذلك الحسِّ الاستشرافي لديه والذي دعا إليه كاتبنا الشَّمري بينما هو موجود عند البعض ومفقود عند آخرين.

يقول «نزار» وكأنه يعيش حال «الأمة» وجزعها من السَّفاح اليهودي الذي يقتلُ بدم بارد الطفل العربي.

وطني!
يا أيها الصدر المغطَّى بالجراح
وطني
من أنت؟ إن لمْ تنْفجرْ
تحت إسرائيل، صندوق سلاح.

وهل نسي الدكتور «الشمري» وهو في غمرة الاندفاع أو الدفاع عن شطب اسم «المتنبِّي» و«نزار» وغيرهما لصالح معرفة نسق «الصَّنْ» و«الشُريا» إن نسي هو، فلن تنسى الذاكرة العربية «لا تصالِحْ» أمل دنقل، و«عابرون في كلام عابر» تلك الملحمة الشعرية النضالية إن صح التعبير ـ التي قال عنها الإرهابي «إسحاق شامير» إنها أَقَضَّتْ مَضْجَعَه، وعندما قام ـ أخيراً ـ وزير التعليم الإسرائيلي بطرح فكرة تدريس بعض قصائد محمود درويش وغيره في المدارس الإسرائيلية لمعرفة هذا الآخر العربي المقهور، قامت الدنيا ولم تقعدْ في «الكنيست» وخارجه، فالكلمة الشعرية الصادقة قادرة على التحويل، وتستطيع صنْع مستقبل الأمة ورسم ملامحه، وتفجير الطاقات الكامنة في أبناء هذه الأمة التي جنى عليها بعض الباحثين في الفكر السياسي، والتنظير الحضاري، والفعل الثقافي أكثر مما جنى عليها الشعر الحي الذي منحه قيمته الحقيقية رسول الأمة وهاديها عليه ـ صلوات الله وسلامه ـ عندما قال لحسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ «أهجم وروحُ القُدُس معك»، فكانت قصيدته المعادل الحقيقي لسيف «خالد بن الوليد» في معركة الأمة مع الطغيان والتسلط.

النموذج الأمريكي وكتابة المذكرات الشخصية

حفلت الصحافة البريطانية في الأشهر الماضية باستعراض لعدد من مذكرات الشخصيات السياسية والفكرية من أهمها مذكرات وزيرة الصحة السابقة في حكومة جون ميجور. والذي خلف تاتشر في زعامة حزب المحافظين ـ وكشفت الوزيرة ذات الجذور اليهودية عن علاقة خاصة وغير شرعية مع رئيس الوزراء ـ آنذاك ـ ميجور، مما تسبب في أزمة عائلية بين ميجور والمرأة التي شاطرته حياة الشظف والشدة قبل أن يصعد السلم في حكومة تاتشر ويصبح وزير خارجية ثم وزيراً للمالية، وكانت تاتشر تدفع دوماً بالأسماء المغمورة أو المهملة لتكون في الواجهة ويفسر البعض ذلك بأنه انتقام من الطبقة الارستقراطية في الحزب والتي كانت تعتبر «تاتشر» دخيلة على الحزب وتدعوها بابنة البقال.

ثم أخرج لورد «تيبيت» مذكراته ـ وقد قامت الصحافة البريطانية بعرض موجز لها قبل خروجها للأسواق، فتفاجأ الوسط السياسي والفكري برفع دعوى قضائية ضد «تيبيت» Tepit المعروف بانتمائه لليمين المحافظ في حزب المحافظين وكان أحد المقربين من تاتشر والمرشحين لخلافتها، وكان رفع الدعوى ضد «تيبيت» على خلفية تعرضه للعلاقة غير الشرعية بين وزير الطاقة السابق سيسيل باركنسون وسكرتيرته «سارة كييز» Sara

Keays فهذه الأخيرة طلبت من المحكمة أن يقوم المؤلف بحذف الجزئية الخاصة بهذه القضية والتي تسببت في عزوف تاتشر عن ترشيحه لمنصب وزير خارجية في حكومتها الثانية ١٩٨٣م ثم اضطراره للاستقالة بعد أن تعرضت الصحافة للتفاصيل الدقيقة في هذه القضية، وكانت حجة «كييز» في طلب الحذف بأن ذلك سوف يتسبب في متاعب نفسية لابنتها والتي اعترف باركنسون بأبوته لها لاحقاً.

وكان مسلسل هذه الفضائح بدأ مع استقالة وزير الحربية في حكومة هارولد مكميلاني المحافظة ١٩٦٣م «جون بروفيومو» John Profumo، لتورطه في علاقة مشبوهة مع كريستين Christine Keeler والتي كانت في نفس الوقت على علاقة مماثلة مع مساعد الملحق السوفيتي العسكري في بريطانيا مما يوحي باختراق الأجهزة السوفيتية المخابراتية وتغلغلها داخل بريطانيا أثناء الحرب الباردة، ليست العلاقة، وحدها ـ هي التي أدت إلى استقالة «بروفيومو» والذي عمل نجاراً بعد فقدانه لمنصبه، إلا أنه اعتبر نفيه للعلاقة مع «كييلر» بمثابة كذبة على أعضاء مجلس العموم وإن أشد الأسلحة فتكاً ضد النواب الإنجليز هو اتهامهم بالكذب على زملائهم واعتبار ذلك سلوكاً شائناً في حق الوطن.

وأدت حملة صحافية على زعيم حزب الأحرار في السبعينيات الميلادية ١٩٧٦م إلى استقالة «جيرمي ثورب» Jermy - Thorpe وكانت الحملة تتعرض لبعض سلوكيات «ثورب» الشخصية واقتران اسمه بمحاولة قتل لشخص ما والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا حفل شارع الصحافة البريطاني على مدى شهور عدة بعدد من المذكرات بينما كانت مذكرات الشخصيات السياسية والفكرية الغربية تتباعد في صدورها وكانت هذه الشخصيات في

الماضي تتخوف من إفشاء الأسرار الخاصة بالمؤسسات التي تنتمي إليها فكرياً وأيديولوجياً ولا تنشر ما يدخل في باب مصالح الدولة العليا؟ وهل يمكن إرجاع ذلك إلى أن بريطانيا تحاول تقليد أمريكا في كل شيء حتى في قضايا الكشف عن الأسرار الخاصة، وكانت آخر الصيحات الصحافية هو تطلع الوسط الصحافي الأمريكي بكثير من الوله والشغف لخروج مذكرات عضوة الكونجرس الأمريكي عن مدينة نيويورك «هيلاري كلينتون» وخصوصاً أن هيلاري ظلت وفية لوالد ابنتها ـ شيلسي الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون في ظل الظروف التي أحاطت بحياته الخاصة.

أم أن العامل المادي والذي يعتبر جزءاً هاماً من الحضارة الغربية المادية هو السبب وراء نشر المذكرات والتي يجني من ورائها أصحابها مبالغ طائلة حتى ولو تسببت في إحراج شخصيات ورموز في الحياة العامة وربما لتفكك أسري؟

ولقد كانت المذكرات في الماضي تمتلىء بالمعلومات التاريخية الهامة ولكنها اليوم تركز على الإثارة، فهل هذا جزء من ثقافة «الهامبورغر» والتي تسعى أمريكا لتسويقها في معقل الأوساط الأوروبية المحافظة نسبياً وفي مقدمتها بريطانيا والتي يتجاذبها تياران أحدهما أوروبي والآخر أمريكي؟؟

برنامج بانوراما من المتهم إلى الضّحية!

تعتبر القناة التلفزيونية البريطانية بي.بي.س (B. B. C) من أكثر القنوات الغربية رصانة، ومقارنة بكثير من القنوات الأمريكية تعتبر قناة محايدة وخصوصاً فيما يتصل بقضايا الشرق الأوسط، والصراع العربي ـ الإسرائيلي.

دخلت القناة ـ أخيراً ـ في جدل ساخن ومثير مع الحكومة البريطانية العمالية ـ الحالية ـ من جهة وحكومة شارون الليكودية المتطرفة من جهة أخرى، وكان المحور الذي دار حوله جدل مع الحكومة هو مصداقية الأخيرة فيما يتصل بالذرائع التي قدمها «دواننغ ستريت» لغزو العراق وهو جدل أثارته أصوات عمالية من باب حفاظها على استقلالية الرأي البريطاني السياسي.

وأما إسرائيل التي تزعم الدوائر الأمريكية بأنها واحة للديمقراطية، فلقد أدى بث فيلم وثائقي عن الترسانة النووية ـ الإسرائيلية، إلى جموح «بغل» الليكود إلى الحد الذي استدعت فيه الخارجية الإسرائيلية السفير البريطاني في إسرائيل من باب الاحتجاج على صنيع قناة تلفزيونية عريقة ومستقلة مثل: (B. B. C) واحتجاج إسرائيل على حرية الإعلام الغربي أو محاولة بعض مؤسسات هذا الإعلام عدم الرضوخ لضغوط اللوبي الصهيوني يذكّر

ـ أيضاً ـ بموقفها عام ١٩٨٦م، وذلك عندما قام الخبير الإسرائيلي «موردخاي فانون» Mordechai Vanune بتسليم صحيفة الصنداي التايمز اللندنية عدداً من الصور الحقيقية والمعلومات الموثقة عن البرنامج النووي الإسرائيلي في دايمونا (Dimon)، ولقد كشفت تلك المعلومات التي أدلى بها «فانون» وأدت إلى إصدار حكم قضائي عليه ـ بالسجن لمدة عشرين عاماً بعد اختطافه من إحدى الدول الغربية ـ عن امتلاك إسرائيل لما يقرب من (١٠٠) رأس نووي ـ ومع أن محرر التايمز Avigdor - Feldman يسعى منذ شهر أكتوبر العام الماضي ٢٠٠٢م لتجييش حملة إعلامية وإنسانية لإطلاق «فانون» قبل عام ٢٠٠٤م وذلك خوفاً من فرض عقوبات إضافية عليه، إلا أن الاستجابة الإسرائيلية تكاد تكون منعدمة وخصوصاً في ظل تخاذل الأمم المتحدة في الاستجابة لمطالب أنصار «فانون» من دعاة السلام والحرية. . . بعد صعود شارون للحكم في إسرائيل، قدمت قناة B. B. C فيلماً وثائقياً هاماً عن دور شارون في مجزرة صبرا وشاتيلا أثناء غزو البلد العربي ـ لبنان في عام ١٩٨٢م وإشراف شارون الشخصي ـ كما يقول عدد من شهود الحادثة الأحياء ـ على تصفية العزَّل من الفلسطينيين في المخيم البائس على أيدي عناصر حزب الكتائب والذي قامت إسرائيل بتصفية الرجل الهام فيه «إيلي حبيقة» بعد توعده بكشف حقائق المجزرة أمام المحاكم البلجيكية المستقلة.

وقد حمل الفيلم الوثائقي عنواناً مثيراً وهو «المتهم»! وقد دخلت القناة نفسها في مواجهة شديدة مع رئيسة الحكومة البريطانية السابقة ـ عندما طلبت هي ووزيرها في إيرلندا الشمالية «توم كنغ» Tom King من القناة تزويدها بفيلم يدين منظمة الجيش الجمهوري الإيرلندي، وزعيمها السياسي

المعروف جيري آدمز Gerry Adams في حادثة اعتداء على جنود بريطانيين، ورفضت القناة تزويد الحكومة بالفيلم، وكان هدف تاتشر من الحصول على مثل هذه الوثيقة هو حظر المنظمة وزعيمها من كل أشكال الظهور السياسي والإعلامي ولقد وقر في ذهن «تاتشر» أن كلاً من المقاومة الإيرلندية والكفاح الفلسطيني أمر يدخل في باب الإرهاب، ولهذا كانت ترفض لقاء أي مسؤول فلسطيني، إضافة إلى خلفيتها الدينية اليهودية التي جعلت منها شخصية منغلقة على التوجهات والآراء الأخرى.

هذا سجل حافل بالمآثر للقناة التلفزيونية والتي تبث برامجها باللغة الإنجليزية ويأتي برنامج (Panorama) الشهير في مقدمها برامجها المتميزة إعلامياً وفكرياً.

لقد استطاعت هذه القناة أن تتخلص من كثير من الضغوط السياسية ومن يعرف قصة الإعلامي والصحافي البريطاني المعروف «كريستوفر مايهو» Christopher Mayhew عندما أجرى لقاء أثناء حرب حزيران ١٩٦٧م مع الرئيس الراحل جمال عبد الناصر والضغوط التي مارستها بعض الشخصيات المسؤولة في الحكومة والمؤسسة الإعلامية لعدم بث اللقاء، من يعرف ذلك فإنه سوف يشعر بأن هذه القناة قد قطعت شوطاً كبيراً لتتخلص من النفوذ، السياسي البريطاني والصهيوني على حد سواء، وليبقى برنامجها الأسبوعي المثير «بانوراما» موضع احترام وتقدير من كثير من أنصار الكلمة الحرة والمحايدة بنسبة كبيرة في عالم أضحت ـ اليوم ـ تسوده رؤية واحدة وتريد فرض نفسها بجميع القوى السياسي منها والإعلامي والفكري، وهذا خطر لا تواجهه أمة بمفردها ولكن العالم بأسره والحضارة الإنسانية في تاريخها العريق.

المدينة المنورة في كتابات المؤرخين الإسلاميين(١)

الحلقة الرابعة: علي موسى الأفندي

لم يعثر له الأستاذان حمد الجاسر، والسيد عبيد مدني ـ رحمه الله ـ على ترجمة وافيه له، إلا أن السيد المدني يؤكد أنه كان حياً، إلى عهد الفريق أحمد شاكر باشا، محافظ المدينة المنورة، نحو ١٣١٩ ـ ١٣٢٠ هـ، كما رواه له بعض المعمرين، من سكان المدينة المنورة(٢).

إلا أننا عثرنا على إشارة موجزة عنه في «مرآة الحرمين» لإبراهيم رفعت باشا، الذي أثبت له قصيدة تقع في اثنين وسبعين بيتاً، يتحدث فيها عن واقعة رد بعض قبائل حرب للمحمل الشامي، في ٢٦ من شهر ذي القعدة سنة ١٢٩٥هـ؛ فقدم لهذه القصيدة قائلاً: «وها نحن أولاء، نذكر لك القصيدة على علاتها ـ التي قالها علي موسى الأفندي، ثاني أئمة المالكية بالمسجد النبوي»(٣).

---

(١) الخميس ـ ١٤٠٢/٣/١٢هـ ص٤ ـ عدد ٥٤٠٩ ١٩٨٢/١/٧م.

(٢) رسائل في تاريخ المدينة المنورة، تقديم: حمد الجاسر، ص ١٠.

(٣) مرآة الحرمين ـ للواء إبراهيم رفعت باشا: ج٢٦٥ ـ ٢٦٦، ط١. ١٣٤٤هـ ـ ١٩٢٥م، كما أوردها نقلاً عنه فضيلة السيد علي حافظ في كتابه المخطوط «شعراء المدينة المنورة».

والقصيدة تتضمن تسجيلاً دقيقاً لهذه الحادثة، التي انتهت بفوز ساحق لسلطة المدينة العسكرية على رجال قبيلة حرب، وهو أمر نادر الحدوث؛ حيث ظلت هذه القبائل تكسب معظم جولاتها مع جميع الأطراف، طوال القرنين الثاني والثالث عشر الهجري[١].

ويحدثنا الشاعر، خلال عرضه، عن كثير من الشخصيات المعاصرة له، والتي قد تلقي ضوءاً على الفترة الزمنية، التي عاشها المؤلف؛ فهو يذكر سعيد باشا، ومحسن ابن حازم، وصبري باشا[٢] وسعد بن حذيفة[٣].

ولعله ليس بالغريب عليه العناية بتسجيل مثل هذه الحادثة: لصلتها بوظيفته، التي ذكرها السيد عبيد مدني ـ رحمه الله ـ وهي رئاسة القلم العربي في ديوان محافظ المدينة، واسم الوظيفة، في تصنيف الوظائف في العهد العثماني: «باش كاتب»[٤].

ويرى الدكتور عمر الفاروق السيد رجب أن اشتغال هذه الشخصية المجهولة، نسبياً، بالعمل في دواوين المدينة الحكومية لسنوات طويلة ـ كان له أثر واضح في تقديم مؤلفه عن تاريخ المدينة، بذهن لامع، ومنهج واضح؛ حيث يظهر ذلك في منهجه في التبويب والتصنيف، وفي عدم

(١) لم يذكر الأستاذ عاتق البلادي في كتابه «نسب حرب» هذه الحادثة، مع أنه عنى بتسجيل وقائع حرب وأيامها.

(٢) باش وباشى: لا علاقة لها بلقب باشا، فهي لفظ تركي، معناه رأس، وإذا وردت في الاستعمال العربي، في أول الكلمة، كتبت جاش، وإذا وردت في نهايتها كتبت باشى، انظر: من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي ـ محمد أديب غالب: ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

(٣) انظر عن هذه الشخصية ودورها في أحداث تلك الفترة: مرآة الحرمين: ١٠٨/٢.

(٤) رسائل في تاريخ المدينة: ص١٠.

الاستطراد بتاتاً، وفي الدقة البالغة في الوصف[1].

ومؤلفه الذي سوف نعرض له هو وصف المدينة المنورة في سنة ١٣٠٣ هـ ـ ١٨٨٥م.

ويرى المرحوم السيد المدني أن قيمة هذا الكتاب تتحدد في أنه جاء على غرار كتب الخطط، التي وضعها المهتمون بأوطانهم؛ كالمقريزي ـ من القدامى، والأستاذ محمد كرد علي ـ من المحدثين[2]، ويتردد بين اعتباره أول ما وصل إلينا من نوعه، أو أنه سبق بمؤلفات قبله؛ ككتاب شمس الدين بن عمار (٧٦٨هـ/ ٨٤٤ هـ ـ ١٣٦٧م/ ١٤٤٠م) المعروف باسمه فقط «العناية الإلهية في الخطط المدنية» وكتاب ابن طولون الصالحي (٨٨٠ ـ ٩٥٣ ـ هـ ١٤٧٥ ـ ١٥٤٦م المعروف باسمه ـ أيضاً ـ فقط (المحاسن اللطيفة في معاهد المدينة الشريفة).

ويضيف الدكتور عمر الفاروق ـ إلى هذين المؤلفين ـ مؤلفاً آخر في الموضوع نفسه للسيد عبد الحي بن عبد الكريم الحسيني الكناني الإدريسي، وهو التراتيب الإدارية والعمارات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدينة الإسلامية، مؤكداً أنه طبع طبعة وحيدة في الرباط بتاريخ ١٣٤٦ هـ ـ ١٩٢٦م.

لقد احتفظ الكتاب بمصور جغرافي للمدينة المنورة[3]، حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، إلا أنني لا أسلم برأي الدكتور الفاروقي في

---

(١) المدينة المنورة ـ للدكتور عمر الفاروق السيد رجب، ص١٧ ـ ١٨، ط١ ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩م.

(٢) رسائل في تاريخ المدينة: ص ٨.

(٣) المدينة المنورة للدكتور عمر الفاروقي: ص ١٨

اعتبار الكتاب صورة للمدينة المنورة، ووصفا لها، خلال العصور الوسطى برمتها[1]؛ وذلك لتعرض المدينة في خلال هذه العصور لعدة تغييرات أملتها عوامل عديدة يتصل بعضها بوضعها العسكري، خلال معظم فترة حكم الخلافة العثمانية، ويتصل بعضها الآخر بوضعها الاجتماعي الخاص بين مدن منطقة الحجاز الأخرى.

فعوامل الهجرة إليها من جميع أقطار العالم العربي والإسلامي؛ لأنها المنفذ الوحيد إلى تلك البلاد، ولما نشأ من صراع بين طبقات المجتمع المدني، والذي أذكته عوامل متعددة لا يتسع المجال لبحثها هنا، وهذا في نظري ما جعل المدينة عرضة لتغييرات كثيرة، خلال الفترة، التي تحدث عنها الدكتور الفاروقي.

والمتصفح لهذا الكتاب يجده يختلف تماماً عن بقية المؤلفات السابقة، التي عنيت بتاريخ المدينة، على مر العصور، ولقد وضح المؤلف منهجه في المقدمة التي أشار فيها إلى سبب وضع هذا المؤلف؛ وهو الاستجابة لطلب[2] السيد علوي أفندي ابن السيد عبد الرحيم السقاف، وهو جد السيدين عمر عباس سقاف رحمه الله وزير الدولة للشؤون الخارجية ـ سابقاً[3]، وأخيه السيد علوي ـ أمد الله في عمره.

لقد وضح ذلك المنهج قائلاً: (اخترت بيان التعارف ـ الآن ـ بحسب الزمان والمكان، لا على ما تغيرت مراسمه، واندرست معالمه؛ لأن ذلك

(١) المصدر السابق نفسه: ص ١٧.

(٢) مقدمة الرسالة: ص ٤.

(٣) وصف الرسالة بقلم الشيخ حمد الجاسر: ص ١٤.

شرحه يطول؛ فإن في «الخلاصة» «والوفاء» للسيد السمهودي[1]، وفي «تاريخ العباسي المدني»[2] من الإيضاح القديم ما يغني عن ذلك[3].

ويمكن إيجاز الجوانب التاريخية الهامة في هذه الرسالة في النقاط التالية:

يعد الكتاب مصدراً في معرفة علماء المدينة وأعيانها ووجهائها في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الهجريين.

يشير إلى بعض النواحي الإدارية للمدينة في تلك الفترة؛ كالخزينة الديوانية، مجلس الإدارة، دار الحكومة.

يشير إلى بعض الوظائف العسكرية بها، قائمقام، ميرالاي[4] وبعض الوظائف الخاصة بالحرم النبوي الشريف، شيخ الحرم النائب، الخزندار، المستسلم، النقيب.

يشير إلى النواحي التعليمية فيها، الكتاتيب، المدارس، مع تحديد مواضعها، ووصفها وصفاً كاملاً؛ فمن تلك المدارس التي وجدت في المدينة ـ في ذلك العصر ـ المدرسة المحمودية، والمدرسة الحميدية، ومدرسة بشير آغا، ومدرسة الساقزلي، ومدرسة الأزبك، ومن الكتاتيب العديدة بها: مكتب الرشدية لتعليم الفنون؛ من نحو، وصرف، واللسان التركي، والرسم، ومكتب لتعليم اللسان الفارسي.

---

(١) أراد كتابي السيد السمهودي «وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى» و«خلاصة الوفاء» ٣.

(٢) أراد كتاب أحمد عبد الحميد العباسي «عمدة الأخبار في مدينة المختار».

(٣) مقدمة الرسالة: ص ١٥.

(٤) الآي: لفرقة من الجند، ويطلق الألآي على الموكب السلطاني: أي اجتماع الأمراء بالسلطان أو الأمير عند التولية أو نحو ذلك، انظر معجم تيمور الكبير: ٦٠/٢ ـ ٦١.

يشير إلى مكتباتها العامة والخاصة، وهي حوالي تسع مكتبات.

يشير إلى بعض الأقطار العربية، التي كانت تعتمد عليها المدينة في بعض النواحي الاقتصادية والعلمية.

يشير إلى عادات أهلها في الأعياد والمناسبات؛ كعيدي الفطر، والأضحى.

يشير إلى تاريخ بعض المنشآت، التي ظل بعضها قائماً فيها حتى الوقت الحاضر.

ومن الاعتراضات والمآخذ على هذا الكتاب:

ذكر الشيخ حمد الجاسر أن وجود المؤلف، في عهد الجمود والتأخر الفكري، بوجه عام ـ أدى إلى تضمن مؤلفه بعض ما ابتدع في الدين، وأدخل عليه(١)، وقد أشار الشيخ جزاه الله خيراً ـ إلى ذلك في مواضعه.

استعمل المؤلف ـ في كتابه ـ لغة سهلة تكاد تقرب، أحياناً، من اللغة الدارجة؛ حيث استعمل بعض كلمات من عامية المدينة؛ مثل: الباب البراني، والجواني، والبلدان، والحدائق الحمم، وهي جمع حمى، وأوضه، والصور، الزهورات، والصيادين، والقياع، وهي جمع قاعة، وهي الغرفة المستطيلة في أسفل المنزل.

كما يظهر تأثره باللغة التركية في مثل: أسبق، رشدية، حمدية.

---

(١) رسائل في تاريخ المدينة: ص ١٥.

عُلَمَاءُ مِن الحَرَمِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ(١)

كثيراً ما حدثتني نفسي أن أكتب عن هذا الرجل الذي كان يؤم الناس في مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ لزمن طويل توشجت فيه الألفة بينه وبين سكان البلدة الطاهرة؛ فإذا هم يؤمون داره؛ ليسألوه قضاء حوائجهم، وإذا هو الحفي بهم، العطوف عليهم، والمحقق لرغباتهم، إنه الشيخ صالح «الزغيبي» رحمه الله ـ الذي كان إماماً في المحراب، وواعظاً بالآيات البينات.

وإنني إذ أتحدث عن الشيخ «الزغيبي» من خلال تلك السيرة العطرة التي تركها بين كثير من الناس إلا أنني أدركت، وأنا في مقتبل العمر، عالماً آخر كان يجلس على كرسي، في مؤخرة الجزء القديم من المسجد النبوي.

إن ثوبه الأبيض الذي كان يلف جسده الضامر يشف عن نظافة أخلاقه، وطهارة مسلكه، وكنت أرى قارئاً يقرأ عليه من كتاب ولم تنكر عيني هذا القارىء أو طالب العلم، إنه الشيخ محمد منصور عمر.

أما العالم الذي أخذت بمرآه الوقور، ونظراته المشعة بالذكاء، وروحه المفعمة بالإخلاص فلم يكن إلا الشيخ محمد بن علي التركي ـ رحمه الله

(١) ٢٩/١٠/١٤١٠ ـ ٢٤/٥/١٩٩٠ ـ عدد ٨٤٠٩.

ـ ولا زلت أذكر ذلك اليوم ـ وهو يوم جمعة ـ عندما خرجت المدينة تشيعه إلى مثواه الأخير، لقد شيعت فيه علماً من الأعلام، ورجلاً ورعاً عف اليدين واللسان.

والحرم الذي حفلت سواريه بأئمة من الأعلام المتخصصين في علوم القرآن؛ كفضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو خضير، وفي السيرة النبوية كالشيخ حميدة الطيب.

وكذلك الشيخ الخضر الذي عرف بتعدد علومه، وتشعب معارفه، هو الحرم الذي أدركت فيه، في مطلع حياتي، حلقة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي الذي كان يدرس تفسير القرآن، في الرواق القائم بين الحصوتين، كان يجتمع عنده جمع غفير من الناس، وخصوصاً في شهر رمضان المبارك؛ ليسمعوا ذلك الشيخ وهو يقف وقفات طويلة عند آيات من التنزيل، ويمزج في هذه الوقفات بين علوم اللغة والبيان وعلوم الأثر النبوي المتسلسل الصحيح؛ فيتركوا درسه وقد أخذوا بروعة البيان، وحسن التخريج، وعميق المعنى.

وكما كانت الشمس تشرق ـ كل صباح ـ في بهاء على جنبات المسجد الطاهر، كان يطل علينا ذلك الوجه الوضاء، ليفسر آيات من القرآن، أو ليطرب الآذان وينعش النفوس بسيرة سيد ولد عدنان ـ ﷺ ـ أو ليفقه الناس في أمور دنياهم التي هم أحوج ما يكونون إلى معرفة أوجه الحق فيها، إنه شيخنا الراحل محمد المختار بن محمد بن سيد الأمين الجكني ـ أسكنه الله فسيح جناته.

وغير بعيد عن درسه كانت تقوم حلقة من حلقات العلم الخالص، كان صاحبها يستزيد قارئه من قراءة الحديث النبوي، ويزيد هو سامعيه بما

تطمح نفوسهم إليه من معرفة للقواعد والأحكام، إنه فضيلة الشيخ محمد المنتصر الكتاني ـ شفاه الله ـ والذي ينتسب إلى أسرة عريقة في العلم، ترجع أرومتها إلى بلاد المغرب العربي المسلم، ويقوم رجالها بواجب العلم والدعوة في بلاد الشام، وبلاد الحرمين الشريفين، وشيخنا الكتاني من مواليد المدينة المنورة.

وليس ببعيد عن خوخة الصديق أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ كان يجلس شيخ؛ يشع الوقار من بين قسمات وجهه، وتحف الأنوار موضع حلقته؛ إنه يجاوز المائة، ومع هذا فهو يستمع لعدد من الطلاب يقرأون عليه في وقت واحد؛ فلا يذهب بصره بعيداً عنهم، ولا تخطىء أذناه ما تردده ألسنتهم.

إنه فضيلة الشيخ حسن الشاعر ـ رحمه الله ـ الذي كان القرآن وتجويده وتلاوته درسه في المسجد حتى إذا ما عاد أدراجه ـ بعد ذلك ـ إلى المنزل الذي كان يقع في باب المجيدي ـ فإنه لمحتفل بأولئك القادمين من بلاد الإسلام المختلفة خير احتفال؛ يكرم وفادتهم، ويتعهدهم بالحب والرعاية، وإنني رأيت العلماء الأجلاء يؤمون حلقته، ويتسابقون على السلام عليه، ويكفيه ذكراً حسناً أن عدداً من أئمة المسجد النبوي، ممن لهم منزلة سامية في العلم والفضل، تلقوا على يديه قراءة كتاب الله الكريم، وما يتصل بذلك من علم شريف ومعرفة جليلة.

واليوم تقوم في حرم رسول الله ـ ﷺ ـ حلقات للدرس النافع، والتي يستمد الناس منها معرفتهم لأحكام كتاب الله، وروايتهم لأحاديث المصطفى ـ ﷺ ـ وتمرسهم باللسان العربي المبين.

وفي مقدمة هذه الحلقات حلقة الشيخ عمر محمد ـ الأستاذ بالجامعة

الإسلامية ـ والتي يستمر شيخنا في أداء مهمته السامية فيها منذ أكثر من ثلاثين عاماً، وحلقة الشيخ عطية سالم، والتي يتسابق الناس إلى حضورها في كل الأوقات، وحلقة الدكتور الطيب الخلق عمر حسن فلاتة، أمد الله في عمرهم، ونفع بهم، وبغيرهم من علماء الحرم الذين أرجو ـ في فرصة أخرى ـ أن أشير إلى دروسهم المفيدة، وآثارهم الحسنة، والله ولي التوفيق.

رائدٌ قتلَهُ تَواضُعُهُ(١)

معانقاً للعمل، الذي أحبه، وبذل له كل قطرة عرق ودم في حياته؛ لينهي دائرة أخرى من دوائر الزمن، لم يكن الأول الذي مات على هذا النسق العجيب.

قبله عاش أدباء ومفكِّرون، ثم ماتوا: وهم يعانقون القلم أو الكتاب؛ من هؤلاء: الأديب عبد العزيز الرَّبيع ـ رحمه الله ـ كان آخر عهده بهذه الحياة الفانية نظرات سابحة في عالم الكلمة المضيئة؛ إنه نوع من أنواع العشق؛ بل هو أسماها وأرفعها.

لقد عشق «سباعي» الكلمة، وتجسد عشقه لها في دوائر عديدة؛ تمثَّل الكتابة القصصية فيها منحىً متميزاً ولكن «سباعي» الذي سبقته أسماء معدودة في ريادة هذا الفن: كعبد القدوس الأنصاري، وأحمد السباعي، ومحمد علي مغربي، وأحمد رضا حوحو، ومحمد عالم الأفغاني، وإبراهيم الناصر، وعبد الله جفري، هيأ نفسه بأن يكون رائداً في هذا الميدان؛ بتمكنه من علوم التراث واللغة.

فلقد بدأ حياته العلمية طالباً بكلية الآداب بالسودان، ثم نجده يلتحق بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ولا بد أن دراسته، في هذا الصرح

---

(١) ملحق التراث، الخميس ١٤٠٨/٦/١٦ ـ ١٩٨٨/٢/٤ ـ عدد ٧٥٨٦ ـ ص٣.

العلمي، كانت في علوم الشريعة الإسلامية.

ولقد أورد الأستاذ محمد محمود حافظ إشارة لها مغزى كبير في حياة «سباعي» العلمية؛ إبَّان زمالته له في هذه الجامعة، وهي أن «سباعي» كان يعنى كثيراً بقراءة ودراسة قواميس اللغة العربية؛ مما كان له أثره ـ فيما بعد ـ في البناء اللغوي لإنتاجه القصصي، والذي يمكن وصفه بالقوة والجزالة.

ويؤكد الأستاذ شاكر النابلسي، في دراسته المعروفة «المسافة بين السَّيف والعنق» أنَّ «سباعي» كان يحفظ كثيراً من الشعر، وأنَّ شعراءه المفضلين هم: طرفة بن العبد، والأحنف بن قيس، وأبو فراس الحمداني، والمتنبِّي.

ويورد «النابلسي» كلمات «سباعي» عن هذا الأخير قائلاً: «كنت مفتوناً بالمتنبي وإلى اليوم، وإلى بكره؛ فالحكمة التي جرت على لسان هذا الشاعر لم تجر على لسان شاعر آخر من شعراء العربية».

المهم ـ هنا ـ ليس فقط في تعداد مصادر ثقافة الرَّجل، ولكن في أنه كان يملك قاعدة تراثية تمكنه من الانطلاق ـ بقوة وأصالة ـ في معالجة فنون الأدب، والغور في أعماقها، ثم الخروج بتلك الإبداعات الخالدة.

ولعلّ النظرة النقدية الفاحصة تؤكد كذلك أنه كان واحداً من أولئك الذين يتمتعون برؤية حضارية واضحة؛ ولهذا تميزت جميع الرؤى الأخرى عنده؛ قديمها وجديدها؛ أصيلها وزائفها: ولذا لم يكن غريباً أن نسمع من الأستاذ محمد الحسَّاني، في رثائه أنَّ «سباعي» ـ رحمه الله ـ كان يناقش بقوة أولئك الذين تختلط في أذهانهم مفاهيم التجديد، ويبحثون عن السبل والمبررات لبتر العلاقة بين الكاتب وتراثه؛ كأنَّه أراد أن يقول لهم: ليس

بالإمكان السَّير في طريق كهذا؛ لأنَّه ضدٌّ كل تفكير منطقي يأخذ بالأسس والقواعد التي تختصّ بها أمة دون أخرى في تكوينها الحضاري والفكري.

كان «سباعي» ـ رحمه الله ـ كما ذكر لي الزميل الدكتور محمد يعقوب تركستاني كثيراً ما تستوقفه آيات الكتاب الكريم، وتبهره معاني الإعجاز فيها، ومبعث ذلك ـ بلا شك ـ تلك التربية الدينية التي تلقَّاها، في بداية حياته، ثم استمرت إشراقاتها في نفسه؛ ولهذا نجده دائم الحنين إلى مواضع القداسة والنُّور، في أرض الحرمين الشريفين.

وإنني لأذكر أنه تحدَّث مرَّة عن زيارة له إلى المدينة المنورة، في عيد الفطر المبارك، وفي مطلع التسعينات الهجرية «إنَّ اللَّحظات تلك التي وقفت فيها أمام ضريح رسول الله ـ ﷺ ـ مسلماً عليه» لقد وقف حيث يقف المحبون؛ أولئك الذين تمتلىء قلوبهم بالإيمان، وتستذكر نفوسهم ذلك التاريخ العظيم؛ الذي جسَّده جهاد المصطفى ـ ﷺ ـ مع صحابته الكرام رضوان الله عليهم.

لقد مات «سباعي»، ولم نكرمه في حياته؛ كأننا نشيح بوجوهنا عمَّن يضيئون بالكلمة الصَّادقة مواضع الظلمة في هذه الحياة؛ عن أولئك الذين يولدون ليؤدُّوا رسالة العلم والتنوير، ثم ينسلّون من بيننا، ويتركوننا حيارى: نذرف الدمع، ونبدع القصيد، ونكتب الذكريات.

أليس من حقهم علينا أن نكرِّمهم في حياتهم؛ ليكون الحب أعمق، والوفاء أجمل، والكلام أبلغ؟!

رحمه الله «سباعي» فلقد كان رائداً متواضعاً، وما أكثر الذين قتلهم تواضعهم.

بَيْنَ الأَدَبَيْنِ العَرَبِيِّ والإِنْجلِيزِيِّ(١)

يعيش كثير من الإنتاج الفكري والأدبي؛ لعدد من الدارسين، بمعزل عن بيئته الطبيعية؛ التي يجب أن يتأثر بها في موضوعاته التي يتناولها، وتتأثر به فيما يثير هذا الإنتاج من نقاش، ويبعثه من حوار، وينميه من قدرات على معرفة ما تزخر به الحياة من صراع حضاري وفكري؛ وهذه الأدوات العلمية هي التي تمكن الفرد، في هذه الحياة، من بناء ذاته بناءً قوياً؛ وهذا البناء ضروري لمعرفة الخيوط الدقيقة؛ التي تفصل بين ما يمكن قبوله أو رفضه؛ وخصوصاً في مجال ما يسمى بالعلوم الإنسانية؛ التي تحاول كل أمة إلباسها الأطر الخاصة بها، وتسخيرها لخدمة معتقداتها ومنطلقاتها.

ولعل إنتاج الزميل الدكتور عدنان وزّان؛ الذي يتوزع بين حقول متعددة، يأتي ـ في مقدمتها ـ الأدب المقارن(٢)، وتاريخ الاستشراق(٣)،

(١) الخميس ١٠ رمضان ١٤١٠هـ ٥ إبريل ١٩٩٠م ـ المدينة المنورة ـ العدد ٨٣٦٤.

(٢) انظر ـ مثلاً ـ كتابه باللغة العربية، الصادر عن جامعة أم القرى بمكة «مطالعات في الأدب المقارن» وكتابه الآخر الصادر باللغة الإنجليزية عن الجامعة نفسها ١٤٠٥ ـ ١٩٨٥م Comparative Literature Essaysin.

(٣) الاستشراق والمستشرقون، العدد ٢٤، من سلسلة «دعوة الحق» الصادرة عن رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.

وفنون القصة[١]، والرواية والمسرح[٢].

هذا الإنتاج؛ على الرغم من غزارته وعمقه، يصدق عليه فكرة الإنتاج؛ الذي يتنفس في غير بيئته، ويعيش بعيداً عن سربه الأصلي، ويمكن إيعاز ذلك إلى ابتعاد الوسائل الإعلامية؛ كالصحف والمجلات عن حقل الدراسات العلمية، وتركه للدوريات المتخصصة؛ التي لا تجذب إلا اهتمام فئة معينة من القرّاء إذا ما قيس ذلك بعدد المتابعين للملاحق العلمية والصفحات الثقافية؛ التي توليها الصحف اهتماماً جيداً إلا أنه ينقص بعضها المصدر على( ) بين أنواع الإنتاج الأدبي؛ وفنون الإبداع الثقافي والفكري.

لقد كان آخر إنتاج الدكتور الوزّان إضافة علمية هامة، في ميدان الدراسات المقارنة؛ بين الأدبين العربي والإنجليزي؛ حيث بحث الزميل الكريم موضوع الشخصية اليهودية في مسرحيات كل من الكاتب الإنجليزي «وليام شكسبير»، والكاتب المسلم «علي أحمد باكثير».

فعلى الرغم من مرور قرون عديدة على بروز أديب اللغة الإنجليزية «شكسبير» إلا أن إنتاجه يظل مجالاً خصباً لآراء النقاد والمتخصصين في دراسات الشعر والمسرح؛ وذلك يدل على مدى اهتمام الغرب برموزه الفكرية؛ التي لا ينقطع عن التواصل معها روحاً وثقافة.

وقد وقف الدكتور الوزّان وقفات علمية فاحصة عند مسرحية «شكسبير» المعروفة «تاجر البندقية» وتأثرها في فكرتها بمسرحية الكاتب الإنجليزي «كرستوفر مارلو» Christopher Marlowe[٣] (١٥٦٤ ـ ١٥٩٣)

---

(١) هناك كتابان صدرا للمؤلف باللغة الإنجليزية، حول موضوعات القصة والرواية: وهما: The Study Of Fiction (1404-1984).

(٢) Oedipus Rex In Arabic And Greek Legacy: Acrtique

(٣) تعتبر مسرحية «مارلو» يهودي مالطة "The Jew Of Malta" التي كتبها في فترة ما بعد سنة =

والمعروفة باسم «يهودي مالطة»، وكما عمل اليهود من خلال نفوذهم السياسي والاقتصادي والإعلامي على صرف الدراسات الأدبية الحديثة عن موضوع مسرحية «شكسبير» لما تمثله من صورة سيئة ولكنها حقيقية، وتبعثه من أفكار منفرة، ولكنها صادقة عن المجتمعات اليهودية، وخصوصاً في علاقاتها مع المجتمعات الأخرى؛ التي تختلف عنها عقيدة وفكراً؛ فإنهم أيضاً ـ اليهود ـ أقدموا على تفسير أحداث المسرحية بما يتفق مع ميولهم ومنازعهم؛ كما تثبته المقدمة التي كتبها «جون رسل براون» John. R. Brown للمسرحية المذكورة، الصادرة ـ باللغة الإنجليزية ـ عام ١٩٨٤م.

في هذه المقدمة ـ يحاول محقق المسرحية أن يوحي بأن الشخصية الرئيسية في المسرحية شخصية «شيلوك» Shylock؛ هي من اختراع «شكسبير» نفسه، ولا يمكن لأحد أن يناقش نوايا اليهود أو براعتهم؛ اعتماداً على سلوكيات هذه الشخصية(١)؛ بينما تنبىء محاولة الكاتب المسرحية عن هدف واضح؛ يتمثل في نقل صور من أحداث المجتمع المسيحي؛ لاستخدام هذه الدماء في تحضير الفطير المقدس فيرى أنها تدخل في باب الأسطورة؛ بينما يؤكد الرحالة الإنجليزي «سير ريتشارد بيرتن» Sir Richard Burton (١٨٢١ ـ ١٨٩٠م) في أحد كتبه الممنوعة ـ

= ١٥٨٨م، ولم تنشر إلا سنة ١٦٣٣م، من أبرز إنتاج هذا الكاتب المسرحي، انظر:

-The Oxford Companion To English Literture

- Third Edition, 1946, Oxford, P, 497-498.

(١) - The Merchant Of Venice

- Edited By John Russel Brown

- Methuen, London and New York, 1984, P, XXXvii

في الوقت الحاضر ـ من التداول حقيقة وجود هذا الطقس اليهودي، وأنه عاين ـ أي: بيرتن ـ عن طريق التجربة الشخصية الأحداث المرعبة لهذا الطقس؛ وربما كان الكتاب المحظور الذي قرأت الإشارة إليه قبل سنوات في «مجلة الحزب القومي البريطاني»(١) هو كتاب «بيرتن» المعروف باسم «تجارب شخصية في سوريا» Personal Experience In Syria(٢) والذي كان انعكاساً لتجربة الكاتب الخاصة؛ حيث عمل قنصلاً في دمشق في الفترة ١٨٦٩ ـ ١٨٧١م.

كثيرة هي تلك الأسئلة الحيوية المتصلة بالشخصية اليهودية، وسلوكياتها المنحرفة أو الشائنة؛ التي يطرحها هذا الكتاب، ولكنني أحسب المؤلف ـ كما ذكر الدكتور عبد الواحد لؤلؤة ـ في المقدمة، يريد من القارىء أن ينظر بعينه، ويحس بقلبه، ويعود إلى النصوص.

لذا فإنني أترك كثيراً من الأسئلة؛ التي تتشكل في ذهن القارىء عن هذه القضية إلى تجربته الذاتية في الكشف عن النصوص المتصلة بها، ومرجعيتها التاريخية وقيمتها الأدبية.

---

(١) هي مجلة تعنى بكشف تاريخ اليهود، وتحذر دائماً من مغبة سيطرة اليهود على كثير من شؤون المجتمع البريطاني، وتتعرض نتيجة لهذا النهج لكثير من المصاعب والحملات، وتحمل المجلة هذا الاسم باللغة الإنجليزية:

"Nationalism To Dav".

- Georgiana. M. Stisted

- The True Life Of Captain Sir Richard. F. Burton.

- London, 1985, Appendix.

(٢) - The Oxford Companion, P, 122.

في ذكرى استشهاد المفكر الإسلامي إسماعيل الفاروقي

إن المسلمين كانوا ضحايا الظلم والعدوان في كل ناحية، فقد ساهمت كل الأمم في تشويه صورتهم وتلطيخ سمعتهم. وقد دأبت وسائل الإعلام في أيامنا هذه على تصوير «المسلم» على أنه عدواني، مخرب، مخادع، مستغل، قاس، متوحش، متمرد، إرهابي، همجي، متحجر الفكر، سقيم الرأي.

تلك كلمات افتتح بها المفكر الإسلامي الراحل الدكتور «إسماعيل راجي الفاروقي» ـ رحمه الله ـ الفصل الأول من كتابه المعروف «أسلمة المعرفة» الذي تدور أبحاثه على تشخيص داء الأمة الإسلامية على جميع الصعد، ومحاولة إيجاد منهج تعليمي وثقافي أصيل يربط بين المشاكل التي تواجهها الأمة بالنظرة الإسلامية، وبذلك تتبلور تلك الرؤية الحضارية الخاصة التي تعيد لهذه الأمة تلك المكانة التي كانت تتبوأها.

والفاروقي الذي رأيناه يؤكد على الدور السلبي للإعلام العالمي في تشويه صورة الفرد المسلم أدرك في حياته أبعاد المؤامرة الصهيونية والاستعمارية الخطيرة، ولا بد أن إدراكه ـ رحمه الله ـ لتلك المؤامرة كان نتيجة لمعايشته ـ كفلسطيني ـ للوجود الصهيوني في الولايات المتحدة

الأمريكية، ومقاومته لذلك الوجود عن طريق الفكر العلمي المنظم الذي ترتكز أسسه على العقيدة الإسلامية السمحاء التي ترفض كل أساليب العدوان، والتطرف والعنصرية وتدعو من غير ادعاء للمساواة والسلام والمحبة.

ولهذا سعى ـ رحمه الله ـ في أن تتحول تلك المنطلقات الفكرية الإسلامية إلى واقع يمارس وسلوك يتجسد، فكان إنشاء المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٨١م تتويجاً لتلك الجهود الخيرة التي بذلها ـ رحمه الله ـ مع زمرة من المفكرين المسلمين الذين تعتبر جهودهم في هذا الميدان جهاداً سوف يثيبهم الله عليه، ولقد استطاع المعهد في مدة وجيزة أن يكشف لأولئك الذين يتصلون به من غير المسلمين عن الوجه الحقيقي للإسلام وحضارته وأمته، كما شارك في عدد من الندوات التي تهتم بدراسة علم الأديان المقارن.

وكان من أبرز نشاط المركز العلمي هو نشره ـ باللغة الإنجليزية ـ لعدد من البحوث العلمية المقارنة التي قدمت لزمرة الدراسات الإسلامية التابعة للأكاديمية العلمية الأمريكية، ولعل في إيراد بعض عناوين موضوعات بعض البحوث ما يدل على أهمية نشرها في مجتمع كالمجتمع الأمريكي، فهناك بحث يتصل بالإسلام والقانون، وآخر عن «ابن تيمية والحملة الصليبية» وهناك ـ أيضاً ـ البحوث التي تتعرض للإضافات الإسلامية في ميداني التاريخ والأدب، كما تخصصت بعض الدراسات في تحليل بعض آثار المفكرين الإسلاميين «كالأمير أسامة بن منقذ» والفيلسوف «ابن رشد».

تلك الجهود العلمية المخلصة لنشر الإسلام والتعريف بحضارته

بأسلوب علمي متجرد، دفعت أعداء الخير والحق والسلام أن يخططوا بكل حقد وكراهية للقضاء على نشاط تلك المؤسسة التي ارتفع صوتها الإنساني في خضم الحياة الأمريكية المادية، فكان الداعية المسلم «إسماعيل الفاروقي» وزوجته المجاهدة «لمياء الفاروقي» ضحية لذلك الحقد الدفين وتلك الكراهية المأفونة لقد سعوا لاستئصال أسرة «الفاروقي» ـ جميعها ـ من هذه الأرض ظناً منهم أنهم سوف يطفئون ذلك النور الذي أضاء دروب السالكين في ليل معتم طويل، وأخذ بأيديهم إلى جنة المعرفة فكانوا غرساً طيباً يسر المؤمنين ويغيظ الكافرين، ولكنهم نسوا أن نور الله باق يتحدى كيد الكائدين.

في مدرسة العلوم الشرعية بالمدينة(١)

عندما يكتب تاريخ الحركة التعليمية في المدينة المنورة، في العصر الحديث، فلا بد من أن يذكر فيه اسم تلك المؤسسة التعليمية التي كانت تقوم بجوار المسجد النبوي الشريف، ويتولى أمر التدريس فيها نخبة من علماء المدينة وغيرهم.

في مدرسة «العلوم الشرعية» التي ابتدأ تاريخها قبل أكثر من نصف قرن، كان طلاب العلم ومريدوه يتنقلون بين حلقات دروسها المتعددة. وبين تلك الحلقات التي كانت تنتشر في جامعة الإسلام الأولى.

كانوا يقرؤون القرآن عصراً بين باب الرحمة وباب المجيدي، ثم يأتون صباحاً يرتلونه في شعبة القرآن؛ ومن هؤلاء الطلاب من هو منتظم في دراسة نظرية منهم من كان يجد مبتغاه في أي صناعة أو حرفة تتفق مع إمكاناته وميوله؛ فلقد كانت مناهج المدرسة، في الماضي، تجمع ـ في منهجها ـ بين الجانبين النظري والتطبيقي.

حتى إذا ارتفع الأذان من منائر المسجد النبوي الشريف، هرع الطلاب أفواجاً يؤدون الصلاة مع جماعة المسلمين، ثم عادوا إلى حلقات الدرس يكملون ما ابتدأوه من تلق للعلم في الصباح، ولربما أمّ بعضهم تلك

(١) الخميس ٥ ربيع الآخر ـ الموافق ٢٦ نوفمبر ١٩٨٧م ـ المدينة المنورة ـ العدد ٧٥١٦.

المكتبة التي كانت تضمّ صنوفاً مختلفة من مصادر العلم والثقافة. ولقد كان أميناً لها ـ في مطلع الثمانينات الهجرية ـ رجل فاضل اسمه الشيخ «إنعام».

ولئن ظلت ذاكرتي تحتفظ باسم الرجل الذي لم أكن أراه إلا لماماً، فإنني ما زلت أحتفظ بأسماء تلك الشخصيات التي كانت تدرسنا العلم في إخلاص، وتوجهنا تربوياً عن معرفة وبصيرة.

لم أنس أسماءهم؛ بل أكاد أتبين ملامحهم وسيماءهم، وكثير منهم انتقل إلى الدار الآخرة، ولكنهم ظلوا ماثلين أمامي أينما تحركت في رحلتي مع شؤون الحياة، ويتعمق في نفسي شعور لا أستطيع وصفه كلما وطئت قدمي أرض طيبة الطيبة، ومررت بالقرب من تلك المواضع التي كانت تحيط ببناء المدرسة.

ولم أشك يوماً في أن تلك النخبة الفاضلة من أساتذة العلوم الشرعية تركوا آثاراً حميدة في نفوس أولئك الطلاب، الذين وإن أحبوا في أساتذتهم تلك المعرفة العميقة فيما يؤدونه من علم، إلا أنهم لم يسلموا ـ بين الحين والآخر ـ من ذلك العقاب الذي كان ينزل بهم.

ولكنه عقاب علموا ـ فيما بعد ـ أنه لم يكن وراءه ترصد لخطأ، وتعمد لانتقام، ولكنه عقاب التوجيه الذي قوّم كثيراً من سلوكهم؛ فتخلصوا من مساوىء في المراحل الأولى من حياتهم، لو استمرت معهم لمراحل متقدمة من حياتهم لبكوا كثيراً بسببها، ولتمنوا أن يعودوا إلى صباهم ـ لعلهم يجدون من يتولى أمر إصلاحها بعقاب أشد، وأسلوب أكثر صرامة.

لقد عاقبني ـ يوماً ـ أستاذنا الفاضل «بكر آدم» ـ رحمه الله ـ وكنت

يومها في الصف الثالث ابتدائي، ولكنني تعلمت من عقابه ذلك كيف أتحدث للآخرين، وكيف أحترم منازلهم.

ويوم سمعت بخبر وفاة أبي عبد الرحمن، ذرفت الدموع عليه غزاراً، ورددت مع الشاعر «أسامة عبد الرحمن عثمان» أبياتاً من مرثيته في أستاذ الجميع:

حمل المعلم في يديه رسالة كانت تسافر في الدجى قنديلا
ومشى وفي شفتيه ينبجس الهدى ويسيل مثل الدجلتين مسيلا
يروي به ظمأ النفوس وإن قضى في ذمة العلم الحياة عليلا
ويسير والفقر الأثيم كأنه قدر يشاركه الحياة سبيلا
فيظل كالجبل الأشم مناعة ويظل رغم النائبات نبيلا

تمنيت أن أعود إلى قاعة الدرس؛ فأسمع شرحه في مادة الرياضيات؛ أن أعود فأتلقى العلم من جديد على يد الأستاذ القدير «عبد الرحمن عثمان» لأعرف كيف أكتب الإنشاء، أن أستمع إلى صوت السيد «عمر عينوسة» يدرسني في الصف الثاني جدول الضرب، ثم أسمع صوته الجهوري ينطلق من المنارة الرئيسية يدعو بدعاء الحق لتردد معه جوانب البلدة الطاهرة كلمات الإيمان والتوحيد.

ولم يكن وحده الذي يخرج من قاعة الدرس ليتوضأ من ماء العين الزرقاء، ثم يذهب إلى صفة المؤذنين ليضبط ساعته، ثم يحث خطاه بين خوخة «أبي بكر الصديق» ـ رضي الله عنه ـ و«باب السلام» ثم يرتفع صوته هادئاً ليؤذن لصلاة الظهر.

فلقد كان هناك ـ أيضاً ـ أساتذة آخرون يجمعون بين الحسنيين؛ من نشر العلم بين طلاب دار العلوم الشرعية، وبين اعتلاء درجات منائر

الحرم؛ ليؤدوا واجب نداء الدعوات لبيت الله.

من هؤلاء الأساتذة: «عبد الملك محمد سعيد النعمان»، و«حسين حمزة عفيفي» أمد الله في عمرهما، ونفع بهما.

كيف ينسى خريجو هذه المدرسة، مهما طوّح بهم الزمن، وتفرقوا في أرجاء هذه البلاد الحبيبة ـ كيف ينسون إشراقة الروح في حديث الأستاذ «رجب أبي هلال» رحمه الله، وانسياب المعرفة في شرح الأستاذ «عمران»، وتمكن الأداء في تجويد الأستاذ «خليل حبيب الله».

أما ذلك الرجل الذي كان يقابلهم، مع كل صباح؛ يلجون فيه أبواب المدرسة، ويودعهم بصافرته عند انتهاء الدوام ـ فإنهم، وإن كانوا يرهبونه، ويخشون سطوته، فإن الأيام لم تقف حائلاً بينهم وبين معرفة حقيقة ما تنطوي عليه شخصيته من حب أبوي تكاد تلمسه، أو تتحسس آثاره عندما تقابله خارج أسوار المدرسة لتعلم أن الأستاذ «سليمان سمان» أمد الله في عمره ـ ليس برجل «العصا» «والفلكة» ولكنه يحتفظ بهما في الموضع الذي لا بد لأبنائه أن يشاهدوهما فيه.

ليس هؤلاء ـ وحدهم ـ الذين علمونا في العلوم الشرعية، إنما تبقى شخصيات أخرى من الأساتذة؛ تحدثوا إلينا فأحسنوا الحديث، ونظروا إلينا فكان في نظراتهم توجيه سام لنا، ولعلهم لم ينسوا أن يدعوا لنا فنالنا من دعائهم خير وبركة.

ولعلها مناسبة كريمة أدعو فيها سعادة السيد «حبيب محمود أحمد» المشرف على هذه المؤسسة التعليمية الرائدة، والتي حظيت من المسؤولين بكل دعم ورعاية، أدعوه أن يعمل على تدوين تاريخها؛ منذ نشأتها الطيبة، حتى الوقت الحاضر؛ فلقد احتفظت لنا بعض كتب تاريخ المدينة

بأسماء بعض المدارس التي أنشئت في المدينة، في القرون السابقة، كالمدرسة «الشهابية» و«الرسمية» و«مدرسة حسن باشا»، و«المدرسة الجديدة»، و«مدرسة الصاقز لي».

ولكن ما نعرفه عن هذه المدارس، أو مناهجها، وأثرها في الحركة العلمية، في المدينة؛ يظل نزراً يسيراً لا يفي بحاجات المتطلعين إلى البحث والدراسة، وبالتالي فإن ما تعيشه بلادنا من نهضة علمية وثقافية ترتكز ـ في منطلقاتها ـ على أصول ديننا الإسلامي الحنيف، وتؤسس مناهجها على علوم تربط تراث الأمة بكل جديد صالح.

إن الواجب يحتم علينا أن نكتب هذا التاريخ العلمي حتى تستطيع الأجيال القادمة أن تقف على دقائقه؛ فتتمكن من دراسته دراسة وافية؛ فتشعر ـ من خلال ذلك ـ بالثقة والافتخار.

إن الوفاء ليدعو كل أولئك الذين نهلوا من مناهل العلم والمعرفة، في هذا البلد، أن يكتبوا لنا، كيف وقفوا يوماً على هذه المناهل فعبّوا منها؛ فارتوت منهم عقول، وأضاءت بصائر وقلوب، ثم تشعبت بهم سبل الحياة، وتفرقت بهم منازعها، فإذا هم رواد يقولون الكلم الطيب، ويبتعدون عن سيئه.

ما أحوجنا اليوم لكلمات يقولها فضيلة الشيخ عبد المجيد حسن، وفضيلة الشيخ محمد الحافظ، ومعالي الأستاذ محمد عمر توفيق، والأستاذ عبد العزيز الرفاعي، والأستاذ محمد حسين زيدان، والأستاذ عبد الفتاح أبو مدين، والأستاذ محمد حميدة، الدكتور أسامة عبد الرحمن عثمان، والدكتور عبد الرحمن الأنصاري؛ ما أحوجنا لشيء تكتبه أقلامهم عن دار العلم والعلماء في بلد الرسول ـ ﷺ ـ.

دروب الهوى في الشعر بين الخوجة والقصيبي

تتوجه الدراسات النقدية والأدبية عند الدارسين بدوافع مختلفة وهذا ما أثر في المشهد الشعري العربي فارتفعت في سماء الشعر أسماء لا تستحق ذلك الصعود المفاجىء، ولم تلمع الأسماء الشعرية الفاعلة للأسباب التي أشرنا إليها ومنها عامل الشللية الذي يلعب دوراً كبيراً في هذا المنحى النقدي، ولم تحظ إبداعات الشاعر الدكتور عبد العزيز خوجة داخل بلادنا بكثير من الاهتمام مع قوة شاعريته وتفردها مع أن عدداً من النقاد العرب احتفوا بإبداعاته وأولوها كثيراً من اهتمامهم، ومنها الدراسة التي أعدتها الناقدة «غريد الشيخ»، ودراسة أخرى للدكتور «إبراهيم المزادلي» والتي تخصصت في تحليل قصيدته المعروفة «أسفار الرؤيا» ويعترف الشاعر الكبير «محمد الفيتوري» في تقديمه لدراسة «غريد» النقدية بأن الشاعر الخوجة «أحد أبرز شعراء جيله الواقفين عند أقصى درجات السلم الشعري المعاصر».

ويرى في إبداعاته ـ خلاصاً ـ من ذلك الغث الذي ساد الساحة الأدبية ـ أخيراً، يقول «الفيتوري» عن دور «الخوجة» في الارتقاء بالمشهد الشعري العربي مع عدد آخر من مجايليه بلى «يا غريد الشيخ» إن الشاعر عبد العزيز محيي الدين خوجة، ولربما انضم إليه عدد ضئيل من معاصريه من

شعراء اليوم الذين هم اليوم وبخاصة ضمن ظروف الانحدار الشعري والفني والحضاري والسياسي والأخلاقي والاجتماعي هم اليوم أشبه بتلك الكائنات البشرية الملائكية والتي شاهدناها في أحلامنا عندما كنا صغاراً، وهي تزاحم بأمجادها صفحات التاريخ، وتصنع بطولاتها الأسطورية التي لم نعد نشاهدها إلا عبر أفلام الخيال العلمي وفوق شاشات القنوات الفضائية وأحياناً تحت أقدام لاعبي كرة القدم «انظر مقدمة كتابها» «عبد العزيز خوجة».

ولربما أراد «الفيتوري» من وراء عبارته الأخيرة التأكيد على تمكن الشاعر من اللغة وقدرته الفنية الفائقة على صياغة مفردات القصيدة، كما ألمح إلى دور الخيال في إبداع القصيدة، وإلى نزوح الشاعر للتحليق في عوالم الروح بما يذكر بشعراء المتصوفة الكبار والذين من ناحية فنية كانوا ـ كما أرى ـ امتداداً لتيار الشعر العذري في عصر صدر الإسلام كما يذكرك الشاعر في بعض إبداعاته بـ «عبد الرحمن الشرقاوي» و«صلاح عبد الصبور» وخصوصاً في هذه المقطوعة التي جعلها بين يدي ديوانه «إلى من أهواه» والذي ضمنه بعض مختارات من شعره:

يقول في تلك المقطوعة التي تدل على تمكن الشاعر من موسيقى الشعر الحديث والمعروف بشعر التفعيلة مثل تمكنه من موسيقى وبناء القصيد الكلاسيكية الأصيلة.

قل لي: يا من خفقات فؤادي طوعا تهواه

قل لي: يا من يحلو لي أن أفني مأخوداً بسناه

قل لي: هل سُلِبت مني الأشياء

أم أني في لحظات فناء

لا أدري شيئاً عن نفسي

خاوية أعماق الكأس

لكن، لا عطش أو إرواء

ومن آخر إبداعات الخوجة، قصيدته التي أخذت عنوان: «لقاء في باريس» ويقول في مقطع من مقاطعها:

هذا غرامك في دمي ليلاي أحفظه   حتى البلى لا أشتكي وجلاً ولا خجلا
لا غير حبك في فؤادي من يدق له   أنت التي في خفقه حزنان أو جَذِلا
ويكاد قلبي أن تذوّبني صبابتُه   ويذوّب الدنيا معي عمداً وقد فعلا

ونؤكد على الطابع الروحي الشفاف الذي يتسم به شعر الدكتور خوجة من خلال ما ينساب بين سطور قصيدته التي تحمل اسم «حبيبي» وهي صدى لقصيدة الشاعر الكبير الدكتور غازي القصيبي والتي بعث بها لصديقه الخوجة:

يقول المبدع «القصيبي» في مطلع قصيدته التي حركت بواعث الشعر عند رفيقه «الخوجة».

من الإعصار أنت أم النسيم... وناري أنت؟ أم دار النعيم؟

مزاحك لا يقرُّ له قرار... كبرقٍ لا يقرُّ على الغيوم

يجرِّعني السعادة حين يبغي... وحين يشاء يقيني همومي

ويمنحني السلام، وحين يَطغى... يقلِّبني على جرح أليم.

فكانت قصيدة «الخوجة» والتي إن حملت رؤياً أو قافية مغايرة إلا أن الشاعر يحاول أن يعبر عن أحاسيسه ومشاعره التي لقيها في دروب الحسن والجمال:

يقول «الخوجة» في مفتتح قصيدته «حبيبي»:

من الأحلام جئت أم الغيوب... ومَن ألقى بحسنك في دروبي
كأني قد بدأت اليوم عمري... وأول ما نطقت به حبيبي
وأول مرة يشدو فؤادي... بأغنية الغرام بلا رقيب
ولا أخشى العواذل إن تناهوا... فحبي فوق معترك الخطوب

ويجسد المطلع التالي من قصيدة القصيبي مأساة المحب الذي لا يرتوي ظمأه إلا برؤية «الحبيب» فهو في وصال الحبيب له في نعيم ولكن هل يدوم وصال في الحب! أم هل ترتوي نفس من منبع الجمال؟ فطبيعة النفس الإنسانية هي التوق الدائم لما هو غائب، ولعل في تشببه الشاعر لنفسه بأنه «كالطفل اليتيم» في حال غياب الحبيب ما يؤكد حاجة النفس أو تطلعها إلى «الحنان» فالإنسان يظل «طفلاً» في أعماقه حتى وإن حالت الظروف ـ أحياناً ـ دون تعبيره عن حاجاته وخصوصاً تلك المتصلة بالمشاعر والأحاسيس والوجدانية.

يقول شاعرنا القصيبي:

خذي هذه الدقائق فهي تجري... تصير إلى غبار في النجوم
وحين أغيب أعود وحدي... إلى دنياي كالطفل اليتيم
وتفتقديني ويضجُّ نهدٌ... طواني أمس في الحب الرؤوم
سنندم حين تُباعدنا الليالي... وهل تأتي الندامة بالنديم

إلا أن «الخوجة» يرى أن محبوبه قد أضحى جزءاً منه، أو بحسب تعبيره قد «توحد» به، والتوحد «مصطلح صوفي» إلا أن استخدام الشاعر ـ هنا له لا يعدو كونه تعبيراً فنياً استطاع الشاعر لتمكنه من أدواته الشعرية

بأن يدمجه في البناء الفني لقصيدته ولكن هل توحد الحبيب بمحبوبه تضيع معه آلام الفراق وعذابات البعد التي يظل الإنسان يحس بها حتى وإن كان من يهوى قريباً منه، هذا ما سوف نقف عليه من خلال المقطع الأخير من قصيدة الشاعر الخوجة والتي شكلت مع قصيدة القصيبي رؤية حية، إزاء الحياة، وفي زمن طغت فيه ماديات الحياة، وضاعت في صخبه وضجيجه المشاعر الصادقة للإنسان نحو الآفاق الجميلة والرحبة في كون لا يمكن فيه أن تغيب «الروح» من معادلة هذه الحياة الفانية:

يقول شاعرنا الخوجة والذي يذكرك شعره بروائع عباس بن الأحنف وأبي فراس الحمداني وابن الفارض.

فنائي فيكِ أرشدني طريقي... فصرت الفرد في الكون الرحيب
توحدنا فما تدري ضلوعي... أقلبي أم وجيبك في اللهيب
تمازجنا فصرنا محضَ سُكْر... وطاب الشهد في الوصل الرطيب
فإن ودّعتُ إنك في فؤادي... وإن فارقت تهرب في هروبي
أجدد فيك في الأحلام عمري... وأسْكُبُ من طيوبك بعض طيبي
ومهما ضل في لقياك خَطْوي... ملاذي في حنانك يا حبيبي.

نجيب محفوظ والالتزام الفكري

بالأمس القريب كنا نجهش بالبكاء، وترتفع أصواتنا بالنحيب حزناً على عدم تقدير المؤسسات الغربية لفكرنا وأدبنا، ومرد ذلك إلى أننا جعلنا الغرب وجوائزه العلمية مقياساً للتقدم والرقي الفكري، وجهلاً بتراثنا وقيمته وجدواه، وعندما فاز «نجيب محفوظ» بجائزة نوبل للآداب، بدأنا ندق الطبول، وننشد الأهازيج، ونرقص فرحاً وسروراً، وكان لسان حالنا يقول: لقد زالت عقدة النقص التي كنا نشكو منها، وحقيقة الأمر أن الهالة التي أحطنا بها هذه الجائزة والآمال التي كنا وما زلنا نعقدها عليها جزء من الغزو الفكري الذي يشل إرادة الأمة، ويشوه وجهها الحضاري ويغير في بنيتها الثقافية.

لقد كان القائمون على هذه الجائزة من الذكاء بمكان، فلقد حجبوها عنا ردحاً طويلاً من الزمن، ثم منحوها لواحد من الكتاب العرب الذين لا يشك في اتساع ثقافتهم، وتنوع مواهبهم، وقدرتهم في السيطرة على الأداء اللغوي، وتمكنهم في الأسلوب الأدبي إلا أن هذا كله لا يمنعنا من القول إن إنتاج «نجيب محفوظ» وخصوصاً في تجاربه الروائية التي يمكن إدراجها تحت ما يسمى بالمذهب الواقعي، يمثل الجانب المظلم من سلوك بعض الطبقات الاجتماعية فهو لا يتعامل مع هذه الطبقات إلا من الجانب السلبي منها، وخاصة الطبقة الوسطى التي أكثر تعامله معها،وأكثر تركيزه على

نماذجها البشرية بدءاً من «علي طه» و«أحمد بدير» و«مأمون رضوان» في القاهرة الجديدة، وانتهاء «بحسين» و«حسين كامل علي» في بداية ونهاية ومروراً «بأحمد عاكف» وأخيه «رشدي» في خان الخليلي، و«كامل رؤية لاظ» في السراب، و«عباس الحلو» في زقاق المدق.

لقد أظهر محفوظ جوانب القاهرة السلبية في بنيتها الاجتماعية، وشخصياتها النمطية وبعض صور واقعها، ولنا أن نضيف أن قاهرة عمرو بن العاص، والعز بن عبد السلام، وسعد زغلول، والرافعي، وعبد الحليم محمود، وحسنين مخلوف، ومحمد متولي الشعراوي، وزينب الغزالي، وبنت الشاطىء لتوحي بواقعية أشمل رؤية، وأطهر سلوكاً، وأوضح طريقاً، ولكن «محفوظ» الذي عبر رمزياً في «أولاد حارتنا» عن إيمانه بالاشتراكية كمنهج بديل في الحياة هو الذي سخر موهبته الأدبية، وأداته الفنية لتصوير النفس الإنسانية في بعض مراحل هبوطها أو انحدارها، وهي واقعية تحتذى النموذج الغربي والمتمثل عند الروائيين الإنجليز والفرنسيين من أمثال «جالز ويرثي»، و«أرنولد بينت» و«جورج موور» و«الأخوان دي كونكور» و«بلزاك» و«أميل زولا» و«موبسان» و«فلوبير».

أما الواقعية الحقيقية التي تنظر إلى الإنسان في صفاء روحه. وطهارة سلوكه. ومثالية أخلاقه، ونظافة تعامله، فهي الواقعية التي نهل من عينها أدباء ومفكرون من أمثال «علي أحمد باكثير» و«محمد قطب»، و«عماد الدين خليل»، و«نجيب الكيلاني»، و«عبد الحميد جودة السحار».

إن هؤلاء الكتاب الذين أناروا الطريق بإنتاجهم الفكري والأدبي القيم، ولم يخرجوا عن الطريق السوي الذي ارتضاه الله لعباده، لهم أكبر من جوائز الغرب وأعظم من تقدير هيئة حكامه ومنظريه.

الشيخ جعفر بن إبراهيم فقيه(١)

نسبه وأسرته

ينتسب الشيخ جعفر بن إبراهيم فقيه إلى عائلة فقيه؛ التي كانت تقطن مكة المكرمة، وذكر منهم مؤلف كتاب «نشر النور والزهر» الشيخ «سليمان بن أحمد بن جعفر فقيه» (١٢٥٧هـ ـ ١٣١٥هـ) وأشار إلى أنه قام بالتدريس بالمسجد الحرام واشتغل بالخطابة والإمامة لمدة من الزمن، ثم ذكر في آخر ترجمة سليمان هذا ـ أن بيت الفقيه الموجودين بالمدينة المنورة هم أولاد أخيه الشيخ مصطفى؛ فإنه قد تديرها ومات بها(٢).

ولا نجد مؤلف كتاب «تحفة المحبين والأصحاب فيما للمدنيين من أنساب» يذكر شيئاً عن أسرة آل فقيه بالمدينة؛ وهو أمر طبيعي؛ لأن انتقال جزء من الأسرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة قد تم بعد انقضاء القرن الثاني عشر، وهو الزمن الذي ألف فيه «عبد الرحمن الأنصاري» كتابه عن أنساب أهل المدينة المنورة(٣).

---

(١) الخميس ١٤٠٩/٤/٨ ـ ١٩٨٨/١١/٢٠ ـ عدد ٧٨٦٦ ـ ص٤.

(٢) عبد الله مرداد أبو الخير: المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر ـ اختصار وترتيب محمد سعيد العامودي وأحمد علي، مكة: ط١، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م، ج١، ص ١٦٨ ـ ١٦٩.

(٣) يذكر الأستاذ محمد العروسي المطوي، محقق كتاب «التحفة» أن وفاة الأنصاري كانت في =

ولادته ودراسته العلمية

ولد الشيخ جعفر فقيه بالمدينة المنورة سنة ١٣٢٠هـ. وطلب العلم في حلقات المسجد النبوي الشريف، ومنها حلقة الشيخ إبراهيم الطرودي، ومن زملائه في هذه الحلقة العلمية: السيدان علي وعثمان حافظ.

ثم انقطع التدريس في مكاتب الحرم النبوي الشريف؛ لقيام الحرب العالمية الأولى، وبعد أن انقضت شؤون الحرب استأنف صاحب الترجمة دراسته في حلقة الشيخ عبد الفتاح أبو خضير، وكانت الدراسة في هذه الحلقة دراسة دينية فقهية ووقتها بعد صلاة العصر.

أما حلقة الشيخ «حُميدة» فلقد كان يؤمها بعد صلاة الفجر لدراسة كتاب «الشفاء» للقاضي الفضيل بن عياض، وكان مكان هذه الحلقة بين بابي الرحمة والسلام بالمسجد النبوي الشريف.

وكان يؤم حلقة أخرى يقوم بالتدريس فيها الشيخ عبد الرؤوف عبد الباقي؛ قرب الحجرة النبوية، وكانت متخصصة في الحديث النبوي.

ومما درسه الشيخ جعفر في هذه الحلقة، كتاب «صحيح الإمام مسلم».

أما الدروس التاريخية فلقد كان يتلقاها من فضيلة الشيخ عبد القادر شلبي ـ رحمه الله ـ في مدرسته التي كانت تقوم بحي ذروان[1] وهو حي كان يقوم بالقرب من المسجد النبوي الشريف.

ويذكر الشيخ جعفر أنه استفاد كثيراً من دروس الشيخ الشلبي؛ الذي

= عام ١١٩٥هـ، انظر: تحفة المحبين والأصحاب فيما للمدنيين من أنساب، تونس، ط١، ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م (المقدمة).

(١) ينطقه عامة أهل المدينة «بضروان» وقد هدم هذا الحي لصالح التوسعة السعودية الأخيرة.

كان متخصصاً في تاريخ المدينة؛ فلقد كان واحداً من العلماء الذين انتخبهم فخري باشا؛ قائد المدينة؛ لتدوين تاريخ المدينة النبوية.

أما بقية العلماء الذين تم انتخابهم فإن ذاكرة الشيخ جعفر تسعفه بأسماء المشايخ أحمد كماخي، وأبو بكر داغستاني، ونذير خاشقجي.

ولم يكتف الشيخ جعفر بالحلقات؛ التي كانت تنعقد في رحاب المسجد النبوي الشريف؛ بل كان يؤم بعض المجالس العلمية الخاصة؛ كمجلس الشيخ زكي برزنجي وابنه جعفر في دارهم الكائنة بباب المجيدي، ولقد كانت تدور بعض المناقشات العلمية والمناظرات الفقهية في مجلس آل البرزنجي هذا، وكان عدد كبير من الناس يؤم هذا المجلس العلمي.

مشاركاته وأعماله الوظيفية

في سنة ١٣٤٩هـ افتتح الشيخ جعفر مكتبة الإخاء في باب الرحمة، وكان التعاون قائماً بين مكتبة الإخاء هذه، ومكتبة البابي الحلبي المشهورة في القاهرة، ومكتبة الشيمي في الإسكندرية.

وعندما بدأ مشروع التوسعة السعودية الأولى للحرم النبوي الشريف، في عام ١٣٧٠هـ تم تعيين الشيخ جعفر مديراً لمكتب بن لادن بالمدينة المنورة لشؤون التوسعة، وفي عام ١٣٧٢هـ أصبح فضيلة الشيخ صالح قزاز مديراً لهذا المكتب، وتم تعيين الشيخ جعفر مساعداً له، ولقد ظل الأخير في عمله هذا إلى أن انتهت العمارة في عام ١٣٧٥هـ.

وبعد انتقال الشيخ القزاز إلى مكة المكرمة للإشراف على توسعة الحرم المكي ـ أسندت أعمال المكتب ثانية للشيخ الفقيه، وظل في هذا العمل إلى سنة ١٣٨٢هـ؛ وهي السنة التي كُلّف فيها من قبل مديرية

الأوقاف بمكة المكرمة بمهام المديرية العامة لمكتبات المدينة المنورة، ثم تم حصر الوظيفة في الإشراف على شؤون المكتبة العامة حتى سنة ١٣٨٨هـ.

جهوده العلمية

قام الشيخ جعفر فقيه بالاشتراك مع الأستاذ هاشم دفتردار بتأليف كتاب عن توسعة الحرم النبوي الشريف، وضم الكتاب فصولاً عن توسعات المسجد النبوي التاريخية، والأسباب التي دعت إلى التوسعة السعودية الأولى، وصدور الأمر الملكي الكريم بذلك، وعن المسجد النبوي الشريف قبل التوسعة، ثم عن المسجد النبوي الشريف بعد العمارة؛ التي ابتدأها المغفور له جلالة الملك عبد العزيز، وأتمها الملك سعود، رحمهما الله، لتصبح المساحة التي انتهت بها توسعة المسجد النبوي الشريف هي ١٦٣٢٦م٢ وتوضح أعمال هذه التوسعة خارطة خاصة بالتوسعة السعودية الأولى؛ كما يضم الكتاب فصولاً عن مساجد المدينة المنورة وإصلاحها، وعن المستشفى الذي تم إنشاؤه بالمدينة، وأطلق عليه اسم: «مستشفى جلالة الملك عبد العزيز» ثم عن مبنى الكلية الإسلامية؛ الذي تم تعميره ليصبح مقراً لمدرسته طيبة الثانوية.

وقد رعى جلالة الملك فهد بن عبد العزيز، رعاه الله، الذي كان عندئذٍ وزيراً للمعارف، مهمة استلام مبنى هذا الصرح العلمي.

كما تطرق الكتاب للمشروعات الكثيرة التي تمت في تلك الفترة في بلد المصطفى ـ ﷺ ـ ومنها إنشاء خزانات ماء الشرب، وإنشاء محطة الكهرباء، وتعبيد طرق المدينة المنورة وإنشاء طريق جدة ـ المدينة وإقامة السدود الزراعية العديدة.

كتاب خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى ـ ﷺ ـ

وهو أحد مؤلفات مؤرخ المدينة نور الدين علي بن عبد الله السمهودي (٨٤٤ ـ ٩١١هـ) وقد ألفه المؤلف ـ كما يذكر الشيخ حمد الجاسر سنة ٨٩١هـ. وقد اختصر فيه كتابه «وفاء الوفاء» في نحو نصفه مع جمع مقاصده[١].

وقد طبع الكتاب عدة طبعات؛ أولاها في بولاق سنة ١٢٨٥هـ[٢] ثم نجد طبعة أخرى لهذا الكتاب، وقد أشرف على طباعتها الشيخ جعفر فقيه، سنة٣٦٧هـ، وقامت دار إحياء الكتب العربية بنشره، كما قام الشيخ جعفر نفسه بنشر الكتاب للمرة الثانية في عام ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، وهذه الطبعة بتعليقات والده الشيخ إبراهيم الفقيه ـ رحمه الله.

ولا بد من الإشارة إلى طبعة أخرى للكتاب نفسه قام بها المرحوم الشيخ محمد سلطان التمنكاني في دمشق، سنة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م وكتب الشيخ حمد الجاسر مقدمة قصيرة لها، كما يذكر الشيخ الجاسر أن كتاب الخلاصة ترجم إلى اللغتين الفارسية والتركية[٣].

ذكريات طيبة

كما نشر الشيخ جعفر، في عام ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م، كتاباً للأستاذ هاشم دفتردار، عن أسرار الحج والزيارة، وتضمن عدة مباحث هامة منها:

---

(١) محمد بن يعقوب الفيروز آبادي: المغانم المطابة في معالم طابة، تحقيق حمد الجاسر، الرياض ط١، ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م (المقدمة).

(٢) رسائل في تاريخ المدينة، بتقديم حمد الجاسر، الرياض، ط١، ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م، ص ٣٥.

(٣) المصدر السابق نفسه.

* عن عوالم المادة، وعوالم الروح.

* عبادة الخالق، وعبادة المخلوقات.

* لا وثنية ولا إشراك في الإسلام.

* لا خلاف بين العلماء في أصول العقائد والتشريع.

* خلاصة السيرة النبوية.

* أركان الإسلام.

* الحج.

* العمرة.

* الأنساك الثلاثة: الإفراد والتمتع والقران.

* دار الهجرة.

* فضل دار الهجرة.

* أثر المسجد النبوي في أنفس الزوار.

* آداب دخول المسجد النبوي.

* مساجد رسول الله ﷺ في طيبة؛ كمسجد قباء، والجمعة، والقبلتين والإجابة، والراية، والسقيا، ومسجد بني ظفر ومسجد المصلى، ومسجد الفضيخ.

النقيدان. . . وتزوير حقائق التاريخ(١)

كان بعض بني جلدتنا وأخواننا في الماضي قد بلغ منهم التشدد والقسوة والغلظة والجفوة مبلغه ـ وذلك نتاج بيئة منغلقة لا تعرف تسامحاً ولا رقة ولا عطفاً ـ حتى إذا ما خلعوا جلودهم الأصلية وتدثروا بغيرها ذهبوا إلى الجانب الآخر أو الضفة المقابلة الأكثر تشدداً، وبتعبير آخر أن من ينتقلون من أقصى اليمين فجأة، لا يمكن أن يحجزوا مواقع في الوسط لهم ولكنهم يندفعون بنفس القوة إن لم يكن أكثر إلى أقصى اليسار، وإذا كنت كتبت في الأسبوعين الماضيين ـ وفي هذه الزاوية ـ أعبر عن رأيي الذي أدين فيه انتهاك حرمات الآخرين وعدم رمي الآخرين في عقائدهم أو تفكيرهم، فإنني ـ اليوم ـ ومن نفس المنبر أناقش الأخ (منصور النقيدان) في موضوع نشره بصحيفة الرياض بتاريخ ١٤٢٤/٥/١٧هـ، وهو أن اختار عنواناً أو بالأحرى مدخلاً لموضوعه، وهو حديثه عن قرار مجمع البحوث بالأزهر الأخير الذي يرى أن الأصل في نشر الكتب هو الإباحة وعدم المصادرة.

إلا أنه قد أتى على مسائل في موضوعه لم ينصف فيها نفسه قبل أن ينصف الآخرين، وأساء إلى جوهر التعاليم الإسلامية، وخلط بينها وبين

---

(١) الثلاثاء ٢٩ جمادى الأولى، ١٤٢٤/هـ.

بعض تصرفات البعض على مر التاريخ الإسلامي خلطاً عجيباً، بل إنه في خلطه هذا جعل أمثال (زويمر) و(بيرناردو لويس) أكثر إنصافاً للإسلام منه، وجعل مفكراً كبيراً مثل إدوارد سعيد ـ مع أنه مسيحي ـ يبدو أكثر تعظيماً وتقديراً وتبجيلاً لنبي الإسلام سيدنا محمد ﷺ وتلك مفارقة عجيبة.

وقبل أن أناقش الأخ (النقيدان) في موضوع (كعب بن الأشرف) وكيفية قتله أو إهدار دمه، أود أن أقول إن كاتبنا ـ أخفى حقائق كثيرة تتصل بهذا الموضوع، (فكعب بن الأشرف) هو يهودي حلفاً وأما وكونه عربي الاسم لا يجعل الأخ (النقيدان) يسعى لإيهام القارىء بأنه فرد عادي من أفراد مجتمع المدينة عند هجرة سيد الأولين والآخرين ـ رغم أنف من أبغض وكره ـ إليها، فلقد كان أهلها كما يذكر أحد المحققين في كتابه سيرة الرسول ﷺ ـ وبمنهج علمي دقيق في العصر الحديث ـ وهو الشيخ محمد الصادق عرجون ـ رحمه الله ـ نعم: لقد كان أهل المدينة (أخلاطاً) منهم المسلمون والمشركون واليهود، وكان اليهود الذي يعرف أخونا (النقيدان) أنهم هاجروا إلى المدينة قبل بعثة النبي ﷺ واستعمروا مجتمعها استيطاناً ـ وآطامهم لها بقايا في البلدة الطيبة ـ واقتصاداً وأفسدوا ما بين القبائل العربية الموجودة في المدينة ونعني بهم الأوس والخزرج، فلما ظهر لهم أن النبي الذي يحمل الرسالة الخاتمة هو عربي وليس بيهودي بالغوا في إيذائه ﷺ وإيذاء أصحابه رضوان الله عليهم، فأمر الله عز وجل نبيه بالصبر والعفو وفيهم أنزل ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ (سورة آل عمران، الآية ١٨٦).

وإني لأسأل أخي (النقيدان) وليكن منصفاً، عادلاً، حتى وإن كان له

مواقف مع بعض المتشددين فهذا بحسب علمي لن يثنيه عن قول الحق، نعم إنني لسائلك يا عزيزي: هل بإمكانك أن تقدم لي مثالاً مشابهاً من أي دين وحضارة أخرى ـ على مر التاريخ ـ يدعو فيها مصدر التشريع إلى الصبر والعفو عن الفئة التي لم تقتصر على هجو الرسول وتحريض كفار قريش عليه الذين أخرجوه من أرضه ومن أحب البقاع إليه كما فعل كعب بل دعوه لزيارتهم نفاقاً ثم أرادوا إسقاط الجدار عليه، ومع هذا لم يعاقبهم!، وسممته جارية يهودية في غزوة (خيبر) لتعرف بالمعجزة هل أنه نبي مرسل من عند الله أم لا؟ ومع هذا أمر أصحابه بعدم قتلها.!!

وماذا أنت فاعل مع (فئة) تؤذي نساء الآخرين في أسواق (المدينة) وتكشف للناس عنوة عوراتهن؟ وماذا أنا، أو أنت فاعل إذا كنا نمشي على أرض لنا وقام وافد أو غريب بمثل هذه الفعلة الشنيعة لا قدر الله؟ هل أنا أو أنت بقادرين ـ عقلاً ـ وليس عاطفة على تركه يمشي حراً طليقاً حتى يشتط في سلوكه، ويذهب إلى أبعد من ذلك التصرف والمرفوض عقلاً، وموضوعية!! وإذا كان نبراسك هو الغرب وهذا من حقك كما ذكرت في خاتمة مقالك فهذه أمريكا عندما أوذيت في عقر دارها تسجن في (جوانتانامو) أطفالاً وشيوخاً أفرجت عن بعضهم بعد أكثر من عام لبراءتهم ولم تعوض أحداً منهم عن الضرر المادي والنفسي الذي لحق بهم، وهي ترفض حتى مجرد التفكير في تقديمهم للمحاكمة محاكمة عادلة، مع أننا لا ننكر جميعاً على أمريكا محاكمتها لمن تسببوا في قتل الأبرياء من مواطنيها مع أن يديها ملوثتان بالدماء في مواقع كثيرة من العالم وما فلسطين إلا مثل بسيط، ولقد رأيت بعينك كيف عرضت قنواتها الفضائية على العالم صوراً لمن قتلتهم في العراق، مع أننا يا عزيزي كنا من أكثر

الناس نقداً لبعث وقومية صدام في الوقت الذي كان فيه الحداثيون واليساريون العرب يدبجون فيه القصائد والمطولات من المدائح.

ولعلّك تدرك بحكم ثقافتك الدينية أن الإسلام من أكثر الأديان تحريماً لتشويه الإنسان بل إنه دعا أن يرفق الإنسان بالدابة عندما يريد ذبحها، ودعا صراحة إلى عدم قتل النساء والشيوخ والأطفال، بل ذهب إلى أبعد من ذلك عندما حذر من التعرض للكهان في صوامعهم، وأريد أن أختم مقالي هذا بتناول بعض ما ورد في وثيقة المدينة وهي أول وثيقة اعترفت بحقوق الآخر في العالم، فلقد روى ابن إسحاق وقال (كتب رسول الله ـ ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار، ووادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم)، ومما ورد فيها (وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم، وأن من تبعنا من يهود فإن له النصرة والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم)، اللهم إيماناً كإيمان العجائز وكفى.

النقيدان وحرية الكلمة في الغرب[١]!!

(إن كل ما يتفوّه به أصحابنا ـ اليوم ـ من حديث وجدل حول حرية التعبير، لم يكن سوى نفحة من حضارة نقتات على نتائجها، وننبهر بألقها، يسحرُنا جبروتها، ويكسرنا من الأعماق تفوقها، ولكننا نأبى إلا أن نحجب الشمس بأكُفنا).

هذا ما ختم به الأخ منصور النقيدان مقاله في صحيفة الرياض (١٧/٥/١٤٢٤هـ)، ـ وكان مما يثير ـ حنق أخينا (النقيدان) هو تساؤلات الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حول الحكمة من التشريعات الإسلامية؟ وقد صوّر (النقيدان) الخليفة الراشد صورة تسيء إلى صحابيّ من أصحاب الرسول ﷺ، ومردُّ هذا التصوير ـ في نظري ـ أن النقيدان يسترجع بعض سلوكياته السابقة والمتشددة ويسعى للتخلص من ذكرياتها المُؤلمة بأن يُلصق ـ زوراً وبهتاناً ـ شيئاً منها لصحابة الرسول والذين رافقوا رسول الله ﷺ وتعلموا من أدبه وخلقه ما يجعلهم يستعظمون مساءلته ولا يحرّمونها لأنهم يوقنون بأن الرسول عليه صلوات الله وسلامه لا ينطلق في تشريعاته إلا من الوحي الإلهي ولم يكن ليضيق صدر رسول الله بهذه التساؤلات، ولا نعلم ماذا تريد يا أخي منهم ـ فإنهم سألوا ـ وهذا دليل على حرية

---

(١) صحيفة المدينة، الأربعاء، ١٥ جمادي الآخرة، ١٤٢٤/هـ.

التعبير ـ هم في نظرك متمردون! ـ وإن سكتوا فهم لا يفقهون حرية الكلمة، وهذا شيء شنيع في حق صحابة رسول الله ﷺ وهم أجلّ وأعظم مكانة ومنزلة مما حاولت أن توحي به إيحاء عنهم، ولكنك حتى تصد عنك ما يمكن أن يترتب على سوء (الأدب) هذا مع الرسول وصحابته أوردت اسم (شيخ الإسلام ابن تيمية) ـ رحمه الله ـ وذكرت (أنه حورب لأجل اجتهاداته في حياته ومات مسجوناً مظلوماً) ولقد كان شيخ الإسلام يا أخي ـ معظماً لرسول الله وصحابته عليهم من الله سلامه ورضوانه ـ وما كان أغناك أن تزج به ـ فقط ـ ذراً للرماد في العيون، ولكن الأمر أوضح من نور الشمس التي زعمت أن البعض يحاول حجب ضيائها المغربي عنك.

نعم لقد كانت هناك سلوكيات لبعض أتباع المذاهب أبعد ما تكون من روح الإسلام ولكنها لا تُلغي الأصل ولا تمس الجوهر، وما دمت ذكرت في خاتمة مقالتك المذكورة بأننا نقتات على نتاجها، فإنني أحببت أن أورد أمثلة (لخروقات) كبيرة في الحضارة الغربية ـ وبعضها ـ كنتُ ـ شاهداً عليه أثناء دراستي بالمملكة المتحدة.

وأود أن أطمئن أخانا النقيدان بأنني معجب أشد الإعجاب بما يدور في مجلس العموم البريطاني من مداولات وحريص على مُتابعتها ـ حتى اليوم ـ ولكن هذا لم يسلبني هويتي، ولم يجعل قلبي يمتلىء ـ لا قدر الله ـ نقمة وكراهية لتراثي وتاريخي، ولو عاش البعض في الغرب ما كانوا على هذا القدر من الانبهار بحضارة لم يعايشوها بل الأدهى من ذلك أنهم لا يملكون الوسيلة اللغوية التي يستطيعون من خلالها أو تمكنهم على الأقل من النفاذ لحضارة الغرب نفاذاً قوياً يمكنهم من وضع الأمور في

نصابها الصحيح، ولما كان تقلبهم بين اليمين واليسار على هذه الدرجة من الشدة والحدة والجفاء والغلظة فلا هم في اليمين مُعتدلون، ولا هم في اليسار منضبطون؟

فكان لا بد من إحاطة بعض مظاهر حرية الكلمة في الغرب والخروقات الخاصة بها وأورد لك هذه الأمثلة ـ يا أخي منصور ـ وبإمكانك إن أحببت أن تتأكد من صحتها ودقتها ـ لأنني أوردها موثقة بمصادرها الإنجليزية، ومؤلفوها ليسوا عرباً ومسلمين!

فلقد برز في الستينيات الميلادية، مفكر وزعيم عمالي اسمه يهوجيتسكيل (Hugh Gait-Shell) ١٩٠٦ ـ ١٩٦٣م وكان الرئيس الأمريكي جون كيندي معجباً به، وألقى خطاباً مؤثراً في شهر أكتوبر ١٩٦٠، في مدينة (Scarborough) الإنجليزية، ضد من يسعون في حزْبه للتخلص من السلاح النووي، وكانت الحرب الباردة على أشدّها، ولم يخسر جيتسكيل المعركة ـ وحدها ـ، بل الأشد والأسوأ من ذلك أنه خسر حياته، فلقد توفي فجأة بعد ذلك.

وظلت وفاة المفكر جيتسكيل ـ لغزاً حتى كشف عن ملابساتها ـ عميد سابق لجهاز المخابرات البريطاني اسمه (بيتر رايت) (Peter-Wright) في كتاب له صدر في الثمانينيات الميلادية، تحت عنوان: (صائد الجواسيس) (Spy-Catcher) فهو يذكر في ص (٣٨٠) من الكتاب (وبعد وفاته ـ أي جيتسكيل ـ جاء طبيبه وطلب لقاءً مع شخص مسؤول في (أم ـ أي خ) مقالة (آرثر مارتن) وشرح له الطبيب انزعاجه من الطريقة التي توفي بها (جيتسكيل) وقال إنه توفي إثر مرض جلدي يهاجم أعضاء الجسم، وقال إن المرض نادر في البلاد ذات الطقس المعتدل، وأضاف بأن (جيتسكل)

لم يكن في أي مكان يمكن له أن يلتقط هذا المرض، ويشير (رايت) إلى أن (جيتسكيل) سافر خارج بريطانيا قبل وفاته بشهر واحد، وأن أجهزة المخابرات كانت تخطط لعملية اغتيال سياسية عالية المستوى في (أوروبا) وذهب (جيتسكيل) ضحية الكلمة التي خاطب بها حزبه وهي: (سوف نقاتل، ونقاتل ـ مرة ـ أخرى ـ لننقذ البلد الذي نحب) وكان (جيتسكيل) يريد أن تكون (بريطانيا) مستقلة عن القطبين الكبيرين آنذاك ـ الولايات المتحدة ـ والاتحاد السوفيتي، وكان للكشف عن هذه المعلومة الهامة وغيرها أثر سلبي عند حكومة المحافظين بزعامة مارجريت تاتشر (ففي صيف: ١٩٨٧م، استنفرت أجهزة الجمارك في المطارات والموانىء البريطانية وبدأت عملية ـ تفتيش ـ لا مثيل لها، للقادمين، وخاصة من أمريكا، فقد خرجتْ) لندن عن وقارها المزعوم وديمقراطيتها العريقة لتشن حملة واسعة لاصطياد كتاب عنوانه (صائد الجواسيس).

(انظر مقدمة عماد القنّوس للترجمة العربية من الكتاب ط٣، ١٩٨٨م وأزيد على ذلك أن (تاتشر) كلّفت وزيرها اليهودي آنذاك ديفيد ينغ (David-Young)، بمصادرة الكتاب ومقاضاة صحيفة (الأوبزرفر الأسبوعية البريطانية)، لنشرها مقتطفات من الكتاب بعد أن صدر أمر بعدم نشر أي شيء من محتويات الكتاب، وتم رفع قضية ضد الكاتب الذي فر إلى (كندا) ثم إن الكتاب ـ من ناحية أخرى ـ غير تلك المتصلة بقتل (زعيم) لمجرد أنه أراد حيادية بلاده من التجاذبات السياسية ـ آنذاك ـ، هو يضيف جديداً في كيفية تصرّف الغرب إزاء الشعوب العربية التي كانت تطمع في التحرر ـ آنذاك ـ فهو يشير إلى عملية كانت سوف يقوم بها جهاز المخابرات البريطاني (أم. آي. ٦) ضد الزعيم الراحل جمال عبد الناصر

سنة ١٩٥٧م بسبب موقفه من تأميم قناة السويس، وإنني لسائل: أخي منصور النقيدان ـ ببساطة وعقلانية؟؟ ـ هل أن مثل هذه المصادرة الواضحة لحرية الكلمة سواء المتصلة منها بالتخلص من زعيم سياسي غربي لكلمات قوية عبر بها عن حبه لبلده ـ (بريطانيا)، ولم يشفعها بسلوك عملي، ولكن كان (داء الثعلبة) الذي حقن به (جيتسكيل) هو الرّد الوحيد على كلماته في سكار بور كما أن محاولات عبد الناصر لتحرير قناة السويس هي دافع قوي لدى الديمقراطية البريطانية للتخلص منه كما يكشف عن ذلك رجل مطلع على أسرار الغرب ـ نفسه ـ وهي أي الحرية الغربية عند اتخاذها هذه القرارات لا تنظر إلى ما يترتب عليها من إزهاق أرواح وتلويث اليدين بالدماء، فكيف تفكر بعد ذلك بأنها مصادرة للكلمة الحرة وتكميم للأفواه.

هل أن مثل هذه الخروقات تُلغي ما اتفق عليه الناس من إيجابيات ومحاسن للديمقراطية الغربية؟ فكيف تأخذ سلوكيات البعض ـ في الحضارة الإسلامية ـ لتُلغي بها الأصل؟ والأنكى من ذلك بأن في كلمات ما هو سوء أدب واضح مع النبي ﷺ وصحابته. اللهم أهد بعض أقوامنا فإنهم لا يعلمون ونوّر بصائرهم بنور اليقين.

وقفة وحوار مع النقيدان(١)

أريد أن أختم حواري مع الأخ منصور النقيدان ـ عما ورد في مجمل مقالته (الرياض، ١٤٢٤/٥/١٧هـ) والتي يمكن وصفها بأنها لا تقل تشدداً وتطرفاً عما يكتبه الآخرون في الضفة المحاذية وهي تزيد على نظرائها أو مناوئيها ـ على حد سواء ـ بأن كاتبها يخلط فيها خلطاً عجيباً في أمور يصعب الخلط في شأنها إن كان أخونا الكريم ممن يسعون ـ حقاً ـ لإيجاد حوار هادىء وموضوعي ـ وفيها انتقاص من منزلة نبي الإسلام ـ عليه صلاة الله وسلامه ـ وهو أمر مستغرب ـ إن وجدناه في صحافتنا العربية ـ فضلاً عن أن نعثر عليه بين سطور مقالة كاتب لم يضاره هو ـ وقلة معه ـ الإسلام في شيء، ولكن الذي أدى به ـ إلى ذلك ـ كما ذكر صاحب الرؤية الموضوعية والأفق الواسع، واللسان العف والمهذب ـ الأستاذ (خالد بن حمد السليمان) في صحيفة عكاظ (١٤٢٤/٦/٢هـ) بأن حمله لشعلة الإحراق أدى إلى عدم قدرته لحمل شعلة الكلمة، فانضواء أخينا ـ في الماضي ـ تحت عباءة التشدد، وارتماؤه في أحضان الفكر الآحادي والمتشدد أدى به إلى عدم قدرته على حيازة ثقة بيئته الأصيلة ـ في الفكر ـ فانطلق منها إلى بيئة أكثر تشدداً، تلك البيئة التي ظنها صلبة فإذا هي

(١) صحيفة المدينة الثلاثاء، ٧ ذي الآخرة ١٤٢٤/هـ.

رخوة تهوي بأقدام من يخطو عليها، فغاصت الأقدام بهم في وحلها، ورمتهم رياحها العاتية وأعاصيرها القاتلة في جزر من الأيدلوجية النائية والغريبة.

يمتلىء القرآن ـ كتاب الله ووحيه المنزل على خاتم رسله وسيد ولد آدم لا فخر محمد بن عبد الله ـ عليه صلاة الله وسلامه ـ بآيات هي أوامر إلهية لأتباع هذا الدين ـ كافة ـ فهذا الوحي يطلب من المسلمين ألا ينقضوا عهداً مع المشركين ـ وهم يا أخي ليسوا كتابيين ـ حيث أردت عمداً أن توهم ـ القارىء ـ بأن الإسلام متسامح فقط مع أهل الديانات الأخرى والمشركون في ذلك العصر وأنت تعرف ذلك ـ حقاً ـ لا يتبعون دينا من الأديان.

يقول الله عز وجل بعد أمره بتبرؤ الرسول من المشركين الذين ينقضون العهود ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ (التوبة: ٤). فهذا أمر صريح بأن يوفي الرسول ومن معه ـ مع المشركين الذين لم ينقضوا العهد، ولم يعينوا عليهم أحداً من أعدائهم، فالله عز وجل يحب المتقين لربهم الموفين لعهودهم، ولو كان هذا الكلام ـ يا أخي صادراً من مرجعية غربية لهلل له المتشددون من اليساريين العرب ولطاروا به فرحاً، ولترجع إلى عهود (الغرب) مع (العرب) في هذا العصر المكتوب منها والشفهي، الرسمي منها وغير الرسمي، فهل أنت واجد لهم عهداً وذمة أم أننا واجدون الضد والنقيض من ذلك، تاركاً الحكم لك بنزاهة وموضوعية.

وكأن شبهة القول حول مبادىء الإسلام الصحيحة ـ تجنياً ـ هو ما

يسعى إليه بعضنا سائلين الله لنا ولهم العفو والمغفرة ـ فهذا حال المؤمن مع إخوانه وكأن الحديث ـ يا عزيزي ـ عن نقائص الحضارة الغربية ـ يدخل في باب المحظورات أو المنكرات، فما الفرق بينهم وبين من ينتقدون في مقالاتهم بمناسبة وغير مناسبة بعض الزعامات السياسية العربية في الماضي والحاضر؟؟

ونسير مع هذه الآيات البينات في هذه السورة القرآنية الكريمة فنجد أن القرآن ـ أصل التشريع عند المسلمين ـ يأمر أتباعه على لسان نبيه ومصطفاه ـ ﷺ ـ بتأمين من طلب الأمان (من المشركين)، ثم إيصاله إلى وطنه سالماً آمناً بعد سماعه كلام الله. . . يقول ـ عز وجل ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة ـ ٦)، واطلب منك يا أخي أن تقارن بين هذا السمو الحقيقي والعظمة الإنسانية المتجسدة في سلوك المسلمين مع من أخرجوهم من ديارهم، وآذوهم في أهلهم، وحاصروهم في بيوتهم، حتى إذا أظهر الله نبيه عليهم ـ كان النبي في سلوكه محققاً لهذا المنهج القرآني العظيم، حيث خاطب الرسول بني قومه يوم الفتح قائلاً: (اذهبوا فأنتم الطلقاء) وأكرم الرجل الذي لاكت زوجته كبد عمه سيدنا حمزة بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ وهو أبو سفيان ـ رضي الله عنه ـ والذي أسلم يوم الفتح، لقد أكرمه ـ حقاً ـ فقال في حقه (من دخل دار أبي سفيان فهو آمن) أن تقارن بين هذا السلوك الإنساني وسواه عند الأمم الأخرى؟ ولقد وردت في مقالتك يا أخي عبارات تضج منها السموات والأرضون ـ فأنت تصف موقف الشريعة الإسلامية وموقف نبيها ﷺ من حرية التعبير بأنه لم يكن (إلا تزييفاً) وأضع الكلمة الأخيرة بين (قوسين) لأنها وردت هكذا في

مقالك ولا يمكن حملها على أنها مما يدخل في باب الخطأ المطبعي، وأما ما هو منثور بين السطور فالله وحده هو المطلع على أسراب القلوب وهو الذي يحاسب عليه ونسأله للجميع الهداية وسواء السبيل.

«السيَّد الفقي وشموخٌ بين الحُسين والجيزة»(١)

لا يتذكَّر الفتى منْ رحلاته الأولى وقبل ما يَقْرُب منْ عقدين منْ الزمنِ إلى القاهرة إلا تلك الأحياء الشعبية في «الحسين» و«السيدة زينب»، ولقد ذكرت تلك الأماكن التي تفوح بعبقِ الماضي ذلك الفتى الذي عزم على أن ينطلق من أرضِ الكنانة إلى أرض «التَّميس» و«الهايدبارك»، ذكرته بساحات المناخة وسويقه، وسوق الصغير، وسوق اللَّيل، ومرابع العلوي.

صَعَدَ إلى الطائرة وكأنه بصعوده ذلك يكْسرُ حاجزاً قوياً أقامه بينه وبين السفرِ، وكما أن للسفر متعته الذهنية والنفسية فإن له متاعبه، وإن المتاعب لهي الأكثر بروزاً في إقامته وسفره، وكان أحد أصدقائه المقربين إليه يحاول أن يبثَّ فيه روح العزيمة التي أفقدتها إياه صروف للدهرِ عجز عن مقاومتها، الوجوه التي كانت تحيط به لم تكن غريبة عليه، هذا أبو عمرو، خلفه، وذلك أبو أثل بجانبه، وهناك أبو زين وأبو غنوة وأبو الحسين، الجميع يتهامسون، ويتبادلون عبارات المزاح والطريف من القول، وجاء من يضع يده على كتفه ليسلم عليه وعندما عزم على القيام ليرد التحيَّة منعهُ هذا القادم من القيام تذكر مقولة رفيق دربه الشاعر «أبو حلّيت»، وقد مضى عليها من الزمن ما مضى «هذا الأخ الدياب» فيه من شهامة ولد

(١) مجلة الإعلام العدد ١٩.

الحارة ما فيه!!» ولم تمضِ دقائق على اختراق الطائرة سماء جدة حتى وجد هذا الإنسان المغرم والعاشق لتراث العلوِي والمظْلوم وحارة الشام و«نسيان» يذكره بأحاديث «الهمني» و«السرديدي» و«أبو ركْبة»، شهامتهم شجاعتهم، ثم النهاية الأليمة التي آل إليها بعضهم من المرض وشظف العيش، وطرح السؤال كعادته وبروحه الظريفة، كيف نرد إليهم شيئاً من اعتبارهم؟

وكما كانت الطائرة معلقة بين السَّماء والأرض، فلقد بقي السؤال كذلك معلقاً ولربما رددت شواطىء جدة ومراكبها صداه! ولكنها ابتلعته كما يَبْتَلعُ الماء ـ حيناً ـ بعض عشاقه ومريديه.

مضى الزمن ـ سريعاً ـ ووجد نفسه في مطار القاهرة، «لم يكن هناك ما يزعج!» ـ عبارة خرجت عفواً من فمه لصديقه الحميم أبي أثل، وكان صديقنا أبو أيمن الأعرف بالطَّريقة التي سوف نصل بها إلى فندق «الشيرتون» ففعل، وتفرق الجمع لساعة من الزمن ليعود ويلتئم من جديد في البهو الكبير للمكان الذي سوْف تُعْقدُ فيه احتفاليةُ الشَّاعر الكبير السيَّد محمد حسن فقي، وقفزت تلك الصورة القديمة والمتجددة لتلك القمة الشامخة في تاريخنا الأدبي، لم ير «حمزة شحاتة» في حياته ولكنَّ ريشة الأب «عزيز ضياء» ـ رحمه الله ـ في «أدبنا قمة عرفت ولم تُكْتشف» جعلته يتصور «شحاتة» وهو يخطو بقامته الرفيعة وهندامه الأنيق بين المسعى والقشاشية، وكذلك استطاع الدكتور عبد الله مناع أنْ يفعل عندما قدم للسيرة الذاتية للسيد الفقي، وكُنْتُ أقول لبعض من أعرف «الفقي هو الأكثر تهذيباً بين أنداده»، لا تجد له عدواً أو حاسداً بين الذين عاصروه وبين الذين لحقوا بالركب فيما تتابع من الزمن، وكم تمنى أن يغمض عينيه

ثم يفتحهما ليجد السيد «الفقي» وقد خطا بقامته الشامخة وابتسامته الهادئة بين هذه الجموع المحتشدة، ولئن جعلت الصورة الشعرية القوية والمكثفة التي حفل بها إنتاج «الفقي» منه شاعراً فحلاً وكبيراً لا يقل شأواً، أو شأناً عن القروي، وأبي ريشة والجواهري، فإن سماحته وطيبته ووفاءه، كل ذلك جعل منه مثالاً في أعين الذين عرفوه عن قرب وخصوصاً في عين الرجل الذي يحتفى به اسماً ومعنى في كل عام، وأقصد معالي السيد أحمد زكي يماني الذي جعلت منه هو الآخر ـ حلقات العلم في باب السلام وسواه رجل فكْر وعِلْم وأدب، وقليل منْ جمع الله لهم بين الثراء والعلم وحسن الخلق، وأنْت يا أبا هاني واحد من هذه القلَّة.

لقد كان الفتى سعيداً برؤية تلك القامات الشامخة من المفكرين والأدباء والنقاد، ولكنه كثيراً ما تمنَّى رؤية الدكتور محمد عناني صاحب كتاب «الأدب وفنونه» وهو كتاب صغير في حجمه، كبير في معناه، وكان يتابع بلهفة شديدة ما يكتبه هذا الإنسان عن حياته العلمية بين القاهرة و«أكسفورد» و«كيمبردج» على صفحات الملحق الأدبي «أخبار الأدب» وفرح كثيراً عندما علم أن الدكتور «العناني» جمع شتات تلك الحلقات في كتاب منْ جُزْءين.

أما الرجل الآخر الذي سبق أنْ قرأ لهُ شيئاً منْ إنتاجه ومنْهُ «الأدب وقيم الحياة المعاصرة» فهو الدكتور الأستاذ محمد زكي العشماوي، إنه في هذه السن المتقدمة من عمره، ولكنه يتوثب نشاطاً ويتقد حماساً ويرد على الدكتور «صلاح فضل» وسواه في أدب جم وعنْ علْم متمكِّن.

لن يدعي الفتى ويزعم بأنه يعرف أحياء مصر وشوارعها ومتاحفها، ولكنه يعرف أنها بلد الحضارات وقلعة الصمود والتحدي، فلم يستطع

الفرنجة الوصول إلى أرض فلسطين لأن المماليك كانوا يرون أن القاهرة امتداد للقدس الشريف، وأن صلاح الدين لم يستطع تحرير الأرض العربية والمسلمة من أيدي الصليبيين إلاَّ بعد أن جعل منْ أرض مصر والشَّام مُنْطلقاً له.

ويعلمُ أنَّ جامعها الأزهر كان وما زال قلْعَةً حصينةً للغةِ القُرآن وتراث العربية، وأنَّ أرضها احتضنت آل البيت الفارين من الاضطهاد والظُّلْم في القرون الخالية، وهذا التراث المتشكل نُوراً وضياء على مر العصور سواء ما كان منه في «الحُسين» أو «السيدة» وسواهما هو الذي أوحى لأديب كبير مثل «نجيب محفوظ» بروائعه الخالدة من أمثال «الثلاثية» و«زقاق المدق» و«الحرافيش» ومن الحارة المصرية العريقة انتقل «محفوظ» من المحلية إلى العالمية، وكذلك فعل أدباء جنوب أمريكا اللاتينية، وكما أنَّ البذرة لا يُمْكن أنْ تُصْبح شجرة، وأن الشجرة لا يمكن أن تهب ثمراً إلا بعد أن تروى الأرض وتمهد، وبعد أنْ يتعهدها صاحبها بالرعاية والتَّهذيب والتشذيب فكذلك الإبداع الأدبي لا يمكن لعشاقه أن يصبحوا شعراء، وأدباء كباراً لأنهم قرأوا، ت.س. أليوت، أو ديكنز، أو تولستوي بل لا بُدّ أن يمضي وقت طويل يكون كافياً لتمثل ما قرأوه من حرف، ثم مزج هذا الذي استقر في أعماق نفوسهم بتجاربهم الخاصة التي عايشوها ـ حقاً ـ وهذا هو ما يسمى بالصدق في عالم الإبداع والفن.

إنَّ شوقي، أو شحاتة، أو المعري والفقي، أو جبران والعواد، أو محفوظ والبوقري، سلكوا هذا الطريق في طبيعة ودون تكلف، وكان وراء ذلك موهبة متفجرة، وإيمان بما كتبوا حوله أو دعوا إليه.

النَّقد. . المأزقُ والطَّريقُ(١)

يُطرح في السَّاحة الأدبية ـ دوماً ـ سؤال بسيط في ظاهره ولكنَّهُ عميق في جوهره ومحتواه، هذا السؤال يتمحور حول النقد وما تتصل به من قضايا، إنَّ تعريف النقد يدخل ضمن تلك المنظومات الفكرية والأدبية التي لم تستقر بعد مصطلحاتها في لغتنا العربية، ولكم تلفت الناس حولهم فقالوا ما هو الشعرُ؟ ولقد سمعت أحد مفكرينا يتساءلُ أثناء انعقاد المؤتمر الثاني للأدباء السعوديين: ما هو المقصود بمصطلح «أديب»؟ وعلى من ينطبق ـ حقاً؟ ووجدتني في حيرة تشبه تلك الحيرة التي كانت تغلف تساؤلات ذلك الرجل الذي عرف الساحة أكثر مما أعرف، وخبر من أسرارها الشيء الذي لا يجعله يسأل واحداً من شداة المعرفة ذلك السؤال، ولقد رأيت الحيرة نفسها ـ تتجسد في قسمات وجه أديبنا الراحل عزيز ضياء ـ رحمه الله ـ عندما سأله أحدهم في «التلفاز» عن تعريف للأدب أو الثقافة، فأجاب الناقد «عزيز» بأنه الأخذ من كل علم بطرف، وهو تعريف قديم أشار إليه كما أذكر ابن خلدون.

وإذا كان الأدب في حدود ـ علمي المتواضع ـ أسئلة تبحث دوماً عن أجوبة، فإنَّ السؤال لا يزال قائماً لماذا تتلبَّسنا هذه الحيرة كلما أردنا أن

(١) العدد ٧.

نقترب من هذه الكلمات محاولين تعريفها أو الإحاطة بشيء من معانيها، هل الأمر يعود إلى السياق الحضاري والفكري الذي نعيشه، وهو سياق يرتبط بالمأزق الحضاري الشامل الذي تمرُّ به الأمة بين ثقافة أصيلة تتعمق قلوبنا، وبين انفتاح لا يترك لعقولنا فسحة كبيرة من التأمل والمراجعة إنَّه صراع بين العقل والقلب في زمن يسعى الإنجليز والفرنسيون ـ فضلاً عن الأمم الأخرى ـ لتثبيت هويتهم أمام المدّ الكاسح والقادم من بلاد «العم سام»، فكيف بالأمة العربية والإسلامية التي تتباين منطلقاتها الأساسية عن منطلقات الحضارة الغربية، وكيف يتم تحقيق المعادلة الصَّعبة. . . القائمة على الحفاظ على الأساس والمنطلق والجوهر والانفتاح الواعي على معطيات الحضارة المادية.

لا أظن أن الأمة تفتقر إلى المفكر أو المثقف أو الأديب ولكنها اليوم أحوج من أي وقتٍ مضى لرجال من أمثال: العقاد والرافعي وطه حسين ومحمد حسين هيكل، ورفاعة الطهطاوي، ومحمد كرد علي، ومحمد حسن عواد، وعلي الطنطاوي ومحمد مندور، وعبد العزيز الرفاعي، وحمزة شحاتة.

ما كان يملكه مفكر الأمة في الأمس لا يملكه للأسف مفكرو اليوم على كثرتهم، فمفكر النهضة كان قادراً على رسم المنهج وتطبيقه وعلى تشخيص الداء ومن ثم القدرة على وصف الدواء.

بعد هذه المقدمة أعود ـ من دون خجل ـ لأنقل بالحرف والمسطرة من كتاب الناقد الفذ محمد مندور ـ رحمه الله ـ الموسوم «في الميزان الجديد»، يقول «مندور» إن النَّاقد الحقيقي ليضيف إلى النَّص الشيء الكثير، يخلقه خلقاً بفضل ما في الكتب الجيدة من قدرة على الإيحاء،

وهذا من حقه، بل من واجبه ما دام لا يتعسف فيخرج المعاني غير مخرجها أو يحملها ما لا تطيق، وفي الحق أن النقد الجديد خلق جديد، إذ سيان أن نحس ونفكر ونعتبر بمناسبة كتاب أو بمناسبة حادثة أو مشهد إنساني، وكل تفكير لا بد له من مثير.

ما شهدته الحركة النقدية من رواج فجر توحيد هذا الكيان كان خلفه عدد من العوامل يأتي في مقدمتها وجود الصفوة من جيل الرواد وهذا الجيل أخذ نفسه بأسباب الصقل والتهذيب المعرفي الذي يتلاءم مع حاجة المجتمع وتطلعاته ورؤاه بعيداً عن التنظيرات المبتسرة من السياقات الحضارية والفكرية الأخرى والتي يمكن أن تتلاشى في ضوء الواقع المختلف الذي تعيشه الأمة ويتنفس أجواءه المجتمع.

ثم هناك عامل آخر ساعد على هذا الرواج هو ما كان يتمتع به من اشتغلوا بالنقد من سعة الأفق والقدرة على التعامل بأسلوب حضاري راقٍ، فعندما أخرج ـ مثلاً ـ إبراهيم هاشم فيلالي مرصاده، علم أن زميله في مجال النقد عبد الله عبد الجبار كتب نقداً دعاه «مرصاد المرصاد» فأصرَّ السَّيد الفيلالي على أن يخرج عمل عبد الجبَّار مع عمله الذي ابتدأ به عملية النقد في كتاب واحدٍ، ثم كتب حسن عبد الله قرشي نقداً آخر على المرصاد ورديفه فطبعت هذه الآراء جميعاً وأخالها خرجت قبل عدة سنوات في سفر واحد عن نادي الرياض الأدبي.

وعلى الرغم من تلك المعركة الشعرية التي كان طرفاها رائدين من رواد الشعر هما العواد وشحاتة إلا أنهما كانا يجتمعان في ودادٍ وصفاء وكان شحاتة يعترف بأستاذية العواد عليه، والشاعر محمد صالح باخطمة يعرف عن هذا الجانب المضيء في حياة الشاعرين وهذا دفعه لتدوين كتاب

بعنوان «حمزة شحاتة كما عرفته» سوف تقوم جائزة شاعر مكة «محمد حسن فقي» بإخراجه في الاحتفالية النقدية التي سوف تخصص عن شحاتة.

ودليل آخر على سعة الأفق هذه التي تلاشت مع بروز الجيل الجديد من أرباب صنعة النقد، هو أنه على الرغم من تلك المعركة الكبيرة التي دارت حول «جيم» جُدَّة بين الباحثين الكبيرين عبد القدوس الأنصاري ـ رحمه الله ـ وحمد الجاسر ـ أطال الله بقاءه ـ لم يمنع هذا كله من أن يكتب الشيخ الجاسر مقالاً يرثي فيه مجايله «الأنصاري» ويعترف أنه كان على حق فيما ذهب إليه من رأي يصر فيه على ضم «الجيم».

ولقد حضرت المؤتمر الأول للأدباء السعوديين الذي قامت به كلية الآداب بجامعة الملك عبد العزيز، وكان من ضمن الفعاليات محاضرة للأستاذ المرحوم عبد العزيز الرَّبيع عن شاعرية أحمد شوقي، وكانت معركة أدبية قد قامت بين العواد والرَّبيع حول شاعرية «ثريا قابل» وسئل الرَّبيع سؤالاً حول الخلاف الذي دار بينه وبين الأستاذ العواد، وكان هذا الأخير خرج من القاعة، فاعتذر الرَّبيع عن الإجابة لأن الطرف الآخر وهو العواد لم يكن موجوداً، فكيف يقول الربيع رأيه ولا يتسنى للطرف الآخر «العواد» أن يعبر عن رأيه، وشتان بين ذلك الفهم والوعي الذي كان موجوداً في الساحة قبل نصف قرن وبين ما نلاحظه ـ اليوم ـ من تصميم على فرض الرأي القائل به طرف من الأطراف، وعدم السماح للطرف الآخر بالقول، مع الأخذ في الاعتبار أن الذين يفعلون هذا هم من دعاة التعددية والانفتاح، وعليهم أن يعلموا أن الغرب الذي يدعون لاحتوائه ترتفع فيه الأصوات المتباينة وتتحاور فيه الأفكار المتضادة. وهذا سر من أسرار تفوق الغرب علينا في الفهم الحقيقي للحوار ومقتضياته وضوابطه.

تراجع النقد سببه «الشللية»، فعندما ظهرت في الخمسينيات ـ مثلاً ـ الواقعية الاشتراكية كمذهب أدبي وكانت متساوقة في ظهورها مع بروز الأيديولوجية الشيوعية والاشتراكية، تلقفها بعض الأدباء العرب وأرادوا أن يفرضوها على الواقع الأدبي فرضاً، وكل من لا يأخذ بها يكون التعتيم والإهمال لإنتاجه، وقفل أبواب النشر ـ أمامه ـ وكان من ضحايا هذه اللوثة الروائي المصري المعروف «محمد عبد الحليم عبد الله»، صاحب العمل الأدبي الرائع «اللقيطة»، وعندما اجتاحت الساحة بعد ذلك التيارات الشكلانية مثل البنيوية وغيرها من أن أدبنا تخطى هذا النوع من الفكر الأدبي في عصر النهضة ـ وذلك بعد أن تخلصنا من آثار مدرسة البديع التي بدأها ابن المعتز وطوّرها العسكري والسكاكي، وابن حجة، رأينا أنصار «البنيوية» في العالم العربي يكممون الأفواه التي لا تأخذ بهذا المبدأ أو التوجه الأدبي، مع أن نقاداً غربيين مثل جورج واطسن ـ الإنجليزي، كانوا من الوعي والفهم ما جعلهم على حد قول «واطسن» يُشككون في جدوى الشكلانية وقدرتها على الارتقاء بآدابهم، يقول الناقد الإنجليزي المذكور في كتابه «الفكر الأدبي المعاصر» ليس النقد الإنجليزي ـ الأمريكي ـ مستعمرة من مستعمرات باريس، ولذلك فلم يتحول الكثيرون من نقاد العالم المتحدث بالإنجليزية إلى البنيوية في الخمسينيات والستينيات على حين أن أولئك الذين اعتنقوا البنيوية لم ينتجوا أكثر من مؤلفات قدموا فيها أفكار أساتذتهم من باريس».

ومن أسباب التراجع أن بعض الذين تصدّوا لقراءة المنجز النقدي الغربي لم يتمثلوا هذا المنجز ويهضموه ـ إن صحَّ التعبير ـ ثم يكون حديثهم ـ بعد ذلك ـ عن رومانسيةٍ وكلاسيكيةٍ وبرناسية تلائم الإبداع

العربي الذي نشأ في ظروف تختلف كل الاختلاف عن الإبداع الغربي والسياق الحضاري الذي نشأ فيه، وإن كانت قلة من النقاد العرب من أمثال «شكري عياد» في مصر، وأبي القاسم كرّو في تونس، وعبد الله عبد الجبَّار في الجزيرة العربية استطاعوا أن يبثوا الروح العربية فيما قرأوا من التراث النقدي الغربي ويجعلوه متناسقاً ومتوائماً مع إبداعنا الخاص الذي يشكل هويتنا الخاصة.

الهولوكوست قضيةٌ سياسيةٌ أمْ عقيدةٌ دينيّةٌ[1]

«ديفيد إيرفينج» مُؤرِّخ بريطاني مَعْروف، كتب دراساتٍ عِدَّة موضوعُها الحرب العالمية الثانية ومنها: Hitler's War وكتاب: Churchill's War وكتاب: The Destruction Of Dresden، لم يحفظ «إيرفينج» مِنْ اللُّوبي الصُّهيوني على رَغْم إعجابه بالزَّعيم البريطاني ـ تشرشل ـ الذي كان أحد الزعماء الغربيين الذين ناضَلُوا ضدَّ النَّازية وقائدها، لم يحفظه هَذَا الإعجابُ مِنْ أَنْ يكونَ عُرْضَةً للنَّقْدِ والتَّجريح والتَّشهير مِنْ كُتَّابٍ غربيِّين ـ بعضهم مِن بني جنْسِهِ ـ بسبب ـ إنْكاره لعددِ اليهود الذين ذهبُوا ضحيَّةَ «الهولوكوست» حيث يُوصلُهم اليهُود إلى ملايين عدَّة، ويَرَى اليهودُ أنَّهم ـ وحْدَهُم ـ كانوا عُرْضَةً للتَّمييز العُنْصري، مع أَنَّ أمماً أخرى ومنهم «البولنديُّون» تعرَّضوا للتَّعذيب النَّازي.

وكما أنَّ إعجابهُ بـ «تشرشل»، وإقرارهُ بحدوث الهولوكُوست ـ حيث يقُول: «إنني لستُ مِنْ المُنْكرين للهولوكوست وأرفضُ أنْ أُوصَف بذلك، لأنني قدَّمتُ الكثير مِنْ الوثائق للعُلَماء والمؤرِّخين، والقُرَّاء وهي وثائق اكتشفتُها ـ بنفْسي،وترجمتها ثم نشرتُها ـ «انظر: مقالة جعفر هادي حسن، الحياة، ٢٨ يناير ٢٠٠٠م»».

---

(١) العدد ٢٠.

كُلُّ ذلك لم يمنعْ الأكاديمية الأمريكية الدّكتورة دييرا ليبستات لاتّهامه بنفْي حُدوث المذَابح النَّازيَّة ضِدَّ اليهود، وقد أطلقتْ «ليبستات» على إيرفينج والذين يشككون في عدد اليهود الذي يُوصلونه بحسب مزاعمهم إلى رقم مُبالغ فيه وهو ستَّة ملايين شخص أطلَقَتْ عليهم عبارة أو مُصْطلح «مُنْكرو الهولوكوست» Holocaust Deniers، وهي عبارة تحملُ ظلالاً دينيةً، وكأنَّ «الهُولوكوست» أصبح معْتقداً دينياً ـ يجب عدم المسَاسَ به مِنْ قريب أو بعيد ـ، وكما أَفْلحَ اليهودُ في جَعْل العَهْد القديم بأسَاطيرهِ وتُرَّهاتِه ـ مما يتنافى حَتَّى مَع ما تزعمه الحضارةُ الغربيةُ مِنْ عقلانيةَ ـ تُبالغُ فيها، وماديّة تُحاول فَرْضَها على الآخرين، كما أفْلحُوا في جعْل العقيدة المسيحية وسيلة لنشْر الأفْكار اليهودية المُضلِّلة، فقد أفْلحُوا في جعْل الهولوكوست مِنْ المحْظورات والمُحرَّمات في عالم الكتابة، لذا فإننا نجد الأكاديمية الأمريكية «ليبستات» تُطالبُ السَّماح لمنْ يُشكِّكون فقط في عدد ضحايا المحرقة بنشْر آرائهم ويجب معاقبتهم على هذه الجريمة النَّكراء، ولقد استطاع اللُّوبي الصهيوني أنْ يحمل المؤسَّسات الغربية ـ التي تدَّعي الدِّيمقراطية والحريَّة والتعددية ـ لإصدار تشريعاتٍ تُجرِّمُ كُلَّ مَنْ يُشكِّكُ في عدد ضحايا المحرقة وليس في «المحرقة» ـ فهذا أمر أَعظم جُرْماً، وربما كان عقابه في المُستقبل الموْت شنْقاً أو حرْقاً.

وتحقَّق للُّوبي الصَّهيوني طموحاته التي لا يحلم حتَّى بتحقيقها في الكيان العُنْصري الإسرائيلي، فلقد أصدرتْ ألمانيا وفرنسا، تشريعاتٍ بهذا الصدد، ويذكرُ «إيرفينج» أنَّ له أصدقاءً سُجنُوا في ألمانيا لكلماتٍ تفوهوا بها حوْل عدد ضحايا الهولوكوست، أما القانون الفرنسي فيصفه «إيرفينج» أنه الأسوأ، ففي عام ١٩٩١م صدر قانون من البرلمان الفرنسي ـ في البلد

الذي يزعم قادته ومفكِّروه والمعجبون به أنه بلد الحرية والنُّور ـ وهذا القانون يجعل كُلّ مَنْ يُشكِّك في جرائم الحرْب أو بالجرائم الإنسانية ـ وهذا المصطلح الأخير يقتصرُ على اليهود ـ وحدهم ـ وهي الجرائمُ التي حدَّدتها محكمة نورمبرغ ـ مُجْرماً ويُعاقبُ بالسِّجْن، أوْ الغرامة، ولهذا حُورب المُفكِّر الفرنسي «روجيه جارودي لإصداره كتابه الشَّامل والجريء «الأساطيرُ المؤسِّسة للسِّياسة الإسرائيلية»، ويذكرُ «جارودي» في مقدمة الكتاب ما أسماه بجريمة الفكر، قائلاً «أجد نفسي مضطراً ـ اليوم ـ لأن أصدر هذا الكتاب على نفقتي الخاصَّة، ذلك لأنني منذ عام ١٩٨٢م، أقدمت على انتهاك حُرْمة أحد المقدسات: ألا وهو انتقاد السِّياسة الإسرائيلية، وهي الحرمة التي سيحميها من الآن ـ فصاعداً ـ قانون ـ جيسو ـ فابيو الجائر الصادر في ١٣ يوليو ١٩٩٠م، والذي يُعيد إلى فرنسا جريمة الرَّأي، التي سادت عصْر الإمبراطورية الثانية وبذلك يتوارى ضعف الحجة وراء قانون قمعي. «أنظر: روجيه جارودي، الأساطيرُ المؤسِّسة للسِّياسة الإسرائيلية، تقديم، الأستاذ محمد، حسنين هيكل، دار الشروق، ط٣، ١٤٢٠هـ».

وينقلُ الأستاذ «هيكل» صورةً حقيقيةً لما أسماه أو أطلق عليه «جارودي» بـ «القانون القمعي»، وهو قانون تستخدمه المؤسِّسات المسؤولة المُدافعة ـ في شبه هستيريا ـ عن كُلِّ ما هو يهودي وصهيوني، كما يستخدمهُ العامَّة الذين تلقَّفُوا الأساطير المُضللة عن دور اليهودي في الحياة، يقول الكاتب «هيكل» عن مشهد عايشه ولم يسمع به ـ فقط ـ «ثم أتيح لي أنْ أرى بنفْسي ـ ولَيْس بمجرَّد القراءة ما حدث فيما بعد للمؤرِّخ البريطاني المُدقِّق «دافيد إيرفينج»، وشاءت الظُّروفُ أَنْ أَشْهد واقعة ضرْبه

ضَرْباً مُبرِّحاً رافعاً شعارات برَّاقة مثل حُريَّة الشُّعُوب، وحُقوق الإنسان وتحقيق العدالة، ولكن كل هذه الشعارات وئدتْ على أيدي مُنظري الْحزب منْ أنصار الحركة الصهيونية العنصرية.

ويعيد التاريخ ـ نفسه ـ في حرب ١٩٦٧م، عندما وقف «هارولد ويلسون» ـ الزعيم العمالي الأشهر ـ يعطي لإسرائيل الأحقيَّة في الاحتفاظ بالأراضي التي احتلتها بالقوة.

وتَسْعَى المؤسسة العمالية ـ اليوم ـ بزعامة صاحب نظرية الطريق الثالث في الاقتصاد ـ مع الزعيم الأمريكي الديمقراطي ـ كلينتون ـ لإصدار تشريعٍ بتجْريم التَّشكيك في الحوادث المتصلة بـ«الهولوكوست»،وسوف يقوم «بلير» بإعلان يوم خاص عن المحرقة النَّازية، محدِّداً عام ٢٠٠١م، كبداية للانطلاق في حملة تستهدفُ كل من تسوِّل له نفْسهُ بالتَّشكيك فيما يبدو أنه أصْبح عقيدةً دينيةً، بعد أن كان لنصف قرن من الزَّمن قضية سياسيةً يُمْكنُ الاختلاف أوْ تبادل الرَّأي حوْلها، هذا هو الغرْبُ بمعاييره المزدوجة والصَّارخة والمُعْلنة عنْ فكْرٍ استعماري جديد.

«سَيِّدُ الكلمة المُرْتجلة . .
محمد حُسين زيْدان»(١)

لنْ أنْسى يوماً مِنْ أَيَّام النَّشأَةِ في البَلَدِ الطَّاهر، حيْثُ المقامُ الذي تهْفُو إليه قلوبِ المحبينِ، هنَاك مَرْقَدُ خَيْر مِنْ وطأَ الثرى وتحدَّث بالكلام بليغاً وفصيحاً، القائل «أنا أفصحُ العرب بيد أَني منْ قريش» ـ عليه صلواتُ الله وسلامُهُ ـ ولا أعلم أينَ يفرَّ أو يَهْرُبُ زميلُنا الدكتور حمزة المزيني، منْ هذا الأثر الصَّحيح؟ وهو لا يفتأ يُقلِّل من شأن اللغة التي نزل بها القرآن مدعياً في جفوة غريبة أنها ليست الأفصح، ولكن اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية كما قال صاحب اللغة الممتعة والرَّشيقة الدكتور طه حُسين، نعم لن أنْسى اليوم الذي همس فيه في أذني أستاذنا محمد حميدة ـ أطال الله بقاءه ـ هلا قرأت «سيرة بطل» للأستاذ الزَّيدان فإذا أنا أسلُكُ الدَّرْبَ منْ باب «جبريل» إلى برحة باب السَّلام، حيث تقوم مكتبة الشيخ عبد المحسن ـ رحمه الله ـ وأخرج ممَّا أدخره من مصروف الدراسة، وانطلق مسرعاً «للصفة» في المسجد النبوي الشريف ولم يكن ـ يومها ـ يسألك أحدٌ لماذا تقرأ كتاباً هنا؟

---

(١) العدد ١٠.

ترى هل كان الناس من اتساع الأفق ورحابته، فلا يسألونك كذلك لماذا أطلتَ الوقوف أمام المقام مُسلِّماً؟ لماذا تقفُ متأدِّباً ـ وأنت الذي تنطق بالشهادتين مُوحِّداً ومُوقناً ـ أمام المُواجهة الشَّريفة، ولماذا يضيِّقون واسعاً، ويحجرون على رأيك، وكيف يتأتى للأمة أن تجتمع كلمتها ما دام البعض يقف عند ظواهر الأمُور ولا ينفذ إلى الجوْهر والحقيقة.

قرأت سيرة بطل، فإذا الأستاذ «الزيدان» يكتبُ عن مواقف مؤثرة لصحابة رسول الله ـ ﷺ ـ محبَّتهم لبعضهم البعض، أدبهُم، تسامحهُم، إيثارُهم الآخرين على أنفسهم، وكان الجرْسُ في عبارات «الزيدان» رحمه الله قوياً، وهو جَرْسٌ شبيه بعبارات أديب العربية الأستاذ مصطفى صادق الرَّافعي، أو المهذار الأصم كما كانوا ينعتونه، ولم تأخذني دهشةُ عندما أخبرني «الزيدان» في حياته أنَّه رثى صاحب «وحْي القلم» و«تحت راية القرآن»، و«المساكين» و«أوراق الورد» بكلمة نشرها حيث نشأ في صحيفة المدينة المنورة ـ التي تُذكرُ بدور الرَّائدين السَّيدين علي وعثمان حافظ ـ رحمهما الله ـ فإذا «رِسَالة» أديب العربية الكبير أحمد حسن الزيات تنشُرها ـ نقلاً ـ عن صحيفة البلد الطيب والتربة الزكية المباركة يقول سيِّدُ الكلمة المرتجلة كما نعتهُ الأديب الدكتور «عبد الله منَّاع» عن «الرَّافعي» ورجُلُ الإيمان والفضيلة الرَّافعي، يكتب بإيمانه وعقيدته ليُدافع عن إيمان الأمَّة، ويثبِّت إيمان الأمة وعقيدتها، فتسير بنور الإيمان ثابتة العقيدة، طاهرة المبادىء، جريئة في الحق، صريحة في نبذ الباطل، يفعلُ هذا لأنَّ فيه طبيعة المسجد، وشيوخ المسجد، ولأنَّ فيه أثراً من وراثة الأسرة المجيدة والبيت الرَّفيع[1].

(١) انظر: حماد السالمي، السعوديون في الرسالة، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٥.

ويقول في موضوع آخر من المقالة نفسها «والآن هو ميتٌ نُسمعهُ أنين الحزن، وبكاء المتألم، وطفق أحدنا يبكي ويقول: لكمُ العزاءُ في الرَّافعي»، فقد حرمنا ـ نحنُ ـ النَّاشئة أديباً كبيراً تعلم من البيان، والأدب العالي، والنبل، والفضيلة».

لا بُدَّ أن الأستاذ الزيدان كتَبَ هذه المقالة، وهو يستعيد ذكرياته بين حلقات العلم في جامعة مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ هذه حلقة الرجل الذي تبنَّاهُ وتبنَّى معهُ السيد أحمد عبيد المدني، والشيخ صلاح الدين عبد الجواد ـ رحمهم الله جميعاً ـ إنه الشيخ عبد القادر الشَّلبي ـ رحمه الله ـ أدركت داره في حارة الأغوات، حيث كان يسْكُنُ ابنُهُ سعيد ـ رحمه الله ـ وحيث كان يقيم زين الشَّباب في مُنعطفات الحارة، وبالقرب منْ «عينها» الصافية، المرحوم أحمد شلبي، الصديق الأثير لبقية النَّاس في البلد الطيب الشيخ إسماعيل مصلوخ.

حدِّثني ـ يا أبا أسعد ـ أين ذهبتْ حلقاتُ «القشاع»؟ وكيف اختفت الأصوات النَّدية منْ منائر المسجد؟ أين حسين وعبد الستار بخاري، ومحمود نعمان، والسيد عبد الرزاق نجدي، والسيد هشام غباشي، حدِّثني ـ يا أَبتاهُ ـ لماذا غابت البسْمةُ عن الشِّفاه؟ والفرحة عن القُلُوب؟ والمشهد الجميل عن العيون؟ وأين القاماتُ الرَّفيعةُ صاحبة الثياب المُنشَّاة»، والعمائم «الصَّفراء»، هناك ـ يا أبتاهُ ـ ضمَّتهم الرَّبوة، واحتضنتهم ذرات التُّرْب الطاهر.

لم يكن الشيخ «الشلبي» الوحيد الذي جلس إليه الأستاذُ الزيدان، فلقد كان ـ رحمه الله ـ نهماً في العلم، يطلبه أيضاً عند المشايخ ـ ألفا هاشم، ومحمد العائش، وأبي الطيب الأنصاري وغيرهم، ثم تحينُ اللَّحظة

الحاسمة في حياة الأستاذ، هذا الشَّيخ حسن موسى ـ رحمه الله ـ صديق للشيخ محمد سرور الصبَّان، والشيخ عباس قطَّان، وكان أيضاً «العُزْوة» والمرجعية لأهْل مكة الذين جاوروا حُـبًّا في سيِّدي ـ رسول الله ﷺ ـ يلمح الذكاء ويدركُ الفطنة في الشَّاب الطلعة، يأخذُ بيده ليعمل عند رجل من كبار أهل سوق الليل، والشَّعب في مكة، الشيخ «حامد عبد المنان» ـ رحمه الله ـ وعرف الزيدان في مهبط الوحي ما عرفه في موئل الهجرة، فإذا هو النَّسابةُ في «الحجاز» حاضرة وبادية، ولقد كان ينشدُ الشعر الفصيح، فتعجب من ذاكرة رجل في الثمانين، وكأنه ابْنُ العشرين ـ ربيعاً ـ ويحفظ بحكم نشأته في «حوش خميس بالمدينة» حيث مضاربُ البادية من قبيلة «حرب» العريقة وغيرها، فإذا هُو يسأل الشيخ الرَّاوية عبد الله بن خميس، عن أبيات رائعة تصوِّر خلافاً دبَّ بين مشايخ «الأحامدة» في الحقبة الماضية.

تقول هذه الرِّواية النَّبطية الجميلة والمقروءة:

الله منْ جُرْح لجى في الحشا ما احتملَهُ ... لاهُو اللي يبّرا، ولا ودي يبين
منْ خوف يعملَه دوا، مينْ كُلِّ علة ... لاوين يا حلال عبور المستحين

كان «الزيدان» يعلمُ أن القائِل هو الشيخ «حذيقة» ـ رحمه الله ـ وأن مَنْ أجابَه ـ عَنْ ألمه وحُرْقته ـ هو الشيخ ابن «مطلق» والذي رفع صوته في «الفِقْرة» و«رحقان» و«عرقوس» قائلاً ومُجيباً على ابن أرومته:

إنْ كانَ جُرْحك في الحشا ما تحْتملَهُ ... داوهْ بما داوى به جُرُوح الأوَّلين
إطحلَّهُ «المرْمُول» ثم علّه ... ضيم الرَّفاقة باحَ سَدَّ المُسْتحين

ولعلِّي لا أجدُ ما أختمُ به هذه الكلمة إلا عبارات أنقلها من كتاب

تلميذه الوفي الذي بادر فَنَشَرَ عنه سفْراً رائعاً وهو «الزيدان» زوربا القرن العشرين» فكان الوفاءُ والنُّبْل والإخلاص مِنْ أبي وجْدي «عبد الله جفري»، لأستاذه ومعلمه أبي فيصل «الزيدان» ـ رحمه الله ـ.

يقولُ السَّيد الجفري «حين توقف الزيدان» عن إملاء كلماته، فإنَّه لم يتوقف عن صياغة الكلمة، يقولها، ينثرها، يجيب بها عن أسئلة منهمرة عليه لا تتوقف عن استفتاء رأيه، ورجاحة حكمته، كان «جواهرجي» كلمة، لا يقدر أن يسكت، فإذا سكت كان ـ كما عبَّر يبلور فكرة في رأسه تشغله حتى تضنيه، وينشغل بها حتى يسْكبها مثل عقْدٍ مَنْ اللُّؤلؤ!، ووجدتهُ يحنُّ، وينسكبُ كقارورةٍ «عطر»، وإذا به يصفُ «الليلَ» في «رمضان»، عندما كان فتىً وشاباً، وينطق شجونه بصوت أفراح الماضي ورائحة «الفاغية»، «زهْرةُ الحنَّة»، والنَّمام،والفُل، ومنظر الأطفال والفتْيان، والرِّجال، وهم يسيرون في الليل جماعات، كل فريق يذهب ليتحلق حول البيوت، وينشدون الأغاني الجماعية[1].

وإذا كُنَّا لم نوفِّ جيل الرُّواد حقَّهُ في حياته، فما أجدرنا ـ اليوم ـ شداة الأدب وناشئة الفكر، بالذكرى والتّذكُّر، في حقِّ مَنْ أنارُوا الدَّرْبَ في زمن العتْمة، ومهدوا الصَّعْبَ مَنْ المسالك بنورِ العلم وضياء الفكر والأدب.

---

(١) انظر: عبد الله عبد الرحمن جفري، الزيدان زوربا القرن العشرين، الإعلام، سلسلة عكاظ، ص ٢٥.

«الدوافع الدينية والسياسية خلف وعد بلفور»[1]

كَشَفَ أستاذُ التَّاريخ المُعاصر في جامعة ويلز البريطانية البروفسور «ويليام روبنشتاين» بأن كاتب المسودة الأخيرة للوثيقة البريطانية هو «يهودي سري» لعبت هويته الدينية دوراً هاماً في اختيار نص مُحْكم ينسجمُ مع طموحات الحركة الصهيونية في تحقيق حلم وطن لليهود في فلسطين، هذا الرجل هو «ليوبدلد أميري» (Amery)، المستشار السياسي لوزير الخارجية البريطاني السابق «آرثر بلفور».

انظر، صحيفة الحياة، الاثنين ١٥ مارس ١٩٩٩م».

ويذْكُر «بلفور» الذي كان وزيراً للخارجية البريطانية ـ آنذاك ـ أنه قَبْلَ صدور القرار التاريخي المعروف دعا ـ أيْ ـ بلفُور ـ كُلاً منْ لورد «روتشيلد» Rothshild، والبروفسور «وايزمان» Wieizman ـ وكلا الرجلين صهيوني ـ إلى تقديم مذكرةٍ عن المطالب الصهيونية، وعلى ضوء هذه المذكرة، صدر ما يعرفُ باسم وعد «بلفور» الذي صدق عليه مجْلسُ الحرب البريطاني في ٢١ أكتوبر ١٩١٧م، وإذا كانت المذكرات الشخصية للسياسيين البريطانيين تشير إلى أن الوعد كان نابعاً من قلْب الحركة الصهيونية فكرة وصياغة وجاءت المُوافقة عليه بصورةٍ سريةٍ مِنْ

(١) العدد ١٨.

المصادر الرسمية التالية:

ـ الرئيس الأمريكي «ويلسون».

ـ زعماء الحركة الصهيونية.

ـ ممثلو الجمعية اليهودية ـ الإنجليزية.

* فإنه أيضاً من المفيد الإشارة إلى الخطوات العملية التي اتخذتها الحكومة البريطانية ـ آنذاك ـ والتي من شأنها تقوية واستمرارية اللوبي الصهيوني.

* إنْشاء فرع للدعاية السياسية اليهودية في وزارة الخارجية البريطانية، ويخضع هذا الفرع في إدارة شؤونه للحركة الصهيونية.

* العَمَلُ على نشر وتوزيع مواد دعائية فيما يختصُ بإنشاء وطن قومي لليهود داخل التجمعات اليهودية في جميع أنحاء العالم.

* تكوين لجنة رسمية من الدّكتور «وايزمان» Weizmann وإرسالها لفلسطين لمتابعة خطوات إنشاء الوطن القومي.

وقد قام الجنرال اللنبي General Allenby، بتسهيل مهامٍّ هذه اللجنة في أرض فلسطين.

لقد قدمت الحكومات البريطانية المتعاقبة والتي رأسها كل منْ «رامزي ماكدونالد» و«تشرشل» و«كليمنت أتلي» و«أنتوني إيدن»، و«هارولد ويلسون»، قدمت كل ما تستطيعه من مساعدات مادية ومعنوية، لتثبيت دولة الكيان الصهيوني في أرض فلسطين، متغافلة في الوقت نفسه ـ عن الوجود الفلسطيني كشعب له تاريخه وحقوقه وتطلعاته.

ولعل العامل الرئيس خلف المواقف الغربية المناصرة للحركة الصهيونية

يعود بالدرجة الأولى إلى الدور الذي لعبه اليهود أفراداً وجماعات في الدعاية لقضيتهم داخل المجتمعات الغربية ـ نفسها ـ تلك الدعاية التي كانت وما زالت تلتزم بالجد والحزم واليقظة، وعدم التنازل، ولقد كان الغياب العربي كبيراً عن مسرح السياسة العالمية في تلك الفترة التاريخية، بينما كان الوجود الصهيوني يملك وسائل الاتصال والتأثير، ولعل ذلك يتجلى بصورة واضحة عندما ننظر في مضمون الرسالة التي بعث بها «وايزمان» إلى «بلفور» في ٣١ مايو ١٩١٨م، والتي يحث فيها الإدارة البريطانية التي كانت تشرف على شؤون فلسطين، على اتخاذ الخطوات الكفيلة بمنع «العرب» من الاقتراب من الشؤون السياسية للمنطقة، ووصفهم بسمات الغدْرِ والخيانة، وذلك لأن الحركة الصهيونية كانت تعلم ـ جيداً ـ بأن العرب هم ـ وحدهم ـ الذين يعرفون الأرض الفلسطينية، ويتقنون لغتها ويفقهون عاداتها وتقاليدها، وأنَّ ذلك يعود ـ بلا شك ـ إلى انتمائهم الفطري لها وارتباطهم التاريخي بها ـ منذ ـ أقدم العصور.

لقد تمكنت الحركة الصهيونية خلال الفترة الزمنية ١٩٣٠ ـ ١٩٤٠م، من تقوية مواقعها تدريجياً داخل أروقة السياسة البريطانية وعلى وجه الخصوص ضمن دائرة الحركة العمالية البريطانية حتى استطاعت في نهاية الأمر أنْ تكون عاملاً فعَّالاً في المسارات التي تنتهجها هذه الحركة العُمَّالية، ويُمْكن التدليل على هذا التغلغل الرهيب من خلال فقرات القرار المُنْحاز إلى اليهود انحيازاً واضحاً ـ والذي اتَّخذته اللجنة التنفيذية لحزب العُمَّال في سنة ١٩٤٤، ثم تبناهُ الحزبُ في اجتماعه السنوي استناداً إلى القرار السابق الذي اتخذه الحزب بالأغلبية، كما أن الحركة الصهيونية أخذت في نشاطها السياسي ـ المعروف ـ لتسهيل مهمة صُعود حزب

العُمَّال إلى سُدة الحُكْم في بريطانيا،وهذا ما حصل فعلاً في عام ١٩٤٥م، حيث تغلب العماليون على المحافظين بأغلبية ساحقة وهو الحدث الذي عبر عن فرحته واغتباطه به، الإرهابي المعروف «مناحيم بيغن» ترجمة وتقديم «معين أحمد محمـود، ط٢، بيـروت، ١٤٠٣هـ، ص ٢٥».

ولـم تمض مدة طويلة على استقرار رئيس الوزراء العمالي Clement Attlee «كليمنت أتلي» في «١٠» دوانـغ ستريت حتى كتب إليه الرئيس الأمريكي ترومان في أغسطس ١٩٤٥م طالباً منه ـ حالاً ـ تسهيل مهمة هجرة عشرة آلاف يهودي إلى فلسطين، ولقد شجع هذا الدَّعم البريطاني ـ الأمريكي الفصائل الصهيونية مثل «الهاغاناة» "Hagana" والأرغون، Irgun على ارتكاب أعمال إرهابية ضد الوجود العربي والمصالح البريطانية على حد سواء في فلسطين، ومنها تفجير فندق الملك داود في القدس وقتل ما يقرب من مائة شخص بين عرب وإنجليز. وعندما قامت الحكومة البريطانية بسحب قواتها من فلسطين، كان مجموع من قُتل على أيدي العصابات الصهيونية من الإنجليز أنفسهم بين سنوات ١٩٤٥ ـ ١٩٤٨م ما يقرب من «٣٤٠» شخصاً، إضافة إلى ما تحملهُ الآخرون من أفراد الشَّعْب البريطاني بلغ مقدارها «١٠٠» مائة مليون جنيه استرليني، وكان ذلك نتيجة للسياسة المُنْحازة التي انتهجتها الحكومات البريطانية المتعاقبة في سبيل إنشاء وطن قومي لليهود على حساب الحقوق العربية والمسلمة.

كُتَّابٌ أنْشَدُوا للتَّميز وآخرون للنِّيل![1]

الرِّوائي الإنجليزي الأَصْل Martin Amis، وصف بَلَدهُ الأَصْلي مِنْ حيث يقيم في الولايات المتحدة ـ أنها في حالة رُكُود أدبي، وجاء وصْفه للبيئةِ الأدبية في بلاده في وقت يستعدُّ فيه الكاتب الذي يُوصَفُ أنه مِنْ خير مَنْ أنتجتْ الجزيرة البريطانية في فنِّ الكتابة القصصية ـ للحصول على الجنسية الأمريكية، وقد حققت قصَّته البوليسية المعروفة "Night Train"، والتي كتبها عام ١٩٩٨م بحسب التَّقرير الإخباري الذي كَتَبه James-Bone، في صحيفة التَّايمز اللندنية (Saturday, May, 13, 2000) حَقَّقَتْ مستوى كبيراً مِن الانتشار والذيوع الأدبي.

الرِّوائي: Amis، لم يُنكر أنَّهُ جُزْء من التُّراث الأدبي البريطاني الرِّوائي، ولكنه وجد في أمريكا البيئة المُلائمة التي يمكن أن تَمْنَح الكاتب الحُريَّة المطلوبة للكتابة الأدبية.

ومن قبْل Amis نجد أنَّ كَاتِباً كبيراً مثل: Hopkins Sir, Anthony، نزح منْ بريطانيا ليجد في أمريكا ملاذاً أدبياً فسيحاً ورائعاً وحصل على الجنسية الأمريكية، مما دفع بالرِّوائي Amis، أن يسير على خطوات Hopkins، وغيره، ويسعى على العكس لما كان يسعى الكُتَّاب الأمريكيون

(١) العدد ٢٢.

للحصول عليه في الماضي وهو الجنسية البريطانية، بمعنى أنَّ أحفاد «شكسبير» و«ديكنز» و «بينيت»، يروْنَ في الجنسية الأمريكية مطمحاً لهم وهدفاً هُروباً مما وصفه Amis بالمياه الرَّاكدة في الجزيرة البريطانية، بعد أنْ كانت مياه «التميز» تُشكِّلُ عالماً أسطوريّاً حَالماً عِنْدَ الكاتب الأمريكي الأَصْل: ت،س: إليوت: T. S. Eliot في قصيدة القصْر المشهورة «الأرْضُ اليباب» The, Waste, Land والتي تغنّى فيها بمياه «التَّميز» وأوْدَعها سرَّ حياته التي كتب منْ أجله هذه القصيدة التي اعتبرت فتْحاً جديداً في تقنية الكتابة الشِّعرية الحديثة، ومع أَنَّهُ عندما كتبها كان له مِنْ العُمْر أربعة وثلاثون عاماً ـ عام ١٩٢٢م، إلا أنها كانت تُمثِّل نقلةَ نوعيَّةَ منْ المرحلة الإليزابثية السَّاكنة إلى مرحلة تمثل فضاء غير مسبوق للشِّعْر:

يقول إليوت مخاطباً النَّهْرَ العَظيم:

أيها التَّميز الحبيب، إجْرِ الهوينا، حتّى أتمَّ أغنيتي.

النَّهرُ لا يَحْمِلُ قناني فارغة، أوراق شطائر.

مناديل حرير، علب مقوَّى، أعقاب دُخان.

أَوْ شواهد أخْرى مِنْ ليالي الصَّيْف، الحوريات انصرفن ورفاقهنَّ المُتَسكعون مِنْ ورثة أرْبَاب المال.

ولم يتركوا عناوين.

عند مياه «اليمان» جلسْتُ وبكيتُ.

أيها «التَّميز» الحبيب اجْرِ الهُويْنا حتى أتمَّ أغنيتي.

أيها «التَّميز» الحبيب، اجْرِ الهوينا، لأنّي لا أرْفَعُ صَوْتي عالياً ولا طويلاً.

انظر «ت.س.إليوت، الأرْضُ اليباب، الشَّاعرْ والقصيدة، د. عبد الواحد لؤلؤة، ط١، ١٤٠٠ ـ ١٩٨٠، «الجزء الموسوم موعظة النَّار» لقد أَثار نُزُوح الأديب الإنجليزي Martin-Amis إلى ما كان يُعْرَفُ بالقارة الجديدة والتي كانَتْ في الماضي مُسْتعمرة بريطانية، ونزوح غيره مِنْ الأدباء الإنجليز مَوْجَة سخط كبيرة داخل الأوساط الأدبية البريطانية وتذكَّرْت كمْ مِنْ مواهب أدبية عربية نزحَتْ إلى بلاد الغرب وأبدعت هناك أدباً وشِعْراً ونثراً، مِنْ أمثال، مصطفى بدوي، ووليد عرفات، ومحمود الغول، ومحمد عبد الحليم ممَّنْ أضحوا أسماء لامعةً في الجامعات البريطانية مُنْذُ الخمسينياتِ والسِّتينيات الميلادية.

ويَبْرُزُ في هذا السِّياق اسْم الرِّوائية العربية «أهداف سويف»، والتي جَذَبَ عَملهَا الرِّوائي المعروف "The Map Of Love" أنظار النُّقاد الإنجليز، وكان ضِمْنَ الأعمال الأولية للحصول على جائزة بوكر "Booker" في دورتها الماضية، وإذا كان الرِّوائي "Amis" لم يتنصَّل مِنْ بيئتِهِ الأدبية الحقيقية واعتبر إبْدَاعَهُ امتدَادَاً للتُّراثِ الإنجليزي في فنِّ القصَّة والرِّواية.

فإنَّ خطاباً حَمَله لي «البريد» مِنْ الجزيرة البريطانية بتاريخ ٤ شعبان ١٤٢٠هـ، من الرِّوائية «سويف»، تقولُ فيه: «فَعَمَلي وإنْ كَانَ بالإنجليزية ـ فهو عَربيٌّ الهَويّةُ والوُجْدان».

انتماءُ الكاتب لتراثه، ولُغته وأَرْضِهِ يَمْنح أعْمَالَهُ كثيراً من الخصوصية التي يبحث عنها الآخرون عنْد قراءة أعمال كُتَّاب اضطرتهم الظُّروف للنُّزوح مِنْ أَوطانهم، ويجعله كبيراً في أعْيُن مَنْ يتلقون أدَباً يُكْتَبُ بلغةٍ عالمية، ولكنه يسْتقِي أحداثه وشُخُوصَهُ مِنْ عَوالم ثرية بتجاربها وتقاليدها.

أدبياتُ الحِوَار وفَصَاحةُ النُّخبة

كما أنَّ العرب يتحدَّثون عن عصر سَمَتْ فيه بلاغتهم وتهذَّبت فيه لغتهم، ونُصِبتْ فيه المنابر للشُّعراء ليُبْدعوا وللخُطباء أن يعظُوا كما ضُربَتْ فيه الخيامَ للنُّقاد أن يحكمُوا، وهو أمر شهدته عصورُ الازدهار في الأدب العربي بدءاً من العصر الجاهلي ومروراً بالعَصْر الإسلامي وانتهاء بالعَصْر العبَّاسي فإن للأمم الأخرى ضروباً من فصاحة القَوْل التي يمكن تصنيفها في باب ما يذهب مثلاً شارداً وقوْلاً يجرى على الألسنة عندما تستدعيه مناسبة أوْ يتفتَّق عنهُ الذّهن لحدثٍ مِنْ أحداث الدَّهر.

ويأتي الإنجليز في مقدمة الأمم التي لا تقتصر البلاغة عندهم على تشوسر، وملْتُون، وشكسبير، وديكنز، و: ت.س. إليوت ولكن نلحظها عند تلك النُّخبة التي تجلس في الصُّفوف الأمامية والخلفية في مجلس للحوار والمناقشة وتبادل الرَّأي فيما ينفع المجتمع ويُحدّد مستقبله، وكان أول ما استرعى انتباهي أن هذا التَّجوْيد في فنّ القوْل والإبداع في لغة الكلام المُرتجلَة لا يقتصرُ على أصحاب «الياقات» الزَّرقاء مِن المُحافظِين، ولكنه يشمل كذلك الفئة التي تجْلسُ على يَسَار المُتحدِّث باسْمِ مجْلس العموم ممَّن اختارُوا لأنفسهم مُنْذُ عهد زعيمهم الأول «رامزي ماكدونالد» اسْماً اجتماعياً محبباً وهو «العُمَّال».

وكان زعيمهم في أواخر الخمسينيات رجلاً يختصر التَّعبير الإنجليزي مواهبه في المصطلح المعروف (States Man) ـ رجل دولة ـ ويحمل المصطلح في طيَّاته قدرة الزعيم على القول المؤثر، واللفتات الذكية في الحوار، وكان هذا الزعيم الذي ينتمي لما يعرف عند القوم باسم «يمين الحزب» هو «هيو جيتسكل»، وحدث أن فاز أنصار منافسة في الحزب ورائد اليسار فيه «بيفان» (Bevan Aneurin)، بقرار يدعو إلى جعل بريطانيا دولة غير نووية ـ وكان ذلك في وقت مضى ـ ممّا أثار مشاعر «جيتسكيل» فانتظر إلى اليوم الذي ينصت فيه أعضاء الحزب لما سوف يقوله زعيمهم، فإذا بالرَّجل يختم خطابه بهذا القول الذي ذهب مثلاً في بريطانيا إلى اليوم وهو «سوف نقاتل، ثم نقاتل، ثم نقاتل، حتى ننقذ الحزب الذي نحب»، ولكن القدر لم يمهل «جيتسكيل» طويلاً فمات فجأة، فافتقده في المجلس محبوه ومناوئوه على حد سواء، فخلفه في زعامة الحزب «هارولد ويلسون» وتصف «تاتشر» قدرته في الحديث على أنه كان بمقدوره أن يخترق مسام جسد الزعيم المحافظ «هارولد مكميلان» في إشارة إلى مواهبه في الحديث والتي كان من أبرز ما يميزها النكتة ذات المغزى العميق، وقالوا إن «ويلسون» إذا لم يجد من يوجه إليه «نكاته» السياسية، فإنه على استعداد أن يجعل الآخرين يضحكون عليه، ولا يزال الاستشهاد جارياً بقوله المعروف «إن يوماً في عالم السياسة يعتبر طويلاً»، في إشارة إلى ما يمكن أن يتبدل أو يحدث عند صانعي القرار استجابة لمتطلبات السياسة وما يتصل بها.

وكان من ذكاء «ويلسون» أنه استقال في أوج مجده السياسي عام ١٩٧٦م، ولم يعرف أحد بقراره، ودخل المجلس وخاطب المتحدث باسم

مجلس العموم وكان واحداً من المعجبين بـ «ويلسون» وهو «جورج توماس»، لم يبتسم ـ يومها ـ «ويلسون» كعادته، بل كانت دمعة تطفر من عينيه وهو يقول «مستر سبيكر» لقد قاربت الستين من العمر، وقضيت في رئاسة «دواننغ ستريت» ثماني سنوات، وأتى الوقت الذي يجب أن أفسح فيه لزملائي أن يصعدوا السلم من بعدي»، وحمل «هارولد ويلسون» غليونه، ثم لوح بيديه لأعضاء المجلس، وتركهم حيارى، وكان هذا هو الفرق ـ بين زعيم محنك ـ مع أنه صهيوني التوجه ـ مثل «ويلسون»، وبين زعيمة قوية مثل تاتشر التي حملها موقف زميلها في الحزب «مايكل هزلتاين» على الاستقالة قسراً، وقال لها في أدبه السياسي الكبير «لورد كارنجتون» لقد حان الوقت للرحيل.

الغربُ بين البراءة والمصلحة في جَمْع المعلومات[1]

قد تكون قضية الكاتب المصري سعد الدِّين إبراهيم ـ والذي يَحْملُ جنسية أمريكية قد أُغلق ملفها، وقد يكون الرجل بريئاً وأن إغلاق المركز الذي يحْملُ اسم المفكر العربي ـ ابن خلدون ـ قد أحدث ضجَّة صحافية تجاوزت الحد المعقول في مثل هذه القضايا.

ولكن يبدو للبعض أنَّ وضْع الإصبع على هذه القضية قَدْ فَتَحَ الباب على مصراعيه لمناقشة قضية هامَّة، وهي دور المؤسسات الغربية في رصْد الأحوال الاجتماعية والاقتصادية للعالم العربي، ليس رغبة ـ بطبيعة الحال ـ في رفع مستوى الفرد العربي فكرياً واجتماعياً بمقدار الاستفادة الذاتية المحضة في الهيمنة التي يمارسها هذا الغرب على هذه البقعة مِن العالم التي احتلها عسكرياً ولم يُخلِّف وراءه بعد تلك الحقبة المظلمة في تاريخ العلاقة بين العالمين العربي والإسلامي من جهة والغربي منْ جهة أُخرى، لم يُخلف سوى سفك الدِّماء الذي يُـبَرهن على أن الغرب يؤمن بالعدالة وحقوق الإنسان والمُساواة عندما يكون هو المستفيد منها على مستوى

(١) العدد ٢٤.

الفرد والمجتمع، ولكنه لم ولن يَعْبأ بهذه العدالة وما سواها من قيم ومفاهيم عندما يتصل الأمْر بالهندي الأحمر الذي طُرد مِنْ أرْضه قسْراً، والإفريقي الذي لم يمتهن كرامته أحد كما أمتهنها هذا الغربي، أو العربي الذي اغتصبت أرضه في فلسطين وكتبَ عليه أن يعيش لاجئاً يفترشُ الأرض ويلتحف السَّماء، ولن تغيب عن ذاكرتي صورة رئيسة الوزراء البريطانية السابقة ـ مارجريت تاتشر والتي قامت في عام ١٩٨٥م بزيارة مخيَّم للاجئين الفلسطينيين في الأردن، بعد أن زارت الكيان الإسرائيلي وذرفت الدُّموع على إخوانها اليهود الذين قُتِلُوا على يد الحركة النازية العنصرية، وشوْقاً لدائرتها اليهودية «فنشْلي» في المملكة المتَّحدة، ولأبنائها المدلَّلين في حكومتها من اليهود الملتزمين، منْ أمثال مُعلِّمها الروحي كييث جوزيف الذي أوْصَلها لعتبة «١٠ دواننغ ستريت» ووزير عملها المليونير الصهيوني «ديفيدينغ» ووزير خزانتها الملتزم بحرفية التوراة «نايجل لونسون» ووزير داخليتها الذي يحمل في قلبه ضغينة للعرب والمُسْلمين اللورد «ليون بريتين».

في تلك الزيارة التي نقل أحداثها ومشاهدَها التّلفزيون البريطاني، اصطفت النساءُ العربيات وقُمْن عن حُسْن نيَّة بتقبيل يدها، فلم يخفق لها قلب، ولم يرف لها جفن، وعندما وصلت لبريطانيا رفضت استقبال شخصيتين فلسطينيتين أحدهما مسيحية وهو الرَّاحل الياس فريح، والآخر مُسْلم وهو محمد ملحم زاعمة أنهما إرهابيان لمجرّد دفاعهما عن حقهما المشروع ـ وحق الملايين ـ من أبناء الشعب الفلسطيني ـ في أن يكون لهما وطنٌ وراية ومطارٌ وعُملة.

ورفضت «تاتشر» ـ آنذاك ـ ووزير خارجيتها السّير «جيفري هاو» أن

يكون الرجلان ـ كما جرى اتفاق بذلك عند زيارتها للمسؤولين في الأردن ـ ضَيْفي دوانغ ستريت على قطعة من «الكيْك الإنجليزي» الزَّهيد الثمن وفنجان من القهوة يقومان بإعداده شخصياً ـ على طريقة اخدم نفسك بنفسك»، والأدهى من ذلك أن الرَّفْض طال إيجار يوم وليلة في «الدور شيستر» بعد التعهد البريطاني المسؤول بالدَّفْع، وقامت سفارة عربية بحفظ ماء وجْه الرّجلين، ولم يستقبلهما سوى مبعوث أسقف كانتربري، وقد تعرَّض لنقد لاذع من الإنجليز الصَّهاينة ومنْ يهود فنشلي وليفربول حتى وزير الدولة اليهودي في مكتب الشؤون الخارجية «مايكل ريفكند» وجَدَ الجوَّ ملائماً لنفث سمومه. ولكن تاتشر كانت كريمة إلى حدٍّ كبير مع الإرهابي شامير ومنْ قبلها جيمس كالاهان المعجب بشخصية مذبحة دير ياسين «مناحيم بيغن»، أما سلفه «هارولد ويلسون» فقد كان يرفض مقابلة أي مسؤول عربي من وجهة نظر صهيونية بحْتة.

كان الغرب يقيم مراكزه التي تتجسَّس على المصالح العربية بصورة متنكرة ومنْ هذه المراكز مدرسة «شميلان» في لبنان التي كان يتعلم فيها منسوبو وزارة الخارجية البريطانية اللغة العربية قبل تسلمهم مراكز في هذه الوزارة ولقد كان الجاسوس المزدوج الولاء كيم فيلبي، والذي كان يُشكِّل مع بعض الأسماء التي كشفها صاحب كتاب «صائد الجواسيس» بيتر رايت، وهم: Maclean Donald; Anthonỹ Blunt; Guy Buryess، ما عُرف بعد باسْم حلقة كيمبردج التجسسية، نعم لقد كان فيلبي، منْ روَّاد هذه المدرسة لفترة من الزَّمن، ثم إن ظهور بعض الوثائق أخيراً دلَّلت على أنَّ رحَّالة بريطاني مثل: ريتشارد بيرتون، وآخر هولندي مثل: سنوك هورخرونيه كانا على اتصال بالمؤسسات العسكرية والأمنية في بلادهما،

ولقد كرَّمت الحكوماتُ الغربيةُ بَعْضاً من هؤلاء الرَّحالة، «فسنوك» مثلاً عُيِّن في عام ١٨٨٩م، مستشاراً لحكومته في جَاوة للشؤون الشرقية والإسلامية، ولقد أمضى عقداً كاملاً من الزَّمن في هذا المنْصب الرَّسمي الهام.

إنَّ الخيط رقيق للغاية بين ما يمكن أنْ يدخل في باب البحث العلمي المحض، وبين ما تمتد الأيدي الغربية الخفية لتمويله في بلدان عربية وإسلامية عديدة تحت دعاوى تأسيس المجتمع المدني، والدَّعوة للنهوض بمعايير الممارسة الديمقراطية، واحترام حقوق الإنسان، إنها عناوين عريضة لقضايا إنسانية تهم كُل إنسان، ولكن متى كان الغرب ومؤسساته وكليات دفاعه المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمؤسسات الأمنية، حريصاً على تحقيق هذه المفاهيم على أرْض الواقع، إن حرْصه يتبدَّى فقط في مصالح ربيبته المُدلَّلة «إسرائيل» وما يجمعه من معلومات عن و اقعنا يُقدِّمها كهدية ثمينة لها.

ما أغنى الأمَّة عن هذا التشدد وتلك القسوة

يَسْلُكُ الفتى تلك الطريق التي ترسختْ معالمها في أعماقه وأضحى يَحِنُّ إليها كُلَّما جَنَّ ليْلُ وأبلج إصباحُ، الناس يغطون في نوم عميق، والظلام يُغطي برَهْبته وجَلالِهِ سماء المدينة الطاهرة ورجالٌ يقفون على بابي «السلام» و«جبْريل»، حتى إذا فتحت الأبواب دخلوا من تلك «الكُوَّة» الصغيرة في أدبٍ وسكينةٍ، قلوبُهم مُتعلقة شوْقاً وحُباً بصاحب المقام الطاهر، وألسنتهم لا تردِّد إلا ما تطمئن به النفس، وينشرح معه الصدر.

يَرْتفِعُ الأذانُ من المنارة «الرئيسية» المطلة على القبة المجللة بالبهاءِ، هذا «حسين بُخاري» يُردِّدُ في خُشُوع وتبتل «الصلاة خيرٌ من النَّوْم»، وهذا إمَامُ المحْراب، وخطيبُ المنبر الشيخ عبد العزيز بن صالح. رحمهم الله، يُرتلُ آيات سورة الرَّحمن، فتَردِّدُ جبَالُ المدينة ووديانُها صَدَى تلك الأصْواتِ المؤمنةِ والمحبَّة لله ورسُوله ﷺ، رحمَ الله «ابنْ صَالح» فلقد صَعَدَ المنبر لأكثرَ من أرْبعين عاماً، فَلَم يَرْمِ أحداً مَنْ أهل القبلة في عقائدهم بألفاظ أصبحت للبعض اليوم من طُلابِ العلْم قامُوساً، يحفظونها عن ظهْر غَيبْ، ويتساهلون في تصنيف الناس وِفْقَ دلالاتها، فهذا قُبوريّ، وذلك في قلبه زيْغٌ، والآخر صاحبُ بدْعَة، ونسُوا غَضَبَ المصطفى ـ ﷺ ـ عندما جَاءَهُ «أسامة بن زيد بن حارثة» ليخبرهُ بأنه قَتَلَ رجُلاً مُشْركاً،

ولكنَّه نَطَقَ بالشَّهادتين عندما أشرع أسامة ـ رضي الله عنه، السَّيْفَ في وَجْهِهِ، وأنه قالها خوْفاً وذعْراً، فإذا بالنَّبي والمُعلِّم الأكبر سيدنا وسيِّد وَلَد العدنان ـ وسيِّدٌ على رَغْم أنوف الذي يضنُّون عليه بما هو أهلٌ له بين البشر عامة ـ فدَاكَ أبي وأمي يَا سَيِّدي ـ يا رَسُولَ الله ـ فإذا بالحبيب المصطفى يُوجّهُ في حدَّةِ للصحابي الجليل. رضي الله عنه وأرضاه ـ هذا السؤال هل شَققْتَ عَنْ قلبِهِ؟ الحبيب يُردِّدُ السؤال، والحِبُّ ابن الحبِّ يَطرق متأملاً ونادِماً، وإذا هُو يقولُ لمن حضرَ عندما شاهدَ من أرْسَلَهُ الله رحْمَة للعالمين، يُعلِّمه الدَّرْسَ، يواجهه بالحُجَّة، ويتمنَّى لو أنَّ أسامة، رضي الله عنه ـ لم يفعلها يقول سيِّدنا أسامة أنه تمنى لو كان ذلك اليوم هو أول يوم يَدْخُلُ فيه في الإسلام، تلك مَدْرسة خاتم النبيين وسيِّد المرسلين التي لم تخوِّل لأحدٍ أنْ يأخُذُ الآخرين بالظن، ويتساهل في إلقاء كلمات «الشِّرك» التي تهتزُّ منها الجِبَالُ الرَّاسياتُ، ولهذا فالأئمة الأربعة ومَنْ تبعهم مِنْ علماء الأمة كانُوا يميلون إلى استخدام كلمات مِنْ أمثال مكروه، غير حَسَن، يَحْسُن تجنُّبهُ، يُفترض عدم الوقوع فيه.

ولقد جَلس الفتَى إلى دُرُوس عُلماء، جمع الله لهم بين العِلْم الغَزير والتفقه في مقاصِدِ الشَّريعة، وبين التواضع في النَّفس، والتهذيب في القوْل، والأدَب مع رَسُولِ الله ﷺ وصحابته وآل بَيْته رضوان الله عنهم وإنَّهُ ليتذكَّرُ ـ يَوْماً ـ جَلَس فيه الشيخ «عطية محمد سالم» على كرْسيِّ شَيخه العلامة محمد الأمين الجُنكي ـ رحمهما الله. فسألَهُ أحدُهُم عَنْ مآلِ وَالديِّ النَّبي ﷺ. فإذا بأفْقهِ النَّاس في مَذْهبِ إمام أهْل المدينة مالك بن أنسٍ ـ رحمه الله. إذا به يَرْفَعُ صَوْتَهُ في غضب قائلاً: مَنْ هذا الذي يُريدُ أنْ يُثيرَ الفِتْنَة؟ كُنْتُ أحُس بوجيب في صَدْره، وأرَى دَمْعاً ينسكبُ على

شُعيراتِ لحيةٍ جلَّلها، الإيمانُ، ولكأني بالفقيه، والقاضي، والمؤرِّخ الشيخ ـ عطيَّة ـ أسْكَنَهُ الله فسيح جناته، يستَعيدُ المشهدَ الذي ذَكَره شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في رسالته في فضل أهل بيت النبوة وحقوقهم، حيث رَوَى. ابن تيمية. رحمه الله. عن عمار وأبي هُريرة، قالوا: قَدِمتْ دُرَّة بنْتَ أبي لَهبَ المدينة مُهَاجرة، فنزلتْ في دَار رافع بن المعلَّى، فقال لها نِسْوةٌ جلسن إليها من بني زريق: ابنة أبي لهب الذي أنزل الله فيه «تبَّتْ يَدَا أبي لهب» فما يُغني هجْرتك! فأتَتْ «دُرَّة» رسُول الله ـ ﷺ ـ فبكتْ وذكرَتْ ما قُلْن لها، فسَكَّنها وقال: إجْلِسي، ثم صَلَّى ـ ﷺ ـ بالنَّاس الظهرَ ثم جلس على المنبر ـ ساعة ـ ثم قال: يا أيّها الناس! مالي أوذي في أهْلي؟ فَوالله إنَّ شَفَاعَتي تَنَالُ قَرَابتي حتى إنَّ صَداء وحكم، وسَلب لتنالها يوم القيامة، رَواه الدَّيْلمي «انظر، رسالة فضل أهل البيت وحُقُوقهم لشيخ الإسلام ابن تيمية، ط١، ١٤٠٥/هـ ١٩٨٤/هـ، دار القبلة للثقافة الإسلامية، ص ١٤٣».

وإنَّ الفتى لتأخذُهُ الدَّهْشَةُ، ويستبد به العجبُ عندما يرَى البعض يَتسَاهل في رمي النَّاس في عقائدهم بغير دليل ولا برهَان، وأنَّ باعث هذا البعض في التساهل في هذا الأمر الخطير هو عدم اتفاق البعض معهم في أمر يتصل بفُروع الشريعة وليس في أصولها وثوابتها وما عُلِمَ من الدّين الحنيف بالضرورة، وكأن هذا البعض الذي استسهل هذا الصعْب لم يَقْرَأ الحديث الذي رواهُ سيدنا عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال «أيُّما رجُل قال لأخيه كافر، فقد بَاءَ بها أحدهما» انظر: الأدب المفْرَد، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البُخاري، شَرْح فضل الله الجيلاني، ط٣، ١٤٠٧هـ ص ٥٢٨».

ولا يتورَّع بعض النَّاشئة من جيل اليوم في مخاطبة والديهم بالغليظ مِنْ القوْل والذي يدخل في باب العقوق إذا ما اختلفوا معهم في أمْر من أمور الدُّنيا التي لا يترتَّبُ عليها كما يتوهَّمون، ضَعْفٌ في المعتقد، أو إخلال بواجب من واجبات الشَّرْع الحنيف، كما يقطع بعضهم صلة رحمه بسبب مثْل هذا الوَهْم، وبهذا كان النبي ﷺ أمَرَ الأبْناء ببرِّ آبائهم ولو كَانُوا مُشْركين، فكيف الأمر بمن ينطقُ بالشَّهادتين، ويقومُ بواجباتها وحُقُوقها، ونسوقُ هذا الحديث الذي أورَدَهُ الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ للعبْرة والاتعاظ، فلقد رَوَى هشام بن عُرْوة، قال أخبرني أبي قال، أخبرتني أسماء بنت أبي بكر الصديق، قالت أتَتْني أمِّي رَاغِبةً في عَهْد النبي ـ ﷺ ـ فسألتُ النبي ـ ﷺ ـ أفأصِلُها؟ قال ابن عُيْينة فأنزل الله عز وجل فيها «لا ينهاكم الله عن الذين لمْ يُقَاتِلُوكم في الدِّين، ولم يُخْرجُوكم مِنْ دِيَارِهم أنْ تبرُّوهم» «انظر الأدب المفرد للإمام البخاري، ص ٩٥».

وقد ثَبتَ أنَّ سيِّدنا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أهدَى حُلة لأخ له مِنْ أمِّه كان مُشْركاً، وقد أوردَ الإمام البخاري الحديث ـ بكامله ـ تحت باب سمَّاهُ «بابُ صلة ذي الرَّحم المُشْرك والتَّهدية»، والأمرُ مترتِّب على الأمْر النَّبوي العام بصلةِ الرّحم، حيث قال ـ ﷺ ـ «وكل رحمٍ آتية ـ يَوْمَ القيامة ـ أمامَ صاحبها تَشْهَدُ لهُ بصِلة، إنْ كان وصَلَها، وعليه بقطيعة إنْ كان قطعها «الأدب المُفرد، ص ١٥٦».

إنه مِنْ المحزن أن يرْسُمَ البعض من طلاب العلم ـ هداهم الله ـ من وحْي ظنونهم أو عن طريق اجتهادات خاطئة تلك الصورة القاتمة عَنْ تعاليم هذا الدِّين الحنيف، من شِدَّة وقسوة وغلظة وجَفْوة، مَعَ أنه أي الدين الإسلامي في حقيقته وجَوْهره هو دَينُ الاعتدال، والمحبَّة، والرَّحمة

والرِّفق، والوسطية، التي وصَفَ الله بها هذه الأمة، فقال في محكم كتابه ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾ (البقرة، ١٤٣).

وقد أثبت الله لخاتم النبيين وسيد المرسلين ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ الرَّحمة واللِّين، ونَفَى عنه الغِلْظَةَ والقَسْوة فقال في محكم كتابه العزيز ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران، آية: ١٥٩).

دور المرأة في المسيرة التعليمية بالمدينة المنورة(١)

يَعْتُبُ الصَّديقُ المُهندسُ إبراهيم أبو مِزْيد بأنَّني نسيتُ دَوْرَ المرأة الفاعل في تاريخ المدينة المنورة ـ المعاصر ـ وذكرني بـ «حَوْشُ عَميرة» ـ الذي كان يَقوم ـ في الحقبة الماضية ـ عند مَدخل باب قُبَاء، وأَمَام المسجدِ المعْروف باسْم مَسْجِد سيِّدنا عمر بن الخَطَّاب ـ رضي الله عنه ـ وكان آل مَزْيَد وبشير، والباز وعبد الحميد عبَّاس والسِّيسي والدَّعْجان، والحَلَواني ورزق، والسِّندي، وعُبيد ـ الأخوان معالي الدكتور رضا عبيد وأخوه طالب ـ ومقنص،وزيت حار ومرْزا والفنيكاني، والشريف السنوسي، والجزَّار والحجيلي والكردي والقِرَافِي، وغيرُهم يسكنون في داخل هذا الحوشِ، أمَّا آل شَيْخ، والزُّهدي والدَّردُوم، وناجي أفندي، فكانوا يَسكُنُون بالقرب مِنْ مَدْخله.

جُمْلة من النساء كان لَهُنَّ دَوْرٌ في حفْظ نظام «الحوش»، وتنظيم حفلات الزَّفاف، و«الصِّرافة» ـ حفلة حفْظ القرآن الكريم، و«السَّرارة» وهو مُصْطلَحٌ يعني مَنْ كان يقوم بأداء فريضة الحج لأول مَرَّة، ثم يعودُ للمدينة سالماً.

---

(١) العدد ١٢.

وأدركْتُ كما أدرك أخي إبراهيم ـ على رَغْم فارق السِّن بيننا ـ الأمَّهات. عائشة حسينية، وآمنة طلحة، وفاطمة رزقية، وآسية علي سليمان، وأم محمد أمين، وشمَّة بنت عماير، ودادة حسينة ـ رحمهن الله ـ وهذه الأخيرة تجاوز دورها حارتي قباء والعنبرية ليشمل المدينة جميعها، وكانت امرأة فاضلة ـ قادتها ظروف صعبة لتسْكُنَ المدينة وتحلُّ في دار آل «عبيد» وعندما تُوفي ربُّ الأسرة، احتضنت الطفلين رضا وطالب عُبيد، وقامَتْ على تربيتهما، وكانَتْ تُشْرِفُ عَلَى دراستهما حتى تخرَّجا مِنْ الدِّراسات الجامعية وما بعدها فكانا مِنْ الصَّفْوة المثقفة في بلادنا الكريمة، ونشأت الأجيالُ في بلد المصطفى ـ ﷺ ـ تسْمَعُ بهذا المثل، يقول الأب لأبْنائه أو الأم لأبنائها «خليكْ مثل وَلَدَ «عُبيد» شاطر في الدِّراسة»، وإذا كان جيلُنا سَمِعَ هذه العبارة في مقتبل عُمره ـ وترسَّختْ في ذاكرته فإنَّ السياق يدفعني لرواية هذه القصَّة: فلقد كنتُ أسيرُ بصُحْبة سليل النَّسب الطَّاهر، وأسرة العلْم والفَضْل في بلد المصطفى ـ ﷺ ـ معالي الصَّديق السيد الدكتور غازي بن عُبيد عبد الله مدني، كُنَّا نسيرُ سويَّة في رحْبة دارِه العَامِرة، فإذا هو يقول: لقد ذكرتُ مِن قبل: أننا نشأنا في المدينة وكان ـ أمامنا ـ مثلٌ في العصامية والجدِّ والاجتهاد وهو معالي الدكتور «رضا عُبيد» ولعلَّ البعض يَخْلِطُ عن غير قصْد بين أسرة «عُبيد»، التي ينتمي لها الدكتور رضا وأخوه صالح وطالب، وبين أسرة السَّيد عبيد مدني وأخيه أمين ـ أبناء السَّيد عبد الله مدني ـ صاحب منتدى أم الشُّجرة، وأول فندق يُنْشأ في جزيرة العرب وكان مقرُّه ـ باب المجيدي، وبين أسْرة السَّيد أحمد عبيد المدني ـ الكاتب المعروف ـ والد إبراهيم طاهر ـ رحمهما الله ـ والسَّيدة ثريا أحمد عُبيد ـ مديرة دائرة الدول العربية وأوروبا في صندوق

الأمم المتحدة للسُّكان ـ وهي أول امرأة تتولَّى هذا المنصب مِن منطقة الخليج العربي.

لم يَنْس رضا وطالب صنيع الخالة حسينة ـ رحمهما الله ـ فعندما دبَّ الوَهْن في جَسَدها الذي أفنته في رضاء الله وخدمة النَّاس كرماً وفضلاً منها، احتضناها كبيرة كما احتضنتهما صغيرين، وأبرَّا بها كما أبرَّا بوالدتهما التي كانت تسْكُنُ حوش عميرة ـ نفسه ـ.

كثير من شُجُون الحياة ينْمحي مِنْ ذاكرة الإنسان، ولكنني لنْ أنْسى خُروجي قبْل ظهر ـ كل يوم منْ دارنا لأصطحب كريمتي ـ الأكبر سنًّا ـ من الكُتَّاب الذي كان يقوم فيما يُعْرف بدكة التَّرجمان ـ أمام مبنى الإمارة ومسجد سيدنا بلال ـ رضي الله عنه ـ لقد كانتْ تذهب ـ صباحاً ـ لتتعلم القراءة والكتابة في كُتَّاب الأستاذة «مغربلية» ـ في وقت لم يبدأ فيه التعليم النَّظامي للمرأة في بلادنا ـ وهذا يَجْعُلني أميلُ إلى أنَّ كُتَّاب الأستاذة زينب مغربلي ـ التي فارقت هذه الحياة قبل شهور عديدة ـ كانت بدايتُه قبل حوالي نصْف قرْن مِن الزَّمنْ، وإنني أكتبُ وليس بين يدي من المصادر المتخصصة ما يُعينني على ذكر تاريخ إنشاء هذا الكتَّاب أو تلك المدرسة مُوثقاً، ولكنني عُدْتُ لأستاذ الجميع أمين مرشد ـ أطال الله بقاءه ـ الذي شهد بدايات النهضة التعليمية في بلادنا، وكان مساعداً لأستاذ الجيل السيد ماجد عشقي ـ في المدرسة التحضيرية الأولى التي أطلق عليها فيما بعد ـ اسم المدرسة المنصورية وأصبح الأستاذ مرشد مديراً لها، ثم مديراً للنَّاصرية، ونبَّهني الأستاذ «أمين» إلى أنَّ كُتَّاب فاطمة هانم في السَّاحة، وفخرية هانم في الشُّونة هما مِنْ أقْدم مراكز التعليم الأهلي للبنات في بلادنا، ثم أنشأت السيدة زينب مغربل، كُتَّابها في العنْبرية، ولقد كان

الكُتَّاب يُعْنى بتعليم القراءة السَّليمة لكتاب الله الحكيم، وكان التركيز شديداً ـ على مادة الإنشاء أو التعبير كما أنَّ فتْرة الدِّراسة تمتدُّ ـ أحياناً ـ إلى وقت العَصْر.

أمَّا الأستاذة شرف علمي فلقد أنشأتْ مَدْرسةً نظامية وجلبت لها أستاذات مُتخصِّصات من بعض البلاد العربية، وكانت مدارسها ـ إنْ لم تُخني الذاكرة ـ في المشرفية بحي قباء، ولقد قدَّمت الدَّولة كُلّ التَّسهيلات للتعليم الأهلي في بلادنا، ونفخر اليوم بجهود الرئاسة العامة لتعليم البنات على مدى عدَّة عقود، أصبحت المرأة فيها على قَدَر كبيرٍ من الوعي والإدراك مما أهلها للمشاركة ـ بحسب ضوابط الشَّريعة الإسلامية ـ في النهضة الحضارية والفكرية والثقافية في مهبط الوحي ومهد العروبة والإسلام.

وإذا كُنَّا قد أتينا على دور المرأة في نشر العلم في عاصمة الإسلام الأولى، فلا بد من الإشادة بدور المرحوم السيد أحمد الفيض أبادي الذي أسَّس مَدْرسة العُلُوم الشرعية التي تخرَّج منها عدد كبير من جيل الرُّواد من أمثال المشايخ والأساتذة، محمد الحافظ، محمد علي الحركان، عبد المجيد حسن جبرتي، محمد عمر توفيق، عبد العزيز الرَّبيع، أمين عبد الله القرقوري، أسامة وأنس ونعيمان عبد الرحمن عثمان، عبد الفتاح أبو مدين وغيرهم، ودور السيدين علي وعثمان حافظ اللذين أُنشآ مدرسة الصَّحراء بالمسجد والتي تخرَّج منها كذلك عددٌ كبيرٌ منْ أبناء قبيلة حرب العريقة، وذكر لي السيد زهير حافظ ـ أمدَّ الله في عمره ـ أن أخويه السيدين علي وعثمان استدانا من والدهما السيد عبد القادر حافظ ـ رحمه الله ـ ما يقرب من «مائة جنيه ذهب» عند تأسيس المدرسة، ولم يسددا البقية من

هذا الدين إلا بعد وفاة والدهما الكريم، فهل هناك تضحية في سبيل العلم ونشره أكثر من هذه التضحية، ولقد كان رائدهما في ذلك طلب الأجر والمثوبة من ربِّ العباد.

ولا بُدَّ من التنويه كذلك بدوْر الأستاذ عادل عمر ـ أمدَّ الله في عمره ـ الذي أسَّسَ مدرسة النجاح، ولقد اتخذ من منزله ـ عند تأسيسها ـ مقرًّا لها، حتى استقام كيانُ هذه المدرسة الرَّائدة، واحتضنتها الدَّولة برعايتها كغيرها من المؤسسات التعليمية الأهلية، وإنها مناسبة كريمة أن نشيد بدور نساء فاضلات، ورجال كرام في المسيرة التعليمية في هذا البلد المعطاء، وأتْرُكُ بقيَّة الحديث لكاتباتنا الفاضلات، سهيلة حمَّاد، نورة الخريجي، وفاء الطيب، وسميرة مغربل.

كيف غطى اليهود الحقائق إعلامياً وفكرياً؟![1]

ربما لا يعرف البعض أن الصِّراع في إيرلندا الشمالية يعود إلى القرن السادس عشر الميلادي حيث وقعت المعركة التي تحمل اسم "Boyne"، والتي انتصر فيها البروتستانت على الكاثوليك، ومع أن الغرب يعرف أن الصراع الدائر في هذا الجزء من المملكة المتحدة هو صراعٌ ديني محض إلا أنَّ الإعلام الغربي صوَّر هذا الصراع وما تخللته من حوادث دامية ذهب ضحيتها الآلاف من الطرفين المتصارعين صوَّره على أنَّه صراعٌ سياسي تريد فيه منظمة الجيش الجمهوري الإيرلندي المعروفة بالرَّمز I. R. A الانضمام إلى جمهورية إيرلندا المستقلة، بينما تسعى المنظمات البروتستانتية للبقاء تحت التَّاج البريطاني، بينما هو في حقيقته صراعٌ ديني محض ولكن المؤسسات الغربية الإعلامية وبقدراتها الفائقة في هذا الميدان استطاعت أن تخفي الخلفية الحقيقة للصراع، بينما تعرف هذه الدوائر الإعلامية الغربية أن زعيم الحزب الديمقراطي الاتحادي Democratic, Unionist Party، هو القس أو الواعظ إيان بيزلي Ian, Paisley وهو بروتستانتي حَرْفي، ويقابله في الصفة الأخرى الكاثوليكي «جيري آدمز» Gerry, Adams، الذي استقبلته الأوساط الأمريكية السياسية وخصوصاً في حقبة بيل كلينتون بكل

---

(١) العدد ١٥.

حفاوةٍ من باب التعاطف مع الإيرلنديين الكاثوليك والذين هاجر عدد كبير منهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية ووصلوا إلى أرقى المراكز السياسية والفكرية في المهجر الجديد الذي اختاروا الانتقال إليه بسبب الصراع الذي أنهك جميع القوى في مقاطعة إيرلندا، ومع أن دوانغ ستريت كان يتحفظ على ظهور «آدمز» في الأجهزة الإعلامية البريطانية، إلا أنه تحت الضغوط الأمريكية والتي يمثلها النَّائبُ اللبناني الأصل جورج ميتشيل كوسيط بين الأطراف المتصارعة في إيرلندا، تحت ضغط هذا التأثير الأمريكي الدَّائم رضخ رئيس وزراء بريطانيا «توني بلير» واستقبل «آدمز» في مقر الحكومة البريطانية بـ«دوانغ ستريت» في الوقت الذي استمرَّ فيه حزب العمال البريطاني في سياسة عدم الاعتراف بمنظمة التحرير، وعدم مقابلة أي من قياداتها لمدة تزيد على ثلاثين عاماً تضامناً مع اللُّوبي اليهودي داخل الحزب الذي صور العرب على أنهم الجلاد وصور اليهود في المقابل بأنهم الضحيَّة، مع أن اليهود قد احتلوا أرْضاً مأهولة بسكانها الأصليين من الفلسطينيين، واستطاعوا عن طريق الإرهاب الجسدي والنفسي تهجير ما يقرب من ثلاثة ملايين فلسطيني في أرض الشتات، ولم يسلم الغرب ـ نفسه ـ من سياسة الإرهاب التي انتهجتها عصابات «الأرغون» والهاغاناة، وكان من بين الضحايا الأبرياء الوزير البريطاني لشؤون الشرق الأوسط اللورد موين، Lord- Moyne، وذلك في نوفمبر ١٩٤٤م، كما لقي الوسيط الدولي الكونت برنادوت Count Bernadotte، المصير نفسه في سبتمبر ١٩٤٨م.

وإذا كان الصراع في إيرلندا في حقيقته دينياً ونجحت أجهزة الإعلام الغربي في تصويره على أنهُ صراعٌ سياسي، وإذا كان الزُّعماءُ اليهود تلوثت

أيديهم بمن فيهم «إسحاق رابين» بدماء الأبرياء العرب من شيوخ ونساء وأطفال، ولم يعترف اليهود كذلك حتى الآن بمسؤولياتهم الكاملة عن مذابح دير ياسين، وكفر قاسم، وقبيه، واللد، وصبرا وشاتيلا فإنَّ هذا الإعلام كان له دورٌ في تغطية الحقائق عن الإرهاب في أرض فلسطين، وهذا ما حدا بمفكِّرين بريطانيَّيْن وهما «مايكل آدمز» Michae - Adams، وكريستوفر مايهو: Christopher - Mayhew، بإصدار كتابٍ يحمل اسم معاناتهما الحقيقية في تجميع معلوماته ونشره، وهو «أنشره، لا تنشره، تعميمة شؤون الشرق الأوسط».

"Publish, It Not, The middle East Cover Up".

ولم يكتف اليهود بالتغلغل في أجهزة الإعلام الغربي فالصحف الرَّصينة في الغرب مثل: التايمز، والديلي تلغراف، وصنداي تايمز لا تزال حُصوناً منيعة للُّوبي الصهيوني داخل بريطانيا، بل إنَّ بعض كُتَّابها من الإنجليز مَنْ هُو متحمِّسٌ للكيان الصهيوني العنصري أكثر من اليهود أنفسهم.

وتظل صحف مثل الجارديان والأوبزرفر تملك شيئاً من الجرأة لقول الحقيقة في الشرق الأوسط نعم لم يكتف اليهود بهذا التسلُّل إلى المؤسسات الفكرية والإعلامية الغربية ومحاولة تملكها للسَّيطرة على الذهنية الغربية وتسييرها في الطريق الذي يخدم كياناً أصبح يقوده الحاخامات وليس زعماء السياسة، وأضْحى التجمُّع عند حائط المبكى والقراءة عنده بصورةٍ هستيرية، أو الوقوف عند تمثال الإرهابي «غولد شتاين» سفاح مجزرة الحرم الإبراهيمي، والدوران حول هذا التمثال صورة حضارية يقدسها الغربيون ويدافعون عنها.

بل أضافوا إلى ذلك سعيهم الدؤوب إلى تصوير الإسلام بعد حقبة

الحرب الباردة على أنَّهُ العدو الحقيقي للغرب، وإذا كان اليهود حققوا عن طريق تزويدهم، وخداعهم، ومكرهم ما يتطلعون إليه وما يخدم وجودهم في المجتمعات الغربية، فما الذي فعله العرب على مدى هذه العقود الطويلة للكشف عن الحقيقة أو شيء من الحقيقة للآخرين؟؟

وَمَضَاتُ عن أَدَبِ السِّيرة الذَّاتية[1]

نَفَى «عبد الحسين شعبان» في مقالته بملحق تيَّارات «الحياة ٢٥ إبريل، ١٩٩٩م» والموسومة «كتابةُ الذَّات مِنْ خلال الآخر»، أنْ يكون العَربُ عرفوا أدب السِّيرة الذي اشتهر في الغرب منذ «اعتراف» القدِّيس أُوغسطين قبل أربعة قرون من الزَّمن، ويبدو أنَّ الكاتب تعجَّل في هذا الحُكْم، فالعَرَبُ والمسلمون عرفوا أدب السِّيرة بما يتفقُ مع رؤيتهم للحياة النَّابعة من العقيدة والفكر الإسلامي منذ أمد طويل و«كتاب» الاعتبار لأسامة بن مُنْقذ الذي انتهى من كتابته في ١٣ صفر ٦١٠/هـ «٤ تموز سنة ١٢١٣هـ»، هو أول سيرةٍ في الآداب العربية المُترجم، والمُترجَمُ له واحدٌ، كما يذكر ذلك الأستاذ الباحث «فيليب حتي» في مقدمته التي كتبها لهذا الكتاب القيم،وقد حظي الكتاب لأهميته بالتَّرجمة إلى لُغاتٍ غربيةٍ من بينها اللغة الفرنسية، ويذكر الأستاذ «حتَّي» أنَّ الأستاذ «هارتوغ درنبورغ» هو الذي قام بالترجمة، ولكن الأستاذ «حتَّي» يذكرُهُ أحياناً باسم «لاندبرغ»، وهذا الاسم لمستشرق سويدي، وهو: Carlo Lan Dberg (١٩٢٤ ـ ١٨٤٨) انظر: موسوعة المستشرقين، تأليف، د. عبد الرحمن بدوي، ط١، ١٩٨٤م ص ٣٥٠ ـ ٣٥١.

---

(١) العدد ٨.

وكان لاندبرج يكتب ويترجم باللغة الفرنسية، ومن ضمن أعماله الشهيرة «فهرس مخطوطات مكتبة الحلواني»، وأصدره سنة ١٨٨٣م، ولقد قام كاتب هذه السطور بترجمته إلى اللغة الإنجليزية «انظر: المدينة المنورة بين الأدب والتاريخ، ط١، ١٤١٣ ـ ١٩٩٣م»، وإذا كان «الاعتبار» قد خرج عن مؤسسة «ليدن» بهولندا سنة ١٨٨٤م، فإن «فهرس مخطوطات عربية مأخوذة من مكتبة خاصة بالمدينة» قد خرج عن المؤسسة العلمية نفسها سنة ١٨٨٣م، وزيادة في التأكيد فقد ورد التاريخ في الترجمة الفرنسية لهذا الفهرست كالتالي: Ledien 20th, Sept 1883، ولعله من المفيد أنْ نذكر أنَّ «لاندبرج»، قد نشر كتاباً هاماً يرجع إلى الحقبة التي كتب فيها «أسامة بن منقذ» سيرته هذه، وهذا الكتاب هو: الفتح القسي في الفتح القدسي «لعماد الدين الأصفهاني» ويتضمن الكتاب سيرة القائد المسلم صلاح الدين الأيوبي،وقد أخرجه «لاندبرج» سنة ١٨٨٨م.

وإذا تجاوزنا هذه المسلَّمة وهي أن الفكر العربي والإسلامي قد عرف فن السيرة الذاتية قبل أن يعرفه الغرب ـ بقرون عدة ـ فإن الكاتب ينتقل إلى مسألة أخرى تحتاج إلى شيء من المناقشة العلمية، فهو يقول «وإذا كانت الثقافة العربية المعاصرة تخلو على نحو لافت من هذا الجنس الأدبي إلا باستثناءات محدودة «سيرة حياتي لجورجي زيدان»، «تربية سلامة موسى» «حياتي» «لأحمد أمين»، وعبارات الكاتب لا تخلو من انتقائية ـ ربما كان لها بواعثها المُحدَّدة ـ وإلا فكيف يمكن أن نغفل «أيام» طه حسين، و«حياتي في الشعر»، لـ«صلاح عبد الصبور» و«سيرة شعرية» لـ«غازي القصيبي»، و«أنا» للأستاذ الكبير «العقَّاد» و«على الجسر» لبنت الشاطىء، و«سبعون» لميخائيل نعيمة،و«إبراهيم الكاتب» للمازني، و«ترجمة

حياة» لـ «السيد محمد حسن فقي»، «وذكريات طفل وديع» لـ «عبد العزيز الربيع»، وهذه «حياتي» لـ «السيد حسن كتبي»، وأوراق العمر ـ «سنوات التكوين» لـ «لويس عوض»، وإذا كان بعض أدباء ومفكري الغرب قد عزفوا عن كتابة سير حياتهم، فإنَّ البعض قد سدَّ هذا الفراغ، فنرى الكاتب «سيرج بيروتينو» يكتب سيرة «روجيه غارودي»، كما أن الكاتب الإنجليزي المعروف: "Georgiana M stisted" كتب سيرة أديب ورحَّالة إنجليزي معروف، وهو السِّير ريتشارد بيرتون: Sir-Richard, F. I Burton الذي ترجم قصة ألف ليلة وليلة شعراً إلى اللغة الإنجليزية الكلاسيكية، وقد عرفت سيرة بيرتون باسم The True, Life of Captain, Sir Richard, F. Burton «الحياة الحقيقية للكابتن سير ريتشارد بيرتون».

ومن أروع ما ظهر في الفكر الغربي ـ حديثاً ـ ما كتبه المفكر والسِّياسي المعروف «دينيس هيلي» عن حياته الخاصة والعامة في كتابه المعروف: The, Time, Of, My Life Pengin Book وقد بلغت هذه الترجمة حوالي ٦٠٠ صفحة.

أمَّا الملاحظة الأخرى التي تستحق شيئاً من النقاش العلمي فهي اتهام الكاتب أن ما ظهر من «سير شملت الأبطال والأقوياء بشكل عام في نوع من المبالغة والتَّهويل يصل ـ أحياناً ـ إلى حدِّ القدسية، حيث لم تظهر صفات الضعف أو الخطأ، أو ارتكاب الذنوب تلك التي جميعها من طبائع البشر في كل مكان وزمان.

هذه المقولة فيها من التعميم ما يجعل القارىء يشك أن الكاتب قد قرأ «أيام» طه حسين، التي كانت المُكاشَفَة والصَّراحة والجرأة من أهم سماتها، فهو لم يتردد مثلاً أن يذكر وهو ـ البصير ـ كيف أنه كان يأكل

بعيداً عن أعين الآخرين حتى لا يحسُّ بتلك الأعين التي كانت تلاحقه حتى وهو يأكل ما يغذِّي به جسده النحيل، أما «لويس عوض»، فلقد أثارت مذكراته من اللغط مما جعل بعض أفراد أسرته يقاطعونه ومنهم أخوه الأكبر الذي قلل لويس من قيمة عطائه الفكري إضافة إلى ما ذكره من مسألة «العقم» التي اتسم بها بعض أخوته، ولم يسلم «لويس» ـ نفسه ـ منها. إضافة إلى ما احتوته من مشاهد تخدش الحياء.

إنَّه ليس من الضروري أن نقبل العمل الأدبي إلا إذا ما كان متضمناً الجانب الضعيف من حياة الإنسان، فالجوانب المضيئة في حياة الناس هي الجديرة بالاقتداء مع التنبيه ألا يكون ما يذكره هذا الأديب أو ذاك المفكر ضرباً من الخيال، أو الادعاء الكاذب، وهل الأمة تسلك دروب الحياة إلا بسمات الجد وشمائل الأخلاق الحميدة من صدق وإخلاص وعفةٍ وطهارة.

ثم إنَّ ما ذكره الكاتب من دعوة مبطَّنة إلى أدب الاعتراف يجب أن ينظر إليه في السِّياق الحضاري والفكري والاجتماعي الذي ينتمي إليه الكاتب، فالديانة المسيحية تدعو مُعتنقيها إلى الاعتراف بين يدي الكاهن أو القدِّيس حتى ـ بحسب تصورهم الديني ـ يمكن تجاوز هذه الخطيئة أو ذاك الذنب، أمَّا ما يُميِّزُ الدين الإسلامي وباعتراف كثير من الكُتَّاب الغربيين ومن بينهم المفكر «مراد هوفمان» هو خُلوه من هذه الوساطة التي يقوم بها القديس أو رجال الدين في الملل الأخرى، فالعلاقة مُباشرة بين العبد وربِّه، وإذا ما خلا العبدُ إلى نفسه ودعا مولاه، واستغفرهُ فإنه يستشعر حلاوة الإيمان، وبساطة المعتقد الذي تميل إليه الفطرة، وصدق القائل في محكم كتابه العزيز ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، (سورة البقرة، آية: ١٨٦).

مفكرو الغرب بين التمسك بالمعتقد والرؤية الحضارية للإسلام[1]

* يُقرُّ المُفكِّر الأمريكي «صامويل هنتغتون» في مقاله الذي أحدث ضجة منذ عام ١٩٩٣م «صدام الحضارات» «إن تَقسيم العالم القائم على الحرب الباردة قد انتهى، وانقسامات البشرية على أساس العُرْفِ والدِّين والحضارة تظل كما هي، وتفرَّخ صراعاتٍ جديدة، فخلال العُقود الأخيرة من القرْن العشرين، زاد عدد كل من المسلمين والمسيحيين في أفريقيا وحصل تحول رئيسي في المسيحية في كوريا الجنوبية».

«انظر: صدام الحضارات للمفكر الأمريكي «هنتغتون» بالعربية، الحياة، ١٦ إبريل، ١٩٩٩م».

* * وهذا الإقرارُ بأن الدِّين يلعب دوراً كبيراً في المجتمعات الغربية، ليس بالأمر الجديد على المفكرين الغربيين الذين يعتبر «هنتغتون» من أبرزهم في العصر الحديث، ولكنّه الأمر الذي يتطلب أن يقف عنده بعض من المفكرين العرب الذين يسعون ـ ما وسعم الجهد ـ على أن ينبذ المجتمع الإسلامي عقيدته وتقاليده، ويلحق بالمجتمع الغربي لأن هذا الأخير من وجهة نظرهم مجتمع «ليبرالي» ليس للديانة المسيحية أي تأثير

(١) العدد ٩.

عليه، وهذا وهم وقع فيه أولئك الكتّاب الذين لم ينفذوا إلى أعماق هذا المجتمع ويتعرَّفوا على أنماط الحياة المختلفة ـ فيه ـ الاجتماعية والسياسية والفكرية ومدى تأثيرها بالرؤية الدينية المسيحية فيه، وقد سئل ـ المفكر والسِّياسي البريطاني المعروف «إدوارد هيث» Edward-Heath عمَّا تتميز به المؤسسة السياسية المحافظة في بريطانيا فأجاب على الفور «إننا ديمقراطيون مسيحيون Christian democrad، كما سُئِلتْ الزعيمة المحافظة «تاتشر» التي ورثت الزعامة بعد هيث وهي ذاهبة إلى الكنيسة أثناء حرب «الفولكلاندز» (Falklands)، هل ذهابها بسبب واقعة الحرب بين «بريطانيا» و «الأرجنتين»، فكانت إجابتها «إننّا ـ دوماً ـ نصلي»، وعلى رغم اختلافها الشديد مع حزب العُمال إلا أنها كانت ترتبط بعلاقةٍ شديدةٍ مع بعض أعضائه الملتزمين بالديانة المسيحية فهي في مذكراتها التي تجاوزت «٦٥٠ صفحة» والتي خرجت عن دار (Harper-Collins) للنشر في عام ١٩٩٥م وأطلقت عليها اسم: The, PATH, To, Power، تضفي صفات القداسة والتبجيل على زعيم العمَّال السابق «هارولد ويلسون». فتذكر أنه صاحب مبادئ ومعلوم عن «ويلسون» أنه مسيحي متديِّن، وهذا سِرُّ ارتباطه بزوجة متدينة وهي (Mary) فلقد كان والدها واعظاً في الكنيسة، وكانت تاتشر معجبة بالمتحدث باسم مجلس العموم ـ وهو نائبٌ عمّالي مشهورٌ ـ جورج توماس Thomas George، وذلك لشدّة ارتباطه بالديانة المسيحية ولإيمانه بمقولة أرض الميعاد اليهودية، وهذا الإيمان قاده في أواخر السبعينيات الميلادية لاستقبال الزعيم الإرهابي اليهودي «مناحيم بيجن»، ولقد هدى هذا الأخير نسخة من «التوراة» القديمة له ومن أراد التأكد من هذه المعلومات فليرجع إلى مذكرات جورج توماس التي خرجت في عام ١٩٨٥م، بعنوان «مذكرات فيكونت توني باندي». The, Memoris, of

viscount, Tony pany، وقد نشر «توماس» المذكرات بعد أن ضمنت «مارجريت تاتشر»، «ولورد»، ويعترفُ «توماس» بأنه في الوقت الذي ضنّ عليه ابن مقاطعته «ويلز» الرئيس العمالي «جيمس كالاهان» بهذا التكريم، عندما كان صاحب القرار في دوانغ ستريت ١٩٧٦م ـ ١٩٨٠م، عوضته «تاتشر» بهذا التكريم، ولم تكن هذه السابقة الوحيدة التي كرَّمت فيها «تاتشر» زميلاً معارضاً لقربه منها دينياً فإنها فعلت الأمر ذاته ـ مع «ويلسون»، فهو لم يكن على وفاقٍ مع رفيق مسيرته في الحزب «مايكل فووت» فرفع الأخير قائمة بأسماء المكرمين من حزب «العمال ـ بصفته ـ زعيماً للمعارضة ١٩٨٠ ـ ١٩٨٣م، فلم تر «تاتشر» اسم «ويلسون» بين الأسماء المكرَّمة، وعندما سألت «فووت» عن باعث سلوكه السلبي إزاء «ويلسون» أجابها «بأن الزعيم السابق لن يستطيع بسبب «سنه» خدمة أهداف العُمَّال» في مجلس اللوردات، فلم تقتنع المرأة الحديدية بهذا التبرير، فأضافتْ هي اسمه ضمن قائمة المحافظين ودعته ـ بحافز المنطلقات الدينية المشتركة «المسيحية ـ اليهودية» إلى «دوانغ ستريت» وكرَّمته فانطلق مبتسماً ومُمتنًّا لها.

وعندما توفي «إريك هيفر» Eric-Heffer وكان نائباً عُمَّالياً ينتمي لليسار المتشدد، ولكن ليس مثل بعض اليساريين العرب الذين يتخلون عن دينهم، ويتنصَّلون من معتقداتهم وتقاليدهم وتراثهم، بل كان «هيفر» كما ذكرت صحيفة «التَّايمز» اللندنية «شديد التمسُّك بالتعاليم الإنجليكانية».

High-Anglican، ولقد أدَّى به هذه الارتباط العملي بالدِّيانة المسيحية ـ حيث كان يتردد على الكنيسة بصورةٍ دائمة ـ إلى تأليفه لكتاب قبل وفاته عن الدين المسيحي، توفي «هيفر» فشُوهدت «تاتشر» وهي منطلقة للصلاة

عليه وعندما سئلت ما الذي ترى يربطها وهي اليمينية المحافظة بـــ «هيفر اليساري» أجابت دون تردد «إنه الدِّينُ المسيحي»، وكثيراً ما كانت تعطف على النائب العمالي Shinwell لأنه يهودي ملتزم.

أعْلَمُ أن هذه الأمثلة العديدة من بريطانيا وغيرها من الولايات المتحدة حيث معظم الذين حلوا في البيت الأبيض الأمريكي جمهوريين كانوا، أمْ ديمقراطيين، يعتزون بمعتقدهم الدِّيني،ولنْ نعْدم الأمثلة فذلك «كارتر» الديمقراطي، والآخر «ريغان» الجمهوري، بل إن دراسة حديثة قامت بها جامعة «ويلز» البريطانية وتحت إشراف البروفسور «ويليام روبنشتاين» «الحياة»، ١٥ مارس، ١٩٩٩م أثبتتْ أن كاتب الوثيقة البريطانية المعروفة باسم «وعد بلفور» والتي صدرت سنة ١٩١٧م،هو يهودي سرِّي واسمُهُ «ليوبولد أميري» Amery، هذه الأمثلة الموثقة لن توقظ النخبة التي اعتنقت الشيوعية وأيديولوجيتها المحنَّطة من المحسوبين على أمَّة العروبة والإسلام والتي كانت شيوعية وماركسية أكثر من الشُّيوعيين والماركسيين في «الكرملين» في زمن الحرب الباردة، والتي ظلت تعض ـ مُتشبثة ـ بالنواجذ على «المنفيستو الشيوعي» وكأنها لم تتنبَّه أو تدرك أن هذه الأيديولوجيات قد أضْحتْ من مخلفات الماضي، بل إنها تثيرُ كثيراً من السُّخْف والاستهزاء في الأوساط الفكرية الغربية، كما أن هذه المتغيِّرات والحقائق لن تحرِّك ضمائر أولئك الذين تجمَّعوا خلف الجزَّار الصربي «ميلوفيتش» وتضامنُوا معه، وهم يُشاهدُون محرقة العصر الحقيقية التي تعرَّض لها مُسلمُو «كوسُفو»، وكان تضامنهم مع السَّفاح الشُّيوعي على شكل وفود تؤم «بلغراد» ويتحدث أصحابها باسم الفكر العربي، مع أنهُ كان بإمكانهم أنْ يُلاحظوا أن الأحزاب الاشتراكية وفي مُقدمتها حزب العمَّال البريطاني قد

شطبُوا مُصْطلح «الاشتراكية» من بيانات أحزابهم، ولعلهم لغفلتهم، وسذاجتهم، وخيانتهم لأمَّة الإسلام والعروبة لم يعرفوا أن الزَّعيم العُمَّالي البريطاني الحالي «بلير» كما ذكر الكاتب البريطاني «سيريل تاونسند» هو مسيحي ملتزم، ويأخذ في عطلة كل أسبوع أبناءه وبقية أفراد أسرته إلى «الكنيسة» لممارسة الشّعائر الدِّينية المسيحية.

وإذا كنَّا بدأنا الحديث بـ «هنتغتون» ومقولته التي ضمَّنها هذه العبارة الهامة «على المدى الطويل «محمد» سينتصر» وهو يقصد أن التَّعاليم التي جاء بها النبيّ الخاتمُ سيّدنا مُحمَّد ـ ﷺ ـ هي التي سوف يكتب لها النَّجاح والتفوق، وذلك لما تتضمنه هذه التعاليم من وسطية واعتدال إضافة إلى توافقها مع الفطرة البشرية السَّوية.

فلا بُدَّ لنا أن نختم هذه المقالة التي تكْفي واعظاً للمُبشّرين «بالتَّغريب» والدَّاعين إليه من أبْناء العُروبة والإسلام، أكثر من الغربيين ـ أنفسهم ـ بما ذكره المفكر الغربي المعروف «أرنولدتوينبي» في كتابه المعروف «الإسلام، والغرب، والمستقبل» وهو في الأصل محاضرتان كان "Aronold-Toynbee" ألقاهُما في عامي: ١٩٤٧ ـ ١٩٥٢م، ففي معرض حديثه عن التَّفاعلات التي حدثت بين الإسلام والغرب، وخصوصاً ـ أثناء الحرُوب الصليبية التي قادتها أوروبا ضد العالم الإسلامي. يقول «توينبي» مُحللاً آثار ذلك الصَّراع: «وخرج الإسلام منتصراً ـ كما خرجت المسيحيّةُ قبلهُ ـ من معركة الحياة والموت هذه، فلقد أسلم مغول آسيا الوسطى،وطرد الغزاة الفرنجة، والكسْبُ الإقليمي الدَّائم الوحيد الذي حصلتْ عليه المسيحية وهو ضمُّ المناطق الإسلامية في صقلية والأندلس إلى العالم المسيحي».

ويعترف توينبي ـ وربما لن يُسر هذا الاعتراف أولئك المنبتين عن

حضارة أمتهم، وتراثها الخالد، ويتمنون لو أنَّهم كانُوا صُمًّا حتى لا تأخُذَهم الدَّهشة باعتراف مُفكر غربي يعتدُ برأيه مثل «توينبي» بالأثر الذي تركهُ الإسلام على أوروبا التي كانت تعي ـ آنذاك ـ عصور الظلام.

قول... توينبي «أما النتائج التي جناها ـ الغرب ـ على الصعيدين الاقتصادي والثقافي من احتلال الصَّليبيين المؤقت لقسم من العالم الإسلامي، فقد كان أهم بكثير من الكسب الإقليمي وتوسيع رقعة الأرض، لقد أسر الإسلام «المغلوب» «غالبيه» وأدخل فنون الحضارة إلى حياة العالم المسيحي وقد كانت حياة لاتينية صدئة».

«انظر: أرنولد توينبي، الإسلام والغرب والمستقبل» تعريب د. نبيل صُبْحي، ط١، ١٣٨٩هـ، ١٩٦٩م، ص ٣٢ ـ ٣٤».

القضية الفلسطينية والإعلام الغربي(*)

لا يمكن أن نفصل بين الإعلام الغربي وانحيازه للحركة الصهيونية منذ نشوء الكيان الصهيوني حتى الوقت الحاضر عن جملة المعطيات الدينية والفكرية والثقافية في المجتمع الغربي واعتباره اليهودي شخصاً منزهاً عن اقتراف الخطيئة ـ وذلك لتأثير العهد القديم ـ على العهد الجديد، لتصبح الرؤى اليهودية هي المسيطرة والغالبة على التفكير المسيحي ويضحى المسيحي ناظراً إلى الشخصية اليهودية نظرة فيها الكثير من التقديس والتبجيل، وهذه الرؤية المنبثقة من الترهات والأساطير التلمودية هي التي تكون من خلالها التيار المسيحي المتطرف وهو التيار الذي أوصل الممثل رونالد ريجان إلى السلطة ومن بعده جورج بوش الابن، وهو التيار الذي يحرك المؤسسة السياسية في الولايات المتحدة وفي بعض البلدان الغربية الأخرى ولهذا لا يمكن تفسير الحظوة التي يتمتع بها السفاح آريل شارون داخل هذه المؤسسات إلا عن طريق الربط بين هذه النظرة الدينية المغلفة بقشرة علمانية رقيقة وبين اعتبار (شارون) الملك اليهودي المتوج.

ثم يأتي بعد ذلك عامل هام في تغذية هذه الرؤية المنحازة ضد العالم

(*) **المصدر**: ملحق الأربعاء (صحيفة المدينة المنورة) الأربعاء ٩ ذو القعدة ١٤٢٢هـ/٢٣ يناير ٢٠٠٢م.

العربي عامة والفلسطينيين ـ خاصة ـ وهي الشعور الذي أفلحت الصهيونية في ترسيخه داخل العقلية الغربية ـ وهو الإحساس بالذنب ـ ضد جرائم الهولوكوست التي بالغت الحركة الصهيونية في تضخيم أعداد ضحاياها وقصرها على اليهود، مع أن أمماً أخرى ومن بينها الأمة العربية عانت مما أطلق عليه في القاموس السياسي الحديث بمصطلح (أعداء السامية).

لكن لا بد من الإقرار بأن أجيالاً حديثة تخلصت من هذه العقدة واستطاعت أن ترى بوضوح المأساة الفلسطينية، ولهذا نجد أصواتاً تتحدث بكل حرية في الوسط الإعلامي الغربي ـ والبريطاني ـ خاصة منه، مثل روبرت فيسك، وروجيه جارودي وباتريك سييل ومن قبل مايكل آدمز، وديفيد هيرست، وإن ظلت مجلة الإيكونومست The Economist الشهيرة منذ عام ١٩٧٢م وهي الحقبة التي كان فيها الصحافي المعروف Alastair Burnet مسؤولاً عن تحرير هذه المجلة.لقد ظلت هذه المجلة الكثيرة الانتشار حبيسة النظرة الآحادية للصراع العربي ـ الإسرائيلي ـ ولم تستطع أن تتجاوز هاجس الخوف الذي سكن عقول كتابها في الخوف من اللوبي اليهودي ومحاولة استرضائه على حساب الحقيقة، وقد أخذت (الإيكونومست) دور المجلة التي كانت الموافقة القوية عن الحركة الصهيونية في بريطانيا، وهي المعروفة باسم New Statesma والتي تحولت على يد الصحافي القدير (أنتوني هاورد) Anthony Howaerd إلى مطبوعة محايدة بعد أن عاث فيها فساداً المنظر العمالي المعروف بولائه المزدوج لإسرائيل ريتشارد كراسمان Richard crassman.

هناك عامل هام يغيب عن ذهن بعض الباحثين في أسباب الانحياز الغربي لإسرائيل هذا العامل يتصل بمكونات الحضارة الغربية المعاصرة

واليهود عاشوا في العصر الحديث في ظل هذه الحضارة وإن كانت حقبتهم الذهبية كما يعترف الوزير الإسرائيلي المعروف (أبايبان) في مذكراته ـ هي الحقبة التي عاشوها في ظل الدولة العربية في الأندلس، والدولة العثمانية الإسلامية، وهذه الأخيرة أوتهم بعد أن تعرضوا لظلم محاكم التفتيش المسيحي على حد سواء مع المسلمين واضطر المسلمون في الأندلس للهجرة لبلاد المغرب العربي، ويمكن رؤية تأثير هذا العامل المادي في العقلية الغربية في احترامه للسفاحين الإسرائيليين من أمثال بيجين وشامير وشارون فهؤلاء أقرب إلى العقلية الغربية من ديفيد بن جوريون وموشي ديان، وإسحاق رابين، لأن العصابات الإرهابية (الهاغاناة) و(شينزن) هي الأقدر على سفح الدم العربي ويحاول الغرب على الحفاظ ـ بطرق عدة ـ على ما تبقى من رموز هذه الحركة وهو (شارون) فقتل (شارون) و(موفاز) وجنودهم للطفل جمال الدرة، والطفلة إيمان حجو، والتعرض للأطفال الفلسطينيين وهم ذاهبون لمدارسهم كل صباح وزرع الألغام في طريقهم ثم رؤية جثثهم البريئة تتطاير، هذه المناظر الوحشية والنازية لن تثير شفقة الغربي، فهو من جهة معجب بالقوة الإسرائيلية بكل أشكالها ومظاهرها، ومن جهة أخرى هو اعتقاده في السفاحين الإسرائيليين بأنهم (الأولياء) الذين يباركون الآخرين.

خالد سعود الزَّيْد. . بين إبداع الفكر وتهذيب النفس(*)

حمل إلي الزميل الدكتور جميل مغربي نبأ وفاة الأديب الكبير خالد سعود الزَّيد، وقد عدت إلى منزلي في تلك الليلة الرَّمضانية متسائلاً؟ لماذا هذه القطيعة الثقافية بيننا في ديار العروبة والإسلام، فالأديب الكويتي الكبير «الزَّيْد» تجاوزت كتاباته وإبداعاته حدود البيئة التي نشأ فيها، فالمرحوم ـ الزَّيْد ـ كان يحمل من هموم أمته ما يجعله جديراً بكثير من الحب والتقدير، وإن عزَّ تقديم ذلك في حياته، فلعلَّ مؤسسات الفكر في الخليج العربي ـ عامَّة ـ تحتفي برجل استمرَّ عطاؤه منذ بداية الثمانينيات الهجرية ـ الستينات الميلادية واستمر حتى وفاته قبل شهر رمضان المبارك من عام ١٤٢٢هـ.

ولعله من المفارقات العجيبة أنني عرفت الأديب الزَّيْد في ديار الغربة وعندما كنت أحضِّر لدرجة الدكتوراه في الأدب العربي في جامعة مانشستر المعروفة بجامعة «فكتوريا» فلقد انتقلت مع نهاية عام ١٩٨٢م من جامعة

(*) **المصدر**: مجلة أهلاً وسهلاً، السنة ٢٦، شوال ـ ذو القعدة ١٤٢٢هـ ـ يناير ٢٠٠٢م/ العدد ١، ص ٣٦ ـ ٣٧.

لانكستر إلى جامعة مانشستر ـ اضطراراً ـ فلقد أُحيل أستاذي البروفسور وليد عرفات إلى التقاعد المبكر، وقد انتقل «عرفات» من معهد الدراسات العربية والإفريقية بجامعة لندن بعد أن أمضى ردحاً من الزمن في تلك الدائرة العلمية التي تخرج فيها عدد كبير من رواد الكلمة في العالم العربي مثل الدكتورة سلمى خضراء الجيُّوسي على رسالتها النقدية حول التيارات الأدبية في الأدب العربي الحديث والتي صدرت عن دار بريل في عام ١٩٧٧م، في جزءين، وتحمل هذه الدراسة التي قدمت باللغة الإنجليزية العنوان التالي: TRENDS AND MOVEMENTS IN MODERN ARABIC POETRY.

ودرس في الدائرة نفسها ـ أساتذتنا الدَّكاترة، منصور الحازمي، وحسن باجودة، وحسن شاذلي فرهود، وجميعهم ممن قدم عرفات لهم ما يستطيعه، فلقد كان حفياً بالطلاب العرب وحريصاً على تهيئتهم للعمل الأكاديمي والدراسة الجادَّة.

أغلق قسم الدراسات العربية والإسلامية بجامعة لانكستر والتي ظلت الكويت تموِّله لسنين عدَّة، ثم جاءت حكومة تاتشر المحافظة في عام ١٩٧٩م، وكان من ضمن أولويات برنامجها الاقتصادي تخفيض المساعدات المقدّمة للجامعات البريطانية. . .ذهب عرفات وجاء إدموند بوزورث ـ محرر الموسوعة الإسلامية ـ فلقد حملت إليه أوراقي فقبلني طالب دراسات عليا على شرط أن أحصل على تزكية من وليد عرفات، وكان عرفات صعباً في تقديم مثل هذه التزكيات ولكنه فعل معي ونظر إليَّ يقول «منذ زمن كان الأساتذة يسرقون طلاب بعضهم البعض» وكان يشير بهذا إلى لقائي الأول بالبروفسور «بوزورث» في رحاب جامعة «لانكستر»

حيث انعقد مؤتمر دراسات الشرق الأوسط، وكان من ضمن الحضور الأساتذة الكرام الدكتور محمد الهدلق، ومحمد السديس من جامعة الملك سعود.

لم أكن أعلم بالصلة الوثيقة التي كانت تربط الأستاذ بوزورث C. B. Bosworth برجال الفكر والأدب في البلد الشقيق الكويت، وكان القسم يعقد في كل فصل دراسي ندوات علمية يدعى إليها متخصصون في الأدب العربي من داخل بريطانيا وخارجها، من أمثال محمد عيسى صالحية، وديفيد وينز، والبروفسور ليْثم.

كان يوماً ممطراً من أيام الشتاء الشديد الوطأة على الجسم والنفس ـ معاً ـ ويبدو أنه شتاء عام ١٩٨٤م ـ وكنا على موعد مع محاضرة للأستاذ خالد سعود الزَّيْد عن تطورات دلالات الأمثال العامية. ويبدو أن اهتمامات المرحوم الزيد بالأمثال تعود إلى حقبة طويلة فلقد ذكر الباحث الدكتور علي عاشور الجعفر في مقال له بصحيفة الوطن الكويتية «١٠/٩/١٤٢٢هـ» أن مفهوم الهوية الخاص بتراث بلده ـ أي الكويت ـ كانت مرتبطة مع «الزَّيْد» منذ زمن مبكِّر من عمره، وكان صدور كتابه «من الأمثال العاميّة» عام ١٩٦١م حدثاً متميزاً، جعل ناقداً مثل الدكتور سليمان الشَّطي يصف دور الزيد الذي قام به في جمع الأمثال بدور الرائد «انظر: خالد سعود الزيد، نجم كويتي غاب عن سمائنا، الحلقة الثانية، الثقافي، الوطن الكويتية، ١٠/٩/١٤٢٢هـ».

كان الأستاذ الزَّيْد بسيطاً في كل شيء في لباسه، وحديثه وصريحاً فيما يعتقد أنه حق من وجهة نظره، ولهذا أتحدث أمام الزملاء الذين كانوا يدرسون في قسم الدراسات العربية بجامعة «مانشستر» أنه منشغل بدراسة

التصوّف الإسلامي، وذكرت أمام المرحوم «كتاب الإمام المحاسبي» (المتوفى سنة ٢٤٣هـ) «الرعاية لحقوق الله»، سألني ـ رحمه الله ـ متى قرأت الكتاب وأجبت كان ذلك في الحرم النبوي الشريف عام ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م، تبسم متعجباً، وأجاب في تواضع «لم أسقط في هذا العلم إلا متأخراً» أتذكر كلمته ذات الدلالة البعيدة «أسقط»، وشاهدت أستاذنا الزَّيْد متأملاً سابحاً في عوالم الملكوت، وكانت هذه المسحة الإيمانية الفطرية مما ربطني به وكنت أزوره في المنزل الذي استقرَّ فيه ضيفاً على الجامعة البريطانية المذكورة، فلقد كان ـ رحمه الله ـ صريحاً إلى أبعد الحدود فهو متحمس آنذاك في بداية الثمانينيات الميلادية لإنشاء مجلس التعاون الخليجي ولكنه يسعى لأن يكون لبلده خصوصيته في كل شيء ـ وكنت أرى على عكس رأي بعض الزملاء أن هذا حق من حقوقه كمفكر وأديب ومواطن.

طلبت منه الورقة التي ألقاها علينا عن تطور الأمثال العامية، ونشرتها كاملة في مجلة الطالب الصادرة عن منتدى الطلاب السعوديين في بريطانيا، والتي تشرفت برئاسة تحريرها إبان رئاسة الزميل الدكتور عصام بن يحيى الفيلالي للنادي، وكان الزميل المؤرخ الدكتور محمد آل زلفة يعاضدني كنائب لرئيس التحرير، رغم مشاغله البحثية مع أستاذه «سارجنت» في جامعة «كمبردج».

ولقد حمدت للأستاذ الزَّيْد عطفه على طلاب من أرض فلسطين كانوا يدرسون في القسم، وهم من عرب ١٩٤٨م، وكانوا يحملون حساً إسلامياً ووطنياً عربياً لم نكن نتوقع وجوده بينهم، وهذا من الأخطاء التي يجب معالجتها، فهؤلاء الأخوة رغم عيشهم داخل الكيان العنصري الإسرائيلي،

إلا أنهم يشعرون بأنهم جزء من الوطن العربي ـ عامة ـ والأراضي الفلسطينية المحتلة ـ خاصة ـ وعندما أقرأ اليوم ما يكتبه «عزمي بشارة»، وما يتحدث به عن قضايا الأمة ـ أدرك حجم هذه الثروة البشرية التي تعاني من العنصرية الإسرائيلية البغيضة ما تعاني، وأنها تحتاج لدعم عربي قوي ومشترك.

ويوم تحررت الكويت من الغزو الصدامي الغاشم، حل بأرضنا ـ موئل العروبة والإسلام ـ وفد كويتي رفيع، جاء ليقدم الشكر لحكومة خادم الحرمين الشريفين والشعب السعودي على موقفه النبيل إزاء أشقائه في الكويت، فقرأت في الصحف أن الأستاذ الزَّيْد، والذي كان ـ يوماً ـ رئيساً لرابطة الأدباء الكويتيين، كان من ضمن أفراد هذا الوفد الكريم.

عبد العزيز قاسم. . وتراجيديا الصحافة(*)

لا أتذكر متى قرأت لأول مرة للزميل الأستاذ عبد العزيز قاسم، ولكن ما لفت نظري هو ذلك الحس الصحافي المتميز الذي أبداه عندما أسندت إليه رئاسة تحرير صحيفة المدينة الإشراف على ملحق الرسالة بالعدد الأسبوعي، لقد ذكرتني تلك البداية القوية ببروز الزميل الدكتور محمد يعقوب تركستاني في منتصف التسعينيات الهجرية عندما أصدر ملحق التراث في صفحة واحدة بدعم واحد من فرسان الصحافة المتميزين وهو الأستاذ أحمد محمود.

ثم انضم الزميل «قاسم» لأسرة تحرير صحيفة البلاد، فكانت تلك الانطلاقة القوية للعدد الأسبوعي من هذه الصحيفة العريقة فلقد جسد هذا العدد قدرات هذا الشاب ومواهبه الفكرية والصحافية ـ على حد سواء ـ فكانت تلك المكاشفات الجريئة التي لم نعهدها في صحافتنا الحديثة من قبل، واستطاعت أسرة التحرير في الصحيفة أن توفر لهذا العدد ما لم توفره صفحات وملاحق ثقافية ادعت التعددية إلا أنها انحازت بصورة مزعجة لرأي واحد وفكر أراد له أصحابه البروز ـ بصورة تعسفية ـ فكان السقوط المريع من داخل ذلك التوجه الفكري وليس من خارجه، مع أنه

(*) **المصدر**: جريدة البلاد (عدد ١٦٦٠٠) الاثنين ١١ فبراير ٢٠٠٢م/٢٨ ذو القعدة ١٤٢٢هـ.

كان بالإمكان أن يحقق هذا التيار الفكري ما كانت تطمح إليه الساحة من انبثاق منبر يبعد الساحة عن التشدد الذي شهدته في الثمانينيات وأوائل التسعينيات الميلادية.

لا شك أن أخذ ملحق الأربعاء في صحيفة المدينة، والعدد الأسبوعي من صحيفة البلاد، بتوجه يفسح المجال لجميع التيارات الفكرية والأدبية أن تعبر عن رأيها وتقول كلمتها دون خوف، أو غبن، قد أدى بجميع الملاحق الفكرية والثقافية أن تعيد النظر فتحقق ما كنا ندعو إليه منذ زمن وهو إمكانية تجاور الرؤى الفكرية دون ضيم أو حيف من أحدها على الآخر، وإنني لأحمد ـ هنا ـ للزملاء الكرام في عكاظ، سعيد السريحي، وأحمد عائل فقيهي، وعبده خال إدراكهم المبكر لهذا التغيير ومسايرتهم للرؤية التعددية التي ساهمت ـ حقاً في توثيق عرى الألفة بين جميع الفرقاء في الساحة، ولقد اعترف بهذا الزميل والصديق الكريم «الخال» عندما كتب عن صديقنا المشترك «أبي غنوة» الأستاذ محمد صادق دياب بعد تسلمه لرئاسة تحرير «اقرأ» مؤكداً أن توجه الثنائي الدياب ـ والحسون في الأربعاء في الماضي في إفساح المجال أمام الجميع ليقول كلمته هو التوجه الذي استقرت جذوره في الساحة ولا بد من الاعتراف بأن الزملاء الكرام، عبد الله سلمان، ومحمد إبراهيم عبد الستار، وفهد الشريف قد ساروا في نفس الدرب واستلهموا ذلك المفهوم الواقعي والصادق للصحافة الفكرية والأدبية وكيف يمكن أن يقود هذا المفهوم لإثراء الساحة الأدبية بما هو مفيد ونافع لمسيرة الثقافة العربية، وما دام الحديث قد أخذنا للأربعاء فلا بد من إنصاف أديبنا الكبير السيد عبد الله جفري الذي وضع اللبنات الأولى لملحق الأربعاء الأغر.

لقد استطاع عبد العزيز قاسم ببراعته الصحافية أن يشد جميع التيارات لتقول رأيها في صراحة واعتدال فكان أن سمعنا أصوات سعيد السريحي، ومحمد سعيد طيب وعائض القرني، ومحسن العواجي، وغيرهم، ولم يتحيز قاسم لرأي دون آخر، بل إنه بشجاعته الصحافية قد أزال ما علق بالأذهان في الماضي من أنه لا يمكن للأفكار أن تتعايش وللآراء أن تتلاحق وللخصوم أن يجتمعوا على مائدة واحدة رغم اختلاف أذواقهم ومشاربهم.

انسحاب عبد العزيز قاسم من الساحة، ذكرني بانسحاب منصور عثمان ـ ذلك الشاب المهذب الذي قيل لي إنه استقر في الجزيرة ـ أخيراً ـ وإذا كان الأمر كذلك فإن ذلك يحسب للزميل المخضرم الأستاذ الكبير خالد المالك.

وشعرت بكثير من الحزن واسترجعت على عجل تلك العقبات التي واجهتنا في بداية المشوار الصحافي والكتابة الأدبية قبل ثلاثة عقود من الزمن، ولكننا لم نيأس ولم نلق السلاح آخذين بقول الشاعر العربي القديم:

جاء شقيق عارضاً رمحه

إن بني قومك فيهم رماح

لقد كان من أدب عبد العزيز أن أثنى ـ عندما هاتفته ـ مستفسراً عن انسحابه المفاجئ على أسرة التحرير في البلاد ومعاضدتهم له.

وقال في اقتضاب إنه «موقف» ترى هل نعي مثل هذا الموقف؟!

الصلة بين التبشير الديني والفكر الغربي المعاصر(*)

تناقلت الصحف العربية أخبار حركة التنصير التي انتشرت بصورة كبيرة في بلد كان يمثل قلعة من قلاع الإسلام والعروبة، بل ارتبط هذا البلد ـ ونعني به الجزائر ـ في أذهان شباب الأمس وكهول اليوم في جميع أقطار العروبة والإسلام بثورته الضارية ضد المستعمر الفرنسي، وهي ثورة استمدت وهجها من روح الإسلام الذي يأمر بمقاومة الظلم وعدم الاستكانة أو الخضوع، وهذا سر من أسرار الإسلام الذي لن تنطفئ جذوته، ولن يخبو نوره، وسيظل صامداً ـ بإذن الله ـ أما الهجمات الشرسة عليه كما صمد في الماضي أمام هجمات التتار، والحروب الصليبية التي تولدت عنها ـ فيما بعد ـ الهجمة الاستعمارية الشرسة والحركة الصهيونية العنصرية.

تسلل منسكباً من النافذة العلوية يجر ذيله المنزوع شعره.. بلونه النحاسي اللامع.. وصدره المليء بالعضلات المتعارضة.. وبطنه المتماوج الضخم.

(*) **المصدر**: مجلة أهلاً وسهلاً، السنة ٢٥، العدد ٨ ـ جمادى الأولى/ جمادى الآخرة ١٤٢٢هـ/ أغسطس ٢٠٠١م.

اقترب من (سعيد) النائم على ظهره ليقبض على رقبته بيد كثة الشعر طويلة المخالب. . حاول (سعيد) أن ينهض عن فراشه ويهرب، ولكنه جثم على صدره بحجمه الهائل، وعينيه اللتين تطلقان شعاعاً أزرق ينذر بالموت.

تململ (سعيد) وحرك كتفيه. . ورفس بقدميه. . وأدرك أن الموت آت لا محالة. . خصوصاً وأنه لا يستطيع التنفس.

حاول أن يسعل. . فلم يستطع. . وعزم على الصراخ فكان أن صدر عنه أنين مفزع جعل زوجته توقظه وهي تسمي وتهلل:

ـ لا بد أنه (الجثام).

كان (سعيد) يعاني من سوء الهضم وتكرار الكوابيس المزعجة، خصوصاً عندما يلتهم جزءاً من ذنب الخروف في وجبته المسائية.

(سعيد) لم يعرف السعادة في نومه فهو دائماً فريسة (الجثام) في نوبات يئن فيها ويصدر شخيراً مزعجاً. . ثم لا يلبث أن يصرخ صرخة مرعبة محاولاً استعادة نفسه المقطوع.

كانت زوجته قد هجرت فراشه مضطرة إلى حجرة أخرى رغم أنها عروس جديدة. . نومها خفيف. . والنوم حوله أصعب من النوم على قارعة الطريق المزدحم في غمرة زلزال.

* * *

(سعيد) الذي كان في الماضي طفلاً لا يختلف كثيراً عن أطفال البلدة المنطلقين المتنقلين طوال اليوم من زقاق. . لزقاق. . لوادي يطاردون ظلال اللعب. . بشقاوة يندر أن تجدها حتى في كلاب الأزقة التائهة. . يسرقون الثمار اليانعة من البساتين. . يعتلون أغصان الأشجار الباسقة. . . يبللون

ملابسهم بمياه الغدران الخضراء.

لم يكن وارداً في حسبان أهل البلدة أن شقاوتهم الطفولية ستنتهي يوماً.. حتى بعد وقوع الحادث الأليم.. حيث غرق زميلهم (أحمد) في بئر مهجورة كانوا يلعبون حولها رغم تحذيرات شيوخ القرية بأن البئر مشؤومة.

فما هي إلا أيام وعادت الشقاوة إليهم جميعاً إلا (سعيد)!!

لقد أصابه هلع وشرود وتبدل عجيب في السلوك، جعل أهل بلدته يعتقدون أنه قد نضج قبل أوانه.

لقد كانت جنازة حزينة..

حزنها أسود لن تجليه السنون عن قلب (سعيد).. لقد فكر كثيراً.. وتردد.. ولكنه عزم في النهاية على أن يسجن لسانه للأبد خلف قضبان الجبن، والكلام لا يعيد الأموات.

لقد كان آخر من رأى (أحمد) ولاعبه.. وكان هو من أراد المزاح معه برعونة بليدة، فدفعه إلى الخلف غير مدرك بأن حافة البئر قريبة.. خداع بصري أحدثته الأعشاب.

صرخ (أحمد) بصوت امتدت ذبذباته إلى أعماق (سعيد).. صرخة يعجز الأطفال عن تقليدها.

تجمع حوله أصحابه.. . سألوه:

ـ ما الذي حصل؟.. ليرد بلسان مرتعد:

ـ لا أدري سمعت صوت استغاثة (أحمد)، ربما سقط في البئر!

* * *

صدقه الأطفال.. وأهاليهم لم يشكوا بكلامه.. حتى إن (أم أحمد) تعاطفت وتألمت لحزن (سعيد) صديق وحبيب ابنها.. فاحتضنته ليغرق في دموعها على صدرها المنتفض، ليتمنى لو تشبث بضفائرها لينجو من الغرق.

تعاقبت الليالي و(سعيد) يعاني من ظلمة موحشة في داخله مهما أشعلوا حوله من مصابيح.. يرى في الزوايا أشباحاً.. وفي الأغطية أرواحاً.. فيدفن وجهه الصغير إلى جنب أمه كل ليلة حتى يصبح.

كذب كذبة صغيرة ما لبثت أن تفرعت كبذرة مسحورة.. وتعالت أغصانها حتى سدت كل معبر للأمان والصدق من حوله.. اختاره الصمت.. وزاملته الوحدة.. واستراح في الزوايا البعيدة.

(أحمد) لم ينسَ ثأره.. كان يرسل له من عالم الأرواح كل ليلة منتقماً.. مرة على شكل إنسان.. وتارة حيوان.. وأخرى مسخ لم ير مثيلاً له.. غير أنهم كانوا يجمعون على نهاية محتومة لـ (سعيد) حين يطبقون على عنقه جزاء له لإغراق (أحمد).

جبنه لحظة جعل القصاص آلاف المرات.. حتى موقع البئر القديم المحوط بالشجيرات الحرشية والأعشاب الطويلة المسمارية لم يزره منذ ذلك اليوم الأليم.

كان يخشى أن تلتف حول رقبته الأغصان قصاصاً لـ (أحمد).. كان يؤمن بأن روحه ما زالت تحوم هناك كأفعى مبرقشة تتقلب فوق الصخور الخضراء، وتنتظر متأهبة راغبة في الانتقام.

لقد عرضت له ألف فرصة لزيارة البئر.. غير أنه كان يهرب عن غورها الأسود.. إلى أحضان (الجثام).

لقد شاركت روح (أحمد) في كل شيء.. حتى في ليالي عرسه وما تبعها منعزلة وشرود.

قرر أن يحكي لزوجته الشاكية لكل من يسألها.. غير أنه خشي على سره من لسانها المتذبذب.

وفي ذلك اليوم الموعود استجمع كلما تبقى له من عزم... وقرر... فما الذي سيناله من نظرة عابرة عن بعد؟.. أن يقترب من الحافة.. لن يعتمد على الأغصان اليابسة الواهية في تشبثه.. لا بد من كسر جمود هذا التخوف المعشعش في عظامه كالداء العضال.

وغربت الشمس ذلك اليوم الأصفر.. وتجمع أهل البلدة حول البئر المشؤوم.. كانت جثته المنتفخة تطفو على سطح المياه السوداء.. الباردة.. والتساؤل حائر:

ـ لقد كان من أبرع سباحي البلدة؟!!

رحمه الله!!.

ويرتبط تاريخ التبشير بالحركة الاستعمارية الغربية، فلقد كان القسيس المتعصب «زيومر»، رئيس إرسالية التبشير العربية في البحرين، أول من ابتكر فكرة عقد مؤتمر عام يجمع إرساليات التبشير البروتستانتية للتفكير في مسألة نشر الإنجيل بين المسلمين. وفي سنة ١٩٠٦م أذاع اقتراحه وأبان الكيفية التي يكون بها، فوضعت هذه الفكرة على بساط البحث في «ميسور» من ولاية «أكر» في الهند، لأن هذه الولاية كانت ذات أهمية كبرى من حيث المسائل الإسلامية لوجود مدرسة «عليكر» هناك.

ويوضح المفكر الألماني «م. ك. أكسفنلد»، الصلة القوية بين الاستعمار الغربي والتبشير أو التنصير عندما يقول: «إن نمو ثروة الاستعمار

متوقف على أهمية الرجال الذين يذهبون إلى المستعمرات، وأهم وسيلة للحصول على هذه الأمنية إدخال الدين المسيحي في البلاد المستعمرة، لأن هذا هو الشرط الجوهري للحصول على الأمنية المنشودة حتى من الوجهة الاقتصادية».

كما تكونت في بداية القرن العشرين لجنة تبشيرية يرأسها «اللورد بلفور» (Arther Balfor)، والذي كان وزيراً لشؤون اسكتلندا، ثم صار وزيراً للخارجية، وعندها تمكن من إصدار ما عرف بـ «وعد بلفور» سنة ١٩١٧م، وقد أقر مجلس الوزراء البريطاني في ٣١ أكتوبر من السنة نفسها هذا الوعد. ولم يكتف «بلفور» بصياغة الوعد الذي ينتزع حقوق الشعب الفلسطيني ويمنحها لليهود وللحركة الصهيونية، ولكنه ذهب إلى حد تشجيع اليهود في روسيا وأمريكا على الهجرة إلى أرض فلسطين العربية المسلمة، التي كانت خاضعة للانتداب البريطاني البغيض. كما أنه دعم إنشاء فرع خاص للدعاية اليهودية داخل أروقة وزارة الخارجية البريطانية، التي تحاول اليوم أن تتنصل من مسؤوليتها إزاء الشعب الفلسطيني ومأساته الإنسانية.

وترأس السياسي البريطاني المحافظ للجنة تبشيرية مسيحية، وحماسه المفرط لإنشاء الكيان الصهيوني، ودعمه لهذا المشروع عن طريق وزارة الخارجية البريطانية مع مجموعة من الشخصيات الإنجليزية ذات الولاء المزدوج، يوضح ـ من دون لبس ـ تلك العلاقة القوية بين التبشير والاستعمار، وعندئذٍ لا يختلف إن كان هذا الاستعمار غربياً أو يهودياً، ومن هنا يمكن تلمس البعد الديني في مسألة الدعم الغربي للحركة الصهيونية العنصرية ودفاعه عنها، وتستره على دموية وفاشية زعمائها، بدءاً

من «بن جوريون» وانتهاء بالسفاح والمجرم «أريل شارون».

وإذا كان الاستعمار في الماضي قد استغل التبشير لتثبيت أقدامه في البلاد العربية والإسلامية تحت ذريعة معالجة النواحي الإنسانية الناجمة عن تردي الأحوال الاقتصادية والاجتماعية في مطلع ومنتصف القرن الماضي، فإن الحال باق كما هو اليوم، فاختلاف المسلمين حول أمور فرعية قد يؤدي عند البعض إلى التكفير أو التفسيق أو الرمي بالخلل العقدي والبدعة.. إلى آخر القائمة التي دعا الإسلام في تعاليمه الوسطية والمعتدلة إلى وجوب تجنبها حرصاً على وحدة الأمة وتماسكها، وربما أدى هذا الاختلاف إلى قيام الحروب داخل المجتمعات الإسلامية، وما يترتب على هذا الخصام والحقد ـ غير المبرر على الإطلاق ـ من سوء للأحوال الاجتماعية، وتردي الجوانب الاقتصادية.

ومن هذه الثغرة يدخل التبشير كوسيط بين الفرق الإسلامية المتناحرة على شكليات لا تمت إلى جوهر الدين الإسلامي بصلة، أو مصلح للوضع الاجتماعي المتدهور الناجم عن هذه الفرقة، وتمثل إرساليات التبشير الطبية خير دليل على ما ذكرناه، فلقد ذكر أحد الشخصيات التبشيرية حكاية مسلمة عنى المبشرون بتمريضها في مستشفى مصر القديمة، ثم ألحِقت بـ«مدرسة البنات البروتستانتية» في «باب اللوق»، وكانت نهاية أمرها أنها عرفت كيف تعتقد بالمسيح بالمعنى المعروف عند النصارى.

وإذا كان المسلمون أفراداً وجماعات، حكومات ومؤسسات لديهم الحرص على ألا يخترق التبشير مجتمعاتهم بوسائله، التي يجب أن نعترف أنها متقدمة كثيراً قياساً على وسائل المؤسسات الإسلامية الدعوية، فإنهم مدعوون إلى التفكير جدياً في الصلة بين المسيحية كدين والحضارة الغربية المعاصرة، التي لم تتخل يوماً عن عقيدتها الدينية ومنطلقاتها المبنية على

الفهم الكنسي للحياة. وإضافة إلى هذا الوعي بالمنطلق الديني المتداخل مع صور وأنماط الحضارة الغربية، فإنهم مدعوون ـ في الوقت نفسه ـ إلى إظهار وإبراز الروح الصحيحة والسليمة للدين الإسلامي، من حب ووئام وتسامح، بعيداً عن الأحادية التي تأخذ بها بعض الجماعات الإسلامية، حيث إن هذه الأحادية المرتبطة بالغلظة والشدة في أساليب الدعوة، هي المنفذ الذي تدخل منه الدوائر الغربية السياسية والمسيحية إلى وصم الإسلام بنعوت وصفات هو أبعد ما يكون عنها في تعاليمه الأصلية ومنطلقاته الحقيقية.

وللتأكيد على صحة المقولة السابقة، فإن بحوث المستشرقين والمفكرين الغربيين في الحضارة الغربية تحذر من وحدة إسلامية تقوم على مبادئ الوسطية التي دعت إليها آيات الكتاب الحكيم. فهذا المفكر الغربي «أرنولد توينبي» يختم كتابه المعروف «الإسلام والغرب والمستقبل» بهذه المقولة المعبرة عن الخوف الغربي من يقظة الروح الإسلامية الحقيقية، يقول توينبي: «وهناك مناسبتان تاريخيتان كان الإسلام فيهما رمز سمو المجمع الشرقي في انتصاره على الدخيل الغربي، ففي عهد الخلفاء الراشدين، حرر الإسلام سورية ومصر من السيطرة اليونانية التي أثقلت كاهلها مدة ألف عام تقريباً، وفي عهد نور الدين وصلاح الدين والمماليك احتفظ الإسلام بقلعته أمام هجمات الصليبيين والمغول، فإذا سبب الوضع الدولي الآن حرباً عنصرية، فإنه يمكن للإسلام أن يؤدي دوره التاريخي مرة أخرى».

هذا قول المفكر الغربي «توينبي» قبل حوالي ستين عاماً.. فهل نريد أن نتعلم الدرس من أعدائنا والمتربصين بنا؟!.

الأوروبيون والخصوصية الثقافية(*)

أشار الأستاذ بدر الغانمي في افتتاحية ملحق الأمة الإسلامية بصحيفة عكاظ الجمعة (١٤١٤/٦/١٣) إلى قصة الشاب العربي الذي يعيش في ألمانيا وأراد أن يضع دشاً فوق سطح منزله حتى يستطيع رؤية قنوات عالمية متعددة، لأن قنوات التلفزيون الألماني لا تلبي رغباته، ولقد فوجئ الشاب العربي بأن الأمر ليس بتلك السهولة التي كان يتصورها، فبداية كان عليه التقدم بطلب إلى الجهات المسؤولة حتى تنظر فيه، وبعد مدة أبدت تلك المرجعية الألمانية رفضها للطلب بحجة حماية الإنتاج الوطني والحفاظ على خصوصية الثقافة الألمانية، وهذا ليس أمراً استثنائياً خضع له هذا الشاب العربي وحده ولكنه إجراء يخضع له كل الذين يتخذون من المجتمع الألماني مقراً دائماً أو مؤقتاً لهم، ولعل هذه القصة تستدعي ما يحاول الفرنسيون ـ الآن ـ استثناءً من معاهدة (الجات) الخاصة بالتعاون الشامل بين الولايات المتحدة الأمريكية ودول المجموعة الأوروبية، فالفرنسيون يريدون استثناءاً للقضايا الثقافية وهم يقاومون بكل قوة المد الإعلامي الأمريكي المتمثل في المسلسلات التي تنتجها (هوليوود) وتمثل ثقافة مختلفة عن ثقافة المجتمع الأوروبي، ومثلهم الإنجليز الذين ناقش ـ

(*) **المصدر**: صحيفة المدينة، الثلاثاء ٢٤ جمادى الآخرة ١٤١٤هـ/٧ ديسمبر ١٩٩٣م.

رئيس وزرائهم الحالي ـ (جون ميجور) في فترة توليه منصب وزارة الخارجية مع نظيره الأمريكي السابق (جيمس بيكر) ناقش وجوب وضع حد لغزو مسلسلات (دالاس) و(داينستي) للمجتمع البريطاني، والإنجليز حتى مع وجود هذا الغزو يفضلون رؤية (كورنشين ستريت) و(اميديل فارمز) و(كروس رودز) يفضلون رؤية هذه المسلسلات التي تعكس الثقافة الإنجليزية الشعبية على تلك المسلسلات التي تعكس حياة المجتمعات الأرستقراطية في المجتمع الأمريكي.

والأوروبيون أنفسهم على رغم تلك العلاقات السياسية والاقتصادية القوية التي تربط بعضهم بعضاً، وعلى رغم تلك الوشائج التاريخية التي تمتد في ذلك الماضي العميق، على الرغم من هذا كله فإن كل شعب منهم يرفض التحدث بلغة الآخر ويتمثل هذا بصورة واضحة عندما نرى الرئيس (ميتران) لا يتحدث إلا باللغة الفرنسية عند وقوفه على عتبة باب دواننغ ستريت، وكذلك كانت تفعل مارجريت تاتشر عندما تطأ أقدامها قصر الإليزيه في فرنسا، وهي ـ أي تاتشر ـ لم تجد ما تهديه في الذكرى المئوية للثورة الفرنسية سوى عمل الروائي الإنجليزي المشهور شارلز ديكنز قصة مدينتين، وكانت بهذا تؤكد ـ من وجهة نظرها ـ على أسبقية الثقافة الإنجليزية بالنسبة للثقافة الفرنسية وغيرها من الثقافات الأوروبية الأخرى.

ويتساءل المرء كيف يوصف دعاة الحفاظ على الهوية الإسلامية والعربية بالتعصب والإنغلاق في الوقت الذي تحمي فيه كل شعوب الأرض خصوصياتها من كل وافد ثقافي آخر، حتى لو كان هذا الوافد يرتبط مع نظيره بكثير من وشائج القربى وسمات الحضارة موحدة، كما هي الحال بين فرنسا وإنجلترا، أو بين فرنسا وألمانيا، ويزداد السؤال حدة عندما نعلم

أن الذين ينكرون على البعض دعوتهم للحفاظ على ملامح الثقافة الإسلامية الأصيلة، عندما نعلم أن هذا البعض يريد أن يركب القطار الغربي بأقصى سرعة ممكنة، حتى وإن لم يعلم أين هي المحطة القادمة من رحلته هذه التي يمكن أن توصف في النهاية بأنها رحلة الضياع والتشتت، وهو ما لا يرتضيه أحد لنفسه أو لأمته أو لمجتمعه.

عزيز ضياء وليلة الوفاء(*)

ليس هناك شيء في هذه الحياة أجمل من الوفاء والعرفان، فهو الوجه المضيء للوجود الإنساني، وهو ما يخفف عنا أوصاب الحياة ومعاناتها ويدفع بنا إلى عوالم أكثر شفافية، تلك العوالم التي تطمح الروح. دوماً، إلى الارتقاء إليها والتحليق في أجوائها العبقة.

ما أقدمت عليه جمعية الفنون والثقافة بجدة من تكريم الرائد الأستاذ عزيز ضياء بعد خطوة حضارية تدخل في دائرة العشق الإنساني لمعاني النبل وإعطاء ذوي الشأن، وخصوصاً إذا كانوا مفكرين أو أدباء أو شعراء إعطائهم ما يستحقون من شكر، وإذا كان رب العزة والجلال جعل الشكر سبباً للحفاظ على النعمة وديمومتها، فإن تعاليم الدين الخاتم حثت في مواضع عديدة على أن يشكر الإنسان أخاه، ويحفظ حقوقه فلا يغتابه، ولا يؤذيه، ولا يقدم على ما يتسبب في إيذائه فذلك شر مستطير، وإثم عظيم، وبهتان لن يمحوه من صفحات أعمال الإنسان إلا عفو صاحب الشأن عن المتسبب في هذا الضرر.

منذ وفاة الأستاذ «عزيز» والفكرة في تكريمه تترسخ جذورها في ذهن جليسه. وأكاد أقول لولا ما يفصل بين الرجلين من مسافة زمنية تتصل

(*) **المصدر**: صحيفة المدينة المنورة، عدد ١٢٨٢، الثلاثاء، صفر ١٤١٩هـ/٢٦ مايو ١٩٩٨م.

بالعمر إنه رفيق مسيرته الدكتور عبد الله مناع، بل واحد من ثلاثة رجال تضيء أسارير الأستاذ «المناع» عند رؤيتهم، فلقد كان الحفي دوماً بأبي ضياء وأبي فاروق الأستاذ محمد عمر توفيق وأبي مازن السيد إياد أمين مدني، وكان يشاركه هذا «الهم» إن صح التعبير، الزميل الدكتور «عبد الله المعطاني» الذي أعطى الجانب الفكري والأدبي من مسيرة الجمعية كثيراً من اهتمامه وأفلح في جذب الصفوة من المثقفين، إن صفاء النفس وتهذيب الكلمة، والقدرة على استيعاب الرأي الآخر والإفساح له وتقديره، هو الذي يعطي منتديات الأدب قوتها ويمنحها جذوة النور التي لا تستطيع الانطلاق من دونها.

لم أر معالي السيد الدكتور غازي عبيد مدني فرحاً ومتألقاً كما رأيته في ليلة الوفاء الجميل، ولقد نشأ أبو «عبيد» في منزل ينشد فيه الشعر، ويروى فيه التاريخ، فوالده السيد «عبيد» كان شيخ الشعراء في بلد المصطفى ﷺ لأكثر من نصف قرن، وكان الشعراء في حقبة ماضية يتناشدون الشعر في «الأبارية» حيث دارة إبراهيم الأسكوبي، أو في الأنورية. نسبة إلى السيد أنور عشقي. وفي أم الشجرة البستان الذي جعل منه السيد عبدالله مدني منتدى أدبياً وكان من رواده شاعر المدينة الكبير «محمد العمري»، الذي كانت قصيدته النونية وما زالت شعراً يروى لأنها تصور مأساة خروج أهل «المدينة» في حادثة «سفر بلك» هذه الحادثة التي كانت تشكل محوراً أساسياً في مذكراته الرائعة «حياتي مع الجوع، والحب والحرب».

تقول أبيات قصيدة «العمري» المتوفى سنة ١٣٦٥هـ:

دار الهُدى خفَّ منك الأهل والسكن   واستفرغتْ جهدها في ربعك المحنُ

عفا المصلَّى إلى سلع، إلى جشم   والحرَّتان ومرأى أرضها الحسن
أقوى العقيق إلى الجمَّا، إلى أحد   إلى قباء التي يحيا بها الشجن
منازل شبَّ فيها الدين واكتملت   آياته فاستعارت نورها المدن
لأي أرض يشدُّ الرحل راكبه   يبغي المثوبة أم يشتاقه عطن
أبعد روضتها الغنَّا وقبتها الـ   خضراء يحلو بعيني مسلم وطن
ما غوطة الشام، ما نهر الأبلَّة ما   حمراء غرناطة، ما مصر ما اليمن
كل المنى في رحاب المصطفى جمعت   ديناً، ودنيا فما في مثلها وطن

رثاء الراحل الأستاذ عبد الستار بخاري(*)

رحلتك مع الحياة يا سيدي هي جزء من تاريخ البلد الطاهر الذي عشت فيه أستاذاً ومؤذناً ومثقفاً كنت تحفظ كتاب الله عن ظهر قلب تعلمه للأجيال الناشئة في مؤسسات المدينة التعليمية ويجلس طلاب العلم إليك في مسجد رسول الله ﷺ يتلقون على يديك علومه ويتقنون مخارجه وأصوله وما رحلتك مع الأذان في المسجد الكريم إلا امتداد لهذه المنقبة الجليلة المستمدة من كتاب الله لقد اعتليت منائر مسجد المصطفى ﷺ ما يقرب من ستين عاماً كنت خلالها صوتاً عذباً يرتفع في آفاق البلد الطاهر لقد بدأت هذه الرحلة كما ذكرت لي يوماً وأنا أجلس إليك مجلس طالب العلم من أستاذه لقد هاجر أهل المدينة المنورة في الحرب العالمية الأولى يقصدون نواحي متعددة من العالم العربي أو أرض الحجاز ولم يعد في المسجد النبوي من مؤذنيه إلا القلة فأمر يومها الشريف على أن تكون أنت والشيخ حسين بخاري شفاه الله من مؤذني المسجد حتى إذا عاد أهل المدينة واستقرت الأمور لم يرض مؤذنو المسجد عن ذلك الصنيع لأسباب تتصل بما للأذان من شروط الوراثة لقد تسلسل هذا الأثر الكريم في عقب هاتين الأسرتين الكريمتين فلقد أصبح من يحمل الاسم ويرعى حقه ويؤدي

(*) **المصدر**: صحيفة المدينة (العدد ٥٤٦٠)، الأحد ٥ جمادى الأولى ١٤٠٢هـ.

واجبه لقد كنت يا أبا حسن أحد المثقفين في طيبة الطيبة تلقي علينا الأسئلة في علوم النحو والبلاغة وتطارحنا قول الشعر وتروي من أخبار الأدب فنوناً متعددة ولم نكن نقدر يومها أن نجاريك في ذلك كله كان يبهرنا ما في شخصيتك من حلو الحديث وجزالة التعبير والقدرة على إشاعة أجواء الفرح والسرور بين جلسائك فكان لا يطيب اجتماع إلا حيث تكون يستأنس الناس بتلك الأخلاق الكريمة التي تأصلت في نفسك وأتاحت لك أن تعيش حياتك مع أجيال متعددة كل واحد منها يرى أنك تنتمي إليه إنما كنت في الحقيقة تنتمي لمدرسة الحياة التي أمدتك بذلك الزخم الإنساني وزرعت لك تلك الثقة التي كان يغبطك عليها رفاقك ممن توقفت بهم مسيرة الحياة عند أمد معين فلم يكونوا بقادرين على تجاوز ذلك الحاجز الذي استطعت أن تتجاوزه بديمومة العطاء وقرب المأخذ وحسن التعامل وذلك سر الحياة توصلت إليه فصنع لك هذا الحب. . وما كلماتي القليلة التي اكتبها متيقناً أنها لا توفيك حقك إلا ثمرة من ثمرات ذلك الحب وأثراً من آثار عطائك الذي أمديت به القلوب والأسماع فهنيئاً لك بما خلفت من ذكرى يطيب لنا أن نرددها يوم انتقلت إلى دار الخلود سائلين لك من الله المغفرة والرضوان لجميع المسلمين.

العفيف الأخضر.. خيانة للعروبة وعداء للإسلام(*)

منذ أن خرج الكاتب العربي الأصل والصهيوني الميول والمعتقد (العفيف الأخضر) في إحدى القنوات الفضائية متهماً الفلسطينيين بالإرهاب، ومتحسراً على القتلى من الجنود الإسرائيليين وغيرهم في العمليات الاستشهادية التي يقوم بها أبطال انتفاضة الأقصى ومتهماً الإسلام بالتخلف وناعياً الخروج الإسرائيلي من جنوب لبنان على يد المقاومة المسلمة والعربية واصفاً كتابات المفكر الفرنسي ـ في نقد الحركة الصهيونية العنصرية ـ بفكر (الزبالات).

ومع أنه كاتب محسوب على العرب فلقد كانت الباحثة (سلمى الحويك) وهي من أصل مسيحي تدافع عن العروبة والإسلام وكان يدافع هو ـ في السياق نفسه ـ عن الوثيقة السيئة التي وقعها مع محمود درويش، وسميح القاسم، وأدونيس وغيرهم والتي تشجب وتستنكر عقد مؤتمر في لبنان يكشف عن التاريخ الدموي للحركة الصهيونية والتهديدات التي تلقاها منظمو المؤتمر في لبنان والأردن من (محمود درويش) خاصة وتحريضه

(*) **المصدر**: صحيفة المدينة، العدد ١٤٠٤١، الثلاثاء ١٥ رجب ١٤٢٢هـ/٢ أكتوبر ٢٠٠١م.

هو ومجموعته الشاذة السلطات على الداعين لمثل هذا المؤتمر مما يضع الداعين له عرباً وغير عرب في خانة الوفاء لهويتهم وأمتهم ولكلمة التاريخ العادلة ويضع الأخضر ومجموعته في خانة من غدروا بالأمة وضربوها تحت ستار التقدمية والعلمانية واستلموا في وضح النهار شهادة من السفير الإسرائيلي في فرنسا وظلوا يهللون ويرقصون بهذا الوسام الإسرائيلي مما انكشفت معه الدعاوى الباطلة لهذه الزمرة الخائنة.

لقد دفعني ذلك الوجه البغيض واللسان غير المهذب والنفس المنطوية على حقد أصيل للعروبة والإسلام إلى تتبع كتابات هذا غير (العفيف) أو الطابور الخامس.

وكان آخر ما كتبه هذا الكاتب الرديء مقالاً في صحيفة الحياة ٦ رجب ١٤٢٢هـ ـ ٢٣ سبتمبر ٢٠٠١م بعنوان كيف (نجفف ينابيع الإرهاب) ولقد خلط الأخضر في مقاله ذلك بين مفاهيم عدة وكانت كلمة حق في إدانة الإرهاب أريد بها باطل وهذا الباطل الذي أراد من خلاله البرهنة على عدائه الدائم للقضية الفلسطينية وهويتها العربية والإسلامية ولقد بدأ مقالته بأسلوب متعجرف وينم عن غطرسة ـ غير مبررة ـ فقال متحدثاً بأسلوب (الأنا) البغيضة (قلنا لكم إن تحويل المراهقين الفلسطينيين بعد غسل أدمغتهم إلى قنابل بشرية لنحر المراهقين اليهود الأبرياء جريمة أخلاقية لا يقرها عقل ولا نقل). وخلال المقالة التي نشرتها الحياة على مساحة خمسة أعمدة وهو احتفاء في غير محله بالعقول الشاذة والأفكار الباطلة والدفاع عن المنطق الصهيوني الأعوج في تبريره لقتل الفلسطينيين ومحاولته وأد الانتفاضة وهذا ما يجب على صحيفة جادة مثل الحياة أن تعيد النظر فيه. خلال هذه المقالة لم يذكر الأخضر أن الجيش الإسرائيلي

المدجج بالسلاح الغربي الصنع والتمويل والتشجيع قتل ما يزيد على مائة طفل خلال عام واحد بالقنابل الفوسفورية وطائرات F 15 و F 16 ولم يتحسر هذا الخالي الوفاض من كل عفة والمتحجر عقلاً وعاطفة وشعوراً لم يذكر كيف قتل الطفل (محمد الدرة) وهو يحتمي بوالده واعترف الإسرائيليون بأنهم قتلوه ـ عنوة ـ مع أنه لم يكن يحمل حجراً ولا مقلاعاً ولكنه الحقد الصهيوني المتأصل ولم يذكر هذا الكاتب المعجب بالإرهاب اليهودي كيف أن طفلة لم تتجاوز العام وهي (إيمان حجو) قتلت بدم بارد.

وإذا كان البعض ممن يستخدمون الإرهاب خارج الأراضي المحتلة وفي بلاد عربية أو إسلامية أو غربية وسيلة لقتل الأبرياء فهذا ما ندينه ونستنكره ونتعاطف مع الضحايا غير العرب وإن لم يتعاطفوا يوماً مع قضايانا.

الإرهاب أيها الداعي بدأ في منطقة الشرق الأوسط على أيدي العصابات اليهودية مثل (الأرغون) و(شيترن) ولقد ذهب ضحية هذا الإرهاب عرب وغير عرب وكان قتل اللورد موين Lord Moyne الوزير البريطاني المكلف لشؤون الشرق الأوسط على يد العصابة التي كان يقودها الإرهابي (شامير) في القاهرة في نوفمبر ١٩٤٤م بداية لتقنين الإرهاب ونشره وبذات الأسلوب الإرهابي قتلت العصابة اليهودية نفسها الوسيط الدولي الكونت برنادو ?Berndotte في ١٧ سبتمبر ١٩٤٨م ولقد شكلت عصابات (شامير) و(بيجن) الإرهابية النواة الأولى والرئيسة للجيش الإسرائيلي.

وبعد ذلك بدأ اليهود في ارتكاب جرائم التطهير العرقي والإبادة

الوحشية لسكان القرى الفلسطينية فكانت مذبحة (دير ياسين) في ١٩ إبريل ١٩٤٨م والتي قتل فيها العزل من الرجال والنساء وبلغ عددهم ٢٥٤ فلسطينياً ثم تبعتها مذبحة (قبية) Qibya في أكتوبر ١٩٥٣م عندما هاجمت كتيبة اسرائيلية رسمية القرية الفلسطينية ودمرت ٣٠ منزلاً وقتلت ما يزيد على خمسين فلسطينياً معظمهم من الشيوخ والأطفال والنساء ويذكر الكاتب البريطاني مايكل آدمز Michael. Adams في الكتاب المعروف The middle East. cover أنه تم التنكيل بجثث هؤلاء العزل.

ويذكر الكاتب الكندي الأصل ورئيس قسم الدراسات الدينية بجامعة لانكستر Lanccaster البريطانية الدكتور ديفيد وينز David wainess ١٩٧٧ p. p 134 -136 - Asentence of Exile عن مذبحة كفر قاسم بأنه في ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦م قتل الجيش الإسرائيلي ما يقرب من ٤٩ فلسطينياً شيوخاً وأطفالاً ونساء عند غروب الشمس ثم رموا بجثثهم في شاحنة أعدت لهذا الغرض وكتب الصحافي البريطاني المعروف واليهودي الأصل Harold-Renhart هارولد رينهارت تعليقاً على المذبحة في صحيفة التايمز البريطانية المعروفة ٢٣ سبتمبر ١٩٤٨م بأنه ليس هناك من مبرر للإرهاب الصهيوني واليهودي سوى تجذر مثل هذا الأسلوب في العقلية الصهيونية المختلة أو الحمقاء أما مذبحتا الحرم الإبراهيمي وصبرا وشاتيلا فقد شاهدتهما أيها العفيف الناطق باسم الحركة الصهيونية بعينيك ولكنه سلوك مبرر عندك إن لم يثر إعجابك ويدعُك للتشمت.

توني بين وخلط إعلامي(*)

قامت قناة الجزيرة الفضائية باستضافة المفكر والسياسي البريطاني توني بين Tony Been وعندما أقول المفكر فإن الوصف ينطبق عليه كانطباق صفة السياسي على شخصه المثير للجدل لمدة تزيد على أربعين عاماً، إلا أن القناة المذكورة قدمته على أنه زعيم حزب العمال مع أن زعيم الحزب هو (توني بلير) الذي فاز قبل أشهر بدورة ثانية لرئاسة الوزراء في بريطانيا معيداً إلى الأذهان صورة هارولد ويلسون في الستينيات الميلادية.

لقد ورث (بين) عن والده لقب لورد في عام ١٩٦٠م ولما كان النظام البرلماني في بريطانيا يحظر على من يمنحون لقب (لورد) تمثيل أي دائرة انتخابية في مجلس العموم فلقد دفع هذا العائق (بين) إلى الدعوة إلى سن قانون يبيح لمن يرث (لورد) عن والده أن يخلع مثل هذا اللقب، وبهذا تخلى (بين) عن إرث عائلة Wedywood ليصبح عضواً في مجلس العموم كبقية زملائه، ويبدو أن تخلص (بين) من سمة أرستقراطية بريطانية كهذه جعلته يبدو كنجم لامع في الأوساط السياسية والفكرية، كما دفعت (هارولد ويلسون) بعد فوزه بانتخابات ١٩٦٤م إلى اختياره كمروج للأفكار العمالية بعد أن اكتشف في شخصيته القدرة الفائقة على الحديث والتعامل

(*) **المصدر**: صحيفة المدينة (عدد ١٤٠٤٨)، الثلاثاء ٢٢ رجب ١٤٢٢هـ/٩ أكتوبر ٢٠٠١م.

مع فن الكلمة مع أجهزة الإعلام، وهو الفن الذي أتقنه (ويلسون) نفسه وتمكن به من هزيمة اثنين من أقطاب الحزب المحافظ، وهما إدوارد هيث، وسير دوقلاس هوم.

عرف (بين) بتبنيه لمجموعة من الأفكار الهامة منها معارضته لانضمام بريطانيا للسوق الأوروبية المشتركة، وهو المشروع الذي تبناه (هيث) بعد معارضة فرنسية شديدة وكان الرئيس شارل ديجول يأخذ على بريطانيا تقديمها المصالح الأمريكية على المصالح الأوروبية مما جعل بريطانيا بسبب هذه الحيثية الفرنسية تظل خارج إطار الوحدة الأوروبية لمدة من الزمن، وكان حدس (ديجول) صادقاً إلى حد كبير، فما أن سقط هيث في عام ١٩٧٤م وصعد نجم مارجريت تاتشر بدعم يهودي واضح حتى أضحت بريطانيا عبئاً على السوق الأوروبية المشتركة لارتباطها العضوي بالولايات المتحدة الأمريكية، ومثلت حقبة (ريجان ـ تاتشر) ذروة هذا التحالف، وهو ما دفع بالزعيم الجديد لحزب العمل توني بلير للتخلص من كل الوجوه التي تظهر ميلاً للجانب الأوروبي وكان آخر هذه الوجوه المميزة وزير الخارجية السابق روبن كوك الذي كان محسوباً على الجانب اليساري المعتدل وخصوصاً أنه عمل سكرتيراً لزعيم الحزب السابق نيل كينيك Neil Kinook والذي كان يحمل في شخصيته من المزايا أكثر مما يحمله (بلير) ولكن صلة (كينيك) الحميمية بالزعيم العمالي الأسبق مايكل فووت Michael Foot والذي كان يعد (بين) منتمياً إلى تياره وهو تيار عمل على تغيير المعادلة داخل الحزب والتي كانت على مدى قرون عدة تعمل على تغليب المصالح اليهودية على المصالح البريطانية.

بعد أن خاض (بين) معركة مع السياسي المعروف (دنيس هييلي) على

منصب نائب زعيم الحزب في عام ١٩٨١م ومع خروجه مهزوماً أمام سياسي محنك مثل هيلي Healey استغل الإعلام البريطاني في عهد حكومة (تاتشر) هذا الحدث لتشويه صورة (توني بين) وخصوصاً أن (بين) كان يغرد خارج السرب بانتمائه فكرياً إلى التوجه اليساري وهو توجه مرفوض داخل المجتمع البريطاني المحافظ بجميع أطيافه.

وظل (بين) يمثل صورة مرعبة (لتاتشر) حليفة (ريجان) القوية ولهذا عملت على مشروع دمج بعض الدوائر الانتخابية وسقطت دائرة (بين) الانتخابية بسبب هذا المشروع، فلم تعد (بريستول) Bristol مركزاً مأموناً لشخصية مثل (بين)، ولكن (بين) عاد إلى البروز من تحت أنقاض الركام، عندما استطاع هزيمة نائب محافظ في دائرة شغر مركزها بسبب وفاة نائبها وكانت مفاجأة للتيار التاتشري بأن يحصل (بين) على أغلبية من الأصوات في قلعة من قلاع الحزب المحافظ.

لم يكن (بين) الذي كان على قدرة كبيرة من إتقان فن الحوار بلغة إنجليزية راقية تفوق أحياناً لغة أصحاب (الياقات) الزرقاء من المحافظين، مقبولاً عند يمين الحزب العمالي أما حظه داخل أوساط المحافظين فكان العداء السافر.

على رغم الاختلاف الكبير مع أفكار (بين) اليسارية، ولكنه ظل دائماً مع رفيقه الراحل (إريك هيفر) Eric Heffer يتعاطفان مع حقوق الشعوب المحتلة والمظلومة، فعلى رغم انتمائهما اليساري فلقد انتقدا التدخل السوفياتي في أفغانستان في بداية الثمانينيات الميلادية وهاجما الإمبريالية الغربية وكان (هيلي) Healey وزير خارجية الظل في الثمانينيات الميلادية أحد المنتقدين لهذه السياسة وهاجم هذا التيار الاندفاع (التاتشري) نحو

الأفكار الأمريكية ومعاييرها المزدوجة، ورفعوا أصواتهم مطالبين بدولة فلسطينية مستقلة، وما زال (بين) مع زميله (جورج غالاواي) ونفر قليل يعمل على الدفاع عن الحقوق العربية المهدورة.

توينبي وجارودي ودور الإسلام في حوار الحضارات(*)

يمثل روجيه جارودي Roger-Garaudy ظاهرة فريدة ومثيرة في آن في العصر الحديث، فلقد ولد (جارودي) في مارسيليا سنة ١٩١٨م درس في مدرسة مارسيليا، ثم انتقل إلى مدرسة هنري الرابع، ثم درس في كلية الآداب في أكس AIX ودرس أخيراً في كلية الآداب في ستراسبورغ Strasbourg وحصل جارودي على إجازة الفلسفة عام ١٩٣٦هـ ورغم اعتناقه المسيحية البروتستانتية إلا أن ذلك لم يمنعه من الانضواء في صفوف الحزب الشيوعي دون التخلي عن ديانته النصرانية وفي هذا درس واقعي معاصر للزمرة الشيوعية العربية التي ترفض مفاهيم دينها الإسلامي وتشريعاته، بل إنها كانت إبان الحقبة السوفيتية المنصرمة تزايد على أسيادها في الكرملين بمباركة كل غزو سوفياتي، وفي الوقت الذي صمت فيه الشيوعيون العرب عن الغزو السوفياتي لأفغانستان في بداية الثمانينيات الميلادية، كانت الأحزاب الشيوعية والاشتراكية الغربية تنتقد بشدة ذلك

(*) **المصدر**: ملحق الأربعاء (صحيفة المدينة المنورة) الأربعاء ٢٢ رجب ١٤٢٢هـ/١٠ أكتوبر ٢٠٠١م.

الغزو الاستعماري وفي مقدمتها الحزب الشيوعي البريطاني، وحزب العمال على رغم أن هذا الأخير كان يسيطر عليه في تلك الحقبة جماعات يسارية تتراوح بين التطرف والاعتدال، وكان الزعيم العمالي البريطاني مايكل فووت: Micheal Foot ينتمي لليسار المعتدل وكان فووت يمثل زعيم المعارضة في المملكة المتحدة البريطانية.

رغم انتماء جارودي للأحزاب الشيوعية والاشتراكية إلا أنه ندد ضمن إطار الحزب الذي ينتمي إليه بالتدخل العسكري السوفياتي في براغ، وأضاف إلى مواقف المؤسسة التي كان ينتمي إليها، بأنه طرح للنقاش تلك الجذور السياسية للانحراف الفكري للاشتراكية ووجه صراحة أصابع الاتهام إلى القادة السوفيات.

(انظر جارودي: تأليف: سيرج بيرتينو، ترجمة: منى النجار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى ١٩٨١/م، ص: ١٢).

بعد الغزو السوفياتي لأفغانستان إخراج جارودي كتابه الذي اختار له مسمى (وعود الإسلام) ويقول: الشيخ محمد الأمين الذي كتب مقدمة هذا الكتاب في توضيح أهمية مؤلف (جارودي) في هذا العصر الذي بدأ ينتشر فيه عند العقلاء من السياسيين والمفكرين مصطلح حوار الحضارات، بعيداً عن ذلك المفهوم القاصر الذي طرحه بعض المفكرين الغربيين الحرفيين وهو (صدام الحضارات) يقول مقدم الكتاب في هذا الصدد موضحاً وجهة هذا الكتاب (وإذن فنحن في مجال الحديث عن كتاب المفكر الفرنسي (روجيه جارودي) (وعود الإسلام) بوصفه كتاباً يكشف حقيقة جديدة مفادها إن الإسلام ما زال مؤهلاً لصياغة حياة معتنقيه صياغة فريدة ومتفوقة في معترك العقائد والإيدلوجيات التي يزدحم بها عالمنا المعاصر.

إن هذه الحقيقة جزء بل أساس في عقيدة المسلمين وهي عند المؤلف اكتشاف جديد أتاحته عناية المؤلف في موضوع حوار الحضارات بعد أن اكتشف تشوه ثقافة الغرب وافتقارها إلى عنصر الثقافة الإسلامية، وإن غارودي في كتابه (وعود الإسلام) يقدم الإسلام بوصفه أحد المتحاورين في مشروع حوار الحضارات، ولكنه في الوقت نفسه يكتشف في الإسلام ترابطاً وتماسكاً تظهر تجلياته في كل جوانب الحضارة الإسلامية) (انظر: وعود الإسلام، روجيه جارودي، ط١، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م، الدار العالمية للطباعة والنشر، مقدمة الكتاب، ص: ٧ ـ ٨).

وإذا كان جارودي اكتشف تشوه ثقافة الغرب وافتقارها إلى عنصر الثقافة الإسلامية، فإنه يلتقي من خلال إدراكه ووعيه بهذه الحقيقة مع المفكر الغربي المعروف (ارنولد توينبي Arnold Tonbee) في محاضراته التي ألقاها بين عامي ١٩٤٧ ـ ١٩٥٢م أي قبل ما يزيد على نصف قرن من الزمن، والتي حملت في اسمها دلالات حضارية كبيرة، حيث أطلق عليها ذلك المفكر الغربي الكبير (الإسلام والغرب والمستقبل).

يقول توينبي: إلا أنه باستطاعتنا أن نميز بعض مبادئ الإسلام التي إذا طبقت في الحياة الاجتماعية للبروليتاريا العالمية الحديثة، يمكن أن تأتي بنتائج حسنة ومفيدة لهذا المجتمع الكبير في المستقبل القريب.

ويشير توينبي أيضاً إلى مصادر الخطر الداهم في الحضارة التي ينتمي إليها يقول هذا المفكر الواعي الذي استشرف انزلاقات الحضارة الغربية المادية المعاصرة (هناك مصدران ظاهران من مصادر الخطر: الأول: نفسي، والثاني: مادي، في العلاقات الحضارية بين البروليتاريا العالمية وبين الفئة الحاكمة في مجتمعنا الغربي، ومصدرا الخطر هذان هما التمييز

العنصري والخمر) ويرى توينبي أن العلاج الناجع لهذا الضعف الذي يعتور بنية الحضارة الغربية، يكمن في تطبيق القيم الإسلامية الخالدة وفي مجال الصراع ضد هذين الشرين نجد للفكر الإسلامي دوراً يؤديه ويبرهن فيه ـ إذا سمح له تأدية هذا الدور عن قيم اجتماعية وأخلاقية سامية.

انظر: الإسلام والغرب والمستقبل، أرنولد توينبي، تعريب الدكتور نبيل صبحي، ط١، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، ص ٦٢ .

إن العبارة التي وضعها توينبي بين قوسين كجملة اعتراضية في النص السابق وهي إذا سمح له بتأدية هذا الدور، لتكشف أيضاً بأن توينبي أدرك أن المؤسسات السياسية والغربية لن تسمح بتسلل هذه المفاهيم الخلقية الإسلامية إلى حضارتها، ساعية ما وسعها الجهد إلى بقائها حضارة مادية صرفة وبالتالي تفرز هذه الحضارة مفاهيم أخرى ضارة بالبشرية جميعاً كاستخدام القوة في تطويع الآخر، واستخدام المفاهيم المادية تلتقي في كثير من جوانبها مع الفكر اليهودي الذي يجيز قتل الطفل الرضيع والشيخ وكل نفس حية بحسب السفر الدموي المعروف وهو (سفر الخروج).

تناقضات مشروع محمد أركون الفكري(*)

كتب هاشم صالح بجريدة «الشرق الأوسط» في عددها الصادر يوم ٢٠٠١/٧/١٩م، مقالاً يدافع فيه عن منهج محمد أركون في دراسة الفكر الإسلامي، مبرراً لأركون اتهامه للثقافة العربية بالجمود والانغلاق والتعصب.

إلا أن ما ساقه هاشم صالح من أدلة على أن أعمال «أركون» ليست سهلة بل هي صعبة إلى درجة أن الكاتب الذي عني بترجمة مقولاته إلى العربية لم يستطع فهمها إلا بعد مضي أكثر من عشرين عاماً، مع امتلاك هاشم صالح لزمام اللغة الفرنسية التي استخدمها أداة في كتاباته، وبالتالي فإن القارئ العادي يحتاج إلى نصف قرن أو قرن كامل حتى يعي هذه الكتابات، وذلك يعني أن الزمن سوف يتجاوز هذه المقولات، ويظل «أركون» غارقاً إلى أذنيه في علوم الألسنيات والسيمائيات، وغير ذلك من العلوم التي نشأت ضمن سياق حضاري محض.

وحتى الآن لم يدرك بعض المنبهرين بهذه العلوم، بأن تطبيق مناهجها المنبثقة من خلفية اجتماعية وفكرية مختلفة لا يمكن أن تقدم المفاهيم

(*) **المصدر**: مجلة أهلاً وسهلاً السنة ٢٥، العدد ١٠ ـ رجب/ شعبان ١٤٢٢هـ/أكتوبر ٢٠٠١هـ.

الإسلامية، والتي لها خصوصيتها الحضارية والفكرية إلى القارئ الغربي ـ الذي يدرك شيئاً من مفاتيح العلوم الألسنية وغيرها ـ فكيف بالقارئ العربي الذي يحتاج إلى من يشرح له كيف يتعامل مع هذه المناهج، وقبل ذلك كيف يمكنه هضم ما هو داخل في صميم ثقافة وحضارة أخرى، وتبدو له هذه العلوم بمثابة أسرار مغلقة يحتاج كما ذكر «هاشم» إلى عقود عدة حتى يدركها، وبالتالي فإن «أركون» لا يختلف عن المنظرين الآخرين الذين تلقفوا مصطلحات غربية هي غريبة على فكرهم ـ مع وجودهم داخل المجتمع الغربي ـ وحاولوا ابتسارها من سياقها الخاص محاولين تطبيقها على الفكر العربي أو الإسلامي، مع الأخذ في الاعتبار أن هذا التطبيق تم إجراؤه بعد أن استنفدت هذه المناهج أو المصطلحات أغراضها في الفكر الغربي نفسه، وحلت معها مناهج أخرى، وخصوصاً إذا ما علمنا أن فرنسا التي اختارها «أركون» منطلقاً لأعماله الفكرية هي بيئة «الموضات» من وجودية وبنيوية، وقبل ذلك هي منطلق لتيارات أدبية مثل الرمزية والبرناسية والسيريالية، وغير ذلك مما أضحى تاريخاً يقرأ فقط، ومعلومات يمكن الاستفادة منها في الناحية التجريدية وليست التطبيقية.

خصوصية الحضارة الإسلامية

أجدني متفهماً لما ذكره «هاشم صالح» من أن تيار الحرفية أضر بالفكر الإسلامي وحصره في شكليات تحجب مقاصده الحقيقية التي تسعى للارتقاء بالإنسان فكراً وسلوكاً، وإن الحقبة الإسلامية التي شهدت انطلاقة الحضارة العربية والإسلامية ما كان لها أن تنتشر لولا ذلك التنوع الثقافي والفكري في داخل جسد الحضارة الإسلامية، إضافة إلى الانفتاح الواعي على الثقافات الأخرى كالفارسية والهندية واليونانية. ويجب أن نقر

بأنه لولا أن الإسلام يحمل في جوهره فكراً إنسانياً عميقاً يسعى لتحرير الإنسان من كل أشكال العبودية، وتوجيهه عقيدة وفكراً نحو عقيدة التوحيد الخالص لله وحده، لولا هذه الخصوصية التي انفرد بها الإسلام لما كان بالإمكان انتشار ثقافة الإسلام وفكره في جميع أنحاء العالم، فالعرب قبل الإسلام كانت تحكمهم النعرات القبلية التي وصفها الإسلام بأنها «مُنتنة»، وهي عبارة يجب الرجوع إليها والوقوف عندها ملياً في هذه الحقبة الهامة.

ولقد اعترف مُفكِّرو الغرب بأن نهوض الإسلام على فكر إنساني معياره الفضيلة والتقوى، وليس اللون أو العرق والجنس، وهو أحوج ما تكون إليه الحضارة المعاصرة التي من أسوأ مظاهرها الإغراق في المادية الجدلية. وتدليلاً على ذلك يمكن الإشارة إلى ما ذكره «أرنولد توينبي» في كتابه القَيِّم الموسوم «الإسلام والغرب والمستقبل».

يؤكد «توينبي» أن هناك مصدرين ظاهرين من مصادر الخطر، الأول نفسي، والثاني مادي في العلاقات الحاضرة بين البروليتاريا العالمية وبين الفئة الحاكمة في المجتمع الغربي، ومصدرا الخطر هذان هما:

(١) التمييز العنصري.

(٢) الخمر.

وفي مجال الصراع ضد هذين الشرين نجد للفكر الإسلامي دوراً يؤديه ويبرهن فيه، إذا سمح له بتأدية هذا الدور عن قيم اجتماعية وأخلاقية سامية، فعدم وجود التمييز العنصري بين المسلمين هو أحد أبرز الإنجازات الأخلاقية للإسلام، والعالم المعاصر في وضعه الراهن بحاجة ماسة لنشر هذه الفضيلة الإسلامية.

إلا أنني أجد نفسي مختلفاً مع «هاشم صالح» في رأيه الآخر، وهو ضرورة حشد هذا العدد الكبير من العلوم الإنسانية الغربية التي لها جذورها وخصوصيتها الحضارية، ليتسنى لنا فهم الإسلام الحقيقي، فالإسلام هو دين الفطرة، وإذا كان فهو من السهل وصوله إلى القلوب والعقول بعيداً عن هذا الجيش الجرّار من المصطلحات التي سوف تغيب حقيقة هذا الفكر وبساطته وشفافيته وحسن مقاصده.

والإشكالية الأخرى التي تحيط بمشروع «أركون» الفكري هي انبهاره بالثورة الفرنسية، حيث أشار إلى ذلك في المجلد الثالث من مجلة «الأزمنة» (العدد ١٤، فبراير ١٩٨٩م).. ويقول «أركون» في هذا المنحى: «فالعرب يمكنهم أن يفيدوا كثيراً من فرنسا، ومن التيارات الفكرية التحررية والجادة في الثقافة الفرنسية، وهنا أشير على وجه الخصوص إلى مسألة العلمنة في فرنسا منذ ثورة ١٧٨٩م، ويمكن أن ينتهز العرب الفرصة لحل أكبر مشكلة مطروحة على المجتمعات العربية والإسلامية، وهم يحلونها عن طريق توليدي فكري تحليلي وتنويري داخل الإسلام والثقافة العربية، وهذا الفكر غير موجود للأسف الشديد حتى اليوم».

إن الثورة الفرنسية التي انتقدها المفكر الإنجليزي «أدموند بيرك» ـ وأهل الدار أعرف بما فيها ـ ووصفها بأنها «تمثل تهديداً خطيراً لكل ما هو إنساني».. ويضيف «بيرك» والذي كان معاصراً لهذه الثورة: «فالثورات إذ تهدد استمرارية المؤسسات التقليدية وسلطتها باسم العقل لا تفعل إلا قيادتنا عاطفياً في وجهة لا عقلانية إن لم تكن بربرية».

ولعل «بيرك» يشير إلى ما صاحب الثورة الفرنسية من إباحة وعبثية وهدم للقيم الروحية والإنسانية، وإذا كان مفكرو الغرب يخشون بربرية

هذا التوجه، فهل يدرك «أركون» وتلميذه النجيب «هاشم صالح»، تلك المسافة الشاسعة التي تفصل بين حضارتين وفكرين، وإن علمنة الإسلام لا يمكن لها إلا أن تقود للدمار، بينما الإسلام هو جوهره يدعو لعمارة الأرض.

العالم الموسوعي أحمد عبد الغفور عطار(*)

بموت الأديب الأستاذ أحمد عطار، وانتقاله إلى جوار ربه ـ يفقد العالم العربي والإسلامي واحداً من العلماء الموسوعيين الذين كتبوا في فنون متعددة ولكن عن معرفة وبعمق بدءاً بالشعر الذي تأثر فيه بالتيار المهجري أسوة برصفائه من الأجيال الأولى من شعراء هذه البلاد كمحمد حسن عوّاد، ومحمد عمر عرب، والترجمة التي نقل ـ من خلالها ـ روائع من إبداعات الشاعر الهندي «طاغور» والتاريخ الذي دوّن فيه سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وموحد الجزيرة جلالة الملك عبد العزيز ـ رحمهما الله ـ وانتهاءً باللغة التي حقق فيها بعضاً من المصادر الهامة كمعجم الصحاح والنقد الذي استطاع أن يتمكن من مناهجه وأدواته فيخرج لنا دراسات جادّة عن المذاهب الفكرية المنحرفة كالشيوعية، والماسونية، والقاديانيّـة.

ثمّ هو ـ بعد ذلك ـ محاور فذّ وكثيراً ما يخرج من حلبة النقاش منتصراً كما تكشف عنه دراسته العلميّـة «إيه ليتك تؤمن» في نقد الشيخ ناصر الدين الألباني، حول موضوع هامّ وهو وجوب التأدّب مع المصطفى

(*) **المصدر**: ملحق التراث (المدينة المنورة، عدد ٨٦٧٢)، الاثنين ٢٧ رجب ١٤١١هـ، ١١ فبراير ١٩٩١م.

ـ ﷺ ـ وزوجاته ـ رضي الله عنهن ـ فسوء الأدب قد يتسبّب في شطحات ما أغنانا عنها وما أجدرنا بتجنّبها.

لقد كان العطار ـ رحمه الله ـ علامة مضيئة وبارزة في تاريخنا الفكريّ والأدبيّ؛ فهو بقيّـة جيل أعطى كل ما يملك للكلمة الهادفة، والرأي المستنير، والفكر المستقيم مثله في ذلك مثل: حمد الجاسر، وعبد القدّوس الأنصاري، وأمين مدنيّ، وعبد الله بن خميس.

وعندما نقول إنهم أعطوا كل ما يملكون أو جله، فإننا لا نتزيد في قول، أو نزيف تاريخاً، أو نغالي في مكانة فلقد شارك هؤلاء في إصدار عدد من الصحف والمجلات التي لا تزال إلى اليوم تحقق لأبناء الجزيرة العربية عطاءً ثقافياً متميزاً ينبع من تراث هذه الأمة ويحترم ثوابتها ومنطلقاتها ويعمل على تطويرها.

لقد شاركت هذه الفئة الطيبة بأموالها وأقلامها ولم تقف هذه المشاركة الصحافية الرائدة في طريق عطائها الأكثر تخصصاً فكان منهم الباحثون في اللغة والأدب والتاريخ والتحقيق العلمي، وقد أتاح لهم هذا العطاء مكانة في البلاد العربية والإسلامية الأخرى فالعطار يقر بمنزلته العلمية مفكر كعباس العقاد، والجاسر يشهد له بسعة المعرفة أديب كطه حسين والأنصاري تملك الدهشة من عمق معرفته بمصادر التشريع الإسلامي عالماً كالشيخ محمد المنتصر الكتاني ويبقى كتاب السيد أمين مدني في «تاريخ العرب» مرجعاً هاماً في كثير من المؤسسات العلمية المعروفة.

ومع هذا العلم الواسع، وذلك العطاء الفكري الذي ظلّ متواصلاً على الرغم من التقدم في العمر وما يترتب عليه من ارتباطات وأعباء فإن هذه الفئة تتميز بالتواضع الجم المتمثل في حوارهم العلمي المفطر بالأدب،

وتشجيعهم لشداة الأدب، وطالبي المعرفة دون أستاذية مصطنعة أو ترفع ممقوت.

ولعل هذا الخلق الرفيع في التعامل وذلك المسلك المرتفق في التوجيه هو ما جعل هذه الصفوة من الرجال تحفر على هذه الأرض الطيبة، تاريخاً مضيئاً نجد أثره في هذا الحب الذي يتبدى لهم في حياتهم وبعدها.

بالحوار وليس بسواه تبلغ الأمة وحدتها واجتماع كلمتها(*)

حدد فريق من كبار علماء المملكة العربية السعودية مهبط الوحي وموئل الرسالة عند لقائهم بكبار رجال الفكر والقانون في أوروبا وذلك في عام ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م. وكان يرأس الجانب السعودي فضيلة الشيخ محمد علي الحركان رحمه الله وكان ممن ضمهم الوفد فضيلة المشائخ الشيخ راشد بن خنين، الشيخ عمر بن مترك، الشيخ محمد بن جبير رئيس مجلس الشورى حالياً والشيخ عبد العزيز المسند، والشيخ محمد المبارك رحمه الله والذي كان يدرس في كلية الشريعة بمكة المكرمة وغيرهم. حدد هذا الفريق المؤلف من هذه الشخصيات العلمية التي لا غبار على توجهاتها الدينية والعلمية والفكرية المبادئ الإسلامية العالمية التالية:

أولاً: المبدأ الذي حددته وجهرت به شريعة القرآن حين توجهت إلى البشرية معلنة نداء الله لبني الإسلام في كلمة الله المقدسة القائلة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ (الحجرات: ١٣).

(*) **المصدر**: ملحق الأربعاء (جريدة المدينة المنورة)، شوال، ٤ ديسمبر ٢٠٠١.

ثانياً: المبدأ الذي ختم به رسول الإسلام دعوته وحياته في أعظم حشد اجتمع في الحج الأكبر ليقول لهم ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى.

ثالثاً: وأخيراً المبدأ الذي أوصى به رسول الإسلام في نفس ذلك الجمع الحاشد داعياً إلى السلام وإنه من لوازم الإيمان ومحذراً من سفك الدماء وإنه من لوازم الكفر بالله فقال: لا تعودوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض معلناً بذلك شريعة الله في الناس إذا آمنوا به كما جاء في القرآن الكريم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ (البقرة: ٢٠٨).

انظر: ندوات علمية حول الشريعة الإسلامية وحقوق الإنسان في الإسلام، رابطة العالم الإسلامي، ط٢: ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م، ص ١٠٦ .

ويسأل الإنسان نفسه لماذا لا يستطيع المسلمون عكس هذه المفاهيم في خطابهم الدعوي الإعلامي وبدلاً من أن ينقلوا هذه المفاهيم والمبادئ الإنسانية السامية في المجتمعات الغربية فإن خطابهم كان موسوماً في كثير من الأحيان بالشدة والغلظة والقسوة وبدلاً من أن يحتوي قاموس الداعية على كلمات هي من صميم جوهر الإسلام، مثل السلام، الرحمة، العدالة، التآلف، التعاضد، حسن الظن بالآخرين، جواز الاختلاف فيما هو داخل في فروع الشريعة الإسلامية وليس في منطلقاتها الأساسية.

نعم لقد كان خطاب بعض طلاب العلم في العالمين الإسلامي والعربي بعكس ما هو ضد ذلك وبما يبرز وجهاً متجهماً وغاضباً ـ جاعلاً من نفسه محور الإيمان الحقيقي ـ وما سواه موسوم بالشرك والبدعة والفسوق وتسمع الخطيب في عدد من مساجد العالم الإسلامي والعربي،

فلا يمكنك أن تحصي مثل هذه العبارات القاتلة لروح التسامح والآخاء والمحبة، والعاملة بفاعلية على نشر روح الفرقة بين أفراد أمة تنطق بالشهادتين وتؤدي ما يترتب عليها من تكاليف شرعية معروفة، وكأن قول الرسول ﷺ الذي ورد في خطاب علماء من خيرة هذه الأمة المحمدية والذي حذر فيه من سفك دم المسلم لأخيه المسلم، (لا تعودوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض) كأن هذا القول النبوي المحذر لهذه الأمة لم يمر على بعض من تصدوا للدعوة ونصبوا أنفسهم قضاة على عقائد الناس، أو أنهم مروا عليه ولم يستوعبوه كما لم يستوعبوا غيره، مع أن علماء السلف الصالح تنبهوا لمخاطر هذه الفتن التي جنت على الأمة الإسلامية من قبل بعض طلاب العلم المتنطعين فهذا الإمام السلفي التوجه يذكر في كتابه المعروف (السيل الجرار): (اعلم أن الحكم على الرجل المسلم بخروجه من دين الإسلام ودخوله في دين الكفر، لا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقدم عليه إلا ببرهان أوضح من شمس النهار، فإنه قد ثبت في الأحاديث الصحيحة المروية عن طريق جماعة من الصحابة أن من قال لأخيه (يا كافر) فقد باء بها أحدهما، هكذا في الصحيح، كما وضع العلماء المحققون ضوابط عديدة في هذا الشأن حتى لا تنتشر هذه الفتنة التي قد تجني على الأمة وتفكك وحدتها، وتوهن من قدراتها وتتسبَّب في انتشار البغضاء والحقد بين أبنائها وأفرادها ولهذا فإن عالماً وفقيهاً وداعية كبيراً مثل الشيخ عبد الرحمن السعدي تحدث عن هذه الضوابط حديثاً علمياً وموضوعياً ربما كان من الأجدى لبعض طلاب العلم وخطباء المساجد في العالم الإسلامي أن يقفوا عليه ويتدبروا مقاصده ومعانيه، لقد قال فضيلة الشيخ (السعدي) رحمه الله في كتابه (طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول) ما نصه:

(ولا يلزم إذا كان القول كفراً أن يكفر كل من قاله مع الجهل والتأويل، فإن ثبوت الكفر في حق الشخص المعين كثبوت الوعيد في الآخرة في حقه، وذلك له شروط وموانع).

لقد أخرج فضيلة الشيخ الدكتور صالح بن حميد الرئيس العام لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف، وعضو هيئة كبار العلماء كتاباً فريداً ومتميزاً في مضامينه وأسلوبه وهو (أدب الخلاف) وهذا الكتاب يعكس سعة أفق الشيخ ابن حميد، ولقد ورث ذلك عن أبيه فضيلة الشيخ العلامة عبد الله بن حميد والذي كانت حلقته تمتلئ كل عشية في المسجد الحرام من حول بئر زمزم إلى عتبة باب السلام كما يوضح الفهم العميق لدى الشيخ صالح لمقاصد الشريعة وأحكامها وآدابها، وحبذا لو اقتنى بعض طلاب العلم وخطباء المساجد نسخاً من هذا الكتاب القيم وقرأوه حق القراءة حتى لا تنفلت الألسنة منهم وبدون ضوابط بعبارات التكفير والتفسيق والتبديع. وأورد هنا بعضاً من الأفكار الهامة التي أوردها الشيخ صالح بن حميد في هذا الكتاب القيم: (يجب الجد في السعي من أجل إحياء الأخوة الإسلامية الحقة لتلتقي الأمة بفئاتها وجماعاتها على نصرة دين الله حباً فيه وولاء لله ولرسوله ﷺ انتماء يستعلى على كل انتماء، والخطاب في هذا اللقاء أيها الأخوة موجه إلى أهل العلم والفكر.. علماء وطلبة علم، تطرح القضايا والمسائل على بساط البحث، ويبذل الجهد في تمييز الصواب من الخطأ، يحترم رأي كل مجتهد سواء كان مخطئاً أو مصيباً، والتحامل على المجتهد أو تجريحه مسلك في العلم منكور، وخطؤه لا يبيح النيل من عرضه، ولا يسوغ تلمس المعايب للبراء، والتشهي بإلصاق التهم بالناس).

لقد كثر الحديث أخيراً عن الحوار بين العالمين الإسلامي والغربي وهو أمر جيد ولكن أليس الأولى أن تتحاور الأمة ممثلة في فئاتها الدينية المختلفة مع بعضها البعض وتلتقي عند كلمة سواء، وتهجر إلى الأبد هذا القاموس الذي طغى على الخطاب الديني.

تعالوا يا رفاق الدرب إلى كلمة سواء(*)

تدور في الساحة الثقافية والفكرية العربية بعد كل حدث من الأحداث نقاشات عدة عن كيفية استفادة الأمة من هذه الأحداث وتوظيفها إيجابياً لصالح الفرد والمجتمع العربيين وهذا ما يجعل دور المؤسسات العربية على مختلف وظائفها وتوجهاتها من الأهمية بمكان ويلقي على هذه المؤسسات من الواجبات الوطنية عبئاً جسيماً يجدر بها أن تتحمل مسؤوليته بكل ثقة وشجاعة وتجرد.

الأحداث العالمية الأخيرة رمت بنا في خانة الدفاع عن النفس وغدونا نتسابق على توضيح مواقفنا الفكرية المستمدة من ديننا الحنيف وتراثنا الأصيل الذي مثل حلقة الوصل بين الثقافة القديمة والحضارة المعاصرة ولولا التراث الإسلامي الذي طفق الغرب بعد صحوته من العصور الوسطى يترجمه ويقدمه لمؤسساته المعنية بتطوره وتقدمه لم يكن بمقدوره ـ أي الغرب ـ الوصول إلى ما وصل إليه من تقدم تقني.

ثم كانت مرحلة أخرى بعد تلك الصحوة وحقبة الضعف الإسلامي وهي مرحلة التوجه للتراث الإسلامي برؤية مغايرة وهي المرحلة التي

(*) **المصدر**: ملحق الأربعاء (جريدة المدينة المنورة) الأربعاء ٢٢ شعبان ١٤٢٢هـ/٧ نوفبر ٢٠٠١م.

جسدها الاستشراق ومدارسه والتي توافرت على دراسة التراث العربي والإسلامي وتحقيقه وكان وراء هذا الاهتمام بواعث عدة منها ما هو ذاتي محض ـ وهو النادر ـ ومنها ما هو مرتبط بالهيمنة الاستعمارية وما زال شبح هذه المدارس الاستشراقية يتردد بصورة قوية وفاعلة وذلك في ظل غياب عربي وإسلامي رهيب، وذلك أن الغرب سعى إلى تفريق الأمة لأنه وجد ضعفاً فينا وقابلية لمثل هذا الضرب من صنوف الاستراتيجية الغربية ـ نعم لقد رسم الغرب بعد معاهدة سايكس بيكو المشهورة خارطة الدول العربية والإسلامية بما يخدم مصالحه ويعزز مواقعه فكان تقسيم الأمة الواحدة، وتبع ذلك أن أضرم نار الفتنة فأضحينا شيعاً وأحزاباً، ولقد قرأت مقابلة في إحدى الصحف العربية مع واحد من علماء الدين المرموقين في نظر مريديهم وأتباعهم بأن العدو الأول للتوجه الذي يؤمن به لا يوجد خارج الدائرة الإسلامية بل في داخلها ولهذا فعليه مسؤولية إعادة هذا التوجه النافر والذي ينطلق في أفكاره من المنطلقات الأساسية للأمة ولكنه يختلف معه في بعض الفروع وفيما لا يدخل في جوهر تعاليم الدين الإسلامي الحنيف ولكنه ينحصر في قضايا فرعية ظلت الأمة تلوك القول فيها لقرون عدة وسوف تنقضي قرون قبل أن يفرض أصحاب الرأي الأحادي والمنغلق رأيهم بالقوة وإصرارهم على ذلك ولو أدى ذلك إلى القتال والتناحر.

هذا نموذج شائع في بعض مجتمعاتنا الإسلامية والعربية ولكنه النموذج المسؤول عن تشويه حقيقة الفكر الإسلامي الأصيل، فلقد كان علماء الأمة في العصور الذهبية من تاريخنا يختلفون في ساحة العلم ثم ينصرفون وهم يبتسمون ولا يحملون غلاً ولا ضغينة لبعضهم البعض، وعندما سئل الإمام

علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن الخوارج هل هم كفار فأجاب: لا بل هم من الكفر فروا، ووصفهم في عبارة حبذا لو تمعن فيها بعض طلاب العلم الذين يحجرون على الرأي الآخر ويضيقون على إخوانهم وأشقائهم في الدين ما وسعه الله لهم ـ لقد قال الخليفة الرابع (بل هم ـ أي الخوارج ـ إخواننا بغوا علينا أو خرجوا علينا) ونسي هذا النفر الذي يضيق ويتجهم إن قلت له قال: أبو حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل ـ رحمهم الله ـ يتجهم وجهه ثم يسألك ولكن محدث العصر قال بخلاف ذلك، أي محدث هذا الذي مهما أوتي من العلم لن يبلغ شأو صحابة رسول الله ﷺ والتابعين والأئمة من قرون الخير؟؟ مع أن أولئك الأئمة كانوا على درجة كبيرة من التواضع فهذا إمامُ دار الهجرة يقول في مسجد رسول الله ﷺ وهو يشير إلى مثوى سيد الأولين والآخرين كل منا يأخذ منا ويرد إلا صاحب هذا القبر يعني الحبيب والرؤوف الرحيم عليه صلوات الله وسلامه.

نعم لقد تناسى هذا البعض الذي لم يفق بعد من غفلته أن أئمة الحديث الكبار، رووا عن عمرو بن عبيد أحد أئمة المعتزلة الكبار والمعروف بتقواه وعلمه وورعه وزهده، حتى إن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور قال: مخاطباً علماء عصره (كلكم طالب صيد إلا عمرو بن عبيد).

لقد نسي هذا البعض الذي يسعى بكل ما أوتي من قوة قفل باب الحوار وإعطاء الآخر ـ المسلم ـ حقه من إبداء الرأي الذي لا يتعارض مع أصول الدين ومنطلقاته.

نعم ولقد نسوا أن الإمام مالك بن أنس مع سعة علمه وعظيم فضله

ورفض ما طرحه عليه خليفة المسلمين أبو جعفر المنصور من تعميم موطئه على جميع ديار الإسلام وعلل الإمام مالك رحمه الله توجهه ورفضه بأن صحابة رسول الله ﷺ تفرقوا في الأمصار، مما يعني رفض الإمام مالك فرض رأيه في الفقه والحديث على الآخرين آخذاً في الاعتبار طبيعة هذا الدين الحنيف الذي لم يفرض العقيدة قسراً على الآخرين ولهذا كان المجتمع الإسلامي من أكثر المجتمعات تسامحاً فعاش فيه أهل الملل الأخرى وفضلوه لخصوصيته تلك على إخوانهم في مللهم ونحلهم.

قبل الدعوة إلى الحوار مع الآخر علينا أن نوطن أنفسنا على إفساح باب الحوار والنقاش بين بعضنا البعض فذلك الأهم والأولى.

العروبة أصلنا والإسلام ديننا(*)

كنا في زمن الطفولة حيث نشأت في بلد المصطفى ـ ﷺ ـ نفرح بقدوم شهر رمضان المبارك فرحاً نعبر به بطرق شتى ولكنها بريئة وصادقة، هذه المدافع تؤذن بدخوله تنطلق من جبل (سلع) وهذا الصباح الأحمر يضيء من المنارة (الرئيسية) في مسجده ـ ﷺ ـ ومع أن اللون الأحمر إلا أنه مثل الضوء الأخضر للإنسان الحاد البصر الذي يقوم بإطلاق المدفع عند رفع الأذان ندياً من جوار مثوى سيد الخلق وشفيعهم ـ عليه صلوات الله وسلامه.

اليوم وقد دخلنا زمن الكهولة ومع تغير أحوال الدنيا أضحينا نفرح بالقليل، فهذا صديق يأتي صوته عبر سماعة التليفون ليقول على عجل (كل عام وأنت بخير) وتقول في داخلك هذا إنسان فيه خير، أو إنه قادم من زمن البراءة والصفاء.

وفرحتي الكبرى مع بداية هذا الشهر المبارك في كل عام هي التهنئة الصادقة التي يدفع بها المفكر الكبير السيد أحمد زكي يماني لأصدقائه ولقد عرفت أبا (مي) وهو يجلس على كرسي الوزارة وبعد أن غادرها وقد

(*) **المصدر**: صحيفة المدينة (عدد ١٤٠٩٠)، الثلاثاء ٥ رمضان ١٤٢٢هـ/ ٢٠ نوفمبر ٢٠٠١م.

خدم دينه ومليكه ووطنه وأمته فلم تغيره أحوال هذه الدنيا كما تغير البعض فهو حفي بهم يسأل عنهم من لندن، وجنيف وبوسطن، ويحتضنهم في هذا البلد المعطاء حباً صادقاً، وأخاءً كريماً، وهذا ليس بغريب على ابن شيخنا السيد حسن يماني.

وفي تهنئته التي يجد فيها العقل والفكر نزهته ومتعته طرح مفكرنا هذا العام أسئلة لم يجب عنها حول العمل الإرهابي الشنيع الذي وصفه بالعبارة التالية (إنني أجزم ما حدث في الحادي عشر من سبتمبر بمدينتي (نيويورك وواشنطن) بوصفه عملاً ضد الإسلام لا ينبع منه ويتعارض مع تعاليمه)، ثم يدخل أستاذنا إلى جوهر الحدث المأساوي بهذه الحيثية (ولكن الذي اتضح للمراقب المحايد المتجرد من عاطفته ويفكر بعقله أن هناك جهة أو أكثر عرفت بالجريمة قبل وقوعها وقامت بتصرفات تدل على معرفتها) ولا يتوقع أستاذنا الكريم من الجهات المسؤولة عن التحقيق أن تسمح لجميع الحقائق بالظهور ومن الأمثلة التي يطرحها صاحب التهنئة الرمضانية المتميزة.

المثال الأول: يتعلق بجماعة غير معروفة دخلت سوق البورصة في (نيويورك) واستخدمت وسيلة البيع المسمى (ى) لأسهم شركات الطيران وشركات التأمين، وذلك قبيل الحادي عشر من سبتمبر.

المثال الثاني: يتعلق بخمسة من الرجال اليهود والذين صعدوا بآلات التصوير إلى سطح عمارة تشرف من بعيد على البرجين المستهدفين ويذكر مفكرنا الكبير أن صحيفة أمريكية اسمها الوثائق تصدر في ولاية (نيوجرسي) انفردت بذكر الواقعة واستطردت تقول إن الخمسة أصابتهم لوثة فرح وسرور وعندما سألتهم الأجهزة المختصة عن سبب فرحتهم أجابوا بأن الشعب الأمريكي يذوق الآن ـ طعم الإرهاب الذي عانى منه

الإسرائيليون من الفلسطينيين ويضع أستاذنا علامة تعجب بعد العبارة التي نطق بها هؤلاء الإسرائيليون فما يحصل من الشعب الفلسطيني هو مقاومة في وجه إرهاب الدولة وقد أفرجت السلطات عن هذه الثلة الإسرائيلية التي كانت تعمل في شركة نقل معظم موظفيها من الإسرائيليين.

ويقارن السيد زكي يماني هذه الأريحية مع اليهود بما يحصل للمسلمين فيقول: (وأنا أعلم أن العربي المسلم بأمريكا ولمجرد الاحتمال بضلوعه في الإرهاب يقبض عليه ويودع المعتقل محروماً من أبسط الحقوق في الاتصال بمحام رغم أنه في بلد الحرية والديمقراطية).

لقد بقي الكثير من التساؤلات التي طرحها كاتبنا الكبير دون تحديد إجابة عنها، وكان ينقل معلوماته من مصادر أمريكية موثقة من بينها صحيفة الوثائق القليلة الانتشار وهي صحيفة كما يذكر كاتبنا الموضوعي تحظى باحترام قرائها ودقة معلوماتها، ولكن ما يدعو إلى الدهشة أن أخبارها لا تتعدى نطاق قرائها، وتغفلها جميع الصحف ومحطات الإذاعة والتلفزيون الأمريكية.

ويختم السيد (زكي يماني) تهنئته الموضوعية والهادفة والموثقة بما وصفه (بأنه هجوم إعلامي مكثف على المملكة وهو لا شك يجد دعماً وتوجيهاً من صقور السياسة وهدفه الحقيقي هو الهدم وليس الإصلاح، والضغط للحصول على المستحيل وهم في حملتهم جهلة واهمون يلعبون بالنار التي تحرقهم وتهدم اقتصادهم ويدفع ثمنها شعوب العالم كافة، مضيفاً رعاه الله أن (بلادنا العزيزة بمثابة القلب يضخ لاقتصاد العالم المتردي ـ حالياً ـ الدماء إلى شرايينها ويبعث فيها الحياة)، مضيفاً جزاه الله خيراً (إننا لن نخلع رداءنا ونغير سحنتنا فالعروبة أصلنا والإسلام ديننا).

ملحق التراث والتيارات الفكرية المعاصرة(*)

لقد تبين لأعداء الإسلام: بعد قرون طويلة من الاستعمار السياسي، والمواجهة الصليبية: أن أنجح وسيلة لحرب الأمة الإسلامية والعربية هو محاربتها من الداخل، أي: بأيد عربية السحنة: شرط أن يتحقق فيها انعدام الهوية، واستلاب الإرادة، وشذوذ المنزع والهدف، وأن تكون هذه الحرب موجهة ـ بالدرجة الأولى ـ ضد اللغة العربية، إيماناً منهم بدورها الفعال في الربط بين الفرد المسلم وتراثه الفكري، وتيقناً بمدى قدرتها ـ بصورتها الأصلية ـ على تشكيل مناحي التصور لدى الأمة اعتماداً على ما أنزله الله في كتابه الكريم، وأتت به سنة نبيه ـ ﷺ.

ومن هنا: بدأت الحرب الفكرية المدبرة التي كان دعاتها في أواخر القرن الماضي، ومطلع هذا القرن، مبشرين: يحملون ـ في يدهم اليمنى ـ الإنجيل، وفي الأخرى دعوة صريحة لهجر اللغة الفصحى، واستبدالها بالمحلية أو العامية، كان من هؤلاء الألماني «ولهلم سبيت» والإنجليزي «وليم ويلكوكس»، ولم يتورع هؤلاء المبشرون عن استخدام كل الوسائل التي تهيئ لدعوتهم الانتشار، ولأفكارهم الترويج، فكان من أمر

(*) **المصدر**: ملحق التراث (صحيفة المدينة، عدد ٨٣٩٢)، الخميس ٨ شوال ١٤١٠هـ، ٣ مايو ١٩٩٠.

«ويلكوكس» هذا أنْ تحصل على امتياز مجلة تسمى «الأزهر» ومعلوم ما يمكن أن تحققه هذه التسمية من تقديم لهذه الأفكار الاستشراقية المغلوطة بمنهج يعتمد على استثمار العواطف الدينية عند عامة الناس، وتكريس التقاليد الاجتماعية في عملية نقلها بينهم.

ولم يغادر هؤلاء المبشرون الساحة الفكرية حتى تيقنوا من أن دعواتهم المبطنة بالحقد والعداء قد وجدت الاستجابة المطلوبة عند بعض المنتسبين إلى الأمة اسماً، والغارقين في خيالات الجاهلية، أو العلمانية، أو الفرعونية، والفينيقية فكراً وتوجهاً وتبرز في ساحة المواجهة أسماء ـ عديدة يأتي ـ في مقدمتها: مارون غصن، وسلامة موسى، ولويس عوض، والصلة بين الأخيرين عميقة وهذا يستفاد من كتاب «عوض» الأخير «أوراق العمر، سنوات التكوين» حيث يشير إلى علاقته بأستاذه في عبارات تحاول نفي التعصب الديني عنه، وربطه بالمنظمة العربية للتيار العلماني.

يقول عوض: «ولا أعتقد أن سلامة موسى كان مسيحياً إلا بالميلاد، وكانت جميع أديان التوحيد يضعها في سلة واحدة كان ينظر إلى جميع الأديان من وثنية وتوحيدية كأنها فولكور راق كان لا يعرف إلا الخيال العلمي أما الخيال الأدبي فلم يكن له عنده وجود.

وإذا كان «عوض» قد انطبع انطباعاً عميقاً بأستاذه السالف الذكر فإنه لم ينس ـ في معمعة كتاباته السياسية والأدبية، وانشغالاته الصحافية ـ أن ما يظهر ولاءه لأساتذته من المنصّرين الغربيين، ويشاركهم الهجوم على اللغة العربية ويشكك في قدسيتها وارتباطها بالقرآن، وما انبثق عنه من علوم ومعارف، وسجل هذا الولاء الفكري بصورة واضحة في كتابه «في فقه اللغة العربية» الذي صدر في سنة ١٩٨٠م ولم يعدم «عوض» مع هذا

كله من أن يدافع عن اتجاهاته الفكرية المنحرفة، وينتصر لميوله الفرعونية المستهجنة.

ولعل هذا ما جسدته عبارات «جابر عصفور» في مجلة الهلال وعدد مارس ١٩٩٠م حيث يقول: «ومن المؤكد أن لويس عوض يعرف أن العرب ليسوا كلهم أعراباً، وأن فرعونيته لا تتناقض مع عروبته، بل تتكامل معها. وأن عروبته مكون أساسي من ثقافته وإسهامه ومن المؤكد ـ أيضاً ـ أن كتاباته وإنجازاته أضافت إلى العروبة والعربية ما لم يضفه الكثيرون ممن يتشدقون بالعروبة ويدافعون عن العربية.

ولا بد لنا أن نشير أن «الخال» كان واضح التعبير عن أهدافه التنصيرية التي سعى إليها من وراء معظم محاولاته الأدبية والشعرية وهي ترجمة الإنجيل باللغة العامية لتتذلل بذلك صعوبات معرفة مصطلحاته بين أفراد المجتمع العربي.

ولئن كان «الخال» من الجرأة ليحدثنا عن عقيدته المسيحية وسعيه الحثيث لجذب الناس إليها فإننا نحتار في هوية من أطلق على نفسه المخرب الكبير والشعوبي العظيم ثم يستشهد ـ في مداراته ـ بأحاديث النبي ـ ﷺ وأقوال الصحابة، ويكتب عن شاعرية لغة القرآن وهو يهدف من وراء ذلك إلى التضليل على عقول فئة من الناس وإيهامهم بسلامة مقصده وحسن نواياه.

إن «أدونيس» ينطلق ـ في دعوته التي نهضت بها مجلة «مواقف» في لبنان ـ من رؤية عقدية واحدة وهي معاداة التراث الإسلامي وما دعوته المتوسلة بالشعر والغموض إلا لتحقيق أهدافه التخريبية الكبرى التي يقول عنها: «إن استمرار البنية التعبيرية القديمة دليل على استمرار البنية الثقافية

الذهنية القديمة فتحطيم البنية التعبيرية ـ إذن ـ دليل على الخروج من البنية الثقافية القديمة».

وتنتصب ـ اليوم ـ كذلك في ساحة الفكر العربي أسماء عديدة منها: حسن حنفي، ومحمد أركون، ومحمود العالم، والجابري، وعبدالله العروي، وغالي شكري، ومحمد برادة، وهذه الأسماء ـ إن اختلفت في مناهجها التي توسلت لمناقشة قضايا الفكر العربي بين ماركسية وعلمانية وبنيوية تكوينية مرتبطة ـ أيضاً ـ بالفكر الماركسي فإنها تتفق في شيء واحد وهو غرض الإجهاز على سلفية الفكر وأصالته ووضوحه والبحث عن الأمثلة الشاذة في مسيرتنا الفكرية للالتفاف حولها والترويج لمقولاتها.

في هذه الأجواء الفكرية المشبوهة التي يحاول أصحابها أن يجدوا لهم أرضاً يقفون عليها وقواعد إعلامية ينطلقون منها يتضح دور ومواقف «ملحق التراث» الذي كان ـ منذ بدايته قبل خمسة عشر عاماً ـ واضحاً في منهجه الذي اختطه لنفسه، ورسالته التي اضطلع بأدائها وهو: خدمة التراث الإسلامي من منظور لا يعترف بالأصباغ الداخلية والثنائية المكشوفة فكان أرضاً لا تطأها أقدام المتشككين، ومنبراً ترفع عن أباطيل الإرجاف والإثارة.

وإذا كانت الوسائل الفكرية والعلمية أدوات ترتبط حقيقة وأهدافها بالمشرفين عليها، والقائمين على إدارتها فمن وضوحهم تستمد صفاءها ونقاوتها، ومن سمو توجهاتهم تنطلق في آفاق الفكر والمعرفة لتؤدي ـ بذلك ـ دوراً تدعم به مسيرة الأمة، وتضيء به دروبها فإنه مما لا شك فيه كان لزميلي الدكتور الفاضل محمد يعقوب تركستاني دوره الرائد الصالح في النهوض بهذا «الملحق» ومقاومته وصموده في ساحة الفكر والثقافة.

لقد كان لهذا الرائد: المنطلق من حلقات الدرس بالمسجد الحرام وما تشعه من نور، وتبعثه من هداية والمتمرس بعلوم الشريعة واللغة وفنون الأدب في رحاب «كلية الشريعة» بجامعة أم القرى كان له فضل المجاهد الذي يضحي براحته ووقته في سبيل أن يظل لهذا المنبر وهجه ومتابعته واستمراره ومجنباً إياه ـ في نفس الوقت ـ ضبابية الفكر وطروحات الإثارة والتعدي التي أصبحت أخيراً منهجاً يحتذى عند المتنكرين لإسهامات أهل الفضل، والمتطلعين للفكر الآخر عن جهل بأسسه ومناهجه وعدم دراية أو إتقان للغاته، ومصطلحاتها ودلالتها.

وأود أن أختم هذه الإسهامة المتواضعة في هذه الذكرى العزيزة علي.

ولكنني سأقف بالقارئ على مائدة من موائد «جريدة المدينة» أعني «ملحق التراث» الذي اعتدت، ومنذ زمن طويل أن أرى فيه أحبة أصدقاء لم ألتق بهم ولكنها صداقة في التوجه نحو خدمة التراث وتتبع أخباره: التراث بمعناه الواسع زماناً ومكاناً أي التراث القديم والحديث، والتراث العربي والإسلامي في كل أعصاره وأمصاره.

فللَّه درّ هذه الحديقة الغناء «ملحق التراث» فلطالما شممنا عبرها أريج التراث وحلو روائحه وروائعه.

فهذا خبر عن كتاب نُشر أو رسالة نوقشت، أو ندوة جرت، أو مؤتمر عقد في النقد والأدب والبلاغة في الشعر والنثر في الفقه والحديث والتفسير في النحو والصرف. . .

وقد تجاوز الأمر أخبار التراث التي يغلب أن تتصدر من «الملحق» هاتين الورقتين الوارفتين من أوراق «جريدة المدينة» فأنت تجد في الصفحة الثانية والثالثة والرابعة من هذا «الملحق» النفيس الذي حرصت عليه

«المدينة» فضمته كواسطة العقد بين طياتها تجد مادة طيبة في غير فن من فنون التراث الخصب.

وأذكر ـ في هذه المناسبة ـ أن أستاذاً مجمعياً زارني في رحلة له لأداء العمرة قد وقع على «ملحق التراث» فأخذ يقرأ بعض ما في «الملحق» من مواد فهاله أن يكون هذا «الملحق» جزءاً من «جريدة» يومية سيّارة وفي هذه الشهادة البريئة من عالم فاضل لا يعرف شيئاً عن هذا «الملحق» ـ بحكم البعد المكاني ـ ما يؤكد أن هذا «الملحق» يعدّ متعة ثقافية حقيقية لطبقة خاصة من المثقفين.

أما وقد بلغ هذا «الملحق» عمر الشباب بعد أربع عشرة سنة مباركة ـ فإني لأنتهزها فرصة أهنئ بها كل من أحبوه، وشاركوا فيه قراءة وكتابة.

وإنها لفرصة طيبة من أهل «المدينة» بهذا «الملحق» الذي ينبض فيها نبض القلب، وقد وضعته منها وسطاً موضع القلب في كل يوم من أيام الخميس.

كما أهنئ الرجل العالم الفاضل الذي كنت أظنه «فريق عمل يقوم بشؤون الملحق» ويسهر عليه يستقبل المادة ـ وله طريقة ودية خاصة في التعامل مع الكتاب ـ ويقومها ويشرف على تصحيحها وضبطها فضلاً عن أمور فنية أخرى يقوم بها ـ أسبوعياً ـ في إعداد هذه المائدة الأسبوعية الحافلة هذا إلى جانب أعماله الرئيسة الأخرى فأعان الله الأخ الفاضل الدكتور محمد يعقوب تركستاني وأجزل له الثواب على ما يبذل من جهود طيبة.

ومع فرصة التهنئة أود أن تكون هذه المناسبة مواتية لأنه ولى «الملحق» بمزيد من العناية من جانب القراء وذلك بمزيد من المشاركة من

بعض الباحثين كأن تعمل فهرسة شاملة لما دونت فيه من تبويب للموضوعات ويستحسن أن يلي ذلك دراسة للحركة اللغوية والأدبية في هذا الجزء من العالم الإسلامي سيكون «ملحق التراث» مصدراً مهماً في هذه الدراسة.

كما يستحسن ـ أيضاً ـ أن تنشر مواد منتقاة من هذا «الملحق» في ميادين اللغة والنقد والأدب وغيرها من أبواب «الملحق» الثرة.

ولقد سرني أن أعلم أن ما نُشر من هذا «الملحق» حتى الآن مما يزيد على ثلاثة مجلدات ضخمة وأحسب أن هذا «الكم» الكبير يحتاج منا إلى وقفة طويلة ويستحق أن يُنظر إليه بوصفه مصدراً من مصادر حركة إحياء التراث في العصر الحديث.

وختاماً، فإني أتمنى لهذا المنتدى التراثي الخصيب. أن يستمر متدفقاً لا يتهدده الانقطاع، ومنبراً من المنابر التي توصل صوت التراث في أصقاع المعمورة.

رثاء إنسان «عبد الباسط عثمان»(*)

لعل من مآسي هذا الزمن الذي نعيشه الجحود والنكران لبعض أصحاب الكلمة الذين يخرجون من هذه الدنيا فلا نسمع عن مآثرهم شيئاً، وتكتفي الصحف بخبر مقتضب عنهم، بينما تفرد الصفحات لنجوم الفن والسينما والرياضة.

عبد الباسط عثمان رجل مثقف ـ بكل ما تعنيه هذه الكلمة ـ عاش بيننا حوالى عقدين من الزمن، فلقد تعرفت عليه في صحيفة المدينة الغراء مترجماً وباحثاً، فلقد كان يتحدث الإنجليزية بطلاقة ويجيدها كتابة وثقافة.

وكان يعرف الكثير عن الصحافة الإنجليزية ورموزها القديمة مثل مايكل فووت، وبابرا كاسل، وريتشارد كروسمان، وهي أسماء جمعت بين إجادة فن الكلمة والتعامل مع الشأن السياسي، وكان (مايكل فووت) إذا ما خطب في مجلس العموم، أو خارجه ينصت إليه رفاقه وخصومه بإعجاب، وتعترف مارجريت تاتشر والتي زاملته زعيماً للمعارضة العمالية في الفترة ١٩٧٩ ـ ١٩٨٣م بأنه أي (فووت) كان متحدثاً موهوباً، وكان فووت يمشي إلى مجلس العموم على عصاه بلباسه الشديد البساطة فلقد كان عمالياً حقاً وعلى النقيض من بعض المثقفين العرب الذين يدعون الانتماء

(*) **المصدر**: صحيفة المدينة (عدد ١٤١٢٥)، الثلاثاء ١٠ شوال ١٤٢٢هـ/ديسمبر ٢٠٠١م.

إلى اليسار، أو التوجه الاشتراكي، فلا يطيب لهم إلا أن يحلوا نزلاء في الفنادق الباهظة الكلفة والجامعة لأنواع الترفيه، وتبلغ كلفة إنفاق أحدهم على تدخين السيجار ما يقرب من عشرين ألف دولار في العام الواحد، ثم يتحدثون ـ متوهمين السذاجة في الناس ـ عن منافع التأميم وتقاسم الثروة.

أصيب (عبد الباسط) المثقف والإنسان ـ بمرض الفشل الكلوي فهب أهله في السودان الشقيق ـ وهم أهل شهامة ووفاء ـ للتبرع له بكلية تزرع مكان الكلية السقيمة ولكن ضيق ذات اليد حال بينه وبين شراء الدواء الذي يحول دون رفض الجسم للكلية المستنبتة ورأيته قبل أشهر في زيارة للصديق الأستاذ علي حسون في صحيفة البلاد وهو متكئ على باب الصحيفة متألماً فسألته عن الأمر فأجاب بصوت خفيض وهادئ أحسست من نبراته طمأنينة القلب والرضا بالقضاء والقدر داخل تلك النفس الصافية التي يتوطنها الحب الصادق لكل ما هو جميل في هذه الحياة، فلقد كان عبد الباسط ـ يرحمه الله ـ في صحته ومرضه يشيح بوجهه عن مواضع القبح في هذه الدنيا.

إن من حق الزميل عبد الباسط علينا أن نكرمه من خلال رعاية كريمة يقوم بها الإخوة الكرام في صحيفتي المدينة والبلاد لأسرته التي لا أعرف عنها شيئاً، ولكن تذكر الإخوان لأسرته بعد وفاته، سوف يمسح شيئاً عن أسرته مما تعرضت له من حزن وأسى بعد فقده بعد أن أمضى زمناً طويلاً يقلب في ملاحق الصحافة العالمية السياسية منها والاقتصادية والفكرية، ليضع هذا الزاد الفكري بين أيدي المتطلعين ـ بشغف ـ لما يدور في هذا العالم الذي أضحت ضريبة التقدم والرقي فيه بعضاً من النسيان وشيئاً من الجحود، ولكننا ولله الحمد في مهد العروبة والإسلام نملك رصيداً ضخماً من قيم الشهامة والنبل والوفاء.

رجل العلم والفضل محمد بن حسن فدعق

قبل ما يقرب من ثلاثة عقود من الزمن صعدت إلى جبل هندي بمكة المكرمة شرفها الله قاصداً طلب العلم على يد أحد علماء البلد الحرام وهو فضيلة السيد حسن فدعق رحمه الله. ولما علم الرجل بأنني طالب علم في كلية الشريعة وقادم من ديار المصطفى ﷺ، احتفى بي أيما احتفاء مع أنه كان متقدماً في السن.. أجلسني جزاه الله خيراً بجانبه وهي الحظوة التي أكرمني الله بها، على يد عدد من العلماء العاملين الذين كانت تزدهي بهم حلقات العلم في بيت الله، وكان المجلس الذي يُفتتح بالقرآن الكريم مساء كل يوم أربعاء تقدم فيه قراءة من أحد كتب السنة لصحيح البخاري ومسلم ثم يقوم السيد حسن بالشرح والتعليق يستفيد منه العامة والخاصة، أحكام الدين الحنيف، وهذا هو المنهج الذي سارت عليه أمة الإسلام في الحفاظ على سنة نبيه ﷺ وتعاليمه، وكان ابنه الذي أرثيه اليوم بهذه الكلمات المتواضعة وهو السيد محمد بن حسن فدعق يجلس مع إخوته إلى جانب والده ليساعدوه على القيام والقعود في رضاء وطمأنينة ويبتسمون في وجوه الحاضرين حباً ووداداً ولقد ظل ابنه السيد محمد وفياً للمجلس العلمي لوالده ولم يُغلق هذا المجلس يوماً واحداً وهو مجلس قارب عمره على المائة عام وانتشرت منه ثقافة دينية قائمة على الوسطية والاعتدال وداعية إلى أخذ الناس بالرفق والموعظة الحسنة، وساعية إلى نشر سيرة خاتم

الأنبياء والمرسلين عليه صلوات الله وسلامه ويقتضي سياق الحديث أن أذكر أن السيد محمد فدعق كان من زملائه رجال أفاضل مثل الشيخ عبد الله بصنوي، والسيد صافي علوي رحمهم الله جميعاً وكانت دراستهم آنذاك في مؤسسة علمية معروفة تدعى المدرسة الراقية.

رحم الله السيد محمد وجعل الخير والبركة في ذريته الصالحة إن لله وإنا إليه راجعون.

ينابيعه . . شخوص وحارات مضيئة بالصفاء الروحي(*)

هذا الرجل كرس حياته للعلم والأدب وفضلاً عن دوره النبيل في تعليم الأجيال الجديدة بالجامعة . . فهو لم يكتف بهذا الدور . . بل خاض الكثير من المعارك الأدبية والثقافية دفاعاً عن تراثنا الأدبي والثقافي في مواجهة الهجمة التي يتعرض لها من قبل مدعي الحداثة . . وأثرى مكتبتنا بالعديد من المؤلفات التي تستسقي منابع الأيام من حياتنا الخصبة والثرية والمليئة بالنماذج المضيئة والنبيلة .

إنه الدكتور عاصم حمدان الذي التقت معه ثقافة «الأسبوعية» في هذا الحوار .

عن تجربتي

*** لكل كاتب تجربته الخاصة في الكتابة . . ماذا عن تجربتك؟**

السؤال مثير ويستدعي الكثير من الذكريات والحكايات الكامنة في نفسي . . فقد ظللت أكتب في صفحة الأصدقاء بجريدة «المدينة» سنوات

(*) **المصدر**: صحيفة المدينة، العدد ١١٤٣٠، الأحد ٩ صفر ١٤١٥هـ/١٧ يوليو ١٩٩٤م.

طويلة قبل أن يعترف بي ككاتب.. وأنا في الحقيقة سعيد بهذا.. . فقد أتاحت لي هذه التجربة أن أتمرس في الكتابة.. فبعد عشر سنوات بدأتها في عام ١٣٨٥هـ إلى عام ١٣٩٥هـ اعترفت بي «المدينة» ككاتب وكان ذلك في ملحق «التراث».. لذا يدهشني الكتاب الناشئون الذين يريدون البداية من الصفحات الأولى.. أي من آخر الطريق وليس من أوله.

والحمد لله.. فبعد هذه التجربة الطويلة أصبح لي عدد من المطبوعات والكتابات الدورية.. لعل أبرزها كتابات في هذه الصحيفة المحببة إلى قلبي.. صحيفة المدينة.

شخوص عديدة

*** المتتبع لأعمالك الأخيرة سيلاحظ أنك منذ حارة الأغوات والمناخة ترصد عالماً واحداً تكاد تتطابق أشخاصه؟**

الحقيقة اختلف معك في أن شخوص أعمالي تتطابق إلى هذا الحد.. فالاتفاق بينهم في سمة عامة هي طيبة النفس والصفاء الروحي.. وربما لأنني أردت أن أرصد عالماً كنت جزءاً منه.. وهو عالم تسوده طيبة النفس والعفوية والبعد عن التصنع الذي بدأت تفرضه علينا الحضارة الوافدة.

وعدا ذلك.. فكل شخص أكتب عنه يختلف في مسيرته عن الآخر.. بمعنى أنهم وإن كان يجمعهم عالم واحد وبيئة واحدة تتسم بالصفاء. إلا أن تفاصيل حياة كل منهم تختلف عن الآخر.

تجربة مضيئة

*** إذن. . كيف ترى شخوص أعمالك؟**

أراهم كما أرى أرضنا الطيبة. . أراهم مضيئين مشرقين إيجابيين. . فأنا ضد الدخول في العوالم القاتمة أو السلبية خاصة إذا كانت مفردات شخوص الواقع المحيط بك إيجابية.

ما أردت أن أقوله من خلال تجربتي وشخوصي. . هو أن هناك تجربة مضيئة في الحياة. . في زوايا وأعماق النفس الإنسانية وهي تجربة تحتاج إلى اكتشاف ونستطيع من خلال تسليط الضوء عليها أن ننشر الفضيلة. . وأنا بخلاف تصورات البعض لم أكتب عن تجربة لم أعشها. . وأذكر أن مجلة «اليمامة» كتبت عن «حارة الأغوات» عند ظهورها في كتاب أن هذا المؤلف مشابه لتجربة نجيب محفوظ في روايته «زقاق المدق» و«خان الخليلي» باعتبار أن الحارة هي القاسم المشترك بين تلك الأعمال. . وإن كان في هذا القول شيء من الصحة فالحقيقة إن حارات نجيب محفوظ تختلف عن الحارات التي كتبت عنها. . محفوظ ركز في حاراته على السلبيات. . وحاراتي التي كتبت عنها أحدها ملاصق للمسجد النبوي. . ومليئة بالنماذج التي تستمد سلوكياتها من الآفاق والعبق الروحي لهذه الأماكن.

الحنين

*** مناخات ودوافع الكتابة لديك. . هل تحدثنا عن مفرداتها وطقوسها؟**

في صغري. . لم أكن ذلك الطفل الذي ولد وفي فمه ملعقة من ذهب. . فأنا من أسرة متوسطة الحال. . وقد كنت كثير الحركة والتنقل. . وما أدركته ووعيته لم يدركه زملائي الذين هم في سني، والسبب في ذلك

أن محور حركتي كان ينطلق من الحرمين المكي والنبوي واختزنت في ذاكرتي صوراً عديدة للحياة في هذه الأماكن المقدسة.. هذه الصور كانت مخزوناً لكتابة بعض فصول عن حارة الأغوات عندما كنت أدرس خارج المملكة وقبل أن أنشرها على صفحات ملحق الأربعاء الأسبوعي.. فالحنين هو دافعي الأول إلى الكتابة.. ومع كتابة كل حلقة كان القلم يسقط من يدي واستقر في غرفتي مغلقاً الباب على نفسي وأهلي يطرقون الباب علي ولا يعلمون ماذا بي.. ولا يعلمون ماذا يحل بي من تعب وأنا أحاول أن أذهب بعيداً في أعماق نفسي وذكرياتي مقتطعاً التجربة من وجداني ومشاعري وأحاسيسي وهذا فيه من التعب ما فيه.

البعض يقول أو يتصور أنني أكتب المقالة في خمس دقائق.. وهذا غير صحيح.. فلا أحد يستطيع الكتابة بإخلاص في مثل هذا الوقت.. فأنا أكتب وأعود مرة واثنتين إلى ما كتبته.. ولم تكن الصنعة هي هدفي بل الولوج إلى عالم اللاشعور في نفسي.. وإلى عوالم حقيقية عرفتها وتفاعلت معها عن قرب.. ولعل هذا التفاعل وتلك المصداقية جعلا لها قبولاً بين الناس.. فالذي أكتب عنه حقيقياً وصادقاً.. وليس تاريخياً.. وإنما تجربة ذاتية وكتابات عن الناس وأماكن أعرفهم.. والذاكرة كما نعرف انتقائية.. وما قصدته بالدرجة الأولى هو الكتابة عن سلوكيات وليس عن أفراد.. وبمعنى أدق سلوكيات من خلال أفراد بعينهم.

أصول بعيدة

*** في كتاباتك ارتباط شديد بالمكان.. خاصة أحياء المدينة المنورة بالرغم من أنك من أبناء الجنوب.. وبالتحديد من بلاد غامد؟**

هذا رابع جيل من أسرتنا ينشأ في المدينة المنورة.. أي لنا حوالى

قرنين في المدينة.. والناس عندما يجاورون الحرمين يتشرفون بالانتساب إليها لا لشيء إلا لأنها بقاع مقدسة.

وأسرتنا في المدينة معروفة باسم حمدان وإن كنا ننتسب بالفعل إلى بلاد غامد.. وكثير من الناس يعتبرني غامدياً.. والبعض يعتبرني مدنياً.. وآخرون يعتبرونني مكياً.. فنشأتي الأولى كانت في المدينة ولكني انتقلت إلى مكة المكرمة قبل عشرين عاماً وعشت فيها زمناً طويلاً.. والتقيت بعدد كبير من العلماء في المدينتين المقدستين وعرفت شوارعهما ودروبهما.. فأنا غامدي بالنسب ومدني بالمولد والنشأة والتعليم والرعاية.

عن المكان والزمان

*** هل نفهم من ذلك أن كتاباتك عبارة عن علاقة بين أشخاص وأماكن تنتمي إليك أو تنتمي إليها؟**

نحن كبشر مرتبطون بأماكن وأزمنة محددة ولا نستطيع أن نتصور أنفسنا إلا في حيزها.

عن النقد

*** كيف ترى حركة النقد في حركتها مع الإبداع؟**

بصراحة حركة النقد حركة تنظيرية أكثر منها مواكبة للإبداع.. برغم أن البدايات التي رأيناها مع عبدالله عبد الجبار وهاشم الفيلالي وعزيز ضياء ومحمد عمر توفيق وأحمد محمد جمال كانت بدايات مبشرة لم تقيد نفسها بالنظريات والمناهج النقدية التي يعرفها بعض نقاد اليوم أو بعض الأكاديميين.. ومع ذلك فقد خدمت الحركة الأدبية والإبداعية في بلادنا.. أما نقاد اليوم فهم ينظرون أكثر مما ينقدون.. فالنقد إبداع في حد ذاته..

أما إذا تحول إلى نوع من التنظير فلن يستطيع خدمة الحركة الإبداعية.. فكثيراً ما تستخدم مناهج نقدية لا تتفق مع أشكالنا الإبداعية والسبب هو النقل الحرفي من المناهج النقدية الغربية دون محاولة للاستفادة من هذه المناهج أو تطويعها بما يتناسب مع أدابنا وفنوننا.

أي أزمة؟!

*** إذن.. هل هي أزمة نقد.. أم أزمة إبداع؟**

لا هذا ولا ذاك.. وأذكر حكاية للأستاذ محمد حسين زيدان رحمه الله حين كان يوماً في بلد غربي وقرأ في جريدة سعودية مقالاً باسم مستعار.. لكنه اكتشف وبسرعة أن هذا المقال للأستاذ حمزة شحاتة.. والمسألة ترجع باختصار إلى أن الأستاذ حمزة شحاتة، استطاع أن يكون له لغته وأسلوبه الخاص.. وكذلك لو قرأ أحد مقدمة كتاب شعراء الحجاز في العصر الحديث للأستاذ عبد السلام الساسي لاكتشف بسهولة أن هذه المقدمة أيضاً للأستاذ حمزة شحاتة برغم أنه لم يذكر اسمه.. حبذا لو رجع إليها النقاد الذين يكتبون اليوم.. فسوف يكتشفون أن هذه المقدمة التي كتبت قبل أكثر من ٣٠ عاماً أو أكثر واستندت إلى التراث النقدي والثقافي لهذه الأمة برغم أن كاتبها كان كثير الإطلاع على الأدب والثقافة العالمية لكنه لم يفقد هويته الذاتية.. باختصار فالنقد لا يصنع كاتباً هشاً ولا يسقط كاتباً جيداً.

بدون جذور

*** ما تعليقك على قول الحداثيين بأن الحداثة تطور نفسها؟**

بعض الذين جعلوا من أنفسهم رواداً للحداثة غير مطلعين الإطلاع

الكافي على ثقافتهم وتراثهم. . إن لم يكن بعضهم يحمل هذا على الثقافة العربية. . بل إن بعضهم للأسف الشديد لا يعرف الثقافة الغربية معرفة حقيقية. . . بل ولا يجيدون أي لغات أجنبية. . وبالتالي لا يمكن القول إن حركة الحداثة أضافت لمسيرتنا الفكرية والأدبية خاصة وإن الحداثيين انسلخوا عن هوايتهم وفقدوا جذورهم. . . ولا يمكن الحديث أو القول بأي تطوير دون أن يستند إلى الجذور والهوية الذاتية للأمة.

الهوية أولاً

*** أين نضع شعر محمد حسن عواد؟**

محمد عواد رمز من رموز الحركة الأدبية في بلادنا وأتمنى من الأخوة الذين يسعون وراء التجديد أن يقرأوا شعره وأن يستفيدوا من أدواته ووسائله المتمكنة من التراث الأدبي العربي. . بل إنه استطاع أن يخرج لنا كتاباً في موسيقى الشعر وهذا دليل على امتلاكه ناصية الشعر العربي. .

والذي أطلبه من مبدعينا أن يجيدوا الوسائل. . فإذا أجدت الوسيلة وتمكنت منها بقوة استطعت أن تخرج أدباً جيداً. . وإذ لم تتمكن من لغتك لن تستطيع إجادة لغات الآخرين. . وإذا لم تتعمق في ثقافتك وتدرك أبعادها فلن تستفيد من ثقافة الآخرين.

خارج الأسوار

*** أستاذ الجامعة بشكل عام. . لماذا يتقوقع داخل أسوار الجامعة؟**

هذا يعتمد على التصور الذي يحمله أستاذ الجامعة. . فالبعض منهم يرون أن مهمتهم هي التدريس وأنت لا تستطيع أن تلومهم على ذلك لأنهم كرسوا أنفسهم لمهمة سامية رفيعة. . والبعض الآخر يكون قبل مجيئه

للجامعة مرتبطاً بالحركة الثقافية والفكرية والأدبية والجامعية لا تفصله عن هذه الحركة. . فهو يستطيع أن يؤدي واجبه العلمي وأن يشارك في دعم الحركة الثقافية والأدبية والفكرية على قدر جهده وإن كان في ذلك جهد كبير ومشقة على حساب الكثير من الواجبات الأخرى في حياته. . فالتقوقع ليس إلى الدرجة التي يراها البعض. . وهناك عدد من رؤساء تحرير الصحف أساتذة بالجامعة. . وهي مسألة ليست رهناً بأساتذة الجامعات وحدهم.

عن صحافتنا

*** الصحافة المحلية وأنت أحد المتعاملين معها. . كيف تراها الآن؟**

الصحافة المحلية قطعت شوطاً كبيراً من حيث الشكل والمضمون وهذا شيء يدعو للفرح والسرور. . ولكن لي وجهة نظر تتلخص في أن وسائل الإعلام الحديثة وبالتحديد التلفزيون أصبحت تزاحم الصحافة في مهمتها الأساسية وهي نقل المعلومات. . وأظن أنه بات على الصحافة أن تعاود التفكير في العودة إلى مسيرتها الأولى حين بدأت صحافة أدبية وفكرية. . فهذا ادعى لبقائها ومنافستها لقنوات الإعلام الأخرى.

المشروعات الفكرية والثقافية(*)

تحقق المشروعات الفكرية والثقافية أهدافها بمقدار إيمان القائمين عليها بالمنطلقات النابعة من تراث الأمة، والمتجذِّرة في نفوس أبنائها.

يضاف إلى ذلك قدرة هذه الأعمال على تحقيق التوازن الفكري في مجتمعاتها، لأنه لا يمكن لأي مجتمع في هذا الوجود أن ينفصل عن تاريخه، ويهرب من ماضيه، ويتبرأ من تقاليده؛ كما لا يمكنه ـ أيضاً ـ أن يغمض عينيه عما حوله من تيارات فكريّة، ورؤى إبداعية أخرى فيها من الغثّ ما يجب الحذر منه، وفيها من الومضات النيّرة ما يمكن الاستفادة منه، ودمجه ضمن الخبرات العلميّة لهذا المجتمع، وإعطاؤه الروح المميزة له؛ حتى لا يصبح نشازاً في المنظومة الفكرية التي يختصّ بها هذا المجتمع؛ دون سواه، وتمنحه تفرّده، وخصوصيته.

ولا شك أن «ملحق التراث» بهذه الصحيفة الغرَّاء ـ قد فطن ـ من بين الكثير من الملاحق الثقافية الأخرى ـ إلى ضرورة تحقيق التعريف بالتراث الإسلامي والعربي.

بيد أنه لم يتوقف عند هذا التعريف مؤمناً بضرورة الإنطلاق منه

(*) **المصدر**: ملحق التراث (المدينة المنورة، العدد ٨٧٤٢)، الإثنين ٨ شوال ١٤١١هـ، ٢٢ أبريل ١٩٩١م.

لتحقيق تصور كامل لما يجب أن تكون عليه وضعية الفكر والثقافة العربية؛ في هذا العصر الذي عرف بعصر المعادلات الصعبة أو الحرجة.

ولعل نسبيّة فهم هذه المعادلات هي التي أوقعت بعض الملاحق في شرك الثقافة المستوردة متناسية أن الفكر لا يمكن استيراده كما تستورد المواد الجاهزة، ثمّ استنباته في أرض غير أرضه، وأجواء تتباين عن أجوائه الطبيعية؛ فإذا هو يذبل كما تذبل الأوراق في الخريف، ويتساقط بين الأرجل؛ فلا يعبأ به أحد؛ لغربته وشذوذه، وإن كانت هذه الملاحق تعرف مسبقاً ـ مصير مثل هذه الجهود؛ التي تبذلها بحماس مستغرب في سبيل إيقاف هذا الفكر على أقدامه؛ التي يمكن وصفها بأنها أقدام اصطناعيّة؛ سرعان ما تخذل صاحبها وتدفع به إلى التشتت والانفصال عن واقعه الذي يعيشه.

و«ملحق التراث» آمن ـ منذ البداية ـ بأنَّ ارتداء الأزياء المزركشة قد يخدع الأبصار ولكنه لا يستطيع النفاذ إلى البصائر المستنيرة التي تستطيع أن تميز بين الأصيل والزائف من أشياء هذا الوجود، وحيث يوجد الحسُّ الخالص الذي أودعه الخالق في نفس الإنسان؛ ليبصر على هديه معالم الطريق، ويحدِّد به وجهته التي يسعى لبلوغها دون توجس أو تردّد.

وارتداء الأزياء المزركشة الذي رفض منطقه هذا «الملحق» هو الذي حفظ له كينونته، وصان له وجوده.

والحفاظ على الكينونة مطلب حضاريّ تؤمن به جميع أمم الأرض، وتحترم المتشبثين به، وتحتقر المفرِّطين فيه.

ولعلي لم أنس ـ يوماً ـ تعليق أحد الأساتذة الغربيين المتخصِّصين؛ في الأدب العربي، والتاريخ الإسلامي؛ بجامعة (لانكستر: Lancaster)

البريطانية وهو الدكتور (ديفيد وينز: David-Wains) على نوع من الشعر العربي الحديث؛ الذي يسعى أصحابه جاهدين بأن يكون صورة مطابقة للشعر الأوروبي؛ حيث استمع الأستاذ «ديفيد» إلى هذا الشعر في أحد المهرجانات التي كانت تعقد ـ في كل عام ـ في بعض البلاد العربية.

لقد قال لي يومها: «هل عقمت الأرض العربية أن تنتج شعراء يبدعون شعراً عربياً خالصاً في لغته وصوره وموسيقاه؛ إنَّ هذا الشعر؛ الذي سمعته لم أجد فيه رائحة الشرق التي أعرف عند زيارتي لحواضرها الكبيرة».

وأضاف هذا الباحث الغربي يقول: «وهو أيضاً ـ أي: الشعر ـ مسخ عن الشعر الغربي؛ وليس فيه من فكرنا الغربيّ إلا صور باهتة: تبعث سامعيه من الغربيين على ازدرائه، والخروج من القاعة عند قيام هذا الصنف من الشعراء بإلقائه على الآخرين».

ولعلَّ مكمن الدَّاء ـ في رأيي الخاصّ ـ ليس في هذا الشعر بقدر ما هو في مبدعيه؛ الذين لم يحسنوا؛ كما أحسن رصفاؤهم من أدباء وشعراء دول أمريكا اللاتينية في استيعاب معنى المعاصرة أو الحداثة (Modernity) ففهم هؤلاء لها كما عبَّر عنه الكاتب ـ (Octavio Paz أوكتافيو ـ باث) والفائز بجائزة «نوبل» للأدب لعام ١٩٩٠م؛ وذلك في محاضرته التي ألقاها في مدينة «استكهولم» في ٨ ديسمبر ١٩٩٠م؛ في مؤسسة «نوبل» نفسها بمناسبة تسلّمه للجائزة العالمية.

وبما أن «باث» ألقى محاضرته بلغته الأصلية الأسبانية التي يعتز بها فإن الملحق الأدبيّ لصحيفة «التايمز» البريطانية اضطلع بمسؤوليّة ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية.

لقد عبَّر «باث» عن هذا الفهم قائلاً: «عندما يكون هناك جسر بين

التراث والمعاصرة فإن الأخيرة تكون قادرة على إمداد الأول بمقومات الحياة؛ بينما يستجيب التراث إلى هذا العطاء بمنح العنصر الآخر في العملية الأدبية؛ العمق والجاذبية».

ثم مضى يقول: «لقد اكتشفت بعد بحث متواصل في مصادر المعرفة إلى أن المعاصرة لا توجد في الخارج؛ ولكنها تكمن في دواخلنا».

(T. L . S/December 21-27-1990/P/1384).

لقد كان فهم أدباء أمريكا اللاتينية لتراثهم فهماً واعياً، واعتزازهم به، والتفاتهم إلى أعماق نفوسهم؛ بكل ما تزخر به هذه النفوس من وعي بالذات، وثقة بمعطياتها التي اكتسبتها من تجاربها النابعة من ثقافتها وتراثها.

لقد كان هذا كله هو مصدر إعجاب الغرب ـ مؤسسات وأفراداً ـ بتجاربهم الأدبية، وانكبابهم على مطالعتها؛ لأنها تعكس ثقافة في مضامينها عن ثقافة الغرب، وتمثل تراثاً يتنفس في أجواء طبيعية لم تفسدها بعد ماديات الحضارة الحديثة، ويتخلَّله روح عفوية منطلقة لا تعترف بالحدود الاصطناعية؛ التي كان وراء تفشيها الفهم الماديّ المحض.

لقد كان هذا هو فهم أدباء أمريكا اللاتينية للتراث، وما يقابله من مصطلحات أخرى؛ وهو فهم مكَّن لهذا الأدب أن يخترق الحواجز الجغرافية، ويتجاوز الحدود الإقليمية؛ فرحَّب به الغرب، وأفسح له في جميع مراكز الثقافة، وحقول الأدب، ووسائل الإعلام.

بينما كان نصيب الأدب العربيّ المتقمِّص لروح غريبة عنه، والباحث عن ذاته في ذوات الآخرين، والعاجز عن تقديم ثقافة في ردائها الحقيقيّ، وبملامحها الطبيعية ـ كان نصيب الرفض؛ فهو لم يستطع الجلوس جنباً

إلى جنب مع الآداب العالمية الأخرى؛ فهو ينطبق عليه ـ في نظر روّاد هذه الآداب ـ تلك المقولة الشهيرة التي وصف بها «الصاحب بن عبّاد» أدب الأندلس عندما قرأ عقد «ابن عبد ربّه» وهي: «هذه بضاعتنا ردَّت إلينا».

لقد أفلح هذا «الملحق» في أن يكون له شكله المميز؛ ليس فقط فيما يتصل بالصفات الظاهرة، ولكنه يمتد إلى العمق، ويصل إلى المضمون؛ وهذا هو التحدّي الحقيقيّ الذي تواجهه ثقافتنا في هذه الحقبة، والامتحان الذي يجب أن تتجاوزه بروح القادر على صنع الفكر الحيّ، وبعزيمة الواثق من قدراته وإمكانياته الأدبية والفنية.

ولكن هذا المدى الذي استطاع «الملحق» بجهود الزميل الفاضل الدكتور محمّد يعقوب تركستاني، وتشجيع القائمين على شؤون هذه الصحيفة، أن يبلغه: لم يكن في نظر المحبِّين لهذا المنبر كافياً فهم يطمعون في اعتناء «الملحق» بنشر دراسات عن تراثنا الأدبي الحديث بكل صنوفه؛ توضح جيّده من رديئه، وأصيله من زائفه، ويأملون أن يمتد نشاط «الملحق» لنقد الدراسات الاستشراقية في حقول التاريخ والأدب، وأن يكون نقد هذه الدراسات مستنداً إلى أصول علمية؛ لتوضيح ما لها وما عليها؛ فلقد ملَّ القارئ الغربيّ من مادح لا ينظر إلى الأشياء إلا بعين الرِّضى والإعجاب تدخله ـ عن قصد أو غير قصد ـ في دائرة الاستلاب، وقادح يحمله قصور ثقافته ومحدودية إطلاعه على التقوقع والانزواء؛ مما ينعكس سلباً على فكر الأمة، وثقافتها التي لا تستغني عن التجديد الواعي والاتصال المتكافئ والمنضبط.

على أنه يجب علينا أن نعترف أن الخروج من هذا المأزق ليس بالأمر

الهيِّن، والمطلب السهل، ولكن عزائم الصادقين من أهل الفكر، والواعين من روَّاد المعرفة، أقوى من عوائق الطريق، وأقدر على السير ـ بتوفيق من الله ـ في منعرجاته، وتجنب مزالقه، ولقد نجح الأوائل من روادنا في اجتياز مثل هذه المعادلة، وما أجدرنا بمحاولات تقودنا لمثل نجاحاتهم.
والله وليّ التوفيق.

النقد في وسطنا الأدبي متأثر بمزاجية التعصب(*)

الكثيرون من أساتذة الجامعة غير المتخصصين في الدراسات التاريخية، اتجهوا إلى الكتابة التاريخية ولعل الدكتور عاصم كان البدء. هل يعني ذلك عدم وجود مؤرخين يسجلون الأحداث التاريخية؟ أم أن الكتابة التاريخية ميسرة وسهلة بحيث يستطيع التصدي لها غير متخصص؟

ـ لا أخالني أكتب تاريخاً إن كنت تعني بذلك مؤلفاتي مثل «حارة الأغوات» و«المناخة» فهذه كتابات إبداعية بحتة، ولقد ذكرت في مقدمة هذه الكتب بأن هذا النوع من الكتابة يمكن تصنيفه في باب الأدب ولا تصح تسميته تاريخاً إلا أن الإبداع الذي يتخذ من السرد تقنية له، يمكن أن يستوحي التاريخ ولكن بصورة غير مباشرة، لأن الأساس في الإبداع هو التصوير الفني، سواء كان هذا الإبداع قصيدة، أو رواية، أو صورة أدبية.

ثم إن هناك حقلاً آخر توجهت ـ بتوفيق الله ـ إليه في كتاباتي وهو «تاريخ الأدب» وهو الميدان الذي ألف فيه الكثير من المفكرين والأدباء ـ كمصطفى صادق الرافعي ـ وأحمد أمين ـ وطه حسين ـ ومارون عبود، وغيرهم وكتابي الذي اخترت له عنوان «المدينة بين الأدب والتاريخ» هو مما يمكن تصنيفه في المؤلفات التي تعنى بتاريخ الأدب.

(*) **المصدر**: ملحق الأربعاء (جريدة المدينة)، الأربعاء ١٩ رجب ١٤١٥هـ ـ ٢١ ديسمبر ١٩٩٤م.

مجمع علمي متكامل

*** مجمع للغة العربية بالمملكة هل تعتقدون بحاجتنا لمجمع لغوي؟**

ـ لا شك أن بلادنا التي تعتبر مهبط الوحي حيث تنزلت الرسالة الخاتمة وانتشرت فوق أرضها حضارة إنسانية كونية هي في مقدمة البلاد الإسلامية والعربية التي تقوم فيها مؤسسات تخدم العلم والمعرفة، فهناك مؤسسة الملك فيصل للدراسات الإسلامية ومدينة الملك عبد العزيز للتقنية، ومراكز لنشر البحث العلمي في عدد من الجامعات، ونتطلع إلى تجربة المجمع اللغوي ـ ولكن بصورة أكبر أي مجمع علمي يُعنى باللغة وغيرها، ويدخل في هذا كل ما يمكن أن يثري التجربة الحضارية التي تعيشها بلادنا ـ ولله الحمد ـ كالترجمة على أسس موضوعية، والبحث العلمي الذي ينفتح انفتاحاً واعياً لا تضيع معه الهوية الثقافية للأمة، ولا تتعرض معه الأسس والثوابت لتغيير كما يتصور البعض، فالأمة لا يمكنها بعد هذه القرون الطويلة أن تضيع أصولها وتسير في بيداء لا هادي فيها ولا دليل، وأمتنا أيضاً في تاريخها الطويل عرفت الانفتاح على الثقافات الأخرى وأدوات معارفها فالانغلاق يؤدي إلى الضمور والانفتاح الذي لا يرتكز على ثوابت ولا يعترف بماض، هو ذوبان في الآخر الذي يسعى بنفسه لتأكيد هويته الخاصة بكل الصور والأشكال.

المهارات أولاً

*** فكرة الجامعة الأهلية هل هي الأخرى طرحت ما مدى تأييدكم لإقامتها وإنشائها وما مدى الحاجة لها؟**

ـ الأهم في نظري من الجامعة الأهلية، هو معرفة ما تحتاجه الأمة في

مرحلتها الراهنة من تخصصات علمية ومطالب حضارية وهذا يحتاج لدراسة مستفيضة كما أن المهم ليس زيادة عدد الجامعات، تكمن الأهمية في ضوء معارف الطالب وثقافته في هذه الحقبة، إلى تزويد الطالب بالمهارات الأساسية كيف يكتب كتابة صحيحة، ويقرأ قراءة صحيحة وبالتالي لا بد له من أن يفكر تفكيراً سليماً.

الفتوى بدون علم

*** القضايا الإسلامية أرى أنها قضايا تلح على الكاتب بأهمية تناولها ومناقشتها وطرحها باستمرار ولكن زاد عدد الذين يتناولونها في كتاباتهم فتهمشت كتاباتهم ـ وسؤالنا ما هي أهم معايير الكتابة المؤثرة ـ خاصة فيما يتعلق بقضايا الأمة؟**

ـ منذ زمن طويل ذكر شيخنا الجليل «علي الطنطاوي» أنه لا بد من حماية الإسلام وقضاياه ممن لا يملكون المؤهلات المطلوبة للكتابة عنه، والقضية لا تقتصر على أن الباب أصبح مفتوحاً من دون ضوابط في شؤون الإسلام وقضاياه ـ مع التأكيد على أهمية هذه القضايا من منظور فكري وحضاري وثقافي ـ بل إنه أصبح البعض يتجرأ على الفتوى بغير علم، كما أن البعض لا يحمل في داخل نفسه حرمة لعلماء هذه الأمة الذين اجتهدوا وساروا إلى رحمة الله، ولهذا تجد هذا البعض يلوك بلسانه سيرة هذا السلف الصالح من أمتنا بدعوى أنه يريد التصحيح والإصلاح ولو تأمل حقيقة نفسه لانشغل بإصلاحها أولاً وأخيراً ولكفاه ذلك مطلباً، وهو إذ يسعى كما يدعي للتصحيح نجده يرتكب من الأخطاء بالتهجم على الآخرين ما يعد ضرباً من التجني غير الحميد والذي يزيد في فرقة الأمة بدلاً من أن يجمع شملها ويوحد كلماتها ويسد مواضع الثغرات في صفوفها.

تطهير ديني وليس عرقياً

*** لست أدري أستاذنا الفاضل عن أي قضية تتحدث فالعالم الإسلامي يموج بالقضايا والمشاكل ولكن دعنا نتحدث عن قضية البوسنة والهرسك وهي قضية ـ محزنة ـ مبكية ـ مؤثرة ـ ماذا تعني تلك القضية من منظوركم الشخصي. ومن خلال الصمت الغربي الرهيب تجاهها؟ وهل ترون فيها كما قيل «صليبية غربية جديدة»؟**

ـ قضية البوسنة والهرسك هي تطهير ديني واضح وليس تطهيراً عرقياً كما يدعي البعض «البوسنيون» ٩٠٪ أصولهم سلافية أي أوروبية محضة ـ والباقي من أصول تركية، ومع هذا عجزت حضارة الغرب ـ مع ادعائها الانفتاح وعدم التدخل في عقائد الآخرين ـ عجزت هذه الحضارة أن تستوعب هؤلاء القوم في كيان خاص بهم والسبب وراء ذلك أنهم «مسلمون» ولم تقف القضية عند استيعابهم وعدمه، ولكنها تعدته إلى محاولة التخلص منهم جهاراً وفي وضح النهار، تصور لو أن هؤلاء البوسنيين كانوا مسيحيين هل سيقف الغرب من قضيتهم مكتوف الأيدي؟ لو كان الأمر معكوساً لرأيت الأساطيل تتحرك، والبحر والجو يمتلئ بالسلاح والعتاد، ولسعى الغرب إلى تعقب القوم الذين قتلوا، والذين عذبوا، والذين استحلوا عرض النساء، ولم يرحموا بكاء الأطفال، وضعف المسنين ولحاكمهم محاكمة لا رحمة فيها، لقد جاءت قضية البوسنة والهرسك لتثبت للكثير من أنصار التغريب والمتحمسين له، أن الحضارة الغربية تتحدث عن مبادئ كثيرة ولكنها تؤمن أن هذه المبادئ من خصوصياتها، أما الإسلام فلقد كان على العكس من ذلك فهو يؤمن بحق الآخرين في الوجود، الخليفة عمر بن الخطاب رفض أن يصلي في كنيسة

القيامة لم يتعد على حق الآخرين، صلى في مكان خاص حمل اسمه من بعده، هل يستطيع الغرب أن يأتي بمثال واحد كصنيع عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه ـ صلاح الدين الأيوبي دخل فلسطين لم تتلوث يداه بدم خصومه ـ هكذا يقول الكتاب الغربيون أنفسهم ـ والغرب يشاهد كل يوم كيف يقتل الفلسطينيون لأنهم يقاومون المحتل بالحجر، ثم يسعى الغرب للرفع من شأن الحركة الصهيونية ـ التي هي وراء هذه العقلية اليهودية المتعصبة، ويصف هذا الغرب أن الصهيونية حركة تحررية ـ ويسعى جاهداً لرفع سمة العنصرية عنها، مع أنها حركة عنصرية واضحة المعالم والأبعاد ولكنه نفاق الغرب لليهود وتزلفهم لهم على حساب المسلمين، والازدواجية في التعليم «فبيجن ـ وشامير ـ وشارون» ليسوا بمتطرفين في نظر الغرب ـ اليوم ـ مع أنهم بالأمس القريب كانوا مطلوبين للعدالة ـ ليس لأنهم قتلوا العرب والمسلمين ولكن لأنهم قتلوا الإنجليز في حادثة فندق الملك داود بالقدس وقتلوا اللورد موين» وغيره من وسطاء السلام ودعاته.

وقضية البوسنة والهرسك كشفت حقيقة الإرهاب الذي كان الغرب بإيعاز من الحركة الصهيونية يحاول إلصاقه بالإسلام، ففي أعقاب مذبحة سراييفو الأخيرة وقف الزعيم الروسي الفاشي «فلاديمير جيرينوفسكي» الذي فاز حزبه المسمى «الديمقراطي الليبرالي» بربع أصوات الناخبين في الانتخابات النيابية الروسية الأخيرة وقف هذا الفاشي الجديد ليقول: إن جنوده سوف يحاربون المسلمين في البوسنة والهرسك تضامناً مع إخوانهم الصرب بغرض وقف الحرب وكأن المسلمين في نظره هم الجانب المعتدي، والصرب هم المعتدى عليهم ومع هذا لم نسمع المؤسسات

الغربية توجه نقداً لهذا الإرهاب الذي ينطلق من منطلق ديني ومتعصب بحت ـ كما توجهه دوماً للمسلمين، حيث تحاول هذه المؤسسات إلصاق تهمة الإرهاب بالإسلام والمسلمين من دون تفريق وبتعميم ينم عن الجهل التام أو التجاهل لحقائق الأشياء.

*** نعم.**

ـ لقد أظهرت مأساة البوسنة الوجه الخفي للحضارة الغربية، فلقد كانت تنفي عن نفسها سمة التدين أو الانحياز إلى العقيدة المسيحية، وعند حدوث هذه المأساة وتقاعس الغرب عن تطبيق النظام العالمي على الصرب لم يكن هناك مفر من أن الغرب كان يشعر بالتعاطف مع الصرب والكروات من منطلق ديني مسيحي صرف.

النقد معضلة كبرى

*** غياب النقد هل له دور في تزايد عدد الشعراء والكتاب والروائيين وما أسباب غياب النقاد؟**

ـ يواجه النقد في وسطنا الفكري والأدبي معضلة كبيرة تتمثل في عملية التعصب للرأي الواحد والمنهج الواحد ولو كان هذا التعصب لمذهب نقدي هو من صنع أيدينا ونتاج أفكارنا لكانت هناك مندوحة للتشبث به والتعصب له، ولكنها مذاهب نقدية مستوردة وقوالب أدبية جاهزة يريد البعض قسراً أن يخضع لها النصوص الأدبية ويفسر الأعمال الفنية وفقاً لإجراءاتها ولا بأس من الاستفادة من مناهج الآخرين وتقنياتهم إذا ما وجدت فائدة في تطبيقها، ولكن الخطأ كل الخطأ أن يحاول البعض فرض هذه المناهج فرضاً ـ وللأسف فإن الذين يتصدون لهذه المناهج ـ لا

يملكون الأدوات الحقيقية لمعرفتها فهم لم يطلعوا عليها في لغاتها الأصلية، ولا يملكون تصوراً شاملاً للسباقات الحضارية والثقافية التي أدت إلى بروزها في بيئتها الأولى من حديثهم عنها وكأنهم هم الذين كان لهم فضل الريادة في اكتشافها وهي قضية تستدعي البحث والمناقشة فواحد من هؤلاء مثلاً كانت دراسته العليا تنصب على تاريخ الأدب حيث حقق كتاباً تراثياً وقدم له بمقدمة باللغة الإنجليزية لا تتجاوز الخمسين صفحة وهو عمل يستحق الشكر عليه حيث إنه قدم كتاباً تراثياً للمكتبة العربية وإخراج مخطوطة عربية للنور لكن المفارقة العجيبة أن هذا المحقق التراثي وجدناه بعد ذلك يدعي أنه درس البنيوية في جامعات الغرب وكان يكتب أمام تخصصه اسم الكتاب التراثي «دراسة بنيوية» ثم استمرأ القضية، وقال: إنه المصدر الوحيد لكل المناهج الشكلية من بنيوية وأسلوبية، وغيرها، وخدع الناس بهذه الأقوال مع أنه من المعروف أن أقسام الدراسات الشرقية في الغرب لا توجد بها دراسات تتصل بالبنيوية وغيرها ولو تواضع هذا الأكاديمي قليلاً وذكر أن الدراسات البنيوية هي من اهتماماته وليست تخصصه الأصلي لكن ذلك مقبولاً منه، ولكنه ما زال يصر على هذه الدعوى ويدندن في كل مناسبة حولها.

ثم إن اطلاع البعض على ترجمات للمذاهب الشكلية التي ظهرت في الغرب وفي فرنسا على وجه أخص اطلاع يحتاجون معه للجرأة في القول بأن هذه المذاهب الشكلية كانت تدرس على أنها مذاهب أدبية برزت في فترة زمنية معينة ثم انتهت وبرز غيرها مما يمكن تسميته بموضات الأدب، وهي في هذا الأمر لا تختلف بشيء عن المذاهب الغربية الأخرى التي كانت سائدة في قرون وحقب ماضية مثل الكلاسيكية والرومانسية والبرناسية وغيرها من المذاهب الأدبية الأخرى.

ثم إنهم ـ أي المنبهرين ـ بهذه المذاهب الشكلية، لم يطلعوا على رأي النقاد الغربيين ـ أنفسهم ـ في هذه المذاهب ـ إبان حقبة ازدهارها ـ فهذا الناقد الإنجليزي المعروف جورج واشنطن يقرر في كتابه المعروف الفكر الأدبي المعاصر (Modern Literary Thought) ما نصه عن البنيوية أن الاهتمام البنيوي بالعقائد البشرية لا بد من أن يؤدي في نهاية الأمر إلى التقليل من شأن هذه العقائد، فليس بوسع من له اهتمام جاد بما في الالتزامات الدينية وغيرها من صدق وكذب أن يهتم أولاً بما تؤلفه هذه الالتزامات من أنماط وتماثلات فلم يؤمن الناس كما آمنوا ولم يعيشوا ويموتوا من أجل إيمانهم ولكي ينظر أحفادهم إلى معتقداتهم نظرة جمالية مستعلية كما لو كانوا لا يجيدون فيها شيئاً أهم من مجرد نمط في سجادة للعب ليس أكثر في نهاية الأمر ويزداد ذلك وضوحاً عندما ننظر إلى اهتمامها السائد بالأسطورة، حقاً من الممكن بشيء من الجهد اعتبار لفظ «أسطورة» ذات معنى محايد إلا أن هذا المعنى المحايد ليس بأي حال معناها الطبيعي المباشر، وحينما نتحدث ونكتب عن الأسطورة المسيحية أو الفرويدية ـ إنما نضع أنفسنا على الأقل في منتصف الطريق الذي يؤدي إلى الشك.

حقاً إن الشك بمعناه المباشر القفل أي بمعنى عدم الإيمان التام أو الفرض المطلق لم يعد هو الموضة الآن ويخرج واطسن بعد تقريره هنا بأن البنيوية تسعى إلى التشكيك في العقائد البشرية بجملتها لتحل هي محلها. . وهذا ينفي ما يدعيه أنصار البنيوية لدينا بأنها مجرد منهج إجرائي فقط، إنها فلسفة شمولية في الحياة، نعم يخرج واطسن بحقيقة واحدة مفادها لقد كانت البنيوية ساحة للعب ليس أكثر في نهاية الأمر. . الفكر الأدبي المعاصر ترجمة د. محمد مصطفى بدوي ص ٦٥ .

إن البنيويين في آخر الخمسينات الميلادية كانوا ينظرون إليها على أنها فلسفة شاملة للحياة ـ أي إيديولوجية لا تقبل الجدل ـ يذكر أيضاً واطسن هذا الرأي في كتابه المذكور. . فهو يقول ومن ذلك فمزاعم البنيوية عظيمة جداً إذ كانت تدعي في أوج ازدهارها ـ أي في أواخر الخمسينات الميلادية وما تلاها مباشرة من سنوات ـ أنها تفسر جميع الحقائق البشرية أو على الأصح أنها على وشك أن تفسر كل شيء، ثم يحدد واطسن رفض النقد الإنجليزي والأمريكي لادعاءات البنيويين في تلك الحقبة الماضية ـ بقوله ليس النقد الإنجليزي ـ الأمريكي مستعمرة من مستعمرات باريس ولذلك فلم يتحول الكثيرون من نقاد العالم المتحدث بالإنجليزية إلى البنيوية لم ينتجوا أكثر من مؤلفات قدموا فيها أفكار أساتذتهم من باريس.

إذا كان الغربيون ـ أنفسهم ـ وواطسن ـ ناقد كبير ومعترف به في الأوساط الغربية ـ رفضوا أن يصابوا بلوثة البنيوية وغيرها من المذاهب الشكلية فهل يريد أنصار هذا المذهب البائد أن نؤمن على دعواهم ونصم أذاننا ونحبس ألستنا لنسمعهم وهم ينقلون إلينا نتفاً مما سبق أن ترجمه بعض المهتمين بهذه المذاهب في بعض أجزاء من العالم العربي وخصوصاً ـ شمال أفريقيا ـ هذه هي معضلة النقد في ساحاتنا الفكرية والثقافية ولهذا توجه النقد من خلال استعراض البعض لعضلاته إلى التنظير وليس إلى التطبيق وإذا حدث أن حاول بعضهم أن ينزل من برجه العاجي فهو يختار بعضاً من النصوص التي توافق هواه وتسير مع توجهه ولهذا وجدنا في فترة من الفترات أن أسماء عديدة ظهرت بشكل مفاجئ لأنها لم تكن أصلاً مهيأة لذلك البروز ولكن الشللية والتوجه الآحادي أعطاهم ذلك البروز الزائف الذي سرعان ما اختفى وتلاشى.

ريادة القصة القصيرة

*** تختلف الآراء حول ريادة الفن القصصي في بلادنا. . ما هي وجهة نظركم حيال هذه القصة؟**

رائد القصة في الجزيرة العربية ـ بلا منازع ـ هو المرحوم الأستاذ محمد عالم أفغاني الذي كان مُدَرِّساً بمدرسة النجاح الابتدائية بالمدينة ثم بمدرسة طيبة الثانوية. . ومن مؤلفاته القصصية التي لم تنشر ـ كما أخبرني بذلك الأستاذ الفاضل محمد حميدة ـ (فصول من ورق) و(عالم الأحلام) وكان رائداً آخر معاصراً له هو الأستاذ (علي حوحو) وكان إنتاجه القصصي يحمل مسحة فرنسية بحكم ثقافة الأستاذ (الحوحو)، الذي استشهد في معركة تحرير الجزائر بعد أن غادر المدينة المنورة وأخذ من علمائها في الحرم النبوي الشريف، وعمل لفترة سكرتيراً لتحرير مجلة المنهل التي أنشأها العلامة عبد القدوس الأنصاري.

ولقد أشار إلى هذه الحقيقة البروفسور منصور الحازمي في كتابه عن (القصة) والذي ضمنه أيضاً بعضاً من النماذج القصصية التي كتبها الأفغاني و(حوحو) على صفحات مجلة المنهل، كما أن المرحوم الأستاذ عبد العزيز الرفاعي سبق له أن كتب عن الأفغاني ونتاجه القصصي، الذي يُعَدُّ البداية الأولى لفن القصة في بلادنا ـ رحمه الله ـ.

*** رجال يحتلون مواقع خاصة في نفسك؟**

ـ والدي ـ أمد الله عمره ـ الذي دفعني للتعليم وشجعني عليه، وعلمني ألا أذكر الناس، إلا بالخير وألا أخوض في خصوصياتهم.

ـ عبد الله بصنوي.. الذي كان يجمع بين ثقافة الأديب وأخلاق أهل العلم، وشجاعة أصحاب الرأي.

ـ أحمد الزين.. الذي أخذ بيدي إلى حلقات العلم ومجالس المحبة والذكر.

ـ شعراء يحق لنا أن نفاخر بهم في مسيرتنا الفكرية والثقافية: حمزة شحاتة وحسين سرحان وعبيد مدني ومحمد حسن فقي ومحمد هاشم رشيد، من جيل الرواد، وأسامة عثمان وعبد المحسن حليت بن مسلم ومحمد الحساني وعبد الرحمن عشماوي وجميل مغربي ومحمد المشاط ومعيض البخيتان وإبراهيم الزيد (الدكتور) وفاروق بنجر، وخالد النعمان من الأجيال اللاحقة.

*** أسماء كان لها دور متميز في تقييم النتاج الشعري والأدبي في بلادنا؟**

ـ عبد العزيز الربيع وعبد الرحيم أبو بكر ـ رحمهما الله ـ ثم جاء بعدهما جيل من حملة الدكتوراه الذين أعطوا اللقب العلمي ما يستحقه وهم: د. عمر الطيب الساسي ومنصور الحازمي، عبد الرحمن الشامخ، عزت خطاب، حسن الهويمل، سعد البازعي، نعيمان عبد الرحمن عثمان، وهذا الأخير لولا عزوفه عن النشر وميله إلى العزلة لأفاد الحركة النقدية في بلادنا بما يجعله حقاً الناقد الذي يجمع بين الثقافتين العربية والإنجليزية، وظهر هذا جلياً في بعض كتاباته بصحيفة الرياض قبل سنوات، حيث أثبت اطلاعه الدقيق ومعرفته الشاملة بقواعد النقد الألسني بعيداً عن ذلك الاستلاب الذي وجدناه عند البعض ممن لم يكن النقد الألسني من تخصصاتهم وثقافتهم فيه لا تتعدى قراءة ما يترجم من أعمال النقاد في المغرب العربي الذين كانوا أول من عرف هذا النوع من النقد.

أبو الحسن الندوي بين وسطية الفكر ولغة الوجدان(*)

في مقالة كتبها أحد المشتغلين بالأدب وفي معرض حديثه عن الأدب الإسلامي، غمز من منزلة الشيخ أبي الحسن الندوي ملصقاً به تهماً عدة من بينها دعوته لتكفير المجتمعات الإسلامية والعربية تحت مصطلح (الحاكمية)، ولا بد من الإقرار بداية بأنني لست من المنتمين إلى رابطة الأدب الإسلامي العالمية، ولم أتشرف بالاجتماع مع فضيلة الشيخ الندوي في حياته ـ رحمه الله ـ، ولكنني التقيت به من خلال أفكاره القيمة ومؤلفاته التي تفيض حكمة واعتدالاً ووسطية، بما يكشف ـ حقيقة ـ عن هذا العالم الذي يعد قدوة كما يرى ذلك المرحوم الأستاذ علي الطنطاوي ـ المعروف أيضاً ـ بانفتاحه ووعيه العميق وبعده عن رمي الناس في عقائدهم جهلاً أو تعصباً أو غلظة لا تعرفها مبادئ هذا الدين الحنيف.

يقول الأستاذ الطنطاوي في تقديمه ـ لمذكرات الشيخ الندوي ـ الموسومة (في مسيرة الحياة) وأنا لم أر فيمن عرفت من الناس من هو

(*) **المصدر**: ملحق الأربعاء، (صحيفة المدينة المنورة)، الأربعاء جمادى الآخرة ١٤٢٢هـ/ ٢٩ أغسطس ٢٠٠١م.

أبعد عن التكلف، وأقرب إلى البساطة (بالمعنى المتعارف لا بالمعنى اللغوي) من أبي الحسن فهو في لباسه ـ كما وصف الشاعر إقبال ـ يلبس أيسر لباس وأرخصه، وأبعده عن الزهو والتعالي).

وفي تقديم الشيخ الطنطاوي للكتاب الذي ترجم فيه الندوي روائع (إقبال) في الشوق لديار الهدى والإيمان.. يقول الطنطاوي عن لغة الحب المتوهج التي كتب بها إقبال، والأخرى التي ترجم بها الندوي (على أن ذاك حب الجسد، وهذا حب الروح، وذاك حب الرغبة الأرضية التي تزول، وهذا حب العاطفة السماوية التي تبقى ما بقيت الحياة).

ويقول الشيخ الندوي بلغة الحب التي تكشف عن صفاء النفس، وحسن الظن بالآخرين وخلو الذات من شمائل الصلف والتكبر التي لا تمت لمبادئ الدين الإسلامي بنسب وصلة، يقول الشيخ عن كتاب (محمد إقبال) الفيلسوف والشاعر المسلم المعروف والذي دون فيه سيرة المصطفى ـ رضي الله عنه ـ بكل صدق وشفافية (إن الحسنة التي لا أنساها لهذا الكتاب وصاحبه المخلص، أنه أثار في قلبي كامن الحب الذي لا لذة في الحياة بغيره، ولا قيمة للحياة بغيره وقد صدق الشاعر الفارسي حيث قال (قاتل الله ذلك اليوم الذي مضى ولم أذق فيه لذة الحب، ولا بارك الله في الساعة التي مضت ولم تهب فيها نفحة من نفحات الحب، بل إن الحب هو محصول الحياة ولب اللباب، وقد أجاد القائل الذي يقول (نظرت في هذا العالم فإذا هو بيدر واسع ونظرت فيه فإذا الحُبّ هو الحَب الوحيد، وكل ما عداه فهو تبن وحشيش وهشيم وحصيد) انظر الطريق إلى المدنية تأليف أبي الحسن الندوي، ص ١٩ ـ ٢٠ .

ومن روائع إقبال التي حفظها لنا قلم الشيخ الندوي رحمه الله تلك

القطعة الأدبية الرائعة عن غار حراء، وشتان بين نظرة (إقبال) المتفتحة والمؤمنة إلى هذا المكان الطاهر ونظرة كاتب الأغلال، وتحمل تلك القطعة أو ذلك النص المبدع والمدهش في آن، أشواق الروح وتطلعات الذات الإنسانية إلى آفاق الحب والصفاء والسكينة يقول إقبال:

(طلعت جبل النور، ووقفت على غار حراء وقلت لنفسي: هنا أكرم الله بالرسالة محمداً، ونزل عليه الوحي الأول، فمن هنا طلعت الشمس التي أفاضت على العالم نوراً جديداً، وحياة جديدة، إن العالم ليستقبل كل يوم صباحاً جديداً وما أكثر ما استقبل العالم صباحاً لا جدة فيه ولا طرافة ولا خير فيه ولا سعادة، وما أكثر ما استقبل العالم صباحاً استيقظ فيه الإنسان، ولم تستيقظ فيه الإنسانية، واستيقظت فيه الأجسام، ولم تستيقظ فيه القلوب والأرواح، وما أكثر النهار المظلم والصبح، الكاذب في تاريخ العالم، ولكن من هنا طلع الصبح الصادق الذي أشرق نوره على كل شيء، واستيقظ فيه الكون وتغير مجرى التاريخ) (المصدر السابق ص ٥٤).

ولم تتبدل لغة الندوي في كل ما كتب فهو واعظ على بينة وبصيرة، ومبشر لا ينحاز إلى تنفير، وكاتب من فنون الثقافة والفكر والأدب مما لا تتهيأ لكثير من معاصريه، فكيف بأولئك الذين يطوح بهم الهوى، ويستبد بهم الإعجاب بالنفس، فيتطاولون على القامات الشامخة عن جهل ونقص مركبين، فهذه سطور من كتابه الذائع الصيت في الشرق والغرب والذي نال عليه جائزة الملك فيصل العالمية إضافة إلى جهوده المخلصة والواعية في سبيل الدعوة إلى الله في شبه القارة الهندية وغيرها.

إنه السفر الرائع وغير المسبوق (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)

يقول المفكر الندوي: (صارت طباع الناس وعقولهم تتغير وتتأثر بالإسلام من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون، كما تتأثر طبيعة الإنسان والنبات في فصل الربيع، وبدأت القلوب العاصية الجافة ترق وتخشع، وبدأت مبادئ الإسلام وحقائقه تتسرب إلى أعماق النفوس وتتغلغل في الأحشاء، وبدأت قيمة الأشياء تتغير في عيون الناس والموازين القديمة تتحول وتخلفها الموازين الجديدة).

ليس لحب أبي الحسن الندوي لجزيرة العرب.. أرضها وسمائها، وديانها، وجبالها، مساجدها وآثارها ليس لهذا النوع من الحب الإيماني حدود، مما ينفي عنه كل أنواع المشاعر السلبية إزاء العرب وتاريخهم ومآثرهم، يقول هذا المفكر الإسلامي العظيم والذي لا يستحق أن يرمى بالسهام الطائشة بعد أن قدم لأمة الإسلام والعروبة ما قدم من فكر ثاقب، وأدب رفيع، وسلوك إنساني أبعد ما يكون عن سوء الظن أو التحامل أو الحديث بغير فهم لمقاصد الشريعة الإسلامية ومقتضيات أحكامها:

يقول مخاطباً ـ في أدب وشوق ـ مهد العروبة والإسلام: (جودي علي أيتها الجزيرة بنفحة في نفحات محمد ـ ﷺ ـ أحل بها مشاكل حياتي وألغاز مجتمعي، وأحيي بها موات قلبي واطفئ بها جحيم المادة التي أحاطت نيرانها بهذه المدنية، وبكل فضيلة إنسانية).

انظر: (العرب والإسلام، أبو الحسن الندوي، منشورات المكتب الإسلامي، ص ٢١).

ويقول في أحد كتبه التربوية: (والجزيرة العربية لا تشارك الشعوب الإسلامية في العقائد الدينية والشخصية الإسلامية ـ فحسب ـ بل إنها تنوء بأكبر أثقالها، وتنهض بأعظم مسؤولياتها من حيث هي الداعية الأولى لها،

والمحافظة الدائمة عليها، فهي مصدر الدعوة الإسلامية ومعقلها ومأرزها، وقد جاء في حديث صحيح: (إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها) انظر: سياسة التربية والتعليم السليمة، أبو الحسن الندوي، المجمع الإسلامي العلمي، ص ١٦).

رحـم الله عـالـم الأمـة (الـنـدوي) وجـزاه الله خـيـراً عـن أمـة الإسـلام والعـروبـة حيث يرقد ـ بإذن الله ـ مطمئناً في آخرته وعفا الله عن قوم يتحدثون في جهل ويطلقون الأحكام في تعميم.

شجون بين السَّاحةِ وباب السلام(*)

كان المرحوم نبيل حفظي يجلس معنا في الحَصْوةِ الخلفية للمسجد النبوي الشريف، وكانت أصوات الطلاب ترتفع بقراءة القرآن، وكان أهل البلدة الطاهرة يثقون في الشيخ «رجب أبو هلال» ـ رحمه الله ـ الذي كان يُدَرِّس في الصباح في مدرسة العلوم الشرعية.

وكان له درس في منزله الذي كان يقع في ذلك الجزء الخلفي من حارة الساحة، وكنت إذا خرجت من باب سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ يواجهك إلى اليسار شارع صغير كانت تقوم فيه «المكائن» التي تزود قناديل المسجد الطاهر بالإضاءة، وينتهي هذه الشارع ـ غير المتسع ـ بتلك الدرج التي إذا صعدتها قادتك إلى هذا الجزء الذي كان يقع فيه منزل الأستاذ «رجب»، كما كان عدد من أهل المدينة يسكن هذا الحي ولعلَّ المؤذن الشهير السيد هاشم غباشي ـ رحمه الله ـ له دارٌ عرفتها عن طريق ابنه زميلنا السيد «رضا» والذي كان يحمل في داخله من الصفحات الجميلة ما يتلاءم مع اسمه، وهذا الجزء الخلفي يقودك إلى الموقع القديم للمحكمة الشرعية ثم إلى شارع يدعى «كومة حُشَيْفَة»، ينتهي أيضاً بَدَرج «سُلْمِك إلى

(*) **المصدر**: ملحق الأربعاء (صحيفة المدينة المنورة) الأربعاء ١٥ ذو القعدة ١٤١٩هـ/٣ مارس ١٩٩٩م.

برحة «باب السلام»، وفي صدر هذه البرحة كانت تقع حوانيت أحاول ما استطعت أن أتذكر أسماء أصحابها، منهم الشيخ أسعد توفيق، والشيخ محمد حسين رمزي، والشيخ بكر عبد الجواد، وآخر من بيت عبد الشكور ـ رحمهم الله ـ وحانوت آخر للمرحوم عمر سنان والد محمد وأخيه عبد الرحمن الذي سبقنا إلى الدار الآخرة قبل سنوات قليلة، ويتوسط هذه الحوانيت زقاق صغير يقع فيه منزل الشيخ «مالك مديني».

كانت ساحة باب السلام تمتلئ بحوانيت بائعي «الكولندي» والحلويات البلدية مثل «المشبك» و«الهريسة» و«اللدو» وكان حانوت «العم صادق» من أشهر الحوانيت ويقع بالقرب من دار الشريف هاشم دعيس ـ رحمه الله ـ، والد الدكتور نايف وإخوانه طلال ومحمد بندر، وكان العم «صادق» الذي كان جاراً أيضاً للسيد عبد الرحمن بصري ـ رحمه الله ـ متخصصاً في بيع العيش الذي يسمونه «المغربي» وكان رجلاً سمحاً في بيعه وشرائه وحديثه.

وكنت أجلس في حانوت الصديق هاشم إبراهيم شيحة، وأعتقد أن «هاشم» كان ذكياً إلى حد بعيد، وكثيراً ما ارتفعت الأصوات في ملعب «الرفة» تنادي باسمه فكانت إذا وقعت قدمه على الكرة عَرِفَ حارس «أُحد» مهنا سبيل، أو حارس الأهلي «النهضة» أحمد نذير ـ رحمه الله ـ أن «هاشم» سوف يُسدد هدفاً، وقد رأيته في عام ١٣٨٥هـ، في مباراة كروية فريدة بين أُحد والعقيق يُسدِّد ثلاثة أهداف متتالية في أقل من نصف ساعة من الزمن، ولم يلعب «هاشم» بعدها الكرة، ولا يزال ابن إبراهيم ـ يتذكر ـ صنيع آل عزي الدين جلبوه للنادي، ثم ذهب جميعهم ـ رحمهم الله ـ في حادث مأساوي وقع بين عامي ١٣٧٩هـ و١٣٨٠هـ في طريق المدينة، والرأي الفصل عند الأستاذ عبد الهادي محروس واحد من الرجال الذين

قامت الأندية الرياضية في المدينة على أكتافهم من أمثال الأستاذ حسن الصيرفي، وعبد الرحمن رفة، ورضا خاشقجي، والمعلم محمد صلاح خالد ـ رحمه الله ـ والريس علي بن حسن دقاق، ويعترف هاشم أن «العم» علي واحدٌ من الرجال الذين لا يتكررون، أما الزميل الأستاذ «علي حسون» الذي كان واحداً من أشهر لاعبي الوسط في نادي أُحد مع صديقه الأستاذ «محمد الحاج»، فيعترف أن الشيخ الدقاق هو الذي اجتذبه لنادي أُحد عن طريق لاعب أُحد الشهير ـ آنذاك ـ عطية باحضرم، ولكن أبا الحُسين اعتزل الكرة مبكراً ليبدأ مشواره الصحفي الطويل والناجح بالكتابة في شجون الكرة، ثم اتجه إلى الكتابة القصصية، وهو يمثل الجيل الوسط الذي كتب الفن الروائي باقتدار وخاصة في عمله الأدبي الرائع «الطيبون والقاع» ولم ينل هذا العمل حقه من النقد الأدبي، وأعتقد أن أجواء المدينة الشعبية وتمثل الكاتب لها ساعدت في نجاحه.

أعود للقول بأنني كنت أجلس في حانوت الأخ هاشم، في يوم قائظ من أيام شهر رمضان المبارك، سنة ١٣٨٨هـ وأذان العصر لم يرتفع بعد، وكان يجلس معنا المشجع الأُحدي المشهور ـ ربيع ـ رحمه الله ـ وكان صاحب شخصية فذة ونادرة وأرى أن نادي «أُحد» لم يوف مشجعاً مخلصاً مثل «ربيع» حقه من التكريم، ولم يوف لاعباً قديراً مثل «مرزوق المخلص» ما يستحقه من التقدير والرعاية في السنين العجاف، كنا الثلاثة نجلس نتجاذب أطراف الحديث، فإذا برجل يهبط درجات شارع «العينية» ويتجه لباب الرحمة، فإذا بالعم ربيع يتنهد قائلاً: أين أنت يا علي البدوي؟ وكان علي غائباً عن المدينة لقد كان القادم واحداً من مطاليق الرجال، إنه «مساعد كردش» وهو من أتباع الشيخ حلِّيت بن مسلم

المحمادي الحربي والد صديقنا الشاعر عبد المحسن.

كان «مساعد» اعتزل كل شيء في الحياة، يجد في المسجد النبوي طمأنينته، ثم يذهب إلى باب «الكومة» لينام تحت تلك الشجرة الضخمة التي كانت تظلل العشرات من أمثاله، الذين ألفوا العيش في «المناخة» وألفتهم، وصباح ذات يوم جاء المعلم «الفاو» ليوقظ هذا اليعسوب الذي تحدثت عنه الرُّكْبان. فلم يرد عليه كعادته مدعياً أو مازحاً، لقد وجده «المعلم» يستقبل القبلة، يرفع سبابته إلى أعلى وقد أسلم الروح لبارئها، وحمله أهل «المناخة» ليودعوا جثمانه ثرى الأرض الطاهرة في «البقيع»، صديقي المرحوم ابن «جبل» قال لي لقد ختم الله بالخاتمة الحسنة «لكردش»، والبرتاوي «عبد القادر»، ومحمد صالح «العود» وغيرهم لم يتعلموا في مدرسة، لم يقرؤوا كتاباً، ولكن قلوبهم كانت تحمل في داخلها النية الصادقة وحب الآخرين، والثقة في عقيدة المؤمن والدعاء له بالهداية، أي هؤلاء يا صديقي من بعض قوم يصنفون الناس درجات في أعمالهم ويصدرون الأحكام الجاهزة وكأن مفاتيح الجنة والنار بأيديهم، إنها بيد الخالق وحده.

مجلس المندوبين والنفوذ اليهودي في بريطانيا(*)

لم يكن السياسي البريطاني المخضرم الذي ينتمي إلى جذور يهودية، النائب جيرالد كوفمان (Gerald Kufman)، هو أول من شن هجوماً حاداً على مجلس مندوبي يهود بريطانيا "The Board of The Deputies of British Jews"، فلقد سبقه إلى ذلك رئيس بلدية لندن السابق، والنائب العمالي المنتمي إلى يسار الحزب كين ليفنقستون (Ken Livingston)، حدث ذلك في منتصف عام ١٩٨٥، عندما تحدث كين بجرأة بالغة ذاكراً أن هذا المجلس اليهودي أصبح في قبضة أولئك الذين يعتنقون آراء يمينية متطرفة، بل إن الواقع يشير إلى أن المجلس تدار شؤونه من قبل النفر الذين يمثلون عصابة «حيروت» (Herut)، أو الذين يماثلونهم في الآراء المتطرفة.

وقد كان لتصريحات ليفنقستون صدى كبير وذلك في الوقت الذي كان فيه حزب العمال البريطاني قد تخلص من الهيمنة الصهيونية التي دامت على مدى نصف قرن من الزمن، وذلك بعد صعود الزعيم مايكل فووت (Michael Foot) لرئاسة الحزب في عام ١٩٨٠، وإن عرف عن فووت في

(*) **المصدر**: مجلة أهلاً وسهلاً، السنة ٢٢، العدد ٩، جمادى الآخرة ١٤١٩هـ/سبتمبر ١٩٩٨م.

بداية حياته مناصرته للحركة الصهيونية ودفاعه المستميت في مجلس العموم عن أولئك الذين قاموا بتفجير فندق الملك «داود» في القدس في محاولة للضغط على دولة الانتداب البريطانية لتسليم فلسطين للعصابات الإرهابية الهاغاناة، وشتيرن. وقد أدت تلك التصريحات حينذاك إلى استقالة العضو العمالي اليهودي جيري روس (Gerry Ross)، وكان روس عضواً بارزاً في المجموعة العمالية التي تدير شؤون بلدية لندن (Greater London Council)، إضافة إلى عمله الذي استقال منه في شؤون الحزب وهو مساعد رئيس الهيئة النيابية المكلفة بتطبيق الأنظمة الحزبية أو ما يعرف بمصطلح "Chief-Whip"، وكانت الاستقالة ضرباً من ضروب الاستراتيجية اليهودية التي تعمل على إخافة المجتمع الغربي وإثارة الرعب فيه بالتلويح بالماضي النازي المتمثل في المحرقة النازية "Holocaust". . كانت هذه المقدمة ضرورية لمعرفة بواعث المقالة التي كتبها كوفمان في مجلة «نيوستيسمان» الأسبوعية العمالية.

"New Statsman 10, April 1998"، والتي حملت عنوان «روبن كوك والمندوبـــون Re. Cook and the Deputies»، ولقد بــدأ كوفمان مقالته بالحديث عن رحلة والديه من بولندا إلى بريطانيا وأن والده انتمى إلى الحركة العمالية البريطانية، كما كان عضواً في منظمة "Poale-Zion" أي (حزب العمال اليهودي)، والمندمج في الحزب العمالي البريطاني منذ ما يقرب من ثمانين عاماً، ولقد تبع كوفمان خطوات والده في الانضمام إلى كل من الحركتين العماليتين البريطانية واليهودية، إضافة إلى كونه عضواً في نادي أصدقاء إسرائيل بحزب العمال. ويذكر كوفمان صراحة بأنه دائم الزيارة لإسرائيل منذ عام ١٩٦١، وأنه ألّف كتاباً عنها بمناسبة مرور خمسة

وعشرين عاماً على تأسيسها وهو (تعمير أرض الميعـــاد) "To Build the Promised Land"، ويشير سيريل تاونسند إلى أن الكتاب يمثل الوجه الأفضل للصهيونية فهو أي كوفمان من الذين يدركون الفرق بين إسرائيل كما هي، وكما يمكن أن تكون.

«كوفمان» صهيوني ملتزم وكان يعمل في مكتب هارولد ويلسون، أكثر الزعماء البريطانيين ولاءً للصهيونيـة، ولهـذا فإنـه خلال حرب الأيام الستة (١٩٦٧) ـ كما يذكر في مقالته الآنفة الذكر ـ كان يذهب يومياً في مهمة سرية بين الحكومة العمالية الحاكمة آنذاك في ١٠ دوانج استريت والسفير الإسرائيلي أهارون ريميز Aharon Remez، وهذه الحقيقة التي كشف عنها كوفمان ـ برغبته ـ توضح مدى الدور السيئ والقبيح الذي لعبه حزب العمال في دعم الحركة الصهيونية منذ قيام إسرائيل حتى وقتنا الحاضر حيث لا يقل رئيس الوزراء البريطاني الحالي، توني بلير، ولاءً لإسرائيل عن سلفه ويلسون حتى إن تعارض هذا الولاء مع مصلحة بريطانيا كشعب وحكومة مع الشعوب العربية والإسلامية التي يجب أن تطالب حكومة بلير الحالية بالاعتذار، والتعويض الشامل للشعب الفلسطيني جراء معاناته الإنسانية منذ نصف قرن من الزمن. ولكن نظرة كوفمان إلى الصراع العربي ـ الإسرائيلي تبدلت منذ صعود حكومة الليكود بزعامة مناحيم بيجن إلى الحكم في إسرائيل في عام ١٩٧٧، فقد أصبح من أشد المنتقدين لها كما عبّر عن ذلك. وعندما أصبح كوفمان وزير خارجية الظل، أثناء وجود حزبه في المعارضة عام ١٩٨٧، وثّق علاقته مع جميع المؤسسات والسفارات العربية في لندن، وزار كثيراً من البلاد العربية ولم ينس أن يتعهد الأقليات اليهودية ويزور معابدها وخصوصاً كنيس الغربية اليهودي في

جزيرة «جربه» بتونس، واتخذ خطوة جريئة بفتح قناة واضحة مع منظمة التحرير الفلسطينية ـ آنذاك ـ في تونس، وقابل الرئيس ياسر عرفات في الحقبة التي كانت حكومة تاتشر المحافظة تحظر ذلك على نوابها.

ويبدو أن مخاطبته لجماعة أصدقاء إسرائيل في أحد مؤتمرات الحزب أثناء توليه حقيبة الخارجية في حكومة الظل، بأنه، أي كوفمان، في منصبه هذا لا يمثل المجتمع اليهودي في بريطانيا ولكنه يمثل المملكة المتحدة، هذا الخطاب الذي اقترن بسلوكه لدفع عملية السلام، إضافة إلى المقالة التي كتبها في صحيفة الديلي ميل بعنوان As a Jew, I deplore the actions of this Israeli government "Daily-Mail 27, September 1996".

«إنني كيهودي استنكر سياسة هذه الحكومة الإسرائيلية»، حمّل فيها نتنياهو كل ما تشهده عملية السلام من تعثر، بل أضاف إلى ذلك، بأن الخسائر التي حصلت في الأرواح في هذه المدة تتحملها حكومة الليكود اليمينية المتشددة وحدها.

يبدو أن هذا جعل مجلس مندوبي يهود بريطانيا يتخذ موقفاً عدائياً من كوفمان، على الرغم من أنه يهودي. لذلك فقد كشفت مقالته في مجلة «نيوستيسمان» أن المجلس الذي تشكل قبل ٢٣٨ سنة، منقطع الصلة بغالبية أفراد الجالية اليهودية في بريطانيا والبالغ عددهم ٣٠٠ ألف شخص.

ويحمل كوفمان السياسيين البريطانيين منذ مارجريت تاتشر إلى توني بلير وكوك، مسؤولية اعتبار هذا المجلس هو الممثل الوحيد لكل يهود بريطانيا، ويصف هذا السلوك البريطاني بأنه وهم وأن القائمين على شؤون المجلس هم من الجهلة بشؤون السياسة، ويرى أن هذا المجلس مكوّن من المنصاعين لإسرائيل الذين يرون أن أية حكومة إسرائيلية حتى لو كانت

واضحة الحقارة مثل حكومة نتنياهو هي دوماً على حق، وكل من لا يخنع لأية حكومة إسرائيلية يعزل نفسه ـ تماماً ـ عن الرأي العام اليهودي.

ويختم كوفمان مقالته الجريئة بقوله: «إن سلوك مجلس مندوبي اليهود تجاه وزير الخارجية البريطانية بعد زيارته لمستوطنة جبل أبو غنيم في الأراضي المحتلة، وما ترتب عليها من سحب الدعوة التي كان وجهها مجلس الممثلين لوزير الخارجية لحضور حفل عشاء سنوي لجمع التبرعات، هذا السلوك المهيمن من المجلس إزاء الوزير روبن كوك برهن لكوفمان شيئاً هاماً وهو «أن مجلس الممثلين أكثر تبجحاً وسخفاً مما كنت أعتقد».

إن المقالة التي كتبها كوفمان تكشف أن سياسياً بريطانياً يهودياً أصبح على درجة كبيرة من الاعتدال إزاء الصراع العربي ـ الإسرائيلي مقارنة بما يبدو عليه توني بلير من تعصب شديد ومنحاز لسياسة حكومة نتنياهو، مما جعل حزب العمال يبدو صهيونياً أكثر من الصهاينة.

كريستوفر مايهو والدفاع عن الحق العربي(*)

لا أظن أن هناك شخصية ـ غير عربية ـ تحملت عبء الدفاع عن القضايا العربية وفي مقدمتها القضية الفلسطينية مثل شخصية اللورد كريستوفر مايهو Christopher Mayhew، الذي توفي في يوم ٧ يناير عام ١٩٩٧، وفي الفصل الذي عقده عن بداية اهتمامه بالقضية الفلسطينية وضمّنه الكتاب الذي ألّفه بالاشتراك مع الصحافي البريطاني المعروف مايكل آدمز Michael Adamas، وأطلقا عليه عنواناً يشير إلى الضغوط التي تعرضا لها من جراء محاولتهما نشر وجهة النظر العربية، العنوان المتكون من هاتين العبارتين «لا تنشروا.. التعتيم على الشرق الأوسط» "Publish it not-The Middle East cove up" Longman 1975.

يصف مايهو تلك البداية من خلال الوقائع المأساوية للجلسة التي عقدها مجلس العموم في ١١ يوليو عام ١٩٤٨ لمناقشة قضية الاعتراف بالكيان الصهيوني «إسرائيل»، وكان مايهو وقتها يعمل وزير دولة في وزارة الخارجية، تحت رئاسة وزير الخارجية إرنست بيفين Ernest Bevin، وقد طرح في تلك الجلسة سؤالاً كان من الصعب طرحه في ظل سيرة اللوبي

(*) **المصدر**: مجلة أهلاً وسهلاً، السنة ٢١ ذو القعدة ـ ذو الحجة ١٤١٧هـ/ أبريل ١٩٩٧م/ العدد ٤، ص ٣٢.

الصهيوني على حزب العمال آنذاك، كان السؤال يركز على أن زميله المتحمس لإنشاء الدولة الصهيونية لم يسمع قط وجهة النظر العربية في هذا الموضوع، وأضاف مايهو بل إن المتحدث وهو هارولد ليفر Harold Lever برهن من خلال طرحه للقضية أنه ليس على دراية كافية في ما يتصل بالرؤية العربية للمشكلة الفلسطينية».

لم يسعف مايهو أحد، فأنصار الحركة الصهيونية ومعظمهم من اليهود كانوا حوالي ثلاثين شخصاً، وكانوا على استعداد لمضايقته بكل السبل الممكنة، وعندما شاهد وزير الخارجية بيفين ما يجري داخل المجلس، صاح بأعلى صوته في وجه مؤيدي الدولة الصهيونية «يجب علينا أن نتذكر أنه لا يوجد عربي في المجلس حتى نسمع رأيه في موضوع كهذا»، لقد عم الصخب المجلس، ولكن ذلك لم يمنع بيفين من رفع صوته بالحقيقة مذكراً بأن «الصهيونية تتوازى من خلال أعمالها الإرهابية في تلك الحقبة ضد البريطانيين والعرب على حد سواء، تتوازى وتتماثل مع النازية» وهي حركة فاشية وعنصرية، ويعتبر بيفين من أوائل من تنبهوا للمضمون العنصري الذي تحمله الصهيونية، وأن هذا في رأي بيفين يقود للشغب والإرهاب، ولقد أثبتت الأيام أن هذا الرأي الذي طرحه بشجاعة نادرة الوزير البريطاني بيفين هو ما يشكل لب سياسة الحركة الصهيونية، فجندي إسرائيلي يطلق النار على مواطنين فلسطينيين عُـزَل في الخليل، وإرهابي مثل جولدشتاين يقتل المصلين بدم بارد داخل الحرم الإبراهيمي، وتعتبره الصهيونية بطلاً وزعيماً، في الوقت الذي تذرف فيه الدموع على ضحايا الحركة النازية.

لقد كانت الكلمات القليلة التي حاول من خلالها مايهو أن ينتصر

للقضية العربية، جريمة كبرى في عُرف الحركة العنصرية الصهيونية، فقد تسلم بعد أسابيع قليلة من كلمته في مجلس العموم رسالة تمتلئ بالعبارات النابية، فهي تصفه بالخنزير وتؤكد له أن الحركة أصدرت في حقه حكماً بالموت، وكانت الرسالة موقعة من حزب «حيروت» الإرهابي.

ساهم مايهو في دفع عملية الحوار الفكري بين العرب والإنجليز من خلال مشاركته في تأسيس «مجلس التفاهم العربي البريطاني» والمعروف باسم «كابو»، كما شارك ـ بعد أن ساءت العلاقة بين بريطانيا والعرب بسبب التأييد المطلق لحكومة هارولد ويلسون العمالية ١٩٦٤-١٩٧٠م للحركة الصهيونية ـ في تأسيس مجلس حزب العمال للشرق الأوسط، وقد أثمر هذا المجلس عن محاولة حزب العمل لاتخاذ موقف أكثر حيادية في موضوع الصراع العربي ـ الإسرائيلي، وحصل هذا مع بداية الثمانينات الميلادية، كما ساهم في تعضيد موقف الصحيفة الخاصة بقضايا الشرق الأوسط المعروفة باسم Middle-East International «ميدل ايست انترناشيونال».

لقد طُويت صفحة هامة في تاريخ العلاقة العربية البريطانية من منظور إيجابي، وسوف يتذكر الجميع بأن مايهو كان صوتاً عربياً داخل مجلس العموم، ثم داخل مجلس اللوردات لمدة تقارب نصف قرن من الزمن.

مثقفون عرب يتخاذلون وغربيون يشمخون(*)

يكثر الحديث في الآونة الأخيرة عن دور المثقف العربي في صياغة مستقبل الأمة واستشراف الآفاق التي يمكن لها بلوغها حضارياً وفكرياً، كما يأخذ الحديث منحى آخر وهو ضرورة العمل على فتح باب الحوار الوطني. أما الشق الأول من القضية المطروحة فهو يضع أسئلة عدة يحسن على المثقف العربي الإجابة عنها، ومنها هل هذا المثقف عنده من الحرية ما يجعله يطرح رأيه ويقول كلمته دون أن يتلفت يمنة ويسرة، وهل عنده من الشجاعة المقترنة بالصدق ما يجعله يبتعد قدر الإمكان عن أهوائه الشخصية وينحاز للمصلحة الوطنية التي تغلب العام على الخاص. وبعبارة أخرى فإن الشللية التي عرفها الوسط الثقافي العربي أضرت بمصلحة الأمة وأفقدت الأمة تلك الثقة التي كانت توليها لمثقفين كبار، من أمثال: العقاد، والرافعي، وطه حسين، وشكيب أرسلان، وأحمد أمين، وعبد الرحمن الكواكبي، والطاهر بن عاشور، وأبو الحسن الندوي، ومحمود شاكر، وعبد الله كنون، وعلال الفاسي ومصطفى الزرقا، ومحمد عواد، ومالك بن نبي، وحمزة شحاتة، وحسن آل الشيخ، وعلي الطنطاوي،

(*) **المصدر**: مجلة أهلاً وسهلاً السنة ٢٦ ـ ذو الحجة ١٤٢٢/ محرم ١٤٢٣هـ ـ مارس ٢٠٠٢م/ العدد ٣، ص ٣٨ - ٣٩.

وعمر الفاروق، ومحمد كرد علي، وأحمد عبد الغفور عطار، وأحمد جمال، وعبد العزيز الرفاعي، وحمد الجاسر، وميخائيل نعيمة، وأمين مدني وغيرهم.

لقد استطاع هذا الجيل أن يحافظ على أصالته ولا يسعى لنزع هويته، بل يعمل على تثبيتها، وكان ـ أيضاً ـ ملماً بما يجري حوله من تيارات فكرية واستطاع الإفادة منها. وخلف هؤلاء تراثاً يمكن التعويل عليه والاعتماد على مكوناته، مع أنه الجيل الذي لم يجد الطريق ممهداً أمامه بل عمل بنفسه على تمهيد هذا الطريق في ظروف كانت غاية في القسوة والصعوبة، فلقد كانوا يقرأون على مصابيح الزيت، ويتنقلون بين حلقات العلم صباحاً وليلاً، ويموتون في أحضان الكتاب في ظلمة الليل أو عند غلس الفجر.

ومثقف اليوم يحاول أن يعيد ثقة الأمة فيه، ولكن هل يستطيع بلوغ هذا الهدف أو الوصول إلى هذه الأمنية، وكيف لمثقف مثل العفيف الأخضر أن يقنع الأمة بآرائه وهو يتحدث بلسان حكومة شارون الإرهابية على صفحات جريدة الحياة الدولية، ويَـنْعى البراعم الإسرائيلية ولا يهمه ولا يعنيه أن يقتل الإسرائيليون الأطفال الرضع من الفلسطينيين بدم بارد، مثل جمال الدرة وإيمان حجو. كيف لمثل هذا الدَّعي ـ غير العفيف ـ أن ينام ملء جفونه وهو يستهزئ بنبي الإسلام ويدعوه «محمد» ويتحدث عن شارون وبيريز داعياً إياهما بالسيدين المناضلين، وكيف يمكن لأمة رددت على مدى سنوات قصائد من أمثال: سجل أنا عربي، أو عابرون في كلام عابر، ثم يسعى بكل ما أوتي ـ صاحب هذه القصائد العصماء، ونعني به «محمود درويش» ـ لمنع الحكومات العربية من عقد مؤتمر يفضح الحركة الصهيونية وبعقول غربية متجردة لم تبال بالتهديدات الإسرائيلية والغربية.

كيف يمكن للشاعر القومي أن يبرر استلامه هو والعفيف وأدونيس وسميح القاسم شهادات براءة وشكر من السفير الإسرائيلي في فرنسا حيث يقيم بعضهم منذ سنوات؟ وكيف يدعي «درويش» عداء الغرب لأنه ـ أي الغرب ـ سلّم وطنه السليب «فلسطين» للعصابات الإرهابية من أمثال «الهاغاناة» و«شيترن» ولشذاذ الآفاق، ثم يستلم جائزة بمبلغ ٣٥٠،٠٠٠ دولار من مؤسسة فكرية أمريكية كمكافأة له على دفاعه عن الحركة الصهيونية والانحياز إليها على أنها حركة تحررية، بينما يحارب الفيلسوف الفرنسي «روجيه جارودي» لأنه فضح الأساطير والأوهام اليهودية المتحكمة تحكماً بالغاً، وذلك في كتبه العلمية والموثقة، والتي بدأ في إصدارها منذ بداية الثمانينيات الميلادية، حيث أصدر كتابه المعروف «وضعية إسرائيل» (the Case of ISRAEL) عن دار (S. P. A. G)، وذلك في عام ١٩٨٣م.

ثم أصدر كتابه الآخر «الأساطير المؤسِّسة للسياسة الإسرائيلية»، وصدرت ترجمة عربية له وبتقديم من الكاتب المعروف محمد حسنين هيكل، ثم أخيراً عام ١٤١٩هـ/١٩٩٩م كتابه الذي حاكم فيه صهيونية إسرائيل ونازيتها وعنصريتها والموسوم «محاكمة الصهيونية العالمية».

لم يكن جارودي الوحيد بين المفكرين الغربيين والمدافعين عن الحق العربي والعاملين على كشف زيف الصهيونية، فهناك المؤرخ الإنجليزي المعروف «دافيد إيرفنج» الذي تعرض للدعاوى اليهودية عن المحرقة النازية. وأنقل هنا للمثقفين العرب الذين يدافعون عن الحركة الصهيونية كحرمة تحررية ويدعون للتطبيع بمختلف ـ أشكاله ـ مع الكيان العنصري الإسرائيلي، شهادة الصّحافي المعروف الأستاذ هيكل وهو محسوب على التوجه الليبرالي في الفكر المعاصر.

يصف الأستاذ هيكل ما حدث للمؤرخ «إيرفنج» في بلد يحلو لبعض المثقفين العرب الادعاء بأنه أعرق الديمقراطيات «ثم أتيح لي أن أرى بنفسي ـ وليس مجرد القراءة ـ ما حدث فيما بعد للمؤرخ البريطاني المدقق «دافيد إيرفنج»، وشاءت الظروف أن أشهد واقعة ضربه ضرباً مبرحاً بينما هو يتناول الإفطار في مطعم «ريكشو» في شارع «سوت أودلي» على بعد أمتار من مقر السفارة المصرية في لندن، ولم يكن السبب أن «دافيد إيرفنج» كتب عن المحرقة النازية، وإنما كان السبب أنه راح يبحث ويتقصى ثم شاع في أوساط كثيرة أنه أوشك على ملامسة الحقيقة». ويضيف الأستاذ هيكل مصوراً تلك المأساة التي تعرض لها «إيرفنج» أمام بني قومه الذين لم يكن بمقدورهم الدفاع عنه لأن المعتدين من اليهود ويحق لهم خرق النظام، والاعتداء على حقوق الإنسان التي كفلتها له جميع الشرائع السماوية والقوانين الدولية:

فاليهودي في نظر بعض المسيحيين المتطرفين على حق حتى وإن شرّد الآخرين وقتلهم أو جعلهم يحفرون قبورهم بأنفسهم وهم أحياء، ثم يوجه إلى صدورهم ذلك السلاح الغربي الفتاك ـ كما هي الحال في شأن الشعب الفلسطيني الأعزل.

هذه يا بني قومنا ـ مقاطع من القصة التي رواها الأستاذ هيكل ـ وثارت عاصفة الغضب ضد «إيرفنج» ووصلت إلى درجة التحرش به، وجره إلى الشارع والاعتداء عليه، ثم التحريض ضده إلى درجة الحصار، كل ذلك وهو لم يكتب ـ بعد ـ ما توصل إليه في كتابه، لكنه كان يكفي لعقابه أنه وصل إلى أقرب نقطة من الحقيقة، أي من المصدر الذي يفوق غيره من المصادر في دقة وصحة ما لديه ـ «أنظر الطبعة». . . (الطبعة

العربية لكتاب جارودي «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية»، تقديم محمد حسنين هيكل، ط٣، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م، ص ٩).

أما الكاتب اليهودي الأصل «مكسيم رودنسون» Maxime Rodinsan، فإنه ألّف كتاباً وسم فيه إسرائيل بأنها دولة استعمارية ـ استيطانية. ويذكر الكاتب Buch Peter في مقدمة كتاب «رودنسون» (Israel A Colnial Settler State) حقيقة تاريخية ـ طالما أنكرتها الحكومات البريطانية المتعاقبة ـ وهي أن بريطانيا هي التي كانت وراء هجرة اليهود وإقناعهم بنشوء كيان لهم على الأراضي العربية في فلسطين، ولم تكتف بريطانيا بدفع اليهود دفعاً لاحتلال فلسطين، ولكنها دعمتهم بكل السبل والوسائل حتى يتسنى لها التدخل في الشرق الأوسط متى أرادت، وهي الغاية التي تحققت الآن وبعد أحداث ١١ سبتمبر، فلقد أدت بريطانيا الدور الأكبر مع شركائها في إضعاف الشأن العربي وإذلال الشعب الفلسطيني.

وعد بلفور: الدوافع والخطوات(*)

تمرُّ مع نهاية شهر أكتوبر ومطلع شهر نوفمبر ذكرى وعد «بلفور» Balfour، المشهور، وكأمة عربية وإسلامية يجب علينا أن نتعرَّف إلى العوامل التي دفعت بحكومة المحافظين ـ البريطانية ـ آنذاك إلى إصدار هذا الوعد ـ بِحُكم وقوع الأراضي الفلسطينية تحت الانتداب البريطاني في تلك الحقبة، وما هي المراحلُ التي مَرَّ بها هذا الوعد حتى ظَهَرَ في شكْل كيان تأسَّس على مفهوم عنصري من الحركة الصهيونية، مما تَسبَّبَ في إزاحة الشَّعْب الفلسطيني بكُل الوسائل غير المشروعة بما فيها ـ القتل والتَّدمير والإرهاب ـ عن وطنه وإفساح المجال لأناسٍ اعتنقُوا اليهوديَة كدين ولا يملكون أي حق شرعي أو تاريخي في أرض فلسطين العربية والمسلمة.

يذكر «آرثر بلفور» الذي كان وزيراً للخارجية البريطانية ـ آنذاك ـ أنه قبل صدور القرار التاريخي المعروف ـ دَعَا ـ أي بلفور كُلاً من لورد «روتشيلد» Rothschild، والبروفسور «وايزمان» Weizman، وكلا الرجلين صهيوني إلى تَقْديم مُذكَّرة عن المطالب الصهيونية، وفي ضوء هذه المذكَّرة، صدر ما يُعْرف باسم وعد «بلفور» الذي صَدَّق عليه مجلس الحرب البريطاني في ٣١ أكتوبر ١٩١٧م، وإذا كانت المذكِّرات الشَّخصية

(*) **المصدر**: مجلة الطالب، العدد ٢٧، ذو الحجة ١٤١٧هـ، إبريل ١٩٩٧م.

للسياسيين البريطانيين تُشير إلى أنَّ الوعد كان نابعاً ـ من قَلْب الحركة الصهيونية فَكرةً وصياغة وجاءت الموافقةُ عليه ـ بصورة سرِّية من المصادر الرَّسمية التالية:

ـ الرئيس الأمريكي «ويلسون»

ـ زعماء الحركة الصهيونية.

ـ مُمَثّلُو الجمعية اليهودية ـ الإنجليزية.

فإنه أيضاً من المفيد الإشارة إلى الخطوات العملية التي اتخذتها الحكومة البريطانية آنذاك والتي من شأنها تقوية واستمرارية اللُّوبي الصهيوني.

ـ إنشاء فرع للدِّعاية السياسية اليهودية في وزارة الخارجية البريطانية، ويخضعُ هذا الفرْع في إدارة شؤونه للحركة الصهيونية.

ـ العمل على نَشْر وتوزيع مَواد دعَائية فيما يختصُّ بإنشاء وطنٍ قومي لليهود داخلَ التّجمعات اليهودية في جميع أنحاء العالم.

ـ تكوين لجنة رسمية من الدكتور وايزمان Weizmann وبعض أعضاء الحركة الصهيونية من جنْسياتٍ مُختلفةٍ وإرسالها لفلسطين لتتفرَّغ لمتابعة خطوات إنشاء الوطن القومي اليهودي، وقد قام الجنرال اللّنبي General Allenby- بتسهيل مهام هذه اللجنة في أرض فلسطين. لقد قدّمت الحكومات البريطانية المتعاقبة والتي رأسها كُل من «رامري ماكدونالد» و«تشرشل» وكليمنت أتلي، وأنتوني إيدن، وهارولد ويلسون، قدَّمت كل ما تستطيعه من مُساعدات مادية ومعنوية، لتثبيت دولة الكيان الصهيوني في أرض فلسطين، مُتغافلةً في الوقت نفسه عن الوجود الفلسطيني كشعْب له تاريخهُ وحقوقه وتطلّعاتُه، ولعلَّ العامل الرئيسي خَلف المواقف الغربية

المُناصرة للحركة الصهيونية يعودُ بالدَّرجة الأولى إلى الدَّور الذي لعبه اليهود أفراداً وجماعات في الدِّعاية لقضيِّتهم داخل المجتمعات الغربية نفسها، تلك الدِّعاية التي كانت وما زالت تلتزمُ بالجدِّ والحزْم واليقظة وعدم التنازل. لقد كان الغيابُ العربي كبيراً عَنْ مَسْرح السياسة العالمية في تلك الفترة التاريخية، بينما كان الوجود الصّهيوني يملك كُل وسائل الاتصال والتَّأثير، ولعلَّ ذلك يتجلَّى بصورة واضحة عندما ننظرُ في مضمون الرِّسالة التي بعث بها «وايزمان» إلى «بلفُور» في ٣١ مايو ١٩١٨م، والتي يحثُّ فيها الإدارة البريطانيةَ التي كانت تُشْرِفُ على شؤون «فلسطين» على اتخاذ الخطوات الكفيلة بمنْع «العرب» من الاقتراب من الشؤون السياسية للمنطقة، ووصفهم بسمات الغدْر والخيانة، وذلك لأنَّ الحركة الصهيونية تعلم جيِّداً بأنَّ العرب هم ـ وحدهم ـ الذين يعرفون الأرض الفلسطينية، ويتقنون لُغتها، ويفقهون عاداتها وتقاليدها وأنَّ ذلك يعود ـ بلا شك ـ إلى انتمائهم الفطري لها وارتباطهم التاريخي بها منذ أقدم العصور.

لقد تكثَّفت الحملةُ الصهيونيةُ ـ داخل البرلمان الإنجليزي، وخصوصاً عندما تكوَّنت الحكومة العُمَّالية الثانية سنة ١٩٢٩م، بقيادة «رامزي ماكدونالد» الذي عَهِدَ بالشؤون الفلسطينية إلى وزير المستعمرات ـ آنذاك ـ سيدني ويبْ Sidney Webb، ولقد قامَ الأخير بإصدار ما يُسمَّى بالتقرير الأبيض، Passfield White Paper، في أكتوبر ١٩٣٠م، الذي ينصُّ على تَسْهيل شؤون الهجرة اليهودية إلى أرض فلسطين، مع التأكيد على مَراعاة حقوق الفلسطينيين والحفاظ عليها، إلا أنَّ هذا التأكيد اللَّفظي على الحقوق الفلسطينية أثارَ زَوْبَعةً كبرى في أوساط رجال السِّياسة البريطانيين من أنْصارِ الحركة الصهيونية مثل لويد جورج، وتشمبرلين Chamberlain وبالدوين

Baldwin، مما اضطر رئيس الوزراء «ماكدونالد» إلى إسناد الشؤون الفلسطينية إلى لجنة وزارية جديدة وإقصاء «سيدني» عنها، كما كَلَّف «ماكدونالد» هذه اللجنة بمناقشة القضية مع لجنةٍ من الوكالة اليهودية، ولقد قامت اللجنتان ـ البريطانية واليهودية، بإصدار رسالة موقعة من رئيس الوزراء إلى «وايزمان» في فبراير ١٩٣١م، وكان صدور هذه الرِّسالة إيذاناً بفسْح مضمون التقرير الأبيض وبدايةً لمرحلة جديدة من مراحل استعمار الحركة الصهيونية للأراضي الفلسطينية حيث فُتح بابُ الهجرةِ على مصراعيه أمام يهود العالم، فلقد قَفز عَدَدُ المهاجرين إلى ما يقربُ من ٦٢ ألف في سنة ١٩٣٥م، وهو مُعدَّلٌ سريع لم يكن يُحْلَمُ به في سنة ١٩٣٠ بحسب تعبير «حاييم وايزمان» Chaim Weizman زعيم الحركة الصهيونية.

ولقد تمكَّنت الحركة الصهيونية خلال الفترة الزَّمنية ١٩٣٠ ـ ١٩٤٠م، من تقوية مواقعها تدريجاً داخل أروقة السِّياسة البريطانية وعلى وجه الخصوص ضمن دائرة الحركة العُمَّالية البريطانية حتى استطاعت في نهاية الأمرْ أنْ تكون عاملاً فعَّالاً في المسارات التي تنتهجها هذه الحركة العُمَّالية، ويمكن التدليل على هذا التغلغل الرهيب من خلال فقرات القرار ـ المنحاز إلى اليهود انحيازاً واضحاً ـ والذي اتخذته اللجنة التنفيذية لحزْب العمال في سنة ١٩٤٤م ثم تبنَّاه الحزبُ في اجتماعه السَّنوي، استناداً إلى القرار السابق الذي اتخذه حِزْبُ العمَّال في اجتماعه سنة ١٩٤٤م، فإنَّ الحركة الصهيونية أخذت في نشاطها السِّياسي المعروف لتسْهيل مهمة صُعود حزب العُمَّال إلى سُدَّة الحكم في بريطانيا وهذا ما حَصَلَ فِعْلاً في عام ١٩٤٥م حيث تغلَّب العُمَّاليون على المحافظين بأغلبية ساحقة وهو الحدَث الذي عَبَّر عن فرحته واغتباطه به الإرهابي المعروف «مناحيم بيغن» في مُذكِّراته «يومياتُ الإرهابي مناحيم بيغن، ترجمة وتقديم

«معين أحمد محمود»، ط٢، بيروت ١٤٠٣هـ، ص ٢٥».

ولـم تـمض مدة طويلة على استقرار رئيس الوزراء العُمَّالي Attlee Clement في «١٠» «داوننغ ستريت» حتى كتبَ إليه الرَّئيس الأمريكي ترومان في أغسطس ١٩٤٥م، طالباً منه حالاً تسهيل مهمة هجْرة عشرة آلاف يهودي إلى فلسطين، وعلى الرغم من تحفُّظ «أتلي» ووزير خارجيته "Bevin" على المطالبة الصّهيونية ـ الأمريكية، إلاَّ أنَّ ذلك لم يَحُل دون تبلور موقف عام للحزب بَرَزَ في مُناصرة الحركة الصهيونية في مطامحها ورغباتها غير المشروعة، وهذا الدَّعم شجَّع الفصائل الصهيونية مثل «الهاغاناة» Hagana، و«الأرغون» Irgun، على ارتكاب أعمال إرهابية ضدَّ الوجود العربي والمصالح البريطانية على حدّ سواء في فلسطين، ومنها تفْجيره ما يَقْرُبُ منْ مائة شخص بين عَرب وإنجليز. وعندما قامت الحكومة البريطانية بسحب قواتها من فلسطين بعد أنْ تأكَّدتْ من قيام الدَّولة اليهودية على أرض فلسطين العربية والمسلمة، كان مجموع مَنْ قُتِلَ على أيدي العصابات الصّهيونية من الإنجليز ـ أنفسهم ـ بين سنوات ١٩٤٥ ـ ١٩٤٨م، ما يقرب من «٣٣٨» شخصاً، إضافة إلى ما تحمَّلَه الآخرون من أفراد الشَّعْب الإنجليزي عن طريق دَفْع الضَّرائب منْ نفقات مالية للجيش البريطاني بلغ مقدارها «١٠٠» مليون جنيه استرليني، وكان ذلك كله نتيجةً للسِّياسة المنحازة التي انتهجتها الحكومات البريطانية المُتعاقبة في سبيل إنشاء وطن قومي لليهود، وهذا الانحياز في الماضي يدفعنا للأمل في أنْ تنتج الأحزاب البريطانية الحالية سياسة أكثر واقعيةً وعَدَالةً في سبيل تعويض الشعب الفلسطيني عَمَّا فقده من أرض ودم ومال، متخلِّصة في الوقت نفسه من عُقدة الذَّنب التي تُحاول الصهيونية من خلالها ابتزاز الشّعوب الغربية كَامِلةً.

سقيفة حوش عميرة[(١)]

كلما حاولت الكتابة عن هذا «الحي» يستجد في حياتي ما يصرفني عن مثل هذه الكتابة، واليوم وجدت نفسي غارقة في ذكريات تتصل بهذا الحي وأهله، فلقد تفتحت عيناي، أو قل إنني أبصرت نور الحياة بين موقعين متقاربين هما «حوش عميرة» وزقاق «السيد أحمد» فالأخير كانت دارُنا تقع في أوله، والأول وهو الأكبر مساحة كنت كثير التردد عليه لوجود دور بعض الأقارب فيه، ولعل ما كان يجذبني إليه وجود بعض أندادي في السن بين منعطفاته المتعددة فيغريني ذلك بالمشاركة لما كانت تتطلع إليه النفس في مرحلة الطفولة من لعب وتسلية. وكنت أشعر أن أهل ذلك الحي يعيشون كأسرة واحدة كباراً وصغاراً، رجالاً ونساءً، دورهم متشابهة، ونفوسهم متآلفة، ومائدتهم واحدة، في ذلك الحي يعيش الغني إلى جانب الفقير، ولا تشعر المرأة فيه بغربة لأن طبيعة الحياة في «الحوش» تجعلها تشعر بأن جميع أبناء الحي هم أبناؤها وأن رجاله هم عضدها وأنصارها بعد أن غاب عنها الراعي واختفى من حياتها الأنيس.

أسلك الطريق من تحت «السقيفة» التي كانت تعتبر مدخلاً لهذا

---

(١) **المصدر**: مجلة أهلاً وسهلاً، السنة ٢١، العدد ١، شعبان/ رمضان ١٤١٧هـ، يناير ١٩٩٧م، ص ٣٦ ـ ٤١.

الحوش، وكانت هذه السقيفة جزءاً من دار الشيخ «أمين شيخ» ـ رحمه الله ـ وكان «العم» أمين يجلس أمام الدار، ولعله كان مما يلفت نظري ذلك الرجل الأنيق في ملابسه الرقيق في عبارته، لا يخلع عباءته السوداء حتى عندما يأخذ مجلسه أمام دار الشيخ أمين، ولم يكن الرجل ذو الهيئة المتميزة سوى رجل يدعى أحمد شيخ.

كثير من رجال تلك الحقبة كانوا يهتمون بما يلبسون ويولون جانباً كبيراً لهيئاتهم عندما يودعون دورهم أمام أعين الناس، في ـ دارنا ـ رأيت سيد الدار يقضي وقتاً كبيراً في لف عمامته الصفراء التي كانت تسمى «بالغباني» فوق رأسه، وهو لا يلبسها إن لم تكن سيدة الدار عالجتها معالجة دقيقة «بالنشا» وهيأتها كأحسن ما تكون التهيئة بالكي، ووضعتها في المكان المخصص لها بحيث لا تخطئها عيناه عندما ينوي الخروج من الدار في الصباح الباكر، أو عندما تدنو الشمس للمغيب ويخف الناس للخروج إلى المسجد لأداء الصلاة جماعة مع أهل الحي في مسجدي سيدنا «عمر» وسيدنا «بلال» ـ رضي الله عنهما ـ وما إن يتأكد من ذلك الوضع الأنيق الذي أصبحت عليه «العمامة» حتى أراه يمد يده لتلك «الجبة الطويلة» ـ فيرتديها ـ والجبة أعني بها ما كنا نطلق عليه في المدينة المنورة اسم «الكوت»، ثم يتلفت ـ حوله ـ فيرى «العباءة» المطرزة جوانبها «بالزّيق» ـ الخيط ـ ذي اللون الذهبي الجميل، يتناول ـ العباءة ـ من اليد التي تحملها له، يلبس ـ العباءة ـ ولكنه يتعمد رفع أحد طرفيها على كتفه، فتبدو للناظر تلك الصنعة المتقنة في ذلك اللباس، والتي كانت الأيدي الماهرة تحيكها في سوق «القفاصة» المعروف ـ بحي سيدنا «مالك» نسبة إلى الصحابي الجليل مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري ـ رضي

الله عنهما ـ والذي جُرح ـ أي مالك ـ في معركة «أُحد» وقضى في داره التي أصبحت مدفناً له ـ وكان يقوم بجانبها ـ في الحقبة الماضية ـ أحد الكتاتيب المعروفة في البلد الطاهر ـ وهو كُتّاب الشيخ محمد علي الحلبي ـ رحمه الله.

تمتد يد الطفل الصغير لدقَّة «الروشان» فيرفعها برفق ليرى والده في تلك الهيئة الأنيقة وهو ينقل خطاه بين «السيح» و«المناخة».

ما أروعه يا صديقي من منظر، وما أجمله من وقت يوم كان الأنس يملأ الحياة بجميع جوانبها، الصوت الشعبي يرتفع من فوق منارة المسجد، والماء يسيل في وادي بطحان، والأطفال يحملون «النُّبيلة» يصيدون بها العصافير التي كانت تحط فوق أغصان شجرة «النَّبق» في فناء المسجد، وأهل الحي يطرقون أبواب بعضهم يحملون ما صنعته سيدات البيوت من طعام، كأنني أسمع صوت سيدة الدار وهي تقول: كيف نأكل وأهل «الحوش» لم يذوقوا شيئاً من هذا الطبق الذي صنعناه اليوم؟

أحمل الطبق بين يديَّ، أطرق أبواب بعض الدور وأفاجأ بأن أطباقاً من الدور ـ نفسها ـ يحملها أبناء الحي ممن أحسبهم أنداداً لي، ولعلهم قصدوا بها دارنا أو الدور الأخرى في «الزقاق» الذي لا تتجاوز منازله العشرة وهو زقاق «السيد أحمد».

يا صديقي جارنا ـ الذي كان يسكن في الأمس بالقرب منا، لا أعلم في أي مكان بعد رحلة العمر ألقى رحلهُ؟ لقد شغلتني الحياة فلم أعد أسأل عنه، وهل ذلك بشافع لي، أم هو عذر ـ فقط ـ أستر به تقصيري في حقه، وابن الحي الذي كنت ألهو معه ـ في مرحلة الطفولة ـ بالقرب من «المسيل» لا أكاد أتبين ملامحه أو أعرف سماته عندما جمعتنا الصدف،

والعناية كما يقول نشيد القوم ـ صُدَفٌ ـ ورجال الحي الذين كانوا يتجمعون أمام مدخل الحي، ويلعبون «الكُبُوش» ضمهم الثرى بين جنباته واختفى معهم ذلك الأنس الذي كانت تحياه بكل معانيه نفوسهم الطاهرة، وقلوبهم التي لا تعرف غشاً ولا خداعاً، وشجرة «النّبق» امتدت إليها يد إنسان هذا العصر فاجتثها من كل موقع كانت تحس بالأمان والطمأنينة فيه، إنه يفضل رؤية الزهور والأشجار الصناعية القادمة من عواصم الغرب، ولم يعد في حاجة لأن يمتع ناظريه بمرأى المياه وهي تنحدر في ذلك الحي الذي خصصه الله له في بحر يتماوج، ونهر يجري، لقد سجن إنسان هذا العصر نفسه بين هذه الحوائط الأسمنتية التي صنعتها يداه، وهو يتطلع لأن يسجن معه حتى تلك الطيور التي لا تستعذب الغناء إلا فوق أغصان الأشجار التي تنتقل بينها في حرية وهبها الله لها، وتغضب عندما يحاول هذا الإنسان اغتصاب ما وهبها الله إياها.

ناجي الأنصاري وحكاية مدينة(*)

لطالما سلك الفتى هذه الطريق من دارهم في حوش (سيد أحمد) بالسيح إلى العنبرية حيث شاءت الأقدار أن يكمل السنة الأخيرة من دراسته الابتدائية في المدرسة المنصورية والتي كانت تقوم (بحي الهاشمية) نسبة إلى السادة آل هاشم ثم استقرت به الحال في طيبة الثانوية على مقربة من سكة حديد الحجاز وكانت السكة في تلك الحقبة وقبل أكثر من ثلاثين عاماً تمثل حداً فاصلاً بين داخل المدينة وحدودها، والمثل الشعبي القديم يقول هناك (اللي في رأسه حبة يندر) (المناخة)، وأبناء الحارة يقولون الموعد في (الحفيرة) و(السكة) و(المائدة).

وكان الفتى يقطع الطريق في شيء من العجلة ولكنه ما إن يقترب من الدار المتميزة والتي كانت تقوم بين دار رجل الفضل في طيبة الطيبة السيد حبيب محمود أحمد، ودار آل الخريجي ـ الكرام ـ والتي كانت مسكناً لأمير المدينة أو من يقوم مقامه، أمام تلك الدار الصغيرة والجميلة والتي يسكنها المرحوم الشيخ إبراهيم حسوبة ـ رحمه الله ـ كنت ألمح وجوه الرجال الذين يجلسون أمام الدار عصراً وعشية وكان بين تلك الوجوه الممتلئة حيوية ونشاطاً من هم في عداد أساتذتي في المرحلة الإعدادية مثل

(*) صحيفة المدينة (عدد ١٤٠٩٧) الثلاثاء ١٢ رمضان ١٤٢٢هـ/٢٧ نوفمبر ٢٠٠١م.

الأساتذة، عبد الله خطيري، محمد سعيد حلابة حمزة سيسي، ومنهم من لم أحظ بتلقي العلم على يديه مثل محمد حسوبة، وحمزة مسعودي، ومحمود محمد علي خيمي، وناجي حسن عبد القادر الأنصاري، وأننا لنقابل في مسيرتنا في هذه الحياة أناساً فيحفرون بأيديهم أسماءهم في ذاكرتنا، ومنهم من لم يحالفه الحظ فيظل اسماً غريباً في الحياة وعلى الناس.

ثم كان لقائي بالأستاذ ناجي في مطلع التسعينيات الهجرية بمكة المكرمة حيث أعد هو وزملاء كرام دبلوماً تربوياً وترددت وزملاء آخرون على الحجون والنقا وعرفت في الأستاذ ناجي سعة الاطلاع، وحلاوة الحديث وطرافته، وكنت أسر إليه بما أخفيه عن زملائي، فأجده قلباً كبيراً وأذناً صاغية، فهو لا يشعرك بأن هناك مسافة تحول بينك وبينه، واكتشفت ذوقه الأدبي عندما كان يستمع في تلهف إلى معارضات شعرية بين الأستاذين الراحلين ضياء الدين رجب، وعلي حسين عامر، حيث يتشوقان إلى سلع واحد وإلى أيام قضوها في العوالي وقربان، يسمعون صوت الساقية وينعمون بنسيم الروح ـ واليوم ـ نحن نئنُّ فلا يسمع لنا صوت ولا يبلغ منا لمن نحب النداء، ولا تربت على أكتافنا أنامل عطوفة وحانية.

وانضم أستاذي ناجي لأسرة نادي المدينة الأدبي في عهد فقيد العلم والأدب في بلد المصطفى ـ ﷺ ـ المرحوم الأستاذ عبد العزيز الربيع، وأزعم أن (ناجي) حفظ هو وزملاء له وأساتذة لنا من أمثال محمد حميدة، ومحمد هاشم رشيد، وعبد الرحمن رفة، وحسن الصيرفي ومحمد كامل خجا وصالح البليهشي، وجعفر سبيه، ودخيل الله الحيدري، بل حفظت أجيال متعددة للأستاذ الربيع مكانته حتى بعد أن انتقل إلى جوار

ربه، بينما انساق البعض وراء عاطفة ممقوتة ليوجه إلى الربيع سهاماً جارحة حتى وهو يرقد في ربوة (البقيع) بسلام وأمان، ونسي هذا البعض أن القضاء في الدنيا ـ لمن يجحدون ويتطاولون ـ يكون في الدنيا والعياذ بالله قبل الآخرة، وفي جعبة أساتذتي (حميدة) و(ناجي) عن الربيع شيئ كثير، وأحمد للصديق البلهشي اهتمامه بتراث الربيع فكان الابن والمريد الروحي له ـ إن صح التعبير، وقبل عقد كامل من الزمن تفرغ الأستاذ ناجي للكتابة الأدبية والتاريخية وكان في عمله التربوي مثالاً حياً للتفاني والإخلاص، فأخرج لنا سفره القيم عن الحركة التعليمية في مهد حضارة الإسلام، حيث المسجد الطاهر.

والمثوى الشريف، ومنازل الوحي الإلهي، ثم كان كتابه الشامل عن عمارة وتوسعة المسجد النبوي الشريف عبر التاريخ والذي كتب مقدمته الفقيه المالكي والمؤرخ الفذ الشيخ عطية محمد سالم ـ رحمه الله رحمة الأبرار ـ ويبقى كتاب الأستاذ ناجي نمطاً فريداً فيما استوعبته دفتاه من معلومات موثقة، ومنهجية علمية واضحة، وأسلوب ممتع.

وأخيراً تفرغ لتدوين جوانب من الأدب الشعبي الحي في المدينة المنورة فأخرج كتاب (الطيرمة) والذي ذكر المؤلف أنه يضم تلك الحكايات التي روتها الجدة قبل نصف قرن من الزمن ورسخت في الذاكرة أما الكتاب الآخر فهو (التعتيمة) وهو لفظ ليس بغريب على آذان المدنيين، وتحدث فيه أستاذنا عن الأسرة المتكاتفة في الماضي، والكتاب وشيخه، وعن الخطوبة وما يتبعها من قراءة الفاتحة، والتسليم والملكة، وعقد القران والخطيب والمجيب، ورحم الله حسين وعبد الستار بخاري وحسين هاشم.

الفرنسيون يتسابقون نحو اللغة الفصحى(*)

(في العالم ١٢٠ دولة سنت قوانين دستورية لما يتعلق بشؤون اللغة. . . واللغة عنصر حياة الأمة، ومن واجبنا المحافظة على لغتنا حية لأنها تراث فرنسا الأغلى).

هذا جزء من خطاب وزير الثقافة الفرنسي الذي افتتح جلسة مجلس الشيوخ المخصصة للبحث في موضوع اللغة الفرنسية وحمايتها من الدخيل من الألفاظ والإبقاء عليها فصيحة لا رطين فيها ولا غموض، وإذا كان الفرنسيون يخشون من مزاحمة لغة شكسبير للغتهم ويرون أن أدبهم وفكرهم لا يقل شأواً ومنزلة عن أدب الإنجليز وفكرهم، إلا أن الذي يثير الانتباه هو أن موضوع اللغة يشكل أهمية كبيرة لدى الساسة الفرنسيين فيعقدون له جلسة خاصة في برلمانهم، ومعلوم أن الجلسات الخاصة في البرلمانات الغربية لا تعقد إلا للقضايا ذات الأهمية البالغة، ولكن حماس الغربيين للغتهم الأم معلوم، فالرئيس الفرنسي الذي يجيد الإنجليزية إجادته للغته لا يتحدث على باب (دوانغ ستريت) إلا باللغة الفرنسية، ويرفض الإجابة باللغة الإنجليزية، والحال نفسه مع رئيس الوزراء الإنجليزي الذي إذا حل ضيفاً على قصر (الأليزيه) أجاب عن أسئلة الصحافيين بلغته

(*) صحيفة المدينة، الثلاثاء ٢٨ ذو الحجة ١٤١٤هـ/٧ يونيه ١٩٩٤م.

الإنجليزية الكلاسيكية، ويفعل هذا الإنجليز والفرنسيون والألمان مع أن تراثاً كبيراً يجمعهم وروابط عديدة تصل بينهم، ولكن اللغة في نظر كل دولة من الدول الغربية تشكل روح الأمة وتدل على هويتها الخاصة بها فلا يمكن المجاملة في هذا الشأن ولا داعي لإرضاء الآخرين على حساب ضياع الهوية الذاتية، بل إن الفترة الحالية التي يمر بها العالم هي فترة تحديد الهويات والاحتفاظ بالثقافات الخاصة ورفض الذوبان في الآخرين بأي شكل من الأشكال.

وبينما يفعل الأوروبيون هذا من منطلق قومي خالص تتعرض اللغة العربية ـ لغة كتاب الله المنزل على خاتم الرسل والأنبياء ـ عليه صلوات الله وسلامه لهجمة شرسة من دعاة التحديث الذين لا يفقهون في لغتهم شيئاً ويجهلون نحوها وصرفها واستعمال مفرداتها، وهم أيضاً أجهل الناس باللغات الأخرى وفكرها وأدبها بل هم يقرأون ما يترجم من هذه اللغات إلى اللغة العربية فقط، ولكنهم يشعرون بدونية عجيبة ويتملكهم إحساس غريب بالضعة ولهذا فهم يسعون إلى تحويل لغة الكتابة في اللغة العربية ـ قصيدة أو قصة أو مقالة ـ إلى ما يشبه الرطانة بل أقرب ـ كما وصفها الشاعر نزار قباني ـ إلى اللغة الهيروغلوفية التي اندثرت ومضت عليها عشرات القرون، وهم يظنون بتحويل اللغة إلى هذه الرطانة الشاذة أنهم استطاعوا اللحاق بركب الحضارة، وما علموا أن مفهوم الحضارة لا يتحقق بالأشكال وأن مستقبل الأمة لا ينبني بالتعلق بالأنماط الغربية وأن الأمة التي لا تنطلق من ثوابتها وتحافظ على هويتها هي أمة ضائعة في خضم الحضارات المعاصرة التي تحاول أن تقف على قدميها ولكن على أرض صلبة من فكرها وثقافتها وتاريخها ولا مانع من أن تمد رأسها فتلتقط من

ثمار الحضارات الأخرى ما يلائم تكوينها ولا يتعارض مع أسسها ولا يجعلها غريبة الروح والشكل بين الآخرين فلا هي التي استطاعت أن تفيد الإفادة المرجوة من تراث الآخرين، ولا هي التي احتفظت بمكوناتها وخصائصها وهذا للأسف ما يفعله بعض دعاة التجديد غير الواعي والتحديث الذي يسعى لهدم تراث الأمة وليس الانطلاق منه نحو آفاق فعالة من المعرفة والفكر والثقافة التي تحتاجها الأمة وتدعم بها مسيرتها الحضارية.

الكُتَّاب الغربيون. . . والموقف من المفاهيم الدينية(*)

الروائي البريطاني «جراهام جرين» الذي توفي عام ١٩٩١م تناوله كتاب السيرة الذاتية ومن بينهم «مايكل شيلدن» الذي تناول جوانب من حياة هذا الأديب في كتاب أطلق عليه اسم «أعماق الرجل» أما الكاتب «نورمان شيري» فلقد أصدر جزءين يتناول فيهما الجوانب الإيجابية من حياة الأديب الذي حققت أعماله الروائية مثل «الرجل الثالث» «عميلنا في هافانا» «الأمريكي الهادىء» «قلب الأحداث» «نهاية علاقة». . . حققت هذه الإبداعات الروائية المتميزة انتشاراً واسعاً حتى إنه بيع منها ما يقرب من ٢٠ مليون نسخة، كما ترجمت لأكثر من أربعين لغة «أخبار الأدب المصرية، العدد ٦٢ ـ ١٨ سبتمبر ١٩٩٤م».

إلا أن اللافت للنظر في حياة هذا الروائي الإنجليزي هو تعصبه لمذهبه الكاثوليكي الأمر الذي دفع بعض المتعلقين بأدبه أن يغيروا مذهبهم الديني وينضموا للكنيسة الكاثوليكية ومن بينهم زوجة اللورد العمالي البريطاني «هاري والستن» ولم يكن ما فعله «جرين» من تكريس لأعماله

(*) صحيفة المدينة الثلاثاء ١٩٩٤/١٠/٤م، ٢٩ ربيع الآخر ١٤١٥هـ.

الروائية لخدمة معتقده المسيحي الكاثوليكي شذوذاً في تاريخ كثير من الشعراء والروائيين الغربيين، فالشاعر الأمريكي الأصل، والبريطاني الجنسية «ت.س. إليوت» كان كاثوليكياً متعصباً، وتنعكس هذه العقيدة بصورة واضحة في قصيدته المعروفة «الأرض الخراب» والتي بناها إليوت على مفاهيم دينية محضة، وبما أن الشاعر أنشأها بعد مشاهدته للدمار الذي عانته البشرية من آثار الحرب العالمية، رأى إليوت ـ من وجهة نظره ـ أن الخلاص هو في التعاليم المسيحية الكاثوليكية، بل إن من أكثر الشعراء الذين نلمس لهم حضوراً في قصيدته المشهورة تلك هو الشاعر الإيطالي المعروف «دانتي» حيث تأثر بقصيدته المعروفة «الكوميديا الإلهية».

ويؤكد كاتب سيرة إليوت Peter Ackroyd في كتابه T. S. Eliot الذي طبع عام ١٩٨٤م أن إليوت إبان نشأته التعليمية الأولى في جامعة هارفارد، كان كثيراً ما يردد أشعار «دانتي» مما يدلل على إعجابه وتأثره بإبداعه الشعري القائم أيضاً على مفاهيم دينية محضة.

أما فرانز كافكا الروائي اليهودي المعروف، فلقد كتب باللغة اليدشية «اليهودية القديمة» في مطلع حياته، وكانت بعض رواياته تبشر بميلاد دولة يهودية دينية، انظر: Kafka, Judaism, Politics, and Literature, By R. Robertion..

هؤلاء شعراء وكتاب غربيون تجاوزت شهرتهم مجتمعاتهم واتخذهم البعض من الشعراء العرب في العصر الحديث قدوة لهم، بل إن حركة الشعر العربي الحديث كانت متأثرة إلى حد بعيد بعمل (إليوت) المعروف (الأرض الخراب) ويرى بعض الدارسين أن قصيدة «بدر شاكر السياب» المعروفة «نشيد المطر» هي انعكاس لقراءته لأعمال إليوت المشهورة وفي

مقدمتها «الأرض اليباب» إلا أن بعضاً من المحسوبين على حركة الشعر العربي الحديث، يخجلون من تضمين أعمالهم نصوصاً إسلامية، ويعدون ذلك خروجاً على قاعدة الإبداع التي تقوم عندهم على الخروج على المألوف وهي عبارة اقتبسوها ـ بطريقة وأخرى ـ من الشاعر أدونيس الذي يحمل في داخل نفسه حقداً دفيناً على الإسلام وتعاليمه ولغته، وهو شيء معروف للجميع، ومن أراد التعمق في هذه الناحية فعليه الرجوع إلى كتاب الناقد الكبير الأستاذ عبد الله عبد الجبار «الغزو الفكري» الذي صدر في سلسلة «مكتبة الرفاعي الصغيرة» أو إلى المقدمة التي كتبها الأستاذ الكبير أحمد الشيباني لكتاب الزميل الكريم الدكتور محمد خضر عريف «الحداثة... مناقشة هادئة لقضية ساخنة» ويأسى الإنسان عندما يجد الكتاب الغربيين يفتخرون بدينهم المسيحي الذي دخلته التحريفات وحفلت به الأساطير، بينما يخجل البعض من الكتاب المسلمين من الإشادة بدينهم الإسلامي الذي لا يأتيه باطل ولا يمسه تحريف، حيث تكفل بحفظ كتابه العزيز خالق هذا الكون ومبدعه، وإذا كان البعض يخجل حتى من وضع «البسملة» في فاتحة كتابه، فإن البعض الآخر يعتبر الإشارة إلى المفاهيم الدينية في الشعر يدخل هذا الإنتاج في باب الوعظ والإرشاد، ويبقى السؤال قائماً لماذا لم نسمع ناقداً غربياً انتقد إليوت... أو عزرا باوند أو فرانز كافكا أو جراهام جرين لاعتزازه بدينه وتبشيره بتعاليمه شعراً وقصة ورواية؟... ولماذا يحتفل بعض النقاد العرب بهذه الأعمال الغربية ولا يضيرهم ما فيها من مفاهيم دينية غربية أو أسطورية؟ إنها أسئلة تنتظر جواباً من الذين يديرون ظهورهم لتراثهم وأصالتهم، ويفتخرون بتراث وأدب وفكر الغير من الأمم الأخرى.

فيلسوف الكلمة وشاعر الروح خالد بن سعود الزيد(*)

لن أتجاوز المكان والزمان عند حديثي عنك فالمكان الذي تنتسب إليه يستغيث من ظلم الغادرين بعد أن كان مأوى آمناً تهوي إليه قلوب الناس من كل صقع وموردا عذباً لا يرد ذووه أخا وابن عم وصديقاً ومنار فكر يستهدي بضيائه كل أولئك الذين يعيش الحرف في وجداناتهم وتنصهر المعرفة في عقولهم وتتلفت أنفسهم بحثاً عن مرافىء العلم والحقيقة.

أما الزمان فهو حقبة سوداء سوف يدرج التاريخ أسماء من عبثوا بصبحها الأغر ونهارها الأبلج في زمرة طغاة الأرض وسفاكي الدماء ومقوضي الحضارات.

ما زلت أيها الفيلسوف أتذكر المكان الذي حظيت بلقائك فيه لأول مرة ولم يكن المكان إلا ساحة من ساحات العلم التي يشد الناس رحالهم إليها وهل في الدنيا من بقعة تستأثر باهتمام وتطلع الإنسان مثل بقعة تروي ظمأ المعرفة فيه، وتمنح نفسه أكسير الحياة وترتقي بروحه إلى مدارج

(*) ملحق الأربعاء (جريدة المدينة)، الأربعاء ٣٠ صفر ١٤١١/هـ.

الوعي تلك المدارج التي حثه الله على البحث عن أسبابها ليحقق إنسانيته وليسمو فوق المطالب الدنيا والمحدودة.

لقد جمعتني بك قاعات الدرس في جامعة مانشستر ببريطانيا كان كل شيء حولنا غريباً تلك الزخات الشديدة من المطر وتلك الوجوه التي تختلف سحناتها عن سحناتنا وألسنتها عن ألسنتنا وتقاليدها عن تقاليدنا ويوم رأيتك سكنت نفسي وتبددت وحشتي ثم انطلقت في تفكير هادىء عميق لم ينتشلني منه سوى صوتك الجهير وأنت تترغم بمقاطع من إبداعك الشعري فامتلأت عند ذلك نفسي بالصوت العربي والكلمة الفصيحة واللحن الخالد ولم أتردد يومها في القول بأنك واحد من أولئك الناس الذين نضجت الكلمة في أعماقهم وتثقفت على ألسنتهم تثقف ذلك الصارم الذي يحمله ابن هذه الجزيرة لا ليخيف به الآخرين ولا ليغرز نصله في أجسادهم ولكن ليحمي به «ربعه» ويصد كل كيد يتربصه به أعداؤهم.

ثم جلست إليك فإذا أنت تعكس تلك الصورة الزاهية للمثقف العربي الأصيل لا تمنع عن عقلك شعاع المعرفة أياً كان مصدره ولا ترضى بالتنازل عن قيمة من قيم الحضارة التي تنتمي إليها وكنت إذا التقيت الآخرين امتد شعور صادق بين روحك وأرواحهم فلا يرونك إلا منصتاً بأجمعك إلى حديثهم من غير أن يلمحوا في سلوكك شيئاً ينم على تعاليك عليهم أو استغنائك عن معرفة يدفعهم تطلعهم البشري للمشاركة بها وإن كانت ملامح شخصيتك تنبىء كل من يشاهدك بأنك أستاذ جيل وفيلسوف كلمة وموجه روح ولعلي أتذكر أنني كنت أتحدث معك عن نماذج من سلوك علماء الأمة ورعيلها الصالح من أمثال الحارث المحاسبي وأبي حامد

الغزالي وابن القيم فإذا أنت تستزيدني من ذلك الحديث وإذا الدمع يترقرق في عينيك والوجد يسمو بك وهتاف الروح يتجسد عميقاً في كل إيماءة تصدر عنك أو كلمة تتفوه بها.

إن الشعور الذي تختزنه في نفسك لا يمت إلى ما حاول الأعداء ترويجه زوراً وبهتاناً عن صفات الإنسان الكويتي وسلوكه إنه شعور الإيمان العميق والقيم الطاهرة والممارسة النظيفة ولعلي أكشف هنا عن وجه مشرق من أخلاق المثقف الكويتي وهو مشاركته لإخوانه من أبناء العروبة والإسلام لقمة العيش في داخل الكويت وخارجها لم تحدثني أنت أيها الرجل النبيل عن ذلك المنحى الكريم في شخصيتك ولكن كاشفني الآخرون أنفسهم بأنك يوم كنت تجتمع بالطلاب العرب في الجامعات البريطانية يقودك حسك الصادق وبعد نظرك إلى معرفة من تقصر بهم وسائل الحياة عن مجاراة بقية إخوانهم فإذا أنت الحدوب عليهم والعطوف بهم وإذا هم ألسنة تدعو لك وقلوب تخفق بالحب لشخصك ومشاعر صادقة تتدفق كلما نحا الحديث نحو الأرض المعطاء التي أنجبت الرجال وحمت الذمار ورعت العلم وأهله وستعود كما كانت وإن غداً لناظره قريب.

خالد الزيد أديب وشاعر كويتي معروف وله العديد من الدراسات الجادة عن الحركة الفكرية والثقافية في الكويت كما رأس رابطة الأدباء الكويتيين لفترة من الزمن.

المسؤولية الأخلاقية للإنجليز عن مأساة الفلسطينيين(*)

يذكر الزعيم الإسرائيلي والإرهابي الحقيقي (مناحيم بيغين) في مذكراته، بأن الأوساط اليهودية ـ ومنها العصابة الإرهابية التي كان يقودها (أرغون) ـ هللت كثيراً لصعود حزب العمال البريطاني بعد الحرب العالمية الثانية، حيث حقق الزعيم العمالي كليمنت أتلي C. R. Attlee، نصراً على الزعيم المحافظ ونستون تشرشل ـ والذي كان معروفاً بالتزامه بالإيديولوجية الصهيونية.

كانت قلة في البرلمان الإنجليزي من أعضاء حزب العمال والتي تعارض تسليم أرض فلسطين العربية والمسلمة إلى العصابات اليهودية الإرهابية وعلى رأسها (أرغون) و(شيترن) وكان في مقدمة هذه القلة وزير الخارجية (أرنيست بيفين) -Ernest Bevin ومساعده (مايكل مايهو Mayhew)، وظل شبح عداء السامية يلاحق الرجلين حتى آخر حياتهما لمواقفهما المعتدلة من القضية الفلسطينية وكأن الديمقراطية الغربية قد صممت لحقوق اليهود، ولحرمان الشعب الفلسطيني من أدنى حقوق العيش

(*) صحيفة المدينة الثلاثاء: ٢٠٠٤/٣/٣٠ م/ ٩ صفر، ١٤٢٥هـ.

الكريم، ويتحمل الإنجليز وزر الكثير من هذه المعاناة ولم تقدم حكومة بريطانية ـ باستثناء حكومة إدوارد هيث ـ على اتخاذ موقف محايد من هذه القضية، بل إن صعود هارولد ويلسون (Sir Wilson) سنة ١٩٦٤م كان إيذاناً بحقبة جديدة تنحاز فيها بريطانيا بشكل فاضح إزاء الوجود الصهيوني الغاصب لأرض فلسطين، ويعبر أحد أعضاء أركان الحكومة العالمية وهو ريتشارد كروسمان Crosman في مذكراته والتي نشرت سنة ١٩٧٩م، بجهود من الصحافي الإنجليزي المعروف أنتوني هاورد Haward، عن تعاطفه الشديد مع إسرائيل أثناء حرب ١٩٦٧م، وهو وزميله توني قرين وود Green Wood ويفتخران بأن أعظم إنجاز قدماه في حياتهما العملية هو خدمة أهداف الحركة الصهيونية مما يعني ضمنا أن ولاء بعض أعضاء حكومة العمال ١٩٦٤ ـ ١٩٧٠م لهذه الحركة العنصرية كان مقدماً على ولائهما لبلديهما ـ أي بريطانيا ـ وهو يكشف عن سر هام في تلك المذكرات وذلك عن تردد السفير الإسرائيلي في لندن عام ١٩٦٧م على المؤسسة الرسمية وأن السفير Remez أخبره في زيارته ـ أي في مكتب كروسمان ـ بأن إسرائيل كانت تخطط للحرب منذ أمد وفي غفلة من بعض الزعامات العربية ـ آنذاك ـ وأن الذريعة التي استخدمتها بأن العرب كانوا البادئين بالحرب ما هي إلا خطة سوفيتية محكمة أوقعت بعض العرب في شراكها، وأن القوة العظمى الأخرى ـ آنذاك ـ الاتحاد السوفيتي لم تكن أقل حماساً لنصرة إسرائيل من نظيرتها الولايات المتحدة الأمريكية.

استقالة ويلسون المفاجئة سنة ١٩٧٦م، وانتخاب الحزب ـ داخلياً ـ لـ(جيمس كالاهان) Callaghan لم يخفف من وقوف حزب العمال وانحيازه الكلي لإسرائيل، وكان اختيار كالاهان لـ (ديفيد أوين) Owen،

وزيراً للخارجية سنة ١٩٧٧م بدلاً عن توني كروس لاند Crosland لقد كان اختيار هذا العضو القليل الخبرة السياسية ـ آنذاك ـ عاملاً مساعداً لبقاء السياسة البريطانية العمالية في انحيازها الكلي وغير العادل، بل المجحف إلى جانب الكيان الإسرائيلي.

إلا أن صعود (مايكل فووت) Foot لزعامة حزب العمال سنة ١٩٧٩م، بعد خسارة الحزب أمام الزعيمة المحافظة مارجريت تاتشر، خفف كثيراً بجهود اليسار المعتدل داخل الحزب للاعتراف بالحقوق الفلسطينية لأول مرة في تاريخ الحزب، وكان الزعيم الآخر الذي خلف فووت في زعامة الحزب هو (نييل كينيك) Kinnok ينتقد إسرائيل بين الحين والآخر، وكان وزير خارجية الظل والسياسي المخضرم دنييس هييلي Healey الأكثر حضوراً في الساحة من حيث أن أسباب القلاقل في الشرق الأوسط هو عدم أخذ الفلسطينيين لحقوقهم المشروعة.

وخلف كينيك زعيم معتدل آخر وهو جون سميث John- Smith إلا أن وفاته المفاجئة عجلت بصعود الثنائي بلير ـ براون، لزعامة الحزب وبتأييد يهودي برز أخيراً في جهود المستشار اليهودي (ديفيد ليفي) ـ والملتزم بسياسة إسرائيل المتشددة وتمويله للانتخابات داخل إسرائيل.

نعم: لقد فتح (بلير) أذنه لنصائح هذه الشخصية ولقد عبر بمرارة النائب العمالي المخضرم ـ والذي يحمل لقب (اب) مجلس العموم لقضائه أكثر من أربعين عاماً في السياسة البريطانية وهو تام داليل (Dalyell Tam) نعم: لقد عبر داليل بأسى وحزن عميقين عن تخبط السياسة العمالية بزعامة بلير وانقيادها الأعمى خلف السياسة الأمريكية، ولقد دافع بلير في مجلس العموم ـ أخيراً ـ عن حق إسرائيل في امتلاك الترسانة النووية، وبرز ـ

أخيراً ـ وزير ماليته (جوردون براون) والذي يتوقع البعض أن يكون خليفة بلير في زعامة الحزب ليدين الفلسطينيين على كفاحهم المشروع الذي يقوم به الأطفال أمام السلاح الإسرائيلي المدجج والأمريكي والبريطاني والألماني الصنع والتمويل فهؤلاء الأطفال والشيوخ المقعدون والنساء الحوامل هم من يدينهم (بلير) وزميله (براون) أما السفاح حقاً، والإرهابي عالمياً شارون وزميله موفاز فهما أبطال سلام!!

دَوْرُ الكُوَيْتِ في نَشْر الثَّقافَةِ العَربيَّة والإسلاميَّة في الجامعات البريطانيّة

هذه مجرد خواطر من عهد الدراسة العليا بالجامعات البريطانية، أحببت أن أسوقها ـ هنا ـ تدليلاً على دور البلد العربي «الكويت» في دعم الثقافة العربية، ونشر الحضارة الإسلامية في البلاد الغربية، وكشفاً لجوانب لم تتوجه إليها الأضواء بعد؛ مع أهميتها القصوى، في ظل الأحداث الأخيرة التي نتجت من الغزو العراقي الغاشم لهذا المعقل الثقافي والحضاري الأصيل.

في بداية الثمانينات الميلادية ـ قُبلت طالباً في الدراسات العليا، في جامعة «لانكستر»، بالمملكة البريطانية المتحدة؛ وهي جامعة تعد في عداد الجامعات الحديثة، التي قامت ـ في أواخر الستينات الميلادية، وأوائل السبعينات ـ وتقع في الشمال الغربي للمقاطعة الإنجليزية.

وكان القسم الذي يتولى الإشراف على دراستي العلمية هو قسم الدراسات العربية والإسلامية، وكان يرأسه أحد الأساتذة العرب المقيمين في بريطانيا؛ وهو البروفسور «وليد عرفات» الذي حاز الشهادة الجامعية في الأدب الإنجليزي من جامعة «إكستر»، وعلى شهادة «الدكتوراه» في الأدب

العربي «العصر الجاهلي» من جامعة لندن؛ إحدى الجامعات العريقة بتقاليدها العلمية في بريطانيا.

وكان البروفسور «عرفات» قبل انضمامه لهيئة التدريس بهذه الجامعة الفتية أستاذاً للأدب العربي في الجامعة التي تخرج فيها؛ وهي جامعة لندن. ومن بين طلابه فيها الأستاذان الفاضلان حسن باجودة، وحسن شاذلي فرهود.

لكن الظروف التي أحاطت، في فترة من الفترات، بجامعته الأم، قادته إلى الشمال الإنجليزي، واستقر به المقام هناك! ليجد نفسه وسط ظروف أخرى، تهدد بإقفال القسم الذي أدى دوراً هاماً في نشر الثقافة العربية في البيئة الإنجليزية، وغيّر كثيراً من المفاهيم السائدة عن العرب وقضاياهم، وهبت جامعة الكويت لتنقذ هذا القسم الفاعل، وتعيد إليه الحياة، بعد أن كاد يفقدها.

لم يحدث القسم تغييراً إيجابياً فقط ـ بفضل الرعاية الكويتية الكبيرة في عقول الجيل الإنجليزي الصاعد ـ ولكن تجاوزه إلى فئة من الإنجليز الذين يرجعون إلى أصول يهودية، وكانت المفاجأة عندما أعلنت رئيسة الجمعية اليهودية في جامعة «لانكستر» إسلامها بعد أن تلقت ـ لفترة من الزمن، على أيدي أساتذة القسم ـ الثقافة العربية، وأصول الدين الإسلامي، وتاريخ الحضارة الإسلامية، وأصبحت الفتاة التي كانت تحارب الجمعيتين الإسلامية والعربية في الجامعة نفسها، تتدثر بالحجاب الإسلامي وتبحث عن الحياة الإسلامية الآمنة؛ بعيداً عن أجواء القلق والشك، التي خبرتها، منذ طفولتها، في حضارة الغرب، وثقافته، وسلوكه.

وفي ظل الرعاية والتشجيع الكويتيين أنتج بعض أساتذة القسم إنتاجاً

علمياً يدور في إطار القضية العربية الأولى؛ وهي القضية الفلسطينية، وكان من بينهم الأستاذ الكندي الأصل، العربي الثقافة «ديفيد وينز» (David Wains) الذي أصدر كتابه عن القضية الفلسطينية باللغة الإنجليزية؛ وهو: "A Sentense Of Exile/ The Palestine-Israel Conflict/1896-1977".

والذي يشرح فيه أبعاد المؤامرة الصهيونية على الأرض العربية، وشعبها، وثقافتها، ولم يخف «وينز» حماسه لهذه القضية؛ فكان من صور هذا الحماس الصادق عنده: تدوينه على باب مكتبه باللغة العربية عبارة: «فلسطين عربية».

وانعقدت، في ظل هذا القسم الذي كان محفوفاً بالتطلع الكويتي لدعم الثقافة العربية في معاقل الحضارة الغربية، إحدى الحلقات الدورية لجمعية دراسات الشرق الأوسط، صيف عام ١٤٠١ ـ ١٩٨١؛ وكان من بين الحضور بعض أعضاء هيئة التدريس في الجامعات السعودية؛ وهما الدكتوران محمد الهدلق، ومحمد السديس.

وإذا كانت المؤسسات الثقافية الكويتية دعمت هذا القسم؛ فكانت له مكتبته الحافلة بأمهات المراجع العربية والدوريات والمجلات، ورعت أساتذته، وأنفقت عليهم بسخاء، فإن قسماً آخر من أقسام دراسات الشرق الأوسط، بتلك البلاد، كان يتلقى الدعم الدائم؛ في الفترة التي كانت الجامعات البريطانيا ـ تحت تأثير العوامل الاقتصادية ـ تفكر في إقفال أقسام الدراسات المتخصصة في لغات الشعوب الأخرى وآدابها وحضاراتها.

إن القسم المعني بإشارتي هذه هو قسم دراسات الشرق الأوسط بجامعة «فكتوريا» بمدينة «مانشستر»، والذي سجلت فيه درجة «الدكتوراه»

عام ١٩٨٢م تحت إشراف المستشرق المعروف «أدموند بوزورث» ولقد علمت من الأخوة الذين سبقوني في الدراسة بهذا القسم أن «الكويت» يعد مصدراً أولياً في دعم مسيرة هذا القسم، وخصوصاً أن هذا الدعم كان يحقق أهدافاً عديدة؛ من بينها: الوقوف في وجه المحاولات الصهيونية لاختراق هذا القسم، وتغيير توجهاته وملامحه.

وكان دعم الكويت يتمثل في صور عديدة؛ من أهمها: الزيارات التي كان يقوم بها بعض أدباء الكويت ومفكريه للقسم بين الحين والآخر؛ ففي عام ١٤٠٣هـ قدم الأستاذ خالد سعود الزيد؛ الرئيس السابق لرابطة الأدباء الكويتيين، محاضرة عن تجربته الشعرية، كما قدم في عام ١٤٠٥هـ دراسة مقارنة عن الأمثال العربية، وألقى الدكتور محمد عيسى صالحية؛ الأستاذ بكلية الآداب بجامعة الكويت، محاضرة عن تحقيق التراث العربي.

وكان إضافة إلى هذين الأستاذين الكريمين يطل علينا ـ بين الحين والآخر ـ وجه كويتي مشرق هو الدكتور سليمان العسكري، الذي كان يحضر لدرجة «الدكتوراه» في القسم نفسه.

كما كان للعلاقة الوثيقة بين رئيس القسم، في تلك الفترة، والمؤسسات الثقافية الكويتية، دور ملحوظ في نشر بحوث «تراث الإسلام» "Legacy Of Islam" والتي كان يشرف على تحريرها الدكتور «بوزورث» ضمن سلسلة «عالم المعرفة» الشهيرة، والصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والعلوم بالكويت.

ولم يقتصر دور القسم على قبول الطلاب العرب والمسلمين الذين تتولى جامعاتهم دفع رسومهم الدراسية؛ بل كان يقوم ـ أيضاً ـ بتقديم منح دراسية للطلاب الذين لا تمكنهم ظروفهم من تحمل أعباء الدراسة العليا،

وكان من بين هؤلاء الطلاب أخوة من الطلاب العرب القادمين من الأراضي العربية المحتلة في فلسطين.

إن الكويت ساهمت بطرق عديدة في دعم مشروع الثقافة العربية في البلاد الأوروبية؛ مما كان له أكبر الأثر في بعث حوار حضاري بين الثقافتين الإسلامية والغربية، ويمكننا القول؛ اعتماداً على هذه الحقيقة؛ إن كثيراً من المؤسسات العلمية في البلاد العربية مدينة لهذه الجهود الكويتية التي ساهمت في تعضيد الوجود الثقافي العربي، وإعداد جيل من الدارسين العرب ساهموا في ترسيخ المفاهيم الأصلية والحية لثقافتنا التي كانت خسارتها كبيرة لتعرض بلد الحضارة والعلم والثقافة لغزو عسكري غاشم متجرد من القيم، وبعيد عن الإنسانية، ومتلبس بدعاوى وأكاذيب باطلة.

عنوان الكتاب: أمريكا: سري للغاية

المؤلف: الدكتور: محمد خضر عريف

الناشر: دار القادسية للنشر والتوزيع: جدة(*)

تحدث الكاتب «العربي» الأصل «الأمريكي» الجنسية (هشام شرابي) في مقابلة أجرتها معه عكاظ الأسبوعية الاثنين ١٣ ربيـع الأول، ١٤١٤هـ، ٣٠ أغسطس١٩٩٢، عن الساحة الثقافية الأميركية فقال:

هناك مؤسسات وقيم أساسية يقوم عليها الفكر الأمريكي، والفن الأمريكي، والموسيقى الأمريكية، والأدب الأمريكي ففي القرن التاسع عشر والعشرين تكون في هذه البلاد ثقافة غنية فذة لا مثيل لها في التراث الغربي الآخر الأوروبي، بدأ من أوائل القرن التاسع عشر وكتابات هيرمان ميلغل موبي ديك إلى روائع الأدب في القرن العشرين وانتهاء بأدب أرنست هيمنجواي، وهـ.د. سالينجر، بالفلسفة البراجماتية التي أصبحت الآن في حالة نهضة عميقة جداً من سان جون بيرس، وويليام بليك إلى ريتشارد نولتي، والحركة التكنيكية لذلك التراث النقدي والحركة الفكرية والمقدرة

(*) ملحق الأربعاء (صحيفة المدينة المنورة)، الأربعاء ١٩ جمادى الأولى ١٤١٤هـ.

على رؤية الذات والآخر، ونقد الذات وتجاوز الأفكار والمواقف، التي عفا عليها الزمن والدخول في اتجاهات جديدة ومجابهة المجهول على المستويات كافة في الفكر والعمل والممارسة، في السياسة والاقتصاد والحياة اليومية، كلها أعطت صبغة للحياة الأمريكية وأعطتها دينامية لا أظن أن هناك مجتمعاً في العالم اتصف بها إلى هذا الحد، منذ المجتمع الإغريقي أيام سقراط وأفلاطون في تلك الفترة الزمنية أو منذ النهضة الثقافية الفكرية في شمال إيطاليا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، أو أيام النهضة والتنوير في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، أي إن النهضة الأمريكية في القرنين التاسع عشر والعشرين هي إحدى المحطات الأساسية في الثقافة الغربية كما تعرفت إليها في اختباري في هذه المدة.

وهذه رؤية مثالية للثقافة الأمريكية صدرت من كاتب عربي استقر في تلك البلاد منذ أن كان عمره عشرين عاماً، وهو يصرح ـ أي شرابي ـ في لغة متعجرفة أنه لم يرض بالكتابة باللغة العربية حتى بداية السبعينات وهو إن لم يوضح ـ صراحة ـ لماذا لم يرض بالكتابة بلغته الأم لمدة طويلة إلا أن المقطع السابق من حديثه عن الثقافة الغربية يفسر سر تلك الفجوة بينه وبين ثقافته وتراثه وبين وعاء هذه الثقافة وذلك التراث وهو اللغة العربية مع أن شرابي وكثيراً من المثقفين العرب الذين يعيشون في منفاهم الغربي الاختياري يقتاتون من الكتابة عن مجتمعاتهم العربية التي تركوها في فترات مبكرة من حياتهم، وكتاب شرابي المعروف «النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي»، يعطينا مثالاً واحداً كيف أن هؤلاء الكتاب على استعداد لتشريح أوجه الحياة الاجتماعية في بلادهم ولكنهم لا يجرؤون على تقديم

مثال واحد ـ مع أن الأمثلة كثيرة ومتعددة ـ عن إخفاقات الحضارة الغربية في عدد من وجود الحياة ومن أهمها إخفاقها في تقديم ما تصبو إليه روح الإنسان وتتطلع إليه ذاته الداخلية المسكونة بذلك الانشطار العميق الذي تسببت فيه هذه الثقافة الغربية التي يدعي الكاتب شرابي أنها فذة وغنية.

لقد تعددت أوجه الكتابة عن «الغرب» مجتمعاته وثقافته وفكره من منظور عربي، وكانت السيرة الذاتية والقصة الروائية في الأدب العربي الحديث من ضمن الفنون الأدبية التي حملت إلينا تجربة طه حسين في «أيامه» وتوفيق الحكيم في «عصفور من الشرق» وسهيل إدريس في «الحي اللاتيني» ويحيى حقي في «قنديل أم هاشم» ويوسف إدريس في «السيدة فيينا» و«نيويورك» والطيّب الصالح في «موسم الهجرة إلى الشمال»، ويرجع بعض الدارسين ظهور هذه النصوص الإبداعية إلى عامل واحد هو مشكلة العلاقة مع الآخر «الحضارة الغربية» وغالباً ما كانت تصنف هذه الأعمال ضمن التجارب الذاتية الخاصة ـ ولكن الذي يميز حقاً ـ بعض الكتابات العربية عن الحضارة الغربية أو ثقافتها هو عدم قدرتها على النفاذ إلى عمق هذه الثقافة بالشكل الذي نجده عند كتاب آخرين من ثقافات أخرى كما هي الحال عند الكاتب المكسيكي الحائز على جائزة «نوبل» «أوكتافيوباث» الذي يصف الحداثة الغربية بأنها «الحداثة الإمبريالية» أو الكاتب الفرنسي P. Boudraillard الذي يصفها صراحة بالحداثة البربرية أو المتوحشة.

وليس بين أيدينا كتاب المفكر الإسلامي المعروف سيد قطب «أمريكا التي رأيت» حتى نستطيع أن نتبين الخلفية التي انطلق منها المرحوم قطب في نقد المجتمع الأمريكي وحضارته وإن كان هناك مقتطفات من كتابه الآنف الذكر قد تضمنتها نصوص للكاتب نفسه، وهذه المقتطفات توضح

الموقف السلبي للكاتب من هذه الحضارة وقد بناه الكاتب على ما شاهده من انحلال خلقي في بعض قطاعات ذلك المجتمع، ولعل الانحلال الذي شاهده المرحوم قطب في الخمسينات الميلادية من هذا القرن كان بداية لما تعانيه بصورة مرعبة ومخيفة المجتمعات الغربية وليس المجتمع الأمريكي وحده، من مشكلات أخلاقية عديدة ـ في الوقت الحاضر ـ وما داء العصر وطاعونه ـ الإيدز ـ إلا مثال صارخ لهذه المعاناة القاتلة، وما قوافل المشردين من الشباب والشيوخ الذين يفترشون محطات السكك الحديدية في بعض عواصم الغرب مثل لندن إلا دليل على أن الحضارة الغربية تتضمن الكثير من أوجه القصور التي يحاول أن يتجاوزها بعض الكتاب العرب من منظور الانبهار بالآخر وثقافته وفكره، على أن ذلك لا يعني بحال من الأحوال أن الحضارة الغربية شر كلها فتلك نظرة قاصرة أيضاً، ولكننا نتحدث كيف أن بعض الكتاب الغربيين استطاعوا نقد حضارتهم نقداً موضوعياً، وهم أبناء هذه الحضارة الذين ولدوا بين أكنافها ـ بينما لا يقدم بعض الكتاب العرب ـ وخصوصاً أولئك الذي يتخذون من عواصمها مقراً لهم أو مورد رزق وكسب، لا يقدمون إلا الجانب الإيجابي وهم أيضاً عند تقديمهم لهذا الجانب كثيراً ما يغالون فيه أشد المغالاة، ولو حدثهم البعض عن الحضارة الإسلامية والعربية ودورها في إثراء الجوانب الإيجابية من حضارة العصر لأداروا ظهورهم ولووا وجوههم، بينما يعترف المنصفون من كتاب الغرب بهذا الدور ولا يجدون غضاضة في الإشادة به أثناء حديثهم عن العصر الذهبي لحضارتنا العريقة.

كتاب الزميل الدكتور محمد خضر عريف الذي أجدني متشرفاً بتقديمه للقارىء أكاد أصنفه ضمن المؤلفات العربية التي لم تنطلق من فراغ في نقد

الوجه القبيح لهذه الحضارة وخصوصاً فيما يتعلق بقضية امتهان حقوق الإنسان التي ينصب الغرب نفسه محامياً عنها، ويتعرض الكاتب كذلك في كتابه لأوجه العلاقة بين المجتمعين الإسلامي والأمريكي، وكيف أن اليهود يفسدون كل محاولة يراد من ورائها رسم الصورة الصحيحة للإسلام والمسلمين في هذا العصر، فاليهود دوماً يوحون للغربيين بأن العرب والمسلمين ينامون على بحر من النفط، وأنهم يحاولون ابتزاز الغرب حضارة ومجتمعاً من خلال هذه الطاقة التي تقوم عليها صناعة الغرب، وتناسى اليهود أنهم ـ أنفسهم ـ عاشوا عصرهم الذهبي في أحضان الحضارة الإسلامية في شبه الجزيرة الإيبرية كما يعبر عن ذلك رئيس الوزراء اليهودي المعروف ـ أبا إيبان ـ في مذكراته وغيره من المفكرين اليهود.

والمؤلف الدكتور محمد خضر عريف لا ينتقد الحضارة الغربية أو المجتمع الأمريكي من فراغ فهو إضافة إلى رجوعه إلى عدد من المصادر والدوريات الغربية. يعتمد في نقده هذا على تجربته الذاتية حيث عاش المؤلف عدة سنوات من عمره في ذلك المجتمع وهو ما لا يتوافر لكثير من أولئك المنبهرين بالحضارة الغربية بينما هم لا يجيدون حرفاً من أحرف اللغة الإنجليزية ولم يشاهدوا الحياة الغربية إلا من خلال الأفلام والمسلسلات وبعض الصحف والمجلات وكأن ذلك في نظرهم كاف للتحدث عن ثقافتهم الإسلامية والعربية ومحاولة رميها بكل الأوصاف السيئة والنعوت المتحاملة ـ وهو أمر لا يقدم عليه بعض الغربيين ـ فكيف يكون الحال إذا صدر من ينسبون أنفسهم إلى هذه الحضارة، بل هم رغم هذا السلوك الشاذ والغريب تجاه ثقافتهم وحضارتهم فإن الآخر لم يرض

بأن يكونوا جزءاً من ثقافته الخاصة وهويته المتميزة ويرفض كل محاولاتهم للالتحاق به أو الانضمام إلى قطار الحياة فيه.

إن كتاب الزميل الكريم «عريف» محاولة جادة لرسم ملامح الحياة الغربية بكل تفاصيلها الإيجابية والسلبية، وهو الشيء الذي نطمح لتوافره في كثير من الكتابات الأخرى التي تعتمد الرؤية الواحدة وهو أسلوب يتسبب في نشوء جيل منبهر بالآخر ومنفصل في الوقت نفسه عن مجتمعه الذي يعيش فيه وتراثه الذي لا محيد له عن الارتباط به، وهذا الأسلوب يؤدي في النهاية لأن يظل الجيل في مرحلة حضارية حرجة فلا هو بالذي يرضى بثقافة الأمة وتراثها، ولا هو بالقادر على اللحاق بالآخر الذي ينظر ـ دوماً ـ للمتنصلين من ثقافتهم الأصيلة بنظرة فيها الكثير من الاحتقار والازدراء وأتذكر في هذا السياق قول أحد الأساتذة الغربيين لواحد من زملائنا حيث كان يحاول دوماً تقليد الغربيين في كل شيء قال له: «إنني أفضل أن أراك عربياً مسلماً».

فهل تكفي مثل هذه المقولة رادعاً لعودة أولئك الذين يتحدثون عن الغرب كأنهم ولدوا في نيويورك وباريس ولندن، وكأنهم عايشوا ت.س إليوت، وبول سارتر وميشال فوكو، ورولان بارت، وليفي شتراوس، وصموئيل بيكيت، وغيرهم من مفكري الغرب الذين يعتزون دوماً بتراثهم ويعتبرون المرجعية الأصلية لهذه الثقافة هي الديانة المسيحية بكل طقوسها وشعائرها ورموزها، وأساطيرها.

عبد الرزاق سلطان
بين «ويليام ستريت» و«عالية مكة»(*)

نقابل الناس في هذه الحياة... نجلس إليهم، نحادثهم، نحبهم أو ننفر منهم، ولكن قلة من الناس من تظل ذاكرتنا تشع دوماً بذكراهم، وتستمتع نفوسنا باستعادة اللحظات المضيئة التي عشناها معهم، بل الغريب في الأمر أن صفوة من هذه القلة تستطيع مداركنا أن تحدد لحظة لقائنا بهم ويدخل في هذا المكان والزمان وما يحيط بهما من صور وتداعيات.

في شتاء ١٩٧٩م، وصلت إلى مدينة «أدنبرة» العاصمة السياسية لمقاطعة اسكتلندا بالمملكة المتحدة، الشتاء يكون قارساً كما يقولون في بريطانيا ولكنه في «اسكتلندا» أشد قسوة، لم أكن أعرف أن الرياح تقتلع الأشجار بهذه القوة بل إنها قادرة بما أودع الخالق فيها من قوة أن تعصف بالإنسان فتمنعه من دخول داره، أو تشتط في قوّتها فتذهب به بعيداً عنه.

في يوم من أيام أدنبرة التي يختلط فيها الهدوء بالظلام، وتمطر فيها

(*) ملحق الأربعاء (صحيفة المدينة المنورة)، الأربعاء ٢١ جمادى الأولى ١٤١٥هـ، ٢٦ أكتوبر/ ١٩٩٤م.

السماء حتى تتصور أن المدينة غرقت في بحر من الماء، كنت أجلس مع الزميل الدكتور «عدنان محمد وزان» أتناول كوباً من الشاي «لم أكن أعرف بعد قهوة الإنجليز السوداء أو تلك التي يمزجونها بالحليب الطازج، الذي تجد قارورته على عتبة دارك مع كل صباح».

كان كل شيء يبدو غريباً أمام ناظري... وفجأة يقف على رأسنا شاب نحيل الجسم، يضع نظارة على عينيه... ويرتدي الخفيف من الملابس، لا بد أن هذا الشاب قد تعود هذا الجو فأصبح لا يعبأ به فملابسه ونظراته وضحكته المجلجلة كلها كانت تقودني إلى الاعتقاد بأن هذا الشاب قد أمضى وقتاً ليس بالقصير في هذه المدينة النائية، عرفني الدكتور الوزان «قائلاً: هذا «الأخ عبد الرزاق سلطان» كان برفقته شاب آخر هو الدكتور الطبيب عبد الرحمن مكاوي، كانا يسيران ولا ينقطعان عن الضحك، هذه سمة من سمات ساداتنا من أهل البلد الحرام البشر يعلو دوماً وجوههم ولكأن أرواحهم قد تعودت الصفاء والأنس فلا تعرف منغصات الحياة وكدوراتها وبعض الناس يعزو ذلك إلى أسباب مقنعة ليس الآن مجال للحديث عنها.

لقد استقر في ذهني الاسم الأخير لهذا الشاب المستبشر، الضاحك، وانصرف صديقي «عدنان» إلى أهله وأبنائه، وانصرفت إلى حيث أقيم في مكان يضم طلاباً من مختلف البلدان جاءوا لتعلم اللغة الإنجليزية، كنت أشعر بوحشة غريبة فلا لغة القوم أجيدها، ولا تقاليدهم لي بها سابق تعود ومعرفة، وبينما كنت أرجع بذاكرتي إلى أيام وليال قضيتها في الشامية والمسفلة، والنقا فإذا بتليفون المجمع الطلابي يرن، ودعيت لأرد على المكالمة، كنت أظن أن المكالمة من الوطن فأنا في اشتياق إليه، ولكن

المتكلم كان من وسط هذه المدينة التي لا يعادل جمالها الطبيعي شيء آخر ولكنه جمال بدون روح وهذا ما كان يضعني في موقع الحيرة والتردد في الحكم عليه، كان المتكلم من «ويليام ستريت» (William Street) هو ذلك الصوت الممتلىء حباً ونشاطاً يدعوني لأزوره في عطلة الأسبوع، ويوم قصدت داره وجدت صديق عمره ورفيق دربه، الدكتور «علي قربان»، وعندما ذكرت للأخ «السلطان» أنني صديق للدكتور أمين كشميري، والمهندس أحمد عرفة والأستاذ محمد نور تركستاني، ضحك كعادته وقال لي بلهجة «مكية محببة» «من فين تعرف يا واد» هؤلاء الناس، فبعضهم صديق لي، والآخر زميل في جامعة الرياض، وكنت أدين للأساتذة الكرام في جامعة أم القرى، رشدي أورقنجي، وأمين كشميري، وناصر عثمان الصالح بتشجيعي على الدراسة في الخارج إبان مرحلة العمل في كلية التربية كمعيد، ورأيت «عبد الرزاق» يذرف دمعة حب على أستاذه «رشدي» وذرفت دمعة مثلها على أخوة وأصدقاء لي بين الشامية وأجياد، والنقا والمسفلة، ثم عاد بعدها «عبد الرزاق» يداعبني بأحاديثه المحببة إلى النفس.

ولم تكن دار عبد الرزاق وحدها التي قصدتها في المدينة التي لا أعلم كيف زهد فيه «السلطان» بعد ذلك العمر الطويل الذي قضاه فيها، ولكن دوراً أخرى لعدنان وزان، وعبد الرحمن المطرودي، ومرزوق بن تنباك، ومحمد الطاسان، وعبد الرحيم علي، وعثمان، والطيب الفاتح قريب الله، وطأتها قدماي ولقيت فيها من كرم الضيافة الشيء الكثير.

ويوم أسس نادي الطلاب السعوديين في بداية الثمانينات الميلادية في بريطانيا كانت دار «السلطان» في مدينة «أدنبره» مقراً لانطلاقة ذلك النادي

المتوثب، يعرف ذلك الأصدقاء الأعزاء: مرزوق بن تنباك، وعبد الرحمن المطرودي، وعبد الله المعطاني وعدنان وزان، ومحمد الجبر، وعوض القوزي وأحمد الزيلعي وغيرهم.

كانت قدرته على العمل المنظم دافعاً لأن يقف ذلك النادي على قدميه وكان الصديق المطرودي بعلاقاته المتعددة في بلادنا الكريمة يدعم النادي بوسائل متعددة جعلت ذلك الحلم الذي كان يداعب خيال الطلاب في المملكة المتحدة يتجسد على أرض الواقع،وكان ابن المدينة البار الصديق مرزوق بن تنباك ذا أخلاق كريمة ونفس صافية صفاء بادية «حرب» التي انطلق منها مكافحاً في سبيل طلب العلم والمعرفة.

لقد عدت بالذاكرة إلى الوراء عندما رأيت ذلك العمل الأكاديمي المتفرد الذي أخرجه صديقنا الدكتور السلطان عن خطر المخدرات والذي أطلق عليه اسماً استقاه من تخصصه الأصلي ـ الكيمياء الحيوية ـ وهو «الحشيش والماريوانا واقع وخيال، الخصائص الكيمائية الحيوية والتأثيرات الدوائية والنفسية» وقدم له معالي وزير الصحة الأستاذ فيصل الحجيلان، وكان من وفاء «عبد الرزاق» أن يهدي عمله العظيم هذا إلى عمه حبيب سلطان.

لعل الأيام تعود ـ يوماً ـ يا صديقي ونقف سوية على مشارف قلعة أدنبرة في «برنسيز سترت» كما وقفنا عليها صباح يوم مشرق، ولعل الأقدار تجمعنا يوماً فنذهب لنرى الأمواج الهادئة على شاطىء المدينة التي أحببتها «مور كامب» حيث كنت أقيم، ولعلك تعتب عليّ لأنني لم أرك دهراً ولكنني سوف أقابلك بإذن الله في «عالية» مكة، لأهمس في أذنك بحكاية

العمر، وقسوة الحياة على قلب يحن لأحبابه ـ دوماً ـ ولكنه لا يستطيع أن يتجاوز الشوق والحنين إلى ما سواهما، تحية لك مني أيها العالم المتواضع الذي خدم بلده وأمته وجامعته وأحبابه وما زال وفياً معهم كوفائه السابق وذلك المعدن النقي الذي ينضح بكل جميل.

«تسليمة نسرين وحقيقة حرية الكلمة[*]

يهب بعض الكتاب العرب للدفاع عن الكُتَّاب الذين يقودهم جهلهم ويدفعهم ضلالهم إلى التجديف الديني ويتذرع هؤلاء المنافحون عن هذه الفئة بمبدأ حرية الكلمة، وهي كلمة حق أريد بها باطل، فحرية الكلمة محفوظة في الدين الإسلامي وممارسات المسلمين على مر التاريخ تدل على أن مبادىء الإسلام ومنطلقاته حفظت هذا الحق ليس فقط للمسلمين وحدهم، بل لأهل الديانات الأخرى الذين كانوا يعيشون في كنف الدولة الإسلامية ويمارسون شعائرهم الدينية من دون أن يتجرأ أحد على سلبهم مثل هذا الحق... والقرآن الكريم في محاورته للكفار والمشركين يورد آراء الطرف الآخر، ثم يرد عليها بالقول الحق وما ذلك إلى لاحترام الإسلام لحرمة العقل ومبدأ الموضوعية وعندئذ يتمكن الإنسان بمحض إرادته من المقارنة واختيار طريق الحق وأتباع سبل الهداية.

قامت الدنيا ولم تقعد عند بعض الكتاب العرب لأن الكاتبة (تسليمة نسرين) التي أساءت إلى مشاعر ملايين المسلمين بحديثها المضلل عن كتاب الله، لأن هذه الكاتبة التي هاجمت دينها ودافعت عن المتطرفين الهندوس دون أن يكون لها ماض معروف في الكتابة والتأليف بل هي

(*) ملحق الأربعاء (صحيفة المدينة المنورة)، الأربعاء ٣ ربيع الأول ١٤١٥هـ.

طبيبة وجدت شهرتها في القارة الهندية بعد نشر كتابها (عار) الذي يصف أعمال العنف التي ارتكبت بحق الهندوس في بنجلاديش بعد اعتداء الهندوس الآثم على مسجد أيوديا التاريخي في الهند ومن ثم تدميره وكان ذلك في ديسمبر سنة ١٩٩٢م لأن هذه الكاتبة قد حوكمت وتظاهر المسلمون ضدها. . . ولم تكتف نسرين بذلك بل دفعتها موجة الشهرة إلى الحديث بغير علم ومعرفة ودراية للتعرض للقرآن ونشرت أقوالها الباطلة في إحدى الصحف الهندية وهي بهذا تشبه إلى حد بعيد الكاتب الهندي الأصل، البريطاني الجنسية ـ سلمان رشدي ـ الذي فاز بجائزة بوكر البريطانية في الثمانينات الميلادية ـ وهي جائزة متواضعة ـ فكتب ما أسماه (رواية) بينما ما كتبه في أضاليله أبعد ما يكون عن العمل الروائي، بل هو تجديف واضح ضد الأنبياء والرسل وخصوصاً ضد رسول الإسلام وخاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ، ولقد باع رشدي وأمثاله دينهم ومبادئهم في سبيل الحصول على شهرة زائفة تمنحها بعض وسائل الإعلام الغربي لكل من يحاول الخروج على الدين الإسلامي والتجديف فيه، يختلف الأمر في الغرب عندما يكون التجديف ضد الديانة المسيحية، فهذا شيء محرم لا يجوز الاقتراب منه، وهنا تكمن المفارقة العجيبة في احتضان المؤسسات الغربية لمن يجدفون ضد الإسلام، وتجريم كل من يجدف ضد الديانتين المسيحية واليهودية، والغرب أحرص ما يكون على احترام مشاعر اليهود فيما يتصل بدينهم وطقوسهم وشعائرهم، فلقد مشى الرئيس الفرنسي وعدد من الساسة الفرنسيين في مظاهرة يهودية لأن مقبرة يهودية تعرضت للنبش، وينحني بعض الزعماء الغربيين تكريماً لقتلى اليهود في الحرب العالمية، بينما يظل حمى الإسلام مباحاً لكل من تسول له نفسه الزائفة بمهاجمة الإسلام والتعرض لأهله بأذى.

وإذا كان الغربيون قد سلطت الحركة الصهيونية ضدهم شعارها المعروف «عداء السامية» وما زالت هذه الأسطورة الصهيونية قائمة في المجتمعات الغربية التي ترفع شعار العلم والموضوعية والمنهجية فما هو الدفاع لدى هذه الفئة المحسوبة على أمة الإسلام والعروبة التي تنهض للدفاع عن كل مرتد ومارق كما حدث في الوثيقة التي وقعها عدد كبير من المثقفين العرب دفاعاً عن سلمان رشدي، واليوم ينهضون للدفاع عن كاتبة مجهولة لأن المسلمين في بنجلاديش عبروا عن استيائهم من أقوالها المنحرفة.

إن المرء قد يرضى بالجوع والمرض ولكنه لا يرضى أن يمس دينه، وتنتهك عقيدته، ويصاب في إيمانه وهذا أمر لا ينفرد فيه المسلمون عن الآخرين، فكل أمم الأرض وشعوب العالم تشترك فيه وتتماثل في الإحساس به، ولكن يبدو أن بعض المحسوبين على الأمة الإسلامية والعربية لا يحسنون سوى كلمة واحدة وهي ـ حرية الكلمة ـ وهي كلمة حق أريد بها باطل.

سلمان رشدي. . . ليس وحده الذي سقط!(*)

لم يكن الكاتب سلمان رشدي الذي نال جائزة «بوكر» البريطانية في بداية الثمانينات الميلادية، ذلك الكاتب الذي تؤهله كتاباته بأن يكون روائياً من الدرجة الأولى أو حتى الثانية، ولكن الوسط الثقافي الإنجليزي لمح فيه ذلك الكاتب الذي يمكن أن تصور كتاباته بعض الجوانب السلبية في المجتمع الشرقي، وهذا السبب ـ وحده ـ كان كافياً أن يحتضن ذلك الوسط كاتباً مثل رشدي ويبعث فيه شعوراً بالفوقية عن طريق منحه بعض الجوائز المخصصة للكتّاب الذين ينتمون إلى جذور غير عربية. وهذا الأمر شبيه إلى حد ما بما فعله الوسط الثقافي الفرنسي في احتضان كاتب مثل الطاهر بن جلون صاحب العمل المشهور «ليلة القدر» والذي يسخر فيه من بعض الطقوس الإسلامية، والكاتب الآخر الذي لم يعرف أبجديات الكتابة إلى عهد قريب بل هو أقرب إلى الشخص الأمي منه إلى المتعلم، وأعني به «محمد شكري» صاحب أسوأ الأعمال الأدبية العالمية من حيث احتقار الوالدين، والتشجيع على الرذيلة، وتصوير أحقر السلوكيات وأسوئها، والذي ترجم عمله المسمى بـ«الخبز الحافي» إلى عدد من اللغات العالمية ليس لخصوصية إبداعية فيه بقدر ما هو ترويج للأعمال التي ترسم صوراً

(*) ملحق الأربعاء (صحيفة المدينة المنورة)، الأربعاء ٢ رجب ١٤١٤هـ، ١٥ ديسمبر ١٩٩٣م.

منفرة من المجتمعات الإسلامية والعربية.

ولقد استمر هؤلاء الكتاب المنبتون ذلك الضجيج الإعلامي الذي صاحب نشر أعمالهم الخاوية من حيث مضمونها الإبداعي والمحققة لأغراض أخرى لا تمت إلى دنيا الكتابة وعالمها المضيء والمشرق بأي صلة من الصلات.

نعم لقد استمرأوا تلك الضجة وذلك الصخب، وأمعنوا في الاستهزاء بتراثهم وأمتهم وجذورهم، وجاءت الفرصة مواتية «لرشدي» الذي كان كاتباً مغموراً ولا يكاد يحلم برؤية اسمه منشوراً على غلاف كتاب، فكيف به إذا أصبح الابن المدلل لصحيفة «التايمز» مثلاً، أو مجلة «الإيكونومست» وأصبحت صوره تتناقلها وكالات الأنباء العالمية.

بل ما هي حاله إذا تصور نفسه واقفاً على عتبة «١٠ دوننغ ستريت» أو محوطاً بعدسات المصورين على أبواب البيت الأبيض الأمريكي.

لقد لعبت الشهرة الزائفة «برشدي» فأقدم على كتابة عمل يسخر فيه من نبي الله وخاتم رسله سيدنا محمد ﷺ ويستهزىء فيه بتعاليم الإسلام وكتابه المعجز، وتلقفت الأوساط الغربية هذا العمل بابتهاج كبير وأضفت عليه أعظم النعوت، مع أن نظرة بسيطة إلى العمل توضح أن العمل هو إلى الهذيان أقرب منه إلى أي نوع من أنواع القصة والرواية، ووجد بعض الكتاب العرب الذين يعيشون ازدواجية عجيبة في حياتهم، فهم يرفعون شعارات القومية والثورية ومحاربة الإمبريالية من جهة، ويسيرون خلف هذا الغرب الذي يعادونه لأسباب قومية كما يدعون وجد فيه هؤلاء الكتاب عن طريق الدعاية الغربية بغيتهم ومرادهم، فهم أيضاً يحتقرون تراثهم لأنهم يجهلونه والجاهل عدو ما لا يعرف ومناوىء لما لا يفقه، ولقد وصلت

الجرأة بهؤلاء الكتاب العرب كمثل نجيب محفوظ ومحمود درويش وأدونيس وعزيز العظمة وسالم بركات وجمال الدين بنشيخ وعباس بيضون والطيب صالح «وهذا الأخير يغير اتجاهه حسب مؤشرات الريح»، وصلت بهم الجرأة لتحرير كتاب وإصداره باللغة الفرنسية بعنوان «من أجل رشدي» Pour Rushdi «تحية منهم لهذا الكاتب المتنصل من دينه، الجاحد لحقوق أمته، ولقد كان بإمكان هؤلاء الكتاب أن يرفضوا الأساليب التي تعامل بها البعض مع قضية «رشدي» فهذه قضية قابلة للاجتهاد، ولا يمكن لأحد ادعاء حق امتلاك الفتوى ولكن ألم تكن في قلوب هؤلاء ذرة من إيمان، فيقرؤون تلك السطور المليئة بالحقد على ثوابت الأمة التي لا يجرؤ أعداؤها على الانتقاص منها كما انتقص منها «رشدي» في كتابه المزعوم «آيات شيطانية» أو لم يتنبه هؤلاء الكتاب الذين يفتخرون بعلمانيتهم وليبراليتهم بأن الغرب يحتضن الليبراليين العرب فقط عندما تكون كتاباتهم موجهة إلى أمتهم وتراثها وأنه يحاربهم بكل الأساليب لو كانت هذه الليبرالية طريقاً للانتقاص من الغرب، أو سبيلاً من سبل مقاومة الحركة الصهيونية التي يقف الغرب حامياً لها ونصيراً أثناء الليل والنهار، أو لم يدر بخلد هؤلاء لماذا لم تفتح أبواب «دوانج ستريت» وتشرع الأعلام أمام «البيت الأبيض» أمام شعراء المقاومة الإسلامية والعربية، الذين يدافعون عن حقوق مشروعة، ويطرحون قضايا ثابتة لا يختلف حولها أحد.

لم يسقط رشدي ـ وحده ـ في الشراك، ولكن سقطت هذه الأسماء التي كثيراً ما غرت الأمة بشعاراتها الجوفاء وقصائدها العصماء.

مذبحة التراث
بين جورج طرابيشي وهاشم صالح(*)

كتب هاشم صالح تلميذ «محمد أركون» ومترجم معظم أعماله من الفرنسية إلى العربية، كتب في الحلقة الثانية بصحيفة «الحياة» من دراسته التي دعاها «تراث التراث من خلال جورج طرابيشي» والتي ناقش فيها مقولات هذا الأخير عن التراث وما كتب حوله وما استخدم في نقده من مناهج، وهي مقالات أيضاً ظهرت على صفحات الصحيفة المذكورة قبل مدة وجيزة.

كتب صالح هذا «الحياة يوم الثلاثاء ٦ يوليو ١٩٩٣م» مناقشاً الدكتور زكي نجيب محمود الذي يرى أننا لا نستطيع أن نعيش العصر لسبب بسيط يعود في اعتباره إلى أننا لم نحرر أنفسنا بعد من تراثنا، أي لم نحرر أنفسنا من أنفسنا كما فعل الأوروبيون منذ القرن السادس عشر وحتى التاسع عشر فكيف يمكننا إذن أن نقيم علاقة صحية أو طبيعية مع الحاضر ونحن لم نصف بعد حسابات الماضي، ومشاكل الماضي وعقد التراث. .

يعترف صالح بأنه يتفق مع زكي نجيب محمود على إحداث القطيعة

(*) ملحق الأربعاء (صحيفة المدينة المنورة)، الأربعاء ٩ صفر ١٤١٤/هـ.

مع التراث ولكن ليس بالشكل الذي يتصوره أي إن القطيعة التي ندعو إليها ليست عدمية أو قفزية إذا جاز التعبير وإنما هي متدرجة، صراعية، داخلية، وبما أن صالح يتحدث الفرنسية فهو تلميذ وفي وناقل أمين لبعض المناهج الغربية التي نبتت واستوت في البيئة الفرنسية ثم ما لبثت أن قضت في أرضها وبين أهلها ومن بين هذه المناهج المنقرضة البنيوية والتفكيكية والتشريحية إلى آخر القائمة، لذا فإن «هاشم» يتفق مع زكي نجيب محمود في وجوب التخلص من التراث نهائياً ولكن ليس على طريق أهل الراية الحمراء، والشعارات الثورية، بل بطريقة أخرى لا تحدث تلك الجلبة والضوضاء التي يتبناها صاحب الفلسفة الوضعية «بالمناسبة فإن زكي نجيب محمود توقفت قراءته عند هذه الفلسفة، ومع أن هذه الفلسفة أصبحت من مخلفات الماضي في الفكر الأوروبي فإن ـ نجيب يصر على العض عليها بالنواجذ» أما الطريقة التي يحبذها هذا «الصالح» فهي التفكيكية وكثيراً ما يعشق مثقفو أمة العرب مثل هذه المصطلحات ويتغنون بها ليلهم ونهارهم، وفي غدوهم ورواحهم، يقول كاتبنا «إذن فاستبدال الجديد بالقديم عملية لا تتم بين عشية وضحاها، أو بضربة عصا سحرية لو تمت على هذا النحو لهان الأمر، ولو كانت الأمور بمثل هذه السهولة لاستطاعت جميع الأمم أن تحقق التقدم بأقصى سرعة ممكنة وتلحق بركب الحضارة الحديثة، فقبل بناء أي شيء ينبغي تفكيك ما هو موجود لأن ما هو موجود يمنع بعطالته ورزوحه الشيء الجديد من الوجود، إذن فالمرحلة السلبية من عملية التحرير سوف تسبق المرحلة الإيجابية لا محالة... بل إن العمل الإيجابي الوحيد الممكن اليوم، وربما لسنوات طويلة هو العمل السلبي أي التفكيك: تفكيك ما هو موجود، وتعريته من الداخل، تبيان تاريخيته ونسبيته، فضح بداهته الأصلية التي غطت عليها القرون...

وينظر «صالح» الذي يتوهم أنه أصبح فرنسياً من شعر رأسه إلى أخمص قدميه، ينظر نظرة فيها كثير من الاستخفاف إلى ماضي الأمة وتاريخها، ونسي أن هذا الماضي هو الذي كان وراء المنجزات الإيجابية في حضارة الغرب المعاصرة، ويجسد هذه النظرة ما نقله من عبارات لزكي نجيب محمود وتأمينه عليها ومباركته لها مباركة مطلقة.

يقول صالح في هذا الصدد: «فالواقع أن الموتى يحكمون الأحياء، كما يقول زكي نجيب محمود، والماضي يحكم الحاضر، وليس العكس، ولا يمكن التخلص من أسر الموتى وتحكمهم برقابنا قبل تصفية الحسابات التاريخية التي خلفوها لنا إرثاً ثقيلاً. . .

ويدعو في مكان آخر إلى تحرر مطلق من التراث فيقول: «والتحرر الحقيقي لن يتم إلا بعد تفكيك البنية القديمة ومن خلال هذا التفكيك بالذات وينبغي أن يصل التفكيك إلى أعمق نقطة، إلى أعمق طبقة من طبقات التراث.

ولم يحدد لنا صالح مفهومه للتراث الذي يسعى هو وأنصاره من الفئة المستعمرة للغرب فكرياً وثقافياً التخلص منه كلية، على اختلاف ـ فيما بينهم ـ في الوسيلة التي يمكن استخدامها للقضاء على عدوهم الأول والأخير وهو التراث الإسلامي والعربي، مع أنهم يحاولون إيهام الآخرين بأنهم ضد كل أنواع الاستعمار وأشكال التسلط الغربي، فما بالهم لا يجدون عدواً لهم إلا هذا التراث الذي أضاء لهم ولأمم الأرض جميعاً دروب الحياة المعتمة،ولن يستطيع الغرب أن ينكر ـ وكثير من علمائه المنصفين يقرون بذلك ـ أن المنهج العلمي الذي توصلت به الحضارة المعاصرة إلى هذه المنجزات والاكتشافات المتعددة، هذا المنهج المنضبط

كان من جهود علماء المسلمين من أمثال جابر بن حيان، والحسن بن الهيثم والفارابي، وابن رشد، وأبي حامد الغزالي، ولعلنا نسأل هذه الفئة التي توجه سهام نقدها غير الموضوعي إلى تاريخ أمتها فتقوى بذلك من شوكة أعدائها ـ الحاقدين ـ نسألها كيف استطاع أن يخرج هؤلاء الأحياء إلى الوجود، أم أن هذه الزمرة ما زالت تترنح راقصة على أنغام الحقبة الجاهلية معتقدة أنها مصدر التنوير ونقطة الانبعاث للأمة العربية،و إذا كان ما يقلق هؤلاء هو ارتباط هذا التراث بالإسلام الذي هو منهج متكامل للحياة لا تنفصل فيه العقيدة عن السلوك ولا الفكر عن الممارسة والتطبيق، لذا فهم يسعون للإجهاز عليه، فلينظروا حولهم كيف تدق أجراس الكنائس في جميع عواصم الغرب بل من داخل ردهات جامعاته ومؤسساته العلمية والسياسية وكيف أن السلوك السياسي الغربي لا ينفصل عن المسيحية كدين، وهذا الواقع بين أيديهم وتحت أنظارهم في الإمبراطورية اليوغوسلافية السابقة حيث يعلي الغرب المتحضر والعلماني من شأن الصليب على حساب شعب مستضعف أعزل من أمة الإسلام التي يحاربها أعداؤها بأيدي وأقلام أبنائها.

جابر عصفور
بين هوس التجريب وعداء الدين(*)

يمكن «لجابر عصفور» أن يحدثنا عن البنيوية كمذهب أدبي منقرض في الفكر الغربي. . . ويمكنه أيضاً أن يتحدث عن مفاهيم أدبية معينة كالشعر والبلاغة وسواهما من حقول الأدب التي يبدو أن الدكتور عصفور قد استنفد الحديث عنها أو حولها، ولكن لا يمكن لهذا «العصفور» أن يتحول فجأة «إلى فقيه» فيخوض غمار تجربة جديدة يخالها كتجاربه السابقة، والتي يتطلب الحديث فيها حدوداً لا يحسن تعديها وضوابط يجب مراعاتها والأخذ بها، لقد أخذ «عصفور» كغيره من دعاة البنيوية في عالمنا العربي بمفهوم التجريب في الأدب وأراد أن يطبقه على «الشريعة» وهو الذي كثيراً ما هاجم الإسلام كدين والشريعة كمنهاج ويكفينا مثالاً على ذلك بحثه المعروف «إسلام النفط» والذي صدر ضمن بحوث عديدة عن «دار الشافي» في لندن عام ١٩٨٩م، بعنوان «الإسلام والحداثة» والذي خلط فيه بين الإسلام كدين منزل من عند الله وبعض السلوكيات الفردية الخاطئة والتي لا يمكن قياس الدين عليها أو التشكيك بسببها في حقائقه الثابتة أو التجرؤ على وصف معتنقيه بسمات باطلة لا يقدم على قذفهم بها

(*) ملحق الأربعاء (صحيفة المدينة المنورة)، الأربعاء ١٧ محرم ١٤١٤هـ.

أعداؤهم من الملل والمذاهب الأخرى، ولكنه هوس الفكر الماركسي المتهاوي وفتنة الأيديولوجيات البائدة التي لا تزال تلقي بظلماتها على قلوب وعقول مجموعة من الكتاب العرب وتدفعهم لارتكاب حماقات فكرية مشينة.

ويظهر توجه «عصفور» للأخذ بمفهوم التجريب في الشريعة في مقالته المنشورة بملحق آفاق «الحياة ٢٣ ذي الحجة، ١٤١٣هـ» والتي كان عنوانها «التجريب والدولة المدنية» والتي أشار فيها إلى استنتاج يدعي أنه أفاده من عبارة وردت في كتاب «الإسلام وأصول الحكم» لعلي عبد الرازق، وأن العبارة تدعو إلى استعمال العقل والتجريب في قضايا الدولة المدنية.

يقول عصفور: ما لفت نظري في الجملة هو ما ينطوي عليه «الحكم المدني» من إيمان بالتجريب من حيث هو مسعى للعقل في تأسيس قواعد التمدين بوجه عام وعلاقات المجتمع المدني بوجه خاص، فالتجريب ـ في الجملة ـ يرتبط بالخروج على الإطار السائد المتعارف عليه والبحث عن صيغ جديدة تجيب عن أسئلة قديمة وتطرح أسئلة جديدة في الوقت نفسه»!!

وهذا الاقتباس من مقالة الدكتور عصفور يوضح هوس الرجل بمقولة قراءة النص قراءات متعددة كما يقول بذلك البنيويون، وإذا كانت القراءات المتعددة للنص الواحد في الأدب هي محل اختلاف كبير بين أصحاب هذا الاتجاه الأدبي الذي انقرض في الغرب منذ الستينات الميلادية، وما قبلها في الغرب وعلى وجه أخص في «فرنسا» التي شهدت انبعاث وانقراض مذاهب أدبية ـ مرتبطة بسياقات حضارية واجتماعية معينة ـ وهو ما يجهله

كثير ممن يتصدون لترجمة هذه المذاهب ترجمة حرفية لا تتعدى نقل الألفاظ والمصطلحات من لغة إلى أخرى، بمعنى أنه إذا كان عدد من النقاد ينكرون على التوجه البنيوي ما يطلق عليه بالقراءات المتعددة للنصوص الأدبية «الشعرية» والنثرية منها على حد سواء، فهل يمكن المجازفة بتطبيق هذا المعيار على حياة الناس فيكون لهم في كل مرة سلوك يختلف عن السلوك الذي صدر منهم تجاه تجارب مماثلة في الماضي، وإذا ترك كل فرد يجرب السلوك الذي يراه مناسباً ثم يقره ويدعو الآخرين للامتثال به، فما الوضعية أو الحالة التي سوف يكون عليها المجتمع في نهاية الأمر، إن النتيجة التي تترتب على مثل هذه الحيثية هي الفوضى والتخبط وعدم وجود ضوابط تحكم حياة الناس وتربط وجودهم بأهداف عليا يسعون لتحقيقها والعمل على إنجازها.

لا شك أن «عصفور» ينطلق من فكر علماني محض يدعو إلى فصل الدين عن الدولة وهو في هذا لا يخرج عن دائرة هذا الفكر المنغلق الذي يرضى بأن يحكمه قانون البشر ويرفض أحكام الله التي تبرهن الأيام حاجة الناس إليها بعد أن جربوا كثيراً من القوانين البشرية الخاضعة لأهواء الناس ونزعاتهم البشرية والمتبدلة مع المكان والزمان، وتأتي حاجة الناس إلى هذه الأحكام من أن الله هو خالق المكان والزمان معاً فلم يشرع الجديد في مقالة «عصفور» التي اتكأ فيها على بعض مقولات صاحب كتاب «الإسلام وأصول الحكم» هو دعوته إلى اتخاذ التجريب وسيلة جديدة للوصول إلى نظام مدني يحكم الناس ويحدد علاقتهم بأشياء هذا الوجود، ولكن «عصفور» نسي أو تناسى أن الأدب شيء، وأن مكونات الأمة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية شيء آخر، وأن هذه المكونات لا يمكن

أن تترك للآراء المتغيرة من لحظة إلى أخرى والمتباينة بين شخص وسواه، ولو تركت هذه المكونات التي تقوم عليها حياة الناس لأهواء التجريب وعبثيته وهذيانه كما ينادي بذلك «أدونيس» وزمرته ـ وهم من يستهدي عصفور بآرائهم الشاذة والغريبة على تراث الأمة وفكرها وطبيعة تكوينها ـ لو تركت هذه المكونات لهذا العبث التجريبي الذي يصفه «عصفور» بأنه خروج على الإطار السائد وبحث عن صيغ جديدة في حياة الأمة فإن ذلك يعني الدخول في نفق التجريب وعدم الخروج منه كما هو الشأن في الفكر الحداثي الذي يدعو للأخذ بهذا المنهج ولم يستقر بعد على صيغة معينة ومقياس مضبوط محدد يمكن من خلاله تمييز الجيد من الرديء والقوي من الضعيف في الأعمال الأدبية الخالصة، وهذا أمر لا يقول به عاقل ولا يدعو إليه متبصر وذلك لأن شؤون المجتمع وقضاياه تحتاج إلى ضوابط محددة لا تحتمل التأويل ولا يمكنها أن تنتظر آماداً طويلة حتى تتفتق عملية التجريب عما يمكن اعتماده كمنهج للأمة أو شريعة للمجتمع، أو رؤية لأشياء هذا الوجود الذي لا تقبل حقائقه مثل هذا الهذيان والهوس.

ومات الشاب النبيل
في رثاء الأستاذ نبيل عبد الرؤوف حفظي(*)

فجأة وبدون مقدمات يأتيني صوت الابن البار الأستاذ مروان قماش «أستاذي... عظم الله أجرك في صديقك نبيل حفظي» ويضيف: «قبل أيام كان يحدثني عن زمالتكم في مسجد رسول الله ﷺ... كان يحن حنيناً عجيباً لتلك الأيام».

أضع سماعة الهاتف ثم أبدأ رحلة التذكر لماض زاه بدأناه سوية قبل حوالي ثلاثين عاماً... حلقات تعليم القرآن الكريم تنتشر في مؤخرة المسجد وأشهرها حلقة المرحوم أستاذنا رجب أبو هلال.

كان نبيل يأتي من باب المجيدي وكنت أقطع المسافة بين المناخة والحرم قادماً من حارة العنبرية... وكان إبراهيم مزيد الخطاب وغازي عينوسة وعبد الرؤوف طاهر وسعود محمود نعمان رحمه الله يأتون من مواقع مختلفة في البلدة الطاهرة.

كان نبيل قليل الكلام ودائم الابتسامة وكنا نمازحه بسبب صمته... يجلس في الحصوة معنا في آخر المسجد ولكنه لا يتربع في جلسته

(*) ملحق الأربعاء (صحيفة المدينة المنورة)، الأربعاء ذو الحجة ١٤١٤هـ.

مثلنا. . . كان نظره يتجه نحو القبة الخضراء وعيناه تدمع عندما يرتفع صوت «الريس» الأستاذ عبد الستار بخاري رحمه الله وكانت الأصابع تشير إليه من كل صوب. . . «هذا شاب نشأ في طاعة الله». . . وتفرقت بنا سبل تحصيل العلم فالتحقت بالعلوم الشرعية ولعل المرحوم كان في «الفهدية» ويوم دخلنا مرحلة الشباب كان نبيل واسطة العقد بين أحباب له اتخذوا من الحرم موطناً لهم. . . يتذاكرون العلم ويقرؤون كتاب الله. . . كان صديقاً حميماً في هذه الحقبة لمحمد علي إبراهيم ووليد أبو الفرج وإبراهيم علوي وعبد الله أبو سيف وأسامة خليفة وصالح كريم وعمرو حمزة حافظ وسواهم.

ومع أنني كنت آنس إلى هذه الصفوة المباركة من الشباب فلقد كنت مشغولاً مع زملاء آخرين بما عرف فيما بعد بندوة الأصدقاء. . . والتي كانت تعقد مساء كل اثنين وخميس في الحصوة الأمامية من المسجد النبوي الشريف. . . وكنت بين الحين والآخر أجلس مع نبيل في مجمع المؤذنين نأنس إلى حديث الرجل الحافظ لكتاب الله والراوية لأشعار العرب المرحوم الأستاذ عبد الستار بخاري. . . لقد نسيه البعض وتنكر له البعض الآخر ولكن «أبا حسن» يبقى دائماً دائرة مضيئة في تاريخ العلم والمعرفة بالبلد الطاهر. . . ويظل الذين تنكروا له أستاذاً ومعلماً لا يذكرهم أحد حتى وإن تبوؤا أمكنة زائلة وصعدوا قمماً زائفة. . . ويبقى التاريخ محفوظاً في نفوس الرجال منقوشاً في قلوبهم. . . ولا بد من يوم يأتي تبرز فيه الحقائق وتظهر فيه الشواهد.

وتشاء الأقدار أن يستوطن نبيل جدة. . . ولكن في المناسبات المحدودة التي قابلته فيها كان الحزن يكسو وجهه المشرق بنور الإيمان

وقابلته قبل مدة في دار السيد عمر علي هاشم ففرح بلقائي وقال ممازحاً «كيف الحال يا أبا العصم»؟

أعادتني الكلمة إلى الوراء وتذكرت الحصوة واستعدت طمأنينة الحرم الآمن وارتسمت أمامي معالم القبة الخضراء والمنارة الرئيسية وسألت نفسي أترى من عودة إليك يا طيبة؟ أترى يجود الزمان ونجلس بين المنبر والمصلى نقرأ كتاباً في السيرة النبوية ونراجع كتاباً في الفكر والأدب. . . أم ترانا نرجع إليك محمولين على الأكتاف يمرون بنا أمام الضريح المعظم نلقي النظرة الأخيرة على أطهر موضع في الأرض وأشرفه وأجله وأكرمه وتقرأ منا الأرواح ذلك القول الملهم والكلم البليغ.

يا خير من دفنت في القاع أعظمه   فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه   فيه العفاف وفيه الجود والكرم

يا صديقي رحلت وخلفت وراءك سيرة عطرة يتناقلها الأبناء الذين هذبت أرواحهم وصقلت نفوسهم وربيت منهم العقول وأبعدت عنهم شبح الجهل في زمن يندر فيه الرجال الذين يخلصون للكلمة الطيبة ويحاولون جهدهم لإيصالها إلى هذا الجيل الذي هو أحوج ما يكون لتربية الروح وغذاء الوجدان وصفاء النفس وطهارة الجوارح. . . اللهم اغفر له واسكنه فسيح جناتك.

رثاء إنسان. . . السيد علي بن حسين عامر(*)

يشاء الله أن يموت علي بن حسين عامر، والعبد الفقير إلى مولاه يزور البلد الذي ولد فيه هذا الفقيد وتعلم في مدارسه وشهد نشأته الأولى ويوم تلقيت نبأ وفاته من رفيق الدرب وصديق العمر الأستاذ محمد عبد الستار عادت بي الذاكرة سنين إلى الوراء عندما كنت أسير في «حي العنبرية» مع والدي ـ أمد الله في عمره ـ فإذا هو يشير إلى إحدى الدور الواقعة على يمين الصاعد من ذلك الشارع، هذا يا بنيّ منزل الشيخ حسين عامر، ثم يصمت قليلاً، ليتابع حديثه قائلاً: «لقد كان واحداً من رجالات المدينة في عصره» ولم أكن لأتعجب عندما تعرفت إلى الفقيد ـ فيما بعد ـ وأنا أسمع منه عبارات تدل على اعتزازه بوالده والذي كان واحداً من رجالات المدينة الذين قاوموا سياسة التتريك في آخر الحقبة العثمانية فأخرجوا من المدينة إلى الأستانة وإلى الشام حيث تركوا «لجمال باشا» الوالي العثماني ليحقق معهم وكان ذلك في عهد السلطان رشاد، وكان خروج هؤلاء الرجال من المدينة بين سنة ١٩٣٢ ـ ١٩٣٣م وهم ـ كما ذكرهم لي فقيدنا «زين بري، إبراهيم حمودة، محمد حمودة، يحيى دفتردار، محمود شويل، عمر كردي، حيدر مشيخ، حسونة البوسطي،

(*) ملحق الأربعاء، صحيفة المدينة المنورة، الأربعاء، صفر ١٤١٤هـ.

حسين عامر، سعود دشيشة، زين صافي، محمد جمل الليل، أحمد جمل الليل، علوي السقاف، عبد المحسن أسعد».

خرج السيد علي من المدينة مع والده وعمره لا يتجاوز ست سنوات، وهناك تعلم اللغة التركية، ثم عاد إلى المدينة ليدرس في المدرسة الرشدية، في العنبرية كان يحدثني رحمه الله عن هذه المرحلة من حياته ويقول : أغلقوا المدرسة يوم توفى الأخ الأصغر لسعود ومحمد دشيشة، يبتسم ما ذنبنا حتى تقفل المدرسة أبوابها؟

كان يحب «النكتة» يأتيني صوته مدوياً عبر أسلاك الهاتف أشعر رغم وحدته وتفرق الأحباب والأصحاب من حوله... أنه يضحك من أعماق قلبه الجريح، يوم عمل في خزينة الدولة مع الشيخ حسين جستنيه، سأله هذا الأخير أين درست في المدينة، يجيب السيد الفاضل في «الرشدية» يتعجب الشيخ الجستنية، ظناً منه أن علي عامر يحمل شهادة عليا في الاقتصاد أو المحاسبة، فلقد كان متقناً لعمله ولهذا لازم الشيخين عبد الله السليمان ومحمد سرور الصبان رحمهما الله ـ وكان الشيخ السليمان يصطحبه معه في جميع رحلاته، وكنت ذات يوم أتحدث مع الشيخ عربي سقاط في «مكة» وبحضور الوالد المرحوم الشيخ عبد الله بصنوي يقول لي الشيخ السقاط: كان السيد علي بن عامر من طليعة الشباب الذين شاركوا في بناء الدولة، وكان من أكثرهم ذكاء ومعرفة... يبتسم الشيخ البصنوي فلقد كان محباً للشيخ ضياء الدين رجب ـ رحمه الله ـ ولقد جمع باب الباسطية بين السيد الفاضل عالم البلد الحرام وشاعرها المحب محمد أمين كتبي وضياء الدين رجب وعلي عامر ـ أسكنهم الله فسيح جناته ـ وكثيراً ما تردد ذكر باب الباسطية في شعر السيد الكتبي، وأخال السيد علي عامر

كان صديقاً لرجل من أهل الخير والفضل والإصلاح في البلد الحرام وهو المرحوم اللواء طه خصيفان، وكان المرحوم يحدثني كثيراً عن أصدقائه، يذكر محاسن الناس ولا يتوقف عند مواقف الجفوة، وهو يقرأ القرآن ثم يهدي ثوابه لأحبابه الذين رحلوا إلى دار الخلود، وكان القرآن جليسه بعد أن اعتزل الناس وهو الذي عاش بهم ولهم، في المدينتين المقدستين، وكانت داره في «مكة» ملتقى رجال الفكر والأدب، ولا بد أن معالي الأستاذ محمد عمر توفيق والسيد ياسين طه يعرفان أكثر مما أعرف عن هذا الجانب: فلقد عاصرا تلك الحقبة الزاهرة من حياة الفقيد ـ رحمه الله ـ يقول الشعر ويبدع المطولات منه، ثم ينفي عن نفسه سمة «شاعر» مع أن شعره لم يفقد جزالته وقوته حتى عندما كان يدلف بسنوات عمره إلى التسعين، ليتنا أيها السيد نتعلم مِنْكَ ومن أمثالك كيف يكون التواضع، وكيف يتحقق نفي الذات، والبعد عن الادعاء وعدم التعسف في طلب الشهرة، وكثير أولئك الذين يطلبونها اليوم ولا يملكون مقوماتها الحقيقية، فيصرون على أنهم شعراء العصر، ونقدة الآداب بمختلف حقولها وتخصصاتها. . .

تموت أيها السيد من الناس أجسادهم وتبقى أعمالهم ومآثرهم شاهداً على ذلك التاريخ الذي كتبوا سطوره بشمم وصدق وكبرياء وأنت واحد ممن كتبوا هذا التاريخ، حتى وإن كنت تؤثر الصمت وتكره الضجيج، وتفضل أن تلقي نظرة على ذلك العالم المتماوج والمضطرب من حولك، من شرفة تلك الصومعة التي آثرْتَ الاحتماء بها والسكون إليها، منذ أكثر من ثلاثين عاماً، فرحمك الله وعوضنا فيك خيراً يا واحداً من بقية الرجال. . .

رائد التراث وعالم اللغة
د. محمد يعقوب تركستاني وبقايا من ذكريات العقود الثلاثة(*)

عندما قدمت مكة في مطلع التسعينيات الهجرية دارساً، كان عدد من أبناء هذا الوطن المعطاء قد سبقنا في التحصيل والدرس العلمي، وكان من بين هؤلاء هذا الأخ الكريم الذي يحلُّ ضيفاً على هذا الملحق الأغر وأعني به الزميل ـ عالم اللغة والمتبحر في فقهها ـ الدكتور محمد يعقوب تركستاني، وكان مثل زملائه الكرام الدكاترة عبد الله باقازي ومحمد العمري، ومحمد العثيمين، والفقيد الشريف عبد الله الحسيني البركاتي ـ رحمه الله ـ كانوا وغيرهم قد التحقوا بقسم الدراسات العليا العربية دارسين، ولقد سبقت كلية الشريعة ـ جامعة أم القرى لاحقاً ـ رصيفاتها في افتتاح أقسام الدراسات العليا في علوم الشريعة وحقول الأدب واللغة وسواها مما سوف يدوِّنه التاريخ ـ يوماً ـ وإنما أردنا أن نلمّ بشيء من هذا التاريخ توطئة أو تمهيداً للحديث عن ضيف جريدة المدينة ـ اليوم ـ وابنها

(*) الأربعاء، صحيفة المدينة، ١٠ صفر ١٤٢٥/هـ ـ ٣١ مارس ٢٠٠٤/م.

البار منذ ما يقرب من ثلاثة عقود ونيف، كان فيها كاتباً بصفحة الأدب التي كان يحررها المرحوم سباعي عثمان، ثم سبَّاقاً لتقديم أول ملحق متخصص في التراث، وصدر عن هذه الصحيفة العريقة عام: ١٣٩٦هـ إلا أنه سبق تقديمه في صفحة واحدة عام ١٣٩٤هـ، ثم في صفحتين ١٣٩٥هـ واكتمل في ٩٦هـ.

ما زلت أتذكر وقفاتي الخاطفة مع الزميل الكريم الدكتور عبد الله باقازي والذي عرف في بداية حياته الأدبية بكتابة القصة مثل رصفاء له، أتذكر منهم: أنور حسن عبد المجيد الجبرتي، وسليمان سندي، وعلي محمد حسون، وقد شهدت صفحة الأدب التي أشرت إلى دور الرائد سباعي عثمان في تحريرها واحتضان الجيل الجديد ـ آنذاك ـ والاهتمام بإبداعاتهم، ومن الإنصاف للتاريخ أن أذكر بأن الزميلين الدكتور الأديب طاهر سالم تونسي، والأستاذ فاروق باسلامة قد كانا سباقين للكتابة الأدبية في عدد من الصحف... في واحدة من تلك الوقفات قال لي الدكتور باقازي: (زميلنا محمد يعقوب يبذل جهداً مضنياً في إخراج صفحة التراث مقابل مكافأة زهيدة) ثم يشاء الله أن أرتبط بعلاقة أوثق مع (أبي زلفي) وأصبحت من كتاب الملحق وأزعم أنني أعرف من شجون هذا الملحق وشؤونه أكثر مما يعرفه غيري، فلقد كان الدكتور التركستاني يخصص جزءاً كبيراً من وقته حتى يخرج الملحق على الصورة التي يرضى عنها وكان عزيزنا يهتم بالنقطة والفاصلة كاهتمامه بالكلمة والعبارة ويشرف على الإخراج والصف وسواهما من ضروب التقنية الصحافية ولا يداعب الكرى أجفانه حتى تتم ولادة الملحق من بين ماكينات الطباعة في المقر القديم لصحيفة المدينة بطريق مكة، ولما كان زميلنا ممن لم يتملكوا مركبة إلا

بعد أن قطعوا شوطاً كبيراً من حياتهم العملية ـ وليس مما يدخل في باب المسكوت عندما أروي لجيل اليوم بأنني ـ أي ـ العبد الفقير إلى الله ـ لم أجلس على مقود سيارة خاصة إلا بعد حصولي على درجة الدكتوراه وعودتي من بريطانيا ـ وأنه لشظف العيش الذي عشناه ولقمة العيش التي ارتطمنا في سبيلها بكثير من العقبات، إلا أننا تخطيناها بصبر وعزيمة وقبل ذلك وبعده كان الملاذ هو الإيمان الفطري بخالق هذا الكون، وأن من شهد ومضة النور وتجليات اللطف عند الحطيم وزمزم في مكة، والروضة والمسجد والمثوى الطاهر في طيبة الطيبة ـ لا بد أن يكون إيمانه فطرياً وأننا لراضون في هذا المقام مقولة ابن عطاء الله الشكنوري صاحب الحكم ولطائف المنن، (لو علم السلاطين ما نحن فيه من لذة لجالدونا عليها بالسيوف) أعود للقول بأن الأخ التركستاني كان يضطر للذهاب إلى الموقف القديم في جدة ليجد مقعداً له في سيارة أجرة ولربما لم يصل إلى داره في الجودرية إلا مع تباشير الفجر بميلاد يوم جديد.

لم تنقطع صلتي بالدكتور التركستاني أثناء سني الدراسة بالغرب وأذكر أنه طلب مني تزويده برسالة علمية قدمها أحد الباحثين الغربيين عن الإمام السيوطي، وأنني لأتذكر وقوفي أمام مكتبة في (برنسس ستريت بمدينة أدنبرة الأسكتلندية) سائلاً عن الكتاب وزخات المطر تنهمر على جاكيت أسود كنت أرتديه، ولقد كانت القلعة الشهيرة تنتصب أمام عيني، وعين مني تسترق النظر لجمال في تلك التلال، وجمال آخر تكاد تتخطفه الأيدي وتسير به إلى بحيرات لوخ ليموند حيث الهدوء الذي لا نظير له والذي قال لي زميلنا الدكتور عبد الرزاق سلطان والذي كان يحضر للدراسة في فن تقدمت به ـ جامعة أدنبرة ـ آنذاك ـ على جامعات أخرى وهو الكيمياء

الحيوية، لقد فتح نافذة شقته في ذلك البناء الحجري الجديد في ويليام ستريت، ثم أوصدها ليبتسم كعادته ويقول: إنك ستفتقد ـ يا عاصم ـ هذا الهدوء، وسوف تحن إليه، واليوم بعد ربع قرن من الزمن أعود لتذكر أيام خوال في تلك البلاد النائية لأقول شيئاً عن رجل التراث (التركستاني) فيتعانق المشهدان عندي في كل واحد.

وعدت من بعثتي الدراسية مع نهاية عام ١٤٠٦هـ، ووجدت الفيروزآبادي أمامي في قسم اللغة العربية، ولهذا اللقب قصة اختصرها في أن أستاذاً معروفاً كان يعمل في قسم اللغة العربية بمكة المكرمة وهو الدكتور محسن العبيدي ـ أدرك بثاقب نظره تعمق هذا الشاب ـ آنذاك ـ في لغة القرآن ـ حيث نالته حظوة علامة اللغة ومادح العصر فضيلة السيد محمد أمين كتبي عن طريق زميله الإنسان المهذب السيد زيد كتبي أدرك العبيدي ما ينتظر هذا الشاب من مستقبل علمي مشرف فأطلق عليه اسم أحد أشهر مؤلفي القواميس العربية، فاعتز الشاب بهذا اللقب وأصبح يدون مقالاته به، ولم تكن الرياح مواتية في قسم جدة ـ آنذاك ـ ويؤسفني أن الدكتور عبد الله الغذامي في حكايته للحداثة جعل نفسه ضحية وأنه الوحيد الذي غبن، مع أن الذين غبنوا في عهده وعهد غيره كانوا كثراً وكان الدكتور التركستاني واحداً منهم، ولعل أبا زلفى أدرك مع الزمن من هم أولئك الذين آزروه، ومن الذين في خفاء أو علانية قد خذلوه.

بقي أن أقول إن قلة في الساحة من يعرفون أن أخانا التركستاني كان يكتب شعراً رقيقاً في مطلع حياته، وأن شاعرنا الكبير السيد محمد حسن فقي كان معجباً بتلك الإبداعات الشعرية، وأثمرت العلاقة الوثيقة بين

الرائد الفقي ـ متع الله بأيامه ـ وبين رائد التراث عن بحث قيم كتبه الدكتور التركستاني عن شاعرية الفقي وإخاله بحث التخرج في قسم اللغة العربية، تلك نبذة يسيرة عن سيرة مباركة باعثها الوفاء لأيام خوالٍ في الشامية والجودرية.

«منصور الحازمي بين أبو حديد والدّحْلة»(*)

يطلب مني الزميل الكريم الأستاذ محمد إبراهيم الدبيسي أن أكتب له كلمة عن أستاذ الجيل الدكاترة منصور الحازمي، وما عَلِمَ أنه من أصعب الأشياء عند العبد الفقير إلى الله أن يكتب كلمة عمن يحب، أو يقف خطياً في مناسبة إخاء وود.

فالكتابة الحقيقية تستمد وهْجها من الوجدان، والخطابة المؤثرة تستمد زخمها من آفاق النفس، وتنهل من ذلك العالم الذي يومض ثم لا يلبث أن يختفي ويومىء، ثم ما يفتأ أن يفلت من بين أيدينا رغم تعلقنا به، وتشبثنا بما يفيض من قلى النفس صفاء وسروراً.

في الثمانينيات الهجرية، ولعله في آخرها، كتب شباب الأمس وكهول اليوم، عبد الله الجفري، وسباعي عثمان، وهاشم عبده هاشم على صفحات منتدى سباعي ـ رحمه الله ـ في صحيفة المدينة بكثير من الخطوات الواثقة وبشيء من الزهو، ينتقدون ما يدور في الساحة الأدبية آنذاك، فوصفوا الرائد محمد حسن عواد بأنه معجزة لم يبق منها سوى الرماد، وأن الناقد عبد العزيز الربيع اكتفى بقراءة دواوين الأخير لينتقدها، ودعوا للشيخ أبي تراب الظاهري بأن يعفو الله عنه وكان عالم اللغة

(*) صحيفة الجزيرة، الخميس ٣٠ شوال، ١٤٢١/هـ ـ ٢٥ يناير ٢٠٠١/م، العدد: ١٠٣٤٦.

الفذ... وتلميذ أو مريد محدث الحرمين عمر بن حمدان المحرسي. يختم مقالاته مع الشيخ عبد الرحمن بن عقيل الظاهري بهذه العبارة التي ذهبت مثلاً كعبارة المرحوم الشاعر ضياء الدين رجب ـ يا أمان الخائفين ـ ولكنهم خصوا «عزيز ضياء» بعبارة ثناء تقول «إنه الوحيد الذي يخشونه في الساحة»، وعندما سُئل هذا الأخير ـ أي الأب عزيز ـ عن جيل الأكاديميين الذي ملأ الساحة ضجيجاً وصخباً، أجاب بأن ـ الحازمي ـ يتفرد بينهم بأسلوبه.

وإخال أن أبا دلال قد وضع يده على مكمن السر في شخصية الدكتور منصور، فليس أسلوبه الذي يجمع بين جزالة البادية وفصاحتها، ورقة الحاضرة وشفافيتها. هو وحده ما ميزه عن أقرانه، بل إن ما اختطه لنفسه من دراية، ورسمه لمدارات فكره من منهج، كان عاملاً مهماً وحاسماً في الموقع الذي احتله في الساحة، ولكأنه نظر مستشرفاً لذلك التدافع الذي حدث في الساحة مع مطلع الثمانينيات الميلادية، فعلى الرغم مما حدث وتتابع ـ لأن الضرورة تقتضي أن يتحرك الساكن وتمور الساحة بما يرضي، وما لا يرضي، وبما يتواءم مع أذواق البعض وبما تنفر منه أذواق أخرى، وتدافع الموج فطفا على السطح ما طفا، واحتفظ القاع بلآلئه... وظل منصور محتفظاً بموقعه ـ مؤمناً بتعددية الرأي، وكأنه عندما خاطب زميله الأستاذ الدكتور عزت عبد المجيد خطاب «نسألك ببراءة أو بخبث، ما منهجك يا عزت؟ فيجيب مبتسماً وبصدق: لكل نص منهجه الذي يقتضيه، أنت لا تؤمن إذن بمفتاح واحد، بل بمفاتيح عدة، وكأنك لم تسمع قط بالمفتاح الرئيسي «الماستركي» الذي يمكن أن يفتح حامله جميع الغرف في الدرجة الأولى».

«د. منصور الحازمي ـ سالف الأوان، كتاب الرياض ١٩٩٩,٧١م ص ١٤٣».

لقد كان منصور بهذه العبارة النقدية المهمة يضم ذاته إلى ذات «الخطَّاب» في زورق واحد، ويحمل معه ـ بذكاء ـ راية ـ تؤمن بالرأي والرأي الآخر المضاد، لقد خسر مثقفو العالم العربي كثيراً بمختلف توجهاتهم ومشاربهم عندما سعوا لفرض ما يعتقدونه من وجهة نظرهم أنه الحق، وأن ما سواه الباطل، ولو أنهم تركوا للآخر حرية الاختيار، ولم يسلبوه نعمة الحرية الحقيقية التي وهبها الله إياه لساهموا ـ حقاً ـ في تثقيفه والعمل على توعيته والارتقاء بفكره، وسلم لنا في الساحة في بلادنا نفر قليل، كان في الذروة منهم «منصور».

وإذا كان ما يقال ـ حقاً ـ إن لكل من اسمه نصيباً، فلقد انتصر ـ منصور ـ فيما قدمه من فكر، ونشره من وعي، وما ساهم به من نقد كان مبتدأه محمد فريد أبو حديد، ووسطه دحلة الأحباب في جرول، وخاتمته هذا التكريم في يوم الحب والوفاء.

الاستشراق(*)

كلمة «الاستشراق» كلمة مستحدثة وضعت في التداول منذ القرن الماضي، وهي ترجمة لكلمة Orientalism والدراسات الشرقية تعني ما قام به الغربيون من أبحاث ودراسات تناولت الديانات واللغات والأفكار وتراث الشعوب الشرقية، كما تناولت تاريخ وعادات وشؤون وأحوال هذه الشعوب؛ بحيث شملت شعوب الشرق كله، الأدنى والأوسط والأقصى، حتى حدود الصين واليابان.

ومن كلمة «استشراق» اشتق اسم «مستشرق» وجمعها «مستشرقون»، يقول «إدوارد» نفسه معرفاً بكتابه: «غير أن هذا الكتاب ـ رغم اشتماله على اختيار وفير من الكتاب ـ يبقى بعيداً عن أن يكون تاريخاً كاملاً أو مسرداً عاماً للاستشراق، لقد استطاع نسيج إنشاء له كثافة الاستشراق أن يبقى ويؤدي وظيفته في المجتمع الغربي؛ بسبب تراثه، وكل ما فعلته هو أنني وضعت أجزاء من هذا النسيج في لحظات معينة، ولم أعد اقتراح وجود كل أكبر مفصل شيق ومنقوش بشخصيات ونصوص وأحداث ساحرة».

ويرد المؤلف عوامل تأليف هذا الكتاب جزئياً إلى تجاربه الشخصية.

(*) ملحق التراث (صحيفة المدينة)، الخميس ٥ ذو القعدة ١٤٠١هـ (عدد ٥٣٠٦).

«فحياة الفلسطيني في الغرب، وبشكل خاص في الولايات المتحدة، تبعث اليأس في النفس؛ إذ يوجد إجماع كلي، تقريباً، على أن الفلسطيني غير موجود سياسياً، وحين يتسامح؛ فيعترف بوجوده؛ فبوصفه إما أمراً مزعجاً أو شرقياً، وإن الشبكة العنكبوتية من العرقية والتنميط الثقافي والإمبريالية السياسية والعقائدية التي تقضي على إنسانية الإنسان، والتي تأسر العربي أو المسلم، لقوية جداً بالفعل».

يتكون الكتاب من فصول ثلاثة طويلة:

يرسم في الفصل الأول «مجال الاستشراق» دائرة كبيرة حول أبعاد الموضوع كلها في إطار معطيات الزمن التاريخي والتجربة التاريخية، وفي إطار الموضوعات الفلسفية والسياسية في آن.

ويحاول في الفصل الثاني «البنى الاستشراقية والاستبناءات» أن يتتبع تطور الاستشراق الحديث، عبر وصف تتابعي زمني، في خطوطه العريضة، وكذلك عبر وصف طقم من الوسائل المشتركة بين أعمال عدد من الشعراء والفنانين والباحثين.

ويبدأ في الفصل الثالث بحث «الاستشراق الآن» حيث انتهى سابقه حوالي ١٨٧٠م، وهي مرحلة التوسع الاستعماري العظيم في الشرق، تلك التي توجت بالحرب العالمية الثانية، ويحدد القسم الأخير ـ من الفصل الثالث ـ خصائص النقلة من التسلط البريطاني والفرنسي إلى التسلط الأمريكي.

المؤلف:

* إدوارد، و. سعيد؛ ولد في القدس، وأتم تعليمه الابتدائي والثانوي فيها وفي مصر.

* نال «البكالوريوس» من جامعة «برنستن» في الولايات المتحدة، كما نال «الماجستير» ودرجة «الدكتوراه» من جامعة (هارفرد) عام ١٩٧٤م، وأصبح زميلاً في مركز الدراسات المتقدمة في العلوم السلوكية (ستانفورد) عام ١٩٧٥م وعام ١٩٧٦م، ثم (جونز هوبكتر) وهو يعمل ـ حالياً ـ أستاذاً للأدب الإنجليزي والأدب المقارن في جامعة (كولومبيا) في نيويورك.

*** من مؤلفاته بالإنجليزية:**

١ ـ بدايات.

٢ ـ الاستشراق.

٣ ـ الأدب والمجتمع.

٤ ـ المسألة الفلسطينية.

٥ ـ تغطية الإسلام.

* الكتاب وترجماته:

* صدرت الطبعة الأولى من الكتاب ـ باللغة الإنجليزية ـ سنة ١٩٧٨م في الولايات المتحدة الأمريكية.

* ترجم الكتاب إلى اللغة الفرنسية، وصدرت الترجمة الفرنسية له عن دار «سوى».

* كما ترجم إلى اللغات الألمانية، الأسبانية، الإيطالية، التركية، الفارسية والماليزية.

* ترجم الكتاب ـ أخيراً ـ إلى اللغة العربية، تحت اسم «الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء». وقام بالترجمة والنقل الدكتور كمال أبو ديب، رئيس الدائرة العربية في جامعة اليرموك، وصدرت هذه الترجمة عن مؤسسة الأبحاث العربية، في بيروت، أوائل هذا العام.

*** الدراسات التي صدرت حول الكتاب:**

* ترجمة ودراسة د. أسعد زروق لمقدمة الكتاب في مجلة «شؤون فلسطينية» عدد ٩٢ ـ ٩٣، بيروت تموز ـ آب ـ ١٩٧٩م، ص ٢٣٦ ـ ٢٥٩.

* العرض الذي كتبه خليل سمعان، في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، نيسان ١٩٧٩م، ص ٤٨٧ ـ ٤٩٤.

* مقال أحمد أبو زيد، الذي عرض فيه عدداً من آراء إدوارد سعيد، حول الاستشراق في مجلة «عالم الفكر» الكويتية، عدد ٢، يوليو ـ أغسطس ـ سبتمبر ١٩٧٩م، ص ٢٥٥ ـ ٢٧٦..

* العرض العام، الذي قدمه محمود شريح للكتاب، في مجلة «الفكر العربي المعاصر» بيروت، عدد٢، حزيران ١٩٨٠م، ص ٧١ ـ ٧٦.

* مراجعة كتبها روز ماري صايغ، في مجلة «قضايا عربية» عدد (٥) أيار ١٩٨٠م، ص ٣١١ ـ ٣١٨.

* مناقشة د. غسان سلامة، الباحث في مركز دراسات الوحدة العربية ـ بعنوان «عصب الاستشراق» في مجلة «المستقبل العربي» بيروت، عدد ٢٣، كانون الثاني ١٩٨١م، ص ٤ ـ ٢٢.

* دراسة د. صادق جلال العظم ـ بعنوان «الاستشراق والاستشراق معكوساً» ونشرت في مجلة «خماسين» باللغة الإنجليزية عدد (٨) لندن ١٩٨١م، ص ٥ ـ ٢٦، ثم صدرت باللغة العربية ـ في كتاب مستقل عن دار الحداثة بيروت، مؤخراً.

دليل المسلم في الاعتقاد والعبادات(*)

من تأليف فضيلة العلامة الشيخ عبد الله خياط؛ الخطيب في الحرم المكي الشريف، ومستشار وزارة المعارف، وقد تم طبعه على نفقة صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز؛ أمير منطقة الرياض؛ وبناء على اقتراح من معالي الشيخ محمد بن علي الحركان؛ الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي، تمت ترجمة القسم الأول، من هذا الكتاب، إلى اللغة الإنجليزية، وطبعت هذه الترجمة، كما ترجم القسم الثاني، من هذا الكتاب، إلى عدة لغات، منها: الإنجليزية، والفرنسية، والتركية، والجاوية، والأردو.

* يقع هذا الكتاب في قسمين؛ القسم الأول: دليل المسلم في الاعتقاد؛ وهذا القسم يشتمل على مقدمة، وثلاثة أبواب.

يتعرض المؤلف، في المقدمة، لحاجة الأمم إلى الإصلاح في جميع أمورها، مبرزاً دور الدين الإسلامي في انتشال الأمة العربية من جاهليتها وضعفها ـ إلى الدور الحضاري العالمي؛ الذي اضطلعت به في فترة يسيرة؛ لا تتجاوز ثلاثين سنة، ثم ما كان من أمر انتشار الإسلام، بين

(*) صحيفة المدينة (عدد ٤٩٥٧)، الخميس ٢٧ شعبان ١٤٠٠هـ.

الأمم الأخرى؛ حيث وجدوا فيه لطفاً ورحمة وخيراً ونعمة، لا عقيدة ينفر منها العقل؛ وهو رائد الإيمان الصَّادق، ولا عمل تضعف عن احتماله الطبيعة البشرية وهي القاضية في قبول المصالح والمرافق.

ثم يخلص المؤلف من المقدمة إلى الفصل الأول؛ الذي يعقده على «الإسلام»؛ فيتعرض لمحاسنه، كالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإحلال الطيبات، وتحريم الخبائث، ورفع الأغلال، وتحريم الربا، والاستغلال، والخمر، والميسر، وتحريم الانتحار، بكل وسيلة من الوسائل.

ومن الموضوعات التي عالجها المؤلف، في هذا الفصل، الدعوة إلى الإسلام؛ كدين خاتم، وعن العناصر التي يتكون منها هذا البناء المتكامل الثابت الأركان.

أما الفصل الثاني ـ فيحدثنا فيه فضيلة الشيخ عن مراتب الدين، وأركان الإسلام ـ حديثاً موجزاً، يبتعد فيه عن الغموض، الذي تقع فيه بعض المؤلفات، التي تدور حول هذا الموضوع، ويقترب فيه من نفوس الناشئة بما يسوقه من أدلة واضحة في أسلوب يتواءم مع كل المستويات.

ويختتم المؤلف هذا القسم بفصل عن التوحيد والشرك ـ يقول فيه: «التوحيد والشرك ضدان لا يجتمعان، ونقيضان لا يلتقيان، فالتوحيد في مدلوله: إفراد لا يقبل المزاحمة والشرك في مدلوله فوضى وتخليط؛ أما الإفراد فيجب أن يكون لله الواحد الأحد؛ إفراد في الربوبية، والخلق، والتدبير، كما هو إفراد في الألوهية، والذات، والأسماء، والصفات».

ومن هذه المقدمة ـ ينطلق المؤلف في توضيح أقسام الشرك

ومخاطره، ووجوب الترفع عن التلبس بشيء منه؛ لأنه أعظم الذنوب، ومن الحديث عن الشرك إلى الحديث عن الشفاعة وشروطها، وشفاعة سيدنا رسول الله ـ ﷺ ـ العظمى التي يتخلف عنها أولو العزم من الرسل.

وبأسلوب المربي القدير، وثقافة العالم المتمكن ـ يعالج بعد ذلك، فضيلة الشيخ الخياط موضوعات التبرك، والغلو، والكرامات، والبعث.

وبهذا الفصل ينتهي القسم الأول من الكتاب ـ ليبتدىء القسم الثاني منه؛ وهو يعد، في حقيقته، الدعامة الأخرى، التي تقوم عليها حياة المسلم؛ وهي «العبادات»؛ ويتكون من خمسة فصول:

الفصل الأول يتناول الطهارة بالشرح والتفصيل؛ كسنن الفطرة، والغسل بأنواعه، والاستنجاء والوضوء، والغسل الكامل، والتيمم «صفته وأحواله» ومن الطهارة ينتقل المؤلف إلى «الصلاة» ويستغرق حديثه عنها جزءاً كبيراً من هذا القسم، هو مضمون «الفصل الثاني» وهو الذي يفتتحه ببيان منزلة الصلاة من الدين؛ «فلقد بلغ من عناية الإسلام بها أن أمر بالمحافظة عليها، حتى في أحرج المواقف، واشتداد الخوف، حين يكون المسلمون في ساحة الوغى قال الله تعالى: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً».

ومن مزايا هذا الفصل ما أقدم عليه فضيلة المؤلف من شرحه للصلاة بطريقة علمية، كما نقلها الأئمة رحمهم الله ـ من السلف عن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ اقتداء بقوله ـ ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي» ولقد استوفى هذا الفصل الحديث عن صلاة الجماعة وفضلها وصلاة الجمعة، وصلاة النوافل، وصلاة الوتر، وصلاة التراويح، وصلاة المريض، وصلاة

العيدين، وصلاة الجنازة، مع موضوعات أخرى؛ كالوعيد في ترك الجمعة، والصلاة في زحام الناس، ومتابعة الإمام ومسابقته.

وكان ثالث فصول هذا القسم عن فريضة «الزكاة»، ثالث أركان الإسلام؛ التي لا يقوم إلا باستكمالها؛ حيث إنها فريضة اجتماعية تعبدية ـ تشعر بسمو أهداف الإسلام من عطف ورحمة وحدب وتعاون، إنها كما وصفها المؤلف «حق المال؛ تنميه، وتباركه، وترتفع بأهله عن رذيلتي الشح والأثرة».

ثم تجده ـ في الفصل الرابع ـ يوالي حديثه عن فريضة الصيام، وأثره في التدريب على الروحانيات وكبح جماح النفس عن الملذات والشهوات المباحة، ويراه تجربة عملية تحد من طغيان المادة، وتعطي البدن فرصة التخلص من أوضارها، والأخذ في مدارج التكمل الذاتي والروحي، شهراً كاملاً من مجموعة شهور العام الإثني عشر.

ثم يتولى فضيلة المؤلف، في هذا الفصل، مناقشة كل الأحكام الشرعية المتعلقة بثبوت رمضان، ووقت الصيام، ومبطلاته، وواجباته، ومستحباته.

ثم يأتي، في الفصل الخامس والأخير، من هذا القسم، على فريضة «الحج» محاولاً ـ من خلال عرضه لأحكام الحج ومسائله ـ أن يضع، بين يدي المسلم، تصوراً واضحاً عن كيفية قيام الرسول ـ ﷺ ـ بهذا الركن الهام، من خلال الآثار النبوية الكريمة، التي رواها صحابة رسول الله ـ ﷺ ـ عن حجته في الجملة:

إن «دليل المسلم» تجربة موفقة في عرض مبادىء الإسلام بما يتلاءم

مع المناهج التربوية الحديثة في تقديم المادة العلمية بأيسر السبل وأوجز العبارات، مع الحرص على التطبيق العلمي فيما تدعو الحاجة إليه، والعمل على وضع الحلول لكل المسائل المتوقعة التي تلازم هذا التطبيق.

والكتاب بعد ذلك دليل لمن يعيش في أحضان الإسلام منذ فطرته، للذين يبحثون عن نور الإسلام بين ظلمات جاهلية القرن العشرين، والله ولي التوفيق.

سفر الخروج وأثره في الفكر الغربي المعاصر(*)

شاهدنا مفوضة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان «تاري روبنسون» وهي تحتجز في الأراضي العربية المحتلة عند قيامها بزيارة الكيان العنصري ومناطق السلطة الفلسطينية قبل أشهر وأظهرت «روبنسون» شيئاً من التذمر أمام كاميرات التلفزيون، ولكن يبدو أن ذلك التذمر كان تمثيلية هزلية من شخصية «روبنسون» التي تعود لأصل إيرلندي ومعلوم أن الأيرلنديين متمسكون بديانتهم المسيحية وهذا التمسك من قبل أفراد وجماعات مسيحية يقودهم إلى التطرف في كثير من الأحيان في مشاعرهم العدائية ضد العرب والمسلمين، بينما يعتبر هذا الجناح المسيحي المتشدد والمسيطر ـ الآن ـ على كثير من المؤسسات الغربية وهي أن الولاء لليهود والصهيونية واجب ديني مقدس وأنه يحق لليهودي أن يقتل الغير طفلاً كان أو شيخاً، وأن اليهودي له مكان محجوز في الجنة ـ بحسب العهد القديم ـ وعندما سئلت شخصية مسيحية متشددة في أواسط الثمانينات الميلادية في بريطانيا، وما رأيك إذا كان اليهودي من صنف مجرمي الحرب والسفاحين من أمثال «بيجين» و«شامير» و«شارون»، هل هو ـ الآخر ـ له مكان محجوز سلفاً في الجنة فأومأ برأسه إيجاباً، وهذا الجانب يجب أن نوليه

(*) صحيفة البلاد؛ عدد الجمعة ١٨ رجب ١٤٢٢/هـ/اكتوبر ٢٠٠١م.

اهتماماً كبيراً عند تفسير بعض المواقف الغربية سواء كانت هذه المؤسسات الغربية سياسية أو فكرية، أفراداً كانوا أم جماعات، فهؤلاء ـ بحسب معتقداتهم المستندة إلى العهد القديم يرون أن سفك دماء المسلمين على أيدي اليهود أمر لا يثير الاشمئزاز ولا يستوجب الإدانة مطلقاً ـ ولهذا فصورة الطفل «محمد جمال الدرة» والذي قتلته القوات الإسرائيلية وهو يحتمي بحضن والده لم ولن يؤثر في صورة اليهودي عند الغربيين ولهذا فإن الحديث عن كيفية التأثير في العقلية الغربية إزاء تصرفات اليهود والصهيونية هو من الصعوبة بمكان، للاستناد الغربي ـ إلى العهد القديم في كل ما يتصل بإسرائيل ووجودها كدولة، العهد القديم هو الذي كتب عنه الباحث «أرنست بيغين» قائلاً «العهد القديم هو أشد الكتب بعداً عن الأخلاق فهو كتاب يدعو إلى القسوة والقتل وسفك الدماء في كل سفر من أسفاره»، وقد ذكر الكاتب الفلسطيني الأصل، والأمريكي الجنسية ـ أخيراً ـ في صحيفة الحياة، «الأحد، ٩ سبتمبر، ٢٠٠١م/٢١ جمادى الآخرة ١٤٢٢هـ» أن نموذج السرد الرئيسي المهيمن على التفكير الغربي لا يزال بحسب ما يبدو، وهو رواية ليون يوريس «سفر الخروج» ١٩٥٠م، وسفر الخروج هو أول أسفار التوراة، وأول أسفار العهد القديم، ويروي السفر في كذب وصفاقة ولاعقلانية «كيف أن الله كون لنفسه بين أمم الأرض شعباً كتب له أن يصبح شاهداً له»، ولقد صرح «بيجين» و«شارون» و«بيريز» و«شامير» «بأنه لا يمكن التنازل عن أرض يهودية، بمقتضى أوامر الرب نفسه والرب ـ نفسه ـ بحسب معتقدهم الخرافي ـ قد أمر بكل وضوح في التوراة بطرد سكان هذه الأرض ـ يعني الضفة الغربية ـ من وجه إسرائيل وإلا وجب قتل كل نفس حية من الطفل الرضيع إلى الشيخ الفاني»... وهو ما تفعله إسرائيل منذ نصف قرن من الزمن إزاء العرب

بدءاً من مذبحة دير ياسين، ومروراً بكفر قاسم، وقبية، وصبرا وشاتيلا، والحرم الإبراهيمي، وانتهاء بقتل الأطفال والشيوخ في الانتفاضة الأخيرة، الغرب الذي يدعي الديمقراطية والعلمانية، يظهر أن دعمه لإسرائيل هو من ناحية سياسية ـ فقط ـ ولكن الحقيقة القائمة ـ فعلاً ـ أن الغربيين يؤمنون بأساطير العهد القديم أكثر من إيمان اليهود بها، وأثبت مؤتمر «ديربان» لمناهضة العنصرية، أن بعضاً من الأوروبيين ـ وفي مقدمتهم الكاثوليكية ـ «روبنسون»، أنهم يدعمون الإرهاب الإسرائيلي انطلاقاً من الترهات التي تملأ صفحات العهد القديم، ولهذا كانوا الأكثر بشاعة وعنصرية، وقد كفوا سادتهم «اليهود» من أمثال السفاح «شارون» مؤونة الدفاع عن الحركة العنصرية الصهيونية.

التنبيهات في إثبات الاحتجاج إلى البعثة والحشر(*)

إن أكثر أبناء هذا الزمان مالوا في إنكار الاحتجاج إلى البعثة إلى رأي جمهور البراهمة والصابئة والتناسيخية؛ فاعتقدوا بأن العقل البشري كاف في تمييز الأشياء النافعة عن المضرة.

فالفعل الذي يحكم العقل بحسنه يفعل، والذي يحكم العقل بقبحه يترك، والذي لا يحكم العقل بحسنه، ولا بقبحه يفعل عند الحاجة إليه، ويترك عند عدمها، ومالوا في إنكار الحشر مطلقاً؛ جسمانياً كان، أو روحانياً، إلى رأي القدماء من الفلاسفة الطبيعيين.

وإذا ترسخ هذان الرأيان في أذهانهم ـ صار عقل كل بمنزلة رسول له؛ بل صار إلهه هواه، ولا شبهة أن هذين الرأيين في نفس الأمر ذريعتان لوصول صاحبهما إلى النكال المؤبد، والعذاب المخلد.

فأردت أن أكتب رسالة وجيزة؛ تنبه الناظر على بطلانهما عقلاً، والاحتياج إلى البعثة والحشر.

والمؤلف هو الشيخ رحمه الله ابن خليل العثماني، ويتصل نسبه بسيدنا

(*) ملحق التراث (صحيفة المدينة)، عدد ٤٦٨٤/ الخميس ٨ شوال ١٣٩٩/هـ.

عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ وترجع أسباب هجرة جده الأعلى إلى الهند ـ أنه كان قاضياً في جيش السلطان (محمود الغزنوي): فاتح الهند، والمتوفى عام ٤٢١هـ. وتلقى الشيخ رحمه الله العلوم العقلية والنقلية عن أشهر علماء الهند في عصره، كما تعلم اللغة الفارسية، وعلم الطب ـ عليهم.

وفي عام ١٢٧٠هـ عقد الشيخ (رحمه الله) اجتماعاً؛ حضره كبار علماء الهند والمسيحيين لمناظرة أكبر قسيس؛ وهو (فندر)؛ رئيس البعثة التبشيرية بالهند، فما زال يناظره بالبراهين العقلية، والحجج النقلية، حتى أفحمه؛ فسر المسلمون لنصره، وغضب الإنجليز على (فندر)؛ فأقالوه من رئاسته.

هاجر الشيخ رحمه الله إلى مكة المكرمة عام ١٢٧٤هـ بعد أن صادرت الحكومة الإنجليزية أمواله، وعقاره، وخصصت ألف روبية جائزة لمن يأتي برأسه.

وفي عام ١٢٩٢هـ أنعم عليه السلطان العثماني بالخلعة السلطانية، ووسام المجيدي، ورتبة (ركن الحرمين)؛ باقتراح شيخ الإسلام.

في عام ١٣٠٤هـ بلغ السلطان (عبد الحميد) مواقف الشيخ ـ رحمه الله ـ وجهاده لنشر الدين، والدفاع عن حوزته؛ فطلب من شريف مكة ابتعاثه على (استانبول)، فلما وصل أكرمه، وطلب منه ترجمة مناظرته (إظهار الحق): وترجمت إلى عدة لغات، ثم عاد إلى مكة، ثم أعلن الثورة العربية عام ١٣٣٤هـ، والشيخ أحمد أبو الخير مرداد، والشيخ عبد الله أبو الخير مرداد، والشيخ عبد الرحمن دهان، والشيخ عابدين حسين مالكي، والشيخ محمد سعيد بابصيل.

من مؤلفاته:

١ ـ إظهار الحق، وترجم باسم (إبراز الحق) إلى معظم اللغات في عام ١٢٨٠هـ.

٢ ـ إزالة الأوهام في الرد على المسيحيين باللغة الفارسية، وطبع عام ١٢٦٩هـ.

٣ ـ إزالة الشكوك، في مجلدين، باللغة الأوردية.

٤ ـ الإعجاز في تحريف الإنجيل، وطبع عام ١٢٦٩هـ.

٥ ـ أحسن الأحاديث في إبطال التثليث، وطبع عام ١٢٩٢هـ.

٦ ـ البروق اللامعة في إثبات الرسالة المحمدية.

٧ ـ البحث الشريف في إثبات النسخ والتحريف، وطبع عام ١٢٧٠هـ.

٨ ـ إعوجاج الميزان في الرد على كتاب (ميزان الحق) للقسيس فندر.

٩ ـ التحفة الإثنا عشرية في الرد على الروافض، للعلامة الشيخ عبد العزيز ولي الله الدهلوي (ترجمه إلى الفارسية).

توفي رحمه الله بمكة في ٢٢ من رمضان ١٣٠٨هـ: الموافق أول مايو سنة ١٨٩١م، والكتاب الذي نحن بصدده يشتمل على اثني عشر تنبيهاً:

التنبيه الأول: في إثبات الاحتياج إلى البعثة والنبوة على رأي المحققين من الفلاسفة.

التنبيه الثاني: إن الغفل لا يستقل في معرفة كثير من الأمور: مثل المعاد الجسماني، وأكثر أحوال الآخرة، وبعض صفات الله، ووظائف العبادات، وغيرها.

التنبيه الثالث: في أن البعثة ليست بمستحيلة لذاتها، ولا لاقتناع لازمها الذي هو التكليف.

التنبيه الرابع: في أنه قد توجد في الشرائع أحكام تعبدية لا تظهر حكمة مشروعيتها للعقول.

التنبيه الخامس: إن حصول الاطلاع على المغيبات الماضية والآتية للنبي لا تستنكره الفلاسفة.

التنبيه السادس: إن ظهور الأفعال الخارقة للعادة من النبي ليس بمستنكر أيضاً عند الفلاسفة.

التنبيه السابع: إن المعجزة إذا ظهرت على يد مدعي النبوة خلق الله العلم الضروري بصدقه قطعاً.

التنبيه الثامن: إن التواتر إذا كان جامعاً للشروط المفصلة في علم الأصول، فلا شك أنه يفيد العلم.

التنبيه التاسع: إن نزول الوحي بواسطة الملك المصور بصورة المحسوس وسماع الكلام فيه لا يستنكر.

التنبيه العاشر: وجوه إبطال إنكار القدماء من الفلاسفة الطبيعيين الذي لا يعتد بهم في الفلسفة الحشر مطلقاً جسمانياً كان أو روحانياً.

التنبيه الحادي عشر: اتفاق كافة أهل الملل، وجمهور المحققين، على حقيقة المعاد، لكنهم اختلفوا في كيفيته.

التنبيه الثاني عشر: على أن قول الطبيعيين ضعيف جداً، وكذلك إنكار جمهور الفلاسفة للحشر الجسماني ليس بسديد، ولا استحالة في هذا الحشر عقلاً.

وأما القسم الثاني من الكتاب ـ فهو من وضع محقق الكتاب الدكتور بركات عبد الفتاح دويدار: وهو عن الإسلام والحاجة إليه، ويضم هذا القسم فصولاً عن معنى الإسلام، وكتاب الإسلام، والقرآن الكريم، وعن السنة النبوية، وشرح لبعض الاصطلاحات: كالصابئة، والبراهمانية، والتناسخ، ثم عن الصليبية، والإسلام.

من تاريخ الحركة الفكرية بالمدينة المنورة(*)

قبل حوالي عقدين من الزمن قرأت للأستاذ محمد حسين زيدان قولاً أرى فيه اليوم شاهداً استأنس به لما أنا بصدد الحديث عنه في هذه المقالة... لقد أراد الأستاذ ـ الزيدان ـ من ذلك القول ـ يومها ـ أن يوضح للناشئة من شداة الأدب دور المرحوم محمد سرور الصبان ـ رحمه الله ـ في النهضة الأدبية التي شهدتها أرض الجزيرة العربية فقال ما معناه «لقد نشأ فينا رجال لم يصنعوا الأدب ولكنهم شجعوه فكانوا بذلك أكثر من صانعيه، من هؤلاء محمد سرور الصبان»...

وفي ذلك التاريخ نفسه وقعت عيناي لأول مرة على شخصية فكرية كان لها دورها المتميز في تشجيع الحركة الأدبية في طيبة الطيبة، ولعلي سمعت بتلك الشخصية قبل ذلك التاريخ، إلا أنه سماع لم يؤيده ـ يومها ـ بعد شيء من عالم الواقع الذي يتطلبه العقل ويبحث عن مصداقيته القلب...

وفي حي باب الرحمة الذي كانت تطل دوره المتلاصقة على مسجد المصطفى ـ ﷺ ـ وفي صباح يوم أغر من تلك الأيام التي تشرق شمسها الزاهية على تلك الأرض الطيبة، يزيد من بهاء نورها ذلك الضياء الإيماني

(*) ملحق الأربعاء (صحيفة المدينة).

الذي ينبعث من أرجاء المسجد السامي حيث يرقد خير مرسل، وأكرم نبي، وأطهر إنسان ـ عليه صلاة الله وسلامه ـ في ذلك الحي، ومع إطلالة ذلك الصباح، صافحت عيناي رجلاً مديد القامة، جميل المحيا، حاد النظرات، لقد كان يتحدث إلى الصديق الأستاذ ـ محمد هاشم رشيد ـ في مكتبة الشيخ عبد المحسن الكتبي ـ رحمه الله ـ يتحدث إليه عن قيمة الكتاب الواحد تشتريه ثم تتبعه بكتاب آخر، ثم تستمر على هذا المنوال فيتكون لك في النهاية من ذلك مكتبة، تيسر إليك الرجوع في أمور البحث والمطالعة لقد كان الرجل ـ بعبارة أخرى يتحدث عن قيمة الكتاب في حياة الأمة الفكرية، ولعلي يومها تهيبت الرجل فلم أتحدث معه بشيء، ولربما كان مرد ذلك التهيب ما نشأنا عليه من احترام لرجال العلم والفضل، وما وقر في نفوسنا من حب لهم، لقد انصرفت عن الحديث ـ يومها ـ مع الرجل وفي النفس تطلع إليه دل عليه ذلك الحديث الذي جاذبت به الأستاذ الرشيد عن الشاعر الأستاذ حسين سرحان، وديوانه الأول ـ أجنحة بلا ريش ـ، وقد صدر يومها بمقدمة كتبها الشيخ حمد الجاسر، ولم يكن الديوان ـ يومها ـ متوافراً في الأسواق، فظننت أن قرض الشعر ومعالجة شؤونه ربما مكنا للأستاذ ـ الرشيد ـ في الحيازة على ديوان كهذا، إلا أن شاعر المدينة لم يكن أحسن حظاً مني في الاطلاع على ذلك العمل الشعري لشاعر اقترن اسمه بشاعر مبدع آخر هو الأستاذ حمزة شحاتة ـ رحمه الله ـ فلا يذكر الشعر في بلادنا إلا ويكون لهما فيه نصيب الأسد. . .

ومضى على ذلك اللقاء سنون عدة قبل أن أجلس إلى هذا الرجل عن كثب يوم أسأل الزميل ـ الدكتور يوسف أحمد حواله، في أن يرافقني في

زيارة فضيلة الشيخ «جعفر فقيه» ـ أمد الله في عمره ـ حيث يسكن الزميل «الحوالة» في الحي الذي يسكنه الشيخ «الفقيه»، وهو حي من أحياء المدينة القديمة اصطلح الناس على تسميته «بباب المجيدي» ولربما رغب البعض عن هذه التسمية اليوم فيدعونه «بحي البيعة». . .

وتتم الزيارة وإذا أنا أجلس إلى رجل يحدثك فينم حديثه عن عمق ودراية وخصوصاً فيما يتعلق بتاريخ المدينة النبوية وآثارها، واسترق النظر إلى المكان المحيط بنا، فإذا هو تحفة فنية من صور الآثار القديمة التي كانت تقوم في أرجاء مختلفة من البلدة الطيبة، وقد عُنِيَ الشيخ «الفقيه» ـ أمد الله في عمره ـ بهذه الصور عناية تدل على ذوق فني يتوافر لأولئك الذين وهبهم الله رهافة الحس وعمق الوجدان، وطوف بنا ـ أبو سامي ـ في أرجاء مكتبته فإذا هي تحفل بالنادر من المؤلفات المخطوطة والمطبوعة، ولعل عنايته هذه بالكتب قادته ـ يوم أسندت إليه إدارة مكتبة المدينة المنورة العامة ـ أن يضم إليها ما يقرب من عشرين مكتبة خاصة ـ وسعى في أن تكون محتوياتها في متناول طلاب العلم الذين يفدون إلى ذلك الصرح العلمي بالقرب من مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ فينهلون ما وسعهم من معين العلم والمعرفة. . .

إن شداة العلم والمعرفة يعلمون أن في صنيع الشيخ الفقيه بضم ذلك التراث إلى المكتبة العامة ما يستحقه هذا الرجل من ثناء وشكر يجب أن يتجسد في عملية تكريم علمي، ولعل نادي المدينة المنورة الثقافي خير من يضطلع بدور كهذا. . .

لقد أعطى ـ أبو سامي ـ الكثير من جهده يوم كان مساعداً للشيخ «صالح قزاز» في الإشراف على تنفيذ عمارة وتوسعة الحرم النبوي الشريف

الأولى التي تمت في العهد السعودي الزاهر، ثم بما وفقه الله له من تزويد طلاب العلم بما يحتاجون إليه من معلومات تحتاج إلى التوثيق أو مصادر يعز الحصول عليها، فلا أقل اليوم من أن نحتفي بأحد رجال الحركة الفكرية في البلد الطيب، والله ولي التوفيق.

الموسوعة الأدبية لأدباء المملكة العربية السعودية(*)

صدر ـ مؤخراً ـ الجزء الثالث من «الموسوعة الأدبية لأدباء المملكة العربية السعودية ضمن إصدارات نادي الطائف الأدبي، وهذا العمل الفذ يصر أستاذنا الفاضل عبد السلام الساسي ـ على إطلاق صفة «الموسوعية» عليه ـ على الرغم من ـ اختلاف الكثير من النقاد معه ـ على هذا المدلول، الذي لا ينطبق حقيقة على المادة العلمية، التي يتضمنها هذا الجهد، الذي استنفد من المؤلف ـ أمد الله في عمره ـ سنوات طويلة من العمر هو أحوج ما يكون فيها إلى الدعة والطمأنينة بعد أن أدركه الإعياء، وامتدت إلى صحته ـ آثار الشيخوخة المبكرة.

إلا أن الأيام لم تستطع أن تنال من ذلك الحماس والطموح، اللذين تمتلىء بهما نفس الأستاذ الساسي، منذ بدأ حياته الفكرية، في مكة المكرمة؛ يستنسخ ـ بخط يده صحيفة وطنية، هو وزملاء له بمجلة الشامية ـ في زمن؛ تعذرت فيه الطباعة، أو عزت إمكانياتها.

إلا أن هذا الشعور الوطني الرفيع ليس بغريب على من يتحدر من

(*) ملحق التراث (صحيفة المدينة)، عدد ٥٠٢٠، الخميس ١٦ ذو القعدة ١٤٠٠/هـ.

أسرة اتخذ معظم أفرادها صناعة الحرف وسيلة لبث العلم، وإثراء الفكر، في هذا البلد الكريم. كيف لا؟ وهي تنتظم ـ في عقدها ـ فضيلة المرحوم الشيخ الطيب الساسي؛ أحد رجالات العلم والصحافة، منذ أكثر من نصف قرن، وفضيلة الشيخ عبد الله الساسي، ذلك المربي القدير؛ الذي اضطلع بمسؤولية تنشئة الأجيال، في بلد الله الحرام، وأنه لفي مكانته العلمية أكبر من إشارة عابرة كهذه.

ويكفي أن نذكر أن تاريخ العلم في الحرم النبوي الشريف بالمدينة المنورة، يحدثنا عن والد هذه الأسرة الكريمة بأنه كان أحد طلاب العلم المرموقين في رحباته، التي كانت تغص؛ بحلقات العلم العامرة، جهابذة من العلماء؛ يمثلون مدارس فكرية تختلف روافدها ومنازعها، وتتوحد مصادرها.

ولأساتذتنا الكرام، أو الجيل الذي نفاخر به ثقافة وفكراً، للأساتذة محمد حسين زيدان، وعبد القدوس الأنصاري، وعلي حافظ، وعثمان حافظ، وأمين مدني، وأحمد العربي ـ لهم أن يحدثونا عن تاريخ تزدهي به نفوسنا؛ تاريخ الثقافة الإسلامية؛ الذي وعته سواري روضة المختار؛ من أجلاء، عظام؛ في مقدمتهم الشيخ محمد الطيب الأنصاري والشيخ عبد القادر شلبي، والشيخ صالح تونسي، والشيخ محمد العمري، والشيخ ألفا هاشم، والشيخ حمدان الونيسي رحمهم الله جميعاً، وأسكنهم فسيح جناته.

انتقل إلى «الموسوعة» إلى هذا العمل الأدبي الذي يستحق عليه صاحبه من الشكر أجزله ومن الإكبار أوفره، لما تيسر به ـ بفضل بحثه

الدؤوب ـ من مادة، وما توافر من تراجم، إلا أن هناك وقفات يدعو إليها التصفح في هذا الجزء من الموسوعة؛ شأن كل عمل رائدٍ وكبير.

لقد أغفل المؤلف عدداً، من رجال الفكر والأدب في بلادنا وكان ينبغي أن يكون لهم حضور في هذه الدائرة؛ كالأستاذ البحاثة عبد الله سلامة الجهني، والدكتور الأديب محمد عبد الرحمن الشامخ، والدكتور الشاعر عبد الله الصالح العثيمين، والأستاذ المربي عبد الرحمن عثمان رحمه الله.

هناك معلومات مبتورة ـ في الكتاب ـ وردت عند الحديث عن بعض الشخصيات المترجم لها؛ فمن هو ـ مثلاً ـ عبد الوهاب النشار؟ أو عبد الرحمن الملا؟

ألا يرى أستاذنا الكريم أن في ذلك إجحافاً بحق المترجم له، وتعتيماً على القارىء؛ الذي يتطلع لمعرفة المزيد عن أدباء هذه البلاد ومفكريها ـ في إنتاج نتطلع ـ جميعاً ـ أن يكون ـ بحق ـ موسوعة أدبية متكاملة.

سوء اختيار النماذج الشعرية ـ أحياناً ـ فالسيد عبيد مدني ـ رحمه الله ـ شاعر أصيل ـ كما هو معلوم ـ ولكن ما أثبته المؤلف له؛ وهو قصيدة واحدة ـ لا يعطي الناقد صورة واضحة المعالم عن شاعرية ذلك اللسان الذرب؛ الذي عرفته محافل هذا البلد، منذ أمد طويل؛ ولعل مجلة «المنهل» وكتاب «الملك عبد العزيز في مرآة الشعر» للأستاذ عبد القدوس الأنصاري أقرب المصادر للتدليل على ذلك...

لقد استغرق جمع مادة هذا العمل زمناً طويلاً، لانتظامه جميع القطاعات الإدارية لهذا البلد؛ فكان تأثير ذلك، واضحاً على كثير من

المعلومات؛ التي تغيرت؛ لتعلقها بظروف الحياة العامة، ويستلزم ذلك مراجعة دقيقة من المؤلف يجريها على تراجم من عُنِيَ بتسجيل ذكراهم الخالدة في سفره الجليل «الموسوعة الأدبية» والله ولي التوفيق.

الموقف الذي يعري ضعف الكلمة![*]

إذا كان رثاء الرجال ليس باليسير تناوله، والحديث عنه، كما يصعب على النفوس أن تراهم راحلين إلى الدار الخالدة.

فإن رثاء العلماء العاملين هو الحدث، الذي يصعب على الكلمة أن تتناوله، أو تحيط بأبعاده.

بل إنه الموقف، الذي يتحدى قدرة الكلمة، ويعري ضعفها، أمام عظمة هذا الكون، الذي خلق فيه الإنسان؛ ليكون وجوده وفناؤه دليلاً؛ تتمثل فيه قدرة خالق هذه العظمة.

وإذا كانت هذه المواقف تملأ أعماق نفوسنا بالحزن ـ فهي تصيب أفكارنا بالضعف، وألسنتنا بالعجز؛ ذلك ما أحسسته يوم سمعت بالنبأ المفجع لوفاة السيد محمد أمين كتبي ـ رحمه الله ـ أحد البقية الباقية ممن جمعوا بين بصيرة العلم، وطهارة السلوك، وجميل الصفات.

ويوم أقول العلم ـ فإن أجيالاً، من أبناء هذا البلد الطاهر، والعالم الإسلامي؛ ممن تلقوا العلم عنه، في رحاب بيت الله الحرام، أو مؤسسات البلد الحرام، يعلمون أن فضيلته ـ رحمه الله ـ كان أحد الذين

(*) ملحق التراث (صحيفة المدينة)، عدد ٦٠٥٠ الخميس ١٤ محرم ١٤٠٤هـ.

لا يبارون في علوم اللغة العربية.

لقد كانت دروسه، في ظلال الكعبة المشرفة، منبعاً عذباً لأولئك، الذين تتطلع عقولهم، وتشرئب نفوسهم للعلم؛ يبحثون عنه في كل موضع، ويرتحلون في بقاع الأرض؛ بحثاً عن مظاهره.

ولم تكن علوم اللغة العربية وحدها، التي تشهد بألمعية وتفرد فقيدنا الراحل؛ بل امتدت ملكاته إلى علوم الشريعة الإسلامية، التي عاش حياته مثالاً حياً لعظمتها، وسماحتها.

ألم يكن هو وصنواه فضيلة السيد علوي مالكي ـ رحمه الله ـ وفضيلة الشيخ محمد نور سيف ـ رحمه الله ـ ثمرة تلك المدرسة، التي غذاها فضيلة الشيخ محمد العربي التباني ـ رحمه الله ـ بعلمه، وشملها باهتماماته، في فناء البيت العتيق؛ حتى أعطت عطاءها الخصب؛ فكان منها حملة علم؛ بلغوا في أماكن متفرقة.

وفي المدرسة نفسها عرف الفقيد بقرض الشعر؛ يقوله التلميذ؛ فيباركه الأستاذ، ولم يكن غريباً ـ بعدئذٍ ـ على التلميذ، الذي أصبح شيخاً جليلاً ـ فيما بعد ـ أن يفخر، بين ثنايا ما تجيش به نفسه، من شعر، بأن يكون شيخه العربي.

لم يكن فقيدنا ـ رحمه الله ـ ناظماً؛ بل كان شاعراً، وإذا كان خلاصة ما توصل إليه النقاد، في العصر الحديث، من أن الشعر، من حيث مفهومه، أصبح رسالة سامية؛ يتنزلها الشاعر من عالم الروح؛ ليؤديها بين الناس؛ فإن شعر فقيدنا كان ممثلاً لهذه الرسالة.

لقد انسابت روحه الشفافة فيما أبدعته ملكته الشعرية؛ فكانت قصائده نشيداً إيمانياً؛ يحمل رسالة الحب والإرشاد.

الشعر الذي يحلق بالنفس في ربوع الهدى، ويطوف بالفكر في أعماق التاريخ الإنساني، ثم يظل؛ من حيث جوهره، شعراً تطرب إليه النفوس، إذا أُنصت إليه، وتردده الشفاه، دون أن تحسّ مللاً في ذلك الترديد.

لقد عرفت شخصه ـ رحمه الله ـ يوم كنت طالباً بكلية الشريعة بمكة المكرمة؛ لقد جلست إليه، يوم تقدمت به السن، ولكنه كان مواظباً على حضور الجماعة في بيت الله الحرام؛ فلم أحظ يومها بالجلوس إليه طالباً منتظماً، ولكنني وجدت ـ في حديثه ونصائحه ـ الصورة الإيمانية، والقدوة الصالحة.

وهذا ما يدعوني ـ اليوم ـ أن أشارك بهذا اليسير، في رثاء هذا المعلم البارز، في حياتنا الفكرية.

ولكنني أعلم أن ثمة جملة من العلماء والمفكرين، ممن هم أجدر مني في تناول هذا الموضوع، قد يشاركون بالكثير؛ ومنهم فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي، والسيد محمد علوي مالكي، والأستاذ عبد العزيز الرفاعي.

رحم الله الفقيد رحمة الأبرار، وجعل في خلفه الخير والعوض.

الحالة الفكرية في الحجاز خلال القرن الثاني عشر الهجري[*]

عمر بن عبد السلام الداغستاني:[1]

قال بعض الباحثين إن من مآثر هذا الشاعر هو عنايته بترجمة معاصريه من أعيان المدينة المنورة في كتابه المعروف «تحفة الدهر ونفحة الزهر من أعيان المدينة من أهل العصر»[2] والذي يعد مصدراً جيداً لمعرفة حلقة من التاريخ الأدبي القريب للمدينة، إلا أن ثمة مأثرة أخرى هي أكثر أهمية مما ذكره له بعض الباحثين من مآثر؛ فقد قاد هذا الشاعر معارضة صريحة ضد بعض الأشراف من حكام تلك الفترة التي تجيء بين أواخر القرن الثاني عشر وأوائل الثالث عشر الهجري، والتي تفاقمت فيها مشاكل الحجاز السياسية.

(*) ملحق التراث (صحيفة المدينة المنورة)، عدد ٥١٧١ الخميس ٢٠ جمادى الأولى ١٤٠١هـ.

(١) أنظر ترجمته في «تحفة المحبين» والأصحاب، للأنصاري: ص ٢٣٠ ـ ٢٣١، ط تونس ـ تحقيق المطوي وفي «حلية البشر» للبيطار ج٢، ص ١١٥، «والشعر الحديث في الحجاز» لعبد الرحيم أبو بكر ص ٧٤ ـ ٧٥.

(٢) مخطوط، ولدي مصورتان له عن نسختي المكتبة العامة بالمدينة، تحت رقم ١٢٨٨، ونسخة طوبقبو سراي تحت رقم ٥١٩ «٣» الشعر الحديث في الحجاز ـ لعبد الرحيم أبو بكر: ص ٧٥ ـ ٧٥.

وإذا كان السيد البيتي، من قبل، يجاهر بانتقاداته لسلاطين آل عثمان ـ فإنه أعطى راية المعارضة، من بعده[1]، لشاعرنا الذي نجد له مطولة يبلغ عدد أبياتها ٦٩ بيتاً؛ يتناول فيها بعض الفتن التي تخللت حكم الشريف سرور بن مساعد، في الحجاز، وهي الفترة الواقعة بين ١١٨٦هـ و١٢٠٢هـ[2].

يبتدىء الشاعر قصيدته بنهج يشذ فيه عن شعراء عصره؛ حيث ينتقد انصرافهم عن المشاركة في تلك الأحداث الجسام، وكلفهم بأنماط الغزل المتكلف الذي يعني برصف الكلمات، ويتعمد إيراد أكبر قدر من أنواع البديع.

يقول:

يا من تولع بالتشبيب والغزل ... وقد صبا في مليح الغنج والكحل
باقي الجمال الذي قد حاز مبسمه ... عقدا من الدر أو خمراً من العسل
كم ذا التصابي إلى نحو الحسان وكم ... تكون صبّاً وأنت عنهم لم تحل
تميل للغيد لا تنفك عن كلف ... بأهيف الغد ذاك الراجح الكفل
تهوى الرشاق الأولى باللحظ قد فتنوا ... تفدي بروحك أهل الأعين النحل
دع التغزل فيهم كم تغازلهم ... وعن مغاني الهوى واللهو فارتحل
وأذكر لمن قتلوا في طيبة بطرا ... ونح عليهم بدمع منك منهمل[3]

(١) توفي السيد البيتي سنة ١١٨٢ هـ ـ ١٧٦٨م، واستمرت الفتن والأحداث بعده في المدينة حتى مطلع القرن الثالث عشر الهجري.

(٢) أنظر تفصيل ذلك في «خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام» ص ٢٠٧ ـ ٢٢٥.

(٣) الأخبار الغريبة ـ للحسيني: مخطوط ص ٨٩.

لقد استطاع الداغستاني بما هيىء له من ثقافة وما أكسبته تجارب التنقل بين بعض البلاد العربية والإسلامية ـ كما يورد ذلك عنه مترجمو حياته ـ استطاع أن يضرب سهماً نافذاً في ذلك الحاجز الذي تهيبت الأجيال، من قبله، من الدنو منه.

يقول شاعرنا في نقد جريء يواجه به الشريف سرور، الذي كان يقف خلف مجريات فتن سنة ١١٩٤هـ وما قبلها:

أما سمعت بما قد صار في بلدة المختار طه المرجّى سيد الرسل:

من محدثات أمور أحدثت فتنا   والناس في شغل منها وفي شغل
جاء الشريف سرور ذو الشرور بها   في جحفل سايل قد سد للسبل
فارتاعت الناس مما رؤوا فزعا   وأسلموا الأمر للرحمن فهو ولي
قالوا عسى تحصل الأفراح منه لنا   ويحصل الأمر فينا غير مغتفل
فأمن الناس تسكيناً لخاطرهم   من المخاوف من مكر ومن حيل
وأظهر العدل والإحسان مقتصداً   كأنه قاصد للخير في القمل
فلم ير عنا سوى مسك الروس وقد   غدا لقلعتنا بالغدر في أمل

ويكشف عن الفظائع التي ارتكبها مناصرو الشريف سرور:

شنوا على القلعة الغراء غارتها   بنهب أسبابها الباقي من الأول
وأخرجوا أهلها منها بظلمهم   بسوء حال وهتك معه متصل
كم قتلوا من صناديد مكرمة   كم قتلوا من شجاع باسل بطل
كم هتكوا عرض ربات الخدور وقد   خرجن من فعلة الأوغاد والسفل
هلكى حفايا عرايا في مكابدة   من بعد ما كن في الأثواب والحلل
أصبن في المال والأهلين مع ولد   وفي النفوس وهذا حكمه في الأزل
رجالهن خذوا أسرى كأنهم   عبيد ملك السود كالجعل

مقدار خمسين في الأغلال قد أخذوا   وأهلهم في عويل غير منفصل
فيا لذلك من يوم قد انفطرت   به القلوب لهذا الأمر والخلل
ترى الأنام حيارى من فعايلهم   عقولهم مثل عقل الشارب الثمل(١)

ونتجاوز عن الجزء الذي يتعرض فيه الشاعر لنهاية المعركة لصالح المتطوعين من أهل المدينة لنتمم إطار الصورة التي رغب شاعرنا، بدون تكلف، أن يرسمها للشريف سرور ورجاله المرتزقة المتعطشين للدماء الطامعين في نهب الخيرات من حوزة هذا المجتمع الذي أنهكت جسده الحروب، وروعت أمنه الفتن، على مدى قرن كامل.

يقول الشاعر مصوراً ذلك المسلك الإنساني الذي أبرزه أولئك المتطوعون، عندما تم لهم النصر على أعدائهم، في تلك الحرب، ثم موقف الشريف من هزيمة هذه الشرذمة، ومحاولته اليائسة الأخيرة، وكيف قضى عليها:

فأخرجوهم بلا ضر ولا نكد   مع الأمان وأجلوهم بلا جدل
فحين استمع ذي الأخبار سيدهم   إنغاظ حتى امتلأ بالهم والعلل
فأرسل الجردة التعساء لا ظفرت   لأهل طيبة في جمع من الهمل
فقابلوهم رجال الحرب في دشم   في معرك من صياح الحرب في زحل
كم أنزلوا فارساً بالعزم من فرس   كم قتلوا منهم يا صاح من رجل
كروا عليهم ففروا حينما علموا   من أن قربهم يدني على الأجل
وذاك في عام ألف من بعد مائة   من قبل أربع مع تسعين إن تسل
بذاك عن طيبة قد زال ملكهم   فهل سمعت بملك غير منتقل(٢)

(١) الأخبار الغربية ـ للحسيني: مخطوط ص٩٠ ـ ٩١.
(٢) الأخبار الغريبة: لجعفر الحسيني: مخطوط ـ ص ٩٢.

الحالة الفكرية في الحجاز خلال القرن الثاني عشر الهجري(*)

الشيخ محمد سعيد سفر(١):

لقد شارك هذا الشاعر بملحمة شعرية بلغ عدد أبياتها ١٥٤ بيتاً، وكان في تناوله لموضوعاتها يتجاوز ما تعارف عليه شعراء عصره من أطر جامدة، أو عاطفة مصطنعة، كزميله السيد البيتي؛ فهما يمثلان ـ بحق ـ نقلة هامة في تلك الفترة، ومهدا ـ فيما بعد ـ لظهور شعراء أفذاذ في الحجاز، كالسيد الأسكوبي، شاعر المدينة السياسي في القرن الثالث عشر الهجري.

يستهل الشيخ سفر مطولته قائلاً:

على بلدة المختار يبكي ويندب ويشكي إلى الله العظيم ويرغب
ويرثي لها مما عراها عدوها ويأنف من تلك الخطوب ويغضب

(*) ملحق التراث (صحيفة المدينة المنورة)، عدد ٥٢٦٥، الخميس ١٣ جمادى الأولى ١٤٠١هـ.

(١) من علماء المدينة المنورة وكبار المحدثين فيها ولد سنة ١١١٤هـ ـ ١٧٧٨م.
انظر ترجمته في «تحفة الدهر» للداغستاني ـ مخطوط ص ١٣٠، ١٣١، و«تحفة المحبين» للأنصاري ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥، و«شعراء المدينة والشعر الملحمي» لعبيد مدني ـ بحوث المؤتمر الأول للأدباء السعوديين: ج ٢، ص ٧٣٩، و«معجم حالة»: ٣٧/١٠.

ثم يقول:

في مائة من بعد ألف وستة ... وخمسين أبدى الدهر هرما منه يعجب
بدت فتنة عمياء فأدهشت ... أولي العقل واحتار الطبيب المجرب
تموج كموج البحر في ظلمة الدجى ... تظن شراباً وهي نار تلهب
وتخدع ذا اللب السليم بمكرها ... وتعبث بالحبر العليم وتلعب
وما جاء في الإسلام قطعا نظيرها ... ولا في قديم الدهر مذ كان يثرب
وإن كان قتل الشيخ أعظم فتنة ... وهتك يزيد للمحارم أغرب
ولكن هذي فتنة مستمرة ... فليس لها من بعد المطالع مغرب

ويصور آثار هذه الفتنة العمياء، وما ارتكب فيها من جرائم فظيعة قائلاً:

وجاسوا خلال الدور ينتهبونها ... فشرق عنها ساكنوها وغربوا
فصارت خلاء وحشة بعد أنسها ... وأرجف فيها المفسدون وأرغبوا
وعطل منها مسجد المصطفى فلا ... يذاع به علم ولا القسط ينصب
ومن عجب منع المصلي دخوله ... وأعداء دين الله منه تقرب[1]

إن الشعر والحرب لا يفترقان، في المدينة المنورة، في هذه الحقبة التاريخية، وبعبارة أدق لقد غيرت الحرب تيار الشعر لفترة معينة، وكان هذا التغيير يتناول اللفظ والمعنى، على حد سواء؛ فإلى جانب حلبة الحرب تقف حلبة الشعر يتنافس فيها الرواد على إبراز الجياد من مطولاتهم، يعكسون ـ من خلالها ـ آراءهم القومية، ويدافعون عن قضايا

(١) الأخبار الغريبة ـ لجعفر الحسيني ـ مخطوط ـ ص ٣٠ ـ ٣٢.

مجتمعهم الذي أصبح فريسة الأطماع المتعددة الناتجة من فساد الأمور الإدارية، وعدم كفاءة من يقبضون زمامها.

يقول الشاعر أحمد الجامي في فتنة ١١٨٩هـ:[١]

إلى م رسول الله يشتد ذا الخطب ... وحتى م هذا الحال والطعن والضرب
وما بال أهل العلم والشرف الأولى ... لهم درجات فوق غيرهم تربو
بها لم يقم لهم وزن وخيامهم ... أشايرها مرفوعة مالها نصب
وكيف بمرأى منك يا سيد الورى ... ومستمع في مسجد يشهر الغضب
ويصدر فيه ما يمج سماعه ... ولا يرتضي ذكراه شهم ولا ندب
كنائس من لم يعبد الله وحده ... لها حرمه فيهم وعنها لهم ذب
فما لأناس مسلمين تجبروا ... على الله في ناديك واستهل الصعب
وأين احترام السر أين افتخارهم ... بنسبته أين المهابة والقرب[٢]

ويرسم الشاعر لوحات زاهرة بالإثارة عن آثار تلك الفتنة في رحاب المدينة الطاهرة؛ فيقول مخاطباً الرسول ـ ﷺ:

فبلدتك الغراء زاه خرابها ... وقامت للدغ الناس حياتها الجرب
وقطعت الأسباب فيها وعطلت ... وحق عليها الحزن والنوح والندب
وصار يحل الأمر خوفاً وحالها ... غداً حالكاً والخلق عمهم الكرب
وجرد سيف البغي والمنكر الذي ... به الله لا يرضى ولا أنت يا حب
إذا كان في حال السجود لجمعة ... وبين يدي من لا سواه لنا رب
تدور رحى الهيجا لا دردرها ... وتطحن ذا ذنب ومن لا له ذنب

---

(١) أنظر تفاصيل القصة في: الأخبار الغريبة ـ للحسيني ـ مخطوط ـ ص ٥٥ ـ ٥٨.

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٦٠.

الحالة الفكرية في الحجاز في القرن الثاني عشر الهجري(*)

الحلقة الأولى

لا يمكننا تقييم الحركة الفكرية والأدبية، في الحجاز، في القرن الثاني عشر الهجري بعيداً عن البيئة الثقافية السائدة في معظم أنحاء العالم العربي والإسلامي أو الجزيرة العربية على نطاق أقرب؛ وذلك لعاملين أساسيين:

أحدهما: إن الحجاز كان يعتبر بالنسبة للخلافة العثمانية مركز الثقل الذي تستمد منه سلطتها الروحية ـ على تلك البقاع المترامية، والتي يوحد الدين بين منازعها واتجاهاتها، حتى في تلك الظروف السيئة التي انساقت إليها الخلافة؛ بسبب التصرفات غير المسؤولة من بعض سلاطين آل عثمان، أو حكام الولايات الذين يحكمون البلاد بعقول ضيقة، وشهوات واسعة؛ ترف في المظهر، سخف في المخبر، لا يفيدهم قانون، ولا يردعهم عدل، ولا يرون للشعوب حقاً ـ إلا أن تؤمر فتطيع، وتنتهب فتصير، بل لا يكفيهم الصبر على المصيبة، وإنما

(*) ملحق التراث (صحيفة المدينة المنورة)، عدد ٥١٣٥، الخميس ٨ ربيع الآخر ١٤٠١/هـ.

يتطلبون المدح والثناء عليهم في ظلمهم وطريقة حكمهم، فمن امتعض من ذلك فهو ثائر، ومن شكا فهو كافر[1].

وثاني هذين العاملين؛ هو أن الرحلة لطلب العلم لم تنقطع عن المدينة المنورة، ومكة المكرمة، فيما يتصل بعلوم الدين واللغة العربية، فينشأ من ذلك التقاء فكري لا تخلو أوجهه من الأخذ والعطاء بين علماء الحجاز وأدبائه، وبين علماء وأدباء الأقطار العربية والإسلامية الأخرى.

لقد نظر مؤرخو الأدب لتلك الفترة نظرة فيها كثير من التعميم الذي يحتاج إلى بيان وتوضيح وتفصيل، وخصوصاً فيما يتصل بالبيئة الثقافية للحجاز، في تلك الفترة التي ظلت ـ حتى الآن ـ مجهولة المصادر لدى كثير من الباحثين الذين انصبت اهتماماتهم على ما توافر لديهم من مصادر مطبوعة لا تكفي لتكون مقياساً عاماً يمكن ـ من خلاله ـ دراسة جوانب الفكر والأدب المختلفة التي تتباين مكوناتها ومؤثراتها من بيئة إلى أخرى.

وممن اتسمت دراساتهم ـ عن هذه الفترة ـ بالأحكام الصارمة التي لم تأخذ بعين الاعتبار أنه في أي عصر يمكن أن يوجد الإنسان ذو الموهبة والقدرة على التجديد، والتخلص من الرسوم البالية ـ من هؤلاء الدكتور شوقي ضيف: يقول في فصل خاص عقده عن العصر العثماني والعقم والجمود في كتابه «الفن ومذاهبه»: «وكأنما جفت في هذا العصر كل الينابيع الممكنة التي كانت تمد الشعر بأسباب الحياة؛ فشاعت فيه الألفاظ العامية والتركية، ويحس الإنسان كأنما أصيبت الأداة الفنية التي رأيناها في العصور السابقة بعطل شديد؛ فقد عم الظلام، وعمت الكآبة، ولم يعد

(١) زعماء الإصلاح في العصر الحديث ـ لأحمد أمين: ٢٧.

هناك إلا جو خانق يشمل كل شيء»[١].

وتبع شوقي ضيف كثير من الباحثين لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث الذاتي: فجاءت أقوالهم صدى لتلك الأحكام المطلقة التي يرفضها ميزان النقد العلمي الذي بدأ يأخذ دوره ـ تدريجياً ـ فيما يصدر من دراسات عن هذه الفترة.

فمن الذين جاءت دراساتهم صورة ممسوخة لآراء شوقي ضيف النقدية تلك الدراسة التي حاول الأستاذ ـ عمر كحالة أن يرصد فيها الحركة الشعرية في العصر العثماني في سطور قليلة لا تفي لبحث فترة تمتد بين ٩٢٣ هـ ـ ١٢٢٠هـ وعندما أقول سطور ـ فإني أعني سبعة سطور فقط خلت من الشواهد والإثباتات التي يسند بها الباحث ما يذهب إليه من رأي، أو يدعيه من قضية، يقول في السطور الأولى من هذه الدراسة: «أما الشعر في العصر العثماني، فقد وقف عند أغراض التسلية، كالألغاز، أو تحقيق مثال لنوع بديعي، ووصف الأمور الهينة الحقيرة كالمروحة، والسبحة، والسجادة، وغير ذلك»[٢].

إلا أن هناك دراسات أخرى شذت عن التعميم الذي أجحف ـ من خلال أحكامه المطلقة ـ بالبيئة الثقافية للجزيرة العربية، في العصر العثماني.

وفي مقدمة الدارسين المنصفين لفكر وأدب هذه البيئة الدكتور طه حسين الذي اطلع على بعض نماذج من قصائد شعراء منطقة نجد في القرنين الثاني والثالث عشر الهجري لتلك الفترة التي اتسمت بالصراعات

(١) الفن ومذاهبه ـ للدكتور شوقي ضيف: ٥١٠.

(٢) الأدب العربي في الجاهلية والإسلام: لعمر كحالة: ١٢٧.

السياسية والفكرية ـ من جراء حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب(١) الإصلاحية.

يقول الدكتور طه حسين معبراً عن رأيه في ذلك الإنتاج الشعري «وفي أثناء هذه الحركة العنيفة ظهر حول الأمراء المجاهدين من أهل نجد جماعة من الشعراء أخذوا يفتخرون بانتصارهم في المواقع ويعتذرون عما يصيبهم من الهزائم وليس من الممكن أن يقال إنهم جددوا في الشعر، وأحدثوا فيه ما لم يكن، ولكنهم على كل حالة عادوا به إلى الأسلوب القديم، وأسمعونا في القرن الثاني عشر والثالث عشر في لغة عربية فصيحة هذه النغمة العربية الحلوة التي لم تكن تسمع من قبل... هذه النغمة التي لا يقلد صاحبها فيها أهل الحضر، ولا يتكلف فيها البديع، وإنما يبعثها حرة، ويحملها كل ما تجيش به نفسه من عزة وطموح إلى المثل الأعلى، ورغبة قوية في إحياء المجد القديم»(٢)

ويستدرك الأستاذ عبد الله بن إدريس على رأي الدكتور طه حسين بما يضيف جديداً للموضوع الذي نحن بصدده؛ فيقول «ولعل الدكتور طه حسين قد فاته أن يذكر أهم العوامل التي واكبت بعث الشعر من جديد ـ آنذاك ـ في ربوع نجد، تلكم هي التفاعلات الشعبية، والنوازع النفسانية التي اضطرم أوراها، بعد ظهور دعوة الشيخ المجدد فيما بين فئات شايعت الدعوة الإصلاحية هذه، وناصرتها بالسيف واليد واللسان، وبين فئات عارضتها وناصبتها العداء، ولكن باللسان واليراع فقط»(٣).

---

(١) محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن أحمد بن مشرف ـ ولد سنة ١١١٥هـ وتوفي سنة ١٢٠٦هـ.

(٢) ألوان ـ للدكتور طه حسين: ٤٦.

(٣) شعراء نجد المعاصرون ـ لعبد الله بن إدريس: ٢٣.

وإذا وجهنا اهتمامنا لبعض مناطق الجزيرة العربية؛ كالساحل الشرقي منها ـ فإننا نجد بعض الباحثين يجزم بوجود ذلك الشذوذ الذي لا تنطبق عليه قاعدة المألوف من الشعر، في تلك الفترة، فهو شعر تتوافر فيه العاطفة المتوهجة، والعبارة التي تبتعد ـ في صياغتها ـ عن التكلف في قصائد بعض شعراء تلك المنطقة...

يقول الدكتور عبد الله الحامد في بحث له عن الشعر، في وسط الجزيرة، في القرن الحادي عشر الهجري: «ولم يكن الحكم على هذا العصر وشعره بالرداءة حكماً صارماً؛ ففي أي عصر يمكن أن يوجد الإنسان والموهبة والقدرة على التجديد، والتخلص من الرسوم البالية، وقد وجد ـ في هذا العصر ـ بعض الشعراء الذين نظموا بعض شعرهم قوياً متوهجاً يفيض بالأصالة والجودة، ولعل شعراء هجر والخط «الساحل الشرقي» أقوى شعراً، وأقوى عبارة، وأقل احتفالاً بالصياغة»[(١)]

الحلقة الثانية[(*)]

كما أسهمت الحجاز بنصيب وافر في ازدهار الشعر في عصوره الذهبية، فهي لم تسلم ـ كذلك ـ من هذا التراجع الذي حلق بالبلاد العربية، ولكننا نرى ـ في خلال القرن الثاني عشر الهجري، ومن بين ركامات تلك الظلمة القاتمة ـ شعاعاً يومض بين شعرائها، أو نخبة منهم ليرشدنا إلى بروز ظاهرة تجتذب الأنظار، وتستحق الدراسة.

---

(١) الشعر في وسط الجزيرة العربية ـ الدكتور عبد الله الحامد ـ ٣٨٥ ـ ٣٨٦، مجلة العرب: ج٥، ٦، س ١٤ ذو القعدة والحجة ـ أكتوبر ـ نوفمبر، ١٣٩٩/هـ ١٩٧٩م.

(*) ملحق التراث (صحيفة المدينة المنورة)، عدد ٥١٥٣، الخميس ٢٩ ربيع الآخر ١٤٠١هـ.

فقد جنح هؤلاء الشعراء إلى تسجيل كبريات الأحداث التي كانت تقع في المدينة المنورة، في قصائد مطولة؛ يلتزمون فيها بحراً واحداً، وقافية واحدة، وتتسم بالإيضاح والشمول، حتى إنك تستطيع ـ بكل سهولة ويسر ـ أن تلم بكل حادثة منها، بعد قراءة القصيدة الموضوعة فيها؛ كأنك تقرأ قصتها نثراً؛ فتعلم دوافعها، ومثيريها، وتطوراتها، وعقابيلها، وتاريخ وقوعها بالسنة، والشهر، ومدة مكثها؛ فهي ـ إذاً ـ ملاحم قائمة بذاتها.

ولكل حادثة قصيدة مستقلة، أو قصائد؛ إذ تعدد الشعراء في وصفها، ويتخلل سرد الوقائع أبيات تتناول موضوعات شتى ذات صلة وشيجة بنطاق الغرض المعنيّ؛ كالالتفات إلى صفحات الماضي القريب، أو البعيد مما فيه عظة ونصيحة المسؤولين، والتحذير من مغبة اطراد الفتن للإمعان في إضفاء الروعة عليها، ولينفذ تأثيرها إلى النفوس»(١).

لقد تخلص شعراء هذه الملاحم من المقدمات الغزلية التقليدية التي ترتمي في أحضان ذكريات الأدب القديم، أو ترديد أسمائها وأعلامها، فهذا السيد جعفر البيتي؛ أحد أعلام هذا الفن في تلك الفترة؛ يفتتح إحدى ملاحمه قائلاً(٢):

المجد تحت ظلال سمر الذبل	وظبا القواضب والجياد القفل
الموريات العاديات ضوابحا	الصافنات الزافرات الجفل
والخوض في غمرات بطنان النوى	يوم التصادم في القتال المسبل
وتوتر العزمات في طلب العلا	والفوز في أقصى فيافي الهوجل

(١) شعراء المدينة والشعر الملحمي ـ السيد عبيد مدني بحوث المؤتمر الأول للأدباء السعوديين: ج٢، ص ٧٢٣ ـ ٧٢٤.

(٢) ديوان السيد البيتي: مخطوطة المكتبة العامة بالمدينة ـ ورقة ١٣١ ـ ١٣٢.

والفخر ما ترك الأعادي خشعاً   رفل المحازم كالجياد العزل
بين الفتى وورود أحواض الردى   لقوا العلاقم في تراقي الحوصل
لا عاش من ترضى المذلة نفسه   طوعاً وعن شاو المفاخر يأتلي
تعست حياة لا تشاب بعزة   غبراء بين مهابة وتذلل
العز أجمل ما اقتناه أولي النهي   والذل بالأحرار ليس بمجمل «أ»

إن من يقرأ هذا الاستهلال الشعري، دون أن يعلم مسبقاً عن الفترة الزمنية التي ينتمي إليها هذا الشعر ـ ليكاد يجزم بأنه شعر يتوافر له من عناصر القوة المتمثلة في صدق الشعور، وجزالة العبارة، والبعد عن الزخارف اللفظية، ما يسلكه ضمن المراحل القوية للشعر العربي؛ إنه ذلك الشعر الذي لا تكاد تصافح عيناك مقاطعه حتى ترتسم في مخيلتك ما يريد صاحبه التعبير عنه.

فهذا الروح الشعري الذي يسري في كلماته يعطيه سمة الحركة التي تعد العامل الأساسي في خلود الكلمة في عالم الشعر، وللتدليل على ما ذكرناه من توافر هذا العنصر الهام في شعر السيد البيتي المتفاعل مع البيئة المحلية، وما يتم على ساحتها من أحداث ـ نورد جملة أبيات أخرى من هذه الملحمة نفسها[1]:

وهناك صبت للمنون صواعقاً   وتسعرت للموت نار القسطل
يوماً أشد من الحديد قساوة   وأمر طعماً من مذاق الحنظل
تركوا النواصي شيباً فكأنه   وقعات جساس بقوم مهلهل
نقبوا عليهم كل دار عنوة   واستخرجوهم منزلاً عن منزل

(١) المصدر السابق ـ ورقة ١٣٢.

وتداركوهم بالردى فتفجرت ... أحشاؤهم مثل انفجار الدمل
فتصاغرت أرواحهم مما جرى ... وجرت دماؤهم كجري الجدول
وتحققوا الموت الزؤوم وسلموا ... للأمر طوعاً خضعاً بتذلل

ومنها[1]:

لو تسأل القبر الشريف غداتنا ... رجفوه بالفعل الفظيع المشكل
لأجاب أن محمداً في طيه متوجع ... من فعلهم بتململ
حاشا لمختلف الملائك أن يرى ... مأوى البغاة وكل وغد مضلل
اللَّه أكبر إنها لمصيبة ... تبدو لغير المبصر المتأمل
تاللَّه ما جعل المساجد معكفاً ... إلا لمثل القانت المتبتل
أف لقلب مؤمن لا يمتلي ... غضباً وطرف جامد لا يهمل

وهذه ليست القصيدة الوحيدة للسيد البيتي التي يخرج فيها على تقاليد الشعر التي سنها الأوائل؛ تماشيا مع ظروفهم الاجتماعية والثقافية، وترسمها الآخرون صناعة لفظية ينعدم معها الإبداع، وتوأد بين ألاعيبها الموهبة؛ وإنما هناك مجموعة زاخرة بروح الشعر وجوهره خلفها لنا السيد البيتي، مع عدد آخر من شعراء تلك الفترة في الحجاز.

فهذه مطولة أخرى أنشأها في فتنة عبد الرحمن آغا الكبير سنة ١٥٥٥هـ ـ يدخل إلى غرضها الأساسي دون مقدمة غزلية مزوقة:

تقول[2]:

تبكي على الدار لما غاب حاميها ... وجر حكامها فيها أعاديها
تبكي لطيبة إذ ضاعت رعيتها ... وراعها بكلاب البر راعيها

(١) المصدر السابق ـ ورقة ١٣٣.
(٢) المصدر السابق ـ ورقة ٥٣.

تبكي لمن هاجروا بالكره واحتملوا		عنها وكانوا قديماً هاجروا فيها
واها لكربتها واها لغربتها		واها لجائعها واها لعاريها
واها لحالي لما أقمت أنشدها		الدار أطبق إخراس على فيها
يا دمنة سلبت منها بشاشتها		وألبست من ثياب المحل باقيها
وقفت فيها أعزيها لكربتها		أعجب على جلدي ـ إني أعزيها
فمن معيني بأحزان يضاعفها		على من لعيوني من يواسيها

ويمضي الشاعر في وصف مأساة المدينة، باستطراد لا يشعر معه القارىء بملل مشيراً إلى عجزه عن التأثير في سير الأحداث، ولكن هذا لا يعفيه أمام ضميره من أقل الواجب، وهو المشاركة الوجدانية المتجسدة في هذا التراث الشعري الذي لم تقو عوامل الفناء على النيل منه؛ لخلود الكلمة الشاعرة فيه؛ وهي تنير أمام الباحثين السبيل لمعرفة الحقائق التي دأب حكام تلك الفترة على إغماض أعينهم عنها؛ انشغالاً بما انغمست فيه أنفسهم من ملذات، وتجاهلاً بتبعات المسؤولية التي فقدت وجودها الحقيقي من قاموس ذلك العصر.

يقول السيد البيتي:[(١)]

وأصبحت الدار قفرا لا أنيس بها		الجن تندبها والإنس ترثيها
أباحها البدو نهبا ثم حرقها		وراح يشقى بها حقاً ويشقيها
أباحها وهو يرجو من حماقته		ثواب أصحاب بدر في مغازيها

إن عظم المأساة لتدفع الشاعر للكشف عن صفحات التاريخ الماضي؛ يستلهم منه القوة، ويدعو بعرض أحداثه للعظمة والاعتبار:

---

(١) المصدر السابق نفسه ـ ورقة ٥٥.

يقول:[1]

يا للكبائر من أدعو فيسمعني ... حتى أصرح عنها أو أكنيها
من للمدينة إذا غصت بريقتها ... ومن يجيب نداها من يلبيها
عادت لنا سيرة تيمور في حلب ... أيام صبيانها شابت نواصيها
ويومه وهو في بغداد يهتكها ... يوم جنكيز بالتتار يرميها
وبختنصر من قبل الذي ذكروا ... في مصر والقدس تقريباً وتشبيها
شأن عظيم مضى في الجور أعظمه ... شأن المدينة من أيدي شوانيها
حوادث ما رآها دنيال ولا ... قصت ملاحمه شيئاً يساويها

إن بعض الباحثين الذين تعرضوا ـ في بحوثهم ـ لجهود السيد البيتي في الحفاظ على وجود الفن الشعري في بيئة الحجاز ترفدهم ـ في ذلك ـ بعض الوسائل أو الوسائط الثقافية المطولات الشعرية؛ ولم تمتد أيديهم إلى هذه المطولات الشعرية؛ فأصدروا أحكاماً تعميمية لا تشمل كل إنتاج السيد البيتي.

فالأستاذ عبد الرحيم أو بكر يعلق على قصيدة لشاعرنا يمدح بها الشريف مسعود[2] قائلاً:

«ثم نجد الشاعر قد افتتح قصيدته بالغزل، واستطرد فيه، وهذه طريقة في إنشاء الشعر لم يشذ فيها عن سيرة معاصريه»[3].

لقد شذ شاعرنا عن هذه الطريقة، في عدد من القصائد، وفي أغراض

(١) المصدر السابق ـ ورقة ٥٥.

(٢) القصيدة في ديوان السيد البيتي ـ مخطوطة المكتبة العامة بالمدينة: ورقة ٢٢.

(٣) الشعر الحديث في الحجاز ـ عبد الرحيم أبو بكر: ص ١١٣.

مختلفة؛ فمن قصيدة يجسد ـ من خلالها ـ معاناته من ظروف بيئية جديدة في مدينة «ينبع» التي انتقل إليها، لفترة محدودة، للعمل بها كنائب عن حاكم المدينة، ويستهلها بقوله[(١)].

رأى البق من كل الجهات فراعه فلا تنكروا إعراضه وامتناعه
ولا تسألوني كيف بت فإنني لقيت عذاباً لا أطيق دفاعه
نزلنا بمرسى ينبع البحر مرة على غير رأي ما علمنا طباعه
نقارع من جند البعوض كتائباً وفرسان ناموس عندما قراعه
فلو عاينت عيناك ميدان ركضه جريت جري القلب فيه شجاعه

فهذه إحدى تجاربه الشعرية ـ من غير مطولاته في أحداث المدينة تكسر فيها القاعدة المتداولة في افتتاح القصيدة بالغزل المتكلف الذي تبارى ـ في حلبة ميدانه ـ معظم شعراء تلك الفترة.

على أن شاعرنا نفسه يقود حملة موجهة ضد شعراء تلك الفترة، لما انصرفوا له من أغراض معينة لا يتجاوزونها ويشير إلى تجرد تجاربهم الشعرية من العاطفة الصادقة التي تنشأ من الالتحام مع التجربة نفسها...

إن شاعرنا يتحسس ـ عن طريق ثقافته الخاصة، وموهبته المتفردة ـ ذلك الداء الذي استشرى في معظم الإنتاج الشعري لتلك الفترة...

إن كلماته لتعكس مدى إدراكه لظروف العصر الثقافية، ليس في البيئة الحجازية وحدها، ولكن على نطاق عام؛ يشمل البلاد العربية التي تلتقي مع بيئته في مكونات ومؤثرات فكرية واحدة.

---

(١) ديوان السيد البيتي ـ مخطوطة المكتبة العامة ورقة ١٧.

يقول شاعرنا معرياً حقيقة أدباء تلك الفترة بوعي وإدراك عميقين:[1]

أدبــاء هــذا الــوقــت بــلــه ... فــي جــلــود الأذكــيــاء
يــتــعــاظــمــون نــفــوســهــم ... وهــم أدق مــن الــهــبــاء
لــو صــورت أشــعــارهــم ... مــا جــئــن إلا كــالــنــســاء
فــعــقــولــهــم فــصــل الــخــريــف ... وشــعــرهــم فــصــل الــشــتــاء
جــمــع الــركــاكــة والــبــرودة ... فــي نــســيــب كــالــعــزاء
مــرضــى الــمــســامــع والــفــؤاد ... كــأنــه زمــن الــوبــاء
تــخــشــى عــلــى الــمــمــدوح يــقــضــي ... مــنــه بــرد الــثــنــاء
يــا غــربــة الآداب ضــاعــت ... بــيــن أظــهــر هــؤلاء

(١) المصدر السابق: ورقة ٩٨.